

# تاريخ الحركة القومية

وتطور نظام الحكم  
في مصر

بقلم  
عبد الرحمن الراغبى بك

## الجزء الأول

( يتضمن ظهور الحركة القومية في تاريخ مصر الحديث ، وبيان الدور الأول  
( من أدوارها في عهد الحملة الفرنسية ، وتاريخ مصر القومية في هذا العهد )

الطبعة الثالثة

١٣٦٧ هـ - ١٩٤٨ م

عن الجزء الأول

٣٥

الناسخ

مكتبة النهضة المصرية

٩ شارع عدلى باشا بالقاهرة ، تليفون ٥١٣٩٤

القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر



# تاريخ الحركة القومية

وتطور نظام الحكم  
في مصر

بقلم  
عبد الرحمن الراغب بك

## الجزء الأول

( يتضمن ظهور الحركة القومية في تاريخ مصر الحديث ، وبيان الدور الأول )  
( من أدوارها في عهد الحملة الفرنسية ، وتاريخ مصر القوي في هذا العهد )

الطبعة الثالثة

١٣٦٧ هـ - ١٩٤٨ م

عن الجزء الأول

٣٥

الناشر

مكتبة النهضة المصرية

٩ شارع عدلي باشا بالقاهرة ، تليفون ٥١٣٩٤

القاهرة

مطبعة الخزانة الملكية والترجمة والنشر





## مقدمة الطبعة الثالثة

يَبْنَتْ في مقدمة الطبعة الثانية ( مايو سنة ١٩٤٤ ) المراحل التي تطوّرت إليها الحركة القومية في تاريخ مصر الحديث ، وبيان الأقسام التي تتألف منها هذه المجموعة ، من الجزء الأول منها ، إلى كتاب « محمد فريد » ، وقلت في ختام هذه المقدمة أنه لم يبق إلا كتاب « ثورة سنة ١٩١٩ » ، ثم كتاب « في أعقاب الثورة المصرية »

وقد أخرجتُ بعون الله كتاب « ثورة سنة ١٩١٩ » في إبريل سنة ١٩٤٦ ، ويشتمل على تاريخ مصر القوي من سنة ١٩١٤ إلى سنة ١٩٢١ ، في جزئين ، يتضمن أولهما شرح حالة مصر وحوادثها التاريخية أثناء الحرب العالمية الأولى ، وبيان الأسباب السياسية والاقتصادية والاجتماعية للثورة ، وتطور الحوادث من بعد انتهاء الحرب إلى شيوب الثورة في مارس سنة ١٩١٩ ، ثم وقائع الثورة في القاهرة والأقاليم ، ويشتمل الجزء الثاني على مهادنة الثورة ، واستمرارها ، ومحاكمات الثورة ، ولجنة ملنر والحوادث التي لابسها ، ومفاوضات سنة ١٩٢٠ ، واستشارة الأمة في مشروع ملنر ، والنبيلغ البريطاني بأن الحماية علاقة غير مرضية ، ثم نتائج الثورة

وفي يولييه سنة ١٩٤٧ أخرجت الجزء الأول من كتاب « في أعقاب الثورة المصرية » ، ويشتمل على تاريخ مصر القوي من إبريل سنة ١٩٢١ إلى وفاة المنفور له سعد زغلول في ٢٣ أغسطس سنة ١٩٢٧ ، ولم يبق إلا الجزءان الثاني ثم الثالث من هذا الكتاب وقد أردتُ من هذا البيان أن يجد القارئ في هذه المقدمة وفي مقدمة الطبعة الثانية أيضاً لأقسام هذه المجموعة ، مرتبة بحسب ظهورها وموضوعاتها ، والله أسأل أن يوفقني إلى إخراج ما بقي منها ، والحمد لله أولاً وأخيراً

عبد الرحمن الرافعي

يناير سنة ١٩٤٨

## فصول الجزء الأول

من هذا الكتاب

- الفصل الأول - نظام الحكم في عهد المماليك
- الفصل الثاني - تطور نظام الحكم في عهد الحملة الفرنسية
- الفصل الثالث - نظم الحكم التي أسسها نابليون في مصر
- الفصل الرابع - المجمع العلمي
- الفصل الخامس - المقاومة الأهلية في عهد الحملة الفرنسية
- الفصل السادس - في البحيرة
- الفصل السابع - في القاهرة
- الفصل الثامن - عود إلى الإسكندرية
- الفصل التاسع - في رشيد
- الفصل العاشر - عود إلى البحيرة ورشيد
- الفصل الحادي عشر - في القليوبية والشرقية
- الفصل الثاني عشر - عود إلى القاهرة
- الفصل الثالث عشر - ثورة القاهرة
- الفصل الرابع عشر - في المنوفية والغربية
- الفصل الخامس عشر - في الدقهية ودمياط
- الفصل السادس عشر - المقاومة في الوجه القبلي
- الفصل السابع عشر - استمرار المقاومة في الوجه القبلي
- الفصل الثامن عشر - وثائق تاريخية
- الفصل التاسع عشر - مراجع البحث

## مقدمة الطبعة الثانية

هذه هي الطبعة الثانية للجزء الأول من « تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر » ، والحركة القومية كما عيبتها وأشرت إليها في مقدمة الكتاب هي الجهود التي بذلتها الأمة في سبيل تحرير مصر من التير الأجنبي ، وفك قيود الاستعباد عنها ، وتقرير حقوق الشعب السياسية ، هي التضحيات التي عانتها ، والآلام التي احتملتها في سبيل تكوين مصر الحرة المستقلة

لقد أتيت لي بعون الله أن أخرج من هذه المجموعة حتى الآن تسعة مجلدات ، تتناول تاريخ مصر القوي الحديث مبحثاً ومعروفاً على ضوء الحركة القومية ، ذلك أن التاريخ الحقيقي للأمم هو تاريخ نهضاتها القومية ، فهي أساس وجودها ، ومبعث تطورها ، ولقد تينبت هذه الحقيقة منذ بدأت أبحث في تاريخ المنفور له « مصطفى كامل » ، إذ وجدت تلازماً وارتباطاً بين تاريخ الحركة القومية والتاريخ الحقيقي لمصر ، ولم أشأ أن أقف بالحركة الوطنية الحديثة عند ظهور « مصطفى كامل » ، بل وجبتها تتألف من أدوار عدة ، يتصل بعضها ببعض ، ويشق بعضها من بعض ، وبذلك تطورت الفكرة في ذهني ، من وضع تاريخ لبطل من أبطال النهضة ، إلى تاريخ للنهضة القومية الحديثة في مجموعها ، وازدحت اعتقاداً مع الأيام بالتلازم التام بين تاريخ الأمة وتاريخ نهضتها ، فمن هذا التلازم يتألف التاريخ القوي ، والنهضة القومية هي معالم لهذا التاريخ ، وينبوعه الفياض ، والتاريخ القوي هو كالرآء ، تنطبع عليها صور النهضة وأطوارها ، وحوادثها وأبطالها ، وأفراحها وأحزانها ، وأهدافها وآمالها

على هذا النحو كان بحثي ، وكانت دراستي ، وإني معترف بأن هذه الطريقة قد وسعمت إمامي آفاق البحث ، فإن دراسة الحركة القومية تقتضي ، إلى جانب استقراء الحوادث في كتاباتها وجزئياتها ، تعرف نظم الحكم التي تعاقبت على البلاد ، والإحاطة بموامل التطور في الأمة كافة ، من سياسية واقتصادية ، وعلمية وأدبية واجتماعية ، ولا يتسنى للباحث أن يلم بتاريخ الأمة إلماً صحيحاً ، ويرسم منه صورة حية واضحة ، ما لم يتبين حالتها في هذه النواحي ؛ وهذا ما دعاني إلى دراستها فيما أخرجت من حلقات هذه المجموعة

يشمل الجزء الأول على ظهور الحركة القومية في تاريخ مصر الحديث ، وبيان الدور الأول من أدوارها ، وهو عصر المقاومة الأهلية التي اعترضت الحملة الفرنسية في أواخر القرن

الثامن عشر وأوائل التاسع عشر ، ووقائع التاريخ القوي في ذلك العهد يليه الجزء الثاني ، وقوامه استمرار المقاومة الأهلية حتى جلاء الفرنسيين عن البلاد ، ونتائج زوغ العامل القوي على مسرح الحوادث السياسية ، خلال الحملة الفرنسية ، وبعد انتهائها ، إلى ارتقاء محمد على الكبير أربكة مصر بإرادة الشعب

على ذلك « عصر محمد على » ، وهو دور مجيد من أدوار الحركة القومية ، ففيه نشأت الدولة المصرية الحديثة ، وفيه تحقق استقلالها ، وتألفت وحدتها القومية بفتح السودان وضمه إلى حظيرة الوطن ، وفيه تأسس الجيش المصري ، والأسطول المصري ، والثقافة المصرية ، ووضعت أسس النهضة العلمية والاقتصادية في البلاد

يليه « عصر اسماعيل » ، وقد جماعته كتابا مستقلا في جزئين ، يشتملان على عهد عباس الأول ، ويصح اعتباره عهد الرجعة والنكسة ، لأن فيه وقفت حركة التقدم ، وقُبرت النهضة التي ظهرت على عهد محمد على الكبير ، فعهد سعيد ، ويمتاز بظهور نهضة وطنية جديرة بأن تُعد من أدوار الحركة القومية ، ثم عهد اسماعيل ، ويتمثل فيه تاريخ مصر القوي في إبان النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، ويُعدّ عصراً هاماً ، له أثر النافع ، كما له أثر الضار في تطور الحركة القومية ، لما تفتحت فيه من آمال ، وما قام فيه من نهضة وعمران ، ثم ما تخلفه واقرن به من أخطاء وأرزاء أدت إلى التدخل الأجنبي وتصدع لما بناء الاستقلال . وإلى عهد اسماعيل ترجع المقدمات الأولى للثورة العرابية ، التي ظهرت أوائل سنة ١٨٨١ ، واستمرت إلى نهاية سنة ١٨٨٢ ، وكانت غايتها تحرير البلاد من التدخل الأجنبي ، ومن الحكم المطلق معاً ، ولكنها أخفقت فيما قامت من أجله ، وجاء الاحتلال الأجنبي في أعقابها ، وقد أفردت لها كتاب « الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزي »

يليه كتاب « مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال » ، ويتناول عهد الانحلال القوي الذي أصاب البلاد في السنوات العشر الأولى للاحتلال ، من سنة ١٨٨٢ إلى سنة ١٨٩٢ ثم كتاب « مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية » ، ويتناول عهد البحث الوطني ، من سنة ١٨٩٢ إلى سنة ١٩٠٨ ، فكتاب « محمد فريد رمز الإخلاص والتضحية » ، ويشتمل على تاريخ مصر القوي من سنة ١٩٠٨ إلى سنة ١٩١٩ ولم يبق إلا كتاب « ثورة سنة ١٩١٩ » ، ثم كتاب « في أعقاب الثورة المصرية » ، وهما تسكل هذه المجموعة ، أسأل الله أن يهيئ لي إتمامها ، وأن يهدينا سبيل الحق والساد ، ويولمنا الإخلاص والرشاد .

## مقدمة الطبعة الأولى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله فاتحة كل خير وتمام كل نعمة

- ١ -

لكل أمة صفحة من الحياة القومية تحتوي تاريخ الجهود التي بذلها والآلام التي عانتها في سبيل حريتها واستقلالها  
تلك الصفحة أول ما تبنى كل أمة بتدوينه ، ففيها ذكريات لجهاد الماضي ، وعبر لجهاد الحاضر ، وعظمت لجهاد المستقبل ، فيها بيان لنصيب الأجيال المتعاقبة في أداء الأمانة القومية ، تلك الأمانة المقدسة ، وديمة السلف للخلف ، وصية الآباء للأبناء  
وهذا كتاب دونت فيه تاريخ الحركة القومية المصرية ، أضغ بين أيدي القراء الجزء الأول منه ، راجياً أن أتبعه بالأجزاء الباقية ، لأحقق أملاً تعلق به نفسي ، وأتم عملاً شرعت فيه منذ سنين

- ٢ -

كان في نيتي من سنوات عدة أن أضغ تاريخاً لتفريد الوطن العظيم للنفور له « مصطفى كامل » على مثال كتاب « بول دُشارنل » عن « جامبينا » ، خدمة للقضية الوطنية ، وأداءً لواجب الوفاء نحو من تلقيت عنه مبادئ الوطنية الأولى  
أعددت مواد الكتاب وكتبت بعض فصوله ، لكن تاريخ مصطفى كامل استتبع الكلام في مبدأ ظهور الحركة القومية بمصر في تاريخها الحديث ، والتطورات التي تعاقبت عليها ، فاستوقفني هذا البحث ، وأخذت أعالج إدماجه في الكتاب ، كفصل من فصوله ، فلم أستطع ، لتشعب الموضوع واتساع مداه ، ورأيت الإيجاز فيه لا يشق غليلاً ولا يؤدي إلى النائية التي أنشدها من وضع الكتاب ، ففتبرت وجهة نظري في العمل ، وتاقت نفسي إلى دراسة أذوار الحركة القومية من يده ظهورها إلى اليوم ، فمزمت على تغيير برنامج الكتاب ، ووضعت له تبويماً يجعل تاريخ مصطفى كامل جزءاً من أجزاءه

إن مصطلقى كامل يمثل دوراً من أدوار الحركة القومية ، سبقت أدوار ، وتلت أخرى ، ولا تكون دراسة الحركة القومية وافية إذا اقتصرنا على عصر واحد من عصورها ، بل يجب أن يتناولها البحث بأجمعها ، من أجل ذلك عزمنا على أن أقرن دراسة هذا العصر بالصور التي خلّت من قبله ، والأدوار التي تلت من بعده ، فإما هي سلسلة متصلة الحلقات من جهاد الأجيال المتعاقبة لتحقيق آمال مصر وإدراك مطمحها الأسمى

- ٣ -

اعتزمت إذن أن أكتب عن تاريخ الحركة القومية في مصر ، فترامت شُقة البحث ، وتشبّت أسمى مسالك العمل ، وطويت أوراق الأولى ، وشرعت أبحث مواضيع الكتاب من جديد ، فأخفت في الرجوع إلى الأدوار التي تقدمت عصر مصطلقى كامل لأقف عند حد يصح اعتباره مبدأ الحركة القومية ، رجعت إلى الحركة العرابية ، فإذا بها ترجع أسياها ومقدماتها إلى حركة الاستياء من نظام الحكم القديم ، وإلى الحركة الفكرية والسياسية التي ظهرت على عهد إسماعيل ، وهذه الحركة الأخيرة لم تظهر فجأة ، ولم تكن الأولى في تاريخ مصر القوي ، بل هي تطور جديد للروح القومية التي بدأت تظهر في البلاد أواخر القرن الثامن عشر ، قال هذا العهد يجب أن يرجع مبدأ الحركة القومية المصرية ، وأول دور من أدوارها هو عصر المقاومة الأهلية التي اعترضت الحملة الفرنسية في مصر ، فإن هذه المقاومة كانت أول شرارة أشعلت جنوة الروح القومية في نفوس المصريين ، وهي أول صفحة من صفحات الجهاد الأهلي في تاريخ مصر الحديث

- ٤ -

بدأ العامل القوي يظهر على مسرح الحوادث السياسية خلال الحملة الفرنسية ، ذلك حين نهضت الأمة لمقاومة الاحتلال الفرنسي بكل ما أوتيت من حول وقوة ، وجادت بكل تضحية ، واحتملت ضروب العنت وصنوف الأذى لتتخلص من احتلال الفرنسيين ، وظل العامل القوي عتفلاً بقوة بعد جلاء الجيش الفرنسي ، فلم يستطع الترك ، ولا المالك ، ولا الإنجليز ، أن يهزموه ، أو يقهروه ، أو يمدوه عن اللبدان ، وكان من نتائجها بعد انتهاء الحملة الفرنسية ثورة الشعب على حكم المالك ، ثم على الوالى التركى ، ثم الماداة بمحمد على والياً مختاراً على مصر ، ثم إخفاق الحملة البريطانية التي جردتها إنجلترا لتحقيق أطعماها في وادى النيل ، وهزيمتها في ( رشيد ) و ( الحاد )

الحركة القومية المصرية يرجع ظهورها إلى مائة وثلاثين سنة ، من ذلك الحين وكلت  
وظهرت ، ثم أخذت في النمو والتطور شأن الكائن الحي ، وتماقت عليها الأنوار المختلفة ،  
فحينئذ كانت قوى ، وآوة تضعف ، وطوراً تشتد وتشتط ، وتارة تخمد وتقر ، على أنها طوال  
هذه السنين سائرة في الجلة إلى الأمام ، ولئن أسألتها أطوار تراجع ، من ضعف أو فتنة ،  
فإنها لا تلبث أن تعود إلى النشاط والتقدم ، مجددة قواها ، منتفزة من التجارب ، طامحة إلى  
المثل الأعلى

يرجع بدء الحركة القومية إذن إلى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر ،  
ولإثبات هذه الحقيقة ودراستها على ضوء الوقائع التاريخية وبحث مقدماتها ونتائجها قد خصصت  
الجزءين الأول والثاني من الكتاب ، فهما تتألف الحلقة الأولى من سلسلة الحركة القومية  
وتمت بحث آخر استقبه تاريخ الحركة القومية ، وهو دراسة نظم الحكم التي تخلفت  
أدوارها ، ذلك أن سياسة الحكم وأساليبه كانت في مختلف العصور والبلدان من الأسباب  
الرئيسية لظهور الانقلابات والحركات القومية ، كما أن لهذه الحركات أثرًا فعالاً في تطور نظام  
الحكم ، بحيث تجد بينهما اتصالاً طبعياً يجعل الاشتراك في مجتهدتهما أمرًا لا مندوحة عنه ،  
لذلك جعلت دراسة نظم الحكم في مصر وتطورها قسماً من أقسام الكتاب ، وأومات إليها  
في عنوانه

على هذا النحو شرعت في بحث أقسام الكتاب ومواضيعه ، ومهدت له بدراسة الحركات  
القومية في أوروبا وأمريكا ، للوقوف على ما بها من حقائق وعظمت ، وما بينها وبين حركاتنا  
القومية من ملاسبات ومشابهات ، ووضعت سنة ١٩٢٢ كتاباً<sup>(١)</sup> في تاريخ النهضة القومية  
في بعض البلدان كقائمة للدراسة الحركة القومية في مصر

ماهي الجهود التي بذلتها الأمة في سبيل تحرير مصر من النير الأجنبي وفك قيود الاستبداد  
عنها وتحرير حقوق الشعب السياسية ؟ ما هي الجهود التي بذلتها والآلام التي احتملتها في سبيل  
تكوين مصر الحرة المستقلة ؟ ما هي الحوادث التي ارتبطت بهذه الجهود أو وقت خلالها وناصرتها  
أو عرقلتها ؟ ما هي الأدوار التي تطورت إليها الحركة القومية من بدء ظهورها إلى اليوم ؟

ما هي نظم الحكم التي تماقت على البلاد في خلال تلك الأدوار وما ميلها أنزها في تطور الحركة القومية ؟

هذا هو موضوع الكتاب ، وتلك هي المسائل التي بحثها جهد الاستطلاع على هذه الحقائق التاريخية

وبعد ، فلست مدعياً في هذا الكتاب أنني وفيت الموضوع حقه وكفايته من الدرس والبحث ، فإنني مقر بأن هذا التاريخ بعيد الأفق واسع المدى يحتاج إلى دراسة مستعيلة في مباحث مستفيضة ، ومؤلفات عديدة ، وحسبك أن تلقى نظرة على ما لا يحصى من الكتب التي ظهرت ولا تزال تظهر إلى اليوم في تاريخ الانقلابات والحركات القومية في مختلف البلدان ، ترى أن كتاباً واحداً لا يمكن أن يفي بتدوين صفحات الجهاد القوى

والآن أقدم لروايتي الأعزاء الجزء الأول من الكتاب ، وأرجو من القارئ أن يتجاوز عما به من زلات القلم وهفوات الكتابة ، والله بعضنا من الشطط والهوى ، ويلهمنا الصديق والإخلاص في خدمة الوطن العزيز

عبد الرحمن الرافعي

أول يناير سنة ١٩٢٩



## إهداء الكتاب

إلى أخى العزيز المرحوم أمين بك الرافى ، من قَدُّهُ أَحوج ما أكون إليه  
وعَظَمته ، إلى ذكره المحببة ، إلى روحه الطاهرة أهدى هذا الكتاب

أهديك يا أخى العزيز كتابى وقد حال الحول وأخفى السام على انتقالك إلى الرفيق  
الأعلى ، ولم كنت أرجو أن أهديه وأنت متى قريبٌ ، فى عالم الدنيا ، أما وقد فرق الموت  
بينى وبينك فلتَقَبَّلْ رَوْحُكَ الطاهرة هدية أخيك الحزين .

اللهم بارئ تلك النفس المأيلة ، ومُرْسِلَهَا من نورِكَ كوكباً إنسانياً ، ومُعِيدَهَا إلى  
جوارِكَ كوكباً أزلياً ، أدخلْ عليها رَوْحاً من عندكَ ، وسلاماً منى ، يا قَرِيبَ السَّامِ

عبد الرحمن الرافى

٢٩ ديسمبر سنة ١٩٢٨

## الفصل الاول

### نظام الحكم في عهد المماليك

يبدأ كتابنا بظهور الروح القومية المصرية في أواخر القرن الثامن عشر وتطور نظام الحكم من ذلك الحين ، على أن من الواجب أن نقول كلمة عن نظام الحكم في مصر قبل ذلك العصر ، أي في عهد البكوات المماليك<sup>(١)</sup> ، لتكون تلك الكلمة بمثابة تمهيد لبيان التطور الذي طرأ من بعد على ذلك النظام

دخلت مصر في حوزة الحكم العثماني ابتداء من سنة ١٥١٧ (٩٢٣هـ) باستيلاء السلطان سليم على البلاد وزوال سلطنة المماليك الشراكسة منها ، فاستتب الفتح العثماني وضع نظام جديد للحكم في مصر وهو النظام الذي رزحت تحته البلاد نحو ثلاثة قرون متعاقبة من سنة ١٥١٧ إلى سنة ١٧٩٨

### من هو الواضع لهذا النظام

إن الفكرة السائدة في هذا الصدد أن واضع هذا النظام هو السلطان سليم ، وهذه الفكرة تراها مبسطة في معظم كتب التاريخ ، وفي رحلات الأفريج الذين ساحوا في مصر في القرنين السابع عشر والثامن عشر ودونوا ما شاهدوه عن نظام الحكومة المصرية ، لكن فرقا من علماء الحملة الفرنسية الذين درسوا هذا النظام أثناء إقامتهم بمصر ينهون إلى أن السلطان سليمان هو الواضع له ، فالسيو فورييه Fourier سكريير المجمع العلمي المصري في عهد نابليون يقول إن السلطان « سليمان » هو الواضع لنظم الحكم التي عرفت في مصر من عهد الفتح العثماني ، وإن السلطان « سليم » لم يكن رجلا من رجال النظم والقوانين ، بل رجل حرب وكفاح ، ولم يطل مقامه في مصر طويلا حتى يضع نظام الحكم فيها ، وإن السلطان سليمان الذي سن للدولة العثمانية نظمها وقوانينها حتى لقب بإقانوني هو أيضا الواضع لنظم الحكم في مصر ، لكن شهرة السلطان سليم في الحرب وكون الفتح العثماني تم على يده

(١) عبرنا عنهم بالبكوات المماليك تمييزا لهم عن السلاطين المماليك الذين تألفت منهم الدولتان البحرية ، والبرية ( الصراكسة )

وذخوله في مصر ظافراً ، كل ذلك جعل الناس ينسبون إليه هذه النظم تساعاً وتجاوزاً<sup>(١)</sup> ، وقد أيد هذا الرأي كل من السيولانكري<sup>(٢)</sup> Lancret والسيو استيف<sup>(٣)</sup> Estevè في دراستهما لتلك النظم<sup>(٤)</sup>

ويقول استيف إن السلطان ( سليم ) لم يكده بشرع في وضع نظام الإدارة المصرية حتى عاجلته ميتته

هذا هو رأى علماء الحملة الفرنسية . ولا يمكننا أن نقبل هذا الرأي على إطلاقه . بل يجب أن نرجع إلى الوقائع التاريخية لتبين مبلنه من الصحة . وهنا يجب أن نرجع إلى المصادر العربية وبخاصة التي شهد أصحابها وقائع الفتح المماني أو عاشوا في عهد الحكم التركي ، وأهم هذه المصادر تاريخ ابن إياس الذي أدرك الفتح المماني ، ومخطوطات ابن أبي سرور البكري التي عاش في عهد الحكم التركي وكتب عنه لثاية سنة ١٠٥٥ هجرية ( ١٦٤٥ ميلادية )

فخلاصة ما ذكره ابن إياس في تاريخه<sup>(٥)</sup> أن مدة إقامة السلطان سليم بمصر ثمانية أشهر إلا أياماً قلائل ، وأنه لما استقر له الأمر في مصر عين وزيره يونس باشا نائباً عنه ، وكان يلقب بنائب السلطنة ، وظل في هذا المنصب فترة من الزمن مدة إقامة سليم في مصر . لكن السلطان ( سليم ) قبل أن يغادر الديار المصرية بدا له أن يزل يونس باشا من نيابة السلطنة ويوسدها إلى « خير بك » . وخير بك هذا هو أحد أمراء السلطان النوري وكان نائبه في حلب لما وقعت الحرب ، فخرج على سيده ، وانضم إلى السلطان سليم وكان من عوامل انتصاره على النوري ، فكافأه سليم على خيائته بتوليته نائباً عن السلطنة في مصر وكان يلقب من عهد النوري بملك الأمراء فلأزمه هذا اللقب بمد تعيينه نائب السلطنة . ويقول ابن إياس إن السلطان ( سليم ) لما رحل من مصر ترك بها من عسكره بالقاهرة نحو خمسة آلاف فارس ومن الرماة بالينادق نحو خمسة آلاف رام . وعين من أمراء جنده خير الدين باشا قائداً للحامية العسكرية وجعله نائب القلعة بقم بها ولا ينزل إلى المدينة . وكان الأمر والنهي لخير بك وسكن القلعة . لكن جنود الحامية ثاروا عليه غير مرة وكادوا يقتلون به . وذكر ابن إياس

(١) انظر كتاب تخطيط مصر Description de l'Egypte وهو مجموعة مباحث علماء الحملة الفرنسية الجزء الأول

(٢) من مهندسي الحملة الفرنسية (٣) مدير الخزانة ثم مدير الشؤون المالية في عهد الحملة الفرنسية

(٤) كتاب تخطيط مصر الجزء الثاني عصر « لإدارة مصر وحكومتها وشرائرها في عهد البكوات المماليك » بقلم لانكري ، والجزء الثاني عصر « النظام للال مصر » بقلم السيو استيف

(٥) الجزء الثالث من تاريخ مصر لابن إياس المعروف بفتح الزهور في وقائع الدهور .

الفتح التي ظلمت التي بين الفريقين والتي شغلت جزءاً كبيراً من نيابة خير بك، ومنها يتبين أن التنازع بين نائب السلطنة (الوالى) ورؤساء الجند قد ظهرت بوادره في أوائل العصر العثماني. وهذا ما كان يرى إليه السلطان سليم من إيجاد سلطتين متنازعتين ليضمن بقاء الفوضى في البلاد ويطمئن على تبعيتها للسلطنة العثمانية

وذكر ابن أبى السرور البكرى « أن السلطان (سليم) اختار من أمراء الجراكسة أربعين أميراً وجعل لكل منهم أربعين عثمانياً وأمر أن لا يكتبوا في سفر ولا سواء غير حراسة الجسور وهم الذين يقال لهم الآن أمراء الجراكسة »<sup>(١)</sup>

يؤخذ من ذلك أن السلطان « سليم » قد وضع فعلاً قاعدة النظام السياسى للحلومه ، وهى إيجاد سلطتين تنازعا من الحكم وراقب كلتاها الأخرى . الأولى سلطة نائب السلطان (الوالى) والثانية سلطة رؤساء الجند . ووضع أيضاً نواة السلطة الثالثة وهى سلطة البكوات المماليك الذين رجع إليهم حكم مديريات القطر المصرى . فمن الحق إذن أن نقول بأن السلطان (سليم) هو واضع نظام الحكم السياسى فى مصر من عهد الفتح العثمانى . أما النظم المالية والقضائية فهى فى مجموعها من وضع السلطان سليمان لأنها احتاجت زمناً طويلاً حتى استقرت قواعدها . ولم يكن لدى السلطان سليم من الوقت ما يجعله يقرر هذه النظم

### نظام الحكم السياسى

والآن فلنتكلم تفصيلاً عن السلطات الثلاث التى كانت أساساً لنظام الحكم السياسى من عهد الفتح العثمانى

الوالى — فالسلطة الأولى هى سلطة الوالى العثمانى . ويلقب بالباشا ومقره القلعة . وهو نائب السلطان فى حكم البلاد . كان يثله ويبلغ أوامره لرجال الحكومة وراقب تنفيذها ؛ وله الرئاسة على عمارها ، على أن سلطته محدودة مقيدة . ذلك أن السلطان (سليم) خشى بعد مصر عن مركز السلطنة أن يطمح ولاها إلى الاستقلال بها والخروج على حكومة الاستانة ، فجعل مدة الوالى سنة واحدة تنقضى ولايته بنهايتها ما لم يصدر فرمان بتجديدها لسنة أخرى

رؤساء الجند — والسلطة الثانية هى سلطة رؤساء الجند وهم قواد الفرق التى غادرها فى مصر بعد احتلالها . كانت الحامية العثمانية التى تركها السلطان سليم تتألف فى بدء الفتح العثمانى من نحو اثني عشر ألفاً وظبقهم حفظ النظام فى القطر المصرى والدفاع عنه وكانوا

(١) الروضة للأئمة فى أخبار مصر المحروسة لابن أبى السرور البكرى

موزعين بين القاهرة وأهلي مدن القطر ومتمظنين في مت فرق تسمى كل فرقة « وفاق » . لكل وفاق اسم خاص . وإليك بيان أسمائها :

« وفاق المتفرقة » المؤلف من خيرة حرس السلطان ، و « وفاق الانكشارية » ويسمون بالمتحفطان ( المستحفظين ) لاعتد إليهم في حفظ الأمن ، و « وفاق العزب » ، و « وفاق الشاوشية » ، و « وفاق المجانة » ، و « وفاق التفكجية » ، وأضاف إليهم السلطان سليمان وفاقاً سابها وهو وفاق الشراكة

وكان لكل فرقة ضباط يسمون « الوجاقية » نسبة إلى وفاق . وهذه الكلمة سبغت ذكرها كثيراً في فصول الكتاب . فكبيرهم يسمى « الأغا » أى رئيس الفرقة . ونائبه ويسمى الكخيا أو الكتخدا . وأقدم الضباط ويسمى « باش اختيار » . والبقدرار ، وهو مدير الشئون المالية ، والنازدار أى أمين الخزانة ، والروزنجى أى حافظ السجلات . ومن اجتماع أولئك الضباط أو « الوجاقية » يتألف مجلس شورى الباشا المسمى ( بالديوان ) ولهذا الديوان سلطة كبيرة في إدارة الحكومة ، لأن الباشا ( الوالى ) لا يستطيع أن يبرم أمراً إلا بجواعة أعضائه ، وإذا وقع خلاف بينه وبينهم يؤجل البت فيه إلى أن يرفع إلى الاستانة ، ولهم أن يطلبوا عزله ، فكانت سلطة ضباط الفرق بمثابة رقابة وإشراف على سلطة الوالى ولما مات السلطان سليم أنشأ السلطان سليمان بدل مجلس شورى الباشا ديوانين . الأول الديوان الكبير ، والثانى الديوان الصغير ؛ فالديوان الكبير مؤلف من رؤساء الفرق ( أغواتها ) ودقتراريها ورزناجيها وأمير الحج وقاضى مصر ورؤساء المشايخ والأشراف ورؤساء المناهب الأربعة . ولهذا الديوان سلطة البت في شئون الحكومة الرئيسية ، وله نقض أوامر الوالى ، ولا ينتقد إلا نادراً بأمر الوالى

والديوان الصغير ، أو الديوان فقط ، ويتألف من كتخدا ( نائب ) الباشا والدقترار والروزنجى ومنسوب عن كل وفاق ، والأغا ( الرئيس ) وكبار الضباط من وفاق المتفرقة و « وفاق الشاوشية » . وينتقد كل يوم في قصر الوالى وينظر فيما يحتاج إليه البلاد . وكان الباشا يبلغ أموره للديوان الكبير والديوان الصغير وساطة كتخدائه ( نائبه ) وعليه تنفيذ قرارات الديوانين . وكان يحضر جلسائهما من وراء ستار دون أن يشترك في مداولاتهما . وقد صاير وفاق الانكشارية مع الزمن أهم الوجاقات فكان رئيسه المسمى ( أغة الانكشارية ) بمثابة القائد العام للحامية العسكرية <sup>(١)</sup> . وما يحجر ملاحظته أن الوجاقات بعد أن استقرت في

(١) كلمة « انكشارية » مأخوذة من الكلمة التركية « ين كرى » أى الجند الجديد ، والتكاف التركية تطلق نواتج والمجيم المسطحة تطلق شيئاً . وابن أبى السزور الكبرى يكتبها « ينكجربة » وكذلك =

البلاد انتظم فيها كثير من المصريين ودخلوا في عدادها فصار لها مدينة عملية ومخاضة بعد أن انصرفت تركيا في عهد قهقرها عن إرسال الجنود إلى مصر ، فقد المصريون على توالي السنين الفراغ الذي حدث في صفوف الحامية الثمانية ، ومن بقي منها استوطنوا مصر واندجبت سلالهم في أهلها ، ويلاحظ أيضاً أن عدد الوجاقات قد تناقص مع الزمن أو اندمج بعضها في بعض . فقد كتب للسيو دي مايلييه De Maillet قنصل فرنسا في مصر في أواخر القرن السابع عشر<sup>(١)</sup> وأوائل الثامن عشر بياناً عن الوجاقات التي شاهدها في ذلك العصر ، ووصفها كما رأها فقال إنها خمس وجاقات وهي :

١ - وجاق التفرة ، وذلك أفرقها أسولا ، وإن كان أقلها أهمية وعدده من ألف إلى ألفين من الفرسان وهو مؤلف من حرس البابا وبعض البكوات وبعض سراة التجار الذين يناصرون البابا ويتبعون إليه . ومن بعض الأجناد الذين انفصلوا عن الوجاقات الأخرى . ومعظم أفراد هذا الوجاق ليسوا من الجنود المدربين على القتال

٢ - وجاق العزب ، وهو من المشاة وعدده يتراوح من ثلاثة إلى أربعة آلاف ، وهو دائم التنافس مع وجاق الانكشارية

٣ - وجاق الأسبانية ، وم الفرسان وعددهم نحو ثلاثة آلاف ، وهذا الوجاق مستقل عن البابا

٤ - وجاق الشاوشية ، وهو مؤلف من المشاة وعدده لا يتجاوز خمسمائة وقيمهم كتيبتيان من الجنود لا يتجاوز عددهم خمسمائة أيضاً ، منهم بعض النساء اللاتي مات أزواجهن في الحملة العسكرية

٥ - وجاق الانكشارية ، وهم مستقون عن الوالي ولم في القلعة بمسكن منفصل عن قصره ، ولهذا الوجاق استقلال حتى عن السلطان ، وله نفوذ كبير وسلطته واسعة . وله أملاك في مصر وينخرط في سلوكه كثير من التجار والأعيان ، وله عليهم آثارات وعوائد يدهونها له . ونظامه قريب الشبه بنظام طلائفة « فرسان مالطه »<sup>(٢)</sup>

== الجبرق . ويقول ابن أبي السرور في كتابه « الروضة المانوسة في أخبار مصر المحروسة » عن أصل كلمة « أغاة النيكجيرة » إن السلطان سليم لا يخرج من مصر « قرر من أمهاته شخصاً يقال له خير الدين باشا جيله نائب القلعة قيم بها ولا يتزل المدينة وهو الآن في زمانا يسمى « اغاة النيكجيرة » وكتاب الروضة المانوسة تنتهي حوادث سنة ١٠٥٥ هجرية (توافق ١٦٤٥ ميلادية) في هذا الزمن إذن كان رئيس وجاق الانكشارية أو « أغاة النيكجيرة » هو قائد عموم الجند في مصر ثم صار أيضاً مع الزمن بمثابة محافظ القاهرة

(١) في كتابه وصف مصر - رسائل السيو دي مايلييه De Maillet قنصل فرنسا في مصر سنة ١٦٩٢

(٢) انظر الكلام عن « فرسان مالطه » في الفصل الثاني

ويقول الرحالة فانسليب<sup>(١)</sup> Vansteb الذى جاء مصر سنة ١٦٧٢ إن الوجقات السنج لم يبق منها الا خمس وعدد أسماءها عالا يـخرج عن رواية دى مابليه De Maillet وإن وجقات الأسباهية تشمل ( الهجانة ) والتفكجية والشرافة

الماليك — أوجد السلطان سليم بجانب سلطة الوالى ورؤساء الجند سلطة ثالثة تحفظ الموازنة بين الامتين وهى سلطة الأمراء الماليك الذين قنموا طاعتهم للسلطان فمبهم حكاما لمديريات ويسمبهم الجبرى « الأمراء المصرية »

كانت البلاد مقسمة إلى مديريات أو ( أقاليم ) تسمى كل مديرية « إقليا » أو « سنجقية » بحكم كلامها حاكم يقال له « سنجق » أو بك يمينه ديوان مصر من بين أمراء الماليك

إن الماليك الذين أقرم السلطان سليم حكاما لمديريات مصر هم بقايا اللولتين اللتين كان إلهما الحكم فى مصر على التماقب نيقا و٣٦٧ سنة ، فالأولى هى دولة الماليك البحرية ، وأصلهم من سكان أواسط آسيا وشمالها الذين كان التار يفزون بلادهم فيفنون أسرى فى أيديهم أو يفرون من بلادهم فيتفرون فى الأقطار ويباعون فى أسواق الرقيق ، وكان الملك الصالح نجم الدين الأيوبى أحد سلاطين الدولة الأيوبية قد استكثر منهم وجعلهم خاصة جنده وحاشيته واتخذ منهم أمراء دولته وأسكنهم جزيرة الروضة بالنيل وبنى لهم قلعة وقصورا بالقرب من القياس ، وكان النيل يسمى عند نقطة تفرعه بالبحر لعظم اتساعه ، ولذلك سمي هؤلاء الماليك البحرية ، وهم الذين حكموا مصر من سنة ١٢٥٠ إلى سنة ١٣٨٢

والثانية هى دولة الماليك البرجية ؛ وأصلهم من بلاد الشركس والقوقاز وسبب تسميتهم البرجية أن المنصور قلاوون أحد سلاطين الماليك البحرية عهد إليهم حاية القلاع والحصون وأسكنهم فى الأبراج قسموا البرجية ويسمبهم بمض المؤرخين ملوك الشرافة نسبة إلى أصلهم ، وهم الذين تولوا سلطنة مصر من سنة ١٣٨٢ إلى سنة ١٥١٧ واقترضت دولهم بالفتح العثمانى

فالماليك من بقايا هاتين اللولتين هم الذين أقرم السلطان سليم على حكم مديريات القطر المصرى وجعل منهم السلطان سليمان ٢٤ بيكا أو سنجقا تتألف منهم الإدارة المحلية للبلاد . فبهم حكام المديريات « السناجق »<sup>(٢)</sup> ومنهم بمض كبار موظفى الحكومة وهم « الكشخيا »<sup>(٣)</sup>

(١) رحلة فانسليب فى مصر سنة ١٦٧٢ — ١٦٧٣

(٢) سبوا سناجق لأبهم عند رفضهم إلى هذه المرتبة كانوا يقبلون بريقا أو سنجقا شارة للبرية

(٣) الكشخيا محررة عن كلمة كشتخا ومعناها الوكيل أو النائب

أى نائب الوالى : «و العتق دار» ووظيفته إدارة الشئون المالية وضبط المخرج والخل ، ويبدع سجلات ملكية الأراضي وهذه السجلات حجة الملكية وانتقالها . وكانت وظيفته تشبه وظيفة وزير المالية

والروزنامى ووظيفته إدارة المخرج<sup>(١)</sup> وضبط حساباته

وأمر الحج ووظيفته مرافقة الحجاج وتوزيع الصدقات والمنداياء التى ترسل سنويا إلى الحرمين الشريفين

والتأزندانر ( أمين الخزنة ) ووظيفته حمل المخرج سنويا إلى الاسكندنة والقبودانات الثلاثة قباطين ثنور دمياط والسويس والاسكندرية وكانت هذه الثنور على جانب عظيم من الأهمية لأنها بمثابة أبواب مصر

ومنهم البكوات الخمسة حكام مديريات جرجا والثرية والشرقية والمنوفية والبحيرة ، أما مديريات القليوبية والمنصورة والجيزة والنيوم فكان حكامها يسمون الكشاف<sup>(٢)</sup> وهم وكلاء البكوات فى حكم المديريات ، والكشاف وإن كانوا أقل مرتبة من « السناجق » إلا أن سلطتهم واحدة

وكان لكل مديرية ديوان خاص بها مؤلف من الشورىجية وغيرهم من الوجاقية (ضباط الفرق) يستشيرهم البيك أو الكشاف ، ولكن العمل جرى على غير ذلك ، فلم يكن تحت دواوين ولا استشارة

وكان تعيين الكشغدا وقباطين ثنور دمياط والسويس والاسكندرية يصدر به رأساً مرسوم من السلطان ، أما باقى البكوات والسناجق فيعينهم الديوان بتصديق الوالى نيابة عن السلطان . وإذا خلا مركز أحد البكوات عين بدله من بين الكشاف

والظاهر أن عدد البكوات كان يتقص فى بعض الأزمنة عن ٢٤ بيكا ، فقد ذكر الرحالة فانسليب Vansleb الذى ساح فى مصر سنة ١٦٧٢ أن عدد البكوات الذين كانوا يحصر فى ذلك

(١) ضرائب الأتليان أو أموال الميرى

(٢) كلمة كشغف مأخوذة من فعل كشف لأن الأصل فى وظيفة الكشاف أن يكشفوا أسرار المديريات ، ولما تمت سلطتهم وصار إليهم الحكم وأخذوا المديريات التزاما فى الاسم القديم ملازما لهم وصار الكشاف يحكم المديرية أو جزءاً منها باسم البيك .  
فالكشاف هو بمثابة ( المدير ) اليوم إذا كان يحكم المديرية كلها وبمثابة وكيل المديرية أو مأمور المركز إذا كان يحكم جزءاً منها



المهد ١٦ بىكا ، ويقول السيو سوتيني Sonini الذى ساه فى مصر سنة ١٧٧٧ إن عدد تم  
قص فى القرن الثامن عشر (١).

ويقول الجيرى إن السناجق ساروا ٢٤ سنة ١١٣٥ هجرية (١٧٢٣ ميلادية) وإنهم  
كانوا قبل ذلك اثنين وعشرين سنجقاً (٢).

### تطور هذا النظام وانفراد المالك بالحكم

لم يستمر نظام الحكم السياسى كما وضعت قواعده من عهد الفتح العثمانى ، ولم يكن للديوان  
الكبير ولا للديوان الصغير عمل منظم فى إدارة الحكومة ، بل تركت البلاد تنقسمها أهواء  
رؤساء الجند والولاة. وإنهز المالك فرصة استعمار التنازع والحروب بين الفريقين فأخذوا  
يعملون على الانفراد بالحكومة ، فنظام الحكم السياسى فى مصر قد تطور مع الزمن ، واتسعى  
التنافس بين السلاطات الثلاث إلى تقلب سلطة البكوات المالك

حدث هذا التطور فى النصف الثانى من القرن السابع عشر . فاستأثر المالك بالنفوذ  
والحكم ، وساعدهم على ذلك ما سارت إليه السلطنة العثمانية من الضعف فى أواخر القرن  
السابع عشر وأوائل الثامن عشر بسبب حروبها المتواصلة واختلال شؤونها الداخلية وفساد  
نظام الحكم فيها ، وزاد فى نفوذهم كثرة تغيير الولاة العثمانيين وعزلهم فضعف شأنهم وتراجع  
نفوذهم فى حين أن المالك احتفظوا بمصيبتهم بما استكفروا من الجند والأتباع الذين كانوا  
يشتركونهم من بلاد الشركس والقوقاز والكرج ، واستأثروا إلى جانبهم أفراد الحامية العسكرية  
إذ كان رجال « الوجاقات » قد استوطنوا مصر واستقروا بها وأندجوا فى أهلها واقتنوا  
الأماكن وتأصلوا فيها ، فضعف ارتباطهم بصاحبة السلطنة العثمانية . وكانت إدارة الحكومة  
المدنية والمالية بيد المالك ، وإلهم توزيع الأعطية والأرزاق على الجنود . فصار هؤلاء تبعاً لهم  
بحكم الروابط المادية ثم صار رؤساء الوجاقات وأغلب ضباطها من المالك ، فانحصرت السلطة  
العسكرية والمدنية فى أيديهم . واتصل ضباط الوجاقات وأفرادها بالمالك بأواصر الصاهرة  
ولحمة القرى فأصبحوا ضمن حزبهم ، ومن أهلهم وعشيرتهم وأتباعهم ، بيد أن كانوا معددين  
لحربهم وإخضاعهم ، فتلاشت سلطة الولاة العثمانيين وعظم نفوذ البكوات المالك واسترجعوا  
مع الزمن سلطة الحكم التى كانت للسلطين البحرية والشراسة . وصار لرئيس المالك

(١) رحلة فى مصر العليا والوجه البحرى سنة ١٧٧٧ بقلم سوتيني

(٢) الجيرى الجزء الأول

التي يختارونه زعيما لهم ويلقبونه « شيخ البلد » النفوذ الذي لا يمارض والكلمة التي لا ترد ، وصارت « مشيخة البلد » بمثابة إمارة مصر . وعيّن المالك بالولاية وأخذوا يزلون من لا يرضون عنه . فإذا اجتمعوا على عزله أخذوا إليه رسولا اسمه « أوده باشي »<sup>(١)</sup> (من ضباط الوجقات) ينهب إليه حاملا قرار الديوان بزمه فيدخل إلى مجلسه ويحييه بكل احترام ثم يثني طرف السجادة التي يجلس عليها الباشا ويعلن إليه قرار العزل بقوله « إزل يا باشا » ، فتكون هذه الكلمة بمثابة أمر الخلع . وينزل الباشا من القلعة ويصبح كأحد الأفراد لا حول له ولا طول . وصارت القلعة في خلال القرن الثامن عشر بمثابة السجن للبشوات الذين كانت تعينهم تركيا ولاية لمصر . وأصبح الديوان مؤلفا من الأربعة والعشرين بيكا الذين كانوا زعماء للمالك . وعيّن المالك أيضاً بالجزيرة فكانوا لا يدفعون منها إلا ما يروق لهم دفعه ويقطعون منها ما يشاءون بحجة الإنفاق على مصالح البلد

قال الرحالة فانسليب Vansleb يصف ما شاهده في مصر سنة ١٦٧٢ من استئثار المالك بالحكم :

« إن كلمة البكوات في الديوان كانت نافذة بحيث لم يكن الباشا يخالف لهم أمراً ، وكانوا يملكون عزله »

وقال المستشرق مارسيل Marcel : « انحصر تاريخ مصر من منتصف القرن السابع عشر إلى آخره في تعاقب الباشوات على ولايتها فتولاها ٢٢ والياً لم يكن لهم شأن يذكر في حكومتها ، فكان الواحد منهم يشتري منصب الولاية من ديوان الاستانة ويبقى شاغلا هذا المنصب عاماً أو عامين ولا يستقر هذه اللذة في منصبه إلا إذا ترك الأمور للبكوات المالك الذين كان منهم شيخ البلد وهو الحاكم القلعي للبلاد ويظل الباشا في منصبه لا عمل له إلا جمع المال واستسفاؤه من أهله يختلف وسائل النهب إلى أن ينفذ منصبه ، وهو في التناوب لا يخرج منه إلا مسجوناً أو مطروداً أو منفياً أو مقتولا »

### موظفو الحكومة في عهد المالك

تمثل السلطة الفعلية للحكومة في « شيخ البلد » فهو كبير المالك ورئيس الحكومة المحلية ، والباشا (الوالى) بجانبه لا حول له ولا قوة ، ويليهِ في الأهمية أمير الحج ، ويليها

(١) اسمه عند العامة « أبو طيق » لأنه كان يلبس فوق رأسه لبادة سوداء كالقبعة ولها حافة تشبه الطبق

« الدفتر دار » أو مدير الشئون المالية ، فالروزنامجي وهو مدير إدارة الخراج ، فكشخدا الباشا وهو وكيل الوالى وكاتم أسرارہ ، ولى هؤلاء البكوات حكام الديريات وأولهم حاكم جرجا وتمتد سلطته من المنيا لأسيوان ، فباق موظفى الحكومة الممتازين كالخزندار ، ومترجم الديوان ، وأمين الضربخانه ( دار الضرب التى تسك فيها النقود )

وأغاوات ( رؤساء ) الوجاقات . والمعارجى باشا . ووظيفته مباشرة بناء المعارات التابعة للحكومة وترميم القلاع

والقاغله باشى ، ووظيفته التفتيش على القوافل القادمة إلى مصر أو الصادرة عنها وأمين الاحتساب أو المحتسب ووظيفته مراقبة الأسواق والتفتيش على الباعة والتجار لمنع وقوع النش فى المعاملات وأمين المنابر وهو مدير المخازن التابعة للحكومة التى تخزن فيها الغلال من الضرائب التى تؤخذ نوعا

وسردار جرجا وهو نائب البك حاكم جرجا

وقومندانات ( اغاوات ) القلاع

ولولة الشرطة الثلاثة فى القاهرة ومصر القديمة ووظيفتهم إدارة قوة الدرك ويمى تشبه وظيفة حكامدار البوليس ويسمى الواحد منهم « الوالى » وأفندة الروزنامة أى كتاب إدارة الخراج

### سياسة على بك الكبير

يتبين بما تقدم أن إدارة الحكومة العسكرية والمدنية كانت فى يد المالك من أواخر القرن السابع عشر ، وقد ساعد على الاستئثار بالحكم تهقر السلطنة العثمانية وانصرافها إلى محاربة النمسا والروسيا خلال القرن الثامن عشر ، فطمعت نفوسهم إلى التخلص من تركيا والاستقلال بمصر . وظهرت هذه السياسة جهرة فى عهد على بك الملقب بالكبير . وهو مملوك وصل بقوة أشياعه وأتباعه إلى مشيخة البلاد سنة ١٧٦٣ وطمعت نفسه إلى الاستقلال بمصر . فلما نشبت الحرب بين تركيا والروسيا سنة ١٧٦٨ جاهر بخلع يده من طاعة الدولة وأعلن استقلال مصر ، وامتنع عن دفع الخراج سنة ١٧٦٩ ( ١١٨٣ هـ ) ، وعزل الوالى التركى

ومنع ورود الولاة العثمانيين ، وضرب النقود باسمه<sup>(١)</sup> ودانت له مصر بحريتها وقبلها ، وكان من مماليكه وأتباعه أحمد ( باشا ) الجزائر ومحمد بك أبو الذهب وإسماعيل بك وحسن بك المداوى وإبراهيم بك ومراد بك وغيرهم ممن كانت لهم الأدوار الكبيرة على مسرح الحوادث كما سيأتى ذكره فى فصول الكتاب

وكان على بك طموح النفس واسع الطامع ، فجرد الجيوش وفتح معظم جزيرة العرب ونادى به شريف مكة ( سلطان مصر وخاقان البحرين ) وأوفد محمدا بك أبا الذهب ليفتح باسمه سوريا ففتح معظمها . لكنه لم يكد يتم له فتح دمشق حتى اقلب على بك واتفق مع الباب المالى وعاد إلى مصر ليستأثر بالحكم فيها . وقامت الحرب بينه وبين سيده وانتهت بقتل على بك سنة ١٧٧٣ وعادت مصر ولاية عثمانية وخلصت إمارتها لمحمد بك أبى الذهب واستقر ( شيخا البلد ) وكافأه تركيا بفرمان تثبيتته فى مشيخة البلد وتوليته حكم مصر . وصار له الأمر والنهى فى البلاد ورجعت تركيا إلى إرسال الولاة كما كان الأمر قديما

غير أن الولى كان معجورا عليه مسلوا حوله وقوته ومحمد بك أبو الذهب يختار الولى الذى يرتضيه ، والأسماء وقواد الجند وأعيان الدولة كافة مماليكه وأتباعه إلى أن مات سنة ١٧٧٥ م ( ١١٨٩ هجرية ) خلفه فى مشيخة البلد إبراهيم بك وقاسمه السلطة مراد بك ، ثم وقت فتنة بين المالك تولى على أثرها إسماعيل بك مشيخة البلد لكنه لم يلبث فيها إلا قليلا ثم خلفه إبراهيم بك ومراد بك وعادا إلى اقتسام سلطة الحكم ثانية ، وكان إبراهيم بك شيخا للبلد فكانت له الرئاسة ، ثم حاولت تركيا أن تسترجع سلطانها فى مصر فجرت سنة ١٧٨٦ حملة عسكرية بقيادة القبودان حسن باشا الجزائرى انتهت بفرار إبراهيم بك ومراد بك إلى الصعيد ، وعاد إسماعيل بك إلى مشيخة البلد . لكن نشوب الحرب بين روسيا وتركيا صرفها عن الاستمرار فى محاربتهم . ورجع حسن باشا إلى الاستانة ثم مات إسماعيل بك بطاعون سنة ١٧٩١ ( ١٢٠٥ هـ ) وعادت السلطة إلى إبراهيم بك ومراد بك وتلاشى بجانبهما نفوذ الولى واستقر إبراهيم بك شيخا للبلد إلى أن جاءت الحملة الفرنسية سنة ١٧٩٨

وخلاصة ما تقدم أن مصر فى خلال العصر العثمانى كانت ولاية عثمانية تتنازع الحكم فيها السلطات الثلاث التى تكلمنا عنها ، ثم آل الحكم فيها فى أواخر القرن السابع عشر إلى البكوات المالك ، فصارت من جهة نظام الحكم السياسى أقرب ما تكون شيئا بالملكيات المستقلة

(١) يلاحظ على هود على بك الكبير أنه منقوش عليها سنة ١١٨٣ هجرية وهى السنة التى جهز فيها باستغلا عن تركيا

التابعة الآن للإمبراطورية البريطانية والمعروفة بالدومنيون ، مع الفرق العظيم الذى تتناز به المستعمرات الإنجليزية بأنها تتمتع بحكم دستورى قائم على قاعدة سلطة الأمة ، فلحاكم الإنجليزي فى المستعمرات المستقلة ليس له نفوذ أكبر مما كان للوالى العثمانى فى مصر ، لكن سلطة الحكم فى تلك المستعمرات مستقرة على نظام نيابى يحمل للشعب الأمر والنهى فى شئون البلاد الداخلية ، أما مصر فكان زمام حكومتها إلى طائفة المالكى وفى أيديهم ، وليس للشعب عليهم من نفوذ أو سلطان

## مظاهر الحكم فى ذلك العصر

كما وصفها شهودها

بينما فيما تدم القواعد العامة لنظام الحكم فى مصر ، والآن نضع أمام القارئ سورة لبعض مظاهر ذلك الحكم قلا عن شاهدها ووصفوها من شهود البيان

كيف يعين الولاة

قال المسيو دى مايه De Maillet قنصل فرنسا فى مصر سنة ١٦٩٢<sup>(١)</sup> :

« إن مصر يحكمها أحد الباشوات يعينه السلطان ، ومدة ولايته سنة واحدة ويجوز تجديدها ، وجرت المادة أن تدوم ولايته ثلاث سنوات ، واستمر بعض الباشوات فى الولاية أربع سنوات والبعض لم يبق بها إلا سنة أو سنتين ، وولاية مصر من أهم ولايات السلطنة العثمانية ، ولذلك لا يحصل عليها الباشوات إلا فى مقابل أتاوة من المال ، والباشا يدفع على الأقل من أربعائة إلى خمسمائة ألف ريال قبل أن يصل إلى القاهرة ، ولا يوفق الباشا إلى تجديد مدة ولايته سنة أخرى دون أن يرسل للاستانة هدايا تروى على مائة ألف ريال ، وعلى الباشا أن يرسل الخراج السنوى إلى الاستانة وقدره ستمائة ألف ريال ، وعليه أن يرسل هدايا من السكر والبن والأرز والشراب والحلوى والتلال لا تقل قيمتها عن ستمائة ألف ريال عدا نفقات قافلة الحج ونفقات الجنود فى مصر

« وفى مقابل هذه النفقات يتصرف الباشا فى الإيرادات التى تخص السلطان فى مصر ويحسب منها كل سنة بعد سد نفقات الجند على أكثر من اثنى عشر مليون فرنك وإلى الباشا تؤول تركت للتوفيق بلا عقب ، ويكثر دخله من هذه الناحية إذا وقع وباء فى البلاد »

## وصف استقبال الوالى :

نرى فى الجبرى وصف استقبال الولاية فى القرن الثامن عشر، ومحصل ما ذكر أن الوالى كان يصل عن طريق النيل من رشيد أو الاسكندرية ويرسو فى بولاق فتذهب إليه الملاقة لاستقباله ثم يصعد إلى القلعة فى موكب حافل، وتضرب له للدافع عند قدومه، ولم يصف الجبرى هذا الاحتفال قصيلاً لأن حضور الولاية واستقبالهم كان أمراً عادياً ومألوفاً فى ذلك العصر، لكن كتاب الانرج عونا بوصفه وصفاً دقيقاً فى رحلاتهم

ذكر الرحالة الفرنسى سافارى<sup>(١)</sup> Savary ما شاهده فى استقبال الوالى فى المدة التى قضاه فى مصر من سنة ١٧٧٧ إلى نهاية سنة ١٧٧٩ قال :

« عند ما يصل الباشا الجديد إلى الإسكندرية يباع الديوان نبأ وصوله، فيرسل شيخ البلد (رئيس المالك) وفداً من أذكي البكوات لاستقباله والحفاوة به، فيقدمون له الهدايا ويظهرون له الطاعة، وفى خلال ذلك يتحسونه ويستطلعون نياته وأسراره مما يتسقطونه من أقواله وأقوال حاشيته ويتعرفون الأمور التى جاء بها من الاستانة، فإذا رأوا أنه لا يوافق أهواءهم أرسلوا بذلك رسولا إلى شيخ البلد فى القاهرة فيمقد الديوان ويبلغ الباشا أنهم لا يريدونه ثم يرسل إلى الباب العالى بأن الباشا الجديد جاء بنيات عدائية تؤول إلى حدوث الفتنة بين رعاياه المخلصين إذا هو أطلق له منصبه، ويطلبون استدعاه فلا يرفض الباب العالى لهم طلباً، أما إذا أفس الرسل من الباشا أن لا خيفة منه فإتهم يدعونه إلى القاهرة، فيركبه الوفد سفينة نعمة وينحدرون فى معيته تحيط به الراكب المزينة بالأعلام وفيها الطبول والزمور، فيتقدم الباشا هذا الأسطول مستقلاً سفينة تحتال فى سيرها، وما سادفهم فى النيل من مراكب انحدر معهم ومجا فى حاشيتهم، إلى أن يصلوا إلى الخلى (بيولاق) وهناك ترسو الراكب وينفذ شيخ البلد بعض السناجق لاستقبال الباشا فى الميناء أو يستقبله بنفسه، فيهنئهم أمراء المالك بالقدوم ويقدم له أنا الإنكشارية (محافظ المدينة) مفاتيح القلعة ويدعوه إلى الإقامة فيها. قال : وقد شاهدت بسببى وصول الباشا ودخوله المدينة فى موكبه وزينته، رأيت الوكب تتقدمه فصائل من الجنود للشاة يسيرون صفين وموسيقام أمامهم وأعلامهم تحلق فوق رؤوسهم، يليهم الفرسان وعددهم من خمسة آلاف إلى ستة آلاف فارس يسيرون بنظام حسن ويحملون الرماح الطويلة تزينهم ملابسهم الفضفاضة الالامنة وشواربهم الكبيرة، فكان لهم منظر حرقى يبعث الروعة فى النفوس، وبلى هؤلاء «الكهأت»

(١) فى كتابه (رسائل عن مصر)

مرتين اللابس البديعة وحولهم خاشيتهم من المالك يمتطون صهوات الحيات المرية الأصلية  
وعليها غواش موشاة بالذهب والفضة ، رأيت أغنة خيول الأشراف مرضعة بالؤلؤ والأحجار  
الكريمة وعلى خيولهم السروج تتلألأ من الذهب ، وكل يك يسير في موكب على هذه  
الصفة ، فكانت مواكبهم مجنمة غاية في الرونق والفخامة زينها جمال الفرسان وشكل  
ملابسهم وحسن استوائهم على متون جيادهم ، ويلهم الباشا يسير الهويتا وتقدمه كوكبة  
من مائتي فارس وفرقة من الموسيقى وأمامه أربعة من الجياد يقودها أربعة من السواس وعليها  
غواشها موشاة بالذهب مرضعة بالأحجار الكريمة ، وكان الباشا ممتطياً جواداً كريماً وقد  
وضع على عمامته ريشة من قطع اللاس الكبيرة يتوهج سناها في أشعة الشمس ، رأيت في  
هذا الموكب صورة من مظاهر الأبهة الشرقية التي كانت تحيط بملوك آسيا وسلاطينها عندما  
يبرزون للجواهر ، وبدأ الموكب في الساعة الثامنة صباحاً واستمر إلى الظهر ، وفي اليوم التالي  
جمع الباشا الديوان بالقلمة ودعا البكوات إلى حضوره وجلس هو على منصة قد نصت له  
أمام شباك ، فكانه السلطان على عرشه ، وتلا نكياه ( وكيه ) كتاب الباب العالي فطأطأ  
السناجق ( البكوات ) احتراماً لولي الأمر وأمره ، وتشهدوا بتنفيذ ما لا يمارض امتيازاتهم  
» وبعد انقضاء الديوان أهدى الباشا إلى شيخ البلد كرك مهوراً فخراً ، وجواداً مطهماً ،  
وخلع على كل بيك قبا ( قفطاناً ) ، وبذلك تمت حفلة تنصيب الباشا »

#### سلطة الوالي

قال للسيو سافاري يصف مدى سلطة الباشا بعد الاحتفال الفخم الذي دخل به المدينة :  
» إن منصب الباشا هو في الواقع نوع من أنواع النفي ، فهو لا يستطيع أن يخرج من  
القلمة إلا بإذن من شيخ البلد . وهو سجين يرى نفسه قد أحبط بمظاهر الأبهة . ومن خلال  
هذه المظاهر يشعر بثقل القيود التي يرسف فيها . فهو لا يده في شئون الحكومة ، ومرتبته  
محدود بما يدخل من رسوم جرك البؤس والمتاجر التي ترد من البحر الأحمر . على أن البكوات  
يبنلون له أكثر من ذلك ، فالباشا الجانق يستطيع بهارته ودسائسه أن يستجلب عطف  
الحزب الغالب من المالك فيدر عليه أخلاف الثروة ، والباشا منبع آخر للمال فإن المالك  
الذين يمينهم الديوان سناجق يدفعون إلى الباشا آثارة لإقرار هذا التعيين ، وإليه يؤول ميراث  
الملاك الذين يموتون بلا عقب ، وبهذه الطريقة يستطيع الباشا أن يستقر في مركزه ويحصد منه  
الفنى في سنوات قليلة . لكنه في حاجة إلى الحذر الشديد في كل ما يأتي وما يدع : لأن  
أصغر هفوة توزد موارد الجلف وقد يحدث أحياناً أنه مع حنره ودهائه يقبل عليه قصده

وذلك إذا طعن بعض السلاجق على الحزب النال من البكوات التى ينتمى إليه الباشا فيسلبه السلطة ويرفع إلى مشيخة البلد ، ومن ثم لا يكون إلا أن يطرد الباشا فيخرج منها مذموماً مدحوراً»

### عزل الوالى

ذكر السيو سافارى طريقة عزل الوالى ، وهى طريقة فى غاية السهولة والفوضى : « يجتمع الديوان المؤلف من البكوات المالكين فأذا رأى عزل الوالى أنفذ إليه رسولا بلبس رداء أسود ( ويسمى الأوده بانى ) ، فيجمل قرار المزل ويذهب إلى قاعة الاستقبال حيث يوجد الوالى فيدخل عليه ويطأطئه احتراماً له ثم يلبس طرف السجادة ويطويها ويقول منادياً للوالى : انزل يا باشا ( وقد ذكرها سافارى بنقلها العربى ) ثم يخرج من المجلس ، فعند ما تسك هذه الكلمة سمع الباشا يعل أنه أصبح معزولاً ويبدأ فى حزم أمتعته والتوجه إلى بولاق فى مدة لا تتجاوز أربعاً وعشرين ساعة على أن ينتظر ما يؤمر به من الاستانة ، وفى حالة العزل لا يمس شخص الوالى المزل بسوء ، ولكن يبحث أحياناً إذا كان للبكوات شكاوى على الوالى أن يحاسبوه حساباً شديداً عما وقع فى حوزته مدة ولايته من الأموال والهدايا ، وكثيراً ما يقتسمون ما جمعه قبل عزله ، وبعد أن يعزل الوالى يعين الديوان ( فاعمقاً ما ) يتولى هذا المنصب إلى أن يعزل الباشا الجديد ، وهلم جرا »

### انقضاء الديوان

قال السيو دى مايه Mailliet قنصل فرنسا فى مصر سنة ١٦٩٢ يصف انقضاء الديوان فى عصره : « إن مصر على قدها سلاطينها قد استيقنت شيئاً من الأبهة التى كانت من مميزات البسلطنة ، وقد شاهدت مراراً انقضاء الديوان بالقلمة ، وهذا الديوان يتعقد مرتين كل أسبوع (الأحد والثلاثاء) ، فى يوم انقضاء ينص القناء الذى بين يدى قاعة الديوان — وتبلغ مساحته نصف حديقة التويلرى بباريس — بالفرسان من أتباع البكوات وكبار الضباط راكبين جيادهم المربية المظلمة على سروج منشأة بالنهب مموهة بالقضة مرسمة بالأحجار الكريمة : وإن أبهة هذا المنظر لتبعث الإعجاب فى النفس ، وقد سمعت فى مصر أن السلطان (سليم) متع انقضاء الديوان فى القاعة التى كان يجلس بها سلاطين مصر قبل الفتح العثمانى ، وذلك رجاء أن يقلل من أبعثته ، والواقع أن الديوان لا يتعقد الآن فى قاعة سلاطين مصر ، ومع ذلك فديوان القاهرة أكثر أبهة من ديوان الاستانة ، وقد أتيت لى أن أشهد انقضاء الديوان بالقلمة فى جلسة



غير اعتيادية ، وهو مالا يقيسر لأحد التفاصيل إلا نادراً . فدعيت إلى حضور الديوان لأسأل عن شكاوى بعض التجار الافرنج الذين سودرت متاجرم في جرك الإسكندرية فشكوا أمرهم إلى السلطان فأمر بالتحصن والتحقيق وطلب من قاضي المسكر ( قاضي قضاة مصر ) أن يقضى في الشكاوى . وقد رأيت بقاعة الديوان نحو أربعة آلاف شخص مجتمعين . وبعد تلاوة أمر السلطان وبيان الباشا صاح هذا الجمع بأن السلطان قد خدع وأنه من الواجب رفع الحقيقة إليه ، فهلج التجار الافرنج والتراجة الذين حضروا الديوان من تصف القوم وعدوانهم وارتفعت فرائصهم وظنوا أنه قضى عليهم ، لكن الباشا كان حريصاً أن لا يمس أحد منا بسوء وكان متفقاً معي قبل الديوان على أن يكون النرض من هذا كله تبرير مركزه أمام السلطان ، وانتهى الاجتماع بحسم الخلاف على طريقة رضيناها ورضوا عنها »

### نظام الملكية والضرائب

لم يكن النظام المالي في مصر خيراً من النظام السياسي ، فقد اعتبر السلطان سليم نفسه مالكا لأراضي مصر وسار على هذا الاعتبار ابنه السلطان سليمان ، وبهذه النظرية كان صاحب الأرض لا يملك رقبته بل حق الانتفاع بها ، فإذا مات آلت أملاكه إلى الحكومة غير أن لورثته ردها إل حوزتهم لقاء مبلغ معين تقدره أهواء الولاة ، على أن مزاعم السلاطين في تملكهم رعية الأراضي ما لبثت أن تلاشت مع الزمن لقاء نفوذ المالك ، فكانوا يتصرفون في الأراضي على ما شاؤوا ويسطون أيديهم على ما يروق لهم منها ، فصار معظم أراضي مصر مقسمة بينهم وآلت إليهم بهذه الوسيلة ملكية ثلثي ما يزرع من الأراضي أو نحو ذلك ، أما الباقي فوزع بين الفلاحين والمترمين والأوقاف

### أنواع الملاك

فالفلاحون يملكون التبر اليسير من الأراضي ينتفعون بها ويتوارثونها ولم أن يتصرفوا فيها ، لكن ملكيتهم لها معلقة على دفع الضرائب والأتاوات المفروضة عليها ، وهذه الضرائب والأتاوات تدفع للمترمين . والمترمون هم الملاك الذين يأخذون القرى « التزاماً » ويتصرفون فيها تصرف المالك في ملكه على أن يتكفلوا للحكومة بدفع نسيبها من الضرائب

### نظام الالتزام

وأصل نظام الالتزام أنه لما فسدت إدارة الحكومة انصرف الناس عن الزراعة وتطلعت

الأعمال وهبطت قيمة الأراضي فانكسر الخراج وقلت الجباية ، فعد الحكام إلى طريقة (الالتزام) وهي تضمين الضرائب لأناس يتولون جمعها عن الحكومة ويشاركونها فيما يفلونه من الأهلين ، وكانت الحكومة تمرض جباية الخراج بالمزايدة لمن يضمه من ذوى النفوذ ، فن يقع عليه المزايد سمي « الملتزم » ويلتزم بضريبة بلد أو عدة بلاد عن سنة أو أزيد ، ويدفع للحكومة سلفاً مال سنة

والالتزام يقرر إما بالمزايدة كما تقدم وإما بالاتفاق على الثمن بين الملتزم وإدارة (الروزنامة) بالنيابة عن الحكومة ، فإذا تمت الصفقة أعطاه كبير المالك السمي شيخ البلد عهداً بذلك يسمى « قسيطاً » أى عقد الالتزام ، ويصحبه بأمر يسمى « قاميك » وهو خطاب من الحكومة إلى أهل البلد الداخل في التزام الملتزم تقرر عليهم أن يطيعوه ويؤدوا له الخراج ثم يكون له الحق أن يحصل من أصحاب الأرض على المال الذى عجله للحكومة زائداً فيه الربا وملحقاته حسبما يشاء ويهوى ، وتطور الالتزام ، فبعد أن كان يعطى لسنة أو عدة سنوات جعلوا يعطونه للملتزمين مدى الحياة فلا ترجع البلاد إلى الحكومة إلا بعد وفاة الملتزم بها وإذا مات الملتزم فلورثته أن يستبقوا البلاد في أيديهم إذا دفعوا الأتاوة للحكومة وإلا صارت حقاً لبيت المال ، وتوصل بعض الملتزمين إلى إبقاء الالتزام لإرثاً لترايهم بما دفعوا للحكومة من هذه الأتاوة

وللملتزمين سلطة مطلقة على الفلاحين ، فكانوا يصفقونهم ويسومونهم الظلم والجور ، ويفرضون على أملاكهم ما شاءت أهواؤهم من ضرائب وأتاوات ، ولهم أن يبيعوا حق الالتزام فتدبرهم من الملتزمين ، وإذا مات أحد الفلاحين بلا عقب آل ما يملكه إلى الملتزم ولهذا الملتزم أن يتزع الأرض من يد الفلاح ويعطياها لفلاح آخر إذا ضاقت يده أو قصر في دفع الضرائب ، ولما كانت الضرائب والأتاوات تجرى على أهواء الملتزمين فللكية الفلاحين كانت تحت رحمة هؤلاء ؛ وهناك نوع آخر من الأملاك يعرف بأطيان (الوسيه) وجمعها « أوسى » وهي الأراضي التى تعطياها الحكومة للملتزمين منحة لساعتهم على واجبات الالتزام ونفقاته من الصرف على المساجد والمدارس وإيواء المسافرين والموظفين وضياقتهم في دائرة التزامهم ، وهذه الأطيان ممغاة من كل ضريبة وعلى فلاحى الجهة أن يعملوا فيها سخرة للملتزم بلا أجر ولا جزاء

وعند أطيان الأوسى توجد أطيان أخرى ممغاة من الضرائب وهي أراضي الرزق جمع (رزقة) وهي التى كان ينعم بها السلاطين على بعض الناس يتصرفون فيها كيف شاءوا وهذه

الأراضي معفاة من الضرائب ولذلك تسمى « أرض رزقة بلا مال » وكانت إدارة الروزنامة تعطى النعم عليه بثل هذه الأراضي « تسيطاً » أو سند التملك يحوله ملكها ملكاً مطلقاً. والتصرف فيها

ويقول المسيو استيف<sup>(١)</sup> إن السلطان « سليم » لما فتح مصر وجد أطيان الرزقة مخصصة لجهات البر ، فأبقاها كما هي ولم يعطها للمتزمين وظلت في أيدي مالكيها

يتبين مما تقدم أن نظام الملكية المقارية بالمعنى الصحيح لم يكن معروفًا في ذلك العصر ، فلكية الفلاحين عرصة لأن تزرع منهم في كل وقت ، وملكية المتزمين كانت تحت رحمة البكوات المالكين بحيث كانت تزرع منهم إذا تصدى لهم من هم أوسع نفوذاً وأعظم ناصراً وأقوى سلطاناً ، ونظام الالتزام يشبه أن يكون كنظام الاقطاع الذي رزحت أوروبا تحت نيره القرون المتوالية

أما الوقف فيشمل الأملاك المحبوسة أصلاً على المساجد وأعمال البر والخير ، وقد انتشر الوقف في العصر العثماني لأنه كان الوسيلة التي يأمن بها الملاك على أملاكهم من عسف المالك ، فعمدوا إلى الوقف بحسونه على جهة من جهات البر والإحسان ويحملون لأبنائهم أو من يوصون إليهم من ذى نسب أو صلة أو خدمة حتى الانتفاع بالأرض بعد وفاتهم ، فيجد للوقوف عليهم من ريمها غلة ثابتة لا تتخذ إليها مطامع المالك بالسلب والاعتصاب هذه هي أنواع ملكية الأطيان في ذلك العصر ، فلنبعث الآن عن أنواع الضرائب المفروضة عليها

### الضرائب

كانت الأراضي مثقلة بالضرائب والاموات ومعظمها واقع على كاهل الفلاحين ، والقرى أصلاً من الضرائب ثلاثة أنواع :

الأولى ضريبة الخراج وتسمى المال اليرى أو اليرى فقط وهي المخصصة أصلاً للسلطان

والثانية ضريبة الكشوفية وهي مخصصة للبك أو الكاشف حاكم المديرية

والثالثة المائض أو فائض الالتزام وهو ما يستولى عليه المتزمون بعد وفاة اليرى

والكشوفية ، ومجموع هذه الضرائب الثلاث يسمى « المال الحر » وهو المقرر أصلاً على

١٧ : (١) كتاب تخطيط مصر الجزء ١٢.

الأطيان ، أو الضرائب الثانوية ، يدفعها الفلاحون للترزمين وهؤلاء يدفعون الميرى والكشوفية وما تبقى فهو لهم

لكن للترزمين لم يكتبوا بهذه الضرائب بل فرضوا على أطيان الفلاحين اتاوات أخرى ضربتها أهواؤهم ومطامعهم ، فيها « المضاف » و « البراق » ، والمضاف على نوعين : المضاف القديم والمضاف المستجد ، والبراق على نوعين البراق القديم والبراق الجديد ، وهذه الضرائب يقدرها للترزمون بحسب الظروف والأهواء

وللترزمين سلطة مطلقة في القرى الداخلة في التزامهم ، ولكل منهم فيها وكيل يسمى « قائم مقام » يتوب عنه ، وهم الثين يبيتون فيها مشايخ البلاد وهؤلاء هم وسطاء الترمين في جباية الضرائب من الفلاحين ، أما البكوات الماليك وكبار للترزمين فلهم مع مشايخ البلاد وكلاء يسمون « المباشرين » تمتد سلطتهم على عدة قرى ومقاطعات ، وقد اختص الأقباط بهذه الوظائف وتمت سلطتهم الصيارف والكتبة والساحون في القرى وكل أولئك يمينون بمقرهم ولإرشادهم وبأيديهم سجلات الضرائب

### الكشوفية والميرى

كان البكوات الماليك يتداولون حكم اللدريات ، والمادة أن يبقى البك في اللدرية لسنة سنة ، ووظيفتهم حفظ الأمن وحسم المنازعات التي تنشأ بين القرى وحماية الفلاحين من سطوة العريان وحماية الترمين في تحصيل الضرائب ليدفعوا لهم نصيبهم منها ، ولكل بك عدة كشاف أو وكلاء في حكم اللدرية أو جزء منها ، والبك يقضى في اللدرية التي يحكمها ثلاثة أو أربعة أشهر ثم يعود إلى القاهرة خوفاً أن تؤدي غيبته إلى دس اللسائس من زملائه ومنافسيه من الماليك ، وفي أثناء إقامته بالقاهرة يقوم عنه بالأمر كشافة الذين يجوزون أنحاء اللدرية لتحصيل الضرائب وضبط الأمن ومعهم القوة الكافية من الجنود

فالكشوفية هي نصيب البك وكشافة من الضرائب على الأطيان ، يدفع بمظلمها الملاحون ويدفع للترمون جزءاً منها ، أما للميرى فهو مخصص أصلاً للسلطان وله إدارة مستقلة بتحصيله وضبط حسابه تعرف بالروزنامة يرأسها « الروزنامجي » الذي يمينه الباشا ( الوالي ) بناء على طلب الديوان ، وبعد تعيينه يصبح بحكم وظيفته عضواً بالديوان ، وتحت يديه جماعة من الكتبة يسمون « الأفتدية » أو أفتدية الروزنامة ومن بينهم بين الروزنامجي ، فوظيفة الروزنامجي هي إدارة الخراج أو أموال الميرى ، وهي تعرب أن تكون كوظيفة مدير الأموال

المقررة في العصر الحاضر ، وفي يد الأفندية سجلات الأراضي التي تدفع الميرى لمعرفة مقدار ما هو مقروض عليها وما يحصل منها وما يصرف على تحصيلها ومقدار ما يخلص بعد ذلك ، والروزنامجي مسئول عن حساب الميرى وعليه تقديم هذا الحساب كل سنة للوالى ( الباشا ) وللدقتردار ( مدير الشؤون المالية ) ولشيخ البلد ( زعيم المالك ) وبعد أن يخلص صافي الميرى من حساب النفقات المختلفة يرسل إلى الاستانة وهذا الصافي هو المعروف بالخزنة وهو من حق السلطان ويحمله إلى الاستانة أحد البكوات المالك ويسمى « خزنة دار » أى أمين الخزنة وحرف إلى « خازندار » وقد تناقص صافي الميرى بعد استئثار المالك بحكم البلاد حتى إنه في بعض السنين لا يكاد يبق منه شيء يذكر ، ذلك أن الميرى تؤخذ منه الأموال الآتية :

( أولاً ) نفقات الباشا والبكوات وجامكية المسكر أى عطاء الجنود والوجاقلية ونفقات المؤن والخبز ورواتب أفندية الروزنامة ومعاشات الأرامل والأيتام والمكفوفين

( ثانياً ) ما يخرج للحرمين الشريفين

( ثالثاً ) نفقات الحمل وأمير الحج

( رابعاً ) للمصاريف الأخرى التي لا تدخل في حساب كإصلاح الترع وتطهيرها وترميم القلاع ( ولم يكن يصرف في ذلك شيء ) والإنفاق على الأزهر وصيانة المساجد والأضرحة وأرزاق الشايخ ومصاريف مقياس النيل وحفلة وفاء النيل وغير ذلك ، وكانت تدبر كل هذه الأوضاع الحسابية بحيث لا يبق من الميرى إلا النذر اليسير يرسل إلى الاستانة ، وانقطع فعلا إرسال الخزنة في عهد علي بك الكبير ثم استؤنف إرسالها بطريقة غير منتظمة في عهد مراد بك وإبراهيم بك ، وكان صافي ما يرسل سنوياً إلى الاستانة في عهدهما يبلغ ٣٦٤,٥٥٠ فرنك<sup>(١)</sup> أى نحو ١٠,٥٨٠ جنيهاً

## الضرائب الأخرى

### ومقدار دخل الحكومة

كانت البيوت والمنازل معفاة من الضرائب لأن الخراج في الأصل مقرّر على الأتليان ، على أن الحكومة فرضت الضرائب غير المقاربة والكوس والاموات على الصناعات والمأكولات والتاجر بما في ذلك رسوم الجمارك وعلى الوكائل والسفن والقوافل وكذلك على الرؤوس وعلى الوظائف الرئيسية

(١) إحصاء السيو استيف مدير الشؤون المالية في أواخر عهد الحقبة الفرنسية . كتاب تخطيط مصر الجزء الثاني عشر

وقد أحصى السيواستيف دخل الحكومة السنوى فى أواخر عهد المالك بـمبلغ ١٠٩٩١٠٦ فرنك أى ١٢٠٣٤٦٧ جنيه تقريباً ، وقدره الجيرالدينيه Reynier أحد قواد الحملة الفرنسية فى كتابه<sup>(١)</sup> بـمبلغ يتراوح بين ٣٥ إلى ٤٠ مليون فرنك فى السنة ، ومن ذلك يتبين أنه مع إسراف حكومة المالك فى النظم وإرهاق الأهلى بمختلف الاكافوات والضرائب فإن مقدار دخل الحكومة يدل على ما كانت عليه حالة البلاد الاقتصادية والمالية من التأخر والفاقة ، على أنه من الواجب أن نمجى بالقول بأن حالة البلاد الاقتصادية والمالية قد ازدادت سوءاً فى عهد الحملة الفرنسية ، وقد سطنا الكلام فى هذا الصدد بالتفصل السادس من الجزء الثانى من هذا الكتاب

### النظام القضائى

بقى النظام القضائى فترة من الزمن كما كان قبل الفتح المائى ، فكان يتولى القضاء قضاة أربعة من المذاهب الأربعة يسمى كل منهم « قاضى القضاء » . الحنفى . والمالكى . والشافعى والحنبلى . ولم يغير السلطان سليم شيئاً من هذا النظام وإنما عين قاضياً عثمانياً جملة « أميناً على قضاء مصر »<sup>(٢)</sup>

ولكل من أولئك القضاة الأربعة أن يعين نوابه فى القضاء ، ذكر ابن لياس أن ملك الأمراء خير بك أقص عدد نواب القضاء فرسم لقاضى القضاء الشافعى بخمسة من النواب وقاضى القضاء الحنفى بأربعة وقاضى القضاء المالكى بثلاثة وقاضى القضاء الحنبلى بأثنين من غير زيادة على ذلك<sup>(٣)</sup>

ولما تولى السلطان سليمان أبطل نظام قضاء القضاء الأربعة ، وأمر بتنصيب قاض تركى من درجة « قاضى عسكر » يسمى « قاضى مصر » يرسلونه من الامتانة وهو بمثابة قاضى القضاء

(١) مصر بعد واقعة عين جمس

(٢) قال ابن لياس ( الجزء الثالث ) فى حوادث سنة ٩٢٤ هجرية ( ١٥١٨ ميلادية ) إنه لما تزايدت مظالم الجنود الأتراك فى القاهرة « دخل جماعة من الناس الى القاضى الذى جملة ابن عثمان فى المدرسة الصليبية أميناً على قضاء مصر . فشكلوا له من أفعال الثانية وما يفعلونه بالناس . فلما سمع هذا الكلام ركب وتوجه الى بيت الأمير قايتباى الدوادار وأركب وطلع به الى القلعة وأخبروا ملك الأمراء خير بك بهذه الأحوال التى تصدر من الثانية » وقال ما خلاصته إن خير بك وعد القاضى والأمير قايتباى بالتقص والتحقق

(٣) ابن لياس الجزء الثالث

قال ابن أبي السرور البكري : « ان أول من ولي قضاء مصر من « قضاء العسكر » مصطفى افندي الروي ( التركي ) وانه استولى على قضاء مصر سنة ٩٢٩ هجرية في الحرم منها بعد أن أرسل السلطان سليمان أمره الشريف لحاكم المياد المصرية بإبطال القضاة الأربعة ، فنفذ أمره الشريف وجاء مصطفى افندي الى مصر وجعل له نوابا من الثلاثة للنائب مالكي وشافعي وحنبلي » (١)

واستمر قضاء العسكر يهبطون من الاستانة في عهد الحكم التركي ، ولم ينازع الماليك الحكومة العثمانية في هذه الناحية من السلطة ولم يتعرضوا لها لأنهم لم يخشوا بأسا من قضاة الاستانة ولم يكن هؤلاء ينافسونهم النفوذ والجاء كما كان يفعل الولاة ، فتركهم للماليك وشأنهم . وكانت مراسيم التعيين تصدر من الاستانة قاضي القضاة ولمدد من القضاة يشبه أن يكونوا رؤساء عا كم يبلغون خمسة وثلاثين قاضيا (٢) ومراسيم التعيين لا تصدر إلا في مقابل آتاة من المال يدفعها طلاب مناصب القضاء لحكومة الاستانة ، وبعض هؤلاء القضاة كانوا زمنا ما أتركا ، فكانوا يستعينون بالتراجم ، ولذلك عمت الفوضى في إدارة القضاء ، على أن مناصب القضاء خلا منصب قاضي القضاة قد آلت مع الزمن إلى القضاة المصريين ، ذلك أن القضاة الأتراك الذين تصدر لهم مراسيم التعيين كانوا يتنازلون عن هذه المناصب لمن يطلبها من المصريين تلقاء جُعل من المال ، ثم صارت مراسيم التعيين تصدر رأسا للقضاة المصريين

كانت مناصب القضاء تباع وتشترى وتعرض في سوق المساومة فترسو على من يدفع الثمن الأعلى ، ولا يمكن أن يصل النظام القضائي في بلد من البلدان الى مثل هذا اللربك من التدهور ، فلا جبرم كانت وظيفة القضاء في ذلك العصر موضع الزبابة في نظر الجمهور والملاء

وكان قاضي القضاة في النالب تركيا لا يعرف العربية فكان يتخذ ترجمانا يترجم له الأوراق وينقل أقوال الخصوم ، والترجمان على ذلك هو صاحب الحول والطول ، ومدة القاضي سنة

(١) كتاب الروضة للأفوسة في أخبار مصر المحروسة لابن أبي السرور البكري . وفي ابن لياس أن أول قاضي عسكر عينه السلطان سليمان هو القاضي جلي وذلك سنة ٩٢٨ هجرية ، وروايته كما ترى تختلف ورواية ابن أبي السرور البكري في تاريخ التبيين واسم القاضي . على أننا ترجح رواية ابن أبي السرور لأن كتابه غرس بالبحث في أسماء وأخبار ولاة مصر وقضاها في عهد الحكم العثماني ( نهاية سنة ١٠٥٤ هجرية )

(٢) تخطيط مصر الجزء الثاني عشر .

واحدة أو سفتان متى جاء أجلها تعين حكومة الاستانة قاضيا آخر أو تمددة القاضى القديم.. ويجوز أن تمتد مدة قاضى القضاة بنزول القاضى الجديد له عن مدته بيمينه اياها بالتمن عن تراض بينهما ، وبهذه المساومة يجوز أن تمتد مدة قاضى القضاة الى اربع او خمس سنوات متعاقبة ، وله أن يعين من دونه من النواب ، ولنى يصدر له امر التعين أن يزل عنه لغيره ، وغنى عن البيان أن هذا النظام كان مصدرا للعجز واكل أموال الناس بالباطل ، ذلك أن القضاة الذين يشترطون مناصبهم إنما ينظرون إليها كوسيلة لا بترار الأموال ، فالفرق كبير جداً بين مكانة القضاة فى ذلك العصر ومكانتهم قبل الفتح العثمانى ، فإن قضاة القضاة الأربعة كانوا موضع إجلال السلاطين كما أنهم كانوا على جانب عظيم من العلم والتقوى <sup>(١)</sup> ، أما فى عهد الحكم التركى فقد وصل النظام القضائى إلى درجة لا نظير لها من الانحطاط ، لذلك كان كبار العلماء يتورعون عن تقلد مناصب القضاة ، اعتبر ذلك فى تراجم العلماء الممدودين الذين ذكروهم الجبرى فى وفياته ، فإنك لا ترى من بينهم علما معدوداً تولى منصب القضاة فى مصر ، وهذا وحده دليل كاف على انحطاط منزلة القضاة فى عهد الحكم التركى

ويحكم قاضى القضاة فى الخصومات التى تعرض عليه فى القاهرة وبولاق ومصر القديمة ، وله أن يعين نواباً فى خطط القاهرة فكان بها تسعة نواب وببولاق نائب وبمصر القديمة نائب ، وهؤلاء النواب يحكمون بين الناس بالنيابة عن قاضى القضاة ويشترطون منه مناصبهم بالمال وإذا تغير قاضى القضاة أمكنهم أن ينالوا إذا يقرارهم على مناصبهم لقاء جمل يدفعونه للقاضى الجديد. ولم يكن للقضاة رسوم معلومة ولا مرتب محدد ، بل كان كل قاض يتقاضى فى كل دعوى ما يقدره من الأجر بحسبها وكما يقدر ، يدخل فى ذلك أجور الكتبة أو الترجمة ، وإذا كان قاضى القضاة متورفاً فإنه لا يطلب أجراً معلوماً بل يكتفى بما يرضه أرباب القضايا وبذلك ينال احترام الناس ومحبتهم ، وكان القضاة لقلة بضاعتهم من العلم يرجعون إلى فتاوى العلماء للفصل فى القضايا ، فكانت هذه الفتاوى تدم كستندات فى الدعوى ، ولتفاوى العلماء قيمة فى نقص الأحكام بعد صدورها ، ومن ذلك جاءت كثرة الفتاوى فى ذلك العصر.

وكان القضاة بمصر متعددى المذهب فمنهم الحنفى والشافعى والمالكي والحنبل ، وكل قاض يحكم بحسب أحكام مذهبه وبحسب القول الذى يختاره من أقوال المذهب ، ولا ريب أن تعدد مذاهب القضاة وتعدد الأقوال فى كل مذهب من أسباب القوضى فى الأحكام والمعاملات ؛ ذلك أن المتقاضين لم يكونوا يعرفون مصير دعاوهم أمام مختلف المحاكم وبخاصة مع ما جرى

(١) كانوا فى الأغلب هم أئمة مناصبهم علما وفقها واجتهادا وضرا بالحكم



عليه العمل من أن للدعي الخيار في أن يذهب إلى أي قاض أراد جريا على بعض الأقوال ، فكان للدعي يختار القاضي الذي يعرف عن منعبه أو القول الذي يأخذ به من أقوال هذا للذهب ما يؤيد دعواه ، وهذا النظام من شأنه أن يززع الثقة في الماملات ، وقد ظل تعدد مذاهب القضاة في مصر إلى أن تخصص القضاء بمذهب الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه ، وذلك في عهد محمد علي باشا

ذكر الجبرتي طرقا من شكوى الناس من فساد النظام القضائي ، وكلامه وإن كان منصرفا إلى أوائل عصر محمد علي إلا أنه يتضمن وصف هذا النظام في عهد البكوات الماليك ، وكيف كانت وظائف القضاء تباع وتشترى ، وكيف زادت الحالة سوءا لما عادت السلطة للأتراك بعد اقراض حكم الماليك وانتهاء عصر الحملة الفرنسية ، وإليك ما ذكره الجبرتي نقله لما فيه من تفصيل لبعض ما أجهلناه وتوضيح للنظام القضائي في عصر الحكم التركي كما وصفه شاهد عيان . قال :

« في يوم الخميس ( ٢٠ ربيع الثاني سنة ١٢٣١ )<sup>(١)</sup> حصلت جمعية بيت البكري وحضر المشايخ وخلافهم وذلك بأمر بإطني من صاحب الدولة ( محمد علي باشا ) وتذاكروا ما يفعله قاضي السكر من الجور والظلم في أخذ أموال الناس والمحاصيل وذلك أن القضاة الذين يأتون من باب السلطنة كانت لهم عوائد وقوانين قديمة لا يتصدونها في أيام الأُمراء المصريين ( الماليك ) فلما استولى هؤلاء الأروام ( الأتراك ) على المالك والقاضي منهم فحس أمرهم وزاد طمعهم وابتدعوا بدعا وابتكروا حيلاً لسلب أموال الناس والأيتام والأرامل . وكما ورد قاض ورأي ما ابتكره الذي كان قبله أحدث هو الآخر أشياء يمتاز بها عن سلفه حتى فحس الأمر وتعدى ذلك قضايا أكابر الدولة وكتخذا بيك بل والباشا ( محمد علي ) وصارت ذريعة وأمرها محتملا لا يمتشعون منه ولا يراعون خيلا ولا كبيرا ولا جليلا

« وكان المتداد القديم أنه إذا ورد القاضي في أول السنة التوتية التزم بالقسمة بعض المميزين من رجال المحكمة بقدر معلوم يقوم بدفعه للقاضي . وكذلك تقرير الوظائف كانت بالفراغ أو المحلول ، وله شهرت على باقي الحاكم الخارجة كالمصالحية وباب سعادة والخرق ( باب الخلق ) وباب الشمرية وباب زوية وباب الفتوح وطيلون وقناطر السباع وبولاق ومصر القديمة ونحو ذلك ، وله عوائد وإطلاقات وغلال من الميرى ، وليس له غير ذلك إلا معلوم الإمضاء وهو خمسة أنصاف فضة ، فإذا احتاج الناس في قضاياهم وموارثهم أحضروا شاهدا

من المحكمة القريبة منهم فيقتضى فيها ما يقضيه ، ويضطونه أجرته ، وهو يكتب التوثيق أو حجة البايعة أو التورث ، ويجمع العدة من الأوراق في كل جمعة أو شهر ثم يعضها من القاضي ويدفع له معلوم الإضاء لاغير ، وأما القضايا لمثل العلماء والأمرء فبالساعة والإكرام<sup>(١)</sup> . « وكان القضاة يخشون صولة الفقهاء وقت كونهم يصعدون بالحق . ولا يذاهنون فيه ، فلما تغيرت الأحوال وتحكمت الآياك وقضاتها ابتدعوا بدعاً شتى ، منها إبطال نواب المحاكم وإبطال القضاة الثلاثة خلاف مذهب الحنفي وأن تكون جميع السعاوى بين يديه ويدي نائبه ، وبعد الانفصال بأمرهم بالذهاب إلى كئنهاده ( نائبه ) ليدفع المحصول فيطلب منهم المقادير الخارجة عن المقول . وذلك خلاف الرشوات الخفية . والمصالحات السرية . وأضاف التقرير والقسم لنفسه<sup>(٢)</sup> . ولا يلزم بها أحد من الشهود كما كان في السابق . وإذا دعى بمض الشهود لكتابة توثيق أو مبايعة أو تركة فلا يذهب إلا بعد أن يأذن له القاضي ويسحبه بجوخدار ( وكيل ) لياشر القضية ، وله نصيب أيضاً ، وزاد طمع هؤلاء الجوخدارية حتى لا يرضون بالقليل كما كانوا في أول الأمر وتخلف منهم أشخاص ، عدا عن مخادعهم صابوا عند التولى لما افتتح لهم هذا الباب

« وإذا ضبطت تركة من التركات وبلغت مقداراً أخرجوا القاضي العس من ذلك ومعلوم الكاتب والجوخدار والرسول ، ثم التجهيز والتكفين والمصرف والديون ، وما بقي بعد ذلك يقسم بين الورثة ، فيتفق أن الوارث واليتم لا يبق له شيء .

« ويأخذ ( القاضي ) من أرباب الديون عشر ديونهم أيضاً ويأخذ من محاليل وظائف التقارير معلوم سنتين أو ثلاثة<sup>(٣)</sup> ، وقد كان يصلح عليها بأدنى شيء وإلا إكراماً

« وابتدع بعضهم القصاص عن وظائف القباينة والموازن وطلب قمارهم القديمة ومن أين تلقوها ، وتعلل عليهم بعدم صلاحية المقرر فيها ما هو باسم النساء وليسوا أهلاً لذلك ، وجمع من هذا النوع مقداراً عظيماً من المال ثم محاسبات نظار الأوقاف والعزل والتولية فيهم والمصالحات على ذلك ، وقرر على نصارى الأقباط والأروام قدرأ عظيماً في كل سنة بحجة المحاسبة على الديور والكتائس

(١) معنى ما تقدم أن دخل قاضي القضاة يتألف من الموارد الآتية : ١ - ما يدفع له كل سنة موظفو المحكمة ٢ - جل شهرى يدفع له قضاة أخطاط المحاسبة ٣ - ما تؤدبه له المحكمة من الروائد والغنائم ٤ - رسوم الإضاء ٥ - الهدايا الاختيارية التي يقضها له الأعيان والعملاء « بالساعة والإكرام » بعد الفصل في قضاياهم .

(٢) أى أخاف لنفسه الرسوم التي تدفع على خدمة إثبات الورثة وقسمه الموارث

(٣) مثله أن القاضي كان يأخذ من للوظفين المجدد معلوم سنتين أو ثلاثة

« وما هو زائد الشناعة أيضاً أنه إذا ادعى ميطل على إنسان دعوى لا أصل لها بأن قال ادعى عليه بكنا وكنا من مال وغيره كتب القيد (كاتب المحكمة) ذلك القول، حقاً كان أو باطلاً معقولاً أو غير معقول . ثم يظهر بطلان الدعوى أو صحة بعضها فيطالب الخصم (الدعى عليه) بمحصول (رسوم) القدر الذى ادعاه الدعى وسطره الكاتب يدفعه للدعى عليه للقاضى (١) على دور النصف الواحد أو يحبس عليه حتى يوفيه . وذلك خلاف ما يؤخذ من الخصم الآخر، وحصل فظير ذلك لبعض من هو ملتجئ لكتختدا بك (نائب محمد على باشا) فحسب على المحصول فأرسل الكتختدا يترجى فى إطلاقه والمصالحة عن بعضه فأبى، فعند ذلك حقق الكتختدا بيك وأرسل من أمواه من استخرجه من الحبس

« ومن الزيادات فى نعمة الطنبور كتابة الاعلامات . وهو أنه إذا حضر عند القاضى دعوى بقاصد من عند الكتختدا أو الباشا (محمد على) ليقضى فيها وقضى فيها لأحد الخصمين طلب القضى له إعلاماً بذلك إلى الكتختدا أو الباشا يرجع به مع القاصد قسيساً وإثباتاً، فعند ذلك لا يكتب له ذلك الاعلام إلا بما عسى لا يرضيه إلا أن يسلم من جلده طاقاً أو طاقين . وقد حكمت عليه الضرورة . ونابع الباشا أو الكتختدا ملازم له ويستجعله ويساعد كتختدا القاضى عليه ويسليه على ذلك الظفر والنصرة على الخصم . مع أن الفرنسيات الذين كانوا لا يتدينون بدين لما قلدوا الشيخ احمد الريشى القضاء بين المسلمين فى المحكمة حددوا له حداً فى أخذ المحاسيل لا يتعداه بأن يأخذ على المائة اثنين فقط له منها جزء والكتاب جزء

« فلما زاد الحال وتمدى إلى أهل الدولة رتبوا هذه الجمعية ، فلما تكاملوا يجلس بيت البكرى كتبوا عرضاً محضراً ذكروا فيه بعض هذه الاحداثات والتمسوا من ولى الأمر رفعها ويرجون من المراحم أن يجرى القاضى ويسلك فى الناس طريقاً من إحدى الطرق الثلاث : إما الطريقة التى كان عليها القضاة فى زمن الأمراء المصريين . وإما الطريقة التى كانت فى زمن الفرنسيات . أو الطريقة التى كانت أيام مجيء الوزير (٢) وحى الأقرب والأوفق وقد اخترناها ورضيناها بالنسبة لما هم عليه الآن من الجور ، وعموا المرض محضراً وأطلعوا عليه الباشا فأرسله إلى القاضى فامثل للأمر وسجل بالسجل على مفضض منه ولم تسمع الخاتمة» (٣)

(١) أى ان للدعى عليه إذا حكم لصالحه يلزم مع ذلك بدفع رسوم الدعوى وهنا يخالف القاعدة المشهورة ان للدعى إذا حكم برفض دعواه يلزم هو بمصاريفها ولا يلزم للدعى عليه بهى منها

(٢) يوسف باشا خيا الذى جاء عند جلاء الفرنسيين

(٣) الجبرق الجزء الرابع

## نتائج نظام الحكم

في حالة مصر السياسية والعمرانية

كان لنظام الحكم الذي رزحت تحته البلاد من عهد الفتح العثماني أسوأ الأثر في حالتها السياسية والعمرانية ، فقد زال عنها الاستقلال الذي كان مصدر عزها وعظمتها ، وصارت مسرحا للفتن والشادة بين السلطات الثلاث التي تنازعت الحكم فيها ، خلال ذلك دون قيام حكومة ثابتة مستقرة ترفع من شأن مصر وتقيم العدل وتحفظ الأمن بين ربوعها وتعنى بمراقبتها ، فلا غرو أن افترق نظام الحكم بعد الفتح العثماني بتأخر البلاد وتقهقرها وتناقص عدد سكانها ، ولو قارنت بين حالتها في ذلك العهد وحالتها من قبل حينما كانت مملكة مستقلة في عهد الدول الفاطمية والأيوبيّة والبحرية والبرجية لرأيت أن البلاد قد رجعت القهقري خطوات واسعة

## في الحالة الاقتصادية

قد أهمل الولاة العثمانيون والبكوات المالك أمر الري وتوزيع المياه وإقامة القناطر والجسور وحفظ الأمن ، فجفت للترع ، وتلفت الأراضي ، وتمطلت الزراعة ، وقعد الأمن ، وذهبت ثروة البلاد وهاجر الكثير من سكان القطر إلى البلاد المجاورة وضمحلّت الصناعات والفنون التي كانت تزدهر بها مصر في سالف العصور ، بدأت في الاضمحلال عقب الفتح العثماني مباشرة بسبب اضطراب الأحوال وكثرة الفتن وقعد الأمن وإشراف الجنود العثمانية في السلب والنهب ، أضف إلى ذلك أن السلطان سليما بصد أن استقر له الأمر في القاهرة جمع رؤساء الصناعات للتخصصين في الفن والصناعة وقامهم إلى الاستانة لينشروا فيها صناعاتهم وفنونهم ، فكان ذلك سبباً في فضوب معين الصناعة والفن في البلاد ، وتلاشت صناعات كانت عامرة ، وفي ذلك يقول ابن إلياس :

« إن السلطان سليم خرج من مصر ومعه ألف رجل محملة من الذهب والفضة فضلاً عن التخف والسلاح وأعمدة الرخام والصيني والنحاس ، وأخذ من مصر من كل شيء أحسنه ، وذلك عبداً ما غنمه وزرأوه من الأموال الجزيلة ، وكفلك عسكره فانهم غنموا من النهب ما لا يحصى ، وبطل من مصر نحو خمسين صنعة <sup>(١)</sup> »

وجاء الولاة والحكام الماليك الذين تركت لهم إدارة البلاد فكان حكمهم آفة على الصناعة والتجارة ، وكانت مصادرتهم لأموال التجار من أهم أسباب ركود الحركة التجارية فاختفت رؤوس الأموال من أيدي الأهالي وغلب عليهم الفقر وصار الشعب إلى حالة محزنة من الضنك والناقة

### في الحالة الصحية :

وفتكت بهم الأمراض والأوبئة التي كانت تتخيف البلاد وتحتاج مئات الآلاف من الناس ، وتأخذهم أخذاً وبيلا ، كل ذلك والحكام يصرفهم الجهل عن مقاومتها<sup>(١)</sup> وليس في البلاد طب ولا أطباء والناس متروكون لرحمة المنجمين والحلافين

### في العلوم والآداب

وفشا الجهل في البلاد وورث الشعب تحت نير العبودية وظلام الجهالة ، وحرمت البلاد من معاهد العلم والتعليم ، ولم يبق بها سوى الجامع الأزهر الذي كان قائماً قبل عصر البكوات الماليك وبعض المدارس الملحقة بالمساجد ، فكان الأزهر هو المعهد الوحيد الذي تدرس فيه العلوم ، ولولاه لأنطفأت آخر شعلة للعلم في مصر ، وكان بالقاهرة وبعض البنادر والثغور كتاتيب ينفق عليها من أموال الصدقات والأوقاف ، لكنها كانت قليلة النفع ضئيلة الأثر في تبديد ظلام الجهالة في البلاد

وذوت العلوم والآداب في مصر بعد أن كانت زاهية زاهرة ، فقد ظلت الآداب العربية إلى عهد السلاطين البحرية والبرجية ( الشراكسة ) حافظة مكائنها التي كانت لها من قبل ، وإليهم يرجع الفضل في إحياء آداب اللغة العربية من غزوات المنول التي كادت تقضي على

(١) في سنة ١٠٢٨ هـ أصبحت مصر طاعون جارف في زمن الوزير جعفر باشا ليث أربعة أشهر مات فيه ستة آلاف نس . وفي سنة ١٠٣٥ هـ أصبحت البلاد بوابات فيه ٣٠٠ ألف نس . وفي سنة ١٠٥٠ هـ ( ١٦٤١ ميلادية ) في زمن مقصود باشا حصل طاعون لم يسم بئله وخرب بهذا الطاعون ٢٣٠ بلدة من الوجه البحري كما قال ابن أبي السرور البكري . وحدث طاعون آخر في شياخة ذي الفطار بك سنة ١١٤٢ ( ١٧٢٩ ميلادية ) وطاعون في شياخة عثمان بك ، وفي سنة ١٢٠٥ ( ١٧٩١ ميلادية ) أصبحت البلاد طاعون فطبع سماء أهل مصر طاعون اسماعيل لأنه وقع في عهد مشيخته كان يموت في القاهرة زيادة من ألف نس في اليوم ونات به اسماعيل بك ومظلم مماليكه وتبترت الحكم في اليوم الواحد ثلاث مرات لوهم ومات به من سكان القاهرة نحو سبعين ألفاً

العلوم والآداب العربية في الشرق، فكانت مصر ملجأً للناطقين بالضاد ممن فروا أمام التتار في العراق وفارس وسوريا وخراسان، وبقيت لغة حكومتها عربية في عهد تينك النولتين، واستظلت العلوم والآداب بحماية الملوك والسلاطين في مصر، ونبغ فيها طائفة من فطاحل الشعراء والأدباء والعلماء، كالبيروني صاحب البردة، والسراج الوراق، وابن نباه المصري، والقلقشندي صاحب صبح الأعشى، والأبشهي صاحب المستطرف، وابن منظور صاحب لسان العرب، وابن هشام النحوي العظيم الذي يقال فيه إنه أنحى من سيبويه، وابن عبد الظاهر، والنواجي<sup>(١)</sup> صاحب حلبة الكيوت، والقسطاني المحدث للمشهور، وشمس الدين السخاوي صاحب الضوء اللامع، وابن خلكان المؤرخ المشهور صاحب وفيات الأعيان، والصفدي صاحب الوافي، وابن حجر المؤرخ إمام الحفاظ والمحدثين في زمانه، والعيني للمؤرخ والمحدث، وابن وصيف شاه، وابن دقاق، والمقريزي صاحب الخطط، والمكيين ابن العميد، وأبو الفداء<sup>(٢)</sup> للمؤرخ الجغرافي المشهور صاحب قويم البلدان، والنهجي، والنويري صاحب نهاية الأرب في فنون الأدب، وابن فضل الله العمري صاحب مسالك الأبيصار في ممالك الأمصار، وابن عقيل، وابن تينري بردي صاحب النجوم الزاهرة، وجلال الدين السيوطي صاحب التأليف الشهيرة في التفسير والعلوم الشرعية والتاريخ وأدب واللغة، وهو آخر من ظهر في ذلك العصر من كبار العلماء بمصر، والبيروني صاحب حياة الحيوان، وابن ياسين المؤرخ الذي أدرك الفتح العثماني

وقد استضافت مصر في ذلك العصر جماعة من أئمة العلم والفلسفة في الشرق، كالإمام ابن تيمية، وابن قيم الجوزية، وفيلسوف المؤرخين ابن خلدون.

أما في عهد الولاة الثمانيين والبكوات الماليك فقد اضمحلت الآداب العربية وجمدت القرائح وركبت حركة العلم، ولا غرابة في ذلك فإن القاهرة صارت مركز ولاية تابعة للاستانة بعد أن كانت عاصمة دولة مستقلة، بل عاصمة العالم العربي كله، وصارت غايطات السلاطين والولاة باللثة التركية بعد أن كانت العربية لسان الحكومة لناية انتهاء دولة السلاطين البرجية، وتقهقرت البلاد وساءت إدارتها فأثرت هذه الأسباب مجتمعة في حالة العلوم والآداب وآلت إلى الاضمحلال والنواء، وأندثرت المدارس التي كانت زاهرة في عهد

(١) نسبة إلى نواج إحدى قرى مذبزية الغربية

(٢) هو لللك المؤيد صاحب حلة، ويلاحظ أن الدولة المصرية كانت في ذلك العصر تضم سوريا لك أملاكها

الفاطميين والأيوبيين وخلفائهم السلاطين البعريّة والبرجية ، وتبدت خزائن الكتب التي يرجع إنشاؤها إلى عهد الفاطميين ولم يبق منها إلا بعض المكاتب الملحقة بالمساجد ككتبة الأزهر التي كان بها إلى عهد الحلة الفرنسية نحو ٣٣٠٠٠ مجلد

قال للرحوم علي باشا مبارك يصف إهمال شأن المدارس في مصر مدة ثلاثة قرون متوالية : « من ابتداء القرن التاسع إلى القرن الثاني عشر <sup>(١)</sup> يعني مدة ثلاثة قرون قد أهمل أمر المدارس وامتدت أيدي الأطماع إلى أوقافها ، وتصرف فيها النظر على خلاف شروط وقفها ، وامتنع الصرف على المدرسين والطلبة والخدمة فأخذوا في مفارقتها ، وصار ذلك يزيد في كل سنة عما قبلها لكثرة الاضطرابات الحاصلة بالبلاد حتى انقطع التدريس فيها بالكلية ، وبيعت كتبها وانتهبت ، ثم أخذت تقشمت وتتحرب من عدم الالتفات إلى عمارتها ومرمتها ، فامتدت أيدي الناس والظلمة إلى بيع رخامها وأبوابها وشبابيكها حتى آل بعض تلك المدارس الفخمة واللباني الجالية إلى زاوية صغيرة تراها مغلقة في أغلب الأيام وبعضها زال بالكلية وصار زريبة أو حوشاً أو غير ذلك ، ولله عاقبة الأمور <sup>(٢)</sup> »

هذه صورة لما آلت اليه العلوم والآداب من الانحلال والنواء في عهد الحكم العثماني ، من أجل ذلك قلنا نبغ من عهد الفتح التركي شاعر أو عالم أو أديب ، ولا نكاد نجد في هذا العصر سوى شهاب الدين الخفاجي . والسيد محمد مرتضى الزبيدي العالم اللغوي المشهور صاحب تاج الروس في شرح جواهر القاموس ، وأصله من اليمن واستوطن مصر وتوفي بها . وعبد الوهاب الشعراني صاحب الطبقات وغيرها من المصنفات الكثيرة ، وابن أبي السرور البكري الصديقي صاحب الروضة المأثورة ، والصبان ، وعبد الرحمن الجبرتي المؤرخ المشهور . ولو تأملت في تراجم من ذكرهم الجبرتي في كتابه من علماء ذلك العصر لما رأيت منهم من يصح اعتباره عالماً نابهاً في الفلسفة أو العلوم والآداب ، واقتصر التدريس في الأزهر على العلوم الفقهية واللسانية ويطال تعليم العلوم العقلية والرياضية والطبيعية التي كان يدرسها أسلافهم والتي كانت تزدان بها جامعات بغداد وقرطبة في عصر ازدهار الحضارة الإسلامية ، واعتزل الأزهر النهضة العلمية الأوروبية الحديثة فبعثت الشقة بينه وبين التقدم العلمي القديم والحديث ، واقتصر المؤلفون من علمائه على النقل ووضع الشروح والخواشي والتقاير والتعليقات ونحوها مما لا يمكن أن يكون أساساً لهضة علمية صحيحة ، وانحط

(١) وهذه للدة يجمع مظهرها في عهد الحكم العثماني

(٢) المخطط التوفيقية الجزء الأول

أسلوب الكتابة حتى قرب من المامية وكان المجيدون من الكتاب والأدباء لا يتوخون في كتابتهم إلا تجميل المبارات بالسجع الركيك والمحسنات البديعية كالجناس والتورية، واضمحلت روح البلاغة، ولم يبق في متناول الجمهور من آثار الآداب العربية سوى قصص أبي زيد اللؤلؤ وعنترة والزناتي خليفة وما إلى ذلك، وتضاءلت مكانة الشعر والأدب لدرجة أن كلمة « شاعر » كانت تطلق على جماعة يجلسون في القهوات ويلقون على مسامع الجماهير قصص أبي زيد والظاهر ميرس ويشدون بها على نفث الريبة

هذا التقهقر هو نتيجة حكم الولاة الأتراك والبكوات الماليك، ومن الواجب أن نفرق بين عهد البكوات الماليك وعهد السلاطين الماليك من الدولتين البحرية والبرجية، فإن عهد هؤلاء كان عهد عمران وحضارة، وعلى ما كان يتخلله من الظالم فقد كان كثير من السلاطين ذوي علم وأدب وثقافة قرب عهدهم بعصر الحضارة الإسلامية

أما حكم البكوات الماليك فكان عصر تأخر وجهالة، وكانوا هم والولاة الأتراك علة ما أصاب البلاد من التقهقر، ومن الخطأ أن يظن بعض المؤرخين أن البكوات الماليك ظلوا على توالي السنين سلالة الدولتين البحرية والبرجية، فإن المعروف أن أفواج الماليك كانت ترد إلى مصر من بلاد الشركس والقوقاز، فالصلة التي كانت تربط الماليك بالدولتين البحرية والبرجية عند الفتح المماني قد انقطعت مع الزمن، أضف إلى ذلك أن الماليك كان معروفا عنهم المقم وقلة النسل، وكانت ذريتهم تنقرض ونسلهم ينقطع في جيل أو جيلين فكانوا يسدون النقص الذي يبدو في صفوفهم بشراء أفواج الأرقاء من أسواق الرقيق، وإذا تأملت في تراجم البكوات الماليك الذين ذكرهم الجبرقي في تاريخه تجد أنهم ليسوا من سلالة الدولتين البحرية والبرجية بل هم مجلويون من أسواق الرقيق، وليس فهم أحد لم يكن أصله ملوكا اشتراه أحد الماليك

والآن وقد انتهينا من الكلام على نتائج نظام الحكم في ذلك العصر، فلننتقل إلى وصف الحالة في مصر عند مجيء الحملة الفرنسية

## الحالة الاجتماعية والاقتصادية في مصر

عند مجيء الحملة الفرنسية

من الواجب أن ندرس الهيئة الاجتماعية التي كانت تتألف منها الأمة المصرية في أواخر



القرن الثامن عشر ، لأن في هذه الهيئة نبتت الفكرة الأولى للروح القومية في مصر عند اصطدامها بالحلة الفرنسية

يبلغ عدد سكان مصر في ذلك الحين ثلاثة ملايين ، ينقسمون إلى حكام وعسكريين . فالحكوميين هم الشعب المصري والحكام هم فئة المالك الذين استبدوا بحكم البلاد وكان عدد القاطنة منهم يتراوح بين تسعة وعشرة آلاف مملوك<sup>(١)</sup> مابين مقسمين وأمرأء وكشائف وضباط وجاقات وأجناد وأتباع . وكان عددهم لا يزيد بالتناسل لأنهم قليلو النسل كما قلنا ، فكانوا يتممون نقصهم ويحفظون عددهم وعصبيتهم بالأرقاء يشترونهم فتياناً وفتيات من الشركس الذين كانوا يباعون في أسواق الرقيق بالاستانة فيمتنون بتربيتهم وكثيراً ما يعقونهم فيصبحون أحراراً ولكنهم يحفظون عهد أسيادهم ويكونون من حزبهم وعصبيتهم ، فمن هؤلاء المالك أحراراً أو أرقاء يتكون جيش المالك في مصر

أما الشعب المصري فهو سلالة الفراعنة والعرب ، امتزج به الدم المصري القديم بالدم العربي ، وكان يتألف من عدة طبقات اجتماعية نذكر حالة كل منها

## المعلماء

فأولاهم طبقة العلماء ورجال الشرع ، وكان لهم في ذلك العهد تأثير عظيم في نفوس الأمة وقيادة أفكارها ، ولهم الزعامة الأدبية والسياسية بين الجماهير ، وإليهم يرجع تدبير الحركات التي ظهرت على مسرح الحوادث السياسية في مصر في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر كما تراه مبسوطاً في فصول الكتاب

## الملاك والتجار

وطبقة الملاك والتجار ، وهي تشمل الحضريين سكان المدن والأقاليم ذوى الثروات المتوسطة ، وفيهم عدد قليل من أغنياء الملاك والتجار ، ويلحق بهذه الطبقة بعض «الوجاقية» أى ضباط الفرق وكذلك «الأفندية» كتاب الدواوين وغيرهم من سلالة العثمانيين الذين استوطنوا البلاد واقتنوا بها البيوت والأماك وصاهروا أهلها وناسبواهم فاندجوا مع الزمن في الشعب المصري وصاروا في عداد أفراده ، وبعد كثير من العلماء من طبقة الملاك عما كانوا

---

(١) تجد تفصيلاً وافياً عن عدد المالك في الفصل السابع

يملكون من البور والأراضى ، ومن الملاك طبقة الأغنياء فى البنادر والأقاليم ، وفيهم فئة من كبار الأعيان عرفوا بسمه الثروة وبسطة الجاه وهم سلالة البيوت المصرية القديمة الذين احتفظوا بمصيبتهم بما استكثروا من الأتباع والأشياء والأرقاء وما اقتنوه من الأملاك والضياع الواسعة التى كانت تمد بالقوى ، وسيرد أسماء بعضهم فى خلال فصول الكتاب ، وكانت لهم سطوة يرهبها الحكام المالك فكانوا يتقونهم ويحاملونهم بالمدارة ويتركون لهم فى مناطقهم شبه استقلال ذاتى

أما التجار فكانوا يشغلون حيزاً كبيراً فى المجتمع المصرى ، وكانوا أغنى طبقات الشعب ، ذلك أن الزراع كانوا أكثر استهدافاً لمظالم الحكام وقداحة الضرائب التى تحرمهم ثمرة كدهم وتجملهم فى حالة فقر مستمر ، والصناع كانوا عادة من الطبقات الفقيرة ، لكن شأن التجار غير هذا الشأن ، فكانوا إلى حد ما أحسن حالا وأرق مستوى من الطبقات الأخرى ، ووصل بعضهم إلى درجة عظيمة من الثراء والجاه وابتنوا القصور والوكالات ، واتسعت تجارتهم الخارجية ، وكانوا يستمدون ثروتهم من نشاطهم ومن مركز مصر التجارى ، فغير خاف أن مركز مصر الجغرافى يجعل منها الملتقى الطبيعى للقارات الثلاث أفريقيا وآسيا وأوروبا ، وكانت متاجر الهند لا تصل إلى أوروبا إلا معرجة بعصر ، فالت مصر من هذه الوجهة مركزاً تجارياً ممتازاً وصارت تجارة الشرق بيدها ، ورحمت منها المكاسب الطائلة ، لكنها بدأت تفقد هذا المركز الممتاز من يوم أن تم للرحالة البرتغالى فاسكو دى جاما الطواف حول القارة الأفريقية واجتياز طريق رأس الرجاء الصالح إلى الهند ( سنة ١٤٩٧ — ١٤٩٨ ) فقد أخذت تجارة الهند تتحول من مصر إلى طريق المحيط الأطلنطى فبدأت منزلة مصر التجارية تضمحل من أوائل القرن السادس عشر ، وزاد فى اضمحلالها زوال الاستقلال عنها بدخولها فى حوزة الحكم الثمانى سنة ١٥١٧ ، وضيق أسطولها الذى كان لها فى عهد السلطنة المصرية ، وهتقرها فى عهد الولاة الثمانيين والبكوات والماليك ، على أنها وإن أصابها ما أصابها من التدهور والاضمحلال كانت فى ذلك العهد سوقاً للتجار الواردة إليها من الشرق والغرب ، فكانت ترفأ إليها السفن قادمة من أوروبا وسوريا والأناضول وشرق البحر الأحمر ، وتصل إليها قوافل التجارة من السودان والحيشة وبعان أفريقية ومراكش والجزائر وتونس وطرابلس . وكذلك كانت تصل إليها القوافل والسفن من فلسطين وسوريا وبلاد العرب ، فكانت بكل ذلك ملتقى التجارة من سائر الأقطار ، تيجيها القوافل من السودان ودارفور حاملة العاج والتبر والصمغ العربى وريش النعام والتمر الهندى والجنلود والرقيق والكحل

وقرن الخرنيت والشب والظرون ، وتنقلب حاملة منسوجات مصر وحاصلاتها وحاصلات البلاد الأخرى التي تستوردها ، وكذلك تبيع القوافل من فزان وبلاد المغرب حاملة الأصواف والشيلان البيضاء والطرايش والأحذية (البغ) والأردية الصوفية المعروفة (بالبرانس) وأغطية الصوف المعروفة بالأحرمة ، وزيت الزيتون ، والعسل والشمع والسمن ، وتنبج من الهند ومن بلاد السلطنة العثمانية (الأناضول وسوريا واليمن والحجاز) الحرير والبن والحرير وأنواع الطيب والعمطور والتوابل والأبازير والمقاير والتبغ والخشب والصابون والزيت والشيلان الكشمير والقواكه ، وتستورد من أوروبا الأجواخ والقطيفة والحرير والساتان والورق والمجوهرات والحلى والحديد والنحاس والخشب والرخام والزجاج والمرآة والخزف والصيني والأسلحة وغير ذلك ، كما كانت تصدر إلى أوروبا الأرز والفلل وبعض المنسوجات القطنية التي كانت تصنع في القاهرة والحلة الكبرى ورشيد ، وتصدر إليها كذلك الحاصلات والبضائع التي كانت ترد إليها من أفريقيا وآسيا وأم هذه الأصناف البن التي كان يرد لها من اليمن

قال المسيو جيرار Girard وكيل إدارة الري في عهد الحملة الفرنسية يصف مركز مصر التجاري في أواخر القرن الثامن عشر :

« إن الحاصلات التي تنتجها أنحاء القطر المصري تتبادلها المدن والقرى فتأخذ منها جد كفايتها ، وما فضل منها يصدر من مصر مع ما تنتجه الصناعة المصرية إلى الأقطار الأفرقية وبعض البلاد الأوروبية ، فيباع فيها بثمنه أو بموض منه بضائع من التجارة أو عروضا ، وقد كان لمركز مصر فضل كبير في جعلها ملتقى ومستوعا للتجارة الخارجية »

وقد اجتنب هذا المركز التجاري عدداً من الجاليات الأجنبية سوادهم من الإيطاليين وبخاصة سكان البندقية (فينسيا) والفرنسيين والأروام وكانوا يقيمون في القاهرة والإسكندرية ورشيد ودمياط

ثم كان لمصر جمارك في ثنورها التجارية وهي القاهرة ، ومصر القديمة ، وبولاق ، والقصر ، والسويس ، ودمياط ، ورشيد ، والإسكندرية ، فأما جمرق القصر فكان متروكا لحكام الجهات القبلية ، وأما جمارك باقي الثغور فكانت مقسمة بين مراد بك وإبراهيم بك ، فاختص مراد بك بجمارك القاهرة ، وبولاق ، ومصر القديمة ، ورشيد ، ودمياط ، والإسكندرية . واختص إبراهيم بك بجمرك السويس وكان أكثر حركة وإيراداً لأن إليه ترد معظم بضائع الهند وبلاد العرب ، وكان إرادته وحده يعدل إيراد جمارك القاهرة ودمياط ورشيد والإسكندرية

جميعاً ، وكان إبراهيم بك يقيم من أتباعه عمالاً يحصلون مكوس الجرك بخلاف مراد بك فإنه أعطى جمارك الثور التي كانت في قسمته لأربعة « ملترمين » وجعل على كل منهم خراجاً معيناً يؤدي إليه في أوقاته وينالون ثم إيراد الجمارك لأنفسهم ويتكلمون بمصاريف إدارتها كمرتبات الكتبة والعمال ، وكان إيراد جمارك القطر المصري وقتئذ نحو ثلاثة ملايين فرنك (١)

(١٠٠٠ ر. ١٢٠٠ جنيه) تحسب فيها المصاريف وأرباح الملتزمين

### طريقة المزارعين « الفلاحين »

ومنهم يتكون الشطر الأكبر من الأمة ، وكانوا في حالة يرثى لها من الجهل والقاقة وكانت الزراعة في همهم وتأخر بسبب حرمان البلاد من منشآت الري والصرف تضمن استخدام مياه النيل وتوزيعها ، ولحرمان البلاد من حكومة عادلة توطن الأمن وتصون حقوق الأفراد ، كانت الزراعات المعروفة في مصر هي الحبوب وما إليها كالقمح والأرز والنبات والشمير والقول والعدس والحمص ، والتمس ، والحلبة والخنازير ، والزعفران ، والبرسيم ، والنيلة ، والقنب (النيل) والكتان ، والبصل ، والسهم ، والسلج ، والقرطم ، والمصفر ، والخضر ، والفواكه والثمار كالبلح على اختلاف أنواعه والنب والبطيخ والتمار والضميرى والموز والمان والين والبرقال والليمون ، وكان البلح — ولم يزل — أكثر فواكه مصر وفرة

وكان القطن يزرع في بعض جهات الوجه البحري والصعيد ، ذكر المسيو (جيرار) Girard في رسالة له عن حالة الزراعة في مصر عهدئذ أنه شاهد زراعة القطن في الدلتا والوجه القبلي ، فقطن الوجه القبلي كان يزرع ويبقى قائماً على سوقه مدة تتراوح بين ثمانية وعشر سنوات ، ففي السنوات الثلاث الأولى يزرع بين شجيرات بعض الخضر وبخاصة البامية ، وفي السنوات السبع الباقية تبقى شجيرات القطن قائمة وحدها ، وقال عن قطن الدلتا إنه كان يزرع سنوياً وكان يروى ثلاث مرّات في السنة في خلال خمسة أشهر ، وقال إن محصول القطن بجهة سمندوفل قنطاراً ونصفاً أو قنطارين كل قنطار ١٢٠ رطلاً وإن ثمن القنطار ١٦ ريالاً وقال إن قطن الوجه القبلي كان يفسج في مصانع الأقمشة في القطر المصري (٢) وذكر طريقة حليج القطن فقال إنها غاية في البساطة يتخذ لها أسطوانات تدوران حول محورها

(١) كما يقدروا للسيد استيف في كتاب تخطيط مصر الجزء الثاني عشر

(٢) كتاب تخطيط مصر الجزء ١٧

متقابلتين ، وهذه المشاهدات رأها جبار في خلال رحلته في الوجه البحرى والقيل سنة ١٧٩٩ ونسنة ١٨٠٠ وأوائل سنة ١٨٠١

وغنى عن البيان أن هذا القطن كان من صنف ردىء ، أما القطن الحديث فلم تدخل زراعته في مصر إلا في عهد محمد على الكبير حوالى سنة ١٨٢٠

وكذلك كان يزرع قصب السكر ولكن بمقادير قليلة ، ذكر السيو جبار في رسالته المتقدمة أن زراعة القصب كانت كثيرة النفقات لا يقبل عليها إلا قليل من الزراع وكانت منحصرة قريئاً في مديرية جرجا بجهات فرشوط<sup>(١)</sup> واخيم وفيها مصانع للسكر ، وكان يزرع أيضاً في مديرية اطنح بمقادير كثيرة ويزرع القليل منه في بعض بلاد الوجه البحرى ولكنه لا يصنع منه السكر بل يباع كفاكهة ، وكانت مصر تصدر السكر لبعض بلاد السلطنة العثمانية ، ويزرع التبغ في بعض جهات الصعيد ، ويزرع الورد بكميات وافرة في الفيوم ومنه يستقطر ماء الورد في مدينة الفيوم والقاهرة

### الصناع والصناعات

لم تكن البلاد تعرف الصناعات الكبرى ، واقتصرت الشأن فيها على الصناعات الصغرى ، وكان الصناع والمال يقتظمون في طوائف تشبه نقابات الصناع الحالية لكل حرفة طائفة يرأسها شيخ يسمى ( شيخ الطائفة ) وإليه النظر في شؤونها ، ولشايخ الطوائف الصناعية نواب أو وكلاء يعرفون بالتقياء يختارهم إما حكام المدن التى يقيمون بها وإما السلطة العليا في القاهرة ، فكلما أرادت الحكومة النظر في نظام تلك الطوائف أو تحسين ما تفرضه عليها من الفرض خاطبت في ذلك مشيختها فيتولون توزيع الترم المطلوب على أفراد الطائفة ، وكان لنظام الطوائف بعض المزايا في ترقية شؤون الصناعة والصناع وتعليم البندين منهم أسرار الصنعة ، فكان لكل صناعة مدة تمرين يتدرب المال خلالها على العمل فيها فإذا أراد العبي المتعلم أن يصير « معلماً » أو « أسطى » بعد حذقه الصنعة التى اختارها ذهب إلى شيخ الطائفة مصحوباً بمعلمه وشهد له العلم بأنه أهئ الصنعة ومهر فيها وعندئذ ينادى به الشيخ عضواً من أعضاء الطائفة

وكانت الصناعات الصغرى منتشرة ومتفرعة إلى فروع عدة<sup>(٢)</sup>

(١) فرشوط التابعة الآن لمديرية قنا

(٢) رجعتنا في هذا القسم ( مع شيء من التصرف ) إلى بحث السيو جومار الذى شامد صناعات مصر في ذلك العصر

فنها الصناعات والمهن المتعلقة بالمواد الغذائية ، كطحن القمح والقررة وخبزها ، وضرب الأرز وتبييضه وطحن البن واستفراخ البيض واستخراج السكر من القصب واعتصار الزيت من السمسم ومن بذر الكتان ومن القرطم والملحجم ، وحرفة القصاية ( الجزارة ) وتدميس الفول ( الدمس ) واستخراج الخلل من البلح أو الزيت ، واستقطار ماء الورد والعرق ، واشتياار العسل من خلايا النحل ، وصناعة الفطير والحلوى والمربات

والصناعات الخاصة بالملبس ، وهي غزل القطن والكتان والصوف ، كان يفعله الرجال والنساء بالمنازل البوية وينسجون منه الأقمشة الكتانية والصوفية والقطنية التي تكفي حاجة البلاد ، ونسج الأقمشة الحريرية وقد اشتهرت به مدن القاهرة والمحلة الكبرى ودمياط ( واحتفظت بهذه الشهرة إلى اليوم ) وصناعة القرو ( الكرك ) وصناعة اللباد ومنه كانت تصنع الطرايش والبد ( جمع لبنة ) ، وصناعة البسط المعروفة بالأكلة ( جمع كليم ) ، وقطوع المراكب ، ثم صناعة الأقمشة وقصرها وتبييضها ، والتطريز ، وكانت صناعته على جانب من الإقنان وكان المطرزون المصريون موضع إعجاب الأفرنج ولا سيما طريزهم الحرير والجوخ والموسلين وطريز الجلود بأسلاك الذهب والفضة

وكذلك المقادون قعد برعوا في صناعة القيطان ( الكردون ) والشراريب من القطن والحرير وأسلاك الذهب والفضة ، ودباغة الجلود ، وصناعة الأحذية وسروج الخيل وكل ما محتاجه دواب الركوب ، وصناعة خياطة الملابس للرجال والنساء

والصناعات المتعلقة بالعمران ، كضرب الطوب ونحت الأحجار وصنع الجير والجبس والمصيص ، والبناء ، وقطع البلاط ، وتركيبه ، وصناعة أواني الزجاج ، وتنجيد الأثاث وصناعة الفخار والخزف . وصنع الشمع ، والسبح ( جمع سبحة ) . وعمل أحجار الشبكات التي يخن فيها وأنابيبها ، وصناعة الحصير والمكاتل ( القفف والمقنان ) والتجارة ، وبناء السفن ، وصناعة البارود والجلل ، وصنع الأسلحة وإصلاحها ، وصناعة النحاس وتبييضه ، والمعادنة والخراطة ، وكانت هذه الصناعة رائجة في ذلك العصر رواجاً عظيماً وبخاصة في استخدام قطع الأخشاب المخروطة في عمل النوافذ والأبواب والمشربيات ، وكان الخراطون أحقق صناع القطر المصري ، وصناعتهم من أكثر الصناعات المصرية قدماً ، ونبغ الكثير منهم في حِرْط ( الكهرمان ) والماج والتفنن في إهتان أنابيب الشبكات التي كانت الوسيلة الوحيدة لتسخين التبغ

ومن الصناعات الأخرى الصياغة وتركيب الأحجار الكريمة ، وسك النقود ، ويدخل في عداد الصناعات السقاؤون وكان عددهم كبيراً جداً في ذلك العهد لأنهم يحملون ماء النيل إلى جميع السكان في القاهرة والبنادر ، والمكaron ، والمالون ، والتوتية في النيل

### المسلمون والأقباط

كان المسلمون والأقباط يشتركون على السواء في أحمال ظلم الحكام وسوء الإدارة ، وشارك الأقباط إخوانهم المسلمين في الزراعة والصناعة والتجارة ، وتخصص الأقباط في الأعمال الحسابة والمالية ، فعهد إليهم البكوات الماليك والكشاف بتحصيل الضرائب وتقديرها وتوزيعها على الأطيان والحاصلات ، فكانت لهم في هذه الناحية من إدارة الحكومة سلطة مطلقة لا ينازعهم فيها منازع ، ذلك أن بأيدى الصياغة سجلات الأطيان والضرائب في القرى وإليهم تقدير ما على كل ذى مال من الضريبة ومعرفة الأطيان للزروعة والبور أى ما يؤخذ منها الخراج وما لا يؤخذ ، وبيان من دفع من الفلاحين ومن لم يدفع ، وكانت سلطتهم في هذا المجال مطلقة لا رقابة عليها ، وما يثبتونه في دفاترهم حجة لا جدال فيها ، ورؤساؤهم يسمون « المباشرين » وهم أصحاب النفوذ والسلطة عليهم ، وكان هؤلاء المباثرون هم وكلاء المالك وكبار الملتزمين وقواما عليهم في إدارة أملاكهم وتحصيل الضرائب من الأطيان الداخلة في التزامهم ، فكان لهم نفوذ كبير في إدارة الحكومة وسلطة لا منازع فيها في القرى ، ورئيسهم يسمى « كبير المباشرين » وله نفوذ عظيم يستمد من اتساع أعمال وظيفته وقرعها في الأقاليم وسلطته على من تحت يده من المباشرين والصياغة والكتبة والساحين ، ووصل بعضهم إلى أرفع مراتب النفوذ والجاه ، كالعلم رزق والمعلم إبراهيم الجوهري وأخيه جرجس الجوهري ، قالعلم رزق كان كاتب سر على بك الكبير ومدير حسابات الحكومة في عهده وكان بمثابة مستشاره ومرجعه في شؤون الدولة ، فكان له من النفوذ والسلطة ما لم يتوافر لأحد من رجال الحكومة ، وقد خلفه في نفوذه المعلم إبراهيم الجوهري . ذكره الجبرتي في وفيات سنة ١٢٠٩ هجرية ( ١٧٩٥ ميلادية ) فقال عنه إنه « رئيس الكتبة الأقباط بمصر وإنه أدرك في الدولة بمصر من المنظمة ونفاذ الكلمة وعظم الصيت والشهرة مع طول اللدة بمصر ما لم يسبق لثله من أبناء جنسه » ، قال : « وأول ظهوره من أيام المعلم رزق كاتب على بك الكبير ، ولما مات على بك والمعلم رزق ظهر أمر المترجم ونما ذكره في أيام محمد بك أبى النعب ، فلما انقضت أيام محمد بك وترأس إبراهيم بك قلبه جميع الأمور ، فكان

هو اللشار إليه فى الكليات والجزئيات، حتى دقار الروزنامة والبرى وجميع الإزاد والنصرف، وجميع الكتبه والصيارف تحت يده وإشارته ، وكان من دهاقين العالم ودهاتهم لا يعزب عن ذهنه شىء من دقائق الأمور »

وذكر الجبرتى أيضاً فى وفیات سنة ١٢٢٥ هجرية ( ١٨١٠ — ١٨١١ ميلادية ) ترجمة العلم جرجس الجوهرى فقال : « مات العلم جرجس الجوهرى كبر المبشرين بالمديار المصرية ، وهو آخر العلم ابراهيم الجوهرى ، ولما مات أخوه فى زمن رئاسة الأمراء المصرية ( المالك ) تبين مكانه فى الرئاسة على المبشرين والكتبة ، ويده حل الأمور وربطها فى جميع الأقاليم المصرية ، نافذ الكلمة وافر الحرمة ، وتقدم فى أيام الفرنسيس فكان رئيس الرؤساء ، وكذلك عند مجىء الوزير ( يوسف باشا ) والمثانيين وقدموه وأجلسوه لما يسديه اليهم من الهدايا والרגائب حتى كانوا يسمونه جرجس افندى ورايته يجلس بجانب محمد باشا خسرو (١) بجانب شريف افندى الدقردار ( مدير الشؤون المالية ) ويشرب بحضورهم الدخان وغيره ، وراعون جانبيه ويشاورونه فى الأمور ، وكان عظيم النفس ، ويعطى المطايا ويفرق على جميع الأعيان عند قدوم شهر رمضان الشموع المساية والسكر والأرز والكساوى والبن ، ويعطى ويهب ، وبني عدة بيوت بحارة الرنديك والأركبية وأنشأ داراً كبيرة وهى التى يسكنها الدقردار الآن ويعمل فيها الباشا ( محمد على باشا ) وابنه ( ابراهيم باشا ) الآن الدواوين عند قنطرة الدكة ، وكان يقف على أبوابه الحجاب والخدم » ، وهذا وقد بقى العلم جرجس الجوهرى حافظاً مكانته إلى أيام محمد على باشا حيث ظهر العلم غالى وتقرّب إلى محمد على فجعله فى مكانه وتوفى جرجس الجوهرى سنة ١٨١١

### التقسيمات الإدارية

كانت مصر مقسمة من الوجهة الإدارية إلى ست عشرة مديرية تسمى كل منها « إقلياً » أو سنجقية تسمة منها فى الوجه البحرى وهى البحيرة ، ورشيد ، والقربية ، والمنوفية ، والمنصورة ، ودمياط ، والشرقية ، والقليوبية ، والجيزة ، والباقي فى مصر الوسطى ومصر العليا وهى اطفح ، وبني سويف ، والقفيوم ، والنيا ، وأسيوط ، وجرجبا ، وقنا وهذا التقسيم هو الذى كان معمولاً به فى أواخر عهد البكوات المالك ، وكانت مفلولط وإسنا زمناً ما كل منهما إقلياً قائماً بذاته

(١) وإلى مصر وسيأتى الكلام عنه فى الفصل الخامس عشر من الجزء الثانى



## كلمة عن القاهرة وأمهات مدن مصر

كانت القاهرة ولم تزل أكبر مدن القطر المصري وعاصمته ومقر حكومته ، وكانت حدود العمران فيها تنتهي شمالاً من الحسينية إلى باب الحديد ، وجنوباً من القلعة إلى باب عرب اليسار إلى باب السيدة عائشة إلى جامع السيدة نفيسة فياب طولون فياب البغالة فياب السيدة زينب<sup>(١)</sup> ، وشرقاً من القلعة فياب الوزير فياب الغرب فالحسينية ، وغرباً من باب الحديد إلى الأزبكية فياب اللوق فياب الشيخ ربحان فياب الناصرية فياب السيدة زينب ، وكان موقع المدينة يبعد أكثر من ألف متر عن شاطئ النيل وبينها وبينه مزارع

وإذا أردت أن تعرف الفرق بين عمرانها في ذلك العصر وحدوده في العصر الحاضر فحسبك ملاحظة بعض المعالم المروفة في المصريين ، فجامع الظاهر مثلاً وهو الكائن الآن بميدان الظاهر كان خارج باب الحسينية وخارج مباني القاهرة ، وكان باب الحديد نهاية حدود مباني القاهرة من الشمال الغربي ، والأزبكية والمباني التي حولها نهاية العمران غرباً ، والطريق بينها وبين بولاق مقفلة خالية من العمران ، لذلك كانت بولاق تمد من ضواحي العاصمة ، كما كانت مصر القديمة أيضاً ، وكانت الطريق بين الناصرية ومصر القديمة مقفلة من الساكن ليس بها إلا مزارع وجداني ، ولم يكن على شاطئ النيل سوى بعض مبان قليلة كفحص إبراهيم بك ( قصر المعيني ) تجاه الروضة وبجواره بيت لمحمد كاشف الأرناؤوطى وعن شماله بيت لمصطفى بك

وكانت بولاق مرفأ القاهرة في الشمال ، ومصر القديمة مرفأها من الجنوب ، فبولاق هي برفضة تجارة الوجه البحري ، ومصر القديمة برفضة تجارة الوجه القبلي ، وكانت بولاق مقراً لجررك القاهرة ، وصفها السيوجومار أحد مهندسي الحملة الفرنسية في رسالته عن تخطيط القاهرة ، ونما لفت نظره فيها كثرة كائنها التجارية ووفرة النلال التي كانت تكسب على ساحل النيل دون حراسة وبشر أن توضع في مخازن ، قال السيوجومار إن الثقة بين الناس في مصر كانت على أتم ما يكون بحيث لم يكن تمت خوف من أن تمتد يد إلى تلك النلال<sup>(٢)</sup> ، وهذا يدل على أن الصدق والأمانة كانا من فضائل الخلق المصري

وكانت شوارع القاهرة ضيقة كثيرة التماريح وأطولها هو الموصل بين باب الحسينية

(١) على مقربة من مسجد السيدة زينب رضى الله عنها

(٢) كتاب تخطيط مصر الجزء التاسع عشر

إلى باب السيدة نفيسة وطوله أربعة آلاف وستماية وأربعة عشر متراً ، ولم يكن بها سوى أربعة ميادين وهى ميدان قراميدان تحت القلعة ، وميدان الرملة المجاور لقراميدان ويفصلهما باب اسمه باب قراميدان ، وميدان بركة القليل ، وميدان الأزبكية ، ويسمى بركة الأزبكية ، وعُفَّت الميادين والرحاب والتزهات التى تكلم عنها المقرزى فى خططه كما درست قصور الخلفاء والسلاطين وما شيده من المآثر والمناظر واللدواوين والمدارس ودور الكتب وغيرها من معالم الحضارة والعمارة

وكان ميدان الأزبكية ( أو بركة الأزبكية كما كانوا يسمونها ) لأجل الميادين الأربعة تحيط به القصور البديعة يسكنها الأمراء والأعيان ، وفى أيام النيفضان يمتلئ بمياه النيل فيصير لجة من الماء يتزده فيها الناس بأزوارق فى النهار والليل ، وفى المساء تودع المصاييح من البيوت الطلة عليه فيكون منظر الميادين من أبهى المناظر ولا سيما فى الليالى القمرية ، وقد نقل الجبرئى فى كتابه ما قاله الشيخ حسن المطار أحد أدباء ذلك العصر فى وصف ميدان الأزبكية قال : « وأما بركة الأزبكية فهى مسكن الأمراء وموطن الرؤساء ، قد أهدت بها البساتين الوافرة الظلال ، المديعة المثال ، قترى الخضرة فى خلال تلك القصور الميضية ، كتياب سندس خضر على أبواب من فضة ، يودع بها كثير من السرج والشموع ، فالأنس بها غير مقطوع ولا ممنوع ، وجمالها يدخل على القلب السرور ، وينهل العقل حتى كأنه من النشوة مخمور » فهذا الوصف يعطيك فكرة عما كانت عليه الأزبكية فى ذلك العصر وأنها كانت كما هى الآن مثابة المخطوط والمسرآت

وكان بالقاهرة كثير من الأبنية المتخربة ، ولا غرو فقد تناقص عمرانها فى خلال حكم الولاة الأتراك والبكوات المماليك ، واستمر الهدم والتخريب فى عهد الحملة الفرنسية كما سيجىء بيانه ، وكانت مقسمة إلى أمان وأخطاط كل خط يحتوى على شوارع والشوارع بها دروب وحارات وعطفات ، وأغلب الحارات والمطقات غير نافذة إلا إلى اللرب ، فكانت المدينة أشبه بعمدة قرى مجتمعة ، والدروب والمطقات والحارات عليها ( بوابات ) كل بوابة تلتقى عند المشاء وينام خلفها بواب يؤجر من أهلها ، ولا يتأخر أحد بعد المشاء وراء الحارة إلا لضرورة ، ولم يكن للحكام أية فكرة فى العناية بأمر النظافة والصحة العامة فسادت حالة المدينة من هذه الجهة وشاعت فيها الأمراض

والرغم مما أصاب البلاد والماصمة من التأخر فى خلال المصور فإن عظمها القديمة قد تقلبت على عوامل الفناء وسوء الإدارة ، فقد كانت أعظم بلاد الشرق قاطبة بمسد الاستانة ،

وكان بها كثير من المساجد والمآثر الجميلة وكثير من القصور والمآهد ودور الكتب المنيقة  
بها والحمامات ، وبها كثير من الأسواق التجارية الكبيرة والخانات والمخازن ( الوكائل ) التي  
تجلب إليها البضائع من مختلف الأقطار

ويبلغ عدد سكان القاهرة في ذلك العصر حوالي ٣٠٠,٠٠٠ نسمة ، وهذا الإحصاء  
مأخوذ عن تقدير الإفرنج الذين كانوا يسكنون العاصمة قبيل الحملة الفرنسية وفيه بيان الطبقات  
التي يتألف منها هذا العدد كما يلي (١) :

١٢,٠٠٠	جهازية وعمايك
٦,٠٠٠	ملاك وفيهم العلماء
٤,٠٠٠	تجار الجملة
٢٥,٠٠٠	صناع ورؤساء حرف
٥,٠٠٠	صغار التجار
٢,٠٠٠	قهوجية وكان بالقاهرة ١٢٠٠ قهوة وفي بولاق ١٠٠ وفي مصر القديمة ٥٠
٣٠,٠٠٠	سقاؤون وخدم وأتباع وسراري وجواري
١٥,٠٠٠	عمال ومحالون
١٢٦,٠٠٠	نساء
٧٥,٠٠٠	أطفال ذكور وإناث
٣٠٠,٠٠٠	المجموع

ويقول السيوجومار Jomard (٢) إن في هذا العدد شيئاً من المبالغة لأنه لم يكن مينياً على  
إحصاء فعلي ، ويقدر هو عدد سكان العاصمة بـ ٢٦٣,٠٠٠ نسمة (٣) ويقدرهم الكولونيل  
جاكوتان Jacotin (٤) بـ ٢٥٣,٢١٠ نسمة ، وكان أم المدين بسد العاصمة الإسكندرية وعدد  
سكانها ٨٠٠٠ نسمة ، ورشيد ١٣٠٠٠ نسمة ، ودمياط ٢٠٠٠٠ ، والحملة الكبرى  
١٧٥٠٠ وسمندود ٥٠٠٠ ، والنصورة ٧٥٠٠ ، وقلوب ٤٥٠٠ ، وبليس ٣٠٠٠ ، ومنوف  
٤٠٠٠ ، وطنطا ١٠٠٠٠ ، وأسيوط ١٢٠٠٠ ، وجرجا ٧٠٠٠ ، وبني سويف ٥٠٠٠ ،  
ومدينة الفيوم ٥٠٠٠ ، وأطنج ٤٠٠٠ ، والجزيرة ٣٠٠٠ ، وقنا ٥٠٠٠ ، وادفو ٢٠٠٠  
وهذا التعداد مأخوذ معظمه عن إحصاء مهندس الحملة الفرنسية

- 
- (١) كتاب تخطيط مصر الجزء الثامن عشر  
(٢) أحد مهندسي الحملة الفرنسية . انظر ترجمته في الفصل الرابع  
(٣) كتاب تخطيط مصر الجزء التاسع عشر  
(٤) من مهندسي الحملة الفرنسية . انظر ترجمته في الفصل الرابع

## الفصل الثاني

### تطور نظام الحكم

#### في عهد الحملة الفرنسية

تبدلت الحال غير الحال في عهد الحملة الفرنسية وطراً على نظام الحكم في مصر تغييرات ذات خطر وشأن كان لها نتائج بعيدة المدى في حالة البلاد السياسية والاجتماعية قبل أن نتكلم عن هذه التغييرات يعمد بنا أن نقول كلمة عن الحملة الفرنسية ووقائعها لتقرن الأسباب بمسبباتها ، ونصل النتائج بمقدماتها

#### أسباب الحملة الفرنسية

الحملة الفرنسية هي دور من أدوار التنازع التي قام بين فرنسا وإنجلترا على الفتح والاستعمار ، ذلك التنازع الذي يرجع عهده إلى القرن السابع عشر ، واستمر خلال القرن الثامن عشر ، ثم أخذ طوراً جديداً بعد الانقلاب العظيم المعروف بالثورة الفرنسية إن الثورة الفرنسية قد دكت معالم النظام القديم في فرنسا وكان من نتائجها سقوط الملكية وإعلان الجمهورية سنة ١٧٩٢

تألبت الدول الملكية في أوروبا على الجمهورية الفرنسية واتسمت بها للقضاء على الثورة وقتلها في مهدها قبل أن يطفى تيارها ، ولما دخلت إنجلترا في الميدان كانت هي روح التحالف وقوام تلك المؤامرة ، واستمرت الحرب سجالاتاً بين الفريقين إلى سنة ١٧٩٥ ، فلما جاءت سنة ١٧٩٦ زحف الجنود الفرنسية على شمال إيطاليا بقيادة نابليون بونابرت<sup>(١)</sup> ، فظهرت عبقرية ذلك القائد العظيم في ميادين القتال بما أحرزه من

(١) ولد نابليون بونابرت في مدينة Ajaccio خاصة جزيرة قرشقة (كورسكا) في ١٥ أغسطس سنة ١٧٩٦ واسم أبيه كارلو مارياني بونابرت Carlo Maria di Buonaparte وهو من أسرة أسعلا لإيطاليا ، وكانت جزيرة كورسكا تابعة لجمهورية جنوى واستولت عليها فرنسا سنة ١٧٦٨ أي قبل ولادة نابليون بسنة ، فهو لإيطاليا الأصل فرنسي للولد ، والإنجرتي يسميه (بونابرت) ، وهذه التسمية تتطابق كما ترى على الإطلاق لاسمه واسم والده ، وقد حرف في مصر بهذا الاسم ، ولم يذكره الجبرتي باسم نابليون قط ، لأنه إلى ذلك العهد كان يعرف بالجنرال بونابرت ، ولم ينسب عليه اسم نابليون إلا =

الانتصارات الساحقة على الجيوش النمساوية في «حروب إيطاليا»، تجلّت مواهبه الحربية وبهر القواد القدماء بخططه الحديثة وابتكاراته العظيمة، وذاع صيته في الآفاق بما ناله من الفوز في وقائع عديدة أهمها واقعة منتنوت Montenotte (أبريل سنة ١٧٩٦)، ولودي Lodi (مايو) وكاستيجليون Castiglione (أغسطس)، وأركول Arcole (١٥ - ١٧ نوفمبر) وريفولي Rivoli (١٤ يناير سنة ١٧٩٧)<sup>(١)</sup> وفتح مملكة البيمونت، Biemont. واكتسح سهول لومبارديا، ودانت له إيطاليا وظل يتابع انتصاراته حتى تهدد فيينا عاصمة النمسا، فاضطرت إلى طلب الصلح وعقدت وإياه هدنة ليون في ١٨ أبريل سنة ١٧٩٧ وأملى عليها شروط الصلح في كامبوفورميو Compo Formio (١٧ أكتوبر سنة ١٧٩٧) فخرجت فرنسا من الحرب وقد تملكّت بلاد البلجيك وماينس Mayence، وامتدت حدودها إلى نهر الرين وبسطت نفوذها في ربوع إيطاليا، وامتدت سلطتها إلى شواطئ بحر الأدرياتيك واستولت على الجزائر الأيونية Ioniennes، وأصبح لها اللقائم الأسمى في القارة الأوروبية، كل ذلك بفضل الانتصارات التي أحرزها نابليون وهو بعد لم يتجاوز الثامنة والعشرين.

فازت فرنسا على الحلفاء في القارة الأوروبية، لكن إنجلترا التي كانت أقوى الحلفاء شكّية وأشدّهم مراساً بقيت بحكم موقعها الجغرافي وسيادتها في البحار بأمان من ضربات

== من يوم أن نودي به امبراطوراً سنة ١٨٠٤ ثم صار هذا الاسم علماً له في التاريخ

تلقى نابليون دروسه الأولى في مدرسة ألكسيو ثم التحق بمدرسة بريون Brienne الحربية بفرنسا، وكانت تخاليل الأفكار والنموذج تبدو عليه في صباه ثم دخل مدرسة باريس الحربية سنة ١٧٨٤ وانتظم في سلك المدفعية وجاز الامتحان سنة ١٧٨٥ والتحق بالجيش، ولا شبت الثورة الفرنسية أضرم إليها وبعد أن أعلنت فرنسا الحرب على النمسا ثم على إنجلترا وهولانده وإسبانيا تخرج مراكز فرنسا وأحاط بها الأعداء من بكل جانب، وأجلّ الانجليز سنة ١٧٩٣ طولون ميناء فرنسا البحرية على البحر الأبيض المتوسط فظهر نبوغ نابليون الحربي في حصار طولون وكان له الفضل في استرجاعها، وعهدت إليه الحكومة بهمة الدفاع عن الجمعية الوطنية وإخماد فتنة المزارعين عليها سنة ١٧٩٥ فأخذ الفتنة وأخذ الجمعية الوطنية، ثم عينته الحكومة قائماً للجيش الفرنسي في حرب إيطاليا سنة ١٧٩٦ فظهر فيها بمقرته الحربية، وبعد انتهاء الحملة على إيطاليا أعقبها الحملة على مصر كما ترى في سياق الكلام، وبعد أن عاد نابليون من مصر سنة ١٧٩٩ قلب نظام الحكم في فرنسا ونودي به قيصراً أول ثم امبراطوراً سنة ١٨٠٤، وساق جيوشه على أوروبا فظفها على أمراها إلى أن أخذ نجمه في الأفول وانتهت حروبه بهزيمته في واقعة واترلو سنة ١٨١٥ ووقعه أسيراً في يد الانجليز، فنقوه إلى سنت هيلين وبقي في هذه الجزيرة النائية بالاقباض حتى غصص التي وإيدبار الدهر إلى أن مات بها سنة ١٨٢١

(١) أسر نابليون من الجيوش النمساوية في تلك الوقائع ١٥٠.٠٠٠ أسير ونجم منهم ١٧٠ راية و ٥٥٠ مدفعاً من مدافع الحصار و ٦٠٠ مدفع من مدافع الليتان، عدا السفن الحربية التي استولى عليها.

نابليون وانتصاراته ، ففكر في ميدان حرب يهزم فيه إنجلترا ، فوجد أن مصر هي ذلك الميدان

اتجهت أطماع نابليون إلى فتح مصر عقب انتصاراته في حروب إيطاليا ، وحدته نفسه أن يمد للمدن ويهد الطريق لإنفاذ حملة كبيرة تخترق البحر الأبيض المتوسط وتحتل مصر فتتخذها قاعدة عسكرية تصل منها إلى الأملاك الإنجليزية في الهند ، وهو مشروع بعيد المدى كثير العقبات يكاد يكون أقرب إلى الأمان والأحلام ، ولا غرو فإن انتصارات نابليون في إيطاليا قد مكنت له في الأرض وطيرت ذكره في الخافقين وجعلته يطمح إلى انتصارات أعظم ، وفتوحات أكبر ، فأتجهت آماله إلى الشرق موطن الفتوحات العظيمة ، ولعل مقامه في إيطاليا موطن يوليوس قيصر ، وعلى مقربة من مقدونية موطن الاسكندر قد أوحى إليه أن يقلد قيصر الروماني والاسكندر القدوني في فتوحاتها الواسعة ، فاختار مصر ليجعلها ميداناً لانتصارات جديدة واجتذبت عظمة مصر القديمة ، فحبل له أن يشيد على ضفاف النيل دولة شرقية عظيمة تحقق ما كان يطمح في صدره من الآمال السكبار ويصل منها إلى ضرب إنجلترا عمدة فرنسا اللدود في ذلك الحين ، فالحملة الفرنسية كما ترى هي دور من أدوار التنافس بين فرنسا وإنجلترا

استمرت الفكرة في ذهن نابليون وهو بعد في إيطاليا ، وأخذ يكدر فكره ويد الوسائل لتحقيق شروعه العظيم ، فوجه عنايته إلى كل ما يهد له سبيل الحملة على مصر ، فرأى أن يضمن لفرنسا السيادة على البحر الأبيض المتوسط ليتخذ سبيلاً إلى مصر ويحمله « بحيرة فرنسية » كما يقول في مذكراته ، وتحقيقاً لهذه الغاية استولى على أسطول جمهورية البندقية وضمه إلى أسطول فرنسا واستولى على أنكونا وسيطر على جنوا ، واحتل كورفو والجزر الأخرى من الجزائر الأيونية ليتخذها قاعدة بحرية لفرنسا في البحر الأبيض ، وطمح إلى الاستيلاء على جزيرة مالطة للفرس نفسه ، وأفضى إلى حكومة الديركتوار<sup>(١)</sup> وهو بعد في إيطاليا ومشروع في الحملة على مصر

فكتب إليها من ميلان بتاريخ ١٦ أغسطس سنة ١٧٩٧ أي قبل عقد صلح كامبوفورميو بشهرين وبعد احتلاله الجزائر الأيونية يقول :

---

(١) يطلق اسم حكومة الديركتوار (الإدارة) على الحكومة التي تأسست في فرنسا على نظام دستور سنة ١٧٩٥ ، وتجد تفصيل هذا النظام في كتابنا (الجميات الوطنية) ص ٨٠ وقد بقيت قائمة إلى أن أسقطها نابليون بعد عودته من مصر سنة ١٧٩٩ وحل محلها نظاماً التتصلي حيث صار نابليون فيها الفصل الأول

« إن الواقع التي نحتلها على شواطئ البحر الأبيض المتوسط تجعل لنا السيادة على هذا البحر ، وآلان يجب علينا أن نرغب تطورات السلطنة العثمانية التي أخذت تنهار دماغها من كل جانب ، فعلينا إما أن نؤيدها ونمنع انحلالها ، أو نأخذ ما نستطيع من أسلحتها ، وبممكننا أن نحرم إنجلترا مزايا سيادتها في الاقياوس الأعظم ، فإذا كانت نازعتنا طريق رأس الرجاء الصالح في مفاوضات « ليل » فلتجاوز عنه ولتحتل مصر فسيكون لنا فيها الطريق للفضى إلى الهند ويسهل علينا أن ننشئ بها مستعمرة من أجل مستعمرات العالم ، وإذا أردنا أن نهاجم إنجلترا فلنهابها في مصر »

وكتب إلى السيو تاليران Talleyrand وزير الخارجية الفرنسية رسالة بهذا المعنى وكان يفوه في بعض المواطن بتصریحات تم عما يجيش في صدره من المشروعات والآمال ، قال مخاطب جنوده في باسانو<sup>(١)</sup> Bassano يوم ١٠ مارس سنة ١٧٩٧ :

« إن أعلام فرنسا تحقّق لأول مرة على ضفاف الأدرياتيك على مقربة من مقدونية القديعة التي بنت فيها الاسكندر واتجه منها إلى الشرق ، وإن مهمة كبيرة تنتظركم فلم تنته بعد بأموريتكم ، وإن عليكم أن تعاقبوا سكان تلك الجزيرة الخبيثة ( يعنى الانجليز ) الذين لم تصبهم حروب القارة بسوء وظلوا يهزأون لمصائبها »

وقال في سبتمبر سنة ١٧٩٧ مخاطباً رجال أسطول الأميرال برويس Brueys :

« أيها الرفقاء . عند ما تنتهى من إخضاع القارة ستجتمع بكم لتحصل على حرية البحار ، وبدونكم لا نستطيع أن نحمل مجد فرنسا إلا في مكان ضيق من القارة ، أما بكم فسنحتاز البحار وننشز عظمة الوطن في البلاد النائية »

ففي إيطاليا إذن فكر نابليون في مشروع الحملة على مصر ، واختمرت الفكرة في ذهنه قبل أن يعود إلى فرنسا ، وكانت موضع دراسته وأبحاثه ومطالعاته ، ففي أثناء مفاوضات الصلح التي انتهت بمعااهدة كامبوفورميو كان يستحضر من مكتبة ميلان جميع الكتب الخاصة بالشرق ، ويكب على مطالعة كل ما له علاقة بالديار المصرية في دور كتب ميلان وبولوني وفولدراتس وقد لوحظ على معظم تلك الكتب بعد ردها أن بها إشارات وملاحظات بقلم نابليون على ما ورد فيها خاصة بمصر ، واستقدم كذلك من فرنسا بعض وثائق وزارة البحرية الخاصة بمصر وأخذ يراجعها ويدرسها ، وكان في خلال المفاوضات شديد الاهتمام بأن يصبّل إلى

(١) بلدة في ولاية البندقية ( فينسيا ) على نهر البرنات

اعتراف النمسا بتملك فرنسا للجزائر الأتونية تحقيقاً لبرنامجها ، ونجح في مسعاه واعترفت النمسا في المعاهدة بأن هذه الجزائر أصبحت ملكاً لفرنسا

### فكرة الحملة الفرنسية في خلال المصور

رجع نابليون إلى باريس عقب إتمام معاهدة الصلح ، واحتفلت فرنسا باستقبال قائدها العظيم ، وأخذ يتابع فكرة الحملة على مصر ، وأكب على محفوظات وزارة الخارجية والبحرية يطالع الوثائق الخاصة بالقطر المصري والإغارة عليه  
إن فكرة الحملة الفرنسية على مصر لم تثبت في رأس نابليون وحده بل كانت تتردد في الأذهان في مختلف المصور

### في عهد لويس التاسع

في القرن الثالث عشر تملك هذه الفكرة مشاعر لويس التاسع ملك فرنسا مدفوعاً إليها بامل الدين ، وجرد فملاً جيشاً جراراً بقصد الإغارة على مصر في حملة عرفت في التاريخ بالحرب الصليبية السابعة ، ونزل لويس التاسع إلى دمياط سنة ١٢٤٩ م . في نحو خمسين ألفاً من المقاتلة ، فملكها ثم زحف على المنصورة واشتبك مع جيش المسلمين في معركة كبيرة عرفت بواقعة المنصورة (سنة ١٢٥٠) انتهت بهزيمة الفرنسيين وقتل منهم نحو ٣٠ ألفاً وغرق كثير منهم في النيل وأسر ملكهم لويس التاسع وسجن بالمنصورة في دار ابن قمان التي لا تزال باقية إلى الآن ، ثم اقتدى لويس نفسه وبقيّة جنوده بمبلغ عشرة ملايين فرنك وخرج من دمياط مهزوماً وانتهت تلك الحملة بالخيبة والفشل

### في عهد لويس الرابع عشر

ثم تجددت الفكرة في القرن السابع عشر إذ نصح الفيلسوف الألماني الشهير لينتزر Leibniz إلى الملك لويس الرابع عشر أن يفترو مصر ، ذلك أن فرنسا كانت في ذلك الحين على أهبة الزحف على هولاندا بسبب ما بينهما من التنافس على السيادة ، فقدم لينتزر إلى لويس الرابع عشر سنة ١٦٧٢ تقريراً يرغب إليه المدول عن الزحف على هولاندا ويشير عليه بالزحف على مصر بحجة أن امتلاك فرنسا للقطر المصري يؤدي إلى استحوادها على متاجر الهند ،



وبذلك يتوصل لويس السابع عشر إلى هزيمة الهولنديين الذين كانوا يصرفون زمام التجارة الهندية في ذلك العصر.

قال ليننتر في تقريره إلى لويس الرابع عشر<sup>(١)</sup>: « انكم لا تهزمون الهولنديين في عقودهم فانكم لا تستطيعون تخلي السدود التي تحيط ببلادهم ، وإذا أعلنتم عليهم الحرب فان أوروبا تنضم إلى جانبهم ، لكن مصر هي الميدان الذي تضربونهم فيه فهناك تجدون الطريق الحقيقي لتجارة الهند ، وهناك تستطيعون امتلاك زمام تلك التجارة وانتزاعها من يد الهولنديين وتضمنون بسط سلطان فرنسا وسيادتها في بلاد الشرق إلى ما شاء الله ، وتكسبون عطف المسيحية وتستحقون ثناءها ، وهناك لا تخسرون عطف أوروبا بل تجلبونها بحمة على الإنجاب بكم »

ولم يكد ليننتر يقدم تقريره حتى كانت الجيوش الفرنسية قد أغارت على الحدود الهولندية ، على أن لويس الرابع عشر لم يفته التفكير في الحملة على مصر ، لكنه رغب عنها لما رآه وقشذ من أن الرخف عليها يفقد فرنسا صداقة تركيا أو على الأقل حيدتها ويحملها على الانضمام إلى الدول الأوروبية المعادية لها ، وكانت تركيا في ذلك العصر لم تزل مرهوبة الجانب بحسب لصداقتها وعداوتها حساب كبير.

### في عهد لويس الخامس عشر والسادس عشر

وفي خلال القرن الثامن عشر طافت الفكرة بأذهان بعض رجال الدولة في فرنسا وتردعت في تقاريرهم ومذكراتهم ، ذلك حين أخضت الدولة النمانية في الاضمحلال وطمعت روسيا والنمسا في أملاكها ففكروا في أن تشترك فرنسا في اقتسام أسلاب تركيا وأن تكون مصر نصيبها من ولايات السلطنة النمانية

ففي عهد لويس الخامس عشر كان اللوق دي شوازل De Choiseul كبير وزرائه من أنصار فكرة احتلال فرنسا لمصر ، لكنه في الوقت نفسه كان متعباً خطة فرنسا القديمة في المسألة الشرقية وهي مصادقة تركيا وموالاتها ، فكان يطمح في أن تحتل فرنسا مصر عن طريق المفاوضة مع تركيا والاتفاق معها ولم يكن يرى غضاضة على تركيا في هذا التنازل لأن الحكومة النمانية لم يبق لها في مصر سلطة فعلية في ذلك الحين

(١) في هذا التقرير محفوظاً في مكتبة هاتوفر إلى سنة ١٨٠٣ حيث عثر عليه الجنرال مونتيه قائد جنود الاحتلال في هاتوفر فبث به إلى نابليون حيث كان ( قسماً أول )

كتب الميوا تاليران Talleyrand في هذا الصدد يقول : « ان التوق الى شوازل الذي يمد بين رجال السياسة في القرن الثامن عشر أبدهم نظراً وأقواماً فكراً كان يسمى سنة ١٧٦٩<sup>(١)</sup> في أن تتنازل تركيا لفرنسا بطريق المفاوضات السياسية عن مصر لتستعصم بها من مستعمراتها في أمريكا وتجد في حاصلاتها وتجارتها ما ينهضها من تلك المستعمرات<sup>(٢)</sup> » لكن الفكرة لم تخرج إلى حيز التنفيذ ولم يفتح شوازل تركيا يوماً في هذا الصدد ، وظل المشروع أملاً يهجم في صدره إلى أن سقطت وزارته سنة ١٧٧٠ ، ثم تجددت الفكرة في عهد لويس السادس عشر<sup>(٣)</sup> ، ذلك حين كان سفير فرنسا في الاستانة الكونت سان بريست Saint Priest من أشد أنصار الفكرة فكتب عنها عدة مذكرات إلى وزارة الخارجية الفرنسية وكان التنافس التجاري بين فرنسا وإنجلترا قد بدأ يتجه إلى النيار المصرية لمحاولة كل منهما احتكار متاجر الهند عن طريق مصر والاستغناء بها عن طريق رأس الرجاء الصالح ، فلفت هذا التنافس انظار فريق من رجال السياسة وأخذوا يبحثون عن الوسائل الفعالة لتوطيد مركز فرنسا التجاري في مصر ، وقد ظهر رجلاً أتجهت مساعيها إلى تحقيق فكرة التوق الى شوازل ، وهما الكونت سان بريست والبارون دي توت De Tott

تولى سان بريست سفارة فرنسا في الاستانة سنة ١٧٦٨ وأقام بها نحو ستة عشر عاماً<sup>(٤)</sup> يقرب شؤون السلطنة العثمانية ويشهد أعراض اضمحلالها ويقبأ بقرب تفككها واقتسام أسلابها ، فهو بحكم مركزه السياسي كان كثير الاهتمام بمصير مصر وظهور الأحوال فيها ، فكتب إلى حكومته غير مرة يقبأ إليها احتلالها ، أما البارون دي توت فهو نبيل من سلافة أنقرة من المجر استوطن فرنسا وأخلص لها فأوفدته إلى تركيا ولما عاد منها سنة ١٧٧٦ قدم تقريراً إلى الحكومة الفرنسية يسط فيه رأيه في حالة تركيا وانتهى إلى أنه لا سبيل إلى الحيولة دون تفككها ونصح إلى الحكومة الفرنسية أن تحتل مصر لتوطيد تجارة فرنسا في الشرق كان من نتائج هذه الفكرة أن أوفدت الحكومة الفرنسية البارون دي توت إلى ثمور السلطنة العثمانية بقصد التفتيش على سواكز التجارة الفرنسية فيها ، والفرض الحقيقي هو درس سواحل مصر وفواقها ومشروع احتلالها

(١) أي عقب نهوب الحرب بين تركيا والروسيا سنة ١٧٦٨

(٢) تقرير تاليران الذي تلاه بالجميع الملى الفرنسي سنة ١٧٩٧ عن المزاي التي عهود على فرنسا من مصعمرات جديدة

(٣) تولى عقب وفاة لويس الخامس عشر سنة ١٧٧٤

(٤) انتهت سفارته سنة ١٧٨٤

بنياً توت رحلته سنة ١٧٧٧<sup>(١)</sup> وكان يرافقه ضابط قى البحرية يدعى سونيني له كتاب عن مصر<sup>(٢)</sup> ، ولما عاد من رحلته قدم الى الحكومة تقيراً بين فيه مزايا مشروع احتلال مصر وسهولة انفاذه

لكن الحكومة الفرنسية انصرفت عن هذا المشروع لاسخطها في الحروب المعروفة بحرب استقلال امريكا سنة ١٧٧٨ فطوى المشروع مؤقتاً وظلت فرنسا ترقب تطور المسألة الشرقية دون أن تهم فيها على عمل يتهدد كيان السلطنة العثمانية

ولما انتهت سفارة سان برست وعاد من الاستانة قدم تقيراً جديداً الى حكومته عاد فيه الى تأييد فكرته القديمة وهي احتلال مصر ونصح حكومته بأن تحقق هذه الفكرة<sup>(٣)</sup> قائلاً انها تكسب فرنسا مركزاً ممتازاً في العالم

وكذلك قدم للسيو مور Mure الذى كان قنصل فرنسا في الاسكندرية تقيراً الى وزارة الخارجية سنة ١٧٨٣ تنبأ فيه بقرب تهكك السلطنة العثمانية ونصح بضرورة احتلال مصر فجاء مؤيداً لتقارير دى سان برست والبارون دى توت ، على أن الكونت فرجين Vergennes وزير خارجية فرنسا في ذلك العهد لم يوافق على الفكرة وكان يعتقد أن السلطنة العثمانية لم تكن وشيكة الانحلال بالسرعة التى يرمى اليها سان برست في تقياره ، فضلاً عن انه كان مؤيداً لسياسة فرنسا القديمة نحو تركيا وهي سياسة الصداقة والود ، ولذلك أعرض عن فكرة الاشتراك في اقتسام تركيا وعلى العكس عارض فيها وأخذ في مساعدة تركيا على الاحتفاظ بكيانها وأوفد اليها بعثة من الضباط والمهندسين لتقوية جيشها وأسطولها وثغورها ، على أن وزارة الخارجية الفرنسية أخذت تسمى بتنشيط تجارة فرنسا في مصر والشرق وسعت لدى حكومة الاستانة من جهة ولدى البكوات الماليك من جهة أخرى لحماية للتاجر الفرنسية في مصر ووقايتها من عبث الحكام الماليك ، وسعت كذلك لضمان مرور متاجرها من أوروبا والمهند عن طريق مصر ، لكن تصرفات الحكام الماليك حيال التجار من سائر الأجناس وفرضهم الاتاوات المختلفة على متاجرم جبل التجار الفرنسيين يشكون الى حكومتهم سوء معاملتهم

---

(١) تجد وصف رحلته في مصر في الجزء الرابع من كتابه للسيو سونيني « مذكرات البارون دى توت عن الترك والتتار »

Memoires du Baron de Tott sur les Turcs et les Tartares

(٢) سياحة في مصر العليا والوجه البحرى للسيو سونيني Souminy سنة ١٧٧٧

وقفت الحكومة الفرنسية وقفة التردد حيال مصر والسألة الشرقية وبخاصة بعد أن تولى الكونت مونت موران Montmorin وزارة الخارجية ، ذلك حين بدأت أحوال الحكومة الملكية تضطرب لارتباك شؤونها المالية وظهور أعراض الثورة الفرنسية فانصرفت عن نية الفتح والاستثمار

ولما قامت الثورة وسقطت الملكية انصرفت حكومة الثورة اضطراباً إلى الدفاع عن كيان فرنسا في وجه الدول الملكية التحالفه وإتحاد القن اللاخلية ، على أن التجار الفرنسيين في مصر ما فتئوا يرفعون شكواهم إلى حكومتهم الجديدة من سوء معاملة الحكام المالكين ويطلبون اليها العناية بشأنهم ، فأصفت إلى شكواهم وعينت السيو شارل مجالون Magallon قنصلا عاما لفرنسا في مصر سنة ١٧٩٣ ، والسيو مجالون هذا تاجر فرنسي من سكان مرسيليا رحل إلى مصر وأقام بها نيفاً وثلاثين سنة مشغولاً بالتجارة فاكتمب خبرة واسعة في الشؤون المصرية ، وكان من أنصار احتلال فرنسا لمصر ، فلما عينته الحكومة قنصلا عاما لها أخذ يرسل إلى وزارة الخارجية التقارير والمذكرات أبان فيها عبث الحكام المالكين بمصالح التجار الفرنسيين في مصر وصرح بأن هذا العبث لا يمكن أن يزول إلا إذا استخضمت الجمهورية الفرنسية القوة حيالهم ، ورغب إلى حكومته أن تعمل على احتلال مصر ونوه بما تناله فرنسا من المزايا السياسية والاقتصادية من استثمار مواردها ومد سلطانها إلى البحر الأحمر وتهديد إنجلترا في الهند

عهد مجالون بتقاريره الأفكار لمشروع الحملة الفرنسية ، وذهب إلى فرنسا سنة ١٧٩٧ وأخذ يدعو رجال الدولة إلى تحقيق هذا المشروع وبين لهم سهولة انفاذه وقدم لوزارة الخارجية تقريراً جديداً في هذا الصدد ، وكان السيو تاليران Talleyrand السيامي الشهير قد تولى وزارة الخارجية الفرنسية فاقنع بآراء مجالون وأخذ يدافع عنها ، والتقى في هذه الفكرة مع نابليون بونابرت ، وقدم عنها تقريراً إلى حكومة الديركتوار استند فيه إلى تقرير السيو مجالون ونصح فيه إلى الحكومة بإنفاذ الحملة

من هذه الخلاصة الوجيزة يتبين كيف تطورت فكرة الحملة الفرنسية على مصر في خلال المصور إلى أن تقنلت على يد نابليون بونابرت

## نابليون وانفاذ الحملة

### وموقف إنجلترا

فأجج نابليون حكومة الديركتوار في إنفاذ الحملة على مصر ودافع عنها وأوضح لها الزايا التي تعود منها على فرنسا ، وكانت حكومة الديركتوار تفضل غزو إنجلترا في جزيرتها ، وقد قررت فعلاً تأليف جيش أسمته « جيش إنجلترا » واختارت نابليون لهيادته ، وكانت رغبة عن الحملة على مصر لعدة أسباب ، منها أن هذه الحملة ستكون عرضة للاضطدام بالأسطول الإنجليزي في طريقها إلى مصر وأنها ستثير غضب الحكومة النمانية وتفقده فرنسا صداقة تركيا القديمة ، وتحمل روسيا على التدخل في السألة الشرقية ، كما أنها تبعد عن فرنسا جيشاً من خيرة جيوشها قد تكون في حاجة إليه إذا تجدد القتال بينها وبين أعدائها في القارة الأوروبية

لكن نابليون كان معارضاً في مشروع غزو إنجلترا ، مقتنعاً باستحالة نجاحه لعظم اعتماد الانجليز في الدفاع عن جزيرتهم وحشدهم الأساطيل في البحار المجاورة لها ، وكان يرى أن انصراف إنجلترا إلى رد غزوة فرنسا يصرفها عن جمع قواتها في البحر الأبيض المتوسط ، وبذلك تستطيع المهارة الفرنسية أن تسلك سبيلها إلى سواحل مصر ، وكانت وجهة نظره أن الحملة الفرنسية إذا دهمت مصر سهل عليها فتحها وإنشاء مستعمرة فيها في مدة لا تتجاوز بضعة أشهر وأن فرنسا تجني غزايها كبيرة من توطيد قدمها في مصر لأنها بطبيعة موقعها الجغرافي مركز الاتصال بين الشرق والغرب وملتقى المتاجر التي تتبادلها القارات الثلاث أوروبا وآسيا وأفريقية ، وأنه بإنشاء قناة تصل مياه البحر الأحمر بالبحر الأبيض يمكن السفن الفرنسية أن تصل إلى البحر الأحمر وتهاجم أملاك الانجليز في الهند ، وعلى كل حال تستطيع فرنسا أن تنشئ في مصر مستعمرة ترسل إليها متاجرها ومصنوعاتها وتتحول إليها تجارة الهند والشرق وتكون طريقاً لها إلى أوروبا بدلاً من طريق رأس الرجاء الصالح ، فتصبح مصر مستودعاً لمتاجر العالم ، وتموض فرنسا ما قدده من المستعمرات وتكون في الوقت نفسه قاعدة لضرب إنجلترا في الهند وبسط سيادة فرنسا في البحر الأبيض المتوسط ، وقد أشاد نابليون في حجبته للحكومة بظلمة مصر القديمة وقال أنها أخصب بلاد العالم وأنها كانت أمراء الغلال للعالم القديم ، وفي الإمكان ترقية زراعتها وغرس المحاصيل الأمريكية بها وإعادة منزلتها

القديمة إذا وجدت بها حكومة حديثة وإدارة سالحة ، وفي مذكرات نابليون التي أملاها في منفاه سانت هيلين أنه حين عزم على إنفاذ مشروع الحملة على القطر المصري كان يقصد إنشاء دولة شرقية كبيرة وينوى بعد توطيد مركزه في مصر أن يفزو الهند ، وكان يقدر لوصوله إليها شهر مارس سنة ١٨٠٠

اقتنعت حكومة الديركتوار بمحجج نابليون ، وكانت شخصيته واتصاراته في إيطاليا أكبر مؤيد له في وجهة نظره ، وأخيراً قررت الحكومة في ٥ مارس سنة ١٧٩٨ إنفاذ الحملة ، وتكتمت أمر المشروع حتى لا يتسرب خبره إلى الحكومة الإنجليزية ، وتمت معدات الحملة دون أن يعلم أحد في فرنسا وجهتها إلا نابليون ورؤساء حكومة الديركتوار والسيو تاليران وزير الشؤون الخارجية ، وتولى السيو مـرلين Merlin الذي كان رئيساً للديركتوار كتابة العهود والقرارات بخط يده ، وكتبت القرارات بعبارات عامة لا يفهم منها غرض الحملة ، ويؤخذ من ظاهرها أن النرض منها تحصين شواطئ فرنسا على البحر الأبيض المتوسط

ومع ذلك بقيت هذه القرارات في طي السكبان ، وظل المشروع سراً مكتوماً حتى عن القواد الذين اختارهم نابليون لمرافقته ، ووافقت الحكومة في كتمان وجهه الحملة حتى إنها أطلقت على الجيش الذي أعده لها اسم « الجناح الأيسر لجيش إنجلترا » ثموم الحكومة الإنجليزية أنها مصبنة على غزوها في جزيرتها .

ولما أوشكت معدات الحملة أن تم أصدرت حكومة الديركتوار قرارها بتاريخ ١٢ أبريل سنة ١٧٩٨ بتسمية الجيش المد لها « جيش الشرق » وأسندت قيادته إلى الجنرال نابليون بونابرت وأصدرت في اليوم نفسه قراراً عهدت إليه فيه بالحملة على مصر ، وبيئت في مقدمة القرار أسباب الحملة بقولها : « إن حكومة الديركتوار لما رأتها من أن البكوات المالكين الذين استولوا على حكومة مصر قد اتصلوا بالإنجليز بأقن الروابط وجعلوا أنفسهم تحت مطلق تصرفهم ، وأنهم يرتكبون الأعمال العدائية والمظالم التنظيمية ضد الفرنسيين ويضطهدونهم وينهبون أموالهم ويعتدون على أرواحهم ، ولما كان من واجب الحكومة أن تهتص من أعداء الجمهورية أبناء وجدوا ، وإذ كانت الطريقة للنطوية على العنبر التي استولت بها إنجلترا على رأس الرجا الصالح قد جعلت وصول السفن الفرنسية إلى الهند محفوفاً بالمصاعب في الطريق المتتادة ، فمن المهم فتح طريق جديدة لقوات الجمهورية للوصول إلى الهند<sup>(١)</sup> »

هذه خلاصة ما ذكرته حكومة الديركتوار في أسباب الحملة ، ومنه يتبين أن التنازع بين

إنجلترا وفرنسا هو المحرك الأول للحملة الفرنسية وأن النرض النهائي منها كان الوصول إلى الهند، وعهدت الحكومة في قرارها إلى نابليون « بتسيير القوات البرية والبحرية التي تحت قيادته إلى مصر والاستيلاء عليها ، وطرده الإنجليز من جميع البلاد الشرقية التي يستطيع الوصول إليها ، وهدم المراكز التجارية التي لهم في البحر الأحمر ، وعهدت إليه خبر برنخ السويس واتخاذ كل الوسائل اللازمة ليضمن للجمهورية الفرنسية امتلاك البحر الأحمر»<sup>(١)</sup> وقررت الحكومة عدم نشر هذا القرار أو طبعه حتى يبقى في طي السكبان وظل نابليون يصدر أوامره الخاصة بالحلة على مصر باسم بوناپارت القائد العام (لجيش إنجلترا)

ظنت إنجلترا أن فرنسا عقدت عزمها على غزوها في جزيرتها وأنها أعدت لهذا النرض أسطولها في الأقيانوس وأن استمداداتها في قنور البحر الأبيض المتوسط كان النرض منها إمداد ذلك الأسطول عن طريق بوغاز جبل طارق ، فهبت إلى الأميرال اللورد سان قنسان Saint Vincent مراقبة بوغاز جبل طارق وتقيب أسطول فرنسا في الأقيانوس ومواصله حصار أسطول أسبانيا في قادس وعهد اللورد سان قنسان إلى الأميرال نلسن Nelson بأن يتجول في البحر الأبيض المتوسط لمراقبة حركات الأسطول الفرنسي .

ففكرة إنجلترا كانت إذن متجهة في ذلك الحين إلى توقع الحلة على جزيرتها

### معدات الحلة

#### ووقاتها الأولى

أخذ نابليون عقب قرار الحكومة بعد معدات الحلة ويبدأ في سبيل ذلك ما أتى من القدرة وقوة التنظيم ، فاختار معظم جنوده من « جيش إيطاليا » التي خاض به المارك وأحرز به الانتصارات العظيمة وضم إليهم بعض كتائب من جيش الرين ، وبلغ عدد من تألفت منهم الحلة ٣٦,٠٠٠ مقاتل<sup>(٢)</sup> ، ووقع اختيار نابليون على صفوة القواد الذين ظهرت

(١) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٤٩٥

(٢) جاء في تقرير وزير الحربية الفرنسية إلى حكومة الديركتوار المؤرخ ٣ ديسمبر سنة ١٧٩٨ إحصاء دقيق لجيش الحلة بعد إقلاعه يؤيد الإحصاء الذي ذكرناه ، ومنه يتبين أن عدده ٣٦,٨٢٦ مقاتلا وهذا التقرير نشره القومندان دي لاجونكير في كتابه (حلة مصر) قلاعن وثائق وزارة الحربية الفرنسية ، ويؤيده كذلك إحصاء المسيو ملرتان Martin أحد مهندسي الحلة وشاهد عيان لقائنها عند ذكر في كتابه (تاريخ الحلة الفرنسية في مصر) أن جيش الحلة كان مؤلفا من ٣٦,٠٠٠ مقاتل ، وهذا العدد يختلف عن إحصاء نابليون في مذكراته التي أملاها على الجنرال برتران في سانت هيلين فلنابليون يقول إن عدد

كفائتهم وخبرتهم ونجحت مواهبهم في حروب إيطاليا وحروب الرين أمثال برتييه Berthier وكافريلى Caffarelli ، وكليبر Kleber ، ورينييه Reynier ، وديزيه Desaix ، ودوجا Dugua ، وفروبا Vaubois ، وبون Bon ، ولان Lannes ، ومورا Murat ، ويليارد Belliard واختار الجنرال كافريلى Caffarelli رئيساً لفرقة المهندسين ، والجنرال دومارتين Dommartin لقيادة اللدقية ، والجنرال برتييه Berthier الذى كان رئيساً لأركان حرب الجيش الفرنسى بإيطاليا رئيساً لأركان حرب الحملة ، وعهد بالإدارة الصحية للحملة إلى الطيبين الشهيرين لارتي Larrey كبير الجراحين وديجنيت Desgenette كبير أطباء الحملة ، وعهد إلى القوميسير سوسى Sucy بإدارة مهات الجيش ، وإلى القوميسير لروا Le Roy بإدارة مهات البحرية ، وجهز الحملة بمطبعة عربية وأخرى فرنسية وأخرى يونانية

واستطاع معه طائفة من علماء فرنسا ونوابها في الرياضة والمهندسة والطب والجغرافيا والفلك والأدب والكيمياء والاقتصاد السياسى والآثار والمعادن وطبقات الأرض والحيوان والنباتات وفن المنار وهندسة الرى والقناطر والجسور والميكانيكا ، وطائفة من رجال الفنون من الصوريين والرسميين والموسيقين والنقاشين والمثالين ، فبلغ عدد هؤلاء ١٤٦ عضواً ما بين عالم وأديب ومهندس ومثال تتألف منهم لجنة العلوم والفنون<sup>(١)</sup> التى كان لها شأن بذكرى تاريخ الحملة كما سيجىء بيانه ، وجهزهم بمجموعة كاملة من الآلات الطبيعية والرياضية ، وكان من بينهم جماعة من أقطاب العلوم ممن يشار إليهم بالبنان في فرنسا أمثال موجج Monge العالم الرياضى ، وبرتوليه Berthollet العالم الكيمياى ، وهما اللذان عهد إليهما نابليون اختيار أعضاء البعثة ، وفورييه ، ودلوميو ، وجوفروا سان هيلير ، وغيرهم ممن سئلت على ذكرهم وتشكلم من أشخاصهم عند الكلام على المجمع العلمى<sup>(٢)</sup>

جيش الحملة هو ٣٠٠٣٢٠ مقاتل ، وفي اعتقادنا أن إحصاء نابليون في مذكراته لا يمكن أن يكون موضع الفقه لأن المعروف أن نابليون أمل مذكراته عن مصر في سانت هيلين بعد أكثر من ستة عشر عاماً من وقوع المواقف التى كتب عنها مذكراته ، ولم يكن تحت يده الوثائق التى يمكن الرجوع إليها في ضبط الأرقام ، هنا فضلاً عن أن نابليون كان يعيل في بعض المواطن إلى ذكر إحصاءات عن جيشه أقل من العدد الحقيقى ، وربما كان الناقص له على ذلك التباين بكفاءة جيشه وبجبرته الحربية ، وقد ذكر للسيد مارتان في كتابه أن نابليون في تحريره لى حكومة البركتوار عن واقعة شباخيت يقول أنه كان يقاتل قوات أكثر منه عدداً مع أن الواقع كما يقول مارتان أن قوى للمالك كانت أقل عدداً من الجيش الفرنسى

(١) نصرنا في قسم الوثائق فروع هذه اللجنة وأسماء أعضاء كل فرع منها

(٢) أنظر الفصل الرابع



قال المسيو تيمرس<sup>(١)</sup> : « إن توابع فرنسا في الحروب والعلوم والفنون قد مسحوا نابليون في الحملة وجذبهم إليها فتهتم في قائدها الفتي العظيم وركبوا البحر دون أن يعرفوا إلى أي جهة يقصدون »

اجتمعت المارة الفرنسية المدة لنقل الحملة في « طولون » وفي ثور « جنوا » و « أجاكسيو » و « سيفيتافكيا » وعددها نحو ثلثمائة سفينة يحرسها أسطول الفيس أميرال برويس Brueys المؤلف من ٥٥ سفينة حربية<sup>(٢)</sup>

أقلت المارة من طولون يوم ١٩ مايو سنة ١٧٩٨ وانضم إليها باقي السفن القادمة من جنوا وأجاكسيو وسيفيتافكيا ، وجرت كلها تحت عياب البحر ورست بجزيرة مالطه يوم ٩ يونيو ، وكانت هذه الجزيرة يحكمها من عهد شارل كان طائفة من الرهبان يعرفون بفرسان القديس حنا الأورشليمي ثم عرفوا بعد ذلك ( بفرسان مالطه ) ، وكان موقعها على جانب كبير من الأهمية الحربية ، فاحتلها نابليون بعد دفاع ضعيف واحتل حصونها ومعاقها ونظم حكومتها وترك بها قوة من ثلاثة آلاف جندي بقيادة الجنرال فوبوا Vaubois لتوطيد سلطة فرنسا في الجزيرة والدفاع عنها إذا ما أراد الإنجليز احتلالها ، وقد استماض نابليون من هذه القوة بجزء من الجنود المايطيين الذين ضمهم إلى جيشه وساروا معه إلى مصر وألف منهم ( الكتائب المايطية ) وكان عددهم نحو الألفين

أقلت المارة من مياه مالطه يوم ١٩ يونيو ووصلت نجاء الإسكندرية يوم أول يولييه ( ١٧ محرم سنة ١٢١٣ ) أي بعد شهر ونصف من إقلاعه من طولون



أخذ جنود الحملة ينزلون غرب الإسكندرية ليلة ٢ يولييه سنة ١٧٩٨ ( ١٨ محرم سنة ١٢١٣ ) وزحفوا على المدينة فاحتلوها في ذلك اليوم ، وبعد أن ثبتت نابليون قدمه في الإسكندرية أخذ يرحل على القاهرة بطريق دمهور كان أمام الجيش الفرنسي طريقان يسلكهما من الإسكندرية إلى القاهرة يلتقيان في

١ : ( ١ ) في كتابه تاريخ الثورة الفرنسية الجزء العاشر  
( ٢ ) منها ١٣ بارجة كبيرة لاحتلالها السفينة « أوربان » ( الشرق ) وسلاحها ١٢٠ مدفأ وهي سفينة الأميرال التي أقلت نابليون القائد العام وأركان حربه وأورائه وبني الطاء ، والاثنتا عشرة بارجة الأخرى يتراوح سلاح كل منها بين ٨٠ و ٧٤ مدفأ ، وخس فرقاطات كبيرة سلاح كل منها أربعون مدفأ ، وثلاث أخرى سلاح كل منها ٣٦ مدفأ ، وسفيتان أخريان من نوع البريق ، وسفيتان كبيرتان ، وست فرقاطات غير مسلحة ، والباقي من المراكب الخفيفة المسلحة بالمدافع

الرحمانية على النيل ، الأول من الإسكندرية إلى رشيد براً على ساحل البحر ومن رشيد إلى القاهرة على شاطئ النيل ، والثاني من الإسكندرية إلى الرحمانية بطريق دمنهور مخترقاً جهات كانت في ذلك العهد صحراء قاحلة ثم من الرحمانية إلى القاهرة على البر الغربي للنيل ، وكان الطريق الأخير أقصر من الأول<sup>(١)</sup> وإن كان أكثر مشقة فأثره نابليون ليصل إلى القاهرة بأسرع ما يمكن فأمر جنوده بالزحف بطريق دمنهور وفي الوقت نفسه كلف الجنرال دوجا بأن يجتبل رشيد ويتقدم إلى الرحمانية ليلتقي هناك بالجيش القادم من طريق دمنهور

وفي مساء ٣ يولييه سنة ١٧٩٨ - غداة زول الجنود بالإسكندرية - بدأت طلائع الجيش تتحرك نحو « البيضاء »<sup>(٢)</sup> ، وتبعها بقية الفرق المدة للزحف على القاهرة ، فصادرت الإسكندرية في الأيام التالية قاصدة دمنهور وصر الجيش بالبيضاء والمكرشة<sup>(٣)</sup> والكريون<sup>(٤)</sup> وبركة غطاس<sup>(٥)</sup> محاذيا التربة المروقة وقتلوا بمخيلج الإسكندرية ( ترعة المحمودية الآن ) والتي كانت في ذلك الوقت جافة لأن النيل لم يكن يمدها بمائه إلا في زمن الفيضان ، فلاقى الجنود عناء كبيراً من القميط والمطش ، ولم يكن في تلك الجهات من الماء سوى مياه الآبار ومع ذلك فقد غور الأهالي معظم الآبار التي في الطريق وأتلفوها

تلاقت الفرق في دمنهور يوم ٧ يولييه ، وفي الساعة الخامسة من مساء هذا اليوم تحرك نابليون وأركان حربه من الإسكندرية فيبلغ دمنهور في صباح اليوم التالي ، ثم غادر الجيش دمنهور ليلة ١٠ يولييه قاصداً إلى الرحمانية ، قبلتها يوم ١٠ واحتلها في ذلك اليوم أما الجنرال دوجا فقد سار من الاسكندرية إلى رشيد فاحتلها يوم ٦ يولييه ثم سار منها إلى الرحمانية وانضم بفرقة إلى باقي قوات الجيش

التقى مراد بك بالجيش الفرنسي بالقرب من شبراخيت يوم ١٣ يولييه سنة ١٧٩٨ ( ٢٩ محرم سنة ١٢١٣ ) فهزمه نابليون واضطره إلى التقهقر فاشتى مراد راجعاً إلى القاهرة استمداداً للمعركة الفاصلة ، فالتقى الجيشان في « أمبابه » ، وهناك على مقربة من الأهرام هزم جيش مراد بلك في معركة فاصلة كان فيها القضاء على قوة البلاد الحربية وهي المعركة المعروفة

(١) الطريق الأول يمر من الإسكندرية إلى رشيد ماراً بأبو قير وكانت بحيرة « أبو قير » متصل بالبحر بوزاغز اسمه المدينة لا بد أن تحتلزه الجنود في سيرها فكان هذا البوزاغز يصل سير الجنود

(٢) البيضاء بلدة متنية تابعة لمرکز كفر الدوار على الشاطئ الغربي لترعة المحمودية ، وتطلق « البيضاء »

(٣) و (٤) و (٥) المكرشة والكريون من بلاد مركز كفر الدوار الآن وبركة غطاس مركز أبي حس

عند المصريين بواقعة امبابه وعند الفرنسيين بواقعة الأهرام <sup>(١)</sup> (٢٠ يوليو سنة ١٧٩٨ — ٧ صفر سنة ١٢١٣)

فرَّ مراد بك بالبقية الباقية من فلول جيشه المهزوم إلى الجيزة ، أما إبراهيم بك الذى كان مرابطاً بالبر الشرقى من النيل فإنه لما رأى الهزيمة قد حلت بصاحبه غادر القاهرة ومنعه من تبعه من بماليك ومصريين ويبلغ عددهم نحو ألف وخمسمائة واصطحب معه أبا بكر باشا والى الترك وانسحبوا جميعاً قاصدين بلبيس ، وظلت العاصمة من قوة الدفاع ، وصارت وجهاً لوجه أمام الجيش الفرنسى

### سياسة نابليون إزاء الشعب

#### وقاعدة الحكم التى وضعها فى منشوره

لم تكن مهمة نابليون فى مصر حرية فحسب ، بل كان مفروضاً عليه أن يواجه أمة شرقية ذات حضارة قديمة تختلف اختلافاً كبيراً عن الشعوب الأوروبية التى عرفها وخالطها ودرس عاداتها وطباعها وأخلاقها

كان مطلوباً منه أن يواجه الأمة المصرية ، يحكمها البيكوات المماليك الذين استبدوا بإدارة شؤونها السنين الطوال ، وعلى رأس حكومتها وال عثمانى يمثل تبعية البلاد الاسمية لسلطان تركيا دون أن يكون له نفوذ فعلى بجانب سلطة المماليك ، فكان من المفروض على نابليون أن يرسم لنفسه سياسة يتبعها حيال هذه العناصر المشتبكة فى أرض الفراعنة

إن الفرض الذى كان يرى إليه هو توطيد سلطة فرنسا على ضفاف النيل ، وتحقيقاً لهذا الفرض رأى أن خير سياسة يتبعها إزاء مصر أن يحايل تركيا بقدر المستطاع وأن يحتجب إليه قلوب الشعب ويتجنب إلى الأهالى بإفهامهم أنه إنما جاء لمحاربة طائفة المماليك الفراء عن البلاد الذين يستزفون ثروة مصر ويظلمون أهلها ، وأنه يرى إلى إنشاء « حكومة أهلية » يكون التنفيذ فيها للمصريين ، هذه هى النحلة السياسية التى رسمها نابليون وجعلها أساساً

(١) أن تسميه الواقعة بواقعة امبابه أقرب إلى الحقيقة لأنها وقعت حول قبره امبابه ولكن الفرنسيين أسموها واقعة الأهرام تخفياً لما يوتخذوا لاسمها فى التاريخ ، وقد ورد اسمها فى جوميلت الجزال كثير بأنها واقعة « امبابه » أو « الأهرام » ولكن الاسم الذى صار علماً لها فى التاريخ هو معركة الأهرام ، ولذلك سميناها باسمها التاريخى

لشروعه العظيم وهو تأسيس دولة عربية في مصر تساعده على تحقيق آماله وأطماعه في الشرق والغرب

ظهرت هذه الخطة في منشوراته وبياناته الأولى للمصريين ومفاوضاته لزعماهم ومسلكتها عليهم وفي النظم الحكومية التي أسسها في مصر

أمر نابليون عند ما احتل الإسكندرية بإذاعة أول منشوره باللغة العربية إلى أهل البلاد ، أوضح فيه أغراضه من الحملة الفرنسية وضمنه نداء إلى الشعب يدعوهم فيه إلى الاطمئنان على مصيرهم ، ويعدم بأن تكون حكومة البلاد في أيديهم

كتب نابليون هذا المنشور يوم ٢٧ يونيه سنة ١٧٩٨ على ظهر البارجة ( أوريان ) أي قبل أن ترسو المارة بعدة أيام ، وصاغه في قلبه العربي جماعة المستشرقين والترجمة الذين أحضرهم معه وبخاصة السيوفاتور والسيو مارسيل ، وطبع على ظهر البارجة بالطبعة العربية التي جاء بها ، وقد أمر بطبع المنشور قبل رسو المارة ، فكان أول وثيقة عربية طبعت على هذه الطبعة ، وأمر قبل مغادرته الإسكندرية أن تنقل الطبعة العربية والطبعتان اليونانية والفرنسية من البارجة ( أوريان ) إلى منزل قنصل البندقية بالإسكندرية ، وأن تهيا هذه المطابع بحيث تكون معدة للعمل في ثمان وأربعين ساعة وأن يطبع على الطبعة العربية أربعة آلاف نسخة من المنشور عدا ما طبع منه على ظهر البارجة ( أوريان ) ، وأمر كذلك بالإفراج عن البحارة الترك والعرب والمغاربة الذين فك أسارهم في مالطة <sup>(١)</sup> ، وأحضرهم معه على ظهر المارة الفرنسية وسمح لهم بالذهاب أين شاءوا ومع كل منهم عدد من المنشورات لتفريقها في أنحاء البلاد

إن تاريخ هذا المنشور هو ٢ يوليه سنة ١٧٩٨ الموافق ١٨ محرم سنة ١٢١٣ و ١٤

(١) هم البحارة المسلمون الذين كانت أسراهم سفن مالطة في جولاتها في البحر الأبيض وبحير فرسان مالطة إن أسروهم وأجب دية ، وكانوا يقضون عليهم بالسجن على ظهر السفن الحربية ويجبرونهم على الأشغال الشاقة فيقضون بجة عرهم في هذا النقاء ، فلما احتل نابليون مالطة أمر بإطلاق سراح هؤلاء الأسرى وكان عددهم نحو السبعماية وأحضرهم معه إلى الإسكندرية وسمح لهم بالذهاب أين شاءوا فغفلوا الفرنسيين هذا الجليل ، وكان غرض نابليون من إطلاق سراحهم أن يظهر للبلاد الإسلامية مبلغ عطفه على المسلمين وإليك ما كتبه الجبرتي عن أولئك الأسرى وعن منشور نابليون إلى المصريين : « كانت الفرنسيين حين دخولهم بالإسكندرية كتبوا مرسوما وطبوه وأرسلوا منه نسخا إلى البلاد التي يقدمون عليها طلبنا لها ، يوصل هذا المرسوم مع جملة من الأسرى الذين وجدهم بمالطة وحضرنا معهم ، وحضر منهم جملة إلى بولاق ، وذلك قبل وصول الفرنسيين يوم أو يومين ، وسهم منه عدة نسخ ، ومنهم مغاربة وفيهم جواسيس وهم على شكهم من كفار مالطة ويعرفون بالقاتل »

مسيودور من السنة السادسة للجمهورية الفرنسية ، أى أن نابليون باذر بإذاعة هذا المنشور يوم احتل ثغر الاسكندرية ، وكان المنشور معداً ومطبوعاً على الطبعة العربية قبل رسو العمارة الفرنسية ، وهذا يدل على مبلغ اهتمامه بتبليغ المصريين مقاصده من الحملة ورغبته في اكتساب قلوبهم وإليك صورة المنشور نقله هنا كما هو وارد في الجبرتي مع مقارنته بالأصل الفرنسى

### منشور نابليون إلى المصريين

« بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله لا ولد له ولا شريك له في ملكه ، من طرف الفرنساوية المبني على أساس الحرية والتسوية<sup>(١)</sup> ، السر عسكر الكبير أمير الجيوش الفرنساوية بونابرت ، يعرف أهالي مصر جميعهم أن من زمان مديد السناجق<sup>(٢)</sup> الذين يتسلطون في البلاد المصرية يتعاملون بالنبل والاحتقار في حق الملة الفرنساوية ، وظلمون تجارها بأنواع الإيذاء والتعدي ، فحضر الآن ساعة عقوبتهم وأخرنا ، من مدة عصور طويلة هذه الزمرة للماليك الجبليون من بلاد الأبازة<sup>(٣)</sup> والجرا كسة يفسدون في الإقليم الحسن الأحسن الذى لا يوجد في كرة الأرض كلها ، فإما رب العالمين القادر على كل شيء فإنه قد حكم على اقتضاء دولتهم . يا أيها المصريون قد قيل لكم إننى ما نزلت بهذا الطرف إلا بقصد إزالة دينكم ، فذلك كذب صريح فلا تصدقوه ، وقولوا للمفترين إننى ما قدمت إليكم إلا لأخلص حكمكم من يد الظالمين وإننى أكثر من الماليك أعبد الله سبحانه وتعالى وأحترم نبيه والقرآن العظيم ، وقولوا أيضاً لهم إن جميع الناس متساوون عند الله ، وإن الشيء الذى يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والموم فقط ، وبين الماليك والعقل والفضائل تضارب ، فإذا عجزتم عن غيرهم حتى يستوجبوا أن يملكوا مصر وحدهم ويحتصوا بكل شيء أحسن فيها من الجوارى الحسنان

(١) هذه العبارة ليست واردة في الأصل الفرنسى ، وإنما وردت في النسخة العربية التى وزعت في البلاد والواردة في الجبرتي ، ولها عنوان للنسخة العربية للمنشور ، أما الأصل الفرنسى فيبدأ بالعبارة الآتية : « المسكر العام بالاسكندرية في ١٤ مسيودور من السنة السادسة الموافق ١٨ محرم سنة ١٢١٣ هجرية ، بونابرت عضو المجمع العلمى الأعلى والقائد العام » وكلمة التسوية يقصد منها المساواة ، ومعروف أن الحرية والمساواة شعار للجمهورية الفرنسية ، والسر عسكر كلمة تركية منتاحاً رئيس المسكر أو القائد العام ، والمنشور كما يراه القارى "ملجأ" بالأغلاط والبيارات العربية الركبة ، أما أصله الفرنسى فبلغ وهو منشور في مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٧٣٢ ، ولم نشأ أن نترجمه عن الأصل لأن الصيغة العربية التى نصرت في البلاد والوزارة في الجبرتي أصبحت وثيقة تاريخية يجب المحافظة عليها فقلنا كما هي

(٢) حكماء اللذينيات جنح سنجق ، راجع الفصل الأول

(٣) الأبازة من شتوب القوقاز وفي الأصل الفرنسى للمنشور « الجبليون من جورجيا والقوقاز »

وجورجيا من بلاد القوقاز واقعة بين البحر الأسود وبحر قزوين

والخليل المتناق والمساكن المفرحة ، فإن كانت الأرض المصرية التزاماً للماليك فليرونا الحجة التي كتبها الله لهم ، ولكن رب العالمين رؤوف وعادل وحليم ، ولكن بعونه تعالى من الآن فصاعد لا يئأس أحد من أنقضى مصر عن الدخول في المناصب السامية ، وعن اكتساب الراتب المالية ، فالعلماء والفضلاء والمقلد ينهضون سيديرون الأمور <sup>(١)</sup> وبذلك يصلح حال الأمة كلها ، وسابقاً كان في الأراضي المصرية المدن العظيمة والخلجان <sup>(٢)</sup> الواسعة والمتجر المتكاثر ، وما أزال ذلك كله إلا الظلم والطمع من الماليك

«أيها المشايخ والقضاة والأئمة والجربجية وأعيان البلاد ، قولوا لأمتكم إن الفرنساوية هم أيضاً مسلمون مخلصون <sup>(٣)</sup> وإثبات ذلك أنهم قد نزلوا في رومية الكبرى وخبروا فيها كرسى البابا <sup>(٤)</sup> الذي كان دائماً يحث النصارى على محاربة الإسلام ، ثم قصدوا جزيرة مالطة وطردوا منها الكوالرية <sup>(٥)</sup> الذين كانوا يزعمون أن الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين ، ومع ذلك الفرنساوية في كل وقت من الأوقات صاروا يحمين تخلصين لحضرة السلطان العثماني وأعداء أعدائهم أدام الله ملكه <sup>(٦)</sup> ومع ذلك إن الماليك امتنعوا عن طاعة السلطان غير ممثلين لأمره فأطاعوا أصلاً إلا لطمع أنفسهم

«طوبى ثم طوبى لأهالي مصر الذين يتفقون معنا بلا تأخير فيصلح حالهم وتلى منازعتهم  
«طوبى أيضاً للذين يقدون في مساكنهم غير مائلين لأحد من الفريقين المتحاربين ، فإذا عرفونا بالأكثر تسارعوا إلينا بكل قلب ، لكن الويل ثم الويل للذين يستمدون على الماليك في محاربتنا فلا يمدون بعد ذلك طريقاً إلى الخلاص ولا يبق منهم أثر

(١) في الأصل الفرنسي «سيجولون الحكيم» gouvernieronf

(٢) الترجع

(٣) في الأصل الفرنسي «محزون للمسلمين»

Que nous sommes amis des vrais musulmans

(٤) يشير إلى الحملة الفرنسية التي زحف على روما أثناء حرب إيطاليا وطردت البابا من روما

(٥) الكوالرية أو الكهالرية مأخوذة من الكلمة الفرنسية Chevaliers وهم طائفة دينية كانت تصرف بفرسان القديس خنا الأورشليم وقد تولوا حكم مالطة من عهد شارلكان ، وصار اسمهم «فرسان مالطة» فلما رست البعثة الفرنسية بالماله في طريقها إلى مصر احتلها الفرنسيون واعتفى حكم فرسان مالطة واستولى الفرنسيون على ما بالجزيرة من استحكامات ومباني ودعائر ونخف فينة وعجوهوات مما كان يهدى إلى الطائفة من أمحاء العالم وقد أضر نابليون منه إلى مصر الكثير من هذه النفائس ليتفجع منها  
(٦) ترجمة الأمل الفرنسي هكذا : أنا نحن الذين كنا على التوالم في خلال الضور أمهتاه السلطان العثماني أدام الله ملكه

المادة الأولى — جميع القرى الواقعة في دائرة قرية بثلاث ساعات<sup>(١)</sup> عن الموضع التي يمر بها عسكر الفرنساوية فواجب عليها أن ترسل للسرا عسكر من عندها وكلاء كيما يعرف المباشر إليهم أنهم أطلعوا وأنهم نصبوا علم الفرنساوية الذي هو أبيض وكلّي وأحمر

المادة الثانية — كل قرية تقوم على العسكر الفرنساوي تحرق بالنار

المادة الثالثة — كل قرية تطيع العسكر الفرنساوي أيضاً تنصيب صنيقا السلطان العثماني محبنا دام بقاءه

المادة الرابعة — المشايخ<sup>(٢)</sup> في كل بلد يختتمون حالا جميع الأرزاق والبيوت والأماك التي تتبع الممالك وعليهم الاجتهاد التام لتلا بضيغ أدنى شيء منها

المادة الخامسة — الواجب على المشايخ والعلماء والقضاة والأئمة أنهم يلازمون وظائهم ، وعلى كل أحد من أهالي البلدان أن يبق في مسكنه مطمئناً ، وكذلك تكون الصلاة باعة في الجوامع على العادة ، والمصريون بأجمعهم ينبغي أن يشكروا الله سبحانه وتعالى لاقضاء دولة الممالك ، قائلين بصوت عال أدام الله إجلال السلطان العثماني ، أدام الله إجلال العسكر الفرنساوي ، لمن الله الممالك ، وأصلح حال الأمة المصرية . تحريراً بمسكرا اسكندرية في ١٣<sup>(٣)</sup> شهر مسيدور من إقامة الجمهور الفرنساوي يعني في آخر شهر محرم سنة ١٢١٣ هجرية

\*\*\*

هذا هو المنشور الذي أذاعه نابليون في مصر وأوضح فيه السياسة التي عزم على اتباعها ، فهو أولاً أراد أن يفهم المصريين أنه إنما جاء ليحارب الممالك دون سواهم عقاباً لهم على معاملتهم الفرنسيين بالإذلال والاحتقار واعتدائهم على التجار وإساءتهم إلى أهل البلاد بالظالم التي يرتكبونها ، وأظهر من جهة أخرى أنه يحترم شعور الأهالي ويحترم الإسلام ونبية الكريم والقرآن العظيم ، وأشاد بمظمة مصر القديمة ونوه بما كان لها في المصور الماضية من حضارة وعمران ، كل ذلك ليستميل إليه قلوب المصريين

ووضع في منشوره أساس حكومة أهلية يدير شؤونها « البلاء والفضلاء وبذلك تصلح حال الأمة كلها »

(١) في الأصل الفرنسي ثلاثة فراسخ

(٢) التصود هنا مجازيخ البلاد وكانوا يكتبون المود الآن

(٣) الواقع أنه ١٤ مسيدور وربما كان رقم ١٣ خطأ من المبرق في النقل ، وحقيقة التاريخ

إن فكرة إنشاء حكومة أهلية من المصريين هي أظهر ما في النشور من الوعود التي أراد أن يجتنب بها قلوب المصريين ، والواقع أن نابليون في هذا النشور قد استثار الروح القومية المصرية ، ولم يسبق لتفتح قبل ذلك المصر أن يشهد بمكانة مصر وعظمتها ويوجه خطابه إلى المصريين ويدمهم بأن يكونوا أصحاب الحل والعقد في البلاد

على أنه لا يفوتنا القول بأن منشور نابليون مع ما فيه من الوعود والعبارات الجميلة قد حوى مبدأ التهديد والوعيد وإنذار المصريين باستهدافهم لأشد أنواع الأذى إذا هم لم يذعنوا للحكم الفرنسي ، لأن إنذار القرى بإحراقها بالنار إذا هي خرجت على الجنود الفرنسية أمر لا يتفق والقواعد الإنسانية في معاملة الشعوب ، ولم تر في منشورات نابليون للايطاليين أثناء حروب إيطاليا تهديداً من هذا النوع ، وسيرى القارئ في خلال الفصول القادمة أن الفرنسيين قد استعملوا طريقة إحراق القرى في كثير من المواطن ، فكان ذلك تنفيذاً لما حواه منشور نابليون من التهديد والوعيد ، ولنا أن نفهم من هذا أن نابليون كان ينظر إلى الأمة المصرية بغير العين التي ينظر بها إلى الأمم الأوروبية ، وأنه مع رغبته في إظهار الود نحو المصريين فإنه أعقب هذه الرغبة بتهديم بهذا الإنذار الرهيب ، وهذا وحده كاف ليصرفهم عن الاطمئنان لوعود نابليون ، وقد أورد ريبو في كتابه<sup>(١)</sup> منشور نابليون وحذف منه هذه المسألة وأشار إليها إشارة مبهمه ، ولعله تمتد حذفها ليحكم عن القارئ مبلغ ما فيها من القسوة والخروج على قواعد الحضارة والإنسانية

## المفاوضات بين نابليون وزعماء الشعب

### غداة معركة الأهرام

قام المصريون بقسطهم في الدفاع عن البلاد كما تراه مفصلاً في الفصل الخامس والقصول التي تليه ، لكنهم غلبوا على أمرهم وأصبحت القاهرة بعد واقعة الأهرام مفتوحة الأبواب أمام الجيش المنير ، فساد فيها النعر وعم أهلها الفزع والاضطراب لتوقعهم المكارهِ واحتمال العنت والأذى عند دخول الفرنسيين المدينة ، وكان رؤساء المالك قد فروا تاركين العاصمة بلا دفاع ، فأخذ علماءها وأعيانها يكررون في الخطة التي يتبعونها حيال هذه البكارة لتخفيف مصاب التسليم بالأمر الواقع ، شأن كل مدينة كبيرة هزم الجيش المدافع عنها

(١) التاريخ العلمى والحرب للجنة الفرنسية الجزء الثالث



فى صباح يوم الأحد ٢٢ يوليه سنة ١٧٩٨ (غداة معركة الأهرام) اجتمع فى الأزهر بعض العلماء والمشايع وتشاوروا فى الأمر ، وكان الجيش الفرنسى لم يزل بالبر الغربى للتيل ولم يدخل المدينة بعد ، فاتفق رأيهم على أن يبعثوا رسالة إلى الفرنسيين يستفهمون فيها عن قصدهم ويتظنون ما يكون جوابهم ، فقام رسولان يحملان الرسالة إلى معسكر الجيش الفرنسى بالجيزة<sup>(١)</sup> ثم عادا فأخبرا أنهما قابلا القائد العام وأعطياه الرسالة وقرأها عليه ترجمانه ، فقال على لسان الترجمان: «وأي عطاؤكم ومشايحكم ولم تأخروا عن الحضور إلينا لترتب لهم ما يكون فيه الراحة» وطمأنهم وبش فى وجوههم فقالوا تريد أماناً منكم ، فقال أرسلنا لكم كتاباً سابقاً<sup>(٢)</sup> ، فطلبوا وثيقة أخرى لأجل اطمئنان الناس فكتبوا لهم رسالة أخرى هذا مضمونها كما جاء فى الجبرقى :

« من معسكر الجيزة خطاباً لأهل مصر ، اننا أرسلنا لكم فى السابق كتاباً فيه الكفاية ، وذكرنا لكم أننا محضرون إلا بقصد إزالة المالك الذين يستملكون الفرساوة بالقل والاحتقار وأخذ مال التجار ومال السلطان ، ولما حضرنا إلى البر الغربى خرجوا إلينا قبالتنا بما يستحقونه وقتلنا بعضهم وأسروا بعضهم ونحرق فى طلبهم حتى لا يبق أحد منهم بالقطر العسرى ، وأما المشايخ والعلماء وأصحاب المراتب والرعية فيكونون معلمين وفى مساكنهم مرتاحين »

ثم قالوا للرسولين : « لا بد أن يحضر إلينا المشايخ والشورى ليرتب لهم ديناً ينتخبه من سبعة أشخاص من العقلاء يدبرون الأمور » ورجع الرسولان بهذا الجواب إلى القاهرة فاطن الناس وركب وقد مؤلف من الشيخ مصطفى الصاوى والشيخ سليمان الفيوى (من العلماء) إلى الجيزة فلقاهم نابليون بالترحاب وسألهم «هل أنتم كبار المشايخ» فأجابوه ان كبار الكبار قد

(١) اتخذ نابليون قصر مراد بك فى الجيزة معسكراً للقيادة العامة يصدر منه الأوامر إلى أن انتقل إلى القاهرة يوم ٢٤ يوليه سنة ١٧٩٨

(٢) يقصد للشعور الذى أذاعه فى الاسكندرية ووصلت منه عدة نسخ إلى القاهرة قبل معركة الأهرام ، ولعله يقصد كذلك بيان آخر فصره عقب معركة الأهرام لم يذكره فى الجبرقى وقد ورد به فى مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٨١٨

« من معسكر الجيزة فى ٤ ترميدور ( ٢٢ يوليه ) إلى أهل القاهرة :

« إلى مسرور من سلوككم وقد أحسنتم مناً بدم مقاومى ، إلى جئت لإيادته جيش المالك وحماية التجارة وأهل البلاد الأصليين ، فليطعن المقاتلون ويرجع القارون إلى بيوتهم ، وليستمر الأعمال على إقامة الصفات الدينية كالستاد ، اطمئنتوا على عائلتكم ويوتق وأمالكم واطمئنتوا على دينكم الذى أحرمه ، ولما كان من غرضي أن لا يمتل الأمن وأن يسود النظام فسيئات (ديوان) من سبعة أعضاء يجتمعون فى الأزهر يتصل منهم اثنان يومئذ للوقع ويخصص أربعة بالمحافظة على الرأى والنظام وتدير شئون البوليس »

غادروا المدينة خوفاً من الاحتلال فكلفهم بأن يكتبوا لهم بالحضور لتأسيس الديوان « لأجل راحتكم وراحة الرعية وإجراء الشريعة » ، فاستكتبوه عدة مكاتبات بالحضور والأمان ، ثم عادوا من معسكر الجيزة بعد العشاء وحضروا إلى مصر واطمأن رجوعهم الناس وكانوا في وجل وخوف لنيلهم ، وأرسلوا الأمان إلى المشايخ فحضر الشيخ السادات والشيخ الشراوى والمشايع ومن انضم إليهم من القارين من ناحية المطرية ، أما السيد عمر مكرم فثيب الأشراف فإنه لم يحضر وهاجر إلى سوريا بحجة أبي بكر باشا الوالى وإبراهيم بك

هذه خلاصة ما رواه الجبرتي عن مفاوضة نابليون لزعماء الشعب غداة معركة الأهرام ، ويجدر بنا أن نذكر رواية للمراجع الفرنسية عن هذه المفاوضات وقارن بينها وبين رواية الجبرتي يقول ريبو<sup>(١)</sup> إن مراد بك أمر قبيل واقعة الأهرام باعتقال التجار الفرنسيين في القاهرة وكان ينوى قتلهم لولا تدخل السيوروسى Rosetti فحصل التسامح فاكثى باعتقالهم<sup>(٢)</sup> وفى غداة واقعة الأهرام قابل السيور بروف Baudeuf أحد التجار الفرنسيين في القاهرة مصطفي بك ( نائب الوالى ) ومعه جماعة من التجار الأجانب وطلبوا منه أن يتوجه لمقابلة نابليون بالجيزة وعرضوا واسطحتهم لديه ، وجاء ترجمان من المعسكر الفرنسى ، فسار مصطفي بك مصحوباً بوفد وقابل نابليون وعرض عليه تسليم المدينة في مقابل عهد منه بحماية الأرواح والأموال وطمأنينة السكان ، فسارحه نابليون بأن أول أغراضه المحافظة على سمعة الشعب المصرى واحترام شعائره الدينية وأمواله ، وانتهت المقابلة وكانت على صفاء ، وبعد انتهائها سار الجنرال ديهوى Dupuy على رأس طليعة من الجنود لاحتلال المدينة ، وفى اليوم التالى ( ٢٣ يولييه ) دخل الجيش المدينة على أثر تلك الطليعة ، وفى أثناء عبور الجنود النيل استدعى نابليون بعض علماء الجامع الأزهر وأما الانكشافية ( المحافظ ) لمقابلته بمعسكره بالجيزة وناولهم منشوره إلى سكان القاهرة ، فبهذه الرواية تختلف فى بعض وثائقها عن رواية الجبرتي وإن كانت تتفق فى جوهرها ، على أن رواية الجبرتي فى هذا الصدد أدعى للثقة لأنها رواية شاهد عيان لحوادث ذلك العصر كان يدون معظم مشاهداته فى حينها ، أما رواية ريبو فقد دوت عقب وقوع تلك الحوادث بعدة طويلة ، وليس يخلو هذا التدوين من خطأ أو تحريف ، وقد رجعنا إلى مذكرات نابليون التى أملأها على الجنرال برتران فى متفاه بهانت هيلين فوجدناه يروى عن

(١) التاريخ الملى والحرب الفتحلة الفرنسية الجزء الثالث

(٢) يقول الجبرتي فى هذا العهد : « طلب الأتراء (الماليك) التجار من الافرنج فغسوا بعضهم بالقلعة ويضعهم بأمان كن الأتراء وساروا يقتضون فى محلات الافرنج على الأسلحة وغيرها »

هذه المفاوضات أن ترجحاً من قبله ذهب غداة معركة الأهرام لمقابلة علاء الأزهري ومشايخه ، وأن هؤلاء تولوا زمام الحكومة بعد المعركة واجتمعوا ليتشاوروا فاتفقوا رأياً على التسليم ، فذهب وفد من المشايخ على رأسه نيكيا الباشا ( نائبه ) وقابلوا نابليون بالجيزة ، وهذه الرواية كما ترى أقرب إلى رواية الجبرتي ولا تنافيها ، والتي يفهم من تقارب الروايتين أن نابليون أرسل ترجمانه لمقابلة العلماء باعتبارهم زعماء الشعب ، ولمقابلة الوالي باعتباره نائب السلطان ( وكان نابليون كثير الاهتمام باستيقاظ علاقات الود مع سلطان تركيا ) فقابل الترجمان العلماء الذين كانوا بالأزهر ، ولم يقابل الوالي لأنه ارتحل عقب معركة الأهرام إلى سوريا بحجة إبراهيم بك رئيس المماليك ، ولا بد أن يكون الترجمان قابل مصطفى بك ( نائب الوالي ) فذهب الرسولان للذنان أشار إليهما الجبرتي ولما عادا وسمع العلماء حديثهما مع نابليون أرسلوا وفداً منهم لمقابلته فقابلوه وجرى بينهم الحديث الذي رواه الجبرتي

وترى من خلال المناقشة التي دارت بين نابليون والمشايخ أن أول ما فكر فيه هو تأسيس ( الديوان ) من كبار العلماء والأعيان « لتدير الأمور والنظر في راحة الرعية وإجراء الشريعة » أي أنه فاضهم في فكرة تأسيس حكومة أهلية يكون المنصر السائد فيها من المصريين فلنبحث إذن تفصيلاً في نظم الحكومة التي أسسها نابليون تنفيذاً لهذه الفكرة وما استنبهها من تأسيس الهيئات واللجان الأخرى

## الفصل الثالث

### نظم الحكم التي أسسها نابليون في مصر

ديوان القاهرة - دواوين الأقاليم - الديوان العام - المجمع العلمى

١

#### ديوان القاهرة

انتقل نابليون من معسكره بالجيزة وعبر النيل ودخل القاهرة يوم ٢٤ يولييه سنة ١٧٩٨<sup>(١)</sup> مصحوباً بضباطه وأركان حربه ، ونزل بقصر محمد بك الألفى بالأزبكية وشرع في تأسيس الديوان

#### تأليف الديوان

يؤخذ من رواية الجبرتي في تأسيس الديوان أنه بعد أن استقر نابليون في القاهرة أمر باستدعاء المشايخ والوجاقلية عند قائم مقام صارى عسكر « فلما استقر بهم الجلوس خاطبهم وتشاوروا معهم في انتخاب عشرة من المشايخ للديوان وفصل الحكومات ، فوقع الاتفاق على الشيخ عبدسالم الشرافوى ، والشيخ خليل البكرى ، والشيخ مصطفى الصاوى ، والشيخ سليمان الفيوى ، والشيخ محمد المهدي ، والشيخ موسى السرسى ، والشيخ مصطفى الدمشورى ، والشيخ أحمد المريشى ، والشيخ يوسف الشبرخيتى ، والشيخ محمد اللدواخلى »

ومفهوم رواية الجبرتي أن المشايخ والوجاقلية هم الذين اختاروا أعضاء الديوان ، أى أن

---

(١) ذكر « ريبو » في كتاب التاريخ العلمى والمربى لقحلة القرنية أن دخول نابليون القاهرة كان يوم ٢٥ يولييه ، والصحيح ما ذكره الفومنندان دى لاجونكيير في كتابه (حلة مصر) أن دخوله كان يوم ٢٤ يولييه ، وهى الرواية التي اعتمدها ، لأنها مؤيدة بالوثائق الرسمية ، وذلك أن نابليون أرسل عقب دخوله القاهرة إلى حكومة المديركتور تهريرا عن واقعه شراخيت والأهرام ، وتاريخ هذا التقرير ٢٤ يولييه كما هو ثابت في مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٨٣٤ ، وكذلك الأمر الذى أصدره بإعداد للمستشفيات والواردة في مراسلاته (وثيقة رقم ٢٨٣٥) صدر في القاهرة بتاريخ ٢٤ يولييه ، فالوثائق الرسمية تدل على أن نابليون دخل القاهرة يوم ٢٤ يولييه لا ٢٥ ، والجبرتي يقول إن نابليون عدى إلى القاهرة يوم الثلاثاء ١٠ صفر سنة ١٢١٣ وهذاوافق ٢٤ يولييه سنة ١٧٩٨ ، فرواية الجبرتي كما ترى صحيحة تؤيدها الوثائق الأصلية.

هذا الديوان تألف بطريقة تشبه طريقة الانتخاب في الدرجتين ، وهو يمثل في تأليفه الصريين الأصليين من أهالي البلاد ، وأن عدد أعضاء الديوان عشرة ، لكن إذا رجعنا إلى النص الفرنسي للأمر الذي أصدره نابليون بتأليف الديوان<sup>(١)</sup> نجد مختلف ورواية الجبرتي في بعض النقط ومنها عدد الأعضاء وبيان أسمائهم

وهذا نص الأمر تثبت هنا للمقابلة بينه وبين ما ذكره الجبرتي :

« معسكر القاهرة في ٧ ترميدور من السنة السادسة للجمهورية (٢٥ يولييه سنة ١٧٩٨)

« بوناپارت عضو المجمع العلمي الأهل<sup>(٢)</sup> والقائد العام للجيش يأمر بما يأتي :

( أولاً ) تحكم مدينة القاهرة بديوان مؤلف من تسعة أعضاء

( ثانياً ) يتألف هذا الديوان من المشايخ : السادات ، والشرقاوي ، والساوي ،

والبكري ، والفيوي ، والريشي ، وموسى السرمي ، والسيد عمر نقيب الأشراف ، ومحمد

الأمير . وعليهم أن يجتمعوا اليوم في الساعة الخامسة مساء في منزل نكيا الشاوشية ، وعليهم

أن ينتخبوا من بينهم رئيساً لهم وأن يختاروا سكرتيراً ( كاتم سر ) من غير الأعضاء ، ويدينوا

اثنتين من الكتبة والتراجمة يرفان الفرنسية والعربية

« ولهذا الديوان حق تعيين اثنتين من الأغوات ( رؤساء الجند ) لإدارة البوليس ، وعليه أن

ينتخب لجنة مؤلفة من ثلاثة لمراقبة الأسواق وتكوين المدينة ، ولجنة من ثلاثة آخرين يكلفون

بعممة دفن الموتى بالقاهرة وضواحيها إلى فرسخين منها

( ثالثاً ) يجتمع الديوان كل يوم من الظهر ويبقى ثلاثة أعضاء على الدوام بدار المجلس

( رابعاً ) يقام على باب الديوان حرس فرنسي وآخر تركي

( خامساً ) على الجنرال برتية Berthier ( رئيس أركان الحرب ) وقومندان المدينة

( الجنرال ديوي ) أن يكونا في الساعة الخامسة مساء اليوم بدار الديوان لإجراء ما يلزم

لأعضائه ولكي يأخذوا عليهم عهداً ألا يعملوا شيئاً ضد مصلحة الجيش »

فهذا الأمر كما ترى ينص على أن الديوان مؤلف من تسعة أعضاء لا من عشرة كما رواه

الجبرتي ، وأن هؤلاء الأعضاء هم : السادات ، والشرقاوي ، والساوي ، والبكري ، والفيوي ،

والريشي ، والسرمي ، والسيد عمر مكرم نقيب الأشراف ، ومحمد الأمير ؛ فهناك إذن

(١) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٨٣٧

(٢) بريد المجمع العلمي الفرنسي الذي كان نابليون عضواً به منذ ديسمبر سنة ١٧٩٧ ، وكان يختص

بوضوئه فيه كما تراه من هدم عضويته بالمجمع على مرتبة القائد العام في أوامره

اختلاف بين رواية الجبرتي وأمر نابليون في عبد الأعضاء وفي أسمائهم ، فإن في أمر نابليون ثلاثة لم يرد ذكرهم في رواية الجبرتي وهم : السادات ، والسيد عمر مكرم هيب الأشراف ، والشيخ محمد الأمير ، ونعتقد أن السبب في ذلك أن هؤلاء الثلاثة قد اجتمعوا المشايخ والوجالفة يوم اجتماعهم وأسند نابليون أمره بإقرارهم أعضاء لديوان ، لكنهم لم يقبلوا العضوية إما لرفضهم الاشتراك في مهزلة الحكم مع الفرنسيين أو لأي سبب آخر ، ولذلك لم ترد أسمائهم في رواية الجبرتي ، يؤكد ذلك أن السيد عمر مكرم كان من بين الأشخاص الذين لم يرضوا بالبقاء في القاهرة عند دخول الفرنسيين فيها فإنه خرج منها والتي بإبراهيم بك وإبي بكر باشا الوالي وأرتحل معهما إلى بليس ثم إلى سوريا ، ولم يعد إلى بعد احتلال الفرنسيين يافا كما سيحيى بيانه في الفصل الثاني من الجزء الثاني ، والظاهر أنه وقع الاختيار عليه ليكون عضواً بالديوان دون أن يصل نابليون بنيته في الرحيل إلى سوريا ، فلما تحقق رحيله خلا محله في العضوية كما خلا محل السادات والأمير ، فتمين بدل هؤلاء الثلاثة المنهوري ، والشبراخيتي ، والدواخي الذين وردت أسمائهم في رواية الجبرتي ، والمعروف عن الشيخ السادات أنه لم يكن عضواً في هذا الديوان ولا في الديوان الثاني تألف في أواخر ديسمبر سنة ١٧٩٨ ، مع أن السادات كان من كبار العلماء في ذلك الحين ، وكان له من النفوذ والجاه ما لم يكن لأحد من أعضاء الديوان ، فيظهر لنا أنه لم يقبل عضوية الديوان مع صدور أمر نابليون بعاماد عضويته ؛ ولعله تورع عن قبول هذه العضوية لأنها لا تناسب مع مقامه في البلاد ، على أنه كان مع ذلك موضع احترام نابليون ، اعتبر ذلك فيما أمر به من تعيينه على رأس لجنة عهد إليها فحص شكاوى الأفراد مصادرة أموالهم ، وهذه اللجنة مؤلفة من الشيخ السادات والمسبوروسقي قنصل النمبا والجنرال جونو<sup>(١)</sup> وقد زاره نابليون في بيته وكان يحترمه احتراماً عظيماً ، وذكر الجبرتي عن موقفه حيال الفرنسيين « أنه لما قبضت الفرنسية على الديار المصرية لم يترحموا له في شيء ورأوا جانبهم وأفرجوا عن تعلقهم وقبوا شفاعته وتردد إليه كبيرهم وأعطاهم<sup>(٢)</sup> » على أن نابليون مع احترامه له لم يطمئن يوماً إليه ، وقد اتهمه بظامة ثورة القاهرة كما سيحيى بيانه في موضعه<sup>(٣)</sup> ثم اضطره الفرنسيون اضطراداً شديداً في عهد كليبر ثم في عهد

(١) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٩٣-٣ ، وليس في الراجح الفرنسية ما يدل على أن هذه اللجنة انضمت أو عملت عملاً ، ولعل السادات لم يقبل أيضاً عضوية تلك اللجنة

(٢) الجبرتي الجزء الثالث

(٣) انظر الفصل الثالث عشر

منو كما تراه مفصلاً في الفصل التاسع من الجزء الثاني ، فالسادات إذن مع انتخابه عضواً بالديوان لم يقبل هذه المضوية أفقاً وتورعاً

بقى أن نعرف السبب فيما ذكره الجبرتي أن عدد أعضاء الديوان عشرة مع أن أمر التأسيس ينص أنهم تسعة ، وأن منهم المهدي مع أنه لم يذكر في الأمر ، ويظهر أن الجبرتي ذكر الشيخ محمد المهدي باعتباره عضواً من الأعضاء فصاروا على روايته عشرة أعضاء ، وهذا خطأ في رواية الجبرتي ، والصحيح أنهم تسعة أعضاء لا عشرة ، أما الشيخ المهدي فلم يكن عضواً بالديوان وإنما كان سكرتيراً له ، وكان أمر نابليون يقضى بأن يمين الأعضاء سكريتيراً للديوان « من غير الأعضاء » فوق الاختيار على الشيخ محمد المهدي ، فهو لم يكن من الأعضاء التسعة ، وعذر الجبرتي في هذا الخطأ أن الشيخ المهدي وإن لم يكن عضواً بالديوان إلا أنه كان له من النفوذ في الديوان وفي غير الديوان أكثر مما كان للأعضاء ، فقد ذكر الجبرتي عن نفوذه في ذلك العصر أن الفرنسيين أحبوه وأكرموه وقبلوا شفاعته ووثقوا بقوله ، فكان هو المشار إليه في دولتهم مدة إقامتهم بمصر وعلى يده قضى عندهم حوائج الناس وقضاياهم ، وكانت أوامره نافذة عند ولاة أعمالهم حتى لقب عندهم وعند الناس بكاتم السر ، ولما رتبوا الديوان كان هو المشار إليه فيه وللوظفون في الديوان من دونه وإذا ركب حفرُوا به ومشوا حوله وبين يديه وفي أيديهم المعى يسمون له الطريق<sup>(١)</sup> ، قال المهدي كان إذن السكرتير العام المعين للديوان ، ومن ذلك كانت له الرئاسة على موظفي الديوان « وإذا ركب يمشون حوله » كما يقول الجبرتي ، ولكنه لم يكن عضواً به

ولا يفوتنا هنا أن نذكر أن المهدي صار بعد ذلك عضواً في الديوان الذي تأسس في ديسمبر سنة ١٧٩٨ على نظام آخر كما سيأتي بيانه في الفصل الأول من الجزء الثاني

### اختصاص الديوان

قضى أمر نابليون « باستناد حكومة القاهرة إلى الديوان » أي أن السلطة المدنية للحكومة كانت من اختصاصه بوجه عام ، لكن لا يزب عن الحق أنه لم تكن له سلطة قطعية في أي من الأمور ، بل كان المرجع الأعلى للسلطة العسكرية المثلة في جيش نابليون ويقضى الأمر الصادر بتأسيس الديوان أن للأعضاء حق اختيار رئيس من بينهم وتعيين

سكرتير (كاتم السر) من غير الأعضاء ، وسكرتيرين مترجمين اثنين يعرفان الفرنسية والعربية ، والديوان صوت مسموع في تعيين كبار الموظفين ، فقد ذكر الجبرتي أنهم عينوا محمد المسلماني أغت مستحفظان<sup>(١)</sup> (محافظ المدينة ) وعلى أنا الشعراوي والى « رئيس » الشرطة ، وحسن عرم « أمين احتساب » وذلك بإشارة أعضاء الديوان ، وقال الجبرتي إن الفرنسيين كانوا ممارسين في تقليد هذه الناصب لأولئك الأشخاص لأنهم من جنس الماليك ، لكن أعضاء الديوان أقنعوهم بأن هؤلاء المذكورين من بقايا البيوت القديمة الذين لا يتجاسرون على الظلم ، وبأن السوق لا يخافون إلا منهم ، فاقنع الفرنسيون بهذه الحجة ، ويقول « ريبو »<sup>(٢)</sup> « إن هذا التعيين كان بنصيحة السيو ماجالون Magallon قنصل فرنسا في مصر والسيو فانتور Venture كبير ترجمة نابليون وبودوف Baudeuf التاجر الفرنسي بالقاهرة ، ومعنى ذلك أنهم واقفوا أعضاء الديوان على رأيهم وأبدوه لدى نابليون وقضى الأمر بأن من حق الديوان تعيين اثنين من الأغوات (رؤساء الجند) لإدارة البوليس ، وتعيين لجنة من ثلاثة أشخاص يتولون الإشراف على الأسواق وملاحظة تموين المدينة ، وهي وظيفة المحتسب القديمة ، ولجنة أخرى تتولى دفن الموتى في القاهرة وما حولها ، وأصدر نابليون أمراً آخر في ٢٨ يولييه سنة ١٧٩٨<sup>(٣)</sup> بأن يعين الديوان « أنا » (رئيساً) للانكشارية لكل من بولاق ومصر القديمة يكونان تابعين لأنا القاهرة ، وأن يعين « أنا » (رئيساً) يتولى إدارة الشرطة في النيل وأمر بأن يكون هذا الأنا تحت رئاسة الكونت راميرال بيرى Perrée الذى عهد إليه بشؤون الملاحة النهرية

فتمعين رؤساء الموظفين بدخل إذن في خصائص الديوان ، على أن هؤلاء الموظفين كانوا تابعين للرؤساء الفرنسيين ومجردين من كل سلطة

وقد احتفظ الفرنسيون بتعيين بعض كبار الموظفين دون استشارة الديوان ، فعهد نابليون إلى السيو بوسليج إدارة الشؤون المالية للحكومة ، ويقول عنه الجبرتي (مدير الحدود) ويعبر عنه بالروناجي أى مدير الروزنامة ، وعينوا برتلى الروى<sup>(٤)</sup> كخزنا مستحفظان (وكيل المحافظ) ، وقسموا القاهرة وبولاق ومصر القديمة إلى عشرة أخطاط عينوا لكل خط حاكاً (قومنداناً) فرنسياً

(١) وكان يسمى « الأنا » فقط

(٢) التاريخ الملى والحرب للجنة الفرنسية الجزء الثالث

(٣) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٨٦٧

(٤) سيأتى الكلام عنه في الفصل الثالث عشر



ويقول الجبتي إنهم عينوا أحد الأفريج أمين البحرين (مدير الجمارك) وآخر «أغا الرسالة»  
أى مدير البريد ، وفى مراسلات نابليون<sup>(١)</sup> أن نابليون عهد إلى الميوسوسى مدير مهمات  
الجيش أن ينظم مكاتب البريد فى القاهرة والإسكندرية ورشيد ودمياط والرحمانية والمنصورة  
ومنوف والمحلة الكبرى ، على أن يتولى إدارة البريد مدير يتصل بالجيش ، وجاء فى إنقويم  
الجمهورية الفرنسية عن السنة الثامنة ( ١٨٠٠ ) أن مدير البريد فى مصر وقتئذ هو الميوس  
مونتيكو Monticault

### نظام الديوان

يجتمع الديوان ظهر كل يوم ويبقى من الأعضاء ثلاثة على الدوام فى دار المجلس ويقوم  
على حراسة الديوان حرس فرنسى وآخر تركى

وقد أبلغ نابليون نص الأمر القاضى بتأسيس الديوان إلى الجنرال برتييه Berthier  
رئيس أركان حرب الجيش الفرنسى وأصدر إليه التعليمات الآتية :

« يجب أن تعنى أولاً بأن تستكتب أعضاء الديوان رسالة إلى أمير الحج بالحضور بالحجاج  
فى أمان ، وأن يكتبوا إلى زعماء العرب بالإخلاء إلى السكينة والكف عن محاربة الفرنسيين  
وأن يصعدوا منشوراً إلى الشعب يدعونه إلى الطمأنينة ويبينون له مقاصدنا الحسنة نحو الأهالى »

وأصدر أمره فى ٢٨ يولييه بتعيين الاديوان جنرال بوفوازان Beauvoisins قوميسيرا  
لدى الديوان وعهد إليه حضور جلساته على الدوام وأن يرفع إليه عقب كل جلسة كل ما يدور  
فيها ، وكان نابليون حريصاً على تتبع مداولات الديوان حتى فى أثناء تنبيهه عن الماسحة ، فانه  
لما ارتحل عن القاهرة تنقّب جيش إبراهيم بك ببليس أصدر أمره إلى الجنرال ديزيه Desaix  
بأن ينوب عنه فى شؤون القيادة وكلفه بأن يتلقى من بوفوازان تقارير يومية عن جلسات  
الديوان<sup>(٢)</sup> ولا أوفد نابليون بوفوازان فى مهمة لدى الجزائر عين بدله الميوس تاين Ta ien  
قوميسيرا لدى الديوان ( ٣١ أغسطس سنة ١٧٩٨ ) ، ويؤخذ من أمر نابليون القاضى بهذا  
التعيين أن مهمة القوميسير هى التجسس على الأعضاء فإن نابليون يقول فى أمره<sup>(٣)</sup>

(١) الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٩٣٩ و ٢٩٤٠

(٢) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٩٩٢

(٣) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٣٧٠٧

« على الستويان <sup>(١)</sup> تاليان أن يحضر جميع جلسات الديوان وأن يسمى في معرفة أخلاق أعضائه ومبلغ الثقة التي يمكننا أن نولهم إياها ، وعليه أن يخلط كل يوم بالشكاوى التي ترفع إلى الديوان والمسائل التي بحث فيها والطلبات التي يبدئها »  
هذه هي الأوامر والعهود الخاصة بتأسيس الديوان وبيان اختصاصاته ، ومنها يتبين أن سلطته لم تكن تمتد إلى مدينة القاهرة وأن هذه السلطة لم تكن إلا استشارية ومقيدة بتمهد الأعضاء أن لا يعملوا شيئاً ما ضد مصلحة الجيش فضلاً عن أنهم كانوا يعملون ويتداولون بعين من الفرنسيين تحت المراقبة المستمرة  
وقد جعل مقر الديوان بيت قائد أتا بالأزبكية قرب الرومي <sup>(٢)</sup> وسكن به رئيس الديوان ، وتداول المجلس في جلسته الأولى في الوسائل اللازمة لإعادة الأمن والنظام إلى المدينة

## — ٢ —

### دواوين الأقاليم

عم نابلون نظام الديوان في مديريات القطر المصري فأصدر في ٢٧ يولييه سنة ١٧٩٨ الأمر الآتي <sup>(٣)</sup> :

أولاً — يتألف في كل مديرية من مديريات القطر المصري ديوان من سبعة أعضاء يسهرون على مصالح المديرية ويعرضون عليه كل الشكاوى التي تصل إليهم ويعلمون اعتداء القرى بعضها على بعض ، وعليهم مراقبة الأشخاص السيئ السيرة ومقابضهم والاستمانة على ذلك بالقوات التي تحت إمرة القواد الفرنسيين ، وإرشار الأهالي إلى ما تقتضيه مصالحهم  
ثانياً — يبين في كل مديرية أتا (رئيس) الانكشارية يتصل دائماً بالقومندان الفرنسي ، ويكون تحت إمرة قوة مسلحة من ستين رجلاً من الأهالي يحافظ بهم على النظام والأمن والسكينة

---

(١) كلمة ستويان مأخوذة من الفرنسية Citoyen ومعناها « مواطن » وهي من مصطلحات الثورة الفرنسية ، وتؤدى معنى كلمة « مسيو » الحالية

(٢) يتدنى شارع الرومي من أول شارع البكرة وينتهي لشارع وجه البركة ، وجامع الرومي بأوله ، ويقول العلامة علي باشا مبارك في المخطط التوفيقية عن جامع الرومي إنه بالقرب من جامع البكرة أنشأ السيد أحمد الرومي رئيس تجار مصر في القرن التاسع ، وأما قائد أتا فهو من مماليك محمد بك أبي القعب وكان أغلت مستغفلان (حافظ القاهرة) سنة ١٧٩٨ هجرية

(٣) مراسلات نابلون الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٨٥٨

ثالثاً — يعين في كل مديرية « مباشر » لحاية أموال الميرى والضرائب وإيراد أملاك المالك التي صارت ملكاً للجمهورية ويكون تحت رياسته المال الذين يحتاجهم العمل رابعاً — يعين بجانب هذا المباشر وكيل فرنسي للمخاطبة مع مدير المالية ومراقبة تنفيذ الأوامر التي يصدرها وتكون من اختصاص الإدارة المالية وأرسل نابليون صورة هذا الأمر إلى قواد الجيش الفرنسي الذين تولوا حكم المديريات في عهد الحملة الفرنسية

### الديوان العام

أراد نابليون أن يستنير بأراء أعيان العاصمة والأقاليم في المسائل التي تفرعت عن النظام الجديد ، ففي ٤ سبتمبر سنة ١٧٩٨ دعاهم إلى الاجتماع في جمعية عامة تمثل أعيان البلاد ليستشيرها في النظام النهائي للتدواين التي أسسها في إدارة الحكومة ووضع نظامها الإدارى والمالى والقضائى ، وحدد لاستقراء هذه الجمعية بالقاهرة يوم أول أكتوبر ثم عدل اليعاد إلى ٥ أكتوبر ، وسميت هذه الجمعية « الديوان العام » تمييزاً لها عن ديوان القاهرة .  
توخى نابليون اختيار هؤلاء الأعيان من « الأشخاص الذين لهم نفوذ بين الأهالى ومن الذين امتازوا بمركزهم العلمى وكفايتهم وطريقة استقبالهم للفرنسيين » (١) .  
احتوت هذه الجمعية العامة مندوبين من القاهرة وعن الإسكندرية ، ورشيد ، ودمياط ، والبحيرة ، والغربية ، والمنصورة ، والشرقية ، والمنوفية ، والقليوبية ، والجيزة ، واطنح ، وبني سويف ، والفيوم ، والمنيا ، وأسيوط ، وجرجا ، وكان مندوبو كل مديرية مؤلفين من ثلاثة من العلماء ، وثلاثة من التجار ، وثلاثة من الأهالى ( مشايخ البلاد ورؤساء الريان ) وكان مندوبو القاهرة في الديوان العام ثلاثة أمثال كل مديرية ولكل من الشرقية والمنوفية الضعف

#### رسالة نابليون في الفروض من الديوان

أصدر نابليون أمره إلى العالمين Monge وبرتوليه Berthollet عضوى المجمع العلمى بالاشتراك في جلسات « الديوان العام » على أن يكون لها سبعة « قومسيون »

---

(١) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٣٢٣٨ .

لحضور المناقشات وعرض مشروعات الحكومة على الأعضاء ، وتلقيا منه تعليماته في رسالة قال فيها<sup>(١)</sup> :

« إن القرض من عقد « الديوان العام » هو تعويد الأعيان المصريين مُنظَّم المجالس الشورية والحكم ، قهولاً لهم إلى دعوتهم لاستشارتهم وتلقى آرائهم فيما يسود على الشعب بالسعادة والرافية ، وما يفكرون في عمله إن كان لهم حق الفتح القى حزنه في ميدان القتال « أطلبوا من الديوان العام أن يبدى رأيه في المسائل الآتية :

أولاً — ما هو أصح نظام لتأليف مجالس « الديوان » في المديرية وما هو المرتب القى يجب تحديده للأعضاء

ثانياً — ما هو النظام القى يجب وضعه للقضاء اللدى والمجانئ

ثالثاً — ما هو القى يسهل يكفل ضبط الموارث ومحو أنواع الشكاوى والإجحاف الموجودة في النظام الحالى

رابعاً — ما هى الإصلاحات والاقتراحات القى يراها الديوان لإثبات ملكية المقارات وفرض الضرائب

« ويجب أن تفهموا الأعضاء بأننا لا قصد إلا توفير السعادة والرافية للبلاد القى تشكو من سوء نظام الضرائب الحالى كما تشكو من طريقة تحصيلها ، وعليكم أن تضعوا الديوان نظامه التام كما يأتى : أن ينتخب الأعضاء رئيساً له ، ونائب رئيس ، وسكرتين مترجين اثنين ، وثلاثة مراقبين ، وأن يكون ذلك بطريقة الاقتراع وبكل مظاهر الانتخاب ، وعليكم أن تقيموا المناقشات وتدونها أسماء الأعضاء القين يمتازون عن زملائهم في الديوان سواء يفوزهم أو يكفائهم »

من هذه الرسالة تعرف بيان المسائل الأربع القى عرضها نابليون على الديوان العام لأخذ رأيه فيها ، وقد رجعتنا إلى الجبرتي فوجدناه قد أوجز كثيراً في الكلام عن الديوان العام ومنذولاه ، ولذلك اعتمدنا على المرجع الفرنسية لأنها في هذا الصدد أوفى وأدق بياناً ، قال الجبرتي في بيان المسائل الأربع للطروحة عليه : « ولما تكامل الجمع شرع القاضي ملطى في قراءة النشور ، وبتداده ما به من الشروط مسطور ، وذكر من ذلك أشياء منها أمر الحاكم والقضايا الشرعية ، وجبج المقارات ، وأمر الموارث ، وتناقشوا في ذلك حصه من الزمن ،

وكتب هذه الأريمة أشياء أرباب ديوان الخاصة ( أعضاء الديوان ) يدبرون رأيهم في ذلك وينظرون المناسب والأحسن وما فيه الراحة لهم وللزعية ثم يمرضون مادبروه يوم الخميس »

### اجتماع الديوان العام وقراره

وفي أوائل شهر أكتوبر سنة ١٧٩٨ حضر إلى القاهرة نواب الأقاليم الذين دعوا إلى حضور الديوان العام ، ففي يوم الجمعة ٥ أكتوبر سنة ١٧٩٨ ( ٢٤ ربيع الثاني سنة ١٢١٣ ) نبه عليهم وعلى نواب القاهرة من الشايخ والأعيان والتجار بالحضور إلى الديوان العام في اليوم التالي ( السبت ) بدار محكمة القضايا بيت مرزوق بك بحارة عابدين ، لكن الديوان لم يتعقد بهذا المكان وأعيد التنبيه على الأعضاء بالاجتماع بدار ديوان القاهرة وهو بيت قائد أخابالأزبكية ذهب الأعضاء إلى دار الديوان وحضر الاجتماع المسيو موجب والمسيو برتوليه متتدين من قبل نابليون لافتتاح الديوان والاتصال بالأعضاء وعرض أفكار الحكومة ومشروعاتها عليهم لأخذ رأيهم فيها

### خطبة الافتتاح

ولما استقر بالأعضاء المقام شرع القاضي ملطى رئيس محكمة القضايا في قراءة ( فرمان الشروط ) وقام كبير النندوين ( موجب ) وناول الترجان خطبة الافتتاح وتليت مترجمة إلى اللغة العربية ، ونقل هنا خلاصتها كما وردت في الجبرتي لأن هذه الخلاصة هي التي تليت بالديوان « إن قطر مصر هو المركز الوحيد<sup>(١)</sup> ، وأنه أخصب البلاد ، وكان يجلب إليه المتاجر من البلاد البعيدة ، وإن العلوم والصنائع والقراءة والكتابة التي يرفها الناس في الدنيا أخذت من أجداد أهل مصر الأول ، ولكون قطر مصر بهذه الصفات طمعت الأمم في تملكه ، فلكه أهل بابل ، وملكه اليونانيون والعرب والترك الآن ، إلا أن دولة الترك شددت في خرابه لأنها إذا حصلت الثمرة قطعت عروقها ، فلذلك لم يقوا بأيدي الناس إلا القدر اليسير وصار الناس لأجل ذلك مغتفين تحت حجاب الفقر وقاية لأنفسهم من سوء ظلمهم ثم إن طائفة الفرنساوية بعد ما تمهد أمرهم وبعد صيتهم بقيامهم بأمور الحروب اشتاقت أنفسهم لاستخلاص مصر مما هي فيه وإراحة أهلها من تغلب هذه القولة المنفعة جهلا وغباوة فقدموا وحصل لهم النصر ، ومع ذلك لم يتعرضوا لأحد من الناس ولم ياملوا الناس بقسوة ،

(١) ترجمة الأسفل الفرنسي ... « أن مصر بلاد لا نظير لها » وفي الترجمة الواردة في الجبرتي بعض عبارات ركيكة أجنبناها لأنها وثيقة تاريخية يجب المحافظة عليها

وأن غرضهم تنظيم أمور مصر وإجراء خلجانها التي دثرت ، فيصير لها طريقان طريق إلى البحر الأسود<sup>(١)</sup> وطريق إلى البحر الأحمر فيزداد خصبها وريعها ، ومنع القوى من ظلم الضعيف ، وغير ذلك استجلاً لخواطر أهلها وإبقاء لذكر الحسن ، فالتناسب من أهلها ترك الشغب وإخلاص المودة ، وإن هذه الطوائف المحضرة من الأقاليم يترتب على حضورها أمور جلية لأنهم أهل خبرة وعقل ، فيسألون عن أمور ضرورية ويجيبون عنها فينتج لصارى عسكر (نابليون) من ذلك ما يليق ستمه<sup>(٢)</sup>

هذا هو الخطاب الذى افتتح به « الديوان العام » ، والتأمل فيه يرى نابليون يشيد بمظلمة مصر القديمة ومركزها للمناز في العالم ويعترف بأن مصر كانت معلة الأمم وحاملة لواء الحضارة والرفاق ، وجميل أن يصدر هذا الاعتراف من قائد دانت له الممالك وخضعت له الرقاب ، على أن هذه اللهجة من شأنها أن تيمث في نفوس سامعيها من أعضاء الديوان روح المزة القومية فتحدو بهم إلى التطلع لإحياء عظمة مصر القديمة وتصرفهم عن الإذعان لحكم الفرنسيين وغير الفرنسيين ، والواقع أن مصر لم تدعن للحملة الفرنسية كما سيراها القارى فيما يلي

وفى خطاب نابليون إشارة إلى طمع الدول في مصر ، وتصريح بما اقترن به الحكم التركى في مصر من الظلم والخراب ، وهذا الوصف لا يخالف الحقيقة في شيء ، ولكن الأمر الذى بلغت النظر أن نابليون فى خطابه هذا قد خالف خطته القديمة فى مجاملة تركيا والتظاهر بالمودة للسلطان المبانى فجاهر لأول مرة فى خطاب رسمى على بمبادئه لتركيا ، والسبب فى تغيير خطته بالنسبة لتلك الدولة أنها اتحدت مع إنجلترا والروسيا لمحاربة فرنسا وإخراج جنودها من مصر ، وأعلن الباب العالى الحرب على فرنسا فى سبتمبر سنة ١٧٩٨ ، فلم ير نابليون بداً من أن يجله بمبادئه للأتراك ويصارع المصريين بالطنن فى تركيا ويذكرهم بما أنصف به حكمها من الظلم والجهل والنباوة ليصرفهم عن التعلق بها ، على أن المصريين كانوا يرون أن تركيا تعمل وقتئذ بمساعدة حلفائها على إجلاد الفرنسيين من مصر ، وجلادهم عنها يؤدى إلى ترك البلاد لأهلها ، وقد حققت الأيام صحة هذا النظر لأن محمد على لم يحقق استقلال مصر إلا بعد طرد الفرنسيين ثم الإنجليز من البلاد.

(١) كذا فى المجلد ، والصحيح البحر الأبيض كما جاء فى الأصل الفرنسى

(٢) المجلد الجزء الثالث

## رأسه الديوان العام

كتب الجبرتي ما يأتي في وصف انتخاب رئيس الديوان العام نقله لأنه كمحضر جلسة أو مضبطة لما دار بشأن انتخاب الرئيس : « قال الترجمان ، زبد منكم يمشاج أن تختاروا شخصاً منكم يكون كبيراً ورئيساً عليكم ممثلين أمره وإشارته ، فقال بعض الحاضرين « الشيخ الشرقاوى » فقال نو نو ( لا لا ) وإنما ذلك يكون بالقرعة ، فمالوا قرعة بأوراق فطلع الأكثر على الشيخ الشرقاوى ، فقال حينئذ يكون الشيخ عبد الله الشرقاوى هو الرئيس ، فاتم هذا الأمر حتى زالت الشمس فأذنوا لهم في الذهاب »

فانتخاب الرئيس كان إذن بالاقتراع السرى كما يحصل في المجالس النيابية ، ومن كلام الجبرتي يتبين أن طريقة الاقتراع السرى لم تكن مألوفة للأعضاء ، وأنهم أرادوا انتخاب الشرقاوى رئيساً بالتصويت العلنى ولكن الترجمان نبههم إلى أن يكون الانتخاب سرياً ، ومن أعطف ما في أسلوب الجبرتي أنه ذكر ما دار بالجلسة حرفياً حتى كلمة ( نو نو ) ، وهذا بذلك على دقته في الوصف والرواية

## قرارات الديوان

من الواجب أن نعرف أن الديوان العام لم تكن له سلطة قطعية في الأمور التي عرضت عليه ، بل كان الفرض من انعقاده استشارته والوقوف على آراء أعضائه إن خطاب افتتاح الديوان مفهوم منه أن عمل الأعضاء مقصور على الإجابة عما يسألون عنه من النظم المراد وضعها ويكون نابليون القول الفصل فيما « يليق صنمه » ، وعلى هذه القاعدة انعقد الديوان

ومن جهة أخرى فقد كانت المسائل التي تعرض على الديوان تدرس في الوقت نفسه في لجنة ألفها نابليون برأسه وبعضوية مدير مهمات الجيش<sup>(١)</sup> ومدير الشؤون المالية<sup>(٢)</sup> وكبير المباشرين<sup>(٣)</sup> وأمر بأن تنعقد هذه اللجنة يومياً وتقرر القرارات النهائية فيما يتداول فيه « الديوان »

قرارات الديوان كانت أشبه « برغبات » تعرض على اللجنة التي ألفها نابليون ولهذا للجنة القول الفصل

(١) السيوسوسى Sacy (٢) اللسيو بوسليج

(٣) هو المعلم جرجس الجوهري الذى كان كبير المباشرين في عهد المالك تأقاه نابليون في منصبه ، وتجد في مراسلات نابليون الجزء الرابع أمر نابليون بصيته كبيراً للمباشرين ( وثيقة رقم ٢٨٩٥ )

### (المسألة الأولى) — نظام مجالس الديوان

لم يقل الجبرتي شيئاً عما قرره الديوان في المسألة الأولى وهي (ما هو أصلح نظام لتأليف مجالس «الديوان» في المديرية)

ويقول دى لاجونكيير<sup>(١)</sup> إن رأى الديوان العام في هذا النظام أن يكون لكل من الإسكندرية ودمياط ورشيد «ديوان» مؤلف من ١٢ إلى ١٥ عضواً وذلك نظراً لأهمية هذه الثغور، أما باقي المديرية فيكون بكل منها ديوانان أو ثلاثة أو أربعة «دواوين» يتمدد كل ديوان في بقدر من البنادر المهمة فيها، ويوجد كل ديوان ثلاثة مندوبين لتمثيله في الديوان العام بالقاهرة

وقد عرض هذا الرأى على نابليون فقبل فيه بعض التعديل وقرر بتاريخ ٢٠ أكتوبر سنة ١٧٩٨ أن يكون نظام الديوان كما يأتي :

أن يكون الديوان العام مؤلفاً من ٢٥ عضواً منهم تسعة من القاهرة وواحد من كل مديرية من المديرية الست عشرة التي كان يتألف منها القطر المصري، ويكون للديوان اثنان من السكرتيرين الترتيبين واثنان من الحجاب و ١٠ من الحراس، ويكون ثلث أعضاء الديوان العام من مشايخ البلاد وثلثهم من التجار وثلث من العلماء، ويجتمع كلما دناه القائد العام إلى الاجتماع، ويختار من بينه تسعة أعضاء يتألف منهم الديوان الخاص الذي يجتمع باستمرار في القاهرة<sup>(٢)</sup>، ويكون في كل مديرية ديوان مؤلف من تسعة أعضاء ينتخبون بمعرفة جمعية عمومية مؤلفة في كل مديرية من العلماء والأئمة ومشايخ البلاد وأكابر وأعيان التجار والصناع وهؤلاء يمينهم قومندان المديرية، ويكون للديوان القاهرة الرئاسة على دواوين المديرية، ولكل ديوان في مديريته الرئاسة والإشراف على القضاة ومشايخ البلاد

### (المسألة الثانية) — النظام القضائي المدني والجنائي

رأى الديوان أن يبقى نظام القضاء على ما كان عليه وأن لا يتغير شيء من ترتيب المحاكم ونظامها، لكنه طلب أن تحدد رسوم التقاضى التي تدفع للقضاة وموظفي المحاكم، وطلب

(١) كتاب حملة مصر . الجزء الثالث

(٢) لم ينفذ هذا التعديل لقيام ثورة القاهرة وإحلال الديوان كما تراه في الفصل الثالث عشر من هذا الجزء، ولا أعيد الديوان في شهر ديسمبر سنة ١٧٩٨ أدخل نابليون في نظامه تعديلاً آخر كما تراه في الفصل الأول من الجزء الثاني



أيضا أن يكون تعيين القضاة في كل مديرية من حقوق « الدواوين » للؤلفة بها هذا ما ورد في المراجع الفرنسية ، وإليك ما قاله الجبوتي في هذا الصدد :

« واستهل شهر جمادى الأولى بيوم الخميس للوعود سنة ١٢١٣ »<sup>(١)</sup> واجتمعوا بالديوان ومعهما ما لمقصود واستأصلوه في الجلسة ، فأما أمر الحاكم والقضاة فالأولى أبقاؤها على ترتيبها ونظامها ، وعرفوم عن كيفية ذلك ، ومثل ذلك ما عليه أمر عاكم البلاد ، فاستحسنوا ذلك إلا أنهم قالوا يحتاج ضبط المحاصيل وتحريرها إلى أمر لا يتعداه القضاة ولا نوابهم ، فقررروا ذلك وهو أنه إذا كان عشرة آلاف فادونها يكون على كل ألف ثلاثون نصفاً ، وإذا كان البالغ مائة يكون على الألف خمسة عشر ، فإن زاد على ذلك فمشره ، واهتقوا على تحرير القضاة والنوب على ذلك »

### ( المسألة الثالثة ) — التشريع الخاص بالمواريث

تباحث الديوان العام في نظام التوزيت ، فستل العلماء من الأعضاء عن قسمة المواريت فقالوا إنها تقسم بحسب القواعد الشرعية في تسيم الميراث ، فسألهم القاضي ملطى عن مصدر تلك القواعد ، فقالوا من القرآن الكريم وتلوا بعض آيات المواريت ، فقال المندوبان الفرنسيان إن لم في تسيم الموريت قواعد أخرى ، وظهر أن الجدل في هذه المسألة قد طال ، فتدخل ميخائيل كحيل أحد أعضاء الديوان وأيد وجهة نظر العلماء وقال نحن والقبط يقسم لنا مواريتنا المسلمون ، فطلب المندوبان الفرنسيان أن يكتب العلماء قواعد تسيم المواريت طبقاً لأحكام الشريعة الفراء وصرحهما من الآيات ، فوعدوا بتقديم هذا البيان بجلسة أخرى ، وفعلا قدموه بالجلسة التالية ، وفيه فروض التسمه الشرعية وحصص الورثة والآيات المتعلقة بذلك فأقرم نابليون على نظام التوريت الشرعى

ويقول الجبوتي في هذا الصدد : « في يوم الأحد ٤ جمادى الأولى سنة ١٢١٣ - ١٣ أكتوبر سنة ١٧٩٨ - اجتمعوا بالديوان وأخذوا فيما هم فيه ، فذكروا أمر المواريت فقال ملطى يا مشايخ اخبرونا عما تصنعونه في قسمة المواريت ، فأخبروه بفروض المواريت الشرعية فقال ومن أين لكم ذلك فقالوا من القرآن ، وتلوا عليه بعض آيات المواريت قال الافرنج نحن عندنا لا نورث الولد ونورث البنت ، ونقل كذا وكذا بحسب تحسين عقولهم لأن الولد أقدر على الكسب من البنت ، فقال ميخائيل كحيل الشاى ، وهو من أهل الديوان أيضاً ،

نحن واقبض قسم لنا موارثنا السلون ثم التمسوا من الشايخ أن يكتبوا لهم كيفية القسمة ودليلها ، فسايروهم ووعدهم بذلك وانفضوا ، وفي يوم الاثنين عملوا لهم ديواناً وكتبوا لهم كيفية قسمة الموارث وفروض القسمة الشرعية وحصص الورثة والآيات القرآنية المتعلقة بذلك فاستحسنوا ذلك »

### المسألة الرابعة - تسجيل عقود الملكية والضرائب المقاربة

كان نابليون قيل أن يعقد الديوان العام قد فكر في ابتكار الوسائل والنظم لزيادة مايجب من الأهالي من الأموال والضرائب المختلفة ، ومن هذه الوسائل أنه وضع نظاماً جديداً لاثبات الملكية على قاعدة تسجيل مستندات التملك في مقابل رسوم تدفع للتسجيل ، وقد مهد لهذا النظام بإنشاء محاكم جديدة تسمى « المحاكم التجارية » وسميها الجبرتي « محكمة القضايا » أو « محكمة النظام »

صدر أمر نابليون في ١٠ سبتمبر سنة ١٧٩٨ بإنشاء هذه المحاكم في كل من القاهرة والإسكندرية ودمياط وشيد ، وتختص بالفصل في المنازعات التجارية والمدنية ، ويختار أعضاؤها من للتجار على اختلاف جنسياتهم يمينهم القائد العام لمدة ثلاث سنوات ، وقد ألقت محكمة القاهرة من ستة أعضاء من تجار المسلمين وستة من الأقباط برئاسة القاضي القبطي ملطى ، وحدد الأمر رسوم التقاضي باثنين في المائة من قيمة المنازعات التي تطرح أمام المحاكم وأصدر نابليون أمراً آخر في ١٦ سبتمبر سنة ١٧٩٨ بإنشاء إدارة لتسجيل مستندات التملك<sup>(١)</sup> ، وأمر بأن يقدم جميع ملاك المقارات حجج تملكهم القديمة والجديدة لتسجيلها في مقابل رسوم ٢ في المائة من قيمة المقارات يدفعها الملاك أجمعون

واليك خلاصة الأمر : « ينشأ في عاصمة كل مديرية مكتب لتسجيل جميع سندات التملك والقود ويدفع عن التسجيل رسم نسبي طبقاً للأنظمة الرسوم<sup>(٢)</sup> ، ولا يعترف بالملكية إلا للقود والسندات السجلة ، وإذا لم تسجل تصادر الملكية لجانب الجمهورية ، وعلى جميع الملاك أن يسجلوا سندات ملكيتهم في مدى ثلاثين يوماً من نشر هذا الأمر<sup>(٣)</sup> ، وإذا لم يتم التسجيل

(١) سميت هذه الإدارة « مصلحة التسجيلات إدارة وأمالك الحكومة » وجعل مقرها في بيت مرزوق بك بابدين وأعلن عنها في جريدة ( كوريه دليجت ) بالمدد الصادر في ٢٥ قانديمر من السنة السادسة للجمهورية ( ٧ أكتوبر سنة ١٧٩٨ )

(٢) قدر الرسم في الأنظمة باثنين في المائة عن معظم المعاملات

(٤) بالنسبة لسكان القاهرة وشهرن بالنسبة لسكان الأقاليم

في هذه المدة يدفع الملاك نصف الرسم المقرر للتسجيل ، وإذا انقضى شهر آخر ولم يقع التسجيل تسادر للملكية بجانب الجمهورية ( الفرنسية ) ، ومن الآن فصاعداً يجب تسجيل عقود البيع والبيع والتمليك والتنازل والهبة في مدى عشرة أيام من تحرير العقد ولا يعتبر باطلاً ، وكذلك يجب تسجيل الوصايا في مدة ثلاثة أشهر على الأكثر من وفاة الموصي ، وتسجيل عقود التفاراج والقسمة بين الورثة في مدة عشرة أيام من تاريخ تحريرها ، وبحصل التسجيل يفيد ملخص العقود في دفاتر تدعى إدارة التسجيلات لهذا الغرض .

ضج الأهالي من هذه الرسوم لأنها كانت أشبه بضريبة جديدة لم يكونوا يدفعونها من قبل ، والواقع ان نابليون كان يرى من وضع هذا النظام إلى ابتكار وسيلة جديدة لجمع المال من الأهالي

وفرض كذلك ضرائب سنوية على جميع أصحاب الحرف والصنائع فسخط الصانع وأصحاب الحرف من هذه الضرائب

وإليك ما قاله الجبرتي عن محكمة القضايا ونظام التسجيل :

« وفيه شرعوا في ترتيب ديوان آخر سموه محكمة القضايا ، وكتبوا في شأن ذلك طوماراً (منشوراً) وشرطوا فيه شروطاً ورتبوا فيه ستة أقاليم من القبط وستة أقاليم من تجار المسلمين ، وجعلوا قاضيهم الكبير ملحقاً بالقبطي الذي كان كاتباً عند أيوب بك القنطرة ، وفوضوا إليهم القضايا في أمور التجار العامة والوارث والمطوى ، وجعلوا لذلك الديوان (المحكمة) قواعد وأركاناً من البدع السيئة ، وكتبوا نسخاً في مفارق الطرق ورؤوس العطف وأبواب المساجد ، وشرطوا ضمنه شروطاً ، ومن ضمن تلك الشروط شروط أخرى بتعيرات سخيفة يفهم منها المراد بعد التأمل الكثير لعدم معرفتهم بقوانين التراكيب العربية ، وعمله التعاليل على أخذ الأموال كقولهم بأن أصحاب الأملاك يأتون بحججهم وتمسكهم (مستنداتهم) الشاهدة لهم بالتمليك ، فإذا أحضروها وبيّنوا وجه تملكهم لها إما بالبيع أو الانتقال لم بالإثبات لا يكتفي بذلك ، بل يؤمر بالكشف عليها في السجلات ، ويدفع على ذلك الكشف دوايم بقدر عينه ، فإن وجد تمسكه مقيداً بالسجل طلب منه بعد ذلك الثبوت ، ويدفع على ذلك الإثبات بعد ثبوته وقبوله قدر آخر ، ويأخذ بذلك تصحيحاً ، ويكتب له بعد ذلك تمكين ، وينظر بعد ذلك في قيمته ، ويدفع على كل مائة اثنين ، فإن لم يكن له حجة أو كانت ولم تكن مقيدة بالسجل أو مقيدة ولم يثبت ذلك التقييد فإنها تضبط لديوان الجمهور (الجمهورية) ، من حقوقهم (١) »

ولا شك أن مثل هذا النظام يؤدي بالناس في ذلك العهد إلى العنت والإرهاق وكثيراً ما يفضى إلى ضياع الملكية ومصادرتها لجاناب الحكومة ، لأن الملكية قد تنشأ عن الميراث وقد يتمتع إحضار الشهود عليها فتصادر وتسلب من صاحبها ، ولم يسمع في أى نظام من نظم التسجيلات المقارية أن يسرى على العقود القديمة ، لأن القوانين لا تسرى على الماضى ، وليس مما تسيئه العدالة اعتبار أن عدم إثبات الملكية بالطرق التى يرضها النظام الجديد يؤدي إلى مصادرتها وضخمها للحكومة ، فالنرض من وضع هذا النظام هو كما يقول الجبرتي « التحايل على أخذ الأموال »

وضع نابليون هذا النظام قبل انقضاء الديوان العام ، فلما اجتمع الديوان للباحثة فيه أبدى الأعضاء استياءهم منه واعترض الشايخ على إكراه جميع الملاك على تقديم مستندات تملكهم القديمة لتسجيلها ، وقالوا إذا كان النرض وضع ضريبة على الأملاك فلتنرض على المقارات نفسها ، وقد واقفهم نابليون على اعتراضهم ، وكانت موافقته بمنصحة السيو بوسليج Poussielgue مدير الشؤون المالية ، فإنه أشار على نابليون في تقرير قومه في هذا الصدد بإجابة الديوان إلى طلبه وأوضح في تقريره بأنه يتمتع تسجيل مستندات التملك القديمة عن البيوت والمنازل لأن معظمها بناها ملاكها وليس بأيديهم حجج بها ، ولأن إجراء التحقيق عن مصدر الملكية لكل منزل عمل شاق لا يمكن أن يؤدي إلى نتيجة ، ولا يمكن أن يتم في الثلاثين يوماً المحددة لتقديم الحجج وتسجيلها ، وقد ذكر في تقريره أن عدد منازل القاهرة وبولاق ومصر القديمة في ذلك الحين زهاء مائة ألف منزل وعدد الملاك من خمسين إلى ستين ألف مالك ، واستنتج في تقريره استحالة تنفيذ مشروع التسجيل ، فاستماض الفرنسيون عن هذا المشروع بفرض ضريبة على المقارات ذاتها

وخلاصة هذه الضريبة أنهم قسموا المباني إلى أنواع وكل نوع إلى درجات لكل نوع ضريبة تدر بحسب درجته كما تراه في البيان الآتي<sup>(١)</sup>

الدرجة الأولى	الثانية	الثالثة	
١٨ ريال	٩ ريالات	٤ ريالات	الركائيل
» ١٥	» ١٠	» ٥	الحمامات
» ٨	» ٤	» ١	معاصر الزيت

(١) قلنا هذا البيان عن الأمر الذى أسدره نابليون في ١٦ أكتوبر سنة ١٧٩٨ والنشور في جريدة كوريه دليجت

معاصر السمس	الدرجة الأولى	الثانية	الثالثة
٣ ريات	١ ريال	١ ريال	١ ريال
٢ »	١ »	١ »	٠ »
٢ »	١ »	١ »	٠ »
٢ »	١ »	١ »	$\frac{1}{4}$ »
٢ »	١ »	١ »	$\frac{1}{4}$ »
٢ »	١ »	١ »	٠ »
٨ »	٢ »	٢ »	٢ »

وقرروا على بيوت الدرجة الرابعة ربع ريال

وقضى الأمر بأن تدفع الضريبة في السنة على قسطين وبأن يمين مدير الشؤون المالية المهندسين لتقسيم المباني والمعارف إلى الدرجات التي تناسبها ، وبأن تتم هذه الضريبة في الإسكندرية ورشيد وفوه ودمياط مع إقامتها في هذه المدن إلى النصف ، وعدا ذلك تؤخذ رسوم تراويح بين ٥٢ و ٥٠ في المائة عن العقود الجديدة في المبانيات وعقود نقل الملكية والتنازل عنها والتصرفات والإيجارات والمباينات وعقود الزواج ، ورسوم أخرى محددة عن التوكيلات وجوازات السفر وشهادات الميلاد وإثبات الوفيات والتركت والإثباتات وغير ذلك ، أصدر نابليون أمره بهذه الضرائب الجديدة دون أن ينتظر رأى الديوان فيها وصدر الأمر والديوان منعقد في جلسته الأخيرة

وإليك ما قاله الجبرتي في هذا الصدد : « وفي يوم السبت ١٠ جمادى الأولى (٢٠ أكتوبر سنة ١٧٩٨ ) عملوا ( عقدوا ) الديوان وأحضروا قاعة مقررات الأملاك والمعارف ، جلسوا على الأعلى ( الدرجة الأولى ) ثمانية ( ريات ) فرانسه ، والأوسط ستة ، والأدنى ثلاثة ، وما كان أجرته أقل من ريال في الشهر فهو معافى ، وأما الزكائن والخانات والحمامات والمعاصر والسياجات والحوانيت فنها ما جعلوا عليه ثلاثين وأربعين ( ريالا ) بحسب الخمسة والرواج والاتساع ، وكتبوا بذلك مناشير على عاتقهم وألقوها بالمقارق والطرق ، وأرسلوا منها نسخا للأعيان ، وعينوا المهندسين ومعهم أشخاص لتمييز الأعلى من الأدنى ، وشرعوا في ضبط والإحصاء وطاقوا ببعض الجهات لتحرير القوائم وضبط أسماء أربابها »

ورواية الجبرتي فيما يتعلق بقيمة الضرائب تختلف كما ترى عن نص الأمر الذي أصدره نابليون في صددها ، ولعل سبب الاختلاف أن المنشورات التي أصدرها الفرنسيون بهذه

الضرائب وألصقوها بالفارق والطرق وأطلع عليها الجبرتي قد حوت من الضرائب أكثر مما فرضه نابليون في أمره

وظاهر من رواية الجبرتي أنه لم تحصل مناقشة في الديوان بشأن هذه الضريبة وقيمتها لأن الفرنسيين كانوا مصممين على فرضها فلم يسمحو بمناقشة فيها ووضعوا الديوان أمام الأمر الواقع

كان تقرير هذه الضرائب الفادحة من أهم الأسباب التي فرت المصريين من حكم الفرنسيين ، لأن هذه الضرائب على فلاحها قد عمت الأغنياء والفقراء ، ولم يكن أصحاب الدكاكين والحوانيت يدفعون ضريبة عقارية في عهد المماليك ، فعظم استيائهم واشتد سخطهم وهم أغلبية السكان ، وتجاوز الاستياء إلى الأغنياء لأن الضرائب الجديدة أثقلت العبء على اللالك وفرضت عليهم أموالا لم يكونوا يفرمونها في عهد المماليك ، فكانت فادحة تلك الضرائب من أكبر العوامل التي أدت إلى ثورة القاهرة

انفض الديوان العام يوم ٢٠ أكتوبر سنة ١٧٩٨ (١٠ جمادى الأولى سنة ١٢١٣) دون أن يستطيع تخفيف فادحة الضرائب التي استحدثها الفرنسيون ، لذلك لم يكذب نفوذ حتى شبت نار الثورة في القاهرة كما تراه في الفصل الثالث عشر

والآن وقد انتهينا من الكلام عن الديوان العام فلتتكلم عن المجمع العلمي وقد أفردنا له الفصل الآتي

## الفصل الرابع

### المجمع العلمي

#### معهد للعلوم ومجلس استشاري للحكومة

أسس نابليون بجانب الديوان مجلساً له صبة علمية وله علاقة بإدارة الحكومة وهو (المجمع العلمي للمصرى) Institut d'Egypte اختار لمصنوته خلاصة أعضاء « بثة العلوم والفنون » التي صحبها معه إلى مصر وتكلمنا عنها في الفصل الثاني (ص ٦٦)

تضم هذه البثة علماء الحملة للفرنسية ورجال الفن فيها ، وقد كانوا منتظمين فروعاً بحسب العلوم والأعمال التي انقطعوا لها أو توفروا عليها ، وإلى القارئ بيان هذه القروع : الرياضه والهندسة ، الفلك ، الميكانيكا ، الكيمياء ، طبقات الأرض وللمادن ، النباتات ، حياة الحيوان ، الطب والجراحة ، الصيدلة ، الاقتصاد السياسي ، الآثار القديمة ، هندسة المعابر ، التصوير ، الرسم ؟ هندسة الري والطرق والجسور ، الهندسة الجغرافية ، الهندسة البحرية والميكانيكية ، النقش ، الحفر ، الأدب ، الموسيقى ، طلبة مدرسة الهندسة المالية ، الترجمة ، الطباعة العربية والفرنسية

فلما جاء أعضاء البثة إلى الإسكندرية صحبة الحملة بقوا فيها بلا عمل حتى انتهت الحركات الحربية ودخل نابليون القاهرة ، فاعترم بعد موقعة الأهرام الانتفاع بمواهب أولئك العلماء والفنيين وتمكينهم من العمل في النواحي التي تخصصوا لها ، فاستلهم إلى القاهرة وفكر في إنشاء « المجمع العلمي المصري » على مثال المجمع العلمي الفرنسي التي كان هو عضواً فيه<sup>(١)</sup>، وانتخبه من توابغ البثة وضم إليهم نخبة من كبار القواد والضباط من لم ياع في العلوم

عزم نابليون على إنشاء هذا المجمع عقب انتهائه من مطاردة إبراهيم بك إلى سوريا وعقب وصول نبال كارتة المهارة الفرنسية في موقعة « أبو قير » وعهد إلى سبعة من أقطاب لجنة العلوم والفنون وقواد الجيش اختيار أعضائه وهؤلاء السبعة هم العلماء موجي Monge وبرتولييه Berthollet وجوفروا سان هيلير Geoffroi Saint Hilaire وكوستاز Costaz

---

(١) أنشئ المجمع العلمي الفرنسي سنة ١٧٩٥ وانتخب نابليون عضواً به في ديسمبر سنة ١٧٩٧

والطبيب ديجنت Desgenettes وكل من الجنرالين كافريالى Caffarelli وأندريوسى Andreossi

ثم أصدر أمره بإنشاء هذا المجمع في ٢٢ أغسطس سنة ١٧٩٨<sup>(١)</sup> وضمنه النرض من إنشائه وبين اختصاصاته ، وهذا الأمر يتألف من ست وعشرين مادة تلتخص فيما يلى :

النرض من المجمع — يتألف فى مدينة القاهرة بمجمع للعلوم والفنون النرض منه :

(١) تقدم العلوم والمعارف فى مصر (٢) دراسة المسائل والأبحاث الطبيعية والصناعية والتاريخية الخاصة بمصر ونشر هذه الأبحاث (٣) إبداء رأيه للحكومة فى المسائل التى تستشير فيها

أقسام المجمع — يتألف المجمع من أربعة أقسام : قسم الرياضيات ، وقسم الطبيعيات ، وقسم الاقتصاد السياسى ، وقسم الآداب والفنون

ويتألف كل قسم من اثنى عشر عضواً

انققاد المجمع — يجتمع المجلس مرتين فى الشهر ، ويجوز لقواد الجيش الفرنسى وضباطه أن يحضروا جلساته

مكتب المجمع — ينتخب المجلس بين أعضائه هيئة مكتب المجلس وتتألف من الرئيس ، ونائب الرئيس ، ومصاد انتخابهما كل ثلاثة أشهر ، وسكرتير دائم ، ومدير • بماد انتخابه كل سنة ، وأمين دائم لمكتب المجلس ومترجم عربى ويجوز أن يكون من الأعضاء

أبحاث المجمع — ينشر المجلس مجموعة أبحاثه كل ثلاثة أشهر ، وتشمل هذه المجموعة مذكرات أعضائه وتقارير اللجان التى يؤلفها لدرس المسائل التى تعرضها عليه الحكومة

يقرر المجلس إعطاء جائزتين كل سنتين ، الأولى لأهم بحث خاص بتقديم الحضارة والمدنية فى مصر ، والثانية لأهم بحث خاص بتقديم الصناعة ، وتتألف لتوزيع الجائزتين لجنة تنتخب بالاقتراع مؤلفة من خمسة أعضاء يدرسون الابحاث المقدمة فى المسابقة ويقررون البحث الذى يستحق الجائزة ، وتطبع الابحاث التى أجزيت فى مجموعة المجلس وكذلك الابحاث التى لم تفل الجائزة متى رأت اللجنة أنها جديرة بالنشر

### أعضاء المجمع العلمى

قلنا إن نابليون اختار لعضوية المجمع العلمى خلاصة أعضاء بمئة العلوم والفنون الذين



صحبتهم معه حين مجيئه إلى مصر ، وانتظم هو معهم في سلك الجمع ، فصار مؤلفاً من ستة وثلاثين عضواً موزعين على أربعة أقسام

قسم الرياضيات — مونج Monge ، نابليون بونابارت ، فورييه Fourier ، كوستاز Costaz ، نوي Nouet ، كينو Quesnot ، لويس Le Père ، جيرار Girard ، لروا Le Roy ، الجنرال أندريوسي Andreossi ، ساي Say ، مالوس Malus

قسم الطبيعيات — برتوليه Berthollet ، دولوميو Dolomieu ، كونتي Conté ، جوفروا سان هيلير Geoffroi Saint Hilaire ، ديكونيل Descotils ، سافيني Savigny ، ديوبا Dubois ، ديجينيت Desgenettes ، شامبي Champy ، دليل Delile

قسم الاقتصاد السياسي — الجنرال كافاريلي Caffarelli ، جوتييه Gioutire ، سومي Sucy مدير مهمات الجيش ، سولكوسكي Sulkowski ، تاليان Tallien ، بوسليج Poussielgue

قسم الآداب والفنون — برسفال دجرايمزون Perseval De Grandmaison عضو الأكاديمية الفرنسية ، فانتور Venture ، نوري Norry ، دوترتر Dutertre ، فيفان دينون Vivant Denon ، ريجل Rigel ، ردوتي Redouté ، القسيس رفايل دمو ناخيس Raphael de Monachis

وقد تغير بعض أعضاء الجمع الملى وحل محلهم غيرهم ، وهذه هي التغيرات التي حدثت مدة وجود نابليون في مصر :

قسم الرياضيات — عين المهندس لانكري Lancret بدلا من ساي الذي قتل في الحملة على سوريا

قسم الطبيعيات — عين الدكتور لاري Larrey رئيس الجراحين بدلا من ديوبا وأضيف عضو جديد وهو بوشان Beauchamps

قسم الاقتصاد السياسي — عين كورانسز Corrancez بدلا من الجنرال كافاريلي الذي قتل في حصار عكا ، وبورين Bourrienne سكرتير نابليون الخاص بدلا من سومي

قسم الآداب والفنون — عين المهندس المباري لويس Lepère بدلا من نوري ، وعين ريبول Ripault أمين مكتبة الجمع بدلا من فانتور ، وأضيف إليهم الرسام ريجو Rigo

## دار المجمع العلمي

اختار نابليون قصر حسن كاشف شركس بالناصرة مقراً للمجمع العلمي ، وألحق به القصور المجاورة له التي ابتناها المالك وخصصها لسكن أعضاء المجمع وبينة العلوم والفنون كقصر قاسم بك<sup>(١)</sup> ، وبيت إبراهيم ككتخدا السناري ، وبيت أمير الحج المعروف بأبي يوسف كانت سراي حسن كاشف من أجل قصور المالك بالقاهرة . (مكانها الآن المدرسة السنية بالناصرة) ، وصفها الجبرتي خلال كلامه عن حسن كاشف فقال : « إنه عمر الدار العظيمة بالناصرة وصرف عليها أموالاً عظيمة ، وقبل بياضها وصل الفرنسيون إلى الديار المصرية فسكنها الفلكيون والدربون وأهل الحكمة والمهندسون (أعضاء المجمع العلمي) فلذلك سميت من الخراب كما وقع لغيرها من الدور لكون عسكرهم لم يسكنوها » ، وذكرها السيوفوفروسان هيلير أحد كبار أعضاء المجمع العلمي في رسائله المنشورة بكتابه (رسائل من مصر) ، وظاهر مما كتبه عنها أنها كانت غاية في الفخامة فقد كتب بتاريخ ٣٠ أغسطس سنة ١٧٩٨ رسالة إلى العلامة كوفيه Cuvier يقول فيها :

« عدتُ من المجمع العلمي بالقاهرة وهو يتألف من قصرين من قصور البكوات (قصر حسن كاشف وقصر قاسم بك) ويصين من بيوت الأغنياء ، وهذه الدور المتجاورة يسكنها العلماء والفنيون ، وفيها من أسباب الفخامة ما لا يقل عن الوفور ، وأنا لنجد فيها من أسباب الراحة أكثر مما في الوفور ، ومجوارها حديقة فسيحة يبلغ مساحتها نحو ٣٥ فدانا جيدة التراس ، وقد خصصناها للزراعة والنبات ، أما قاعة جلسات المجمع فإنها مزودة بأجمل ما في قصور المليك من الأثاث »

وباسم حسن كاشف سميت الحارة المعروفة الآن بحارة حسن الكاشف الواقعة بمجوار المدرسة السنية ، وتنتهي هذه الحارة قريباً من دار إبراهيم ككتخدا السناري<sup>(٢)</sup> التي خصصها أعضاء المجمع العلمي للرسم والتصوير والباقية إلى اليوم ، وسميت الحارة التي بها هذه الدار حارة مونغ Monge تخليداً لاسم السيوف مونغ الذي كان رئيساً للمجمع العلمي في عهد بوناپارت

(١) مكان قصر قاسم بك الآن عمارة الأوقاف الكاتبة بشارع السكوى ، جاء في كتاب تخطيط مصر الجزء الثامن عشر أن بيت قاسم بك كان يسكنه أعضاء لجنة العلوم والفنون وأنه مجاور قصر حسن كاشف الذي كان مقراً للمجمع العلمي

(٢) هو وكيل مراد بك ولفاك سمى (كتخدا) وسناري نسبة إلى سنار بتشديد النون وهي بلدة بالسودان على النيل الأزرق



المجمع العلمي بالقاهرة سنة ١٧٩٨ — انظر ص ١٠٠  
(سراى حسن كاشف شركس بالناصرية حيث للدرسة الحنية الآن)  
وترى نابليون واقفاً في قاعة الجلسات يحيط به لفيق من أعضاء المجمع

وقد أنشأ السيو جلياردو بك سنة ١٩١٧ في دار إبراهيم كتبخا السنارى متحفاً أسماه  
(متحف بونابارت) وبقي هذا البيت إلى الآن كما بناه صاحبه إبراهيم كتبخا السنارى وهو  
مثال قائم لبيوت المالك، وقد أدخلته لجنة حفظ الآثار العربية ضمن الآثار التى تعنى بها  
وتحافظ عليها، وصرحت لسيو جلياردو بك بأن ينشئ به متحفه وهو يحوى كثيراً من الصور  
والخرائط والطرف والآثار والكتب والمستندات والوثائق والمخطوطات عن عهد الحملة الفرنسية  
في مصر، وقد زرت هذا المتحف غير مرة وأطلعني السيو جلياردو بك على ما جمعه فيه من  
النفايس وأذن لي بأن أنقل بعض الصور التى يزين بها متحفه وبعض الوثائق التى جمعها<sup>(١)</sup>

طائفة من أعضاء المجمع العلمي

ولجنة العلوم والفنون

نذكر هنا طرفاً من حياة بعض من اشتهروا أو ترددت أسماؤهم في فصول الكتاب من

---

(١) توفى لسيو جلياردو بك سنة ١٩٢٧

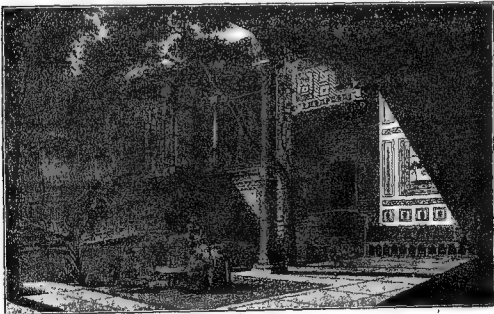
أعضاء المجمع العلمى ولجنة العلوم والفنون ليكون لدينا فكرة عامة عن أشخاصهم

علماء الرياضيات والمهندسون

مونج

سنة ١٧٤٦ - ١٨١٨

هو جاسبار مونج Gaspard Monge أكبر علماء الرياضيات بفرنسا فى ذلك العصر ، وله فيها شهرة عالية ، وهو مؤسس الهندسة الوصفية وأحد مؤسسى مدرسة الهندسة بفرنسا وأحد أساتذتها المشهورين ، وعضو بالمجمع العلمى بفرنسا ، تقلد زمنا وزارة الحربية فى عهد الجمعية التشريعية ، وقد تلقى عليه نابليون علوم الطبيعة فى مدرسة باريس الحربية ، وكان موضع احترامه وإجلاله ، ووقع عليه الاختيار لرئاسة المجمع العلمى بمصر ، وكان هو روح أبحاث المجمع العلمية ، ولما عاد إلى فرنسا رجع إلى التدريس فى مدرسة الهندسة وبذل جهداً كبيراً فى جمع أبحاث علماء الحملة الفرنسية ، وعينه نابليون فى عهد الامبراطورية عضواً بمجلس الشيوخ ، ومنحه لقب « كونت ييلوز » تذكراً لأعماله وأبحاثه فى مصر ، وله مؤلفات ومذكرات عديدة فى العلوم الرياضية وبخاصة الهندسة ، ويسمى سميت ( حارة مونج ) بالناصرية بمحوار المدرسة السنية الآن



سراى قاسم بك بالناصرية حيث كان يسكن أعضاء لجنة العلوم والفنون . انظر ص ١٠٠

## كوستاز « Costaz »

١٨٤٢ - ١٧٧٦

من علماء الرياضيات وعضو بالجمع العلمي الفرنسي ، كان مدرسا بمدرسة الهندسة العالية (السنترال) بفرنسا حينما اختاره نابليون لمصوبة لجنة العلوم والفنون ، وبعد انتهاء الحملة عاد إلى فرنسا وعين سنة ١٨١٣ مديراً عاماً لإدارة الري والقناطر والجسور بفرنسا ومنح بلقب بارون

## لوير « Le Père »

١٨٤١ - ١٧٦٣

هو كبير مهندسي الري والطرق والجسور في عهد الحملة الفرنسية ، وواضع التقرير المشهور عن إيصال البحر الأحمر بالبحر الأبيض المتوسط ، عهد إليه نابليون أن يدرس هذا المشروع تقصى عامين في خصه ودراسته ، وعاونه فيه بعض مهندسي الحملة ، وقدم به تقريراً إلى نابليون بعد مغادرته مصر (وكان « قنصلاً أول » ) ، وتصميم المشروع كما وضعه السيو لوير أن تخترق رعة من السويس إلى البحيرات المرة ويمادحفر الخليج القديم المعروف بخليج أمير المؤمنين<sup>(١)</sup> إلى أن يتلاقى مع بحر موسى قرب بوابسط<sup>(٢)</sup> ومن بحر موسى إلى فرع دمياط ، ومنه إلى الرعة الفرعونية ، ومنها إلى فرع رشيد ، ومنه إلى الاسكندرية بواسطة رعة الاسكندرية ، وقد حبذ السيو لوير كذلك فكرة وصل البحرين رأساً بواسطة رعة أخرى تخترق برزخ السويس فيما بين بيلوز<sup>(٣)</sup> (الطينة) على البحر الأبيض ومدينة السويس على البحر الأحمر ، غير أنه اعتقد خطأ أن البحر الأحمر يملأ عن سطح البحر الأبيض بنحو تسعة أمتاز ، وقد نشر مشروعه في كتاب « تخطيط مصر » الجزء الحادى عشر ، وفيه بحث مستفيض عن تخطيط رعة القراعة القديمة وخليج أمير المؤمنين وتخطيط الجهات التي ينفذ فيها المشروع ونفقات إنفاذه ، ويقع هذا البحث في أكثر من ثلاثمائة صفحة وهو من أجل الأبحاث التي وضعا علماء الحملة الفرنسية ، والسيو لوير هو الذى تولى إصلاح بناء القياس

(١) هو الخليج الذى حفره عمرو بن العاص بأمر الخليفة عمر الخطاب رضى الله عنه سنة ٢٣ هجرية ، وكان يصل النيل بالبحر الأحمر ، وبدأ من مصر القديمة حيث يتدفق خليج مصر اليوم حتى القاهرة ومنها إلى الطرية ومنها إلى الباسا ثم يتبع آثار رعة القراعة القديمة التى كانت تخرج من فرع النيل إلياوزى القديم وتسير بمحاذاة وادى الطليلات ثم تنحى جنوباً فتخترق البحيرات المرة ثم تصب في البحر الأحمر

(٢) قرب الزقازيق

(٣) شرقي للوضع الذى به بور سعيد الآن

بالروضة وكُتب له الديوان المناسبة عمله كتاب شكر نشرناه في قسم الوثائق التاريخية ، وله بحث مستفيض عن مقياس الروضة نشر في كتاب تخطيط مصر الجزء الثاني عشر

#### جراتيان لوير « Gratien Le Père »

هو أخو السيو لوير المتقدم ذكره وهو من مهندسي الحملة الفرنسية ، شارك أخاه في بعض أبحاثه ، وله بحث خاص مستفيض في تخطيط مدينة الاسكندرية نشر في كتاب تخطيط مصر الجزء الثامن عشر ، وبحث آخر في بحيرات مصر وبحارها نشر في الجزء السادس عشر ، وقد رسم لوير الكبير خريطة الاسكندرية الحديثة ورسم السيو جراتيان لوير خريطة الاسكندرية القديمة ، وكلتاهما مطبوعة في مصور كتاب تخطيط مصر

#### جيرار « Girard »

١٨٣٦ - ١٧٦٥

زميل السيو لوير كبير المهندسين ووكيله في إدارة أعمال الري ، درس ترع القطر المصري ، وله رسالة بديعة عن حالة مصر الزراعية والصناعية والتجارية نشرت في كتاب تخطيط مصر الجزء السابع عشر ، وانتخب عضواً في المجمع العلمي الفرنسي

#### جومار

١٨٦٢ - ١٧٧٧

هو السيو ادم فرنسوا جومار Edme François Jomard ولد سنة ١٧٧٧ وتعلم الهندسة في مدرسة القناطر والجسور ثم في مدرسة الهندسة ، وجاء إلى مصر ضمن المهندسين الجرافيين من أعضاء لجنة العلوم والفنون ، وله في مصر أبحاث جغرافية وأثرية على جانب كبير من القيمة ، وقد اشترك في رسم خريطة مصر ، وعاد إلى فرنسا سنة ١٨٠١ بعد مقل الجرال كليير ، واشترك من سنة ١٨٠٣ في وضع كتاب (تخطيط مصر) وكان عضواً من أم أعضاء اللجنة التي ألفتها الحكومة للعمل في وضع هذا الكتاب الجليل ، وتولى تنظيم العمل بعد وفاة السيو لانكري وقضى سبعة عشر عاماً مستقلاً في إظهار الكتاب ، وله فيه أبحاث متممة ، هندسية وجغرافية وأثرية شملت عدة أجزاء من الكتاب ، ومن أهمها بحث مستفيض عن تخطيط القاهرة القديمة والحديثة نشر في الجزء التاسع عشر منه ، وانتخب عضواً بالمجمع العلمي الفرنسي

مكافأة له على أبحاثه في الآثار المصرية واشترك في إنشاء الجمعية الجغرافية بفرنسا ، وكان من يوم أن عاد من مصر لا يألو جهداً في دراسة الأبحاث العلمية الخاصة بها ، وفي سنة ١٨٢٦ تولى رئاسة أول بعثة مصرية أرسلها محمد علي الكبير إلى فرنسا لتلقي العلوم في مدارسها فأمد تلاميذ هذه البعثة والبعثات التي تلتها برعايته العلمية والأدبية ، وقد أنجبت هذه البعثات طائفة من علماء مصر الذين كان لهم فضل كبير في نهضتها ، وكان للسيد جومار مكانة كبيرة عند محمد علي باشا وكذلك عند سعيد باشا ، وأنتم عليه بلقب بك فكان يعرف في مصر باسم « جومار بك » وأنتم عليه كذلك بالوصاف الجينيدي ، ولما أعيد إنشاء المجمع العلمي المصري أسندت إليه رئاسته الفخرية سنة ١٨٦١ فكان صلة الاتصال الباقية بين المجمع العلمي المصري القديم وبين الحديث ، وظل مكباً على أبحاثه العلمية إلى أن توفي سنة ١٨٦٢ وله من العمر خمس وثمانون سنة ، وهو معدود في فرنسا من كبار علماء الجغرافية والآثار القديمة

### فورييه « Fourier »

١٧٦٨ — ١٨٣٠

من علماء الرياضيات ، كان مدرساً في مدرسة الهندسة قبل انتظامه في سلك لجنة العلوم والفنون ، وانتخب سكرتيراً دائماً للمجمع العلمي ، وتولى رئاسة الإدارة القضائية في أواخر عهد الحملة الفرنسية ، وله أبحاث متممة في كتاب تخطيط مصر وهو واضح مقدمة الكتاب ، أنتم عليه نابليون برتبة بارون ، وانتخب عضواً بالمجمع العلمي الفرنسي سنة ١٨١٦ ثم عضواً بأكاديمية الآداب سنة ١٨٢٧ وأقيم له تمثال في بلدة أوكسير Auxerre مسقط رأسه

### لانكري « Lancret »

١٧٧٤ — ١٨٠٧

من علماء الرياضيات ومن مهتمى القناطر والجسور ومن علماء الآثار ، وله أبحاث مستفيضة عن آثار الوجه القبلي وتخطيطها نشرت في كتاب تخطيط مصر ، وله بحث جغرافي عن الفرع الكانوبي من فروع النيل القديمة نشر في الجزء الأول من كتاب تخطيط مصر ، وتولى إدارة العمل لتأليف الكتاب بعد وفاة كونتي سنة ١٨٠٥ ، ومات ١٨٠٧

### « Corrancez » كورانسر

من خريجي مدرسة الهندسة العالية (السترال) ، انتخب عضواً في المجمع العلمي المصري خلفاً للجنرال كافريللي ، وانتخب عضواً بالمجمع العلمي الفرنسي سنة ١٨١١ وله كتاب في تاريخ الوهاية من بدء ظهورها إلى سنة ١٨٠٩

### « Jallos » جالوا

١٨٤٢ — ١٧٧٦

مهندس رى تخرج في مدرسة الهندسة بفرنسا ، ومتق في الآثار ، وله « يوميات » عن الحملة ، وله عدة أبحاث عن الآثار المصرية نشرت في كتاب تخطيط مصر

### « De Villiers » دفيليه

١٨٥٥ — ١٧٨٠

مهندس قناطر وري وآبار ، وله يوميات<sup>(١)</sup> دون فيها ما شاهده في مصر خلال الحملة الفرنسية ، نشرها حفيده البارون دفيليه ، وكان جالوا ودفيليه متلازمين في أبحاثهما الأثرية ، وأبحاثهما المشتركة المنشورة في كتاب تخطيط مصر

### « Jacotin » الكولونل جاكوتان

١٨٢٧ — ١٧٦٥

هو من المهندسين الجغرافيين الذين جاءوا مع الحملة وقد تولى رأسهم بعد مقتل كبيرهم السيو تستفيود في ثورة القاهرة ، وعهد إليه نابليون في وضع خريطة مصر العامة فاشترك في تخطيطها مع المهندسين الجغرافيين ومهندسى الرى في عهد الحملة الفرنسية ، وهى عبارة عن مجموعة خرائط كبيرة مفصلة طبعت في مصورات كتاب تخطيط مصر ، وقد تم وضعها بعد انسحاب الفرنسيين من مصر وقدمت إلى نابليون (وكان قنصلاً أول) في شهر أكتوبر

---

(١) يوميات وذكرات عن حملة مصر (١٧٩٨ — ١٨٠١)



سنة ١٨٠٣ فأمر بطبعها على نفقة الحكومة الفرنسية واستدعى ذلك جهداً كبيراً لإعداد معدات الحفر والطبع وتدوين أسماء البلاد والمواقع باللغة الفرنسية والعربية ، وإلى السكولونل جا كوتان يرجع الفضل في إخراج هذه الخريطة ولذلك نسبت إليه وسميت « خريطة جا كوتان » وهي مؤلفة من ٤٧ خريطة كبيرة طوبوغرافية غاية في الدقة والتفصيل منها ٤٢ خاصة بمصر وخمس بالأقاليم السورية التي فتحها نابليون وثلاث خرائط أخرى جغرافية عن مصر وخريطة أخرى عامة تجمع الخرائط الطوبوغرافية

وللسكولونل جا كوتان بحثان جغرافيان جليلان في كتاب تخطيط مصر الأول عن تخطيط خريطة القطر المصري نشر في الجزء السابع عشر ، والثاني عن مساحة القطر المصري نشر في الجزء الثامن عشر ، وقد عين وهو في مصر عضواً بالجمع العلمي بالقاهرة

#### ديوبوايمي « Dubois Aymé »

من مهندسي الحملة الفرنسية ، له بحث جغرافي مستفيض عن فروع النيل القديمة نشر في الجزء الثامن من كتاب تخطيط مصر ، وله خريطة دقيقة عن تخطيط هذه القروع

#### نوى « Nouet »

١٧٤٠ — ١٨١١

من علماء الفلك ويشتبر أكبر علماء الحملة الفرنسية في الفلك والميقات ، نشرت أبحاثه الفلكية الخاصة بمصر في كتاب تخطيط مصر الجزء الأول ، وعلى بياناته اعتمد مهندسو الحملة في وضع المصوّنات التي رسموها في مصر

#### نورى « Norry »

١٧٥٦ — ١٨٣٢

مهندس معمارى ، عينه نابليون رئيس مكتب الفنون ، وعاد إلى فرنسا في خلال الحملة لاعتلال صحته تخلفه في الجمع العلمي المصري المهندس الممارى لويين ، وله بحث مستفيض عن عمود السوارى نشر في كتاب تخطيط مصر الجزء الخامس ، وله رسالة عن الحملة الفرنسية<sup>(١)</sup> وله رسوم عديدة في كتاب تخطيط مصر

---

(١) تاريخ حملة مصر . وهي رسالة وجيزة طبعت سنة ١٧٩٩ يارمين لأد عاد إليها قبل انتهاء الحملة

لويس « Lepère »

١٨٤٤ — ١٧٦٢

مهندس معماري وهو الذي خلف نوري في الجمع العلمي وله رسوم كثيرة في كتاب  
تخطيط مصر

## علماء الطبيعيات

برثوليه « Berthollet »

١٨٢٢ — ١٧٤٨

عالم من كبار علماء الكيمياء ، يضارع في شهرته الكيميائي الشهير لافوازييه ويليه في  
الترتبة ، وهو صديق حميم للسيد موج ، وقد اشتركا معاً في تأسيس مدرسة الهندسة بباريس  
والتيما شهد نابليون اختيار علماء الحملة الفرنسية ، وكان من أعضاء الجمع العلمي الفرنسي ،  
فقبل حضوره إلى مصر محبة نابليون ، وبعد رجوعه إلى فرنسا دأب على أبحاثه  
واكتشافاته في الكيمياء وله فيها نظريات واكتشافات وأبحاث ومؤلفات جعلته في عداد  
كبار علماء الكيمياء

جوفروا سان هيلير « Geoffroi Saint Hilaire »

١٨٤٤ — ١٧٧٢

هو أتيين جوفروا سان هيلير ، عالم كبير في التاريخ الطبيعي ومن أساتذة حياة الحيوان  
في معهد التاريخ الطبيعي بباريس ، وزميل كوفيه Cuvier ولامارك Lamarck في العلوم  
الطبيعية ، وله أبحاث مستفيضة ورسوم عديدة في حيوانات مصر وحشراتهما وأماهما ،  
حين بعد عودته من مصر استأنف أبحاثه في الحيوان في السوربون. علاوة على تدرسه في معهد التاريخ  
الطبيعي ، وانتخب عضواً بالجمع العلمي الفرنسي وله شهرة عالية في التاريخ الطبيعي ، وله  
رسائل من مشاهداته في مصر جمعت وطبعت سنة ١٩٠١ باسم (رسائل من مصر)

### سافيني « Savigny »

١٧٧٧ — ١٨٥١

عالم في التاريخ الطبيعي ومساعد لجوفروا في أبحاثه بمصر، درس الحيوانات مصر وطيورها وحشراتنا ونباتها ، وله فيها أبحاث مستفيضة ورسم عديدة غاية في الدقة طبعت في كتاب (مخطوط مصر) وانتخب عضواً بالمجمع العلمي الفرنسي سنة ١٨٢١ ، ونحى ببصره في سبيل بحوثه ورسومه

### دولوميو « Dolomieu »

١٧٥٠ — ١٨٠٢

من علماء طبقات الأرض والمعادن ، كان أستاذاً في مدرسة الناجم وعضواً بالمجمع العلمي الفرنسي قبل مجيئه إلى مصر ، عاد إلى فرنسا أثناء الحملة لمرض أصابه ، وانكسرت به السفينة التي قله وجنحت على شاطئ\* (تارت) جنوبي إيطاليا فأمر وألقي في السجن وبقى سجيناً إلى أن انتصر نابليون في معركة مارنجو سنة ١٨٠١ فحصل إطلاق سراحه من شروط الصلح ، ولكن صحته ساءت من أثر السجن فلم يعيش بعد خروجه طويلاً ، وكتب في السجن رسالة في فلسفة علم المعادن وهي من أهم مؤلفاته

### دليل « Delile »

١٧٧٨ — ١٨٥٠

هو العالم دليل المشهور في علم النبات ، وله في النباتات المصرية كتاب يرجع إليه العلماء ، عين مديراً لحديقة النباتات في القاهرة (في عهد متو) واشترك في وضع كتاب مخطوط مصر ، وتولى التدريس في كلية العلوم ببوليبيه بفرنسا ، وهو أول من درس نباتات مصر في العصر الحديث وله فيها رسوم بديعة ، وأكمل عمله من بعده العلماء في عصر محمد علي وعصر إسماعيل

## « Conte » كوتى

١٨٠٥ - ١٧٥٥

عالم كيميائى وميكانيكى ومبتكر لملاكمة من المحترقات الميكانيكية ، استخدم المناطيد فى حروب الثورة الفرنسية قبل مجيئه إلى مصر وعين قومنداناً لكتيبة الطيران ومديراً لمدرسة الطيران فى مودون Meudon ، ولما جاء إلى مصر أسس عدة مصانع تولى إدارتها ، وأنشأ طواحين الهواء فى القاهرة ، وأنشأ مصنعاً ميكانيكياً ، وعهد إليه نابليون سب أحرف الطياعة وكان يعتمد عليه كثيراً فى استئثار موارد مصر الطبيعية لاستيفاء حاجات الجيش وبخاصة بعد تخليط العماره الفرنسية فى واقعة ( أبو قير ) ، وقد شرع فى صنع منطاد يطير فى القاهرة ، لكنه لم يوفق فى طيرانه ، وروى الجبرى حكاية هذا المنطاد وما صار إليه من الفشل ، وشبهه بالطيارة التى يعملها القراشون فى اللوامس والأفراح ، قال فى هذا الصدد :

« وفى عشرين جمادى الثانية سنة ١٢١٣<sup>(١)</sup> كتبوا<sup>(٢)</sup> عن أوراق مطبوعة وألصقوها بالأسواق مضمونها أنه فى الجمعة حادى عشرينه قصدا أن تطير مركبا يركب ( ميدان ) الأزبكية فى الهواء بحيلة فرنساوية ، فكثرت لفت الناس فى هذا كعنايتهم ، فلما كان ذلك اليوم قبل العصر تجمع الناس والكثير من الافرنج ليروا تلك العجيبة ، وكفت بجمعهم ، فرأيت قاشاً على هيئة الأوبى على عمود قائم ، وهو ملون أحمر وأبيض وأزرق على سلال دائرة التبرال ، وفى وسطه مسرجة بها فتيلة مغموسة ببعض الأدهان ، وتلك للسرجه مصلوبة بسلوك من حديد منها إلى الدائرة ، وهى مشدودة بئكر وأحبال ، وأطراف الأحبال بأيدي أناس قائمين بأسطح البيوت القريبة منها ، فلما كان بعد العصر بنحو ساعة أوقدوا تلك الفتيلة فصعد دخلها إلى ذلك القماش وملأه ، فانفخ وصار مثل الكرة ، وطلب اللخان الصعود إلى مركبه فلم يجد منفذاً ، فجنبها معه إلى العلو ، فجنبها بتلك الأحبال مساعدة لما حتى ارتفعت عن الأرض ، فقطعوا تلك الأحبال ، فصعدت إلى الجومع الهواء ، ومشت هنيهة لطيفة ثم سقطت طارتها بالفتيلة ، وسقط أيضاً ذلك القماش ، وتناثر منها أوراق كثيرة من نسخ الأوراق الميصومة ، فلما حصل لما ذلك انكسف طبعهم لسقوطها ولم يتيقن صحة ما قالوه من أنها على هيئة مركب تسير فى الهواء بحكمة مصنوعة ويجلس فيها أنفاس من الناس ويسافرون فيها

(١) يوافق ٢٩ نوفمبر سنة ١٧٩٨ (٢) الفرنسيون

إلى البلاد البعيدة لكشف الأخبار وإرسال المراسلات ، بل ظهر أنها مثل للطيارة التي يعملها القراشون بالوالمس والأفراج . . . (١)

وفد أعاد المسيو. كوتنى تجربة المنطاد لكنه أخفق في تجربته الثانية ، قال الجبرتى فى هذا الصدد : « وفى يوم الأربعاء ٩ شعبان سنة ١٢١٣ (٢) كتبوا أوراقاً بتطير طيارة يركبها الأربكية مثل التى سبق ذكرها وفسدت ، فاجتمعت الناس لذلك وقت الظهر وطيروها ، وصعدت إلى الأعلى ومرت إلى أن وصلت للال البرقية وسقطت ، ولو ساعدها الريح وغابت عن الأعين لمت الحيلة وقالوا إنها سافرت إلى البلاد البعيدة بزعمهم (٣) »  
ولما رجع كوتنى إلى فرنسا بذل جهداً كبيراً فى إخراج كتاب تخطيط مضر وهو الذى تولى إعداد معدات طبع خرائطه ورسومه ونصنوعاته العديدة .

### شامبى « Champy »

عالم فى الكيمياء ومدير مصنع البارود الذى أنشأه الفرنسيون فى الروضة ، وبعد انتهاء الحملة عين فى فرنسا مديراً لمصانع البارود بها ومات سنة ١٨١٦  
وابنه شامبى الصغير كان يماونه فى مصر ومات بها بالطلاعون سنة ١٨٠١

### ديكوتيل « Descotils »

١٧٧٣ - ١٨١٥

عالم فى الكيمياء عين بعد الحملة الفرنسية كبيراً لمهندسى المناجم بفرنسا

### روزير « Rozière »

مهندس مناجم له أبحاث مستفيضة عن أحجار مصر ومعادنها وجيولوجيتها نشرت فى كتاب تخطيط مصر وقد رسم أحجارها وصخورها ومعادنها

### الاقتصاديون

### پوليج « Poussielgue »

ولد فى باريس سنة ١٧٦٤ . وتقلد بمضى المناصب اللالية فى عهد الثورة الفرنسية وكان

(١) الجبرتى الجزء الثالث

(٢) يوافق ١٦ يناير سنة ١٧٩٩

(٣) الجبرتى الجزء الثالث

قوميسيراً للإيرادات سنة ١٧٩٤ ، وفي سنة ١٧٩٥ عين سكرتيراً للوزير فيبول Faypoult ، وجاء إلى مصر ضمن الحملة الفرنسية مراقباً لتفقات الجيش ، وعهد إليه نابليون إدارة الشؤون المالية ، وكان يثنى عليه ، لكنه غضب عليه بعد عودته إلى فرنسا لما اطلع على رسائله إلى حكومة الديركتوار انتقد فيها سياسته ، ولما عاد إلى فرنسا أمهله نابليون ، وسميه الجبرتي بوسليك مدير الخنود ويصير عنه بالروزنامي

### « Esteve » استيف

مدير خزانة الحملة أولاً ثم مدير الشؤون المالية في أواخر عهد الحملة الفرنسية ، وقد درس مالية الحكومة في عهد المابليك وكتب عنها بحثاً مستفيضاً في كتاب تخطيط مصر

### « Tallien » تاليان

١٧٦٧ — ١٨٢٠

هو أحد أعضاء الجمعية الوطنية الفرنسية وخضرم روبيسير الشهير ومثير غبار الحملة التي انتهت بأسقاطه في الجمعية الوطنية<sup>(١)</sup> وانتظم في سلك أعضاء لجنة العلوم والفنون وعهد إليه نابليون وقتاً ما بمهمة مندوب ( قوميسير ) لدى الديوان ، فكان بمثابة جاسوس على أعضائه ، لكنه لم يكن موضع ثقة نابليون ولا احترامه ، وغادر مصر في عهد الجنرال منو ، وقد بعد عودته إلى فرنسا مكاتته السياسية

### القواد والضباط

#### « Caffarelli » كافريالي

هو الجنرال كافريالي ، من أسرة إيطالية استوطنت فرنسا في عهد لويس الثالث عشر ، وهو من أكفأ قواد الجيش الفرنسي وأغزرم علماء ، ضرب بهم وافر في الفلسفة والتشريع ، وقاتل في حروب الثورة الفرنسية وقد إحدى قدميه في حصار ماينانس Mayence سنة ١٧٩٥ نجاء مصر بدمه واحدة ، ولذلك يسميه الجبرتي « كفرلي السمي بأبي خشية » وقد اختاره نابليون رئيساً لفرقة للمهندسين في الجيش ، وهو مركز يتطلب كفاية فنية كبيرة وهو

(١) انظر تجميع ذلك في كتابنا الجمعيات الوطنية ص ٦٥

من أفراد الحملة القاتلة الذين تكلم عنهم الجبرق بالاسم ؛ وإليك ما قاله في صده : « ومن جملة من انتقل من الدرب الأحمر إلى الأزبكية كغزلى السمي بأبي خشبه ، وهو يمشى بها بدون معين ، ويصعد الدرج ويهبط منها أسرع من الصحيح ، ويركب الفرس ويرعجه . . . وهو على هذه الحالة ، وكان من جملة المشار إليهم فيهم والدبر لأموال القلاع وصفوف الحروب ، ولهم به عناية عظيمة واهتمام زائد » <sup>(١)</sup> وقد قتل في حصار عكا كما سيجيء بيانه في الفصل الثاني من الجزء الثاني

### الجنرال اندريوسى « Andreossi »

١٨٢٨ — ١٧٦١

من القواد ومن رجال السياسة مماً ، وله أبحاث ورحلات جغرافية في مصر أهمها رحلاته إلى بحيرة المنزلة ووادي النطرون ، وقد كتب عنها أبحاثاً تالاه في المجمع العلمى ونشرت في كتاب تخطيط مصر الجزء الحادى عشر والثانى عشر  
عاد إلى فرنسا مع نابليون وعاونهُ على قلب نظام الدركتوار وعينه بمد مهادنة ( أميان )  
سفيراً لفرنسا في لندن ثم في فيينا ثم في الاستانة حيث بقى بها إلى سنة ١٨١٤ وانتخب عضواً في أكاديمية العلوم ( المجمع العلمى ) وفى مجلس النواب

### هوراس سائى « Horace Say »

رئيس أركان حرب فرقة الهندسة ، كان أستاذاً لفن الاستحكامات في مدرسة الهندسة بفرنسا ، وهو أخو جان باتست سائى العالم الاقتصادى المشهور ، ومن أكفأ ضباط الجيش الفرنسى وأكثرهم علماً ، وله عدة رسائل في المجمع العلمى المصرى عن الحالة الاقتصادية والطوبوغرافية في مصر ، قتل في حصار عكا

### مالوس « Malus »

١٨١٢ — ١٧٧٥

عالم فى الطبيعيات وضابط كبير فى الجيش الفرنسى ، تلقى العلوم فى مدارس الهندسة

فرنسا وانتظم في سلك فرقة الهندسة بالجيش ، وجاء إلى مصر ضمن هذه الفرقة ، وكان صديقاً للجنرال كافريللي وتلميذاً للعلامة مونتج ومعدوداً من أعضاء الجمع العلمي المصري النابيين ، ولما عاد من مصر ظل في فرقة الهندسة مع اشتغاله بالأبحاث الطبيعية ، وله فيها رسائل ومؤلفات عظيمة القيمة ، وانتخب عضواً بالجمع العلمي الفرنسي سنة ١٨١١ بقسم الطبيعيات ، وله يوميات <sup>(١)</sup> عن الحملة الفرنسية نشرت سنة ١٨٩٢ تحوى وقائع الحملة إلى جلاء الفرنسيين عن مصر ، وله عدا ذلك « أفكار » ضمنها خواطره في مصر

### الأطباء والجراحون

#### • ديجنت • Desgenttes

١٨٣٧ - ١٧٩٢

كبير أطباء الحملة الفرنسية في إيطاليا وفي مصر ، وله عدة أبحاث طبية عن مصر ، وله كتاب قيم اسمه « التاريخ الطبي لجيش الشرق » ، وقد وضع في مصر رسالة في مرض الجدري نالها في الطبعة الفرنسية التي أحضرها الفرنسيون وأهداها إلى أعضاء الديوان وهي الرسالة التي يشير إليها الجيزقي بقوله :

« وفي شعبان سنة ١٢١٥ أرسل رئيس الأطباء الفرنسيون نسخاً من رسالة ألقاها في علاج الجدري لأرباب الديوان لكل واحد نسخة على سبيل المحبة والهدية ليتناقلا بها الناس ويستعملوا ما أشار إليه فيها من الملاحظات لهذا الداء الممّال ، فقبلوا منه ذلك وأرسلوا له جواباً يشكراً له على ذلك ، وهي رسالة لا بأس بها في بابها <sup>(٢)</sup> »

وله إحصاءات بخورية عن وفيات القاهرة في مدة الحملة الفرنسية نشرت في كتاب تحفظت بمصر الجزء السادس عشر ، ومنع بعد الحملة لقب يازون وعين كبير أطباء الافلايد

#### • لارّي • Larrey

١٧٦٦ - ١٨٤٢

كبير جراحى الحملة الفرنسية وله شهرة عالمية في الطب والجراحة ، وظل بعد الحملة كبير

(١) يوميات مالوس « Agénda de Malus »

(٢) الجيزقي الجزء الثالث . وجاء في كتاب ( التاريخ الطبي لجيش الشرق ) مؤلفه الدكتور ديجنت أنه أهدى ٢٥٠ نسخة من رسالته في الجدري إلى الديوان و ٥٠ نسخة إلى السيدة خديجة البرادية



جراحى الجيش الفرنسى فى عهد نابليون وكان موضع ثقته وانتخب عضواً بالمجمع العلمى الفرنسى وبأكاديمية الطب ، وأنتم عليه نابليون رتبة برون فصار يعرف بالبارون لارى ، وهو من كبار الأساتذة فى العلوم الطبية ، عين كبيراً لجراحى مستشفى الأنفاليد ، وله مؤلفات عظيمة فى الطب والجراحة منها كتاب خاص بمصر نشر سنة ١٨٠٣ وله فى كتاب تخطيط مصر الجزء الثالث عشر أبحاث مستفيضة عن الأمراض الخاصة بمصر

ديبوا « Dubois »

١٧٥٦ — ١٨٣٧

من نوابغ الأطباء فى الجراحة وبخاصة الولادة ، ولم يطل مكثه فى مصر أمداً لمرضه فعاد إلى فرنسا وتخلقه فى المجمع العلمى الجراح لارى وصار ديبوا طبيب نابليون الخاص

الأدياء والمترجون والفنانون

فيغان دينون « Vivant Denon »

١٧٤٧ — ١٨٢٧

كاتب وفنان ، سجن نابليون فى حملة مصر وعاد بمجموعة نفيسة من الصور التى رسمها ، وله فى رحلته بمصر كتاب نفيس « رحلة فى الوجه البحرى ومصر العليا أثناء حروب الجيرال بوناپارت » نشر بعد عودته من مصر وطبع لأول مرة سنة ١٨٠٢ وأهداه إلى نابليون وكان إذ ذاك « قنصلاً أول »

وأهمية هذا الكتاب راجعة إلى الصور الكبير الملحق به ويتضمن رسوماً عظيمة القيمة عن مصر والآثار المصرية جعلت لكتابه مكانة كبيرة وترجم إلى الإنجليزية والألمانية وقد رسم فى كتابه بعض معارك الحملة الفرنسية التى شهدا ورسمها أثناء وقوعها وكان دينون من الوليين بالفتن الجميلة وتولى فى عهد امبراطورية نابليون إدارة المتاحف ، وانتخب عضواً فى المجمع العلمى الفرنسى

فاتور « Venture »

هو المستشرق فاتور أكبر أعضاء المجمع العلمى سناً وكبير تراجم الحملة الفرنسية ومستشار

نابليون ومجمعه في المسائل الخاصة بالشرق والشرقيين ، قضى نحو أربعين سنة في بلاد الشرق وكان قبل حضوره لمصر ترجماناً لسفارة فرنسا في الأستانة ، ثم مترجماً للحكومة الفرنسية في اللغات الشرقية ومدرساً للتركية في مدرسة اللغات الشرقية بباريس ، ومن تلاميذه السيو مارسل والسيو جوير ، وسيأتي ذكرهما ، ملت بالمتطاريا في الحملة على سوريا ونعاه نابليون إلى الديوان ، وذكره الجبرتي في كتابه فقال عنه : « إن فائتوره هذا ترجمان سارى عسكر وكان لبيباً متبحراً يعرف اللغات التركية والعربية والرومية والاطلياني والفرنساوى »

### مارسل « Marcel »

١٨٥٤ — ١٧٧٦

هو المستشرق مارسل مدير المطبعة الفرنسية والعربية التي أحضرها نابليون إلى مصر ، وقد درس اللغة العربية واشترك في تأليف كتاب تخطيط مصر وكتاب التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية ، وله رسالة عن المارستان الكبير بإقاهرة وسميه الناصرى نسبة للملك الناصر محمد بن قلاوون التي أتم بناءه ، وله أبحاث مستفيضة عن مقياس الروضة وعن الآثار العربية بمصر وما عليها من الخطوط الكوفية منشورة في الجزء الخامس عشر من كتاب تخطيط مصر ، وكان في خلال الحملة الفرنسية مديراً للمطبعة الأهلية التي أنشأها نابليون وعضواً بالجمع العلمى بإقاهرة ، وعين بعد عودته من مصر مديراً للمطبعة الأهلية بفرنسا

### جوير « Jaubert »

١٨٤٧ — ١٧٧٩

اختاره نابليون كبيراً لترجمة الحملة الفرنسية بعد وفاة المستشرق فانتور ، وله بحث عن العرب وقبائلهم في مصر منشور في الجزء السادس عشر من كتاب تخطيط مصر ، وعين بعد الحملة مدرساً للتركية في مدرسة اللغات الشرقية بباريس ثم مدرساً للقارسية في الكوليج دى فرنس ثم ناظراً لمدرسة اللغات الشرقية

### برسفال دجر غيزون Perseval De Grandmaison

١٨٣٤ — ١٧٥٩

عضواً بالأكاديمية الفرنسية ، عين وقتاً ما في عهد الحملة الفرنسية مديراً لجرك السنوس

وغادر مصر ضمن من محبوبوا نابليون في عودته إلى فرنسا

### رفائيل

قيس شرق عين « ترجاناً أول » للدوان وبعد الجلسة عين مدرّساً للفرسية الأنارجه في  
مدرسة اللغات الشرقية بباريس

### فيلوتو « Villoteau »

١٨٣٩ - ١٧٥٩

موسيقى فنان ، برع في فنون الموسيقى علماً وعملاً ودرس في مصر للموسيقى المصرية  
القديمة والحديثة والموسيقى الشرقية في مختلف بلاد الشرق ، وله في ذلك أبحاث مستفيضة  
شملت بعض الجزء السادس ومعظم الجزء الثالث عشر وكل الجزء الرابع عشر من كتاب  
تخطيط مصر

### ريجو « Rigo »

هو الرسام ريجو ، ونسبه الجبرقي « أرجو » وهو الذي عهد إليه نابليون بإقامة أقواس  
النصر والأعمدة في ميدان الأزيكية احتفالاً بعيد الجمهورية سنة ١٧٩٨ وزعم الرسوم الفنية  
على قواعدها ، وعهد إليه نابليون أيضاً برسم رجال مصر في ذلك العصر على اختلاف  
مرأ كزعم وأزيائهم ، وترى هذه الرسوم في كتاب (تخطيط مصر)

### ردوتيه « Redouté »

مصوّر في التاريخ الطبيعي وأخو للمصور المشهور « ردوتيه » الملقب بمصور الزهور ،  
رسم معظم حيوانات مصر وأسمائها كلها ، وترى رسومه البديعة كتاب (تخطيط مصر)

### دوترت « Dutertre »

رسم معظم أعضاء لجنة العلوم والفنون ، وترى صور النابيين منهم في كتاب « يوميات »  
المسيو دقيلبي De. Villiers المتقدم ذكره ، وله رسوم عديدة عن الآثار المصرية القديمة في  
كتاب (تخطيط مصر)

## أعمال المجمع العلمي

هى السائل التى بمشها هيئة المجمع وكذلك أعمال أعضائه جماعة أو فرادى فى المدة التى اقتضت بين تأسيس المجمع ورجل الفرنسيين ، وهى الأعمال التى نستعرضها فى هذا البيان كانت أولى جلسات المجمع العلمى يوم ٢٣ أغسطس سنة ١٧٩٨<sup>(١)</sup> ، فاجتمع الأعضاء وانتخبوا السيو مونيخ العالم الرياضى رئيساً للمجمع ، و نابليون بونابرت نائب الرئيس ، وفورييه سكرتيراً دائماً ، وكوستاز نائب السكرتير ، وعرض نابليون على المجمع فى هذه الجلسة درس للسائل الآتية :

أولاً - ما هى الوسائل التى يمكن اتباعها لتدبير مواد الوقود اللازمة لأفران الجيش وقد أحييت هذه المسألة على لجنة مؤلفة من برتوليه وكافاريلى ومونيخ وسأى  
ثانياً - هل يوجد وسيلة يمكن اتباعها فى مصر لاستبدال حشيشة الدينار فى صنع البيرة أحييت هذه المسألة على لجنة مؤلفة من برتوليه ، وكوستاز ، وديجينيت ، وجولتييه  
ثالثاً - ما هى الوسائل الناجمة لترشيح وتبريد ماء النيل أحييت هذه المسألة على لجنة مؤلفة من برتوليه ، وكوستاز ، ومونيخ ، وفانتور  
للمسألة الرابعة - ما هو الأتقع للبلاد بحسب الحالة الراهنة فى مصر ، طواحين الماء أم طواحين الهواء ؟ أحييت هذه المسألة على لجنة مؤلفة من أندريوسى ، وكافاريلى ، وكوستاز ، ومالوس ، وسأى

للمسألة الخامسة - هل فى مصر مواد أولية لصنع البارود وما هى هذه المواد ؟ أحييت هذه المسألة على لجنة مؤلفة من أندريوسى ، وبرتوليه ، ومالوس ، ومونيخ ، وفانتور  
للمسألة السادسة - ما هى حالة التشريع والقضاء المدنى والجنائى فى مصر ؟ وحالة التعليم ؟ وما هى الاسلحات التى يمكن إدخالها على هذه النظم ويرغبها أهالى البلاد . أحييت هذه المسألة على لجنة مؤلفة من كوستاز ، وسولكوسكى ، وسوسى ، وثاليان وعرضت على المجلس فى جلسات متعاقبة مسائل أخرى فنية لدراستها ، كالوسائل التى يجب اتخاذها لزراعة القصب فى مصر ، ودرس طريقة زراعة القمح فى مصر ومقارنتها بطريقة زراعتها فى أوروبا ، وعمود القلعة بجماء النيل والتدريج إلى ذلك بإصلاح قطار السباع ، وحفر

الآبار في الصحراء ، والاستفادة من المواد المتخلفة من مدينة القاهرة وسائر مدن القطر المصري ، وإنشاء مرصد ، وبحث هزات الإبرة المناطيسية في مصر وبحث نابليون كذلك في إمكان جلب الأخشاب من الحبشة بطريق النيل لصناعة السفن في مصر

وكان أعضاء المجمع العلمي وبشة العلوم والفنون لا يدخرون وسماً في متابعة جهودهم العلمية في مختلف الفروع والفنون ، فأنشأوا في المجمع مكتبة تحوى أنفس الكتب التي أحضروها من فرنسا أو جمعوها من خزائن الكتب في القاهرة ، وأنشأوا به معملاً للطبيعة والكيمياء جهزوه بالآلات والأدوات الخاصة بدراسة العلوم الطبيعية والرياضية ، وأخذوا يجهزون البلاد ، فاكشفوا الآثار وأزاحوا الستار عن عظمة مصر القديمة ، ورسوموا خرائط مفصلة للبلاد ونيلها وترعها وسواحلها ، وبحثوا في طبائع الحيوانات والنباتات والمعادن المصرية ، وحرسوا مياه النيل وطيبه وطبقات الأرض ، وجابوا واحاتها وبحيراتها

## الطباعة

وأنشأوا بالقاهرة مطبعة عربية وفرنسية وهي التي أحضرها نابليون إلى مصر بعد أن جمع لها الأحرف الفرنسية والعربية واليونانية من باريس واستكمل لها الأحرف العربية من مطبعة البروجنجا بروما ، وعهد بإدارتها إلى السيومارسل المستشرق أحد أعضاء لجنة العلوم والفنون ، وجعل للمستشرق فانتور الإشراف على مطبوعاتها<sup>(١)</sup> وكانت تسمى (مطبعة جيش الشرق) ولما نقلت من الإسكندرية إلى القاهرة أمر بتسميتها (الطبعة الأهلية) واتخذ لها دار عثمان بك الأشقر بالأزبكية على مقربة من بيت الألفي الذي سكنه نابليون ، ثم نقلت إلى الجزيرة أثناء ثورة القاهرة الثانية ، ثم إلى القلعة إلى أن جلا الفرنسيون عن مصر ، وفي هذه المطبعة كانت تطبع منشورات نابليون بالعربية ، وجريدة الكوريه دليجبت ، والديكاد ، وبعض الطبوعات العربية والفرنسية

وكان للفرنسيين مطبعة أخرى خاصة بحروفها أفريقية فقط لصاحبها السيو مارك أوريل Marc Aurel طبعت الأعداد الأولى من جريدة (كوريه دليجبت) إلى أن نقلت المطبعة

(١) ورد في أبر نابليون الرقم ١٤ يناير سنة ١٧٩٩ للنشور في (مراسلات تالمون) الجزيرة الخامس أنه جعل للسيو فانتور مفتشاً للطبعة بحيث لا يطبع فيها شيء إلا بأمره

الرسمية من الاسكندرية إلى القاهرة ، ولما عاد مارك أوريل إلى فرنسا في خلال الحملة باع مطبعته إلى الحكومة

(و الطبعة الأهلية) هي أول مطبعة أنشئت في مصر في العصر الحديث ، وقد أخذها الفرنسيون معهم عند جلائهم عن البلاد ، ولم تعد الطباعة إلى مصر إلا في عهد محمد علي الكبير

### الصحافة

وأنشأوا جريدتين فرنسيتين إحداهما سياسة والأخرى علمية ، فالأولى هي جريدة « كوريه ديليجيت » *Courier de l'Egypte* (الجوائب المصرية) وهي جريدة سياسية تصدر بالفرنسية كل أربعة أيام في أربع صفحات من القطع الصغير ، طبع منها بمطبعة مارك أوريل الثلاثون عدداً الأولى ، ثم طبع باقي مآظهن منها في الطبعة « الأهلية » وسدر منها ١١٨ عدداً ، ظهر العدد الأول منها في ١٢ فركتيدور من السنة السادسة للجمهورية ( ٢٩ أغسطس سنة ١٧٩٨ ) والأخير في يونيه سنة ١٨٠١ قبيل جلاء الفرنسيين عن البلاد ، وتولى تحرير الأعداد الأولى المسيو كوستاز *Costaz* أحد أعضاء المجمع العلمي ، ثم فوريه سكرتير المجمع ، ثم ديجنت *Desgenettes* كبير أطباء الحملة ، وكانت هذه الجريدة هي الصحيفة شبه الرسمية للحملة الفرنسية

وجريدة « لاديكاد اجيسين » *La Decade Egyptienne* (العشرة المصرية) تصدر مرة كل عشرة أيام ، وهي جريدة علمية اقتصادية تنشر أبحاث المجمع العلمي ومناقشات أعضائه ، صدر العدد الأول منها في أكتوبر سنة ١٧٩٨ وتولى تحريرها وإدارتها الدكتور ديجنت وكانت تطبع في الطبعة الأهلية<sup>(١)</sup>

### الأعمال الصحية

وأنشأوا محاجر صحية في القاهرة (بجزيرة بولاق) والاسكندرية ودمياط ورشيد وأمر نابليون بإنشاء مستشفى عسكري في قصر مراد بك بالجيزة ثم عدل عنه ونقل

(١) عزم الجنرال مو في أواخر عهد الحملة الفرنسية على إصدار جريدة مصرية باسم « التنبيه » لكنها لم تظهر ولم يحقق عزمه كما تراءى في الفصل الحادي عشر من الجزء الثاني من الكتاب  
(٢) ذكر الميربي محير القاهرة بقوله « إن القرنيس عملوا ( كرتيلة ) بجزيرة بولاق وبها هناك بناء يحجزون به القادمين من السفار ألياً ما مدونة كل جهة من الجهات القبلية والبحرية » وذكر الدكتور لاري كبير جراحي الحملة أنهم أنشأوا محجراً آخر في جزيرة الروضة خاسماً بالوباء

المستشفى إلى قصر إبراهيم بك تجاه الروضة (مكان مدرسة الطب الآن) ، لكن هذا المستشفى كان خاصاً بالجنود الفرنسية ، وأنشأ عدة مستشفيات أخرى عسكرية خاصة بالجنود أيضاً ، وفكر في إنشاء مستشفى للوطنيين ، وألف لهذا الغرض لجنة من الجنرال كافريل والطبيبين ديجيت ولارى والمالين مونج وبرتوليه والسيو دور Daure مدير مهمات الجيش لفحص هذا المشروع ، فأخذت اللجنة تدرس المشروع ونحّشت حالة المستشفى الذى كان بالقاهرة قبل الحملة الفرنسية وهو المسمى بالمراستان الكبير النصارى الذى أسسه الملك المنصور بلالون وأتمه ابنه الملك الناصر سنة ٧١٠ هجرية ( ١٣١٠ ميلادية ) وأجرى عليه سلاطين مصر الأوقاف والمهيات من عهد إنشائه ، وكان في عهده الأول مستشفى كبيراً من أعظم المستشفيات شأنًا وكان يلحق به مدرسة لتخريج الأطباء في مصر ، ولكن حالته اضمحلت في عهد الحكم العثماني والبكوات للماليك حتى آل أمره إلى التدهور والتلف ، وقد زارة الدكتور ديجيت كبير أطباء الحملة الفرنسية مصحوباً بالشيخ عبد الله الشرفاوى رئيس الديوان وقدم تقريراً إلى نابليون<sup>(١)</sup> عن سوء حالته وسوء حالة المرضى الذين كانوا يعالجون به ، وأشار بإنشاء مستشفى جديد في بيت عثمان بك الطنبورى بركة الفيل ، واقترح كذلك إنشاء مدرسة للطب تلحق بالمستشفى ، لكن المشروع لم ينفذ شيء منه في عهد الحملة الفرنسية

ومما تجب الإشارة إليه أنه كان بالقاهرة مستشفيات أخرى موجودة من قبل مجيء الحملة الفرنسية ، فقد ذكر السيو جومار أحد مهندسي الحملة في بحثه الممتع عن تخطيط القاهرة<sup>(٢)</sup> أنه كان بالقاهرة مستشفى للنساء أنشأه الأمير عبد الرحمن كتحذا بالقرب من شارع تحت الربع ، وكان به ٢٦ من اللريصات ، وكان يطلق عليه اسم ( تنكية ) ، وقد تكلم العلامة طي باشا مبارك عن هذه التنكية في خططه التوفيقية وقال إن الظاهر أنها تنكية الجلشانية<sup>(٣)</sup> ويقول السيو جومار أيضاً إنه كان بالقاهرة تنكياً أخرى للرضى وهى تنكية الحليانية وتنكية الأعجم بشارع الصليبية ، وقد زار هذه التنكية ورأى بها ٢٦ مريضاً ، وتنكية بشارع سوق السلاح ، وأخرى بشارع قيسون

ويدخل في الأعمال الصحية التى أجراها الفرنسيون ما قرروه من إنشاء لجنة لإدارة

(١) في ٢٧ أكتوبر سنة ١٧٩٨

(٢) كتب تخطيط مصر الجزء التاسع عشر

(٣) المخطط التوفيقية الجزء الأول

الشؤون الصحية في القاهرة ومصر القديمة وبولاق ووضع اللوائح لنظافة المدينة وتقرير الوسائل الصحية فيها

## أعمال أخرى

وعما عمله أعضاء المجمع العلمي أنهم أنشأوا طواحين الهواء<sup>(١)</sup>، إحداها في جزيرة الروضة والثانية بباب الحديد على التل المجاور لقنطرة الليمون

وفي ذلك يقول الجبرتي: « ومهدوا التل المجاور لقنطرة الليمون ، وجعلوا في أعلاه طاحونا تدور في الهواء عجيبية وتطحن الأرابد من البر وحي بأربعة أحجار ، وطاحونا أخرى بالروضة بجما مساطب الشباب » ، وظاهر من عبارة الجبرتي أنه لم يكن رأى طواحين الهواء من قبل فظن أن الفرنسيين استحدثوها ، على أن طواحين الهواء لم تكن ابتكاراً من الفرنسيين بل كانت موجودة في مصر قبل الحملة الفرنسية ، فقد ذكر للسيو سان جنيس Saint Denis أحد مهندسي الحملة<sup>(٢)</sup> أنهم وجدوا بالإسكندرية على شاطئ البحر في شبه جزيرة رأس التين طاحونا تدار بالهواء بثنائي أجنحة ، ووصف المهندس جراتيان لوير Gratiem Le Père تامل السيوسان جنيس هذه الطاحون ، و تراها مرسومة بخريطة الإسكندرية الملحقة بكتاب تخطيط مصر ، ويقول السيو جيرار Girard أحد مهندسي الحملة أنه كان بالإسكندرية قبل الحملة الفرنسية سبع أو ثمانى طواحين هواء<sup>(٣)</sup>

وأصلحوا دار الصناعة ( الترسانة ) التي أنشأها مرهاد بك في الجزيرة لصنع المدافع والسفن والآلات الحربية ، وعنى بإصلاحها السيو كونتى والسيو شامبي Champy وولده

وأنشأوا مصنعا للبارود في جزيرة الروضة وعهدوا بإدارته للسيو شامبي يساونه فيه ابنة القى مات بالطاعون

وأنشأوا مصنعا للجوخ وآخر لصنع القبعات وآخر لصناعة البيرة وآخر لدبح الجلود وأنشأوا مصنعا ميكانيكيا ومصنعا للتجارة زارهما الجبرتي ووصفهما بقوله : « وأفردوا أيضا مكانا للتجارين وصناع الآلات والأخشاب وطواحين الهواء والغريلت والوازم لهم في أشغالهم وهندساتهم وأرباب سناتهم ، ومكانا آخر للحدادين بنوا فيه كوائين

(١) أنشأها للسيو كونتى Conté

(٢) كتاب تخطيط مصر الجزء الخامس

(٣) كتاب تخطيط مصر الجزء السابع عشر



عظاما وعليها منافيع كبار يخرج منها الهواء متصلا كثيرا بحيث يجذبه النافع من أعلى بحركة لطيفة ، وصنعوا السندانات والمطارق العظام لصناعات الآلات من الحديد والحارط ، وركبوا حارط عظيمة لحرط القلوزات الحديدية العظيمة ، ولهم فلكات مثقلة يديرها الرجال للعلم الخراط للحديد بالأقلام المتينة الخافية ، وعليها حق صغير معلق مقبوب وفيه ماء يقطر على محل الخراط لتبريد النارية الحادثة من الاصطكاك ، وبأعلى هذه الأمكنة صناعات الأمور البتقيقة ( الليكانيكيون ) مثل البركاريات ( البراجل ) وآلات الساعات والآلات الهندسية المتقنة وغير ذلك »

وأصلحوا بناء المقياس مما أصابه حين القتال من المطب ، تولى السيولوير « J. P. Père » كبير مهندسى الرى فى عهد الحلة ترميمه ، وجعلوا للمقياس بابا خارجيا قشوا فيه بالهريرة والفرنسية ما يشير إلى هذا الترميم الذى تم فى عهد الجنرال منو ، وقد أرسل الديوان كتاب شكر للجنرال منو ، وآخر للسيولوير ، وتجدد نص الكتاب الأخير فى قسم الوثائق التاريخية قلناه عن كتاب تخطيط مصر ، وقد ذكر الخبر فى إصلاح بناء المقياس فى حوادث سنة ١٢١٥ هجرية فقال فى هذا المصدد : « ومنها أنهم غيروا معالم للمقياس وبدلوا أوضاعه ، وهدموا قيته العالية ، والقصر البديع الشاهق ، والقاعة التى بها عمود المقياس ، وبنوها على شكل آخر لا بأس به ، لكنه لم يتم وهى على ذلك باقية إلى الآن ، ورفضوا قاعة العمود العليا ذراعاً ، وجعلوا تلك الزيادة من قطعة رخام مرصبة وربموا عليها من جهاتها الأربع قرايط النراع »

وأقاموا جسراً من المراكب من القصر العيني إلى الروضة ، وجسراً آخر كبيراً من الروضة إلى الجزيرة ، ثم وضعه فى أثناء الحلة على سورها ، وكانوا معجبين بمجال جزيرة الروضة وحمى موقعها حتى فكر نابليون فى أن يحملها مقرأ للجلالية الفرنسية ويبنى فيها مدينة فرنسية ، لكن مشروعه لم ينفذ ، وكذلك وضع الجنرال « منو » تخطيطاً لمدينة يشبها بها ، لكن فكرته لم تخرج عن حيز الآمال

وأصلحوا شارع الفجالة وكانت أرضه من قبل يمسر للروربها فهدوه وجعلوه ممتداً من باب الحديد إلى باب المدوى عند المكان المعروف بالشيخ شعب

وصعدوا طريقاً مستقيماً غرسوا على جانبيه الأشجار من الأزيكية إلى بولاق يبلغ طوله ١٢٠٠ متر يبدأ من قطرة النربى ويتجه إلى بولاق رأساً ويضرب بقرب بولاق إلى فرعين : الأول إلى طريق أبى العلا ، والثانى إلى التبانة وساحل النيل .

« وعلوا الطريق بين باب الحديد وباب الحديد إلى جهة المذبح خارج الحسنية. وانصار  
ههنا بين الأوزبكية وقبة النصر المروقة بقبة الرزب جهة المادلية  
« وأنشأوا منتدى للثروة (كازينو) سموه «التيفولى» تشبهاً بنظيره بياريس أنشأوه  
بالأوزبكية، وسموا الجبى «دار الخلاعة» ووصفها بقوله: «وأحدثوا بضيظ النوبى المجاور  
للأوزبكية أبنية على هيئة مخصوصة منزهة يجتمع بها النساء والرجال للهو والخلاعة فى أوقات  
مخصوصة وجعلوا على كل من يدخل إليه قدرا مخصوصاً يدفعه أو يكون مأذونا ويده ورقة»  
وأقاموا مسرحا لتمثيل الروايات، تم أنشاؤه فى عهد الخيال «منو» وهو الذى سماه  
الجبرى «كرى» (ريد كينى Comedie) وصفه بقوله: «وفى شعبان سنة ١٢١٥ كل  
السكان الذى أنشأوه بالأوزبكية عند المكان المعروف بباب الهواء، وهو المسمى فى لغتهم  
بالكمرى، وهو عبارة عن محل يجتمعون به كل عشرة ليال ليلة واحدة يتفرجون به على  
ملاعب يلعبها جماعة منهم بقصد التسلل والملاهى مقدار أربع ساعات من الليل، وذلك بنفهم،  
ولا يدخل أحد إليه إلا بورقة معلومة وهيئة مخصوصة»

وخلاصة ماظم أن أعضاء المجمع العلمى قد بذلوا جهودا كبيرة فى خدمة العلم والفن،  
وكانوا دائمى النشاط عدين فى أعمالهم مثابرين فى أبحاثهم، فكان المجمع العلمى من أعظم  
المجامع العلمية قدرا وأكثرها عمرة

كتب السيو جوفروا سان هيلير — وكان من أعضائه النابيين — فى رسالته إلى العلامة  
كوفيه Cuvier يقول:

«إن المجمع العلمى المصرى فى نشاط دائم، وإنى أؤكد أن جلساته تعادل بالأقل جلسات  
المجمع العلمى الفرنسى فى أعمالها وثمراتها، وقد قررنا بناء على اقتراح زميلنا بونا بارت (نابليون)  
أن نرسل إلى مجتمكم محاضر جلسائنا، فهل لكم أن تقررنا إزاءنا مثل هذا القرار، وبذلك  
تتقوننا على تطور حركة العلوم فى أوروبا»<sup>(١)</sup>

يتبين من تشكيل المجمع العلمى ومن السائل التى بحثها والأعمال التى عملها أنه معهد  
للعلوم والفنون ومجلس استشارى فى مؤلف من أعضاء اختصاصيين لدرس المسائل والمشروعات  
التي تعرضها عليه الحكومة، فهو فى الشئ الأخير من مهمته شبيه بالمجلس الاقتصادى الذى

---

(١) رسالة جوفروا سان هيلير لكوفيه بتاريخ ١٠-٢٠ أكتوبر سنة ١٢١٨ الواردة فى كتاب  
(وسائل من مصر)

إنشائه الحكومة المصرية سنة ١٩٢٣ ، إلا أنه زيد في اختصاصه أنه يتناول عنا المسائل الاقتصادية والمالية للسائل الخاصة بالتشريع ، وهو عنا ذلك نمهد أو أكاديمية العلوم والفنون

ولا شك أن فكرة تأسيس هذا المجمع العلمي هي فكرة جلية تدل على عبقرية نابليون ونبوغه في التنظيم والإنشاء ، كنبوغه في الحروب ، وتدل أيضا على قوة عزيمته وعلمه ، لأنه أسس هذا المجلس بعد أن وصلتته أنباء الكارثة التي حطمت عمارته في معركة ( أبو قير ) وقطعت كل صلة بينه وبين فرنسا وجعلته هو وحيشه محصورين في الديار المصرية ، ومع هول هذه الكارثة وعظم آثارها وما ضربت به نقوس الفرنسيين من اليأس فإنه قابلهما بالجلد والصبر وأسس المجمع العلمي ليجد من خبرة أعضائه وكفاءتهم ما يحمله يكتفي بموارد البلاد الطبيعية ، وأخذ يقيم النظم في مصر كأنه باق فيها إلى ما شاء الله

وإذا نظرنا إلى هذا المجلس من الوجهة العلمية البحتة نجد أنه قد نفع البلاد بآثاره وأعماله ، وتعد مذكرات أعضائه نواة للأبحاث العلمية الخاصة بمصر ، فلا غرو أن يكون المجمع العلمي هو الأثر الوحيد الباقي من آثار الحملة الفرنسية ، ويكنى أن عمن النظر في أعمال أعضاء المجمع وأبحاثهم المنشورة في كتاب ( تخطيط مصر ) لننقد مبلغ ما قاموا به من الأعمال وما يستحقونه من الإعجاب والثناء

وقد انتهى العهد الأول من المجمع العلمي بعد رحيل الفرنسيين ، ثم أعيد إنشاؤه سنة ١٨٥٩ بالإسكندرية ، وانتخب الميوجومار Jomard آخر من بقى من أعضاء المجمع العلمي الأول رئيساً شرفياً للمجمع الجديد ، وهذا المجمع قائم إلى اليوم ، فالمجمع العلمي الحالي هو استمرار للمجمع العلمي القديم ، وقد انتقل من الإسكندرية إلى القاهرة سنة ١٨٨٠ ، ومقره الآن بمحديقة وزارة الأشغال ، وله نشرة دورية تحوى مجموعة المحاضرات والأبحاث التي تلقى فيه

### زيارة الجبرتي للمجمع العلمي

وما قاله في وصفه

نرى من الواجب أن نختم كلامنا عن المجمع العلمي بإيراد ما ذكره الجبرتي عنه وما قاله في وصفه وما رآه فيه ، فنقل ذلك لأن في وصف الجبرتي صورة دقيقة لما رآه وما شاهده ، وفي

كلامه سورة جليلة المستوى العلمى فى ذلك النص

وصف الجبرق المجمع العلمى وصفا عاما بقوله : « وأفردوا للدبرين والفلكيين وأهل المعرفة والعلوم الرياضية كالمهندسة والمهيئة والقوشرات والرسومات والمصورين والكتبة والحمام والمنشئين حارة الناصرية حيث اللرب الجديد وما به من البيوت مثل بيت قاسم بك وأمير الحج المعروف بأبى يوسف وبيت حسن كاشف جركس القديم والجديد الذى أنشأه وشيده وزخرفه وصرف عليه أموالا عظيمة من مظالم العباد ، وعند تمام بياضه وفرشه حدثت هذه الحادثة ففرّ مع الفارين وتركه »

### مكتبة المجمع العلمى

وقال عن مكتبة المجمع : « وفيه (بيت حسن كاشف) جملة كبيرة من كتبهم وعليها خزان ومباشرون يحفظونها ويحضرونها للطلبة ومن يريد للراجحة ، فيراجعون فيها مرادهم ، فتجتمع الطلبة منهم كل يوم قبل الظهر بساعتين ويجلسون فى فسحة المكان القابلة لخازن الكتب على كرسي منسوبة موازية لتختة عريضة مستطيلة ، فيطلب من يريد الراجحة ما يشاء منها فيحضرها له الخازن ، فيتصفحون ويراجعون ويكتبون حتى أساقفهم من المساكين ، وإذا حضر إليهم بعض المسلمين ممن يريد القرحة لا يمنونه الفخول إلى أعز أما كنهم ويتلقونه بالباشا والضحك وإظهار السرور بحبيته إليهم ، وخصوصا إذا رأوا فيه قابلية أو معرفة أو تطلعا للنظر فى المعارف بذلوا له مودتهم ومحبتهم ويحضرون له أنواع الكتب المطبوع بها أنواع التصاوير وكرات البلاد والأقاليم والحيوانات والطيور والنباتات وتواريخ القدماء وسير الأمم وقصص الأنبياء بتصاويرهم وآياتهم ومعجزاتهم وحوادث أهمهم مما يحير الأفكار ، وقد ذهبت إليهم مرارا وأطلعوني على ذلك ، فن جملة ما رأيته كتاب كبير يشتمل على سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ومصورون به سورة الشريعة على قدر مبلغ علمهم واجتهادهم وهو قائم على قدميه ناظر إلى السماء كالرهب للخليفة ، ويده اليمنى السيف وفى اليسرى الكتاب ، وحوله الصحابة رضى الله عنهم بأيديهم السيوف ، وفى صفحة أخرى صورة الخلفاء الراشدين ، وفى الأخرى صورة المراج والبراق وهو صلى الله عليه وسلم راكب عليه من صخرة بيت المقدس ، وصورة بيت المقدس والحرم المكي والمدنى ، وكذلك صورة الأئمة المجتهدين ، وبقية الخلفاء والسلاطين ، ومثال اسلامبول وما بها من المساجد العظام كأياصوفية وجامع السلطان محمد ، وهيئة المولد النبوى وجمعية أصناف الناس لذلك ، وكذلك جامع السلطان سليمان وهيئة

صلاة الجمعة فيه ، وأبى أيوب الأنصارى وهيئة صلاة الجنازة فيه ، وصور البهائم والسواخل والبحار والأهرام وبرابي الصعيد والصور والأشكال والأقلام المرسومة بها. وما يختص بكل بلد من أجناس الحيوان والطيور والنبات والأعشاب وعلوم الطب والتشريح والمهندسيات وجوهر الاحتمال ، وكثير من الكتب الإسلامية مترجم بلغتهم ، ورأيت عندهم كتاب الشفاء للقاضي عياض ويمبرون عنه بقولهم « شفاء شريف » ، والبردة للبوصيري ، ومحفوظون جملة من آياتها وترجموها بلغتهم ، ورأيت بعضهم يحفظ سوراً من القرآن ولم تطلع زائد للعلوم وأكثرها الرياضة ومعرفة اللغات ، واجتهاد كبير في معرفة اللغة والمنطق ، وبدأون في ذلك الليل والنهار ، وعندما كتب مقردة لأنواع اللغات وتصاريقها واشتقاقاتها بحيث يسهل عليهم نقل ما يريدون من أى لغة كانت إلى لغتهم في أقرب وقت »

### قسم الفلك

وقال عن قسم الفلك :

« وعند توت<sup>(١)</sup> الفلكي وتلامذته في مكانهم المختص بهم الآلات الفلكية الغريبة المثقنة الصنعة ، وآلات الارتفاعات البديعة المجدبة التركيب النالية الثمن المصنوعة من الصفر الموه ، وهي تركيب يرارم مصنوعة محكمة كل آلة منها عنة قطع تركيب مع بعضها البعض برابطات وبرارم لطيفة بحيث إذا ركبت سارت آلة كبيرة أخذت قدرأ من الفراغ ، وبها ظلمات وتغوب ينفذ النظر منها إلى الرئي ، وإذا انحل تركيبها وضمت في ظرف صغير ، وكذلك ظلمات للنظر في الكواكب وأرصادها ومعرفة مقاديرها وأجرامها وارتفاعاتها واتصالاتها ومناظراتها وأنواع المنكابت والساعات التي تسير بثواني القواني الغريبة الشكل النالية الثمن وغير ذلك »

### قسم الرسم والتصوير

وقال عن قسم الرسم والتصوير :

« وأفردوا جماعة منهم بيت إبراهيم كتبخنا السنارى ، وهم المصورون لكل شيء ومنهم أريجيو<sup>(٢)</sup> المصور وهو يصور صور الآدميين تصويراً يظن من يراه أنه بأرز في الفراغ بحسب يكاد ينطق حتى أنه صور صورة الشايخ كل واحد على حدة في دائرة وكذلك غيرهم من

الأعيان ، وعلقوا ذلك في بعض مجالس سارى عسكر ، وآخر<sup>(١)</sup> في مكان آخر يصور الحيوانات والجشيرات ، وآخر<sup>(٢)</sup> يصور الأسماك والحيثان بأشكالها وأسمائها ، ويأخذون الحيوان أو الخوت الغريب الذى لا يوجد ببلادهم فيضمون جسمه بذاته في ماء مصنوع تحفظ للجسم فيبقى على حاله وهيأه لا يتغير ولا يبل ولوحة زمنية طوله

## قسم الهندسة والطب والكيمياء

« وكذلك أفردوا أماكن للمهندسين وصناع النقائق ، وسكن الحكيم روبا<sup>(٣)</sup> بيت ندى الفقار كتنخدا بجوار ذلك ووضع آلاته ومساحه وأهوانه في ناحية وركب له تنانير وكوانين لتقطير المياه والأدهان واستخراج الأملاح وقدرت عظمية وبرامات ، وجعل له مكاناً أسفل وأعلى وبهما رفوف عليها القدور الملونة بالتركيب والماجين والزجاجات المتنوعة ، وبها كذلك عدة من الأطباء والجراحية (الجراحين) ، وأفردوا مكاناً في بيت حسن كاشف جركس لصناعة الحكمة والطب الكيماوى وبنوا فيه تنانير مهتمة وآلات تقاطير عجبية الوضع ، والآلات تصاعيد الأرواح وتقاطير المياه ، وخلاصات الفردات ، وأملاح الأرومة المستخرجة من الأعشاب والنباتات ، واستخراج المياه الجلادة والحلالة ، وحول المكان اللبخل قواري وأوان من الزجاج البلورى المختلف الأشكال والمهينات على الرفوف والسدلات ويدخلها أنواع المستخرجات ، ومن أعرب ما رأيته في ذلك المكان أن بعض التقيدى لتلك أخذ زجاجة من الزجاجات الموضوع فيها بعض المياه المستخرجة فصب منها شيئاً في كأس ثم صب عليها شيئاً من زجاجة أخرى فعلا الماءان وصعد منه دخان ماون حتى انقطع وجف ما في الكأس وصار حجراً أصفر قلبه على البرجلت حجراً يابساً أخذناه بأيدينا ونظرناه ، ثم فعل كذلك بمياه أخرى فجمد حجراً أزرق ، وبأخرى فجمد حجراً أبيضاً ، وأخذ مرة شيئاً قليلاً جداً من غبار أبيض ووضعه على السندان وضربه بالطرقة بلطف فخرج له صوت هائل كصوت القراية (البندقية) ازدهنا منه فضحكوا منا ، وأخذ مرة زجاجة فارغة

(٢٠١) يريد بالأول سافنى Savigny والثانى ردوتيه Redouté وقد تكلمنا عنها من ١٠٩ و ١١٢. والاتان ساعدا العلامة جوزفوا سان هيلير في أبحاثه في التاريخ الطبي ولهما رسوم عديدة في كتاب تخطيط مصر؟ صافنى رسم حيوانات مصر وحشرات مصر وردوتيه رسم أسماك مصر  
(٣) يريد رويه Royer كبير صيالة الجيش الفرنسى

مستطيلة في مقدار الشبر ضيقة القم فتمسها في ماء قراح موضوع في صندوق من الخشب مصفح الداخل بالرصاص وأدخل معها أخرى على غير هياتها وأزلهما في الماء وأصعدهما بحركة أنحبس بها الهواء في إحداها ، وأتى آخر بفتيلة مشتملة وأبرز ذلك فم الزجاجة من الماء وقرب الآخر الشعلة إليها في الحال ، نخرج ما فيها من الهواء المحبوس وفرق بصوت هائل أيعتاً ، وغير ذلك أمور كثيرة وبراهين حكيمة تتولد من اجتماع المناظر وملاقة الطبائع ، ومثل الفلكة المستديرة التي يدورون بها الزجاجة فيتولد من حركتها شرر يطير بملاقة أدنى شيء كشيء ، ويظهر له صوت وطققة ، وإذا مسك علقها شخص ولو خيطاً لطيفاً متصلاً بها ولمس آخر الزجاجة الدائرة أو ما قرب منها بيده الأخرى ارتج بدنه وارتد جسمه وطققت عظام أكتافه وسواعده في الحال برجة مريمة ، ومن لمس هذا اللامس أو شيئاً من ثيابه أو شيئاً متصلاً به حصل له ذلك ولو كانوا أنا أو أكثر ... ، ولم فيه أمور وأحوال وتراكيب غريبة ينتج منها نتائج لا تسمعها عقول أمثالنا .. »

## نظرة عامة

### في نظام الحكم الذي أسسه نابليون

لا جدال في أن تأسيس « الديوان » على النحو الذي شرحناه كان نواة لنظام شوري لم تكن تعرفه البلاد من قبل ، ولا سيما إذا لاحظنا أنه وضع سنة ١٧٩٨ أي في أواخر القرن الثامن عشر ، ففي ذلك الحين لم يكن النظام الدستوري مألوفاً في الشرق ، بل كان الحكم المطلق القائم على الظلم والاستبداد وأهواء الحكام هو السائد في بلاد الشرق قاطبة بل في أغلب بلاد أوروبا ، فإن الشعوب الأوروبية لم تكن إلى ذلك العهد تعرف الحياة الدستورية الصحيحة عدا إنجلترا التي كانت تتمتع بالنظام الدستوري من عهد القرن السابع عشر ، وفرنسا التي قوضت دعائم الاستبداد في أواخر الثامن عشر ، أما معظم الأمم الأوروبية فكانت لا تزال ترزح تحت نير الحكومات المطلقة

فالنظام الذي أنشأه نابليون في مصر كان إذن نظاماً جديداً في الحكم ، وفضلاً عن أنه يشبه أن يكون شورياً فإنه كان يجعل للمصرى صوتاً في حكومة البلاد

كان المنصر المصري في خلال حكم المالك بعبداً عن كل قوذا لأن هؤلاء المالك استأثروا بسلطة الحكم من جميع نواحيه ، فنظام « الديوان » بالرغم من أنه ترك السلطة العليا للفرنسيين قد أشرك المنصر الأهل في إدارة الحكومة ، وهذا شيء جديد كان له أثره في التطورات التي ظهرت في البلاد أوائل القرن التاسع عشر ، ولا شك أن نابليون بوضعه نظام « الديوان » في مصر كان متأثراً ببعض التأثير بالأنكار والمبادئ الجديدة التي أوحى بها الثورة الفرنسية إلى أذهان الناس

إن نابليون كان قبل كل شيء قائداً عظيماً طموحاً إلى الفتح والسططان ، لكنه في الوقت نفسه وليد الثورة الفرنسية ، كما كان جنود فرنسا أبناء ذلك الانقلاب العظيم الذي أعلن حقوق الإنسان وقرر حرية الشعوب ، فكم الثورة كان لم يزل يحقق على الجيوش التي ساقها الجمهورية الفرنسية إلى ميادين القتال ، يحمل في طياته مبادئ الحرية الجديدة ، وهذا وحده كان كافياً لفتح عيون الأمم والمجاعات وتشوقها لنظام جديد قائم على أساس الحرية والحق ، وسهما تقلبت فكرة الفتح والاستعمار في رؤوس القواد والفانحين فإنهم مضطرون أن يماروا الروح الجديدة التي ولتها الاقلابل والثورات في نفوس الجماهير والجماعات ؛



اعتبر ذلك فيما أعلته جيوش الثورة الفرنسية البلاد التي فتحتها كالبليجيك والبيمونت ولومبارديا وإيطاليا من أنها جاءت لنصرة مبادئ الحرية وتحطيم أغلال الاستعباد لتجندب إليها قلوب الشعوب في تلك البلاد ، كذلك فعل نابليون حينما جاء مصر ، فإنه عمل على اجتذاب قلوب المصريين تخاطبهم بلهجة الود ووعدهم في منشوراته وبياناته بأن يجعل زمام الحكم في أيديهم ، وبذلك استثار الروح القومية في نفوس المصريين ، فكان في هذه المنشورات شيئا بالرئيس ويلسن الذي قام في الحرب المالية الأخيرة يعلن للأمم مبادئه للشهورة في حرية الشعوب وحققها في تقرير مصيرها ، فإن إعلان هذه المبادئ والمعهود قد استثار روح الاستقلال والحرية في الشعوب قاطبة بالرغم من إخلاف ويلسن لوعوده وعهوده للأمم

فنابليون قد استثار الروح القومية المصرية في منشوراته وبياناته للمصريين ، على أنه في الوقت نفسه قد أثارها باعتدائه واعتداء جنوده على البلاد وأهلها ، لأن هذه الاعتداءات أثارت كراهية الأمة للاحتلال الفرنسي وحملتها على مقاومته بكل الوسائل ، فكانت هذه المقاومة هي النواة التي انبثقت منها الروح القومية المصرية

ومهما قيل في مبلغ ما كانت عليه الأمة المصرية في ذلك الحين من التأخر في العلم والمدنية فإن الحملة الفرنسية وما احتاجته في نفوس المصريين من روح المقاومة قد هزت أعصاب الأمة هزة عنيفة أزاحت عن أبصارها شيئاً من الضلالة التي رانت عليها في خلال العصور

أراد نابليون إذن أن يجتذب إليه قلوب المصريين ويؤود إليهم ويكسب قلوبهم لأنه كان على يقين أنه ما لم يفرز بقوتهم وميلهم فلا يستطيع أن ينشئ على ضفاف النيل دولة عربية تخضع لحكمه ، مهما أوتي من قوة الجند والسلاح

لكن نابليون قد خلب في تحقيق هذا الأمل ، وكان إخفاقه راجعاً إلى أن الأمة المصرية لم تدعن للحكم الفرنسي ولم تطلعن إليه بحال من الأحوال ، ولم تندفع في حقيقة الأغراض التي كان يرى إليها نابليون من هذه الحملة ، وتلك فضيلة تدل على مبلغ الحيوية الكامنة في الأمة ، والواقع أن نابليون مع كل تلك الوعود التي كان يغي بها المصريين في منشوراته وبياناته لم يكن يقصد في الحقيقة إلا فتح مصر وإخضاعها لتكون أداة لتحقيق أطامعه في الشرق والغرب ، فالحملة الفرنسية قامت على أساس الفتح والاستعمار ، ومهما تمددت أساليب القوة والفتح فالأهم التي تشعر بشيء من الحياة والكرامة تأتي أن تكون مطية لأهواء الفاتحين

فنظام الحكم الذي وضعه نابليون في مصر لم يكن ليصرف نظر المصريين عن أن يروا

في الحملة الفرنسية اعتداء دولة أجنبية على بلادهم بدون حق أو مسوغ ، فهذا الاعتداء في ذاته قد أثار الروح القومية في نفوس المصريين ، وتلك أول مرة من نحو مائة وثلاثين مائة ظهرت فيها الروح القومية المصرية لمقاومة اعتداء دولة أجنبية ، والواقع أنك إذا تتبع تاريخ الحملة الفرنسية في مصر تجد أنها سلسلة مقاومات مستمرة من جانب المصريين ضد الحكم الفرنسي ، بحيث لم يستقر للفرنسيين حكم ولم يهدأ لهم روع في السنوات الثلاث التي قضوها في مصر

ولا نزاع في أن إغراض الأمة المصرية عن السكون لتأبليون والاستئمان لعوده هو في ذاته برهان على صدق نظر الأمة أو بالأقل على ما انطوت عليه من سلامة الفطرة إذ لم تقبل أن تكون أداة مسخرة لتحقيق أطاع نابليون ، ولقد دل تاريخ هذا الفاتح العظيم على أنه لم يريد بعوده لأمة من الأمم التي فتح بلادها ، بل كان يهزأ بحرية الأمم ويتخذ من الشعوب سلعة يساوم بها تحقيقاً لأطماعه في الفتح والسلطان ، فالأمة المصرية قد برهنت إذن على حيوية كبيرة في مقاومتها للحملة الفرنسية ، ولم يفت مؤرخي الحملة حتى من هؤلاء الفرنسيين التنويه بهذه الحقيقة وحسبانها فضيلة للشعب المصري

وفي هذا الصدد يقول السيد مارتان Martin أحد مهتدي الحملة وأحد أعضاء لجنة العلوم والفنون الذين صحبوا نابليون إلى مصر<sup>(١)</sup> : « بالرغم من احتلال الفرنسيين لمصر مضر فائهم لم يستقر لهم قرار في البلاد ، وكان مركزهم فيها ضعيفا وعفوا بالتأعب ، ولم يترك الأهالي وسيلة لمقاومة السلطة الفرنسية إلا اتباعوها ، وقد ذهب كثير من الفرنسيين ضحية هذه المقاومة »

وقال في موضع آخر : « إن دعاة الفتنة ما فتشوا يشعلون نار الثورة في مختلف أنحاء القطر المصري ، وقد اتخذ المصريون شعارهم ذلك البلبا المشهور الذي أعلنته فرنسا وهو أن مقاومة الاستطهاد هي أقدس واجبات الشعب »

يقول السيد ريبو Reybaud<sup>(٢)</sup> :

« كانت هناك عقبات وطنية ودينية تحول دون همة المصريين بحكمهم الجدد (الفرنسيين) ، قد كان من الصعب أن توجد أمة تبلغ بها المذاجة مبلغ أن تنتظر الخير من جيش يركب متن البحار ويستهدف للأخطار ويحتل بلادها ويخوض فيها غمار الحرب لجرد الدفاع عن

(١) في كتابه ( تاريخ الحملة الفرنسية في مصر ) الجزء الثاني

(٢) في كتاب التاريخ العلى والحرق للحملة الفرنسية جزء ٢

مصالحها ، ولا يمكن أن تؤثر المنشورات والكتلث الفخمة فى تغيير حالة الشعب النفسية ، لذلك كان الوجه البحرى بالرغم من احتلاله وانهمامه غير خاضع ولا مستسلم ، وكثيراً ما تمردت القرى التى مربها الجيش الفرنسى ورفضت علم الثورة »

هذا ما كتبه كاتبان فرنسيان فى وصف الحالة النفسية للأمة ، وفيه كما ترى تمجيد لروح المقاومة التى ظهرت فى نفوس المصريين

والآن وقد انتهينا من الكلام عن نظم الحكم التى أسسها نابليون فلتكلم تفصيلاً عن المقاومة الأهلية فى عهد الحملة الفرنسية

# الفصل الخامس

## المقاومة الأهلية

### في عهد الحملة الفرنسية

كانت حكومة الديركتوار تظن قبل تجريد الحملة على مصر أنها لن تلقى مقاومة من جانب المصريين لما وقّر في الأذهان وقتئذ من ميلهم إلى الهدوء وخفض الجناح وصبرهم على مظالم الحكماء ، هذه الفكرة تراها ماثلة في التقرير الذى قدمه المسيو « تاليران » وزير الخارجية الفرنسية إلى حكومة الديركتوار في ١٤ فبراير سنة ١٧٩٨ عن مشروع الحملة<sup>(١)</sup> وهو تقرير مطول بحث فيه علاقات فرنسا بمصر ، والأسباب التى تبرر الحملة الفرنسية فى نظره والمقاومة الحربية التى ينتظر أن تلقاها الحملة فى مصر ، بدأه بقوله : « كانت مصر فيما مضى ولاية من ولايات الجمهورية الرومانية ، والآن يجب أن تكون ولاية تابعة للجمهورية الفرنسية »

وقال فى كلامه عن قوة مصر الحربية : « إن أهالى مصر قاطبة يكرهون حكامهم الماليك الذين يسومونهم الظلم والاضطهاد ، وهم عزل لا سلاح معهم ، وإذا أعطاهم الماليك سلاحا بحجة الدفاع عن البلاد من الغارة الأجنبية فإنهم لا شك سيحاربون به طائفة الماليك أنفسهم ، فليس تمت خوف مقاومة أو وثبة من الأهالى »

وقال فى موضع آخر : « إن الشعب المصرى سيتلقانا بلحرمان لأنه يأمل من زمن مديد أن يتخلص من حكامه الظالمين »

هنا ما كتبه تاليران فى تقريره عن مشروع الحملة ، وذلك ما كان يتوقه أقطاب الحكومة الفرنسية حينما قرروا إنفاذ المشروع ، لكن الحوادث قد خيبت ظنونهم ، فإن المقاومة التى قىها الفرنسيون من جانب الأهالى كانت أشد من مقاومة الماليك .

والواقع ان من يتتبع سلسلة المقاومات التى قىها الجيش الفرنسى من المصريين يعجب لشدة مقاومة الأمة وقتئذ للاحتلال الفرنسى واستمرار هذه المقاومة وانفساح مداها فى أنحاء القطر المصرى ، حتى كأن ثورة عامة قد اندلعت فى وجه الفرنسيين وامتد لهيبها من أقصى البلاد

(١) هو الذى تكلمنا عنه بالفصل الثانى ص ٦٢

إلى أنصافها ، ولو قلبت صحائف الحركة القومية المصرية في خلال المائة سنة الأخيرة لما وجدت لهذه المقاومة شها سوى الحركة العامة التي ظهرت سنة ١٩١٩ عقب انتهاء الحرب العالمية الأولى قلنا إن الحملة الفرنسية قد هزت أعصاب الأمة المصرية ، فأخذت تنفض عنها غبار الجلود التي كان يحجم عليها من ركود المصور ، وإن هذه الحملة قد استثارت روح القومية واحتاجت شعور المقاومة الأهلية في نفوس المصريين ، فبدأوا يشعرون أن لبلادهم مركزا ممتازا في العالم وأن لهم كيانا يدعوهم للحفاظ عليه ، لم يكن هذا الشعور مصبوغا بالصبغة العلمية المهدبة التي نفهمها اليوم ، وذلك لما كانت عليه البلاد من التأخر في العلوم والأفكار ، لكن شعورا طبيعيا قد طاف بالنفوس واستفزها للدفاع عن كيان البلاد ، فكان من نتائج هذا الشعور سريان روح المقاومة في البلاد كلها من الاسكندرية إلى أسوان ، وقد أفردنا هذا الفصل والقصول التي تليه لسرد حوادث المقاومة في البلاد التي مر بها الجيش الفرنسي وما لقيه الأهالي من ضروب العنت والإرهاق ، وما أصابهم في سبيل المقاومة من الشدائد والأهوال ، وسنفصل ذلك متبعين من جهة سير الحملة ومن جهة أخرى حوادث كل مدينة وكل مديرية من مديريات القطر المصري بقدر المستطاع ، ليكون تحت نظر القارئ صورة مفصلة لحوادث المقاومة الأهلية في ذلك العصر ، ولتبدأ بالاسكندرية وهي أول بلد نزل به الجيش الفرنسي

## في الاسكندرية

يحسن بنا قبل أن نذكر دفاع أهل الاسكندرية عن مدينتهم أن نعهد بكلمة عن حالتها عند مجيء الحملة الفرنسية ، لتتمثلها كما كانت في ذلك الحين

### الاسكندرية عند مجيء الحملة

كانت الاسكندرية مدينة صغيرة يبلغ عدد سكانها نحو ثمانية آلاف نسمة ، عمراتها متهدم ، وبيوتها أشبه بيماني القري ، وشوارعها ضيقة كثيرة التعارج ، ومعظم سكانها قراء ، فالفرق كبير جداً بين حالتها في ذلك العصر وما سارت إليه الآن من العظمة والازدهار والاتساع والجمال ، أو ما كانت عليه قديما في عهد البطالسة إذ كانت عروس اللذات ومركز تجارة العالم يسكنها نحو ستمائة ألف نسمة ، ففقدت على مر المصور ما كان لها من الجلال والعظمة ، وما كان بها من عمران وحضارة ، وتجارة وصناعة ، وعلوم وفنون .  
ومع انتقاض معالم الحضارة فيها قد احتفظت بمكاتها إلى القرن الخامس عشر من الميلاد ،

ثم أخذت تفقد مكانتها بعد اكتشاف البرتغاليين طريق رأس الرجاء الصالح إلى الهند ( سنة ١٤٩٧ ) فقد تحول الشطر الأكبر من تجارة الهند إلى طريق المحيط الاطلنطي ، وجرمت مصر مرور تجارة الشرق ، وبعد أن كانت الاسكندرية مستودع المتاجر وطريقها بين الشرق والغرب اقتصرت تجارتها على واردات افريقية وجزيرة العرب وتغور السلطنة العثمانية والنزول اليسير من واردات الهند ، فأخذت تنزل عن مكانتها التجارية ، وأمعنت في التأخر والاضمحلال من عهد الفتح العثماني ( سنة ١٥١٧ ) إلى آخر القرن الثامن عشر حيث لم يكن باقياً من الاسكندرية القديمة سوى الاسم والاطلال النادرة ، درست معالم تلك المدينة العظيمة وتحولت إلى بلدة صغيرة تقع شمالي المدينة القديمة وتنحصر في شبه الجزيرة التي بين الميناء الشرقية والميناء الغربية المعروفة بالقديعة

كانت الميناء الشرقية تعرف وقتئذ بمرسى السلسلة ، وهذه الميناء واقعة كما هي الآن شرقي المدينة ولا تصلح لمرسى السفن أثناء اضطراب البحر ، وعلى شاطئ هذه الميناء كان يوجد المجرى ودور القنامل ، وكانت السفن الافريقية لا ترسو إلا بها ، وفي النهاية القصوى من لسان الأرض الواقع لهذه الميناء توجد القلعة المعروفة بطابية « قايتباي » التي بناها السلطان الملك الأشرف أبو النصر قايتباي في القرن الخامس عشر ، ويسمى الفرنسيون قلعة المنارة ، سموها كذلك لأنها أنشئت في المكان الذي كان به منارة الإسكندرية القديمة الممدودة إحدى عجائب الدنيا السبع ، وعلى مدخل الميناء الشرقية من الجهة المقابلة لطابية قايتباي يوجد برج السلسلة القائم أثره إلى اليوم ، وكان في داخل الميناء طابية ( قلعة ) أخرى صغيرة على الساحل ترى مكانها على الخريطة الملحقه بهذا الفصل

أما الميناء الغربية أو المرفأ الكبير فهي الواقعة إلى الغرب بين شبه جزيرة رأس التين والبر ، وفي طرف رأس التين غربا كان يوجد بطارية من المدافع لحماية الميناء ، وفي داخل الميناء برج آخر ترى موقعه على الخريطة ، وكانت هذه الميناء تصلح لمرسى السفن ، لكن الداخل المؤدية لها كان يتعذر مرور السفن الكبيرة منها ، ولم يجر إصلاحها إلا في عهد محمد علي في إسماعيل ، ومع أن الميناء الغربية أصلح لمرسى السفن التجارية من الميناء الشرقية ، إلا أن السفن الأوزوية كان يحظروا عليها الرسو إلا في الميناء الشرقية بأمر حكومة المايك ، وبالميناء الغربية توجد الترسانة ومخازن البحرية التي كانت على درجة كبيرة من التأخر والإهمال ، وفي النهاية القصوى للشاطئ خارج الميناء يوجد اللسان المعروف بجهة المعجى ، والمسافة بينه وبين رأس التين ٨٣٠٠ متر على خط مستقيم ، وتجاه هذا اللسان الجزيرة

المروفة بجزيرة المعجمى وكان بها برج يسميه الفرنسيون برج الرابط Marabout ، واسمه الصحيح برج المعجمى

ويسمى الفرنسيون جزيرة المعجمى (جزيرة الرابط) ، وهذا الاسم وارد بالفرنسية والمربية هكذا في خريطة الاسكندرية التى خطتها هنتسو الحلة الفرنسية ، وهذه التسمية فيما نعلم لا أصل لها اللهم إلا أن تكون وصفاً لا بما<sup>(١)</sup> ، والاسم الصحيح هو جزيرة المعجمى و برج المعجمى ، ويقول المسيو. فيفان دينون الذى جاء إلى مصر مع الحلة الفرنسية<sup>(٢)</sup> إن هذه التسمية ترجع إلى اسم المسجد الذى كان بالجزيرة ، والصحيح أن هذا المسجد معروف باسم مسجد الشيخ المعجمى ، لا باسم الرابط ، ويقول الجنرال ريفيه Reynier أحد قواد الحلة الفرنسية في كتابه (مصر بعد واقعة عين شمس) إن القلعة التى أنشأها الفرنسيون في جزيرة (الرابط) أقاموها حول مسجد قديم في جزيرة منفصلة عن اليابسة ، وقد رسم ريفيه هذه الجزيرة في خريطته ، وهى جزيرة المعجمى بمينها ، ويقول إن القلعة قد تحربت أثناء القتال الذى دار بين الانجليز والفرنسيين في أغسطس سنة ١٨٠١ واتتهى بتسليمها ، والمعروف أن محمد على الكبير قد أعاد بناءها ، ولا تزال آثار القلعة التى بناها باقية إلى الآن بالجزيرة ، كما لا يزال مسجد المعجمى مزاراً للناس إلى وقتنا هذا ، وقال لنا كبار السن في جزيرة المعجمى إن هذا المسجد معروف بهذا الاسم وموجود قبل عهد محمد على باشا وقبل الحلة الفرنسية

### حدود عمران المدينة

أما عمران الاسكندرية في أواخر القرن الثامن عشر فكان منحصرأ بين اليتائين كما تراه في الخريطة ، وحدود هذا العمران ينتهى شمالا في مقابلة شبه جزيرة رأس التين ، فكانت جميع الجهات الواقعة بين البحر شمالا وشارع أبى وردة إلى جامع أبى العباس بعضها مدافن وبعضها قمع ، ولم يكن بها مساكن سوى بعض بيوت للصيادين بالجهة المروفة بالسائلة ، وكان حد المدينة من الجهة القبيلية الحارة المروفة الآن بحارة الغاربة قريبا من ميدان محمد على . ويكفيك لتحكم على تناقص عمران المدينة في ذلك العصر أن تعرف موضع عمود السوارى فإنه كان يبعد عن المدينة بنحو ألف وخمسمائة متر جنوبا

(١) كلمة رابط كثيرة القبول عند الغاربة وتطلق على الأولياء الصالحين والشيخ المجاهدين

(٢) في كتابه (رحلة في الوجه البحرى ومصر العليا)

وكان للاسكندرية سور طوله الفاترى ٧٨٩٣ متراً ، يتخلله مائة برج ، وبعض هذه الأبراج غاية فى الفخامة والنعامة لا فرق بينها وبين القلاع الحصينة ، وهذا السور مشيد على الراجح فى عهد أحمد بن طولون ، وجدد بناءه السلطان صلاح الدين الأيوبي ، ثم السلطان الظاهر بيبرس<sup>(١)</sup> وسميه الافرنج سور العرب ، وهو الذى امتنع به الاسكندريون عند هجوم الجيش الفرنسى على المدينة ، ويبين هذا السور حدود عمرائها فى عهد الدول الطولونية والأيوبية والبحرية والبرجية ، وهو يحد من العمران نصف ما كان يحده سور البطالسة القديم خطط العالم المصرى محمود باشا الفلكى معالم سور البطالسة القديم ، ومن المقارنة بينه وبين معالم سور العرب يتبين أن عمران الاسكندرية وإن كان قد تناقص بعد اقراض عهد البطالسة إلا أن المدينة ظلت ماهرة إلى القرن الخامس عشر ، وقد أخذ عمرانها يتقلص فى بدء القرن السادس عشر ، وصار سور المدينة فى عهد البكوات المماليك لا يحيط إلا بفناء عظيم من الخراب قد خلا من المساكن ، فيفسر الإنسان فيه عدة ساعات دون أن يرى من معالم العمران سوى الاطلال النارسة ، ولم يبق به إلا صهاريج المياه وأربعة كفور يسكنها خدام البساتين التى بداخل السور وحراس القلاع والأبراج ، وكان معظم هذه الأبراج متخربا ، وفى السور ثغرات وقفت سببا للإهمال وسوء الإدارة

#### رسالة محمود باشا الفلكى عن الاسكندرية القديمة

ولمناسبة الكلام عن خريطة محمود باشا الفلكى قول أنه أول عالم عصرى كشف عن موقع سور الاسكندرية القديم وآثارها ، وله فى ذلك رسالة بديمة باللغة الفرنسية عن الاسكندرية القديمة طبعها سنة ١٨٦٦ ، وهى رسالة تتضمن نتائج مكتشفاته وما قام به من الثقب والحفر وما وصل إليه من كشف معالمها القديمة ، كأسوارها وشوارعها واقفيتا ومراسيحها ومتحفها ومكتبتها الشهيرة وقصورها ومبانيها وشوارعها ، ولم يسبقه إلى هذه المكتشفات المؤسسة على عمليات الحفر عالم عصرى من الافرنج ، لأن مهندسى الحملة الفرنسية لم يكن لديهم الوقت ولا الوسائل الكافية للحفر والتنقيب ، وقد بحث اثنان منهم فى مواقع الاسكندرية ، أولهما الميوسان جينيس Saint Genis أحد مهندسى الحملة ، وله فى الاسكندرية القديمة بحث مستفيض منشور فى الجزء الخامس من تخطيط مصر ، ولكن الميوسان جينيس لم ينقب ولم يحفر الأرض كما فعل محمود باشا الفلكى بل اكتفى بذكر نتائج مشاهداته وآرائه التاريخية ، وكذلك



كتب السيو جراتيان لويير Gratin Le Pere بحثاً في وصف الاسكندرية نشر في الجزء الثامن عشر ، اقتصر فيه على تدوين مشاهداته وما نقله عن مؤرخي الافرنج والعرب ، والسيو نوري Norry والسيو مارتان « Martin » وكلاهما من مهندسي الحملة الفرنسية بحثان أقل أهمية من أبحاث سان جتيس وجراتيان لويير منشوران في الجزء الخامس عشر من كتاب تخطيط مصر ، وكل هذه البحوث لم تكن مقرونة بأعمال الحفر والتنقيب

فحمود باشا الفلكي هو أول عالم عصرى خطط معالم الإسكندرية القديمة على ما كشفت له أعمال الحفر تحت الأرض ، وقد بذل في مكتشفاته جهوداً كبيرة ، وكان تحت إمرته جماعة من المهندسين المصريين ونحو مائتي عامل يشتغلون في النقب والحفريات ، ومما أفرد عمله وميزه أنه استثار الأرض في عهد الخديو اسماعيل باشا ، أى قبل أن تغطى بالمباني الحديثة وتضيق معالم الآثار ، فهو أول من خطط سور البطالسة القديم تخطيطاً مبنياً على الاكتشاف والفحص الدقيق

ورسالة محمود باشا الفلكي مقرونة بخريطة هي أيدع ما رسمه العلماء والمهندسون عن الاسكندرية القديمة ، وإليها يرجع علماء أوروبا في أبحاثهم وقد خالف علماء الحملة الفرنسية في بعض آرائهم ، فبين لمدينة كاثوب مكاناً غير الذى عينوه ، وكشف أطلال مدينة نابوزيريس<sup>(١)</sup> التى يسمى الفرنسيون برجها برج العرب

#### حالة المدينة من الوجهة الحربية

وصف الكاتب الفرنسى « فولني » Volney حالة الاسكندرية من الوجهة الحربية كما شاهدها عام رحلته إليها سنة ١٧٨٣ أى قبل الحملة الفرنسية بخمسة عشر سنة ، فقال إنها من الوجهة الحربية لا قيمة لها ولا يوجد بها قلعة ذات شأن أو خطر ، أما قلعة المنارة ( طابية قايتباى ) بأبراجها العالية فإنها لا تصلح للدفاع إذ ليس بها بيوى أربعة مدافع صالحة للضرب ، وليس فيها رماة يحسنون الرى بالقنايل ، وحاميها المؤلفة من خمسةة من الانكشارية هبط عددهم إلى النصف ، وإن فرقاطة واحدة لتكنى لهم المدينة<sup>(٢)</sup>

وقد زارها الرحالة الفرنسى السيو سافارى Savary سنة ١٧٧٧ فقال إن قلعة المنارة

(١) بوسيد غرب الإسكندرية

(٢) رحلة في مصر وسوريا بقلم فولني Volney



الإسكندرية - البناء المرفقة سنة ١٧٩٨ ، ورمى في المورة طاية ( قلعة ) فارتدى بجناها القديعة والماني التي  
كانت على التاليف في ذلك العهد ( ١٣٦ ، ١٣٩ )

لا تقوى على صد بارجة واحدة<sup>(١)</sup>، وكتب السيومور Mure قنصل فرنسا في تقريره<sup>(٢)</sup> الذى قدمه سنة ١٧٨٣ إلى الحكومة الفرنسية يرغبها في الحملة على مصر : « ان مرافق الاسكندرية خالية من القلاع والمدفعية والذخائر ، وليس بها من الجنود سوى الأهلى الذين انتظموا فى سلك الفرق العسكرية المنشأة من عهد الفتح المائى ، أما قلعة المنارة فهى فى ظاهرها نفعة ، لكنها تكاد تكون خالية من الحامية ومن الذخائر والمدفعية ، والمدافع الباقية بها لا تصلح للضرب ، ولا تستعمل إلا فى أيام الأعياد »

ففى هذه الأقوال صورة صحيحة لما آلت إليه حالة الدفاع عن الاسكندرية من الضعف والإهمال فى عهد الولاة الاراك واليكوات المالىك ، وبهم من كلام السيومور أن حامية الاسكندرية كانت مولقة من الأهلى دون سواهم ، وبهذا ففسر قول فولنى ان حامية قلعة قايتباى كانت خمسمائة من « الانكشارية » فإن هؤلاء « الانكشارية » كانوا إذن من الأهالى لا من الأراك ، وهذا يؤيد ما ذكرناه فى الفصل الأول من أن المصريين انتظموا فى سلك الوجقات ( الفرق العسكرية ) التى تألفت فى عهد الحكم المائى وبذلك اكتسبت الصبغة المحلية القومية

### ترعة الإسكندرية

تردد اسم ترعة الإسكندرية كثيراً فى الوقائع التى حدثت بالإسكندرية والبحيرة ، لذلك يجدر بنا أن نكتب كلمة عنها

كانت الإسكندرية تأخذ مائها من ترعة تنبثق من الرحمانية الواقعة على النيل وتسير مغربة شمالى دمنهور ثم تنثنى شمالا بفرب وتغرى بين بحيرة مروط وبحيرة ( أبو قير ) إلى أن تبلغ الإسكندرية ، وكانت هذه التربة تسمى ( خليج الإسكندرية ) ، انبعاثا لتسمية الترع فى ذلك العصر وما قبله بالخلجان ، وفى مكانها أنشئت ترعة الحمودية فى عهد محمد على الكبير مع اختلاف فى المآخذ والمصب<sup>(٣)</sup> ، وترعة الإسكندرية كانت موجودة فى عهد الفراعنة كما ذكر ذلك استرابون<sup>(٤)</sup> Strabon مع اختلاف فى التخطيط ، وعنى بها البطالسة لأهميتها التجارية للاسكندرية لأنها كانت طريق الملاحة بينها وبين النيل ، ونقل القرى فى خطه أن

(١) رسائل عن مصر بقلم السيوسافرى

(٢) أشرفا إلى تقريره ص ٦١

(٣) تأخذ ترعة الحمودية مياهها من النيل عند الطلف

(٤) العالم الجغرافى اليونانى القديم ولد سنة ٦٠ قبل الميلاد

أحمد بن طولون أمر بحفرها سنة ٢٥٩ هجرية (٨٧٢ — ٨٧٣ ميلادية) وإن السلطان الظاهر بيبرس جدد حفرها سنة ٦٦٢ هجرية ، وذكر أيضاً أنه في سنة ٧١٠ هـ (١٣١٠ م) جدد حفرها السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون واشتغل ٤٠.٠٠٠ عامل في حفرها وتطهيرها وأقيمت عليها القناطر والسدود وجرت فيها السفن طول السنة واستغنى أهل الاسكندرية عن شرب ماء الصهاريج وعمرت أراض وبلاد كثيرة على جانبيها<sup>(١)</sup>.

كانت ترعة الاسكندرية أعظم ترع مصر ، وقد أهمل شأنها في عصر الولاة الأتراك والبيكوات المماليك حتى جفت وارتفع قاعها عن ضعف عمقها الأصلي ، فكان لا يدخلها الماء في معظم السنين إلا في وقت زيادة النيل ثم تجف باقى السنة ، وفي مدة زيادة النيل أى في شهر سبتمبر من كل سنة تصل مياهها إلى الاسكندرية فيملأ أهلها الصهاريج ليجدوا منها حاجتهم من الماء طول السنة ، وكان أهل الاسكندرية يحتفلون بمجيء مياه التربة وتخزين الماء في الصهاريج ويتجهجون لذلك ابتهاجاً عظيماً كما يتجهج سكان القاهرة بمهرجان وفاء النيل<sup>(٢)</sup> وبطلت الملاحة فيها بعد أن كانت طريق المواصلات النيلية إلى الثغر ، فانعزلت الاسكندرية عن القاهرة وداخلية البلاد وانحطت منزلها التجارية القديمة ، على أنها ظلت ميناء القطر المصرى التجارية في البحر الأبيض المتوسط ، لا يتافسها في هذا المركز إلا دمياط ، فكانت متاجر أوروبا ترد إليها وحاصلات مصر تصدر منها ، وظلت مقصد السفن الأوروبية بسبب صلاح مينائها لإيواء السفن ، فكانت السفن تصل إليها قادمة من ثغور البندقية وليفون وراجوز ومارسليا وثغور السلطنة العثمانية ثم تنقل المتاجر منها إلى رشيد بحراً في المراكب المصرية المدة للملاحة بالنيل ، أما السفن الأوروبية فلم تكن ترسو برشيد رأساً لصعوبة اجتياز البوغاز

### عدد سكان الاسكندرية

تناقص عدد سكان الاسكندرية إلى درجة عجيبة من القلة ، فإن المسيو جومار Jomard<sup>(٣)</sup> قد قدم في ذلك العصر بخمسة عشر ألفاً ، ولكن المسيو جراتيان لوير يقدم بثمانية آلاف ، ويلاحظ لنا أن تقدير جراتيان لوير أدنى إلى الحقيقة ، لأن جومار قدر عدد سكان الاسكندرية

#### (١) الفرزى الجزء الأول

(٢) ذكر المسيو سان جنيس S. Denis أحد مهندسى الحملة الفرنسية في البحث المنشور بكتاب تخليط مصر الجزء الخامس أن عدد هذه الصهاريج في عهد الحملة كان ٣٠٨ وأنها كانت تسع من المياه ما يكفي لمدينة مدة ثمانية عشر شهراً ، وذكر محمود باشا القلبي في رساله عن الاسكندرية أن صهاريجها بلغت ٧٠٠ في عهد اسماعيل باشا

(٣) راجع ما كتبه عنه ص ١٠٤

ضمن تقديره مدن القطر المصري ، أما جزائريان لويير فقد توفّر على درس حالة الاسكندرية درساً خاصاً وأقام فيها طويلاً زمن الحملة الفرنسية وخطط مواقعها وآكارها ، وله فيها رسالة مطولة نشرت في كتاب تخطيط مصر<sup>(١)</sup> ، فتقديره فيما نعتقد أدعى إلى الثقة به ، أضف إلى ذلك أن المسيو سافاري Savary الذي زار الاسكندرية سنة ١٧٧٧ قبل الحملة الفرنسية بمشرين سنة أحصى عدد سكانها بستة آلاف نسمة<sup>(٢)</sup> ، فالأمر قريب من قريب كما ترى ، وبما يدل على دقة لويير في الإحصاء قوله ان عدد سكان الاسكندرية قد نقص في عهد الحملة الفرنسية فنزل إلى سبعة آلاف ، فهذه الملاحظة قوية الدلالة على أنه لا يتحيز في إيراد الحقائق ، ويظهر أن السبب في هذا النقص يرجع إلى اضطراب الأحوال في الاسكندرية عقب الاحتلال الفرنسي وكثرة ما فرضه الفرنسيون من الترامات والمصادرات ، وإلى الحصر البحري الذي ضربه الإنجليز عليها ، ثم ركود حركة التجارة وظهور الوباء فيها وحصار الإنجليز والأتراك لها برأ وبحراً ، فبكل ذلك نقصوا وقتلوا ، ولا زيادة على قراؤ موت أو هجرة ، فكيف بها كلها ؟

### حضور الأميرال نلسن إلى الاسكندرية

#### ثم إقلاعه

كانت الاسكندرية أول مدينة قصدها الحملة الفرنسية ، وهي كذلك أول من علم بإقتراب العارة الفرنسية قبل أن تصل إلى الثغر ، ذلك أنه بالرغم من تكتم نابليون وجهة العارة فقد تسربت أخبارها إلى البلاد ، ولا سيما بعد أن وصل نبأ استيلاء الفرنسيين على مالطه<sup>(٣)</sup> في طريقهم إلى مصر ، فطارت إشاعة عزم الفرنسيين على احتلال البلاد ، وعم السخط والهياج طبقات الشعب واستعد الناس للمقاومة ، وبينما هم كذلك حضر أسطول الأميرال نلسن إلى ميناء الاسكندرية يوم ٢٨ يونيو سنة ١٧٩٨ يفتش عن العارة الفرنسية ، لكنه لم يلتق بها لأنها تأخرت في طريقها بسبب احتلال مالطه ، فأرسل إلى حاكم الاسكندرية الوطني السيد محمد كريم بنبه إلى احتمال حضور العارة الفرنسية ، وسأله أن يأذن له في دخول الثغر ليمتار منه ، لكن الحاكم رفض طلبه ، ولعل السبب في الرفض أنه أساء الظن في مقاصد

(١) الجزء الثامن عشر

(٢) رسائل عن مصر

(٣) بعد أن رست العارة الفرنسية في مالطه ذاعت الإشاعات أن وجهة الحملة مصر فقتل قبائلين بعض السفن التجارية هذه الإشاعات إلى الثغور المصرية قبل مجيء العارة الفرنسية

الأميرال نلسن ، لأن الإشاعات التي كان الناس يخوضون فيها ذلك الحين تبيء أن «الافرنج» يترمون احتلال مصر ، وكلة افرنج كانت تتناول الفرنسيين والأوروبيين على السواء ، ومع أن الإشاعات ذاعت بأن الحملة المنتظرة حملة فرنسية إلا أن حاكم المدينة توجس خيفة لما رأى أسطولاً كبيراً يقترب من الشاطئ ، وكان لا يعلم شيئاً عن الحالة السياسية في أوروبا ، فغشى أن يكون طلب الأميرال نلسن خدعة لما صلة بالحملة المقبلة فرفض ، وظل الأميرال نلسن ينتظر بأسطوله أربعاً وعشرين ساعة ، ثم أقبلت بوارجه يوم ٢٩ يونيه متجهة إلى شواطئ الأناضول وإليك ما كتبه الجبرتي عن حضور الأسطول الانجليزي :

« وردت مكاتبات على يد السعاة من ثغر الاسكندرية ومضمونها أنه في يوم الخميس حضر إلى الثغر عشرة مراكب من مراكب الانجليز ووقفت على البعد بحيث يراها أهل الثغر ، وبعد قليل حضر خمسة عشر مركباً أيضاً ، فانتظر أهل الثغر ما يريدون وإذا بقاقي (مركب) صغير واصل من عندهم وفيه عشرة أنفار فوصلوا البر واجتمعوا بكبار البلد ، والرئيس إذ ذاك فيها والشار إليه بالابرام والنقض السيد محمد كرم ، فكلوم واستخبروم عن غرضهم ، فأخبروا أنهم انكليز حضروا للتفتيش على الفرنسيين لأنهم خرجوا بعبارة عظيمة يريدون جهة من الجهات ، ولا ندري أين قصدتم ، فرما دهموكم فلا تهدرون على دفعهم ولا تتمكنون من منعهم ، فلم يقبل السيد محمد كرم منهم هذا القول ، وظن أنها مكيدة وجاوبهم بكلام خشن فقالت رسل الانجليز نحن نقف بمراكبنا في البحر محافطين على الثغر لا محتاج منكم إلا الامداد بالماء والزاد بشمنه ، فلم يجيبوهم لذلك ، وقالوا هذه بلاد السلطان وليس للفرنسيين ولا لنيرم عليها سبيل فذهبوا عنا ، فمنعها عادت رسل الانجليز وأقلعوا في البحر ليمتاروا من غير الاسكندرية وليقضى الله أمرها كان مغفولا »<sup>(١)</sup>

في ذلك الحين كانت العارة الفرنسية تمخر المخاب قادمة إلى سواحل مصر ، وهكذا شاعت الأقدار أن ينجو نابليون وجنوده من أسطول الأميرال نلسن ، فاقتربت العارة من مياه الاسكندرية يوم ٣٠ يونيه ، وعندئذ أمر نابليون بأن تنفصل عن العارة السفينة (جونون) Junon التي كانت في طليمة الأسطول لتصل إلى الثغر وتلتق بقنصل فرنسا<sup>(٢)</sup> وتنبئ الفرنسيين في الاسكندرية بوصول الحملة ، وظلت العارة في عرض البحر دون أن تصل إلى الشاطئ ، وفي اليوم التالي (أول يوليه) عادت السفينة جونون تحمل قنصل فرنسا

(١) الجبرتي الجزء الثالث

(٢) هو مجالون الصغير ابن أخ السيوي شارل مجالون القنصل المأمور الذي كان في فرنسا وجاء مع الحملة

بالاسكندرية<sup>(١)</sup> فأنبأ نابليون بحالة الهياج الذى عم الأهالى من يوم أن علموا باقتراب الحملة، وأن الفرنسيين الذين فى الثغر أصبحوا كالزحان، وأن كثيراً من سكان المدينة مسلحون يستمدون للدفاع وأنهم قد استنجدوا بمن حولهم من الأهالى والعرب المجاورين للثغر، وأخبره كذلك بقدم أسطول الأدميرال نلسن وإقلاعه

### الحالة النفسية للشعب

عند مجيء المهارة الفرنسية

إذا أردت أن تعرف نفسية الأهالى قبيل وصول المهارة الفرنسية إلى الاسكندرية فتأمل فيما كتبه فى هذا الصدد الكاتب الفرنسى فيفان دينون Vivant Denon  
كان السيوف فيفان دينون أحد أعضاء بعثة العلوم والفنون على ظهر السفينة (جونون) التى كلف نابليون ربابها بالتقدم إلى مياه الاسكندرية لمقابلة قنصل فرنسا فى الثغر، فسمع حديث القنصل وأثبتته فى كتابه<sup>(٢)</sup> واليك ما ذكره فى هذا الصدد قال :

« قدم إلينا قنصلنا يصطحبه ترجمانه وقد خالطه الرعب بعد أن نما من القتل ومن هياج الشعب، وأخبرنا أن أسطولاً إنجليزياً مؤلفاً من أربع عشرة بارجة حربية كان بالثغر ولم يبادره إلا عشية أمس الأول، وأن الإنجليز صرحوا بأنهم قادمون للتفتيش عنا ومحاربتنا، وقد ظنهم الأهالى فرنسيين، فانفجر بركان الهياج فى البلاد كلها لشعورهم باقترابنا، وكانوا يتوقعون ذلك من يوم أن علموا باحتلالنا لمالطه، وقد استمدوا للمقاومة فأخذوا يحصنون القلاع ويزيدون عدد الجنود بالتطوعين للقتال ويجمعون جيشاً من العرب، وأن حاكم الاسكندرية ( السيد محمد كرم) لم يأذن للقنصل بمقابلتنا إلا مصحوباً ببجاعة من نوتية الاسكندرية وعهد إليهم إرجاعه إلى الثغر<sup>(٣)</sup> »

(١) يقول الجنرال برتية رئيس أركان حرب الحملة الفرنسية فى كتابه إن شواطئ مصر ظهرت فى الأفق يوم ١٢ سبتمبر (٣٠ يونيه) صباحاً حيث كانت المهارة الفرنسية تجاه برج العرب (بومير) التى تبعد عن الإسكندرية غرباً بنحو ٣٦ كيلو متراً وأن نابليون أرسل يستدعى قنصل فرنسا فى الثغر فوصل يوم ١٣ سبتمبر (أول يولي) إلى بارجة الأدميرال

(٢) رحلة فى الوجه البحرى ومصر العليا أثناء حروب الجنرال بوناپارت

(٣) ذكر هولاء الترك الذى شهد وقائع الحملة الفرنسية ودونها فى كتابه أن السيد محمد كرم كان معارضاً فى هذه اللقطة وأن أوديس بك قوسندان السفينة النمائية التى كانت راسية بالثغر هو الذى أقمع السيد محمد كرم بالتصريح لقنصل فرنسا بمخاطبة القادحين

وجاء في مذكرات الكولونل سلكوسكى أحد ضباط الحملة ما يأتى :

« وصلت منذ شهرين عن طريق الاستانة أنباء الحملة فأخذ الأمراء (الماليك) يستعدون ، ولا نعلم إلى أى حد بلغ استعدادهم ، ولكن الخبر الذى أزعجنا هو قدوم الأسطول الأنجليزى إلى الاسكندرية ومناذرتة ليأها قبل وصولنا ، وقد أزعجت له البلاد وظنه الناس أسطول الفرنسيين الذين يتوقعون حضورهم منذ مدة ، ومن يومئذ أخذ جميع الأهالى يُسدُّون العدة للمقاومة ، غمّلوا السلاح وانضم اليهم المناربة من ضواحي الثفر ومحصنوا بالأسوار بينما كان أربعمائة من الفرسان يحاربون الضواحي استعداداً للقتال ، ولم يمكث الأنجليز عيماة الاسكندرية إلا يوماً واحداً ثم غادروها متجهين شمالاً بشرق ، هذا كل ما استطعنا معرفته ، وعلنا أنهم اقتصرنا على السؤال أمستعدة البلاد لاستقبال الفرنسيين أم هى مُستعدة لهم الحرب والمقاومة ؟ »

## دفاع أهالى الثفر

### واحتلال الاسكندرية

لما سمع نابليون حديث القنصل خشى عودة الأميرال نلسن ومباغتته بأسطوله فى عرض البحر ، فأمر بالمبادرة إلى إزالال الجنود للبر ، واختار لرمى عمارته وزول جنوده جهة المعجمى (١) التى تبعد عن الاسكندرية غرباً نحو اثنتى عشر كيلو متراً ، وبدأت الجنود تخرج إلى البر ليلاً (ليلة ٢ يولييه سنة ١٧٩٨) ، وزل نابليون الساعة الحادية عشرة مساءً كما ذكر ذلك فى تقريره إلى حكومة الديركتوار ، وظل زول الجنود متراسلاً طول الليل ، وفى نحو الساعة الثانية من صبيحة يوم ٢ يولييه كان عدد الذين نزلوا بالبر نحو خمسة آلاف مقاتل من فرق الجنرالات كليبر Kleber وبون Bon ومنو (٢) Menou ، وبعد أن استراحوا قليلاً أمر نابليون أن تزحف هذه القوة على الاسكندرية من غير إبطاء لتباغت الاسكندريين فلا تدع لهم وقتاً لتنظيم الدفاع عن المدينة ، وسارت القوة منتصف الساعة الثالثة من صبيحة يوم ٢ يولييه بجذاه الشاطيء ، فوصلت تجاه أسوار المدينة عند شروق الشمس وأخذت محاصرها فى

(١) بالفاتح للتمد بين الجبى والشيخية

(٢) كان الجيش مؤلفاً من خمس فرق وهى فرقة الجنرال كليبر ، وفرقة الجنرال ديزيه ، وفرقة الجنرال بون ، وفرقة الجنرال منو ، وفرقة الجنرال ريفيه ، عنا الفرسان الذين كانوا تحت قيادة الجنرال دوماس Dumas ثم الجنرال مورا Morat







الضحية<sup>(١)</sup> ، ووقف نابليون على قاعدة عمود السوارى وأخذها معسكره العام رقب منها حركة الهجوم ويصدر أوامره لقواد جيشه

أما أهالى الاسكندرية فن ساعة أن ظهرت العارة الفرنسية عند غروب الشمس وقع فيهم الرعب وتولاهم الفرع حين نظروا وجه البحر تغطى بالراكب ، فبادر السيد محمد كرم حاكم المدينة إلى إخبار مراد بك بقبوم العارة ، وطلب منه النجدة ، وأرسل فى تلك الليلة إلى مراد بك ثلاثة عشر ساعياً ، على أن الاسكندريين قد بذلوا ما فى مقدورهم دفاعاً عن المدينة ، فخصنوا الأسوار ، وشحنوا القلاع بالميرة والسخيرة جهد ما وصلوا إليه ، وفزعوا إلى السلاح فحمله القادرون منهم ، وركبوا المدافع المتينة على أسوار المدينة استمداً للكفاح ، وعهدوا إلى جماعة من الفرسان مناوشة القوات الفرنسية قبل اقترابها ، فحدثت مناوشات بين الفرنسيين والعرب ارتد على إثرها العرب جنوباً وتابع الفرنسيون زحفهم على المدينة

احتشد الأهالى الذين يحملون السلاح على الأسوار وفى الأبراج التى تتخللها للدفاع ، فلما اقترب الجيش الفرنسى وقبل أن يبدأ هجومه سعد نابليون على البروة القائم عليها عمود السوارى ( وكان العمود قبلى سور الاسكندرية ) وشاهد أسوار المدينة وماكنها وقلاعها ، ولاحظ أن بالسور رغم ارتفاعه وضخامته ثغرات كبيرة رمت حديثاً ربما يدل على العجلة ، ورأى أهالى الاسكندرية محتشدين بأعلى الأسوار مشاة وركبانا ، رجالاً ونساء ، كباراً وصغاراً ، ومعظمهم مسلحون بالبنادق والرماح ، فأصدر أمره بالهجوم العام ، وأخذ الأهالى يطلقون النار من المدافع المركبة على الأبراج والأسوار إطلافاً من غير إحكام ، فأحاط الجنود بأسوار المدينة وهاجموها من ثلاث جهات ، الجنرال منو من الغرب حذاء الشاطئ ، والجنرال يون من جهة باب رشيد ، والجنرال كليبر من باب سدره ، واندفخوا إلى الأسوار ، فقابلهم الأهالى بإطلاق النار إطلافاً شديداً من المدافع والبنادق ، وقاومت الأبراج مقاومة عنيفة ، لكن المدافعة لم تدم طويلاً ، فافتحم الجنود الأسوار ودخلوا المدينة ووصلوا إلى الجهة المسكونة منها ، وكانت مقاومة الأهالى قد فدتهم بالخسائر ، فهاجموا الناس فى بيوتهم ، فدافع هؤلاء عن أنفسهم وأخذوا يطلقون الرصاص من البيوت على الجنود المهاجمين ، وكاد نابليون نفسه

(١) جاء فى مذكرات الجنرال كليبر ما يأتى : « نزلنا إلى البر على شاطئ الماراط ( الجمى ) الساعة ١١ ليلاً فبدأنا نرتوى من ماء بئر قريبة ثم استرخنا ساعة واستفرغت فى النوم إلى أن انطفئ البرد وسرنا نحو الساعة الأولى بعد منتصف الليل صوب الاسكندرية ، وبدأنا نهاجمها يوم ١٤ سبتمبر ( ٢٠ يولي ) فى نحو الساعة العاشرة صباحاً »

بصاف برصاصة قاتلة ، لولا الحظ الذى نجاه من الموت ، قال بورين Bourienne سكرتيره الخاص فى هذا الصدد : « دخل بونا بارت المدينة من حارة لا تكاد لصيقها تسع اثنين يمران جنباً للجنب ، وكنت أرافقه فى سيره ، فأوقفتنا طلقات رصاص صوبها علينا رجل وامرأة من إحدى التوافذ ، واستمرا يطلقان الرصاص ، فتقدم جنود الحرس وهاجوا المنزل برصاص بنادقهم وقتلوا الرجل والمرأة <sup>(١)</sup> »

وخشى نابليون حدوث المفاجى فى المدينة وهو الذى أعلن أنه إنما جاء لمحاربة المالك ، فأمر جنوده أن يكفوا أيديهم ، واستدعى ادرس بك قومندان السفينة العثمانية التى كانت راسية بالبحر ، وطلب إليه أن يقطع أهل المدينة بالكف عن القتال ويبلغهم أنه إنما جاء لمحاربة المالك <sup>(٢)</sup> ، فبلغهم القومندان الرسالة ، وكف الأهالى عن المقاومة مذعنين للقوة القاهرة ، وظل السيد محمد كريم يدافع بعد دخول الفرنسيين المدينة معتمداً بطايبه قايتباى ومعه فريق من المقاتلة ، إلى أن كُت قواه ورأى المقاومة عبثاً لا يجدى ، فكف عن القتال وسلم القلعة ، فتلقاه نابليون لقاء كريماً ، وأبقاه حاكماً للاسكندرية ، وبذلك سلمت المدينة بقلعها وأسوارها ومراقها إلى الفرنسيين ، ولم يكن بد من التسليم ، لأن قوة الدفاع كانت أضعف من أن تقاوم جيش نابليون وهو فى عتفوانه وقوته ، وشرعت السفن الفرنسية فى مساء اليوم الذى احتلت فيه المدينة تنزل بقية جنودها وأحمالها فى الميناء القريبة

كتب الجنرال برتية <sup>(٣)</sup> فى رسالته إلى وزارة الخارجية الفرنسية بتاريخ ٦ يولييه سنة ١٨٩٧ يصف احتلال الفرنسيين للاسكندرية فقال : « ان الأهالى دافعوا عن أسوار المدينة دفاع المستعيت ، وقد أصيب فى هذه الموقعة الجنرال كليبر بعيار نارى فى جبهته ، فخرج جرحاً بليئاً ، وأصيب الجنرال منو بضربة حجر أسقطته من أعلى السور فثأته رضوض شديدة ، وأصيب الأجدوان جنرال إسكال Escalé بجرح يبلغ فى ذراعه من عيار نارى ، وقتل اللواء ماس Mas وخمسة ضباط آخرون »

وكتب الجنرال منو إلى نابليون يقول : « ان الجنود يستحقون الثناء العظيم على ما بذلوه من الإقدام والمهمة والذكاء وسط المخاطر العظيمة التى كانت تحيط بهم لأن الأعداء (الأهالى)

(١) مذكرات بورين سكرتير نابليون الخاص الجزء الأول

(٢) قبل أن يجهل نابليون الإسكندرية أرسل إلى الوالى التركى (أبو بكر باشا) وإلى ادرس بك قومندان السفينة العثمانية رسالتين يرب فيها عن مقاصد الودية نحو السلطان وضمن أنه إنما جاء لمحاربة المالك ، وقد نصرنا هاتين الرسالتين فى قسم الوثائق التاريخية

(٣) رئيس أركان حرب الحملة الفرنسية

قد دافعوا عن المدينة بشجاعة كبيرة وثبات عظيم»  
وقدر نابليون خسائر الجيش الفرنسي في مهاجمة الاسكندرية في رسالته إلى حكومة  
الديركتوار بثلاثين إلى أربعين قتيلًا ، وثمانين إلى مائة جريح ، وقدرها بعد ذلك في مذكراته  
بثلاثمائة بين قتيل وجريح ، وقدر خسائر الاسكندريين بسبعمائة إلى ثمانمائة بين قتيل وجريح ،  
وأمر بدفن قتلى الفرنسيين حول عمود الموارى باحتفال عسكري كبير ، ونشئت أسماؤهم على  
قاعدة العمود

### رواية الجبرتي عن احتلال الاسكندرية

إليك ما ذكره الجبرتي عن رسو المهارة الفرنسية واحتلال الاسكندرية :  
« فلما كان يوم الأربعاء العشرون من الشهر المذكور ( محرم سنة ١٢١٣ )<sup>(١)</sup> وردت  
مكاتبات من الثغر ومن رشيد ودمشقر بأنه في يوم الاثنين ثامن عشر وردت مراكب وعمارات  
للفرنسيين كثيرة ، فأرسوا في البحر وأرسلوا جماعة يطليون القنصل وبعض أهل البلد ، فلما  
أُزِلوا إليهم عوقبهم عندهم ، فلما دخل الليل تحولت منهم مراكب إلى نجمة المعجم وطلعوها  
إلى البر ومعهم آلات الحرب والساكر ، فلم يشعر أهل الثغر وقت الصباح إلا وهم كالجراد  
المنتشر حول البلد ، ففتنوها خرج أهل الثغر ومن انضم إليهم من العريان المجتمة وكاشف  
( حاكم ) البحيرة ، فلم يستطيعوا مدافعتهم ، ولا أمكنهم بمناعتهم ، ولم يثبتوا لحربهم وانهمز  
الكاشف ومن معه من العريان ، ورجع أهل الثغر إلى التترس في البيوت والحيطان ،  
ودخلت الافرنج البلد ، وأثبت فيها الكثير من ذلك العدد ، كل ذلك وأهل البلد لهم بالي  
يدافعون ، وعن أقبيهم وأهلهم يقاتلون ويمانعون ، فلما أعيام الحال ، وعلفوا أنهم يأخذون  
بكل حال ، وليس ثم عندهم للقتال استمداد نخل الأبراج من آلات الحرب والبارود وكثرة  
العدو وغلبته ، طلب أهل الثغر الأمان فأمنوهم ، ورفضوا عنهم القتال ومن حصونهم أزلوهم ،  
ونادى الفرنسيين بالأمان في البلد ورفع بندرياته عليها »

### سياسة نابليون

#### في الاسكندرية

كانت الاسكندرية أول مدينة مصرية زلها نابليون وواجه فيها المصريين ، فزم على أن

يتبع فيها المياسة التي رسمها من قبل ، وهي جمالة الأهالي ومحاسنتهم واجتنابهم إليه بالكلم الطيب والوعود الحسنة ، لذلك بادر عقب احتلاله الاسكندرية إلى دعوة مشايخ المدينة وأعيانها لملابته ، فلما اجتمع بهم أعرب لهم عن غنمه السمادة والرفاهية للشعب المصري ، وأوضح لهم أنه لا يقصد بالأهالي سوءاً ، وطارحهم الرأي في إصلاح حالة البلاد ، وواتهم على الاطمئنان على حياتهم وأموالهم وأن لا يحاربوا الجيش الفرنسي وأن يكونوا موالين للجمهورية الفرنسية ، ورد إلى السيد محمد كريم الذي استبسل في الدفاع عن المدينة سلاحه وقال له في مجلس من أعيان المدينة : « لقد أخذتكم السلاح في يدك ، وكان لي أن أعاملك معاملة الأسير ، ولكنك استبسلت في الدفاع ، والشجاعة متلازمة مع الشرف ، لذلك أعيد إليك سلاحك وأمل أن تبدي للجمهورية الفرنسية من الإخلاص ما كنت تبديه لحكومة سيئة »<sup>(١)</sup>

حضر المسيو فيفان دينون هذا المجلس وأثبت في كتابه<sup>(٢)</sup> أقوال نابليون للسيد محمد كريم ووصفه بقوله : « لقد لاحظت على ملامح هذا الرجل الذكاء والهاء وكأنما كان يكتم عواطفه عنا ، على أنه بدت عليه علامات التأثر من الغزو الذي أسداه إليه القائد العام » وصوره في مجموعة رسومه

وعقب اجتماع نابليون بأعيان المدينة أذاع منشوره الذي كان أعده من قبل ، وقد بسطنا الكلام عنه في الفصل الثاني ، وأطلق سراح أسرى ماله ليوزعوا نسخاً منه في البلاد ، فلم يكن من الأهالي إلا أن قابلوها هذا المنشور بالإذعان ، لا اقتناعاً به ، ولكن نزولاً على حكم القوة ، وأذاع نابليون أمره في الجند وحزبهم عقابه إذا لم يحترموا الشعائر الدينية للأهالي ، ونهاهم أن يترضوا لهم في أموالهم وأملأهم

وقبل أن ترسو المارة على سواحل الاسكندرية بعدة أيام أمر نابليون بإذاعة منشور على الجنود يوصيهم فيه باحترام شعائر المصريين الدينية وعدم التعرض لتساؤمهم ومخزهم من الاعتداء على أموالهم وبيوتهم ، وفرض عقوبات شديدة لجرائم النهب والاعتداء<sup>(٣)</sup> ، وبعد احتلال الاسكندرية أصدر الجنرال برتييه رئيس أركان الحرب أمراً بتاريخ ٣ بوليه يتضمن تعليمات القائد العام في هذا الصدد وأمها « أن القائد العام يريد أن يستمر الأهالي يؤدون شعائرهم الدينية في المساجد كما كانوا من قبل ، ويحظر على الفرنسيين جميعاً من عسكريين وملكين دخول المساجد أو الاجتماع على أبوابها ، وعليكم أن تأمروا ضباط الفرق بأن يتلوا هذا

(٢، ١) كتاب رحلة في الوجه البحري ومصر العليا

(٣) نصرتنا هذا المنشور في قسم الوثائق التاريخية

الأمر على جنودهم وأن يسيدوا أمراً القائد العام الخاص بمقاومة النهب والتصدى على النساء،  
وعليكم أن تدموا رميةً بالرصاصة كل من يخالف هذه الأوامر ، ومن المهم أن يدفع كل  
جندى من الجنود عن ما يتنازع في المدينة وأن يحافظوا على أموال الأهالي وكرامتهم ، وعلينا  
أن نكتسب صداقتهم وأن لا نمادى سوى المالك »

كانت نتيجة مقابلة نابليون لزعما الأهالي أن كتبت في يوم ٤ يولييه وثيقة باليهود التي  
أخذها الفريقان كلاهما على الآخر ، وإليك نص الوثيقة :

« هذا ما تم الاتفاق عليه بين أعيان الاسكندرية الموقعين بأسمائهم وبين رئيس الأمة  
الفرنسية والقائد العام للجيش المسلح بالمدينة

« يستمر الأعيان على العمل بقوانينهم والقيام بشعائرهم الدينية وفض المنازعات بينهم مع  
مراعاة العدل والابتعاد عن مساك الهوى ، ولهم أن يختاروا القاضي الذي يتولى القضاء في  
حكمة الشرع من خيار العلماء للشهود لهم بالاستقامة والتقوى ، وعليه أن لا يقضى في أمر  
إلا بعد الرجوع إلى رأى مجلس العلماء

« ويجتهد الوقفون على هذا في إقامة العدل ويبذلون ما في وسعهم لتحقيق هذا الغرض ،  
وسيمولون جهودهم لما فيه صالح البلاد وتوفير أسباب السعادة للأهالي ومحاربة الأشرار  
والمفسدين ، ويتعهدون كذلك أن لا يخونوا الجيش الفرنسي وأن لا يعملوا عملاً يضر مصالحه  
وأن لا يشتركوا في مؤامرة تدبر ضده ، وتعهد لهم القائد العام من جهته بأن يمنع كل جندى  
من جنوده من التمدى على أهالي الاسكندرية ، ويعلن أن من يرتكب من الجنود عدواناً  
أو ظلاماً ينكل به ويماقب بأشد أنواع العقوبة ، ويتعهد القائد العام علناً بأن لا يجبر أيّاً من  
الأهالي على تغيير دينه وتغيير شعائره الدينية فإن مقصده هو إقرار الأهالي في دينهم واطمئنانهم  
على أنفسهم وأموالهم وسيبذل في هذا السبيل كل ما لديه من قوة ما داموا لا يقصدون به  
ولا يبيحونه سوءاً »

هذا الاتفاق مؤرخ ٢٠ محرم سنة ١٢١٣ ( الموافق ٤ يولييه سنة ١٧٩٨ ) وموقع عليه  
بالأسماء الآتية :

« إبراهيم البرجي مفتي الحنفية ، سليمان الكلاف مفتي المالكية ، محمد السبري ، أحمد  
عبد الله الشافعى ، حسن كاتيد ، عباس القويسى ، مصطفى محمد »

لم نجد لهذا الاتفاق ذكراً في تاريخ الجبرتي ولا في أى مرجع آخر من المراجع العربية

ولذلك ترجمناه عن الأصل الفرنسى الوارد فى لاجونكير<sup>(١)</sup> ، وقد أورد الجبرى مقابلته نابليون لأعيان الاسكندرية ولم يذكر فيها إلا طلبه جمع السلاح وتعليق الشارة الفرنسية المثلثة الألوان (الكوكارد) على صدورهم ، وإليك ما قاله الجبرى :

« وطلب أعيان الثغر خضروا بين يديه فألزمهم بجمع السلاح وإحضاره إليه وأن يضعوا الجوكار فى صدورهم فوق ملبوسهم ، «والجوكار» ثلاث قطع من جوخ أو حرر أو غير ذلك مستديرة فى قدر الريال سوداء وحمراء وبيضاء توضع بعضها فوق بعض بحيث تكون كل دائرة أقل من التى تحتها حتى تظهر الألوان الثلاثة كاللوائى المحيطة بعضها ببعض» ، ولم نجد فى الجبرى ذكراً ولا بطريق الإشارة لأحد من الموقعين على هذا الاتفاق سوى الشيخ محمد السيرى ، فقد ذكره فى عرض الكلام عن ولاية على باشا الطرابلسى ، فأثنى عليه ووصفه بالمعلم وقال عنه إنه «أجل مذكور فى الثغر»

#### أوامر نابليون وتعليماته قبل مغادرة الاسكندرية

قبل أن يرحل نابليون يبعثه على القاهرة عين الجنرال كبير قومننداناً وحاكماً للدارة الاسكندرية وضواحيها ، والجنرال مانسكور Manscourt قومننداناً للموقع ، والقبطان لبلاى Le Pelley قومننداناً لليناء ، وعهد إلى الكولونل كريتان Cretin تحصين ثغر الاسكندرية وترميم قلاعها القديمة وإنشاء قلاع جديدة لجعلها بأمن من البوارج الانجليزية وبعد الجنرال كبير من أكفأ قواد الحملة الفرنسية وكان قائد فرقة من الفرق المدة للزحف على القاهرة ، لكن الجراح التى أصابته يوم احتلال الاسكندرية حالت دون اشتراكه فى الزحف ، فأبقاه نابليون بالاسكندرية إلى أن يشفى من جراحه ، ووكّل إليه شؤون الدفاع عنها والإشراف على إدارتها ، وترك بها حامية من الجنود<sup>(٢)</sup> ، وعين فى الوقت نفسه الجنرال منو Menou حاكماً لرشيد ، وكانت إصابته كذلك سبباً فى تخلفه عن اللحاق بالجيش الزاحف فى داخلية البلاد ، وقد شامت الأقدار أن كبير ومنو قد توليا على التعاقب القيادة العامة للجيش

(١) حلة مصر الجزء الثانى ، وهذا الكتاب مطبوع سنة ١٨٩٩ ، وقد رجنا إلى كتاب السيوتيبودو Thibaudau المطبوع سنة ١٨٢٨ فوجدنا به هذه الوثيقة مع زيادة بعض المبارات التى أضفناها فى الترجمة ومع اختلاف بسيط فى أسماء الموقعين عليها ، فإن تيبودو لم يذكر سوى أسماء إبراهيم البرجى مفتى الحقيقة ، وعبد السيرى ، وأجد (وله أحد عبد الله العاضى) ، وسليمان الكلاف مفتى المالكية (٢) تتألف هذه الحامية من ٦٥٠٠ جندي يضاف إليهم ٣٠٠ من بحارة السفن التى أقلت الجنود أى أن مجموع الحامية يبلغ نحو ٩٥٠٠ رجلاً



الفرنسي عقب سفر نابليون إلى فرنسا كما سيحيى بيانه  
ولما أزمع نابليون مناصرة الاسكندرية ( يوم ٧ يولييه سنة ١٧٩٨ ) أوصى الجنرال كليبر  
أن « ينزل كل ما في وسعه لاستيقاء العلاقات الحسنة مع الأهالي وإبداء كل أنواع الاحترام  
للمعتن ورؤساء الشايج في المدينة » ، ومع ذلك فإن نابليون قد فرض على المدينة بعد احتلالها  
غرامة حرية قدرها ١٥٠ ألف فرنك ( ستة آلاف جنيه ) ، وهي غرامة فادحة إذا قيس  
بما كانت عليه المدينة في ذلك الحين من الفقر والتأخر الاقتصادي  
وقبل أن ينادر الاسكندرية أمر بإبقاء السيد محمد كريم حاكماً لها وأعرب له عن ارتياحه  
لمسلكه الذي اتخذه من يوم قدوم الجيش الفرنسي ، وكتب له الخطاب الآتي يوم مناصرة  
الاسكندرية :

« إلى السيد محمد كريم  
« المسكر العام بالاسكندرية في ١٩ مسيدور من السنة السادسة ( ٧ يولييه سنة ١٧٩٨ )  
« لقد سر القائد العام سزوراً تاماً من الخطة التي سلكها السيد محمد كريم منذ قدوم  
الجيش الفرنسي ، وإعراباً عن هذا السرور يعينه في وظيفة محافظ دائرة الاسكندرية ، وستصل  
إليه أوامره بواسطة الجنرال كليبر القومندان العام للجهة ، وهذا لا يمنعه من أن يرسل القائد  
العام رأساً متى شاء ، وعلى الجنرال كليبر أن يطلب منه كل ما تقتضيه مهام الجيش الفرنسي  
وبوليس دائرة العرب . بونابرت <sup>(١)</sup> »

### موقف كليبر في الاسكندرية

ينزل الجنرال كليبر ما في طوقه واستخدم كفايته وجهده لتوطيد مركز الفرنسيين في  
الاسكندرية من الوجهتين العسكرية والإدارية ، على أنه فشل في مهمته ، ولم يكن ينظر إلى  
مقامه بالاسكندرية بين الارتياح لأنه كان من القواد الذين يطمحون إلى نيل المجد في ميادين  
القتال ، لا بين أسوار المدن ، ولقد كتب إلى نابليون يقول <sup>(٢)</sup> إنه يعتبر الاسكندرية منفى له  
ويرجو منه أن يتقده من منفاه في عاجل الوقت ، وإنه وإن كانت جراحه لا تلتئم قبل شهر  
يئيد أن ذلك لا يمنعه من السفر إلى القاهرة والحق بفرقة  
إن مهمة كليبر في الاسكندرية كانت شاقة لأن حالة الحرب جعلت الاسكندرية في شبه

(١) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٧٨٥

(٢) رسالة كليبر إلى نابليون بتاريخ ١٢ يولييه سنة ١٧٩٨

حصار بحرى شل حركة السفن وعطل التجارة التى هى أكبر مورد لثروة الأهالى ، لذلك أخذ الكساد يضرب فى المدينة وتشتد المفاقة والضيق بالأهالى فيزداد تدمرهم وسخطهم من الاحتلال الفرنسى ، ولقد شكّا كليبر غير مرة من هذه الحال إلى نابليون وأعرب له عن خيبرته فى دفع عطاء الجنود ، لأن موارده المالية لا تقسح لمرتباتهم ، وكان الأهالى من ناحيتهم لا ينفكون ينظرون إلى الفرنسيين بعين اللقّت والكراهية ، والجنود من جهتهم لا يكبحون لأنفسهم جماحاً ، بل كانوا يهتفون من النكر والمدوان ما يؤجج نار الكراهية ويشير الحفيظة عليهم فى نفوس الناس ، ذكر كليبر فى رسالته إلى نابليون<sup>(١)</sup> أن بحارة الأسطول قد خربوا ضواحي (أبو قير) فكانوا يقتصبون ثمار الأشجار ويقطعون النخيل من جذوعه ، وقد لقت كليبر نظر الأميرال « بروس » قومندان الأسطول إلى كفههم عن هذا العدوان قائلاً له : « إنكم تهدرون عواقب هذا السلوك فى إثارة روح الكراهية فى نفوس الأهالى فى الوقت الذى نحن محتاجون فيه إلى كسب قلوبهم » ، وكان بعض الجنود فى المدينة يخرج على النظام ويرتكب السرقات ، وبالرغم من حكمة الجنرال كليبر وأناة وبذله الجهد فى تحسين علاقة السلطات الفرنسية بالأهالى فإن روح السخط كانت كلمته فى جوانحهم ، والواقع أنهم ما رضخوا للحكم الفرنسى إلا إثمناً للقوة وكانوا يتحيتنون الفرص للمقاومة والوثبة ، وقد وقعت حادثة فى يوم ١٣ يولييه سنة ١٧٩٨ كادت تقضى إلى هياج عام لولا ما اتخذ الجنرال كليبر من الحكمة والحزم ، فقد قتل فى هذا اليوم أحد جنود مدفعية الأسطول ، ولم يعرف قتله ، ووجدت جثته ملقاة فى الشارع ، وفى الوقت نفسه ألقى فى البحر خادم أحد الضباط فأت غرقاً ، حصلت الحادثة فى وقت واحد ، فترأى الخبر فى المدينة وتحفز الناس للهياج ، فأتخذ كليبر وسيلة الشدة فى معالجة هذه الحادثة ، فاعتقل بعض أعيان المدينة بصفة رهائن وأستدعى حاكم المدينة الوطنى (السيد محمد كريم) والقاضى الشرعى وكبار الأعيان وطلب منهم البحث عن الجناة ومعاتبتهم طبقاً لقوانين البلاد ، وتهدد بشنق من تقع عليه القرعة من الرهائن إذا لم يعاقب الجانى فى خمسة أيام ، وتهدد السيد كريم وزعماء المدينة بتعقب الجناة ومعاكبتهم ، لكن البحث لم يؤد إلى نتيجة ما ، وتبين أن القاتل اسمه السيد أحمد قد نجا بنفسه وأفلت من القصاص فحوكم غيائياً بالمحكمة الشرعية وحكم عليه قاضى الاسكندرية بالقصاص بحضور مجمع من العلماء وأعيان المدينة ، وكتب بذلك إعلام شرعى .



المدد يزداد كلما تعمقنا في السير وقد شتتتا هذه الجوع بالرماس ولم تقف سوى قتيل واحد وجريح ، وقد داخلني الشك من الاتفاق بين هجوم هذا الجمع علينا ومناذرتنا للاسكندرية ، وخيل لى أن هناك اتصالاً بينهم وبين أهالى الاسكندرية ، ثابتت الكتيبة سيرها ووصلت إلى دمنهور ، وكنا فى خلال هذه السافة محرومين من الماء حرماناً تاماً ، وكان من المستحيل علينا ونحن فى الاسكندرية أن نحصل على جل واحد أو قرية واحدة لحل الماء على رغم أوامر الجنرال كليبر ، وبلغت بنا الحال أنه فى يوم تحرك الفرقة اختفت الجمال من الاسكندرية ، ثم عادت إلى الظهور فى شوارع المدينة غداة مسيرنا ، مما يدل على أن هناك تواطؤاً بين الأهالى وأصحاب الإبل »

لقيت الكتيبة عتاً ومشقة فى طريقها إلى دمنهور ، فقد كان الأهالى لا يزالون يذكرون اعتداء الجنود على القرى أثناء زحف الجيش إلى القاهرة فكانوا يقابلون الفرقة بما استطاعوا من أنواع المقاومة ، ولما دخلت دمنهور لقيت بها تمرداً شديداً حيث اجتمع من الأهالى نحو ستة آلاف<sup>(١)</sup> ممدّين للقتال وقد غصت بهم الطرق والشوارع وتغطت أسطح المنازل ، فرأى قائد الكتيبة أن من الخطر الاستمرار مع هذه الجوع ، فألقى دمنهور بعد أن قتل بعض جنوده وصمدت المدافع الفرنسية هجوم الجوع الثائرة وانسحب إلى بركة غطاس وهناك استقى الجنود من الماء وهاجمهم العرب ثانية فاعتزمت الكتيبة أن ترجع إلى الاسكندرية وتمدل عن متابعة سيرها إلى رشيد وذلك لما عانت من المتاعب والنارات فى طريقها ، رجعت أدرابها إلى الاسكندرية مضغضة منهكة القوى بعد أن خسرت ثلاثين بين قتيل وشريد ، وأخفت شر إخفاق فيما قصدت إليه ، وأخذ الأهالى يتعقبونها حتى وصلت الاسكندرية يوم ٢٠ يولييه ، وكانت جموع العرب والأهالى لا تفتأ تحشد حول أسوار الاسكندرية متشجعة بما حل بفرقة الجنرال ديموى من الخسائر وقتلت بعض الجنود الماطلين بجمه عمود السوارى وجرحت جندياً آخر ، فاضطر الجنرال كليبر إلى إنشاء مخافر على الأكبلت المشرقة على المدينة لمنع توالى الهجمات وحماية السرايا (المخيمات) المسلحة التى كانت ترود الضواحي ، وقد فتكت هذه السرايا بقوة من العرب على مقربة من باب رشيد يوم ٢٣ يولييه قتل منهم ثلاثة وأربعين رجلاً

لم يكن الفرنسيون يتوقعون هذه المقاومة بل كانوا يظنون الأهالى قد أخذوا واستكانوا ، قال الجنرال ديموى فى تقريره : « إني أسف كثيراً لأنى لم أجد فى جولتى هذه مصرى واحداً يحمل الشارة الفرنسية » ، واستنتج من حوادث دمنهور أن هناك مخازرات سرية بين الاسكندرية

والذين التي مرّت بها الفرقة ولاحظ أن أهالي دمهور كانوا على علم بقسود الفرنسيين قبل وصولهم مُعَدِّين لحربهم ما أعدوا

### مسألة السيد محمد كريم

والقبض عليه ومحاكمته

بدأت القيادة الفرنسية من ذلك الحين ترتّب في نيات السيد كريم حاكم الاسكندرية وتنهيه بمخاتته للجمهورية وبمآلاته عليها وإثارة الهياج والعصيان في نفوس الأهالي ، وكانت عودة كتيبة الجنرال ديموى بالحالة التي وصفناها والخسائر التي لحقتها قد نالت من هيبة الجيش الفرنسى في الاسكندرية ، فأراد الجنرال كليبر أن يستعيد هذه الهيبة بعمل يتطوّل على البأس والشدة ، فأمر بالقبض على السيد محمد كريم يوم ٢٠ يولييه ، أى يوم عودة كتيبة ديموى ، وبعث به إلى ظهر السفينة « ديبوا » التي كانت بالاسكندرية ، فأقلته إلى ( أبو قير ) حيث كان الأسطول الفرنسى راسياً ، واعتقل بالبارجة ( أوريان ) سفينة الأدميرال برويس

اتهم كليبر السيد محمد كريم بأنه كان له يد في المقاومة التي لقيتها كتيبة الجنرال ديموى ، وكان السيد كريم قبيل القبض عليه قد دافع عن أهل المدينة لمناسبة وضع سلفة لإجبارية على تجار التمر يدفعونها للجيش الفرنسى ، فمارض السيد كريم في تقرير هذه السلفة وتلكأ في اللواقعة عليها ومساعدة السلطة الفرنسية في تحصيلها ، فأمرها كليبر في نفسه ، ولما عادت كتيبة الجنرال ديموى وتحقق منه مالحق الجنود من الخسائر بسبب توالى هجوم الأهالي عليهم سامت ظنونهم في السيد محمد كريم وموقفه ، واجتمعت كل هذه العوامل فأفضت إلى القبض عليه وإساده من المدينة

أراد كليبر بإبعاد السيد محمد كريم عن الاسكندرية أن يقضى على نفوذه الأدبى بين الأهالي ويضعف أملمهم في عودته ، كتب كليبر إلى الأدميرال « برويس » قومندان الأسطول الفرنسى بتاريخ ٢٠ يولييه سنة ١٧٩٨ يخبره نبأ اعتقال السيد محمد كريم ويقول : « لقد رأيت أن أهوان هذا الرجل ييقون ما بقوا آملين عودته إذا هو ظل قريباً من المدينة ، لذلك رأيت قطعاً لهذا الأمل أن أرسل به إليك لتستقله على ظهر البارجة ( أوريان ) » (١)

(١) ذكر الجبّرى في كتابه ما يشير إلى هذه الواقعة فقال :

« فلما حضر الفرنسيون وتزلوا الاسكندرية قضاوا على السيد محمد للذكور وطالبوه بالمال وجسوه في مركب » ، فرواية الجبّرى صحيحة تؤيدها الرابع الفرنسى

وقد أوصى في رسالته الأميرال برويس بأن يحسن معاملة السيد محمد كرم في اعتقاله وأن يأمر إذا شاء بأن تؤدي له التحية العسكرية إلى أن يعرض أمره على القائد العام . يقرر في شأنه ما يراه ، وكتب إلى السيد كرم يوم اعتقاله خطاباً قال فيه :

« إلى لم أقصد من إرسالكم إلى بارجة فرنسية إلا أن أمكنكم من أن تلحقوا بالقائد العام ، وعلى ذلك بعثت بكم إلى قومندان الأسطول الفرنسي ليسهل لكم الوصول إلى القاهرة من طريق النيل ، فإذا وصلتم إلى مقابلة القائد العام أمكنكم أن تثبتوا له أنكم تستحقون ما وضعه فيكم من الثقة ، وفي انتظار سفركم أرجو أن تبلغوني ما ترغبونه وسأمر بأن لا يمنع عنكم كل ما تطلبون » ، وقد تلقى الأميرال برويس قومندان الأسطول الفرنسي أسيره بالاحترام وأكرم مشواه ، وكتب عنه إلى نابليون في رسالته التي بعث بها إليه بتاريخ ٢٦ يولييه — ولعلها آخر رسالة منه قبل كارثة ( أبو قير ) — فقال : « أرسل إلى الجنرال كليبر منذ ثلاثة أيام حاكم الاسكندرية الوطني فأفردت غرفة كبيرة له ولخاشيته وأزلته زُجْلاً كريماً ، وأنى أعمله بكل رعاية واحترام معتقداً أنى بذلك أحقق رغباتكم إلى أن تصدروا أمركم في شأنه وتبتوا في معيره »

وفي يوم اعتقال السيد محمد كرم جمع الجنرال كليبر أعيان المدينة وأبلغهم خبر القبض عليه للريبة في إخلاصه للجمهورية الفرنسية ، وطلب إليهم أن يختاروا حاكماً للمدينة بدلا عنه ، فوقع اختيارهم على السيد محمد الشوربجي الترياني ، ووعدوا بمعاونته في تاديبه وظيفته ، وقد كان موقف الحاكم الجديد دقيقاً حرجاً لأن السيد محمد كرم كان محبوباً محترماً من الأهالي ، وقد زاد في احترامه اضطراره السلطة الفرنسية له ، فإذا كان يستطيع خلفه أن يفعله في وظيفته ؟ كتب الجنرال كليبر إلى نابليون رسالة<sup>(١)</sup> فهم منها حالة الحاكم الجديد النفسية . قال :

« أخبرني السيد محمد الترياني قبل أن يقبل وظيفة المحافظ ( الحاكم ) أن أهالي الاسكندرية يختلفون عن سائر أهالي القطر بأنهم أصعب مراساً وأقرب إلى القلق والهياج ، وأبدى لي بعض استدراكات وملاحظات تخص إدارة المدينة ، فأجبتة على ملاحظاته بأن الرجل الذي يتنبأ بمصاعب الوظيفة جدير به أن يعرف كيف يضطلع بها ويتغلب عليها ، وبذلك أقنئته بقبول المنصب »

وقد قبل السيد محمد الترياني وظيفة المحافظ ، وكان الشيخ محمد المبسرى كبير علماء المدينة

---

(١) بتاريخ ٢١ يولييه سنة ١٢٩٨ لتسبب القبض على السيد محمد كرم وتعيين السيد محمد الترياني بدله

بماوته في عمله وكان أول عمل طلبه كليبر منهما أن يساعد على تحصيل السلفة الإجبارية التي فرضها على تجار المدينة فطلبها منه إقراض هذه السلفة فقرض منها عن خمسة عشر ألف فرنك يحصلها من إيراد الجمارك

عرض الجنرال كليبر في آخر رسالته أمر السيد محمد كريم على القائد العام ورغب إليه في أن لا يأمر بعودته إلى الاسكندرية خوفاً من أن يستفحل أمره ويتضاعف نفوقه في نفوس الأهالي ، وقد أقر نابليون عمل الجنرال كليبر وأرسل إليه بتاريخ ٣٠ بوليه خطاباً من القاهرة جاء فيه : «إني لا أوافق على اعتقال كريم وحسب بل أمرت فوق ذلك باعتقال أشخاص آخرين» ، والواقع أنه أصدر في هذا اليوم منشوراً عسكرياً يعلن استيائه من سلوك أهل الاسكندرية وأمر بأن يطلب من جميع الأهالي على اختلاف أجناسهم تسليم أسلحتهم إلى قومندان الموقع ، ومن يتأخر منهم عن تنفيذ هذا الأمر بعد ثمان وأربعين ساعة من نشره فجزاؤه الإعدام ، وأمر بهدم منزل الشخص المتهم بقتل الجندي الفرنسي ، وباعتقال خمسين شخصاً يكونون رهائن وجسمهم على ظهر الأسطول إلى أن يستوفى من سلوك أهل الاسكندرية<sup>(١)</sup>

وفي اليوم نفسه أصدر أمراً آخر يفرض ضريبة ثلثائة ألف فرنك على تجار الاسكندرية بحسب منها الثلاثون ألف فرنك التي فرضها الجنرال كليبر والباقي يجب استصفاؤه وجمعه في ٢٤ ساعة من نشر هذا الأمر<sup>(٢)</sup> وأرسل إلى الأميرال بروس كتاباً في شأن السيد محمد كريم يفتيه فيه بأنه قد تحقق حياته وأمره على ذلك أن يكبله في الحديد ويسد عليه كل منفذ حتى لا يهرب ، وأن يسجن أتباعه وحاشيته ويرسلهم مخفوفين إلى الجنرال كليبر بالإسكندرية ، وأرسل إلى الجنرال كليبر صورة هذا الكتاب ، وأمره أن يقتل كل من يق في منزل السيد محمد كريم من الحاشية وأن يختم على داره وعلى أملاكه ، وقال له في كتابه إنه علم من قدموا له الأدلة على خيانة كريم أن أمواله مطمورة في بئر بالإسكندرية وأن عنده دفتر فيه بيان أمواله وأملاكه وأن بعض خنمه يعرفون مقادير هذه الأموال وموضعها ، ولكنه أن يقرر هؤلاء الخدم متفرداً بكل منهم وأن يهدم ماشاء لينوحوا بما ليسهم من الأسرار ، وإذا دفع السيد كريم في ثمانية أيام مبلغ ٣٠٠ ألف فرنك فيبقى معتقلاً على ظهر إحدى بوارج الأسطول حتى لا يجد مفرأً ويرسل إلى فرنسا حين تمرض فرصة قريبة ، وإذا لم يدفع بالأقل ثلث المبلغ

(١) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٨٨٢

(٢) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٨٨٣

المفروض عليه في خمسة أيام فعلى الجنرال كليبر أن يأمر بقتله رسمياً بالرصاص<sup>(١)</sup>  
على أن رسالة نابليون لم تصل للأميرال برويس ولا إلى كليبر لأن الرسول الذى كان  
يحملها وهو الكاتب جوليان Julien قتل في الطريق

وأرسل الأميرال برويس في ٣٠ يولييه السيد محمد كرم إلى رشيد ليبعث به الجنرال منو  
من هناك إلى القاهرة ، وكان برويس لا يفتأ يعامل السيد كرم بالاحترام حتى إنه كتب إلى  
منو كتاباً من البارجة (أوربان) يبينه فيه أن السيد كرم ألح عليه في أن يرسله إلى نابليون  
ويقول : « إنى لم أستطع أن أرفض رجاءه التكرار البالغ نهاية التلطف وأرجوكم إذا نزل برشيد  
أن تاملوه باحترام » ، كتب هذه الرسالة إذ كان لم تصله أوامر نابليون

وصل السيد محمد كرم إلى رشيد مطلق السراح<sup>(٢)</sup> ، وكانت منزلته في نفوس المصريين  
قد عظمت بسبب اعتقاله ، وانتشرت محبته في كل مكان ، فلم يكدهم أهالى رشيد بمقدمه حتى  
سارعوا إلى ملاقاته بالحفاوة والتكريم مما اضطر الجنرال منو إلى القبض عليه والإسراع  
بإرساله إلى مصر

كتب منو إلى نابليون يقول : « إن السيد محمد كرم حضر إلى رشيد يوم ٣٠ يولييه ،  
فخدمت حركة كبيرة في المدينة للحفاوة به وتهنئته ، وحيال هذه المظاهرة رأيت القبض عليه  
وإرساله إلى القاهرة »

## الحالة في الإسكندرية

### بعد اعتقال السيد كرم

أخذ الأهالى إلى السكنية بعد اعتقال السيد محمد كرم وكفوا عن المظاهرات العدائية  
التي كانت تبدو منهم ، فكتب الجنرال كليبر إلى نابليون يقول (٣١ يولييه) : « تسود السكنية  
مدينة الإسكندرية بعد اعتقال السيد محمد كرم ، ولم تعد تنتشر إشاعات سوء القلقة للخواطر  
والثيرة لروح الهياج ، وأقبل كل إنسان على عمله »

---

(١) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٩٢٦  
وجاء في يوميات أركان حرب الجنرال كليبر أن الجنرال أمر اللجنة الإدارية بمجرد أملاك السيد محمد كرم  
وأمواله في منزله وفي مخازنه فوجدوها خالية وقد اعتقل كليبر عم السيد محمد كرم وشقيقه وهو دينا كان موضع  
عنته واستعصر الاثنين الآخرين وتهديداً بالإعدام إذا لم يبرحوا موضع أموال السيد كرم  
(٢) هذا مستفاد من رسالة منو إلى كليبر التي يقول فيها : « لقد أقيمت القبض هنا على السيد محمد كرم  
الذى أطلق سراحه من البارجة (أوربان) وسأبحث به غداً إلى القاهرة محموراً بقوة كافية »



وقد ازداد مركز الفرنسيين توطدا في الإسكندرية عقب ورود أخبار انتصار نابليون في معركة الأهرام ودخوله القاهرة ظافراً

ورجت هذه الأنباء من طريق رشيد في رسالة بث بها الجنرال منو إلى كليبر بتاريخ ٢٧ يولييه ، فأثرت هذه الأنباء في روح الأهالي المنوبة وأضعفت فيهم روح التمرد والقاومة ، وأقام الجنرال كليبر حفلة تكريم كبيرة ابتهاجاً بهذا النصر ، على أن هذه الحالة ما لبثت أن تبدلت بعد أن وقعت واقعة « أبوقير » البحرية التي تحطم فيها الأسطول الفرنسي ، فتفثرت نفسية الشعب تنمياً محسوساً على قدر ما شدت منها تضعف الفرنسيين

### إعدام السيد كريم



السيد محمد كريم  
حاكم الإسكندرية الوطني حين مجي  
الحملة الفرنسية

سافر كريم على ظهر سفينة من سفن الجيش أقلت به من رشيد يوم ٤ أغسطس ، وكان على ظهرها جماعة من أقطاب الحملة الفرنسية ، منهم بوسليج Poussielgue مدير الشؤون المالية ، والسيو استيف Esteve مدير الخزانة ، والوظفون الذين تحت رآستهم يحملون خزانة الجيش إلى القاهرة

وصلت السفينة إلى القاهرة يوم ١٢ أغسطس مساء ، وظل السيد كريم مسجوناً رهناً بالتحقيق ، وكان الجنرال ديبوي Dupuy قومندان ( حاكم ) القاهرة يتولى أمر التحقيق معه ، فاستجوبه في الهمة الوجهة إليه وهي مراسلته لمراد بك وغيره من المالك وعرب البحيرة ، وإنهى التحقيق بثبوت الهمة عليه ، وأصدر نابليون أمره في ٥ سبتمبر سنة ١٧٩٨ بإعدامه رمياً بالرصاص ، ومصادرة أملاكه وأمواله ، وسمح له أن يقتدى نفسه بدفع غرامة ثلاثين ألف ريال <sup>(١)</sup> في أربع وعشرين ساعة ، فلم يقبل السيد محمد كريم أن يدفع هذا المبلغ ، وأظهر جلاً

وشجاعة أمام حكم الإعدام ، فقد نصحه المستشرق فانتور Venture كبير ترجمة الحلة الفرنسية بأن يدفع الغرامة وقال له : « إنك رجل غنى فإذا يضريك أن تقتدى نفسك بهذا المبلغ » فأجاب السيد محمد كريم : « إذا كان مقدوراً عليّ أن أموت فلا يعصمني من الموت أن أدفع هذا المبلغ ، وإذا كان مقدراً لي الحياة فلأعلم أدفعه »<sup>(١)</sup> ، وظل على إصراره إلى أن نفذ عليه الحكم رمياً بالرصاص في ميدان الرملة يوم ٦ سبتمبر سنة ١٧٩٨

ومن غرائب القدر أن السيد محمد كريم غادر البارجة (أوريان) يوم ٣٠ يولييه قبل أن تفرق ويموت من بها في واقعة « أبو قير » بيومين ، فتجا من الكارثة التي حلت بالأسطول الفرنسي يوم أول أغسطس ، ولكن القدر الذي نجاه من الموت في « أبو قير » قد أسلمه إلى يد الجلاد في القاهرة ، ولكل أجل كتاب « وما تدرى نفس بأى أرض تموت »

وقد ذكره الجبرتي في وفيات سنة ١٢١٣ فقال عنه : « مات الوجه الأجل الأمل السيد محمد كريم السكندري مقتولاً بيد الفرنسيين » ، وذكر عن منشأه أنه كان قبانياً في الثغر وعنده خفة في الحركة وتودد في المعاشرة فأحبه الناس واشتهر ذكره في ثغر الإسكندرية ورشيد ومصر « وقلده مراد بك أمر الديوان والجارك بالثغر ونفذت كلمته وأحكامه » أى أنه عينه حاكماً للإسكندرية ومديراً للجارك بها ، وفصل الجبرتي خبر مقتله ، وروايته تختلف عن رواية « بورين » و « ريو » التي اعتمدنا عليها والتي نعتقد أنها أرجح من رواية الجبرتي ، لأنها واردة في معظم المراجع الفرنسية ومنقولة عن شهود الواقعة من الفرنسيين ، قال الجبرتي : « ولما حضر الفرنسيون ونزلوا الإسكندرية قمعوا على السيد محمد المذكور وطالبوه بالمال ، وضيّقوا عليه وجبّسوه في مركب ، ولما حضروا إلى مصر وطلّعوا في قصر مراد بك وفيه مطالعة بأخبارهم ( أى رسائل السيد كريم عن أخبارهم ) والحك والاجتهاد على حربهم وتهوين أمرهم وتنقيصهم ، فاشتد غيظهم عليه ، فأرسلوا وأحضروه وجبّسوه ، فتشفع فيه أرباب ( أعضاء ) الديوان عدة مرار ، فلم يمكن ، إلى أن كانت ليلة الخميس فحضر إليه مجنون Magallon وقال له المطلوب منك كذا وكذا من المال ، وذكر قدراً يجزى عنه ، وأجله اثنتي عشرة ساعة وإن لم يحضر ذلك القدر وإلا يقتل بعد مضيها ، فلما أصبح أرسل إلى الشايخ وإلى السيد أحمد المحروقي ( كبير تجار القاهرة ) فحضر إليه بعضهم فترجم وتداخل عليهم واستفاث ، وصار يقول « اشتروني يا مسلمين » وليس بيدكم ما يفتدونه به ، وكل إنسان

(١) ريو . التاريخ العلمى والحربى للحلة الفرنسية . الجزء الثالث . وانظر كذلك مذكرات بورين سكرتير نابليون الجزء الأول

مشغول بنفسه ، ومتوقع لشيء يصيبه ، وذلك في مبادئ أمرهم ، فلما كان قريب الظهر وقد انقضى الأجل أركبوه سحاراً واحتاط به عدة من المسكر وبأيديهم السيوف السلولة ويقدمهم طبل يضربون عليه وشقوا به الصليبة ، إلى أن ذهبوا به إلى الرميطة ، وكتفوه وربطوه مشبوحاً وضربوا عليه بالبنادق كعادتهم فيمن يقتلونه ، ثم قطعوا رأسه ورفعوها على نبوت وطاقوا بها في جهات الرميطة والمناذى يقول « هذا جزاء من يخالف الفرنسيس »

فالتلاف بين رواية الجيرقى ورواية بورين وريو هو في موقف السيد محمد كرم يعد الحكم عليه بالإعدام ، ولو كانت رواية الجيرقى صحيحة لما قلت الفرنسيين أن يذكروها ولما ذكروا رواية تشرف خصما لهم حكموا بإعدامه ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن رواية « بورين » ترجح رواية الجيرقى لأن الجيرقى لم يكن شاهد عيان لواقعة إعدام السيد كرم ، بل يفتل على الظن أنه كان منزوياً في بيته بالصناديق في ذلك اليوم المصيب ، أما المسيو بورين فقد شهد الواقعة ويقول في مذكراته إنه هو الذى أوعز إلى المسيو فانثور أن ينصح للسيد كرم بدفع الترامة<sup>(١)</sup> ، فأبى دفعها ، فرواية « بورين » كما ترى هي رواية شاهد عيان وهي أدعى إلى الثقة وأقرب إلى الواقع

وقد كان إعدام السيد محمد السيد كرم قسوة لا مبرر لها حتى في نظر بعض الكتاب الفرنسيين ، ذكر تيبودو Thibaudeau في كتابه<sup>(٢)</sup> خلاصة هذه الحادثة وعلق عليها بقوله : « إن إعدام هذا الشريف هو أول عمل من التصرفات المديدة التي وجهت فيها التهم إلى نابليون أثناء حلة مصر ، فإن النفوس الحساسة قد تأثرت للخاتمة المحزنة التي انتهت بها حياة ذلك الشريف النزيه الذى أعدم بأمر القائد المام ، على أن الجزال كثير كان أول من اقتنع بخيائته للجمهورية ، وهو الذى قبض عليه وآتهم لدى يونابرت »

(١) مذكرات بورين الجزء الأول

(٢) تاريخ نابليون حلة مصر الجزء الأول طبع سنة ١٨٢٨

## الفصل السادس

### في البحيرة

كانت البحيرة أول مديرية اجتازها الجيش الفرنسى في زحفه إلى القاهرة ، فلاقى من وراء اجتيازه لها شتات وأهوالا ، ونال كثيراً من القرى التي مر بها الجيش أذى كبير من اعتداء الجنود ونهبهم القرى والمنازل ، وتمدحت حوادث الاعتداء حتى اضطر الجنرال برتييه Berthier رئيس أركان الحرب أن يصدر أمراً عسكرياً في ١٢ يولييه سنة ١٧٩٨ من الرحانية يذكر الجنود فيه بمنشور نابليون الذى يعلن أن الجيش الفرنسى قدم البلاد ليحارب المالك لا الأهالى ، وقال فى أمره إن بعض الجنود اقتحم منازل الأهاليين فالقائد العام يلقى تبعة هذه السيئات على ضباط الفرق ، وأوصى الجنرال برتييه الجنرال دوجا Dugua قائد الفرقة الراحفة من رشيد إلى الرحانية بأن يحظر على الجنود اقتحام منازل الأهالي أو سيد الحمام ، وكرر أمره في ١٦ يولييه بمنع سيد الحمام أو غيره من الطيور فى الطرق أو فى النيطان ، ونبه رجال الجيش والمساكين إلى اتباع هذا الأمر

لم تمنع هذه الأوامر تكرار اعتداءات الجنود على القرى الآمنة ، ولم يرق الضباط فى كثير من المواطن بالواجب عليهم فى منع جنودهم من النهب والاعتداء ، ويمزج كتاب الحملة الفرنسية ومؤرخوها هذا الإهمال إلى أن الجنود والضباط قد أنهكهم تعب السير من الإسكندرية إلى القاهرة ، وأجهدهم الإعياء والقيظ ، فشمروا بحمية الأمل فى مناصرتهم فى بلاد نائية كانوا يظنون أنها من أغنى بلاد العالم فوقعوا منها فى صحراء قاحلة مختلف كثيراً عن سهول لومبارديا الجبلية التي قوا فيها الرقابة ورغد العيش ، فتبرمت نفوسهم بهذه الحملة الشاقة وضعف فهم لإحساس النظام المسكرى والشعور بالواجب ، وتراخى الضباط فى كبح جماح جنودهم فكانوا يروهم يرتكبون النهب والسلب ولا تحمستهم أنفسهم بمنعهم وردم إلى حدود الواجبات والنظام

### معركة شبراخيت

١٣ يولييه سنة ١٧٩٨

قلنا فى الفصل الثانى ( ص ٦٨ ) خلال الكلام عن وقائع الحملة ان الجيش الفرنسى بلغ الرحانية يوم ١٠ يولييه سنة ١٧٩٨ وعسكر فيها ينتظر قدوم فرقة الجنرال دوجا من رشيد ،

فوصلت هذه يوم ١٢ يولييه ، ووصل معها أسطول السفن الفرنسية الخفيفة التي رافقت الفرقة في النيل بقيادة الكونت اميرال بيرى Perrée ، وهناك استمد نابليون لمهاجمة جيش مراد بك الذي جاء من القاهرة

كان جيش مراد بك مؤلفاً من نحو ١٢ ألف رجل ، منهم ثلاثة آلاف فقط من فرسان المالك ، والباقيون من الفلاحين وأتباع البكوات<sup>(١)</sup> ، وكان الفلاحون مسلحين بالبنادق والمعصى (الشارخ)<sup>(٢)</sup>

تحرك الجيش الفرنسى من الرحمانية وقضى ليلة ١٣ يولييه في ناحية منية سلامة<sup>(٣)</sup> واتخذها مؤقتاً معسكره العام ، وأخذ نابليون يتأهب للقتال ، فأمر الكونت اميرال بيرى أن يحمى بأسطوله مسيرة الجيش في هجومه على شراخيت بحيث لا يعتمد عن صفوف الجنود ، فتحركت السفن الفرنسية في الساعة الثامنة من صبيحة يوم ١٣ يولييه ، ولكن ربحاً عاصفة هبت على السفن فدفعتها عن موقع الجيش مسافة طويلة ، فالتقى الأسطول الفرنسى بأسطول المالك الذي كان يحمى ميمنة جيش مراد بك بالقرب من شراخيت

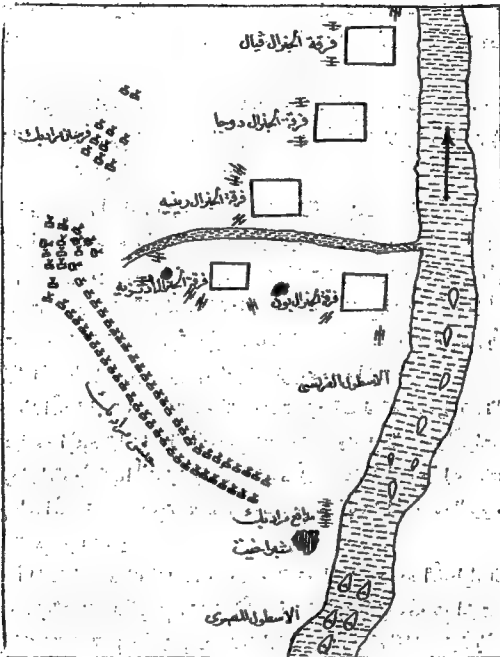
كان الأسطول الفرنسى مؤلفاً من اثنتى عشرة سفينة مسلحة وعدة مراكب قتالة تقل كتيبة من الجنود بقيادة الجنرال أندريوسى Andreossi وتحمل القنائر والأقوات ، وعلى ظهرها جماعة من أقطاب الحملة الفرنسية منهم السيو مونغ Monge والسيو برتوليه Berthollet من علماء الحملة الفرنسية وجرين Bourienne عسكري نابليون الخاص ، والسيو سوسى Sacy مدير مهمات الجيش

أما أسطول مراد بك فؤلف من عدد من السفن لا يقل عن عدد الأسطول الفرنسى يقوده القبطان خليل الكريتلى ، فتلاقى الأسطولان في النيل بالقرب من شراخيت وأخذوا يتبادلان إطلاق القنابل ، وكان مركز الأسطول الفرنسى في هذه القنابل محفوفاً بالخطر لأن ألقوا من الأهالي المسلحين على شاطئ النيل كانت تهاجمه من الجانبين ، ففرقت منه خمس

(١) هذا الاحصاء مأخوذ عن يوميات الكابتن ديوتون Deponthon من ضباط فرقة الجنرال ديزيه ، ويقول الجنرال برتنيه في تقريره الى وزارة الحربية بتاريخ ٢٤ يولييه سنة ١٧٩٨ إن عدد المالك في واقعة شراخيت كان أربعة آلاف فارس ، ويقول نابليون في مذكراته إن جيش مراد بك كان مؤلفاً من ثلاثة آلاف من المالك ، وكان مع كل مملوك ثلاثة أو أربعة من الرجال لحصنتهم وانضم اليهم ٢٠٠٠ من العرب

(٢) تهر الكابتن ديوتون

(٣) بالقرب من النيل جنوبي الرحمانية وشمال شراخيت



خريطة معركة هديرية - ١٢ يولي سنة ١٧٩٨

سفن وهوت إلى قاع النيل ، واستولى الأهالي على سفينتين مسلحتين ، وجرح الكونت إميرال  
 بيرى Perrée في جراحه جرحاً خطيراً ، ومرت لحظة كادت الدائرة تدور على السفن الفرنسية ، لولا  
 إحكام مرمى مدافعها فأصاب قنبلة منها سفينة من سفن مراد بك كان بها مستودع البازود  
 فانفجر ونسفت السفينة نسفاً ، وكان الجنرال أندروسي على ظهر إحدى الثقالات الفرنسية ،  
 فأمر بإزال جنوده إلى البر لمقاومة الأهالي الذين كانوا يطلقون النار على السفن ، فاستطاع

أن يبعد عن الشاطئ. جموع الفلاحين الذين كانوا يهاجمون الأسطول الفرنسي ، واستمر القتال ثلاث ساعات حتى حصر نابليون يمينه.

كان جيش مراد بك يركز يمينته إلى شبراخيت حيث ركب بها عدة مدافع ، وإلى النيل حيث كان أسطوله راسياً ، قرب نابليون جنوده على شكل مربعات ، فكانت كل فرقة من الفرق الخمس تؤلف مربعا ، والمدافع على زوايا المربعات ، كما تراه على الخريطة (ص ١٦٦) ، وهجم بهذا النظام المحكم على جنود مراد بك ، فكانوا مكشوفين أمام نيران المدافع والبنادق ، وأخذوا بالرغم من ذلك يهاجمون جناحي الجيش الفرنسي وجهته ، وانتشر فرسانهم في السهل ليحيطوا بالمربعات الفرنسية ، لكن نار المدافع حصدت الصفوف المتقدمة منهم ، فاقتل نظامهم وانسحبوا بشير نظام إلى شبراخيت ، بعد أن قتل منهم نحو مائتي قتيل ، فتعقبهم نابليون بيمينه واحتل شبراخيت ، وأخل شاطئ النيل من جموع الفلاحين الذين كانوا يهاجمون الأسطول الفرنسي.

وبالرغم من أن الجيش الفرنسي كان يتقصد الفرسان فإنه انتصر على قوات مراد بك لجهلها أساليب القتال الحديثة ، قال أحد ضباط أركان حرب نابليون في هذا الصدد : « لو كان جيش المالك متدربا على ضروب القتال الحديثة وقوده ضباط متمولون لأمكنهم أن يهزموا الجيش الفرنسي أو لأجبروه على التراجع إلى الاسكندرية »<sup>(١)</sup>

هذه هي المعركة التي سميت معركة « شبراخيت » ، وتلك رواية الراجع الفرنسية عنها ، ومنها يتبين أن القسط الذي احتمله الأهالي في هذه المعركة كان كبيرا ، بل كان أكبر من قسط المالك .

وإليك ما ذكره الجبرتي عن هذه الواقعة :

« في يوم الجمعة التاسع والعشرين من شهر محرم سنة ١٢١٣<sup>(٢)</sup> التي السكّر المصري مع الفرنسيين ، فلم تكن إلا ساعة وأهزم مراد بك ومن معه ، ولم يقع قتال صحيح ، وإنما هي متناوشة من طلائع المسكرين بحيث لم يقتل إلا القليل من الفريقين واحترق مراد بك بما فيها من الميخانة والآلات الحربية ، واحترق بها رئيس الطبجية خليل الكردلي ، وكان قد قُتل في البحر قتلا عجميا ، فقد الله أن علق ناره بالقلع وسقط منها نار إلى البارود ، فاشتعلت جميعا بالنار واحترق للركب بما فيه من المحاررين وكبيرهم وتطايروا في الهواء ، فلما

(١) كتاب (مبادئ الواقع والمجهات والمارك التي انتصر فيها بونابرت في إيطاليا ومصر)

(٢) يوافق ١٣ يولي سنة ١٧٩٨

عاجل ذلك مراد بك داخله الرب وولى منهزماً وترك الأهوال والدافع وتبته عساكره ونزلت المشاة في المراكب ورجعوا طالين مصر « القاهرة » ووصلت الأخبار بذلك إلى مصر فاشتد انزعاج الناس »

انتهت معركة شبراخيت بانتصار الفرنسيين كما قلنا ، وانسحاب مراد بك ، فتابع الجيش الفرنسي زحفه قاصداً القاهرة ، فربشاور ( ١٤ يولييه سنة ١٧٩٨ ) فكوم شريك ( ١٥ يولييه ) ، فملقام ( ١٦ يولييه ) ، فالطراة ، فأبي نشابة ( ١٧ يولييه ) ، فوردان ( ١٨ يولييه ) ، فأم دينار ( ١٩ يولييه )

وكان الأهالي والعرب يتعمقون فرق الجيش الزاحفة فيقتلون كل من يدركونه بمن يخلفون عن قوة الجيش إعياء أو تمعياً أو ممن ينتقلون بين مختلف القرى لتبليغ الرسائل إلى قواد الفرق ، حتى اضطر نابليون أن يشدد الأوامر على الجنود والرجال الملتصكين التابعين للحملة بعدم الابتعاد عن فرقهم <sup>(١)</sup> ، ولقى الجيش عناء كبيراً في اجتياز هذه الرحلة ، لأنه لم يكن يلقى في طريقه إلا بلاداً مقفرة أخلاها أهلها قبل قدوم الجيش وهاجروا منها بمياهم ومواشيهم ، ونهب الفرنسيون عدة قرى في طريقهم إلى القاهرة

### نهب القرى

كتب الجنرال بليار في يومياته يصف نفسية الجيش في طريقه إلى شاور : « إن روح التدمير سائدة في الجيش ، والضباط لعدم اكتراثهم بالواجب يتركون جنودهم يحرقون القرى القريبة من طريق الجيش وينهبون كل ما تصل إليه أيديهم »

جاء في يوميات الجنرال لوجيه Laugier :

« أرسلنا يوم ٢٦ مسيدور ( ١٤ يولييه ) إلى قرية ( النجيلة ) بينما كان جنود الجنرالين بون وفيال ينهبونها ، وكان صياح الأهالي وبكاء النساء ونحيبهم يسم الأذان ، وقد علم القائد العام بذلك فأمر الجنرال دوجا بالبقاء في هذه القرية حتى يعود النظام فيها وقد لاقى الجنرال دوجا صنوفات كبيرة في القيام بمهمته لأن الضباط كانوا يتدمرون من قلة الزاد وكانوا لا يقاومون تمرد الجنود »



وجاء فيها :

« صرنا على مسيرة نصف فرسخ من شاور ثم وصلنا إلى النجيلة في الظهر ، ولم يكن لدى القرية زاد ، فهبت القرية »

وجاء في يوميات الكابتن سافاري<sup>(١)</sup> عما حدث في العرانة :

« صادرتنا بعض المواشي التي وجدناها في طريقنا ، وبينما كانوا يقيدونها كان الجنود يهبون هذه القرية ويخربونها بالرغم من وجود ثلاثة من القواد جاءوا ليمنعوا هذا النهب والتدمير ، إن فرقتنا لم تكن تعمل سوى إتمام خراب القرى التي كان يمر بها الجيش ، لأن الفرق التي تقدمتنا لم تترك فيها إلا ما لا يمكن حمله أو تخريبه ، وفي بعض الأحيان كنا نرى النار مشتعلة في الفيضان قبل حضورنا بحيث لم تكن نعرف كيف نحصل على ما يلزم من التبن والشعير لخيولنا » وكتب الجنرال بليار في يومياته :

« وصلنا إلى مقربة من النيل حيث وجد الجنود الراحة تحت ظلال النخيل والجيز بسد رحلتهم الشاقة في خلال الصحراء ووصلنا إلى وهران ، وهذه القرية هي أغنى وأكثر عمراناً وأغزر سكاناً من جميع القرى التي مررنا بها ، وبالرغم من أن الجنود كانوا في حاجة إلى الراحة فإن ذلك لم يردمهم عن النهب »

وقال في موضع آخر : « خرجنا من وهران وعدنا إلى اجتياز الجهات الرملية ووصلنا إلى القطا ووجدنا الأهالي قد غادروها لما علموا باقترابنا ، ولم يأسف الجنود لذلك لأنهم لما لم يجدوا أحداً في البيوت ووضعوا أيديهم على ما وصلت إليه من التنازع وأخذوا منها ما راق لهم أن يأخذوه » هذه أقوال واعترافات القواد الفرنسيين ، على أن من الواجب أن نقول تقريراً للحقيقة إن نابليون كان شديد الاستياء من صنيع جنوده نافقاً على ما ارتكبهوه من النهب والتدمير ، تدل على ذلك أوامره التي كان يصدرها من آن لآخر في هذا الصدد

في ١٥ بوليه سنة ١٧٩٨ أصدر أمراً عسكرياً « بإعلان استيائه من سلوك الجنود من فرقة الجنرال بون والجنرال منو<sup>(٢)</sup> وفرقة للدقمية والاحتياطي لما ارتكبهوه من الإخلال بالنظام في عدة قرى ، وإن هذا الإخلال جاء في الوقت الذي هو أدعى لحسن مسلك الجنود وجاء هادماً

(١) ياور الجنرال ديزيه وقد ارتقى في عهد امبراطورية نابليون وسار لقبه اللوق روفيجو Duc de

Rovigo

(٢) هذه الفرقة كان يقودها الجنرال فيال بدلاً من الجنرال منو الذي بقى في رشيد ولقلاك ترف أحياناً بفرقة منو وأحياناً بفرقة فيال

للاثر الجيد الذى تركه سلوك الجيش من عهد نزوله بالاسكندرية »

وعندما وصل نابليون إلى وردان ومعه أركان بحره كان في شدة الغضب والنفقة على حوادث النهب ، وأمر بمصادرة القرية في الحال وكان يثأله من هذه الحوادث للقرين إليه وعنى عن البيان أن اعتداء الجنود على القرى الآمنة كان يؤخر صدور الأهالي ويُذكر فيهم ناز العداوة والبغضاء للجيش الفرنسى ، فلم يتركوا وسيلة للمقاومة إلا اتخذوها ، ونسوا مظالم حكامهم السابقين ، غما ابتلوا من فظائهم للمتدئين ، خالفوا المالك وأمدوا جيش مواد بك بما لديهم من حول وقوة .

وكان معظم السكان قد جمعوا بما حدث في القرى من النهب والاعتداء فهجروا بلادهم وعاشيتهم ومتاعهم

قال ريبو<sup>(١)</sup> : « لقد بقي الجنود تمياً واصباً من قلة الزاد ، فإن كل القرى التى على طريق الجيش كانت خالية خاوية لأن الأهالي هاجروا منها إلى داخل الدلتا ، ولا تدري أعضد الهجرة من تلقاء أنفسهم أم بتجريض المالك ، على أنهم في هجرتهم ساقوا مواشهم معهم ، ولما رأى مدير جهات الجيش القومبيسر سومنى أن قرى الشاطئ الغربى أقفرت من الأقوات أمر بعبور النيل لمصادرة الأقوات في القرى والبلاد التى بالبر الشرقى وقام بهذه المهمة الجنرال فوجييه Fugieres والجنرال زا يونتشك Zayonchek ومعهما قوة من ١٤٠٠ من الفرسان ولكنهم لم يجدوا إلا قرى خالية خاوية ، ولم يجدوا من الأقوات إلا ما يكاد يكنى بالقوة التى بلت بهم »

## الفصل السابع

### في القاهرة

لما وصل الجيش الفرنسي إلى أم دينار يوم ١٩ يوليو سنة ١٧٩٨ لم يكن بينه وبين القاهرة سوى خمسة فراسخ ، وهناك شاهد نابليون أول مرة الأهرام بعظمها الخائلة ، فأمر بإراحة جيشه يوم ٢٠ يوليو تأهباً لخوض المعركة الفاصلة ( معركة الأهرام )

### حالة الأفكار

#### في القاهرة

عند مجيء الحملة الفرنسية

الآن وقد أنفضنا إلى الكلام عن المقاومة الأهلية في القاهرة ، يجعل بنا أن ننوّر الخلاله فيها من يوم أن جاء نيا زول الفرنسيين بساحل الاسكندرية إلى أن احتلوا العاصمة

كانت القاهرة في اضطراب وفزع منذ انتهى اليها نيا رسو العارة الفرنسية في مياه الإسكندرية ، قد تأرسل السيد محمد كريم إلى مراد بك يحثه الجبر ، وكان أسلوب زسائته يلقي الرعب في النفوس ، فقد قال فيها : « إن العارة التي حضرت هذا اليوم منليك عتيدة بنا لها أول يعرف ولا آخر يوصف ، فبالله ووسوله أذكر كونا بالرجال » ، فلما تلا مراد بك الرسالة ذهب إلى زميله ابراهيم بك في قصره تجاه الروضة ( قصر التينى ) للتشاور في الأمر ، ودافع الجبر في المدينة ، فاضطربت النفوس وهاجت الخواطر وتبللت الأفكار ، واتفق مراد بك و ابراهيم بك على عقد جمعية عامة من البكوات الماليك ومن كبراء البلاد وعلمائها ، وبخبر الجمعية للوالى التركى أبو بكر باشا والبكوات والكشاف الذين كان يدهم سيطرة الحسك في ذلك العهد مثل ابراهيم بك ، ومراد بك ، ومصطفى بك ، وأيوب بك ، و ابراهيم بك الصفيوة ، ومراد بك الصغير ، وسليم بك أوديب ، وعثمان بك الشرفاوى ، ومحمد بك الأتقى ، وعثمان بك البرديسى ، وعثمان بك الطنبودجى وغيرهم ممن سترد أبنائهم في فصول الكتاب ، وجاء من العللة بالميد محمد السادات ، والشيخ عبدالله الشرفاوى ، والشيخ ستان التيوى ، والشيخ مصطفى

الصاوى ، والشيخ محمد للهدى ، والسيد خليل البكرى ، والسيد عمر مكرم قبيب الأشراف ، والشيخ محمد الجوهري ، عدا من دون هؤلاء ممن لا يمكن حصرهم

وأخذ المجتمعون يتداولون في الأمر ويستتربون قنوم هذه المارة الكبيرة ، ويتطارحون الرأي فيما يجب عمله ، وجاشت العداوة القديعة بين المالك والأتراك ، فالتفت مراد بك إلى أبي بكر باشا وقال له إن الفرنسيين ما جاءوا هذه الديار إلا بإذن من الدولة العثمانية ولا بد أن يكون عندكم علم بذلك ، ولكن الله يساعدنا عليكم وعليهم ، فأجابه أبو بكر باشا بأن هنا عيب في القول إذ لا يمكن أن تسمح الدولة العثمانية بدخول الفرنسيين إلى مصر ، وقال له منهكاً : « دعوا عنكم ذلك المقال وانفضوا واستمدوا للحرب والقتال » ، واستقر الرأي في هذه الجمعية على أن يرسلوا إلى الاستانة بخبر وصول الحملة الفرنسية ، وأن يجهز مراد بك جيشاً للالاقه الفرنسيين في طرفهم من الإسكندرية إلى القاهرة ، وأرسل الوالى التركى رسالة المجتمعين إلى الاستانة بحجة رسول بطريق البر « ليأتيه بالترىاق من المراق » كما يقول الجيبرى

سار مراد بك بجيشه في البر وبمراكبه في البحر للالاقه الفرنسيين ، وكان ما كان من هزته في واقعة شبراخيت كما قدم في الفصل السابق

### التطوع العام في القاهرة

فلما وصلت القاهرة أنباء واقعة شبراخيت وتراجع جيش مراد بك إلى امبابه أحسن الناس شراً مستظراً ، أما المالك فقد أدركوا حرج موقفهم أمام الجيش الزاحف ، فأخذوا يهتمون بشؤونهم دون الدفاع عن المدينة ويقولون أمتهم من قصورهم المشهورة إلى بيوت مسخرة لا يرفعها أحد ، واستمروا عدة ليال يقولون أمتهم ويستودعونها معارفهم وقتاتهم ، وأرسلوا بعضها للأقاليم ، كل ذلك حتى لا تصل إليها أيدي الغيرين بعد احتلال المدينة ، وبينما هم منهمكون في هذه الصنائع كان أهل القاهرة الذين طلبوا عانوا من ظلم المالك باعانوا ، فطوعوا للدفاع عن العاصمة فوجه الجيش الزاحف ، وظهر الشعب في ساعة الخطر أرقى قسماً وأنبل قصداً من حكامه الظالمين ، ففي يوم الثلاثاء ١٧ يولييه ، أى قبل معركة الأهرام بيضمة أيام : نودى بالثغير العام وخروج الناس للتاريس ، قلبى المصريون الدعوة ، وأغلقت البكاكين والأسواق ، وخرج الجميع إلى جهة بولاق للدفاع عن القاهرة ، واشتركت طوائف الشعب في التطوع ، فكانت كل طائفة من أهل الصناعات تجمع المال من أفرادها اكتباباً ويجمعون

ليرتبوا ما يصرف عليهم وما يحتاجون إليه مما جمعوا ، وتبرع بعض الناس بالإتفاق على البعض الآخر ، ومنهم من جهز بالسلاح والزاد بعض المقاتلة « بحيث ان جميع الناس بذلوا ، وسعهم وفعلوا ما في مقدورهم وطاقتهم ، وسحت نفوسهم باتفاق أموالهم فلم يشع أحد في ذلك الوقت بشيء علكه <sup>(١)</sup> » ، وختل طرق الماسة وبيوتها من كل قادر على حمل السلاح واتجهوا جميعاً نحو بولاق استعداداً كرد الجيش الزاحف على البلاد ، ولم يبق في المنازل أو الطرقات سوى النساء والصغار والضعفاء والرضى الذين لا يقدرون على الحركة « وحصل الأمر أن جميع من بمصر من الرجال تحول إلى بولاق وأقام بها من حيث نصب ابراهيم بك المُرُضى <sup>(٢)</sup> هناك إلى وقت المزعجة سوى القليل من الناس الذين لا يجدون لهم مكاناً ولا مأوى في بولاق فكانوا يرجعون إلى بيوتهم يبيتون بها ثم يصبحون إلى بولاق <sup>(٣)</sup> »

### سوء استعداد المماليك

#### وضف وسائل الدفاع

تلك كانت حالة الشعب النفسية واستعداده للدفاع من عاصمة البلاد ، ولم يكن في الإمكان أن تصبح هذه التدابير في رد جيش نابليون المجهز بالعلم والنظام والسلاح والكفاءة الحربية التي اكتسبته النصر في حروب أوروبا ، لكن أهل القاهرة لم يقصروا في الدفاع ، وإنما القصر المسؤول عن ضعف المقاومة هم طائفة المماليك الذين قضوا السنين الطوال يتخبطون في الجهل والنيابة ، لأم لم إلا ارتكاب المظالم وإتزاز أموال الناس بالباطل ، فأهلوا شأن الدفاع عن البلاد ، وتركوا القلاع التي أنشأها أسلافهم السلاطين تهدم وتضرب ، ومن ثم سرى الخراب إلى قلاع الإسكندرية وأبو قير ورشيد ومياط والبرلس والقربين ، وختل من آلات الحرب والذخائر الصالحة للضرب ، وكذلك قلعة القاهرة لم تعد في عهدهم تصلح للدفاع عن المدينة بما تولى عليها من الإهمال وقلة الاستعداد ، وحسبك أن قرأ ما كتبه فيها الرحالة الفرنسي سافاري Savary سنة ١٧٧٨ لتعرف مبلغ قوتها وحظها من الاستعداد الحربي زار السيو سافاري مصر وشهد الحرب التي قامت بين مراد بك و ابراهيم بك وبين

(١) الجبرتي الجزء الثالث

(٢) كلمة عُرُضى تعنى معنى مسكر أو جيش ومعى مأخوذة من الكلمة التركية « أوردو » أى الجيش أو القلعة

(٣) الجبرتي الجزء الثالث

حسن بك الجداوى وإسماعيل بك ، وشهد ضرب القلمة للجهة التى امتنع بها حسن بك الجداوى .  
بالدفاع : فقال إن القلمة بها ستة مدافع عتيقة ، وكان جنود الدفعية يحشون المدفع فى نصف ساعة ؛  
فكان المدفع يطلق طلقة واحدة كل نصف ساعة ، وقال تمليقاً على ذلك : « يمكنك أن تقدر  
هل مثل هؤلاء الجنود يستطيعون أن يثبتوا لحظة واحدة فى ميدان القتال بإزاء عدة صفوف  
من الجنود الأوروبية ؟ لا جرم أن الدولة الحربية التى تهاجم مصر تستولى عليها دون مقاومة <sup>(١)</sup> » ،  
هذا ما كتبه سافارى قبل الحملة الفرنسية بنحو عشرين سنة ، ومع ذلك لم يتنبه المالك يوماً ما  
لتحصين القلاع وترميمها ، بل كانوا مملوئين جهلاً وغروراً يظنون أنهم لما اشتهروا به من  
إجادة ركوب الخيل قادرون على مواجهة أقوى الجيوش المنظمة للدربة على أساليب القتال  
العلمية ، وإذا أردت أن تعرف إلى أى حد بلغ بهم الجهل والترور فانظر ما رواه عنهم كلوت بك  
فى كتابه <sup>(٢)</sup> ، فقد ذكر أنه لما استولى نابليون على جزيرة مالطة ووصلت أخبار نزول الجيش  
الفرنسى بها أراد السيوروسى Rosetti فئصل النمسا فى القاهرة وكان من كبار تجار الأفرنج  
بها وموضع ثقة رؤساء المالك أن ينهى إليهم هذا الخبر ويحذرهم عاقبته ، فقابل مراد بك  
وكاشفه بإحتال عزم الفرنسيين أن يهبطوا مصر ، ورغب إليه فى اتحاد وسائل الحيلة للجنود  
عن البلاد ، فكان جواب مراد بك على هذا التحذير أن أغرق فى الضحك وقال : « ماذا تريد  
من إحتلتنا من الفرنسيين ، ألم يكونوا أشباه الخوارج الذين رآهم بيننا ؟ أنه ليكفينى إذا زلوا  
إلى سواحل مصر فى مائة ألف من رجالهم أن أبيت لقاتلهم بعض سفار المالك ليقطعوا  
رؤوسهم بعد الركب » ، حاول السيوروسى أن يقتنه بأن الفرنسيين الذين فازوا بالنصر المين  
فى إيطاليا هم غير التجار المساكين الذين اعتاد أن يرآهم فى أسواق القاهرة ، وألم عليه بتحصين  
الإسكندرية ، فلم يُجِدْ بحذيره وأراد مراد بك أن يحاط به وسكن روعه فأرسل إلى هذا  
الفر قنطارين من البارود فقط ذخيرة لدافعيها !!

وحدث بعد ذلك بقليل أن وصل الفرنسيون إلى الإسكندرية وزلوا إلى البر واستولوا عليها  
وعلم مراد بك بهذا النبأ فاستدعى السيوروسى على الفور وقال له منضياً : إن أولئك الفرنسيين  
الوقحاء قد اجترأوا على النزول إلى هذا البر ، وطلب إليه أن يكتب إليهم على لسانه بالسارعة إلى  
الجلاد فى أقرب وقت ، فاعترض روسى قائلاً : « ولكنهم لم يأتوا إلى هنا ليمودوا كما جاءوا ،  
فهم جاءوا بشير أمرك ولا يمودون بأمرك » ، فقال مراد بك وقد تولاها الخرج : « وماذا يرده هؤلاء

(١) رسائل عن مصر بقلم السيوروسى

(٢) مجلة عامة لى مصر الجزء الثانى

الخسرة ؟ ماذا يريد هؤلاء التشرذون الجامعون ؟ إن كانوا طامعين في مال فأرسل إليهم عدة آلاف من الريالات<sup>(١)</sup> وليرحلوا ! فأجابهم روسي : ولكن هذا المبلغ لا يعدل أجرة شحن أصغر سفينة أقبلتهم إلى مصر ، والأجدر بك أن تأخذوا عدتكم للدفاع »

من هذه الرواية يتبين مبلغ غرور المالك وجهلهم وانحطاط عقليتهم ، ويدخل في هذا السياق ما رواه عنهم الجبرتي لما جاءهم الخبر بقدم أسطول الأدميرال نلسن إلى الإسكندرية للفتيش عن العمارة الفرنسية قال : « أما الأمراء (البكوات المالك) فلم يهتموا بشيء من ذلك ولم يكثرثوا به اعتقاداً على قوتهم وزعمهم أنه إذا جاءت جميع الافرج لا يقفون في مقابلتهم وأنهم يدوسونهم بخيولهم ... » وقال عن مبلغ استعدادهم وجهلهم في فن الخطط الحربية إن مراد بك « لما أرحل من الجسر الأسود أرسل إلى مصر يأمر بعمل سلسلة من الحديد في غاية التخف (كذا) والمثانة طولها مائة وثلاثة وثلاثون ذراعاً لتتصب على البوغاز (بوغاز رشيد) عند برج مغزل من البر إلى البر لتمتع مراكب الفرنسيين من العبور ليجر النيل وذلك بإشارة على باشا الطرابلسي<sup>(٢)</sup> — صديق مراد بك — وأن يعمل عندها جسرأ من المراكب وينصب عليها متاريس ومدافع »

فمراد بك في الوقت الذي احتل نابليون الإسكندرية وأخذ يسير بجيشه رأ بطريق مدهور قال حامية كان يظن أن الفرنسيين لا يستطيعون بلوغ القاهرة إلا من بوغاز رشيد ، فطلب إعداد سلسلة لمنع المراكب من دخول النيل .. وكانت هذه الفكرة غايه في الجهل حتى أن الجبرتي على قلة دراجته بالشؤون الحربية سخر منها في كتابه وقال : « إن الأمر كان بخلاف ذلك فإن الفرنسيين عندما ملكوا الإسكندرية ساروا على طريق البر الغربي من غير ممانع » وندد الجبرتي بما كان من إهمال المالك الاستعداد للقتال قبل معركة الأهرام بقوله : « هذا وليس لأحد من أمراء الصاكرمة أن ييتم جاسوساً أو طليعة تناوئهم القتال قبل دخولهم وقربهم ووصولهم إلى قضاء مصر ، بل جمع كل من إبراهيم بك ومراد بك عسكرهم ومكث مكانه لا ينتقل عنه ينتظر ما يفعل بهم ، وليس ثم قلعة ولا حصن ولا معقل ، وهذا من سوء التدبير وإهمال أمر العدو »

إذن كان أمراء المالك يركبون الجهل والنور ، وكانوا أيضاً يثقلون الحرس على النجاة

(١) في الأصل الفرنسي باتاك Pataques وهي عمدة عن كلمة (أبو طاعة) أي (الريال أو طاعة) الذي كان يعامل به في مصر

(٢) حو على باشا الجزائر الذي عينه حكومة الاسكندرية واليا على مصر سنة ١٨٠٣ ، وقتله المالك كما تراه في موضعه في الفصل الخامس عشر من الجزء الثاني

والتخاذل في أشد الأوقات حرباً ، فيما كان الجيش الفرنسي زاحفاً على العاصمة لم يكن مراد بك وإبراهيم بك على أتم وفاق ، بل كان يباعد بينهما التنافس القديم على السلطة ، ولم يخف هذا التنافس على الفرنسيين فقد علم به نابليون وهو في أم دينار يرسم الخطط ويستطلع أخبار القوة التي سيواجهها ، هناك وصلت أخبار الحفاء الذي بين مراد بك وإبراهيم بك<sup>(١)</sup> وعلم أن كلا منهما بقي يبيشه بعيداً عن الآخر ، فراد بك بالشاطيء الغربي (ر امبابه) وإبراهيم بك بالشاطيء الشرقى من النيل ، وكلاهما لا يثق بصاحبه ، فلم يكن ثمة تعاون بينهما في خطة الدفاع ، ولو اتحدا لاجتمعت قوات الاثنين في سعيد واحد بالبر الغربي أو البر الشرقى للنيل قال الجبرتي يصف نفسية المالك قبل الواقعة : « لكن الأجناد (الجند) متنافرة قلوبهم منحة عزائمهم ، مختلفة آراؤهم ، حريصون على حياتهم وتنعمهم ورقاهيتهم ، غتالون في ريشهم ، مقترون بجمعهم ، محقرون شأن عدوم ، مرتبكون في رؤيتهم ، مملودون في غفلتهم ، وهذا كله من أسباب ما وقع من خذلانهم وهزيمتهم »

### واقعة امبابه أو معركة الأهرام

( ٢١ يولييه سنة ١٧٩٨ )

ونصيب المصريين فيها

يصور المؤرخون واقعة الأهرام قتالا دار بين الفرنسيين والمالك وحدهم ، والواقع أن المصريين قد اشتركوا فيها بقدار ما ليسهم من قوة واستمداد ، وفي الحق أن قسبطهم فيها كان أكبر من قسط المالك

فلنذكر — إثباتاً لهذه الحقيقة — كيف بدأت هذه المعركة ومبلغ اشتراك المصريين فيها بعد أن انسحب مراد بك من شبراخيت وتراجع إلى القاهرة أخذ يستعد للقتال في امبابه بالبر الغربي للنيل ، وأقام للتاريس بين امبابه وبشتيل<sup>(٢)</sup> ، وكانت قواته محتدة من بشتيل وامبابه إلى الأهرام ، فيمته الجيش كانت مرتكزة على شاطيء النيل وقاعدتها امبابه التي أنشأ فيها مراد بك الاستحكامات والتاريس وركب فيها المدافع ، واليسرة تمتد قريبا من الأهرام ، وبينهما القلب

(١) انظر مذكرات الكولونل سلكوسكي ياور نابليون وعضو المجمع العلمى ، وهو الذى قتل في ثورة القاهرة كما سيحيى ياته في الفصل الثالث عشر

(٢) شمال امبابه برب



ورسا الأسطول على ساحل امباية ، وكان مؤلفا من السفن الراسية تجاه بولاك وما انضم إليها من الراكب الكبيرة والثلاثين ( الراكب الحربية ) التي قدمت من دار صناعة ( ترسانة ) الحيزة

أما ابراهيم بك فقد عسكر في بولاك على الشاطئ الشرقي للنيل ، وتفاوض مع الوالي والعملاء في إعداد معدات الدفاع فأجمعوا رأيا على إقامة متاريس من بولاك إلى شبرا ، فصار الر الترقي والر الشرقي للنيل مملوءين بالمقائلة والدفع والتاريس

### الاستعداد للمركة

في الساعة الثانية من مبيحة يوم السبت ٢١ يولييه تحركت فرق الجيش الفرنسي كلها من أم دينار واستقرت في نحو الساعة الثانية بعد الظهر بين وراق الحضرة<sup>(١)</sup> وبشقل ، فكانت الأهرام عن يمينهم ، والنيل عن يسارهم ، وأمامهم قرية امباية وفيها جوع المقائلة من المصريين وعددهم نحو عشرين ألفا جميعهم المدافع والتاريس ، وتتألف منهم ميمنة جيش مراد بك ، وفي القلب والميسرة فرسان المالك ومتطوعة القاهرة وعددهم نحو سبعة آلاف يرابطون في خط يمتد بين النيل والأهرام ، وفي أقصى الميسرة فرسان العرب فلما شاهد نابليون عن بعد قوات مراد بك أراد أن يبيت الحراسة في قفوس جنوده فخطبهم بكلمته السائرة : « تهنئوا أيها الجنود واعلموا أن أربعين قرنا من الزمان تنظر إليكم من فوق قم هذه الأهرام » ، فتمت هذه الكلمة فعل السحر في الجنود ونسوا متاعهم التي فأسوها في الطريق

وأعطى نابليون لما شاهد جيش مراد بك وقابل بين قواته وقوات خصمه ، وكيف لا يطمئن وهو قادم بجيش مؤلف من ثلاثين ألف مقاتل مزودين بأحدث آلات الحرب والقتال مدربين على خوض غمار الحروب ممتازين بالنظام وكفاية القيادة معتزين بالإنتصارات التي نالوها في ميادين القتال بأوروبا ، وأمامهم جيش يموهه الاستعداد والنظام والسلاح وكفاية القيادة ، أي ينقصه كل ما يكفل له الفوز والنظر

### سير القتال

بدأت المركة بعد أن رتب نابليون فرق الجيش على شكل مربعات ووضع المدافع على

(١) بالر الترقي للنيل شمال امباية

زولوا لكل مربع ، وكانت فرقنا الجنرال ديزيه Desaix والجنرال رينيه Reynier باليمين ، وفرقتا الجنرال بون Bon وقيال Vial باليسرة ، وفي القلب فرقة الجنرال دوجا Dugua وفيها نابليون يرسم الخطط ويصدر الأوامر ويرقب حركات الجناحين .

١ : لاحظ نابليون من استحکامات امباية أنها لم تكن على جانب كبير من الناعة ، وأن المدافع المركبة بها وعلدها أربعمون مدفعا لم تكن مركبة على مجالات بحيث تستطيع التحرك والانتقال تيمما لتطور القتال ، بل كانت مثبتة على الأرض ، فأدرك من ذلك أن اللقطة الذين في امباية لا يستطيعون التحرك بسهولة ومفاداة الاستحکامات التي كانوا متمنعين بها ، فعزم على أن يبدأ الهجوم من اليمين بعيدا عن مرعى مدافع امباية ، وأن يجعل أول هدف لهجومه قوات المالك الذين يتألف منهم قلب جيش غراد بك وميسره ليحول بينهم وبين بقية القوات الرابطة في امباية ، وبذلك يخترق صفوف مراد بك ويحيط بها ويدفعها أمامه إلى النيل ثم يشي على امباية ليستولى عليها .

وتفصيلا لهذه الخطة أمر فرقة الجنرال ديزيه ان تتقدم من اليمين تتبعها فرقة الجنرال رينيه ، فهجمت الفرقتان في طريق الحيزة ، بينها وبين امباية ، وأمر فرقة الجنرال بون وقيال (١) بالتقدم من اليسرة للاخاطة بامباية ، وقدمت فرقة الجنرال دوجا (٢) التي كان بها نابليون لتتصل بمحركات الجناحين ، فكانت الفرق الخمس التي يتألف منها الجيش الفرنسي تهاجم قوات مراد بك على شكل نصف دائرة مركزها امباية وقاعدتها النيل .

أدرك مراد بك خطر هذا الهجوم الذي كان مقصودا منه احتراق صفوفه ، فترك بامباية ألفين من المالك يشتركون في الدفاع عنها مع من بها من المصريين ، وهم بنحو خمسة آلاف من فرسانه على فرقة دوجا ، فصنفتها نار المدافع ، ثم هجم على فرقة ديزيه ليعزلها عن باقي الفرق ، وكان هجوم المالك شديدا ، لكن فرقة الجنرال ديزيه تلقت هذا الهجوم بتار كالمصواعق فصنفت صفوف المالك حصنا ، فكرر الفرسان على فرقة الجنرال رينيه ، فتلقتها مثل تلك النار الخامية ، وقد تركزت أقدام الفرنسيين من شدة هذا الهجوم لولا أن فتكت نار المدافع والبنادق بصفوف المالك ، وكان دور المدافع كالرعد القاصف والدخان علا الجوى حتى حجب وجه الشمس ، وأحصصر المالك بين فرقتي ديزيه ورينيه ، واكتفهم الموت من الجانبين ، وأرادوا الانسحاب إلى النقطة التي بدأوا بها هجومهم فتلقتهم فرقة الجنرال دوجا التي وصلت

(١) هي فرقة الجنرال منوكا يتنا ذلك جهامش ص ١٦٩

(٢) التي كانت في الأصل فرقة الجنرال كليبر

إلى النيل فحالت بينهم وبين النهر فوق المالك بين نارين ، من أمام ومن خلف ، ومات كثير من زعمائهم وشجعائهم ، وانقلبت بقيتهم من هذا للأزق فارتد جماعة منهم إلى امبابه واربد معظمهم إلى الجيزة .

أشار الجبرتي إلى هذا الدور من المعركة بقوله : « ولما كان وقت القاتلة (الظهر) ركب جماعة من العساكر التي بالبر الغربي وقدموا إلى ناحية بشقيل فلاقوا مع مقدمة الفرنسيين فكروا عليهم باليول فضربهم الفرنسيين بينادقهم المتتابعة الرمي ، وأبلى الفريقان ، وقتل أيوب بك اللقرداز (مدير الشؤون المالية) وعبد الله كاشف الجرف (من البكوات المالك) وعدة كبيرة من كشاف محمد بك الألفي ومماليكهم ، وتبهم طابور من الإفريج نحو السعة آلاف وكبيرهم ديزيه الذي ولى على الصيد بعد تملكهم ، وأما بونايرته الكبير فإنه لم يشاهد الواقعة بل حضر بعد المزرعة ، وكان بعيداً عن هؤلاء بكثير »

« بهذا ما زود الجبرتي عن هذا الدور من المعركة ، ولا يمكننا أن نمر على قوله « أن بونايرته الكبير لم يشاهد الواقعة » دون أن نبدي شيئاً من المشقة ، لأنه كيف تصور الجبرتي أن بونايرته لم يشاهد الواقعة مع أنه قائدنا ورأس خططها ومدير الأمر فيها ؟ ولا ندري من أين جاء الجبرتي أنه لم يحضر إلا بعد المزرعة وكان بعيداً عن هؤلاء بكثير مع أن بونايرته كان في القلب قرب حركات القتال ويتبع كل صغيرة وكبيرة فيه ؟ على أي وجه قلنا الرواية لا نجد شيئاً وكل ما نحوله فيها أنها « خطأ »

والآن فلنتقل إلى الدور الثاني من المعركة

أمر نابليون قوات اليسرة من جنود الجران بون والجرال فيال بمهاجمة امبابه ، فوقع الهجوم في الوقت الذي كان فرسان مراد بك يفامرون بأنفسهم بين فرقتي ديزيه وريفيه ، واشترك في الهجوم فرقة الجرال دوجافدار قتال شديد بينهم وبين المصريين والمالك وكل هؤلاء على الفرنسيين لكنهم ارتدوا أمامهم ورجعوا إلى معقلهم وحاولوا صد هجوم الفرنسيين بإطلاق النار من المدافع المركبة في استحكامات امبابه ، لكن هذه المدافع كانت من الطراز العتيق فلم تطلق قنابلها إلا مرة واحدة ولم يستطع رماها أن يسبوا الضرب بها ، فاختل نظام الجيش في امبابه وأحاط جنود الجرال رامبون Rampon ومارمون Marmón بالاستحكامات قطع خطر رجعة المصريين إلى النيل ، وتمكن الفرنسيون من تطويقها فوقع المصريون والمالك

بين نارين ، فكان العدو أمامهم والتيل من ورائهم « والريح التكنبا قد اشتد هبوبها وأمواج البحر في قوة اضطرابها والرمال يعلو غبارها وتسفها الريح في وجوه المصريين فلا يقدر أحد أن يفتح عينيه من شدة النبار » ، ووقت الهزيمة يجيش مراد بك ومات معظم رجاله قتلا أو غرقا في النيل ، واستولى الفرنسيون على أمبابة وغنموا ما بها من المدافع والاستحكامات والأسلحة والمؤن ، فلما علم مراد بك بسقوط أمبابة تحقق أن الهزيمة حلت به ففر بالباقيين من جنوده وكان عددهم نحو ثلاثة آلاف إلى جنوبي الجزيرة ، وأغرق المالك السفن المصرية التي كانت بالنيل حتى لا تقع في أيدي الفرنسيين ، وانتهت للمركة في نحو الساعة السادسة مساء بانتصار نابليون وجنوده والقضاء على قوة البلاد الحربية

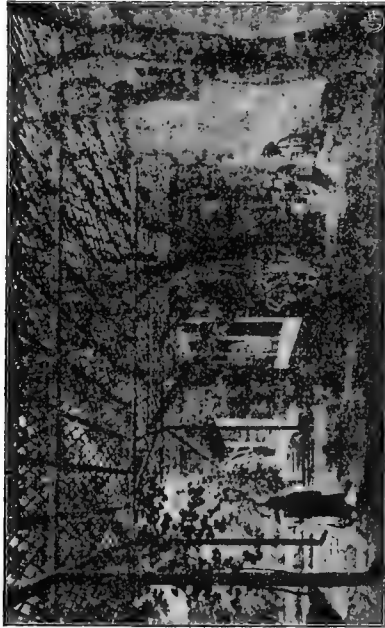
قلنا عن الجبرتي العبارة التي وضعتها بين قوسين لأنها أبلغ ما كتبه عن الدور الثاني من المركة ، ولا بأس أن نورد ما ذكره في وصف وقائع القتال حول أمبابة ليقابل القارئ بين الرواية والرواية التي استخلصناها من المصادر الفرنسية ، قال : « ولما قرب طابور الفرنسيين من متاريس مراد بك تباهى الفريقان بالمدافع ، وكذلك السلاكر المحاربون البحرية ( أى بحارة السفن المصرية التي كانت راسية بين أمبابة وبولاق ) وحضر عدة وافرة من عساكر الأوناوود من ديماط وطلموا إلى أمبابة وانضموا إلى المشاة وقتلوا معهم في المتاريس وركب طائفة كبيرة من الأتراء والاجناد من العرضى الشرق<sup>(١)</sup> ومنهم إبراهيم بك الوالى<sup>(٢)</sup> وشرعوا في التمدية إلى البر الشرقى في المراكب ، فزاحموا على المادى ليكون التمدية من محل واحد والمراكب قليلة جداً فلم يصلوا إلى البر الآخر حتى وقعت الهزيمة على المحاربين »

وقال يصف نظام المربعات الفرنسية وهجومها على أمبابة وهزيمة الجيش المصرى : « ثم إن الطابور الذى تقدم لقتال مراد بك انقسم على كيفية معلومة عندهم في الحرب وقارب من المتاريس بحيث صار محيطاً بالمسكين من خلفه وأمامه ، ودق طبلوه ، وأرسل جناده المتتالية والمدافع ، واشتد هبوب الريح وانهدق النبار ، وأظلمت الدنيا من دخان البارود وغبار الرياح وصمت الإنماع من توالى الضرب بحيث خيل للناس أن الأرض تزلزلت والسماء عليها سقطت ، واستمر الحرب والقتال نحو ثلاثة أرباع ساعة ثم كانت هذه الهزيمة على المسكر الغربى<sup>(٣)</sup> ففرق الكثير من الخيالة في البحر لإحاطة العدو بهم وظلام الدنيا ، والبعض وقع أسيراً في

(١) يعنى جيش إبراهيم بك الذى كان مرابطاً بالبر الشرقى لقليل

(٢) صهر إبراهيم بك رئيس المالك

(٣) يعنى جيش مراد بك لأنه بالبر الغربى



قصر مراد بك في الجزيرة (أطرس ١٢٠ و ١٨٢)

أيدي الفرنسيين ، وملكوا التارس وفر مراد بك ومن معه إلى الجزيرة ، فصعد إلى قصره وقضى أشغاله في نحو ربع ساعة ثم ركب وذهب إلى الجهة القبلية وبقيت القتلى والثياب والأمتعة والأسلحة والفرش ملقاة على الأرض بر أنبابة تحت الأرجل ، وكان من جملة من أتى نفسه في البحر سليمان بك المعروف بالأغا ، وأخوه إبراهيم بك الوالي ، فأما سليمان بك فتجأ وغرق إبراهيم بك الصغير وهو صهر إبراهيم بك الكبير »

بلغت خسائر جيش مراد بك في معركة الأهرام نحو ألفي قتيل من المماليك وعدة آلاف لا تحصى من المصريين ، وفي مذكرات نابليون أن مجموع القتلى من جيش مراد بك من مماليك ومصريين بلغ سبعة آلاف ، وأن خسائر الفرنسيين ثلثمائة<sup>(١)</sup>

وقد سار نابليون بعد انتهاء المعركة إلى الجزيرة ، وأخذ قصر مراد بك ممسكراً له واستولى على ( ترساته ) التي أنشأها بالجزيرة وما بها من المدافع والسخائر ، وفي مساء هذا اليوم احتلت فرقة من الجيش الفرنسي جزيرة الروضة

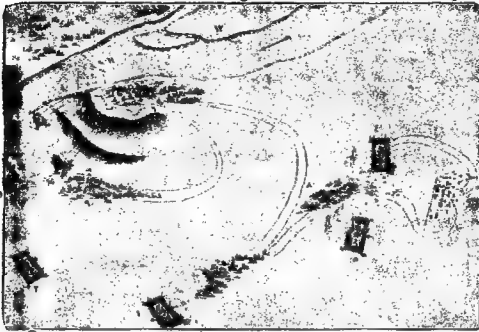
وفي مساء اليوم التالي دخل الجرال « دييوى » أحد قواد الجيش الفرنسى المدينة على رأس كتيبة من الجنود لاحتلالها ، فلم يلق بها مقاومة ، وعسكرت ليلا في بيت إبراهيم بك الوالى ، فكانت هذه الكتيبة طليعة الجيش المحتل ، وفي اليوم الثالث (الاثنين ٢٣ يولييه - ٩ صفر) تبعها بقية الفرق فاحتلت القلعة والمدينة وضواحيها ، وأصبحت العاصمة في قبضة الجيش المحتل

### انسحاب إبراهيم بك

كان جيش مراد بك هو الذى تلقى صدمة الهجوم الفرنسى بالبر الشرقى للنيل ، وما ان حلت به الهزيمة حتى انسحب إلى الجزيرة كما قدمنا واحرق سفنه كيلا تقع في أيدي الفرنسيين ، ثم فر إلى الوجه القبلى ومعه فلول جيشه المهزوم

أما إبراهيم بك الذى كان يربط في الشاطئ الشرقى ليدافع عن القاهرة إذا اعتزم الفرنسيون عبور النيل فإنه ظل يرقب تطورات المعركة ، وبقى جامداً لا يحرك ساكناً حتى علم بهزيمة زميله مراد بك ، فأركن إلى الفرار هو ومن معه من المماليك ، وغادروا العاصمة وقصدوا إلى بلبيس ثم إلى سوريا حاملين ما وصلت إليه أيديهم من المتاع والأموال والتحف لينجوا بها ويستخلصوها لأنفسهم ، وبذلك ترك أمراء المماليك سكان القاهرة وأهل البلاد وجهاً لوجه أمام القوة الفرنسية

(١) مذكرات نابليون التي أملأها على الجنرال برتران في سانت هيبين



خريطة واقعة إمبابية أو معركة الأهرام — ٢١ يولييه سنة ١٧٩٨ — وفيها البيانات الآتية

- ١ — فرقة الجنرال دوجا وفيها نابليون ومنها يتألف قلب الجيش الفرنسي
- ٢ — فرقة الجنرال بون } ومنها يتألف الجناح الأيسر
- ٣ — فرقة الجنرال فيال }
- ٤ — فرقة الجنرال ديزيه }
- ٥ — فرقة الجنرال رينيه } ومنها يتألف الجناح الأيمن
- ٦ — إمبابية وفيها الاستحكامات وللنافع والتطريش والقوات التي أعدها مرهاد بك
- ٧ — قوات إبراهيم بك الراجطة بيولاقي ولم تشارك في القتال
- ٨ — قوات مرهاد بك تهاجم فرقة الجنرال دوجا ثم فرقت ديزيه ورينيه
- ٩ — قوات مرهاد بك تهاجم جنود الجنرال رامبون لرد هجمتهم على إمبابية
- ١٠ — آخر نقطة انسحبت منها قوات مرهاد بك بعد الفرقة
- ١١ — الأسطول المصري في النيل ومرآكب الصنعية بين إمبابية وبيولاقي
- ١٢ — جزيرة بيولاقي

والخطوط للردوجة تمثل خط سير قوات مرهاد بك

وقد اقتبسنا هذه الخريطة من مجموعة رسوم للسير فيفان دينون أحد أعضاء بنية العلوم والفنون الذين  
صحبوا نابليون في مصر ، وأهمية هذه الخريطة ترجع إلى أن نابليون راجعها وكتبها قبل أن تطبع في كتاب

دينون سنة ١٨٠٢

## نصيب المصريين في المعركة

وقف المصريون بجانب المالك في معركة الأهرام يقاتلون الفرنسيين ، هذه واقعة وإن لم يعلنها المؤرخون الفرنسيين إلا أنها حقيقة ثابتة تنطق بها أقوالهم وروايات شهودهم ذكر السيوتيرس Thiers في كتابه <sup>(١)</sup> «أن جيش مراد بك أقام بمسكده على الشاطئ الغربي من النيل في السهل الممتد ما بين النيل وأهرام الجيزة ، وكان يدافع عن قرية امبابه بقوة مؤلفة من ٢٤٠٠٠ من الفلاحين والانكشارية ، وهذه القوة كانت تؤلف ميمنة الجيش ، وكان المالك وعددهم عشرة آلاف فارس ومنهم يتألف القلب والميسرة يرابطون في السهل الممتد بين النيل والأهرام يشد أزرهم عدة آلاف من الفرسان العرب » ويقول الجنرال برتييه Berthier في كتابه <sup>(٢)</sup> :

« استولى الفرنسيون على قرية امبابه بعد أن دافع عنها نحو ألف وخمسة مملوك ومتل هذا العدد من الفلاحين دفاع الأبطال ورفضوا التسليم فاتوا قتلًا وغرًا »  
ومعلوم أن الجنرال برتييه هو رئيس أركان حرب الحملة الفرنسية ، وقد شهد معركة الأهرام وكان يخوض غمارها إلى جانب نابليون ، فكلامه حجة ويقول نابليون في مذكراته عن قوة جيش مراد بك :

« كانت الميمنة ترابط شمال امبابه وتتألف من ٢٠٠٠٠ من الانكشارية والعرب ومقاتلة القاهرة وتتألف الميسرة والقلب من ١٢ ألف فارس من المالك والأغاوات (رؤساء الجند) والمشايخ والأعيان المصريين ومع كل منهم ثلاثة أو أربعة من المشاة لخدمتهم ، فكان مجموع هذه القوة نحو خمسين ألف رجل يضاف إليهم ثمانية آلاف فارس عربي تتألف منهم ميسرة هذا الجيش فكان الجيش يحتل خطًا طوله ثلاثة فراسخ » ، وقال ميو Miot وهو شاهد عيان لوقائع الحملة في مذكراته : « إن قوة مراد بك تقدر بستة آلاف من المالك وعدد كبير من الفلاحين والعرب <sup>(٣)</sup> »

وذكر ريبو «أن مراد بك تحت إمرة ستة آلاف من المالك راجعوا على الشاطئ الغربي للنيل وأرتكزت ميسرتهم إلى الجيزة وميمتهم إلى قرية امبابه حيث كان يدافع عنها ١٢ ألفًا

(١) تاريخ الثورة الفرنسية الجزء السادس

(٢) تاريخ حروب بوناپرت في مصر وسوريا

(٣) مذكرات عن تاريخ الحملة الفرنسية في مصر بقلم القوميسر ميو Miot



من الفلاحين ومعهم أربعون مدفعاً وقد أمدته في هذا اليوم فضيلة من الانكشارية وعدد حاشد من العرب والأقباط والحباشان<sup>(١)</sup> »

وتكلم دى لاجونكيير عن حامية امبابه فقال : « من الصعب أن تتصور أن عشرين ألفاً كانوا عتشدن في قرية صغيرة كأمبابه ، والمقول أن القوة النظامية من هذا العدد كانت مؤلفة من أربعة آلاف فقط من المشاة ، ولكن هذا العدد قد وصل إلى الضعف أو الثلاثة الأمثال بن انضم إليهم من الفلاحين ومن متطوعة القاهرة ، وقد بلغت خسارة المماليك ألفين من فرسانهم وخيرة وجاهلهم ، وكانت خسائر الأهالي عظيمة ففرق معظمهم في النيل<sup>(٢)</sup> » وفي الجيزى ما يدل على اشتراك المصريين في المعركة ، فقد قلنا عنه ما ذكره عن تطوع أهل القاهرة ، ونضيف إليه ما أورده عن تطوع سكان الأقاليم قال :

« أرسل إبراهيم بك إلى العربان المجاورة لمصر ورسم لهم أن يكونوا في القفصة بنواحي شبرا وما والاها ، وكذلك اجتمع عند مراد بك الكثير من عرب البحيرة والجيزة والصعيد والخيبرية والقيمان وأولاد على والمهادى وغيرهم »

وقال في موضع آخر : « ولما كان يوم الجمعة سادس الشهر (سفر الموافق ٢٠ يولييه) وصل الفرنسيين إلى الجسر الأسود وأصبح يوم السبت (يوم الواقعة) فوصلوا إلى أم دنبار فمئنتها اجتمع العالم العظيم من الجند والرعايا والفلاحين المجاورة ببلادهم لمصر<sup>(٣)</sup> »

يؤخذ من هذه الوثائق والمصادر المتعددة أن المصريين قد اشتركوا في معركة الأهرام بكل ما أوتوا من حول وقوة وأنهم قدموا كل ما في استطاعتهم من رجال ومال للدفاع عن كيان البلاد ، وأن عددهم كان أكثر من عدد المماليك

ولقد اختلف الرواة في تقدير عدد المماليك الذين اشتركوا فعلا في المعركة ، لكن التقدير الذى هو أقرب إلى الصواب أنهم يتراوحون بين ستة آلاف وسبعة آلاف فقط ، وقد أحصى السيو مارتان Martin أحد مهندسى الحملة الفرنسية<sup>(٤)</sup> عددهم ٥٠٠٠ مقاتل ، وقدم ريكاردو Richardo أحد ضباط الحملة بستة آلاف ، ويقول دى لاجونكيير De La Jonquiere أن إحصاء المماليك بستة آلاف موافق لتقدير الجنرال رتييه رئيس أركان الحرب وميوريكارندو ، وبلا حظ دى لاجونكيير تأييداً لهذا التقدير أن مجموع المماليك الصالحين للقتال كان عند مجيء

(١) التاريخ العلى والحربى للحملة الفرنسية الجزء الثالث

(٢) تاريخ حملة مصر الجزء الثالث بقلم دى لاجونكيير

(٣) الجيزى الجزء الثالث

(٤) في كتابه تاريخ الحملة الفرنسية في مصر الجزء الأول

الحملة الفرنسية لا يزيد عن عشرة آلاف مقاتل<sup>(١)</sup> منهم ١٥٠٠ كانوا بالبر الشرق للتبيل بقيادة ابراهيم بك ولم يشتركوا في المعركة ، و ٥٠٠ بالصعيد بقيادة حسن بك الجداوى ، ونحو هذا العدد مع قافلة الحج التي لم تكن حضرت بعد ، فإذا قدرت خسائر المماليك في الرحانية وشبراخيت كانت النتيجة أن عدد المماليك الذين حشدتهم مراد بك بالبر الغرب إنما كان يتراوح بين ستة آلاف إلى ستة آلاف وخمسة ، والباقيون من المصريين وصفوة القول أنه لا يمكن لأمة عزلاء لا سلاح معها أن تدافع عن كيائها بأكثر مما فعلت الأمة المصرية في عهد الحملة الفرنسية

#### بعد الواقعة .

قام المصريون بقسطهم في الدفاع في واقعة الأهرام كما ترى ، وهم الذين احتملوا عواقب الهزيمة ، فقد عمّ الفرع القاهرة بعد وقوع الهزيمة وفرار قواد المماليك ، وقضى أهلها ليلة رهيبة اكتشفهم فيها الخطوب والأحوال وتوقعوا أن يحل بهم الكروب إذا دخل الفرنسيون المدينة ، فلذا معظمهم بالفرار تلك الليلة إلى الأقاليم ومعهم نساؤهم وعبائهم ، فكان هذا النمر أشد هولاً من وقائع الحرب والقتال ، قال الجبرتي يصف تلك المأساة :

« استمر معظم الناس طول الليل خارجين من مصر ، البعض بحجره ، والبعض ينسجو بنفسه ، ولا يسأل أحد عن أحد ، بل كل واحد مشغول بنفسه عن ابنه وأبيه ، والناس يضجعون بالمويل والنحيب ، ويتهلون إلى الله من شر ذلك اليوم المصيب ، والنساء يصرخن بأعلى أصواتهن من البيوت ، نخرج تلك الليلة معظم أهل مصر ، البعض لبلاد الصعيد ، والبعض لبلاد الشرق وهم الأكثر ، وأقام بمصر كل مخاطر بنفسه ، ومن لا يقدر على الحركة ممثلاً للقضاء متوقفاً للكروه ، وذلك لعدم قدرته أو لقلّة ذات يده وما ينفقه على حمل عياله وأطفاله ويصرفه عليهم في القرية ، فاستسلم للمقدور ، وقه عاقبة الأمور »

وقد زاد هذه الفاجعة هولاً أنه لما أحرق المماليك سفنهم بعد الهزيمة تصاعد لمب الحريق ودخانها من السفن المحترقة بيولات والجيزة ، وشاهد سكان العاصمة النيران المشتعلة ليلاً ،

(١) هنا الإحصاء يوافق ما ذكره الجبرتي في الجزء الرابع على لسان ابراهيم بك زعيم المماليك وهو يخاطب مندوبي محمد علي الكبير الذين قابله في شأن الصلح فذكر ابراهيم بك ما كان لهم من التفوذ والكوكبة قبل الحملة الفرنسية قال في هذا الصدد : « اعلم أننا كنا بمصر نحو عشرة آلاف أو أقل أو أكثر ما بين مائة ألف (قواد) وأسماه وكشاف ، وأكابر وبلطج ، ومماليك ، وأجناد وطوائف ، وخدام ، وأتباع ، فيؤخذ من ذلك أن عدد للقافلة من المماليك كان عشرة آلاف ، أما جنس المماليك من رجال ونساء وأطفال وعتق وأرقاء فيبلغ عددهم نحو خمسين ألفاً

فظنوا أن الفرنسيين قد عبروا النيل وأحرقوا بولاق والجيزة ، وشاع بين الناس أنهم وصلوا إلى باب الحديد يحرقون ويمتدون على النساء ، فاشتد الفرع ، وعظم الخطب ، وفي ذلك يقول الجبرتي :

« إن بعض القليوبجية ( البحارة ) من عسكر مرهاد بك الذى كان فى النليون ( المركب الحرنى ) يرمى انبابه لما تحقق الكسرة أضرم النار فى النليون الذى هو فيه ، وكذلك مرهاد بك لما رحل من الجيزة أمر بأبجرا ( سحب ) النليون الكبير من قبالة قصره ( قصر مرهاد بك بالجيزة الذى اتخذ نابلون معسكراً له بعد الواقعة ) ليصحبه معه إلى جهة قبلى ، فشوا به قليلاً ووقف فى الطين لقة الماء ، وكان به عدة وافرة من آلات الحرب والجوخانة ، فأمر بحرقه أيضاً ، فصعد لهيب النار من جهة الجيزة وبولاق ظنوا بل أيقنوا أنهم أحرقوا البلدين فاجوا واضطربوا زيادة عما هم فيه من الفرع والروع والجزع ، وخرج ( من القاهرة ) أعيان الناس وأفسدية الوجاقات وأكابرهم وقيوب الأشراف وبعض المشايخ القادرين ، فلما عاين العامة والرعية ذلك اشتد منجزهم وخوفهم وتحركت عزائمهم للهروب واللحاق بهم ، والحال أن الجميع لا يدرون أى جهة يسلكون ، وأى طريق يذهبون ، وأى محل يستقرون ، فتلاحقوا وتسايقوا ، وخرجوا من كل حذب ينسلون ، ويسع الحمار الأخرج أو البغل الضعيف بأضعاف ثمنه ، وخرج أكثرهم ماشياً أو حاملاً متاعه على رأسه وزوجته حاملة طفلها ؛ ومن قدر على مركوب أركب زوجته أو ابنته ومشى هو على أقدامه ، وخرج غالب النساء ماشيات حاسرات ، وأطفالهن على أكتافهن ييكن فى ظلمة الليل ، واستمروا على ذلك طول ليلة الأحد وصباحها »

وختم الجبرتي وصف تلك المأساة بقوله : « وكانت ليلة ومباحها فى غاية الشناعة جرى فيها ما لم يتفق مثله فى مصر ولا سمعنا بما شابه بعضه فى تواريخ المتقدمين ، فإراء كن ممما »

## الفصل الثامن

### عود إلى الإسكندرية

واقعة أبوقير<sup>(١)</sup> (أول أغسطس سنة ١٧٩٨)

وتأثيرها في مركز الفرنسيين

على مقربة من الاسكندرية ، وفي منتصف المسافة تقريباً بينها وبين رشيد ، في خليج « أبوقير » ، وقعت يوم أول أغسطس سنة ١٧٩٨ الواقعة البحرية الشهيرة بواقعة « أبوقير » بين الأسطول الانجليزي بقيادة الأميرال نلسون Nelson والأسطول الفرنسي بقيادة الأميرال بروس Brueys ، وانتهت بتحطيم الأسطول الفرنسي وتدمير معظم سفنه وأسر الباقي ومقتل أميراله وخيرة رجاله ونحو أربعة آلاف من بحارته ، فكانت هذه الواقعة كارثة عظيمة أصابت البحرية الفرنسية وقضت على آمال فرنسا في بسط سيادتها على البحر الأبيض المتوسط ، وكانت في الوقت نفسه أشد ضربة أصابت الحملة الفرنسية في مصر ، من أجل ذلك وجب علينا أن نتكلم عن هذه الواقعة مع بيان نتائجها وأثرها في تطور الأحوال في مصر

#### مقدمات الواقعة

كانت ميناء الاسكندرية النورية لا تستطيع أن تؤوى بوارج الأسطول الفرنسي الكبيرى قرب غور المياه في مداخلها ، فاختار الأميرال بروس بالاتفاق مع نابليون خليج « أبوقير » يتخذ مرسى لبوارجه ، وانتقل اليه بأسطوله يوم السبت ٧ يولييه سنة ١٧٩٨ ، على أن يقلع منه إلى جزيرة كورفو إذا رأى للكث فيه خطراً ، وكان الكبتن بارى Barré قد كلف سبر غور الميناء ومداخلها للتحقق من عمقها ، فأجرى عدة من التجارب انتهى منها

---

(١) التزمنا في هذه الكلمة لفظها المحكي « أبوقير » على قاعدة الحكاية ، والكلمة ليست مركبة من (أبو) و(قير) بل هي كلمة مفردة ، فلا تجرى على (أبو) قواعد الإضافة ، وفي تلج العروس للعلامة الفتوى للجمهور السيد محمد سرتضى الزينى (الجزء الثالث) أنها (بوقير) بالضم جزيرة قرب رشيد (وقد أوردها تحت كلمة (بقر) ، فالباء من بنية الكلمة ، وهذا يثبت أنها كلمة مفردة ، وسواء أكانت (بوقير) أم (أبوقير) فهي ليست كلمة مركبة ، ولذلك قلنا واقعه أبوقير

إلى أن الميناء المحتمل دخول البوارج الكبرى ، لكن الأميرال برويس بعد أن استشار قواد الأسطول رأى من المخاطرة أن يعود إلى ميناء الإسكندرية إذ لم يطمئن إلى التجربة التي زاولها الكابتن بارى ، وكان متردداً بين البقاء في أبو قير والإقلاع إلى جزيرة كورفو ، لكنه آثر البقاء في أبو قير لأنه لم يكن لديه المؤونة الكافية للسفر إلى كورفو ، ثم لأنه لم يشأ أن يتأذى سواحل مصر قبل أن يطمئن على مصير الجيش الفرنسي بها ، فأخذ يترقب أخبار نابليون بتأديف الصبر وينتظر نتيجة محاربه لجيش مراد بك ، فأضاع وقته في الانتظار دون أن يتخذ خطة حاسمة أو ينصب المدافع بالبر لحماية مواقع الأسطول ، وكان بشايطي ( أبو قير ) قلعة قديمة<sup>(١)</sup> لكنها لا تصلح لحماية الخليج إذ كانت في حاجة إلى تحصينها بالمدافع الكبيرة ، وكذلك يوجد في مدخل الخليج جزيرة صغيرة<sup>(٢)</sup> ( شرق القلعة ) وضع فيها الأميرال برويس بعض المدافع لكنها لم تستطع منع السفن الإنجليزية من دخول الخليج يوم الواقعة

وكان الأميرال نلسن قبل الواقعة لا يتفك يتجول في البحر الأبيض المتوسط ليتعرف مواقع الأسطول الفرنسي ، فإنه بعد أن وصل إلى الإسكندرية يوم ٢٨ يونيه ولم يجد المارة الفرنسية كما قمتنا ، أقطع بأسطوله إلى شواطئ الأناضول ثم عاد أدرجه إلى صقلية ليمتار منها ، ثم قصد ثانياً إلى سواحل مصر ، وفي غضون ذلك اشتد قلق الرأي العام الإنجليزي في لندن لأن الأميرال نلسن لم يستطع في بحر ثلاثة أشهر تقريباً قضاها في خوض البحر أن يدرك الأسطول الفرنسي ، وترك نابليون يستولى على مالطه ويبلغ سواحل مصر ويحتلها بمجنوده ، ولكن نلسن لم يقصر في تقب أسطول الأميرال برويس ، بل كانت الأعداد هي التي باعدت بينه وبين خصمه على ظهر البحار ، إلى أن حضر بأسطوله تجاه الإسكندرية صباح يوم أول أغسطس ( يوم الواقعة ) ثم اتجه ناحية أبو قير حيث كان الأسطول الفرنسي راسياً يترقب

### الموازنة بين الأسطولين

لم تكن قوة الأميرال نلسن تزيد عن قوة الأسطول الفرنسي لا في عدد السفن ولا في عدد المدافع والبطارية ، فإن أسطول نلسن كان مؤلفاً من خمس عشرة سفينة حربية منها أربع عشرة بارجة كبرى ، وكان عدد مدافع أسطوله ١٠٥٠ مدفعاً وبطارية ٨٢٤٠ من القناتلة أما أسطول الأميرال برويس في أبو قير فكان مؤلفاً من سبع عشرة سفينة حربية منها

(١) هي المرفقة الآن بطاية البرج وهي على الراجح منشأة في عهد السلاطين البحرية

(٢) سميت بد الواقعة جزيرة نلسن

ثلاث عشرة بارجة كبرى وأربع فرقاطات كبيرة عدا السفن المسلحة المتوسطة الحجم أو الصغيرة التي كانت حولها<sup>(١)</sup>، وكان سلاح هذا الأسطول ١١٨٠ مدفعاً وبحارته ٨٩٠٠ مقاتل فيئين من هذه المقابلة أن الأسطول الفرنسى وإن كان أقل عدداً في البوارج الكبيرة إلا أنه في مجموعه أكثر عدداً وعتاداً من الأسطول الإنجليزي، لكن الفارق الحقيقى الذى جعل للأسطول الإنجليزي الغلبة والنصر فى القتال هو كفاية القيادة والنظام وحسن الاستعداد الحربى، ولا غرو فشخصية نلسن هى من أهم أسباب عظمة أنجلترا البحرية، كأن الرجل أسطولاً إنسانى

لم يكن الأميرال برويس يتوقع أن يصادمه الأسطول الإنجليزي فى خليج أبو قير، فلم تكن بوارجه على تمام من أهبتها واستعدادها، وكان عدد كبير من ضباطها وبحارتها يتخفون فى الشواطىء أو فى الإسكندرية يمتارون منها

### بدء للمركة

ففى منتصف الساعة الثالثة بعد ظهر يوم أول أغسطس، بدأت بوارج الأميرال نلسن تظهر فى الأفق تجاه أبو قير، وتبينها الأميرال برويس وهى فى عرض البحر بعيدة عن الساحل، ولم يكن يعتقد أنها جاءت لهاجمته، بل كان يظن بادئ الأمر أنها تريد محاصرة الخليج، غير أنه رآها تقترب شيئاً فشيئاً على سمت من الخليج، فتحقق أن المركة لا محالة ناشية

وكانت تتقدم أسطول الأميرال نلسن عند اقترابه من الخليج سفينة مصرية<sup>(٢)</sup>، ويرجع «ريبو» أن هذه السفينة كانت قل جماعة من البحارة المصريين قدموا ليرشدوا الأسطول الإنجليزي إلى مسالك البحر فى تلك الجهة يساعدونه بذلك على الأسطول الفرنسى<sup>(٣)</sup> وعند الساعة الثالثة أصدر الأميرال برويس أمره للسفن بالتأهب للضرب، وأخذ الأميرال نلسن يرتب مواقع بوارجه، وكان فى حركاته حراً بعكس الأميرال برويس فإن

(١) ترك الأميرال برويس ميناء الإسكندرية بض السفن الحربية وكثيراً من السفن الحليفة

(٢) التاريخ الملى والحربى للحملة الفرنسية الجزء الثالث

(٣) جاء فى تقرير الضابط الفرنسى شاريه Charrier الذى كان على ظهر البارجة فرنكلن من بوارج الأسطول الفرنسى ما يؤيد هذه الرواية، قال: « فى منتصف الساعة الخامسة مساء شاهدنا فى عرض البحر سفينة مصرية قادمة من الإسكندرية تتصل بإحدى السفن الإنجليزية ولم تتفصل عنها بالرغم من أن السفينة (ألرت) Alertة أطلقت عليها عدة قنابل »

حركانه كانت مقيمة لاحتصاره في الخليج ، وبالرغم من أن بعض أركان حربه نصحوه بالخروج في عرض البحر للاقاة الأسطول البريطاني فإنه آثر البقاء في مرساه ، وكان موقف الأسطول الفرنسي مما ساعد الأميرال نلسن على إحكام تدبيره لأن البوارج الفرنسية كانت مصطفة على خط يشبه القوس بميدان الشاطئ الغربي للخليج كما تراه في الخريطة ، فاستطاعت البوارج الإنجليزية أن تندسّ بينها وبين الشاطئ ، وخيّل للأميرال برويس أن مثل هذا الحادث يستحيل وقوعه لقلة عمق البحر في هذا الموضع ، فكان هذا الخطأ في التقدير وجراً الأميرال نلسن في الوصول إلى هذا المكان من أسباب الكارثة التي حلت بالأسطول الفرنسي

توصل الأميرال نلسن إلى حصر البوارج الأمامية من الأسطول الفرنسي وعددها ثمانين سفينة من البوارج ، فصارت هدفاً لنارهم ، ومع أن البوارج الفرنسية الأخرى كانت حرة وخارجة عن مرمى هذا النار وكان في استطاعة قائدها الكونت أميرال فيلنوف Villeneuve أن ينهمر الفرصة ليحيط بالبوارج الإنجليزية ، فإنه ظل جامداً ، وترك البوارج المحصورة عرضة للنار من الجانبين ، فكان وجود فيلنوف من أسباب انتصار نلسن

#### بدء الضرب

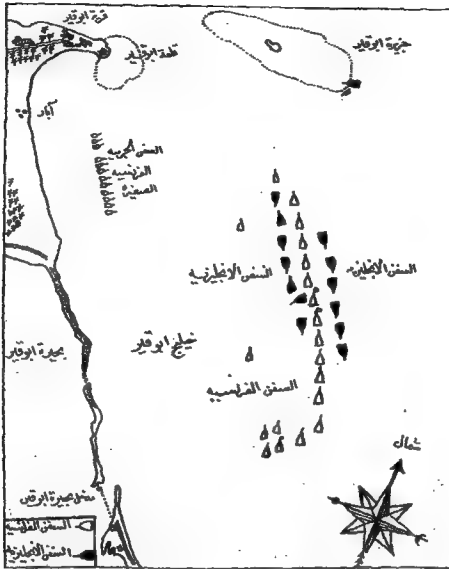
بدأ الضرب في نحو الساعة الخامسة مساءً ،<sup>(١)</sup> وكانت شديداً مروعاً ، فاقبل البحر كأنه بركان من نار أو واد من أودية الجحيم ، وأبدى الفرقان بسالة في القتال لكن البوارج الإنجليزية كانت أرسخ في مواضعها وأشدّ إحكاماً في الرمي ، وكانت البارجة (أوريان) بارجة الأميرال برويس هدفاً لنار شديدة ، على أن الأميرال لم يفتأ يصدر الأوامر ومحرض رجاله على القتال ويبدى شجاعة كبرى في قيادة المركة ، وفي نحو الساعة السابعة مساءً أصيب في رأسه وفي يده ، لكنه استمر في مركز القيادة وضمد جراحه بنفسه

#### مقتل الأميرال برويس

إلى أن كانت الساعة الثامنة فأصابته قنبلة مدفع فصلت نخذه الأيسر وقضت على حياته ، وتولى القيادة بعده الكونت أميرال فيلنوف واستمر الضرب حتى كانت الساعة التاسعة مساءً ، وهناك اضطربت النار في البارجة أوريان وظلت مشتتة فيها إلى أن اتصلت بمستودع

---

(١) يوجد اختلاف في الرواية عن بدء الضرب ، ففي رواية أخرى أنه بدأ الساعة السادسة مساءً ، على أننا نرجح الرواية الأولى لأن الكاتب الفرنسي فيفان دينون كان وقت المعركة واقفاً على برج أبي مندور جنوبي رشيد عند اجتلاء الضرب وصحه هناك فقال إنه اجتدأ الساعة الخامسة مساءً



خريطة واقعة أبو قير البحرية سنة أول أغسطس سنة ١٧٩٨

وموقف الأسطولين عند اجراء القتال

النخار ، ف انفجر ونسف السفينة نسفا ، ف قطارت أجزاءها في الفضاء ومات معظم بحارتها جرحا وغرقا ، وكان ذلك في منتصف الساعة الحادية عشرة مساء ، فساد من الجانبين سكون رهيب لمول الانفجار ، ثم تجدد الضرب بعد نصف ساعة ، وكان الأسطول الفرنسي قد تضعف بسبب ما حل به من الخسائر ولا سيما بعد مقتل أميراله وضياح كبرى بوارجه ، واستمر الضرب إلى الساعة الثالثة بعد منتصف الليل ، ثم انقطع وخفت وطأه ، ثم تجدد في نحو الساعة الخامسة صباحة اليوم التالي ( ٢ أغسطس ) ، وانتهت للمركبة في نحو الساعة الثانية عشرة ، انتهت بالقضاء على الأسطول الفرنسي ، وانسحب الكونت أميرال فيلنوف بأربع



سفن حربية هي البقية الباقية من العدة الفرنسية ومضى بها قاصداً إلى مالطه ، ولم يتعبه الأدميرال نلسن لما أصاب سفنه من المطب ولما حل برجاله من الإعياء كان الضرب من الجانبين في خلال المركة شديداً مروّعا ، وقد سمعه وقتئذ سكان الاسكندرية ورشيد ، في منتصف الساعة السابعة مساءً ( يوم أول أغسطس ) سمع في الإسكندرية قصف المدافع آتيا من أبو قير ، فلم الناس أن معركة هائلة وقعت في الخليج ، واستمر دوى المدافع إلى الساعة العاشرة ليلا ، وبعد ذلك سمعوا صوت انفجار البارجة «أوريان» وشاهد بعض الضباط الفرنسيين في منتصف الساعة الحادية عشرة ليلا لهيب النار يتصاعد في جنح الظلام ، وتحققوا في اليوم التالي أنها نار البارجة ( أوريان ) ساعة انفجارها ، فكان النظر رهيباً علماً النفوس فرعاً ورجعاً ، واقطع صوت الضرب عقب الانفجار مدمعة عشرين دقيقة ، ثم تجدد بشدة واقطع ثانية في نحو الساعة الثالثة بعد نصف الليل وكذلك سمع قصف المدافع في رشيد خلال المركة ورأى أهلها لهيب النار يحترق ظلمة الليل ، فأدركوا أن بارجة كبيرة تحترق ( وهي البارجة أوريان ) وسمعوا دوى انفجارها ، وفي اليوم التالي عند أذان الفجر تجدد صوت الضرب ، وفي الصباح سمعوا انفجاراً آخر وهو انفجار الفرقاطة لارتيميز L'Artemise الفرنسية التي جنحت على الشاطئ فأمر ربانها بإشعال النار فيها حتى لا تقع في يد الإنجليز

### خسائر الفرنسيين

قد الفرنسيون في معركة أبو قير سفنهم الكبرى ولم ينج منها إلا أربع سفن وهي التي فرت من الميدان بقيادة فيلنوف أما الباقي فقد دمرت النار بعضها وغرق البعض الآخر وغنم الإنجليز ست سفن ضمها إلى أسطولهم ، فكان انتصار نلسن في موقعة أبو قير ساحقاً لأنه خرج منها وقد حطم الأسطول الفرنسي وزاد عدد أسطوله بما غنمه من السفن الفرنسية ، وكانت خسارة الفرنسيين في الأرواح فادحة قد قتل أميرال الأسطول ومعظم أركان حربه وقتل وغرق من الفرنسيين نحو أربعة آلاف ولم ينج من بحارة الأسطول سوى ثلاثة آلاف ، أما الباقون فكانوا في عداد القتلى أو الأسرى ، وقد أعاد الإنجليز الأسرى الفرنسيين إلى الإسكندرية تخلصاً من مؤونتهم ومنهم كثير من الجرحى ، وخسر الإنجليز ٢١٨ قتيلًا و ٦٧٨ جريحاً وأصبحت إوارجم بتلف وعطب من شدة الضرب دامت المركة طويلاً ، وكان الحظ فيها متايلاً بين الفريقين ، ومروقت كان الشك في

مصيرها عظيماً ، لكن أسايا ثلاثة عجبت بهزيمة الفرنسيين ، وهي إحاطة الأسطول الإنجليزي بالبوراج الأمامية ، واحتراق البارجة أوربان ، وجود الكونترايرال فيلنوف ، وقد أصيب الأميرال نلسن بجرح في رأسه وأغمى عليه لكن جرحه كان خفيفاً ولما زال عنه الإغماء عاد إلى موقعه في القيادة حتى تم له النصر ، وخرج من المعركة رافع الرأس خالد الذكر يحمل لواء البطولة والمجد

ويسمى بعض المؤرخين هذه المعركة « معركة النيل البحرية »

### رواية الجبرتي عن الواقعة

كتب الجبرتي ما يلي عن واقعة أبو قير :

« وفيه ( ٦ ربيع الأول سنة ١٢١٣ الموافق ١٨ أغسطس سنة ١٧٩٨ ) تواترت الأخبار بحضور عدة مراكب من الإنكليز إلى قنر اسكندرية ، وأنهم حاربوا مراكب فرنساوية الراسية بالينا ، وكانت أشيعت هذه الأخبار قبل وتحدث الناس بها فصبب ذلك على فرنساوية ، واتفق أن بعض النصارى الشوام نقل عن رجل شريف يسمى السيد أحمد الزرو من أعيان التجار بوكالة الصابون أنه تحدث بذلك ، فأمرؤا بإحضاره وذكروا له ذلك ، فقال أنا حكيت ما سمعته من فلان النصراني ، فأحضره أيضاً ، وأحضره بقطع لسانهما ، أو يدفع كل منهما مائة ريال فرائسه نكالا لها وزجرا عن الفضول فيما لا يمتنبها ، فتشفع المشايخ ، فلم يقبلوا ، فقال بعضهم أطلقوها ونحن نأتيكم بالبرام ، فلم يرضوا ، فأرسل الشيخ مصطفى الصاوي ( من أعضاء الديوان ) وأحضر مائتي ريال ودفعها في الحضرة ، فلما قبضها الوكيل ردها ثانياً إليه ، وقال فرقه على الفقراء ، فأظهر أنه فرقه كما أشار وردها إلى صاحبها ، فانكشف الناس عن التكلم في شأن ذلك ، والواقع أن الإنكليز حضروا في أرم ( أي الفرنسيين ) إلى الثغر وحاربوا مراكبهم فنالوا منهم وأحرقوا القابق الكبير المسمى نصف الدنيا<sup>(١)</sup> وكان به أموالهم وذخائرهم وكان مصفحاً بالنحاس الأصفر واستمر الإنكليز بمراكبهم بمينا الإسكندرية يشدون ويروحون يرصدون الفرنسيين »

(١) يريد البارجة « أوربان » ( الشرق ) ولا ندري لماذا اختار لها الجبرتي هذا الاسم ، ولعلها سميت في مصر ( نصف الدنيا ) لإشارة إلى عظمتها أو إشارة إلى أن اسمها ( الشرق ) ومن الشرق والغرب تتكون هذه الدنيا ، وظاهر من رواية الجبرتي عن الواقعة أنه لم يصله عنها يانات وافية وأن الفرنسيين كانوا يتكلمون أخبارها وتهديدون كل من يذيع أنباءها كما رأيت ما نقلوه مع السيد أحمد الزرو وصاحبه

## نتائج للمركة

يوجد في تاريخ الحروب وقائع معدودة امتازت بعظم تأثيرها في مصير الدول والشعوب ، ومن هذه الوقائع واقعة أبو قير

كانت هذه الواقعة أشد ضربة أصابت الحملة الفرنسية ، وظهرت نتائجها الخطيرة على مدى الأيام ، فإن فرنسا حينما شرعت في احتلال مصر كانت تعتمد على قوتها البحرية في البحر الأبيض المتوسط لإمداد الحملة وحماية اللواصلات بينها وبين السواحل المصرية ، وكانت تأمل إذا بقيت قوتها البحرية في البحر الأبيض سليمة أن تفهم مع تركيا بشأن مصر لأن تركيا لم يكن لها فيها سوى سيادة اسمية لا أهمية لها ، وكانت من جهة أخرى تؤمل أن يكون اتصالها بمصر بطريق البحر مما يسهل عليها اتخاذ وادي النيل قاعدة عسكرية لضرب إنجلترا في الهند وإنشاء دولة شرقية تحقق أطماع فرنسا ، فلأن معركة أبو قير انتهت بانتصار الأسطول الفرنسي لضممت فرنسا سيادتها في البحار واستطاعت أن تضرب إنجلترا الضربة القاضية بل أن تنزوها في جزيرتها

لكن كل هذه الاعتبارات والآمال قد تلاشت في معركة أبو قير إذ قضت هذه المعركة على البحرية الفرنسية في البحر الأبيض المتوسط ، وضمت لإنجلترا السيادة على البحار ، وقطعت الاتصال بين فرنسا وسواحل مصر ، وأحيت آمال الدول الملكية التي قهرتها فرنسا في ميادين القتال ، فبدأت تتأهب للأخذ بالثأر متشجعة بما حل بالأسطول الفرنسي من العار ، وانهزت إنجلترا فرصة انتصارها على ظهر البحر لتجتنب إليها الدول الوتورة ، وانضمت روسيا إلى تلك الدول ، وعقدت تحالفا جديدة مؤلفة من إنجلترا والنمسا والروسيا وتركيا وناپولي لمحاربة الجمهورية الفرنسية ، وتمكنت إنجلترا من أن تحمل الباب العالي على إعلان الحرب على فرنسا والانضمام إلى روسيا عدوه التاريخية وفتح البحر الأبيض للبوارج والقوات الروسية ، ولم تلبث الحرب أن تجددت بين النمسا وفرنسا ، وانضمت روسيا إلى النمسا ، وقامت الثورة في مالطة ضد الفرنسيين ، وتخرج مركز فرنسا أمام تحالف الدول الملكية عليها (التصانف الثاني) ، فكانت واقعة أبو قير نذيراً بتزلزل مركزها وضياح قوتها في القارة الأوروبية والبحر الأبيض

هذا من الوجهة الدولية ، أما من الوجهة المحلية فقد كانت خسائر الفرنسيين في واقعة أبو قير فادحة ، فقدوا بوارجهم الحربية الكبرى ، وقدوا معظم ضباط وبحارة هذه البوارج بين قتيل وغريق

وكان وقعا في نفوس الجنود من الجيش الفرنسي ألماً ساحقاً ، لأنهم أدركوا أن المواصلات قد انقطعت بينهم وبين فرنسا وأنهم أصبحوا شبه منفين في القارة الإفريقية ، وكان وقع الكارثة أشد على جنود الإسكندرية ورشيد والسواحل القريبة من مكان الواقعة ، فإنهم شهدوا عن كثب آثار الكارثة ، فكانوا يرون المستشفيات غامرة بالبنجارة المصاين الذين مزقت القنابل أجسامهم ، ويرون على الشاطئ بقايا المهارة للتحطمة وأشلاء الجثث التي كانت تذفها الأمواج إلى البر ، ويشهدون في عرض البحر البوارج الإنجليزية تحضر عباب اليم فتلقى الرعب في قلوبهم

أثرت كل هذه المشاهد في روح الجنود المعنوية ، فأخذت قواهم تضعف ونفوسهم تياس وعزائمهم تنحور ، وكان من نتائج الواقعة أنها ضمنت هزيمة فرنسا في جهات الإسكندرية ورشيد والبحيرة وشجعت أهلها على الثورة ، وأخذ الأسطول الإنجليزي بمد انتصاره في تلك الممرات يشدد الحصار على الشواطئ ، ، قطع كل المواصلات التجارية التي كانت مصدر ثروة الإسكندرية ، ونصب معين الجمارك فضاقت الحال واشتد الكرب بأهل الإسكندرية وزاد سخطهم على الاحتلال الفرنسي ، وكان الفرنسيون يتوقعون في كل وقت أن ينزل الانجليز قوات إلى الشاطئ فيقوموا الفرنسيين في الجبل وبخاصة إذا اتصلوا بالأهالي الذين كانوا على استعداد للثورة .

كتب كثير إلى نابليون بتاريخ ١٠ أغسطس سنة ١٧٩٨ رسالة طويلة يشكو فيها حرج مركزه قال فيها : « إن سر كزى هنا حرج عسير ولا منيلى لى إلى معرفة خطبكم ونهجمكم وإلى مضطر أن أواجه الحالة كما لو كنت ألقى تعليقاتكم ، إن الانجليز يستطعمون أن يضربوا المدينة بالقنابل وأن يقتحموا الثغرون أن يخشوا مقاومة ، إن لدينا بطاريات تحمى الثغرون ولكن وسائلنا محدودة بالنسبة لمجهودات العدو الذى يظهر أنه مصمم على سحقنا ولو ضحى في سبيل ذلك أسطوله بأكله ، ومن الواجب أن توجهوا عنايتكم لضمان المواصلات بطريق البر ومن رأى أن كتيبة الجنرال ديموى لا تقنى بل لا تصد شيئاً يركن إليه في تحقيق هذا الغرض »

وكتب له رسالة أخرى يقول فيها : « لم تصلنى كلمة منك منذ خمسة وثلاثين يوماً ، إن وجودكم هنا ضرورى لرفع المستوى للمعنوى للجنود ، فان كثيراً من الإشاعات تنشر عن مركز الجيش وإلى أمل في إحباطها بقوة ولكن أخشى أن تترك أراً في النفوس فوجودكم يرد إلى الجنود طمأنينتهم »

على أن نابليون قد عا بتأثيره السحري أثر اليأس الذي تسرب إلى قلوب الجنود ، وشدد عزائمهم ، ونفخ فيهم روح الإقدام والبسالة ، وقابل الكارثة برياسة جأش زدت إلى الجنود قوتهم المنيوية ، واستمر في مشاركته يديها وينفذها كأن لم يحدث حدث ولم يقع مصاب ، وكتب إلى كليبر يقول : « إن ما حدث سيفطرنا أن نعمل أعمالا أعظم مما كان في حسابنا »

وأخذ كليبر من جهته يواجه الكارثة بجلد وثبات ، وجمع قلوب البحارة الذين نجوا من الهلاك وعددهم نحو ثلاثة آلاف ، فأنشأ منهم فرقة جديدة سميت « الفرقة البحرية » ، وكلف نابليون الأميرال جاتوم بأن يجمع بقايا السفن السليمة وينظمها من جديد على أن يكون قومندانها ، وأوفد الجنرال مارمون إلى الإسكندرية لتحصين السواحل وحمايتها من هجمات السفن الإنجليزية

#### ديوان الإسكندرية

رأى الجنرال كليبر أن يستميل الأهالي ويتبع حيالهم طريق المسألة لأنه شاهد بنفسه ولا سيما بعد كارثة الأسطول الفرنسي أن هوة الخلاف تزداد اتساعا بين الفرنسيين والمصريين ، فأنشأ في الإسكندرية ( ديوانا ) على مثال ديوان القاهرة ، وعين لرأسه الشيخ محمد السري ، وأصدر بذلك منشورا إلى الإسكندريين في ٢١ أغسطس سنة ١٧٩٨ ، فديوان الإسكندرية لم يؤسس كما ترى إلا عقب واقعة ( أبو قير ) ، وكان كليبر هو مؤسسه

إن أغلب المؤرخين يذكرون أن نابليون هو الذي أسس الديوان بالإسكندرية ، وهذا خطأ كما ترى ، وقد جاء في يوميات الجنرال كليبر بتاريخ ٤ فركتيدور ( ٢١ أغسطس ) : « في هذا اليوم أنشأ الجنرال كليبر ديوانا في الإسكندرية مع أنه لم تحصله تعليمات من القائد العام في هذا الشأن وكان لا يعلم إذا كان القائد العام يريد إنشاءه ، على أنه أسسه حتى يقاوم دسائس الإنجليز في المدينة » ، وما جاء في يوميات كليبر من أنه لم تحصله تعليمات نابليون في شأن إنشاء الديوان فيه شيء من التجاوز ، لأن نابليون أرسل إلى كليبر في ٢٨ و ٣٠ يولييه سنة ١٧٩٨ ( مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٨٨٠ ) يأمره بتأسيس ديوان الإسكندرية طبقا للنظام الذي رسمه للوآوين الأقاليم ، وهذه الرسالة تنفي أن كليبر أسس الديوان من تلقاء نفسه ، وتنفى كذلك ما زعمه أغلب المؤرخين من أن نابليون هو الذي أسس ديوان الإسكندرية أثناء إقامته بها وقبل رحيله عنها ، لأنه غادرها يوم ٧ يولييه ، ولم يصدر أمره بإنشاء دواوين

الإقليم - ومنها ديوان الإسكندرية - إلا في ٢٧ يولييه كما هدم الكلام عن ذلك ( ص ٨٤ ) وكان وقتئذ بالقاهرة

### الشيخ محمد السيرى

قلنا إن الشيخ محمد السيرى عين رئيساً لديوان الإسكندرية ، والشيخ السيرى هذا كان كبير علماء الإسكندرية في ذلك العصر ، وكان ابنه معتقلاً مع الأهالى الذين قبض عليهم عقب مقتل الجندى الفرنسى في المدينة ( انظر ص ١٥٤ ) ثم أفرج عنه بعد محاكمة القاتل ، وكان الشيخ تقياً ورعاً ، يؤثر العدالة والاستقامة ، ومما يذكر عنه في هذا الصدد ما جاء في يوميات الجنرال كليبر أنه أوصى أعضاء الديوان التى أسسه بالنزاهة في عملهم والابتعاد عن الطمع في أموال الناس ، فأجاب الشيخ السيرى محتجاً بأنه إذا لاحظ على أى من أعضاء الديوان أنه ييسط يده في أموال الناس فهو يستزل لقوره رأسه الديوان ، فطلب منه كليبر أن يكتب بتبليغه الأمر دون أن يستزل حتى لا يحرم قومه ولا يحرم الأفرنج خدمته وعمله ، فهذا يدل على مكانة الشيخ السيرى في نفوس الشعب ، وما كان له من الاحترام عند المصريين والأفرنج ، وبذلك على منزلته عند نابليون أنه كتب إلى الجنرال مارمون في ٢٨ أغسطس سنة ١٧٩٨<sup>(١)</sup> يطلب إليه أن ينهب لمقابلة الشيخ السيرى ويبلغه بالتيابة عنه كيف احتفل بالمولد النبوى بالقاهرة ، قال في رسالته : « وأبلغه عنى أنى أجتمع مع كبار المشايخ ورؤساء الأشراف بالقاهرة بين حين وآخر ، وأنه لا يوجد أكثر منى اعتقاداً بطهارة وقديسية الدين الإسلامى<sup>(٢)</sup> » وكتب نابليون إلى الشيخ السيرى رسالة من القاهرة يقول فيها : « لقد سرى ما علمته من الجنرال كليبر عن مسلككم ، وإنك تعلم مبلغ احترامى لك منذ عرفتك وأنتم أنى أجيىء الوقت الذى أستطيع أن أجمع عقلاء البلاد وعلماءها وأن أسنع نظاماً موحداً مؤسساً على مبادئ القرآن ، تلك المبادئ الصحيحة التى تكفل للناس سعادتهم<sup>(٣)</sup> »

### بين كليبر ونابليون

وأخذ كليبر يختلف بالزيارة إلى محافظة المدينة ورئيس الديوان ويتودد إليهما ، ودعاهما مع أعضاء الديوان إلى مأدبة عنده إحكاماً لروابط الود معه . كما أنه عين مرتبات شهرية لكل من المحافظ وأعضاء الديوان وفرقة الشرطة

(٢ و١) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٣١٤٧

(٣) مراسلات نابليون وثيقة رقم ٣١٤٨

وطفق يرسل بعض رؤساء العشائر في دمنهور ليستميلهم إلى جانبه بالحسن ويأخذ منهم عهداً بالولاء ، وكان يرى تنظيم مديرية البحيرة على قاعدة اعتبار البلاد السكينة بين الاسكندرية ودمنهور وشابور ورشيد مديرية واحدة تدخل فيها هذه المدن وتخصص لها قوة من ثلاثة آلاف جندي وبذلك يمكن تنظيم جباية الأموال بطريقة تسكف نفقات الجيش والإدارة<sup>(١)</sup>

وكان كليبر شديد الرغبة في أن لا يرهق أهالي الاسكندرية بضريبة جديدة أو سلفة إجبارية تريد في ضيقهم ، فاختار هو ونابليون من هذه الوجهة لأن نابليون كتب إليه بضرورة فرض ضريبة جديدة لسد نفقات الجيش وقوة معدات الدفاع عن الاسكندرية وترميم بعض البوارج البحرية التي نجت من كارثة أبو قير ، لكن كليبر أصر على رأيه وكتب إلى نابليون يقول إن طريقة المصادرة تؤول إلى حدوث مجاعة وقتنة في المدينة

وكان كليبر يرى أن ليس من الحكمة في الوقت الذي بدأ فيه يتوود إلى الأهالي بإنشاء الديوان والمخبرة مع زعماء العشائر في دمنهور لإعادة الصفاء أن يثير سخط أهالي الاسكندرية بفرض ضريبة جديدة ، وكان من جهة أخرى لا يرى رأى نابليون في الاهتمام بإحياء القوة البحرية الفرنسية ، لأن هذه القوة محكوم عليها بالفشل مهما أُنق عليها ، فاستاء نابليون من رد أوامرهم ، ولا سيما في فرض ضريبة جديدة على تجار الاسكندرية ، وكتب إليه في أول سبتمبر يعاتبه ويأمره بفرض الضريبة ، فطلب كليبر من نابليون إقائه من وظيفته بالاسكندرية وإلحاقه بفرقة ، واعتذر بعدم اضطلاع بالوظائف الإدارية ، وشرح الجنرال دوجا ليخلفه ، على أن نابليون كان يعرف مقدرة كليبر ومميزاته ، فلم يشأ أن يحرم مساعدته ، ورجا منه بالملاح أن يبقى في مركزه ، وكتب له كتاباً يعرب له فيه عن تهديره لمواهبه ويسترضيه عما فرط منه في عبارات عتابه ، فتأثر الجنرال كليبر من لهجة الود والاحترام التي خاطبه بها نابليون ، وأذعن لرغبة القائد العام<sup>(٢)</sup> وكتب له يرجو مقابلته في القاهرة ، وسافر كليبر من الاسكندرية لهذا الغرض فوصل إلى القاهرة حين نشوب الثورة فيها

وكانت الحال في الاسكندرية تزداد حرجا بسبب تضيق الانجليز للحصار البحري المضروب على الثغر ، وقد بذل كليبر ما في وسعه لتخفيف وطأته ، ولكن الانجليز شددوا نطاق الحصار فأمروا في يوم واحد ( ٨ أكتوبر سنة ١٧٩٨ ) ٣٨ سفينة أحرقوا منها ٢٨ سفينة وأعادوا بحارتها إلى البر

(١) رسالة كليبر إلى نابليون ٢٣ أغسطس سنة ١٧٩٨

(٢) سنود تمهيدا إلى هذا الموضوع في مراسلات نابليون وكليبر بالفصل السادس من الجزء الثاني

### الجنرال مارمون في الاسكندرية

تولى الجنرال مانسكور Manseourt قومندانية الاسكندرية عقب سفر كليبر إلى القاهرة ، لكنه لم يلبث أن استدعاه نابليون لما ظهر له من عجزه وعين الجنرال مارمون قومنداناً لها<sup>(١)</sup> ، وظل في هذا المركز إلى أن رحل مع نابليون إلى فرنسا في أغسطس سنة ١٧٩٩

وقد أنشئ مارمون حزاماً في الاضطلاع بأعباء مركزه ، ولكن صادفته صعوبات كبيرة ، أهمها ظهور الطاعون في الاسكندرية ، فقد كان لظهوره وضرورة حصره في الثغر أثر شديد في صعوبة المواصلات بين الاسكندرية وباقي بلاد القطر المصري ، فاشتد الضيق بالاسكندرية وأهلها اهتم الجنرال مارمون بتحصين الاسكندرية ، وتولى الكولونل كريتان Cretin إنشاء قلعتين لصد هجمات البوارج الانجليزية ، القلعة الأولى يكوم الدكة ، والقلعة الأخرى يكوم الناضورة وقد سميت القلعة الأولى باسم قلعة كريتان تخليداً لاسم بانها الكولونل كريتان الذي قتل في معركة أبو قير البرية كما سيجيء بيانه في الفصل الرابع من الجزء الثاني

وسميت القلعة الثانية قلعة كافريلى تذكراً لاسم الجنرال كافريلى الذي قتل في حصار عكا ونصب الفرنسيون المدافع في قلعة قايتباي وفي قلعة أبو قير ، وبنوا قلعة بجزيرة المعجمي مكان البرج القديم التي كانت بها ، ووضعوا المدافع على مدخل الميناء في نهاية شبه جزيرة رأس التين

وقد بقيت قلعتا كافريلى وكريتان إلى عهد محمد علي باشا ، وشاهدهما الجنرال مارمون حينما زار الاسكندرية سنة ١٨٣٥ ، ويقول في رحلته<sup>(٢)</sup> إنه ألقاهما كما كانتا في عهد الحملة الفرنسية وإن محمد علي حافظ عليهما (والصحيح أنه رعمهما وجدد ما تخرب من بناءهما ) ويقول أيضا إن محمد علي رسم سور المدينة وأصلح أبراجه وركب فيه المدافع وجعل الاسكندرية في حالة منيعة من اللطاع

(١) أمر نابليون الصادر في ٢٨ نوفمبر سنة ١٧٩٨ ، والجنرال مارمون كان من قوادفة الجنرال بون ، وهو الذي انتقم باب رشيد يوم احتلال الاسكندرية  
(٢) رحلة المارشال الدوق دى راجوز (الجنرال مارمون) الجزء الثالث



## الفصل التاسع

### في رشيد

رشيد هي الآن مركز من مراكز مديرية البحيرة ، لكنها في عصر الحملة الفرنسية وقبلها كانت مديرية قاعة بذاتها وموقعا حريباً وتجارياً على جانب كبير من الأهمية ، ذلك أنها مفتاح النيل (فرع رشيد) على البحر الأبيض المتوسط ، وطريق المواصلات النيلية إلى داخلية البلاد ، وزادت أهميتها بعد طمر ترعة الاسكندرية التي كانت تصل الاسكندرية بالنيل<sup>(١)</sup> فقد كانت هذه الترعة طريق الملاحة بين الاسكندرية والقاهرة وسائر بلاد الوجه البحري ، فلما طمرت في عصر المماليك بسبب إهمالها صارت المواصلات بين الاسكندرية والقاهرة عن طريق رشيد<sup>(٢)</sup> ، فكانت المراكب تنقل البضائع من الاسكندرية إلى رشيد وتنزل النيل أو تفرغ شحنتها في مراكب أخرى حتى تصل إلى القاهرة ، وصارت رشيد مركزاً تجارياً عظيماً يلتقي بها جزء كبير من صادرات الدنيا وواردات أوروبا والأمم ، وكان عدد سكانها يبلغ ١٣٠٠٠ نسمة في حين أن الاسكندرية لم يكن بها سوى ثمانية آلاف ، وكان لها في نظر نابليون أهمية حربية كبرى ، لأنها صلة الاتصال للجيش الفرنسي ، وذلك أن المواصلات البرية كانت مهددة من جانب الأهالي في داخل البلاد ، فاختر الفرنسيون طريق النيل للاتصال بين القاهرة والاسكندرية ، فكانت رشيد من هذه الوجهة موقعا حريباً عظيم الأهمية ، لذلك إادر نابليون وهو بمد في الاسكندرية فأوفد إليها الجنرال دوجا لاحتلالها

### احتلال رشيد

سار الجنرال دوجا من الاسكندرية براً ، واحتل في طريقه قرية أبو قير وقلمتها ، ثم احتل رشيد يوم ٦ يولييه سنة ١٧٩٨ ، ولحق به بحراً أسطول من السفن للدفعية الخفيفة بقيادة الكونت اميرال بيرى Perrée واحتاز بوزار رشيد ليكون تحت تصرفه الجيش الفرنسي

(١) أنظر الكلام عنها في الفصل الخامس

(٢) كتب المسيو دي مايه De Maillet قصص فرنسا في مصر في أولخر القرن السابع عشر وأوائل الثامن عشر في رسالته ( وصف مصر ) يقول إنه لا جاء مصر سنة ١٦٩٢ كانت ترعة الاسكندرية قد طمرت الزمالة منذ خمس وعشرين أو ثلاثين سنة فكانت جافة في زمن الشتاء ولم تكن المراكب تسير بها قط حتى في وقت الفيضان وإن هذه الحالة قد أكسبت رشيد مكانة كبيرة في ذلك العصر

لم يلبق الجنرال دوجا مقاومة في رشيد ، ويقول المسيو دفيليه أحدهم تسمى الحملة الفرنسية<sup>(١)</sup> تعليلا لذلك ، انه ذهب إلى رشيد بعد احتلالها قبل أن تسليمها راجع إلى المنشورات التي أذاعها نابليون في البلاد يوم نزوله الاسكندرية وحملها إلى الأهالي الأسرى السلحون الذين فك الفرنسيون أسارهم من ماله و جاؤا بهم إلى مصر ، قال وكان أهالي رشيد قبل اطلاعهم على هذه المنشورات عازمين على قتل الأوروبيين ، فلما اطلموا عليها رجعوا عن عزيمهم

كانت مهمة الجنرال دوجا بعد احتلال رشيد أن ينزل النيل بفرقة ليلتي يباقي الفرق في الرحمانية ، فلم يمكث رشيد أكثر من ٢٥ ساعة ، وترك بها حامية من مائتي جندي بقيادة الضابط سان فوست Saint Faust استقرت بالمدينة في انتظار قدوم الجنرال منو Menou الذي عينه نابليون حاكما لرشيد ، وكان الحكام الماليك قد هربوا منها منذ علموا بنبا احتلال الاسكندرية ، غلغت للمدينة من حكومة قوم على حراسة الأمن ، لكن الأهالي أنفسهم مدفوعين بنطرتهم السليمة أقاموا من بينهم حكومة أهلية اختاروا لها ثلاثة من خيارهم وأحلوم محل حكامهم الأقدمين ، فلما وصل الجنرال منو<sup>(٢)</sup> عمل بوسايا نابليون في احترام العلماء والكبراء ، ولم تكن القوة التي تحت قيادته تزيد عن أربعمائة رجل ، ومع أن أهل رشيد كانوا أسلس قيادا من أهل الاسكندرية فقد طلب الجنرال منو أن يمدد كليب بقوة أخرى من الجنود ، وأوضح في طلبه<sup>(٣)</sup> أن العرب يزجونه على الدوام وأن الأهالي لم يخلعوا إلى الطاعة ولتلك فهو يشكو من قلة عدد الحامية ، وقد ألتجأه الحاجة لتموين الجيش إلى فرض الضرائب على الأهليين ، فأثار كامن سخطهم ، وبالرغم من مناعة مركز الحامية الفرنسية في المدينة فإن سلطة الفرنسيين لم تتجاوز ضواحيها ، يتبين ذلك من الحادثة الآتية :

أوقد الجنرال كليب ياوره الكولونل داماس Damas رسالة إلى نابليون ، فسافر الرسول من الاسكندرية إلى رشيد ، وهناك التقى بالجنرال منو ، فأعد له سفينة أمحد بها في النيل يوم ١٦ يولييه سنة ١٧٩٨ ليصل إلى القاهرة ، لكنه لم يكده يتمد عن المدينة حتى هاجه أهالي مطوبس وادقيتا فاضطر أن يعود أدراجه إلى رشيد<sup>(٤)</sup> ثم أعاد الكرة ثانية ، ولكن لم يكده يتجاوزها

(١) في كتابه « يوميات وذكريات عن حملة مصر »

(٢) يوم ١٢ يولييه سنة ١٧٩٨

(٣) بتاريخ ٢٠ يولييه سنة ١٧٩٨

(٤) خطاب منو إلى كليب في ٢٣ يولييه سنة ١٧٩٨

بأثنى عشر فرسناً حتى أطلق الفلاحون على سفينة الرصاص من جانبي النيل فاضطروه إلى الرجوع مرة أخرى<sup>(١)</sup>،

كانت حملة الجنرال (منو) في وشيد حقيقةً قد كان مطلوباً منه أن يحمي البوغاز من غارات الأسطول الإنجليزي ، ويحمي مواضع الجيش بالإسكندرية عن طريق فرع رشيد ، ويتولى الإدارة المدنية لمنطقة رشيد، ويخضع حركات القرد والحياج التي كانت تظهر فيها ، وقد زاد مركز (منو) حرجاً بعد واقعة (أبو قير) لأن رشيد من أول المدن التي عانت بكارثة الأسطول الفرنسي في خليج أبو قير ، وأولها تأثراً من وقوعها ، فأخذت روح المقاومة تهوى في نفوس الأهالي ، كتب الجنرال (منو) إلى نابليون في هذا الصدد بتاريخ ٤ أغسطس يقول :

« لا أكلّمكم عن نكبة أسطولنا ، ونحسب أن أقول إنها عظيمة ، وليس لدى الآن تفصيلات عنها لصعوبة المواصلات بين رشيد وأبو قير بطريق البر، وصعوبة الخروج من البوغاز إلى البحر ، ولا أدري مبلغ تأثيرها في نفوس أهالي البلاد ، على أي من جهتي سأبدل كل ما في وسعي لتخفيف أثرها وسأستعمل مع الأهالي سياسة اللين والجمالة والتودد ، مع الحكمة والجزم ، وبالجملة فإن أهالي هذه الجهة متمسكون بالوداعة ولكنهم على جانب من اللهاء والسكر »

وكتب في اليوم نفسه رسالة أخرى إلى الجنرال برتييه يشكو فيها من مقامه في رشيد ويقول :  
« إن الذي يهمني بالمثل أن لا أبقى هنا طويلاً فإنك تشعر أني أؤثر مائة مرة أن أكون على رأس فرقتي على أن أدفن في هذه المدينة ، إنني حضرت إلى مصر لأكسب الفخر أو أموت فيها ، لا لأجمع الضرائب »

#### حادثة السالية

على أن الجنرال (منو) لم يكن معروفاً بالحكمة ولا بحسن السياسة ، فانه في الوقت الذي كان يعد بحملة الأهالي باللين والتودد قد استعمل النظفة والفظاظة مع أهالي « السالية » الواقعة على الشاطئ الأيمن من النيل ( بمركز اقوه الآن ) عقاباً لهم على مهاجمتهم شرمسة من الجنود أرسلها منو إلى نابليون يحمل إليه البريد ، قتلوا ثمانية من هؤلاء الجنود ، مضى على هذه الحادثة شهر ، وانتقل ( منو ) إلى القرية التي اتهمت بأن المهاجمين منها ، فأمر بقتل كل من يحمل السلاح فيها ومصادرة مواشيها ، ثم أضرمت النار في القرية



إسماعيل الفزيعي الميناء الشرقي، ١٧٩٨، انظر ص ٢٠٣  
( نقل من مجموعة رسوم السيد بيك ديبون )

كتب منو إلى كبير بتاريخ ١٣ أغسطس يقول : « لقد قُت هذا اليوم بحولة لماعة قرية قُلت بعض الفرنسيين فأحرقت القرية وقتلت تسعة من الأهالي ، وسيستبرون بهذا الدرس كما يعتبر به أهالي وادي النيل » ، وقال في آخر رسالته هذه ، « إن مركزه في المدينة دقيق لأن القوة التي لديه قزابة ستائة جندي وليسوا جميعاً في الخلمة وهذا المدد لا يكفي للدفاع عن المدينة ، والعرب يناوشونها كل يوم »

وقد أصدر منو لمناسبة هذا التتكيل منشوراً عن هذه الحادثة موجهها إلى « الأهالي الساكتين على شاطئ النيل من رشيد وفوه والقرى الواقعة ما بين رشيد وأبو قير ومن أبو قير إلى الرحمانية » ، وهذا المنشور يصف ما أوقعه من المقاب بأهالي السالية وشيوخهم الشيخ سلامة العقدة ، ويهدد البلاد بمثل هذا المقاب إن وقع اعتداء على الجنود الفرنسيين وقد زاد في استياء الأهالي كثرة الضرائب التي كان الفرنسيين يبتزونها بالقهر والقوة وكان الجنرال ( منو ) يخشى عقب كارثة ( أبو قير ) البحرية أن يفكر الانجليز في إزال قوة إلى البر ، ولكن تحقق له بعد ذلك أن هذا المشروع ليس في برنامجهم ، فطمأن نوعاً على مركزه في رشيد ، وأخذ يجتهد في توطيد مكاته بين الأهالي بالتودد إليهم ، ولكنه لم يوفق إلى كسب قلوب الناس ، فكانت الحوادث تصلمه كلما ظن أنه وطد مركزه ، وكان من هذه الوجهة قليل الاحتياط والحذر متخذاً في الظواهر ومن هذه الحوادث حادثة شباس عمير

#### حادثة شباس عمير

ومحصل هذه الحادثة أن الجنرال منو أراد أن يجوب شمال الدلتا ، ويرود بعض جهاتها ، فاصطحب معه الجنرال مارمون وبعض أعضاء لجنة الماوم والقنون منهم دينون ودلوميو (١) وبعض الضباط في كتيبة من الجنود تبلغ ٢٠٠ جندي غادرت الكتيبة رشيد يوم ١٢ سبتمبر ، فوصلت إلى ربنال في اليوم نفسه ثم في يوم ١٣ إلى مطوبس ثم في يوم ١٤ إلى فوه ثم إلى دسوق يوم ١٥ ووصل منو يوم ١٦ إلى حدود مديرية رشيد وعاد إلى دسوق ، ثم عزم على أن يكشف شمال الدلتا ويصل إلى البرلس ، فوصل إلى سنهور المدينة ، وكانت الرحلة حتى هذه القرية هادئة لم يتخللها حادث أو مصدامة ، كيند أنه لم يكد يصل إلى شباس عمير حتى اصطدمت الكتيبة بمقاومة عتيقة من الأهالي

كان الجنرال منو يتقدم الكتيبة وبعده الجنرال مارمون والسيو قيفان دينون والسيو دوميو والرسام جولى ، وبمض الحاشية وترجمان ، فلم تكذب تقرب هذه الطليعة من شباس عمير حتى أطلق عليهم الرصاص ، فاضطروا إلى التراجع ليتصلوا بالكتيبة ، ولكن أحد رفقاء الجنرال منو وهو الفنان جولى لم يستطع اللحاق بهم وعجز عن السير ، فتركه إخوانه وقتله الأهالى . فصلت الكتيبة إلى كفر شباس عمير ، وكانت محصنة بسور عال يحيط بها ، وبهذا السور أبراج حصينة كان يحتلها الأهالى ويطلقون منها النار ، فافتحمت الكتيبة الفرنسية هذا السور ، فلم يجد الأهالى بداً من إخلاء الأبراج ماعداً برجاً واحداً امتنع المدافعون عنه وأخذوا يطلقون النار على الجنود الفرنسيين ، وأصاب رصاصة جواد الجنرال منو ، نغزاً قتيلاً ، فأدرك خطورة الموقف ، وكان رجال البرج مستمرين على إطلاق الرصاص ، فرأى من المجازفة الاقتراب منه ، فأمر بإضرام النار فى القرية ، وكان الليل قد أقبل ، وجاء كثير من سكان القرى المجاورة لإنقاذ إخوانهم ، فأمر « منو » جنوده بإطلاق الرصاص فى الظلام لمقاومة المهاجمين ، واندلعت النيران فى القرية كلها ، فاضطر الأهالى المدافعون عن البرج إلى إخلائه ، وكانت الجحوش قد تكاثرت حول القرية حتى بلغ عددهم من ألفين إلى ثلاثة آلاف من الفلاحين ، فاضطر الجنرال منو إلى الانسحاب وعاد بكتيبته إلى سنبور المدينة ثم إلى دسوق ، بعد أن فقد بعض القتلى وتسعة عشر جريحاً ، ثم قفل راجعاً إلى رشيد بعد أن عدل عن متابعة اكتشافه ، وكان غرضه الوصول إلى البرلس ، فماتته هذه الحادثة ، وكتب إلى نابليون يفيته بخبرها ويذكر له ضمن رسالته أن التوغل فى هذه الجهات أمر مخوف بالمخاطر لأن معظم القرى فى تلك البلاد محصنة ولأن إخضاعها يستلزم قوة من سبعمائة إلى ثمانمائة جندي مسلحين بالدافع وكتب فى هذا الصدد إلى الجنرال برتويه رئيس أركان حرب الحملة الفرنسية يترّف بأنه كان مخدوعاً فى رحلته هذه وكان متأثراً من المقاومة الحسنة التى قوبل بها فى بعض القرى ولكن هذه الحادثة جعلته أكثر احتراساً ، فلا يأخذ الأمور بظواهرها إن كان يظن الاغناً

## لفصل العاشر

### عوداً إلى البحيرة ورشيد

#### الاضطرابات في البحيرة

عرف القارىء ما حل بقوة الجنرال ديموى Dumuy من المزعجة<sup>(١)</sup> ، وقد أوردنا ذلك في الفصل الخامس لارتباطه بمجوادث الإسكندرية

رأى الجنرال كليبر وقتئذ أن مثل هذه الكتيبة لا تستطيع أن تخضع لإقليم كبيراً كالبحيرة ولا سيما القسم الشمالى منه المتصل بالإسكندرية ، وأن الاضطرابات فيه لا تودى إلى قطع مواصلات الجيش فحسب ، بل قضى إلى تهديد الإسكندرية برأ ، وحرمانها الماء الذى يرد إليها من ترعة الإسكندرية ( ترعة المحمودية الآن ) ، فكتب إلى نابليون فى ٣١ يولييه سنة ١٧٩٨ يخبره أنه من الضروري وضع حاميات قوية من المشاة والفرسان فى دمنهور والكربون مسلحة بالدافع الخفيفة ، لترد جواب التبعة ، قال كليبر فى رسالته : « من العيث أن نتمتع على كتيبة الجنرال ديموى ، ومن الواجب تخصيص فرقة من الجنود لتوطيد النظام فى الثلث الكائن بين البحر والنيل وترعة الإسكندرية ، وحماية المواصلات البرية فى إقليم البحيرة »

وكان الأهالى لا ينفكون يقطعون ترعة الإسكندرية ليمتنعوا وصول المياه إلى الثغر ، فقامت كتيبة من سبائة من الجنود وحاصرت بلدة بركة غطاس وأحرقها ونهبها

وقد سبق القول أن نابليون كان شديد الاهتمام بهذه التبعة لأنها جزء من طريق المواصلات الآمون الذى اختاره بين الإسكندرية والقاهرة ، وزاد اهتمامه بها بعد واقعة (أبو قير) ، ذلك أن الفرنسيين لم يكن فى مقدورهم بعد أن ضاعت عمارتهم البحرية أن يسلكوا طريق البحر من الإسكندرية إلى رشيد فالنيل ، كما أن المواصلات البرية كانت شاقة ومعرضة لهجمات الأهالى ، فلم يكن أمام الفرنسيين إلا جعل ترعة الإسكندرية صالحة للمواصلات

التيلية ، وقد عهد نابليون إلى بعض مهندسى الحملة الفرنسية فى إنفاذ هذا المشروع<sup>(١)</sup>

عزم نابليون على مقاومة الاضطرابات فى مديرية البحيرة وبخاصة بعد هزيمة الجنرال ديموى ، فعين الأجدودان جنرال ييرب Birbes قومنداناً لها وأسدر اليه تعليماته وأمرها أن يأخذ أهل دمنهور أخذاً شديداً بمسلحهم إزاء كتيبة الجنرال ديموى وأمره بالسير من القاهرة إلى الرحمانية ومن هنه إلى دمنهور إنفاذاً لمهمته بها وهى « تجريد الأهالى من السلاح وإعدام خمسة من أعيان المدينة فيهم واحد من العلماء ممن اشتركوا فى الواقعة والأربعة الآخرون من المحرضين ، واعتقال خمسة وعشرين رجلاً يأخذهم رهائن فيرسلهم إلى القاهرة بطريق النيل » ، وأن يعود بعد ذلك إلى الرحمانية إذ عزم نابليون على جعلها عاصمة مديرية البحيرة<sup>(٢)</sup>

#### مهمة الجنرال مارمون

على أن قوات الجنرال ييرب والجنرال ديموى لم تكن كافية لقمع المياج فى البحيرة ولا سبياً بعد واقعة (أبو قير) التى أضعت هيبة النفوذ الفرنسى فى تلك الجهات ، فعهد نابليون إلى الجنرال مارمون Marmont إخضاع القسم الشمالى منها ، وتأمين مواصلات الجيش بطريق ترعة الإسكندرية والنيل ، وحماية شواطئ البحر من هجمات السفن البريطانية ، وتحصين المواقع التى يحتمل أن تنزل بها الجنود الإنجليزية من جهة المجرى ( غربى الإسكندرية ) إلى رشيد وتحصين بوزاز رشيد والبرلس<sup>(٣)</sup>

(١) جاء فى مذكرات نابليون التى أسلمها على الجنرال برتران Bertrand فى سانت هيلين أن ترعة الاسكندرية هى أهم ترعة فى مصر من الوجهتين الاقتصادية والحربية ، وقد وضع السيو لوير Le Père كبير مهندسى الرى فى عهد الحملة الفرنسية مشروعاً لجعل هذه التربة سالحة للملاحة ، ولكن المشروع لم يتخذ ، وظلت الاسكندرية فى عزلة عن المواصلات النيلية إلى أن أمر محمد على باشا بإنشاء ترعة المحمودية مكثها

(٢) كانت الرحمانية موقفاً حرجياً على جانب كبير من الأهمية لوجودها على فحة ترعة الاسكندرية ، فأقام الفرنسيون فيها قلعة ومستودعاً لمهمات الجيش ، على أن نابليون بدأ أن جعلها وقتاً ما حاضرة البحيرة عاد وجعل دمنهور حاضرتها

(٣) كانت بحيرة البرلس أوسع مدى مائى عليه الآن مكانت تمتد غرباً إلى القرب من برنال الواقعة على البر الشرقى للنيل ، تخفى نابليون أن تدخل السفن الإنجليزية الخفيفة من بوزاز البرلس وتصل إلى مقربة من برنال ورشيد ، فأمر بإقامة قلعة على مدخل البرلس مكان القلعة القديمة التى كانت آثارها باقية إلى ذلك العصر ، وقد تم إنشاء القلعة الجديدة فى عهد متو ، وكذلك أمر نابليون بإقامة برج حصن فى برنال



تلقي مارمون تعليمات نابليون بعد عودته من حادثة شباص عمير<sup>(١)</sup> وكانت تعليماته تنطوي على القسوة والفظاحة فقد كتب له يقول :

« إنكم ستجدون تحت قيادتكم قوة من ١٥٠٠ جندي ، فبهذه القوة ونشاطكم وكفائتكم تستطيعون أن تكسبوا غزاً جديداً وتقديراً عظيماً لخدمتكم ، فكونوا ليل نهار على عام الأبهة ، وأغلظوا العقاب للقرى بصرامة وقسوة »

صدع مارمون بالأمر ، فوصل إلى الرحمانية يوم ٢٠ سبتمبر سنة ١٧٩٨ ، وسار في ناليه قاصداً إلى دمنهور ، وراذ شواطيء ترعة الإسكندرية حتى بلغ الثغر وأصلح ما خربه الأهالي ، وأقام المخافر العسكرية على التربة وترك ألفي جندي لحراستها وجعل الرحمانية مركزاً رئيسياً للقوات المخصصة لهذه الحراسة ، ومركزاً آخر بالحرب من المعركشة ، عدا المخافر التي أنشأها على جانبي التربة والسرايا ( الدوريات ) المسلحة التي أقامها لحراستها

تمكن الجنرال مارمون من إصلاح التربة وتنظيم المواصلات فيها مدة الفيضان ، فأزجى فيها كثيراً من مهمات الجيش من الإسكندرية إلى القاهرة ، وانتشرت الاسكندرية لوصول الغلال بطريق التربة ، وأخذت المواصلات تزداد نشاطاً ، فكان بالترعة نحو مائتي سفينة عاملة في النقل ليلاً ونهاراً ، على أن انخفاض النيل حال دون سير المراكب فيها ، وعطل الارتفاع بها ولم تستمر للملاحه فيها أكثر من بضعة أسابيع

وكانت السفن الإنجليزية قد استأثفت في ذلك الحين مناورتها حول الاسكندرية ، وبجبتها بعض السفن التركية ، فاضطر الجنرال مارمون أن يعود أدراجه إلى الاسكندرية ليتولى حمايتها من الهجمات الطارئة

### تجدد الاضطرابات حول رشيد وفي دمنهور

كانت السفن الإنجليزية والتركية توفد بعض الرسل إلى الشواطيء لتحرض الأهالي وتشجعهم على الثورة ، وقد قويت روح الميلاج في ضواحي رشيد ، وكان ذلك في شهر نوفمبر سنة ١٧٩٨ ، فكرر الاعتداء على قوافل الفرنسيين بمجعات رشيد وأبو قير وشمال البحيرة احتشد حول رشيد جمع من الأهالي ليلة ٢٠ نوفمبر ففاجأهم القوات الفرنسية وأسرت منهم بعض رجالهم ، وآتهم الفرنسيون مشايخ بلاد اذكو وادقينا بالكيد لهم وأن لهم يدا في هذه الأعمال المذائية ، فغى بهم إلى رشيد ، وقتلوا رمياً بالرصاص بأمر الجنرال منو

وازداد الهياج كذلك في جهة دمنهور التي لم تكن خضعت من قبل للسلطة الفرنسية ، وكانت تابعة عسكرياً للرحمانية التي رابط بها الادجودان جنرال لتورك Leturc فأبدأ بجريد حملة عليها لكن قوته لم تكن كافية لهذه التجربة فضلاً عن أنها كانت منصرفة إلى صد مناوشات جوع الأهالي في جهة الرحمانية ، وكان الجنرال مورا Murat ذلك الوقت في رشيد فأوفده منو إلى دمنهور لجمع الحركات العدائية التي تجددت بها

سار مورا من رشيد إلى الرحمانية ومن هناك قصد إلى دمنهور يماونه الادجودان جنرال لتورك ، فاحتل دمنهور في أواخر نوفمبر سنة ١٧٩٨ وأعدم بعض زعماء الحزكة رزياً بالرصاص وفرض على المدينة إتاوة كبيرة من الغلال والواشي ، ولكن جوع العرب والأهالي الذين قاموا بالحركات الثورية بها تمكنوا من الانسحاب وأوغلوا في الصحراء ، فعزم مورا على تعقبهم وأقام عدة أيام في دمنهور لإخضاع القرى المجاورة وفرض الترامات عليها وناط بالجنرال لتورك هذه المهمة <sup>(١)</sup> ، ثم غادر دمنهور في أوائل ديسمبر قاصداً قرية (دير أمس) إذ جاءه أن الثوار وعلى رأسهم سليم كاشف وإبراهيم الشوزيجي صهابطون بها ، وسبل الجنرال مورا ليلاً ، وعلى الرغم من أنه ضرب الحصار عليها فإن الثوار قد تسللوا منها وسط طلقات الرصاص وأوغلوا ثانية في الصحراء ، وكانت الجنود الفرنسية قد أنهكها التعب فاستراحت في دير أمس ثم استأنفت السير فتتق أثر الثوار ، لكنها لم تستطع اللحاق بهم واضطر الجنرال مورا أن يعود إلى دمنهور ثم سار منها إلى الرحمانية وتلقى بها أواس نابلليون ، فقام من الرحمانية يوم ٥ ديسمبر قاصداً إلى شاور فوصلها ليلاً ، وهناك علم أن قافلة من الأهالي والعرب ضاربة في الصحراء بالقرب من الصواف ، فقام في صباح ٦ ديسمبر يتمقب هذه القوة ، ومن بعدة قرى فألقاها خالية قد هجرها أهلها فراراً بأنفسهم من قمة الجنود الفرنسية ، ووصل إلى الصواف ، ومن هناك سار على أثر القافلة إلى أن اقترب من مؤخرتها وكانت مؤلفة من ستائة فارس ، فأطلق عليهم ألفرنسيون النار فانهزموا تاركين معسكرهم وما فيه من اللتاع والعتاد ، فجد الجنرال مورا في تعقبهم ، ولكنه عجز عن اللحاق بهم ، فاكفى بإلقاء النار في معسكرهم وأحرق كل ما كان به من اللتاع والغلال

واستأنف مورا سيره قاصداً الطرانجا بالبر الغربي لفرع رشيد ، ثم رجع منها أدارجه إلى القاهرة

(١) كتب الجنرال مورا إلى نابلليون بتاريخ ٤ ديسمبر سنة ١٧٩٨ يصف هذه المهمة بقوله : « إن الجنرال لتورك جمع الحيور والأموال من جميع القرى المجاورة لدمنهور وأنه أرسل إلى الاسكندرية ستين حملة غللاً مما سادره من الغلال »

## الفصل الحادى عشر

### فى القليوبية والشرقية

علم القارى أن إبراهيم بك فرّ بمالكيه عقب انتصار الفرنسيين فى معركة الأهرام إلى جهة بلبيس ، وحمل معه ما استطاع من الأموال والمتاع ، ولم تحارب القوة التى اصطحبها معه فى معركة الأهرام فبقيت سليمة وإن كانت قليلة العدد ، لكن نابليون توجب من وجود هذه القوة فى شرق الدلتا وعلى مسافة ٤٠ كيلو متراً قريباً من القاهرة خطراً يهدد مركز الفرنسيين ، فاعترم بعد أن وطد مركزه فى القاهرة أن يتعقب إبراهيم بك ليخلص له الوجه البحرى ، وكذلك أجمع أن يطارد مراد بك الذى فر بالبقية الباقية من فلول جيشه إلى الوجه القبلى وعهد بذلك إلى الجنرال ديزيه Desaix ، على أن نابليون لم يكن يرى بادى الأمر فى قوة مراد بك خطراً كبيراً لأن الهزيمة التى حاقت به فى معركة الأهرام قد قللت ألقافاره وهوت من أمره ، لذلك اعترم أن يوجه معظم قوته لسحق إبراهيم بك فى شرق الدلتا إذ كان لم يزل مرابطاً بمحيشه فى بلبيس ، أضف إلى هذا اقتراب وصول قافلة الحج من الحجاز ، فرأى نابليون من مصلحته السياسية أن يتولى تأمين مواصلات الحج لينحشد أروذلك فى نفوس المصريين والعالم الإسلامى ويكتسب عطف أمراء الإسلام ثم ليقنع شريف مكة وعرب الحجاز واليمن أن وجود الفرنسيين فى مصر لا يقطع سبيل الحج التى هو مصدر أرزاقهم

وإليك ما ذكره الجبرقى عن خطة نابليون لذاء قافلة الحج : « فى عشرين صفر سنة ١٢١٣ ( ٣ أغسطس سنة ١٧٩٨ ) حضرت مكاتب الحجاج من العقبة فذهب أرباب ( أعضاء ) الديوان إلى باش السكر ( القائد العام ) وأعلوه بذلك وطلبوا منه أمناً لأمر الحج ( صالح بك ) فامتنع ، وقال لا أعطيه ذلك إلا بشرط أن يأتى فى قلة ولا يدخل معه بمالكيه كثيرة ولا عسكر ، فقالوا له ومن يوصل الحجاج فقال لهم أنا أرسل لهم أربعة آلاف من العسكر يوصلونهم إلى مصر ، فكتبوا لأمر الحج مكاتبه باللائقة وأنه يحضر بالحجاج إلى الدار الحمراء وبعد ذلك يحصل الخير ، فلم تصل إليهم الجوابات حتى كاتبهم إبراهيم بك يطلبهم للحضور إلى جهة بلبيس فتوجهوا إلى بلبيس وأقاموا هناك أياماً »

## توزيع القوات الفرنسية في الوجه البحري

صحّت عزية نابليون إذن على تجريد جيش للقضاء على قوة إبراهيم بك في شرق الدلتا ، وقبل أن يزحف بجيشه وزع القوات العسكرية على مديريات الوجه البحري لإخضاعها وتوطيد سلطة الفرنسيين فيها ، فعين الجنرال فيال « Vial » قومنداناً لمديرتي المنصورة ودمياط ، والجنرال زاوونشك « Zayonchek » قومنداناً للمنفوية ، والجنرال فوجير « Fugières » قومنداناً للمنفوية على أن يكون مقره المحلة الكبرى ، وصحة المديرية في ذلك العصر ، والجنرال مورا « Murat » للقلوبية ، والجنرال رامبون « Rampon » لأطفيح ، وأبقى الجنرال ديزيه « Desaix » جنوبي الحيزة يرصد حركات مراد بك ، وأمر الجنرال لكرك « Leclerc » بالسير إلى بليس

### المبارك بين الخانكة وأبي زعبل

بدأت طلائع الجيش الفرنسي تزحف يوم ٢ أغسطس سنة ١٧٩٨ من القاهرة بقيادة الجنرال لكرك ، فرت بأهله ومنها سارت إلى المطرية ثم إلى الراج دون أن تجد مقاومة ما ، فإن الأهالي كانوا ينحون عن بلادهم قبل قدوم الفرنسيين ، ومن الراج سارت القوة إلى الخانقا ( الخانكة ) وبها استقرت واتخذها الفرنسيون قاعدة عسكرية للزحف ومركزاً لتكوين الجيش وأنشأوا بها الأفران ومخازن البقساط والراد والعلف

قصبت الكتيبة يوم ٤ من أغسطس قرية أبي زعبل ولكن سدم عنها جمع من العرب والفلاحين مسلحين بالبنادق والمعصى<sup>(١)</sup> (الشاريخ) فمادت الكتيبة أدراجها إلى الخانكة وأخذ الأهالي من العرب والفلاحين يتقيونها إلى مستقرها

وفي صباح ٥ من أغسطس هاجم الأهالي الخافر الأممية لمعسكر الخانكة بقوة أكبر من قوتهم الأولى إذ انضم إليهم مائتان من المماليك ، وبدأ الهجوم ، فبرزت من غابة أبي زعبل قوة من فرسان العرب يتبعهم عدد حاشد من الفلاحين ، ولم يكن هؤلاء يحملون في الغالب إلا أسلحة ضعيفة فلم يتجاوز عدد حملة البنادق منهم السدس ، فأحاطوا بالفرنسيين من كل جانب ، تخفيم الزروع والنبطان ، وانضم إليهم سكان القرى المجاورة<sup>(٢)</sup> ، فأطلقوا النار على الفرنسيين من كل صوب ، ولكن نيران المدفعية والبنادق أوقفهم بعيداً عن المعسكر ، فأعادوا الهجوم كرة بعد كرة ، واضطروا جنود المقدمة إلى التراجع

(١) حرر السكاكين مالوس إلى الجنرال كلفاريللي

(٢) حرر السكاكين مالوس

### انسحاب الفرنسيين من الخانكة ثم احتلالها

وأدرك الجنرال لكورك الخطر من الإصرار على الدفاع عن قرية الخانكة ، فأجبر أن ينسحب منها ويرتد غربا ، وفي أثناء المركة ثارت قرية الخانكة نفسها فوثب أهلها برجال الحرس الفرنسيين الموجودين بها فجددوم من السلاح وقتلوم .

استولى الفرع على الجنود الفرنسية ولم يطبقوا البقاء معرضين للهجمات ، فجمع القائد ضباطه وتشاوروا في الأمر فاستقروا على إخلاء الخانكة والتراجع عن القرية ، فتقهقروا بعد غروب الشمس وكان عددهم نحو ستمائة مقاتل وارتدوا قاصدين للطرية ، وفي طريقهم إليها قابلهم الكولونل سلوكوسكي أحد ياوران نابليون فأنبأهم بقرب وصول فرقة الجنرال رينييه Reynier لتجديتهم ، لكنهم استمروا في إدبارهم حتى وصلوا إلى المرج وقضوا بها آخرة الليل ، ولما لاح الفجر وصلت قوة الجنرال رينييه فرجعوا يريدون استرداد الخانكة ووصلوا إليها ظهر يوم ٦ أغسطس وقد زاد عددهم ، فوجدوها خالية من أهلها<sup>(١)</sup>

كانت الخانكة من جهة موقعها ذات شأن عظيم لأنها تكاد تكون في منتصف الطريق بين القاهرة وبليس ، لذلك وجه إليها نابليون عناية كبرى في اتخاذها قطعة ارتكاز للزحف ، وكان في أوامره العسكرية يهتم بجمعها على تمام الأهبة لإقامة الجنود بها

وكان سير الجيش محفوفا بصعوبات كبيرة لاصطدامه مع الأهالي أين توجه ، كتب الجنرال لوجيه Laugier إلى الجنرال دوجا في ٦ أغسطس يقول :

« ثارت القرى التي أرسلنا إليها بعض فرسان الدراجون لأخذ الخيول منها وعاد الفرسان يخبروننا بهذه الثورات ، وكل الدلائل تدل على أنه لابد من قوة كبيرة لإخضاع هذه الجهات »

### احتلال بليس

ثم وصلت بقية الجيش الفرنسي بعد استرداد الخانكة ، فجاء نابليون ومنه فرقة الجنرال دوجا والجنرال لان وانضمت إليهما فرقة الجنرال رينييه

فسار نابليون على رأس الفرق الثلاث قاصداً بليس عاصمة الشرقية في ذلك الحين ووصل

(١) أخذنا هذه البيانات عن تهرير الكابتن مالوس إلى الجنرال كافريلى ، وإليك ما ذكره الجبرتي في هذا الصدد : « في ثالث وعشرين صفر ( سنة ١٢١٤ ) خرجت طائفة من السكر الفرنسي إلى جهة البادية وصار في كل يوم تدب طائفة بعد أخرى ويتبعون إلى جهة الشرق ، فلما كان ليلة الأربعاء خرج كبيرهم بونا بارت وكانت أوائلهم وصلت إلى الخانكة وأبى زعبل وطلبوا كلغة من أبى زعبل فاستنوا فهاجمهم فسرهم ونهبوا الليلة وأحرقوها وارتحلوا إلى بليس »

إليها يوم ٩ أغسطس بئد أن أخلاها إبراهيم بك ، فاعتزم نابليون أن يتعقبه قبل أن ينادى  
بجود مصر إلى الشام ، ولحق الفرنسيون في بليس من بقى من الحجاج بعد أن ارتحل بعضهم  
إلى يلام قبل وصول الجيش الفرنسى ، وكان أمير الحج صالح بك قد طعن إبراهيم بك وصحبه  
جماعة من التجار وغيرهم لأن إبراهيم بك كتب إلى أمير الحج بعد معركة الأهرام ينصح له  
أن لا يذهب إلى القاهرة ويرغب إليه في اللحاق به في الصالحية ، وبقي في بليس من لم يقدر من  
الحجاج أن ينادوها فلم يتعرض لهم الفرنسيون بسوء وأرسلوهم إلى القاهرة تحرسهم كوكبة  
من جنودهم<sup>(١)</sup> وفى ذلك يقول الجبرى : « وفى ١٨ صفر ملك الفرنسيين بليس من غير قتال  
ومن بقى فيها من الحجاج لم يشوشوا عليه فأرسلوهم إلى مصر ومعهم طائفة من العسكر » .

### معركة الصالحية ( ١١ أغسطس سنة ١٧٩٨ )

م يصيح نابليون وقتاً في بليس بل أرسل قوة من فرسانه ليلة ١٠ أغسطس في أعقاب  
إبراهيم بك ، ووصل الجيش إلى ( القرن ) في ١٠ أغسطس دون أن يلحق بقوة إبراهيم بك  
الذى غادرها قبيل وصول الجيش الفرنسى قاصداً إلى الصالحية ، فتعقبه نابليون بفرسانه دون  
أن ينتظر فرقة الجنرال لان Lannes وانضم إليه الجنرال مورا Murat الذى جاء من  
قليوب بقوة الفرسان ، فاشتبك نابليون مع قوة المالك في معركة عرفت بمعركة الصالحية  
( ١١ أغسطس سنة ١٧٩٨ ) لأنها وقعت على مقربة منها ، وقد جى وطيس القتال في هذه  
المعركة وكانت تدور البائرة على قوة الفرنسيين لأنها كانت مؤلفة من عدد قليل من فرسانهم  
لا يزيد عن أربعمائة وكان فرسان المالك أكثر منهم عدداً وأشد بأساً ، فكانت هذه أول  
معركة تشب بين فرسان الجيشين ، والتقى فيها الفريقان وجهاً لوجه ، واقتتلوا بالسلاح  
الأيض ، فتخرج مركز الفرنسيين لأن فرسان المالك اشتهروا بالمهارة والبسالة في قتالهم ،  
ولا غرو فقد كانوا أحلاماً من الخيل وأبناء الطمن والضرب ، ولم ينفذ نابليون إلا وصول اللد  
من الجنرال لكرك ، فاضطر المالك إلى الانسحاب ، وجرح في هذه المعركة من خاصة رجال  
نابليون الكونتال سلكوسكى<sup>(٢)</sup> ياوره ، والكوتونل ديترس Detrés وغيرهما من  
الضباط جرحوا بالته ، وفى ذلك يقول الجبرى :

(١) عين نابليون بعد عودته إلى القاهرة مصطفي بك كفتخيا ( وكيل الوالى ) أميراً لضج بخارج  
سبتمبر سنة ١٧٩٨ . ( ٢١٠ رجب الأول سنة ١٢١٣ ) كما أوجها ذلك في الفصل الثانى عشر  
( ٢ ) هو الذى قتل في ثورة القاهرة ، وأجج الفصل الثالث عشر .

« فركب صارى عسكر وأخذ منه انطيسالة وقصد الإغارة على الحلة ، وعلم ابراهيم بك بذلك أيضاً ، فركب هو وصالح بك ( أمير الحج ) وعدة من الأمراء المماليك وتحاربوا منهم ساعة أشرف فيها الفرنسيين على الهزيمة لكونهم على الخيل ، وإذا بلخير وصل إلى ابراهيم بك بأن العرب مالوا على الحلة يقصدون نهبا ، فمند ذلك فرّ بمن معه على اتره ، وتركوا قتال الفرنسيين ولحقوا بالعرب فأجلوم عن متاعهم وقتلوا منهم عدة ، فأرحلوا إلى قطيا ورجع صارى عسكر ( نابليون ) إلى مصر وترك عدة من عساكره متفرقين في البلاد »  
فالجبرى ينسب انسحاب المماليك في معركة الصالحية إلى نهب العربان للحملة واضطرار أولئك إلى إجلائهم عنها واستعادتها منهم ، وقد انتهت هذه المعركة بانسحاب ابراهيم بك ومن معه إلى حدود مصر الشرقية

#### عودة نابليون إلى القاهرة

غادر نابليون الصالحية يوم ١٣ أغسطس عائداً إلى القاهرة ، وفي طريقه إليها جاءه نبأ كارثة الأسطول الفرنسي في واقعة أبو قير ومقتل الأميرال برويس<sup>(١)</sup> ، حمل اليه هذا النبأ الضابط لوييه Loyer باور الجنرال كليبر في رسالة بعث بها اليه كليبر من الإسكندرية ، فلما تلا نابليون الرسالة وفيها أعظم نكبة أصابت الحملة الفرنسية تلقاها بالحد والصبر ، ولم تبد عليه علامة الاضطراب وأخذ يسأل الياور عن تفاصيل الواقعة مما لم يرد في الرسالة ، وبعد أن أمم الياور كلامه أبلغ نابليون نبأ الكارثة إلى أركان حربه قائلاً لهم : « إن أسطولنا لم يعد له وجود ، والآن يجب علينا أن نبقى في هذه البلاد أو نخرج منها عظام كما فعل الأقدمون » ، ثم جعل يأسر إلى القاهرة ليزيل بوجوده الأثر للمعنى الذي أحدثته أخبار الكارثة في مصر فقامها يوم ١٤ أغسطس سنة ١٧٩٨ وهناك خاطب ضباطه قائلاً : « ها نحن أولاء مضطرون أن نعمل العظام ، ونستعملها ، ولأن تونس في هذه البلاد دولة كبيرة ، وستؤمينا ، إن البحار تفصل بيننا وبين الوطن ولا سلطان لنا على هذه البحار ، ولكن ليس عمة فاضل يفضلنا عن آسيا وأفريقية ، وغنبتنا من الرجال الهند الوافر ، ولا يتقننا اللد لتقوة سفوفنا

(١) يقول نابليون في رسالته إلى كليبر الواردة في مجموعة رسائله رقم ٣٠١٨ إنه تلقى نبأ الواقعة في الصالحية ، وفي تقريره إلى حكومة الديركتوار يقول إنه تنهأ بعد أن غادر الصالحية إذ كان على بعد فرسختين منها

ولا تنقسمنا الميرة والتخيرة ، وإننا احتجنا إلى المزيد منها فإن شامبي Champhy<sup>(١)</sup> وكوتني<sup>(٢)</sup> Conté كفيلان بصنعها<sup>(٣)</sup> »

### الاضطرابات في الشرقية

عادت فرقة الجنرال لان إلى القاهرة ورجع الجنرال مورا Murat بالقوة التي كانت تحت إمرته إلى قليب لإخضاع مديرية القليوبية ، وسار الجنرال دوجا بفرقة إلى المنصورة لإخضاع القسم الشمالي الشرق من الدلتا<sup>(٤)</sup> وبقيت فرقة الجنرال رينيه وفرسان الجنرال لكلارك في الصالحية حيث أمر نابليون بتحصينها لحراسة برزخ السويس ومراقبة حدود مصر الشرقية ، واتخذ من الصالحية مركزاً لتموين الجيش ، وعين الجنرال رينيه قومنداناً لمديرية الشرقية وعهد إليه في إقامة الطوابي والاستحكامات بالصالحية وبليس واستطلاع أخبار المماليك الذين ارتدوا إلى حدود سوريا ، وقد اتخذ الجنرال رينيه مسجد الصالحية مركزاً عسكرياً للفرقة وأنشأ فيه الأفران والمخابز للجيش وأقام فيه المدافع ، وأقره نابليون على حنيمة الشير الحفيظة الأهالي وأمره « أن يزيد عدد الأفران التي بالمسجد وعدد المدافع التي نصبوها عليه وأن يتخذ فيه مخزناً للبارود ومستشفى للجنود ويحمل منارته مرصداً لاستطلاع الحركات العدائية » ، وقد سارت الصالحية وبليس في عهد الحملة الفرنسية من المواقع الحصينة وعلى جانب كبير من المناعة

كان مقام رينيه في الشرق مقروناً باعتداء الجنود وجرائمهم ، فكانوا يجوبون القرى وينهبون الماشية فيضطر الناس إلى الرحيل عن قرام تهريب مواشيهم في الصحراء ، وعبثاً

---

(١) و (٢) من أعضاء المجمع العلمي ، أنظر ما كتبتهما بالفصل الرابع من ١١٠ و ١١١  
(٣) قلنا هذه العبارة عن مذكرات نابليون التي أملأها على الجنرال بتران بسانت هيلين ، وقد كتب الجنرال مارمون في كتابه ( رحلة للرشال النوق دي واجوز ) يقول إنه كان بجانب نابليون حينما جاءه بيا كارتة المارة الفرنسية في معركة أبو قير وإنه تآلى هذا النأ وهو في خيته ( خيمة مارمون ) في معسكر الخانكة بين بليس والقاهرة ( وهذا يخالف ما ذكره نابليون كما بيناه في هامش الصحيفة السابقة ) قال مارمون يصف حالة نابليون عندئذ : « تلا الجنرال بونايرت رسالة كليبر وظل تاجاً رابط الجأش ، وأبان عن شيء كثير من علو النفس وقوة الأأس ، ولم يكتم عنا عظم النكبة وما تحم به من المواقب ، ولكنه اجتهد في أن يخفف عنا أثر وقعها » ، وذكر الجنرال مارمون أقوال نابليون وهي لا تخرج في معناها عما جاء في مذكراته

(٤) قبل أن يتأخر نابليون الصالحية أصدر أمره بجين الجنرال دوجا بفرقة قومنداناً لمديرية المنصورة وأن يهضر الجنرال فيال على دياط



حاول الجنرال رينيه أن يردّ النظام في صفوف جنوده أو يقنع الأهالي في القرى المجاورة أن يبيعوه ما يحتاج اليه من الواشي بالثمن فلم يصدقوه ولم يأمنوه وأخذوا يفرون من القرى بمواشيهم نجاهاً بها من النهب والسلب ، وكانت صدور الفرنسيين من جهة أخرى مفرغة على الأهالي لملهم السلاح في وجههم ، فاضطربت الأحوال في الشريعة وظل الأهالي يناوشون الحاميات الفرنسية ويهددون مواصلات الجيش مع القاهرة ، وقد اشتعلت حركاتهم في أوائل أكتوبر سنة ١٧٩٨ عندما انبثت فكرة الثورة في القاهرة وبدأت تدب الدعوة اليها في الأقاليم ، فاجتأر الثوار على مهاجمة المخافر الفرنسية ، وقتل الأهالي ترجان الجنرال رينيه الخصاص على مقربة من معسكر الفرنسيين في بليس ، وقام أهل « بيشه » الفرنسيين عندما شرعوا في مصادرة خيولهم ، وبدأ أهالي بليس وأعوانهم من العرب المجاورين لهم يهاجمون معسكر الفرنسيين في المدينة ، ولم يستطع الجنرال رينيه أن يخضع القوم لأن الفيضان قد خرب الأرض ففعل حركات الجنود في انتقالها إلى القرى ، كما أن الأمراض قد فتكت بالجنود وبخاصة الرمد الذي انتشر بينهم

وقد كان لجود الحامية الفرنسية ولدعوة الثورة التي استطارت من القاهرة في الأقاليم أثر كبير في تشجيع الأهالي على مهاجمة معسكر بليس بقوة كبيرة ، فبدأ هجومهم فجر يوم ٢١ أكتوبر سنة ١٧٩٨ فأقبل مائة من الفرسان من قبيلة المائد قادمين من الصحراء فالتقوا بكتيبة من الفرنسيين وقتلوا منها بعض الجنود ، فرد الجنرال رينيه بهمة العرب ولكنه اضطر أن ينسحب إلى بليس ليرد هجوماً آخر كان يهدد مركزه في المدينة وقد اشترك فيه ٢٥٠ من الفرسان و ١٢٠٠ من المشاة

فربط رينيه بالمدينة حتى أقبل إليه اللد ثم أخذ يهاجم الثوار إلى أن ارتدوا عنها وسار بجنوده يتبعهم حتى قابوا في الصحراء فساد إلى بليس ، وفي هذا الوقت كان عرب بل قد أقبلوا من طريق القاهرة ، وهاجموا المعسكر ، فدم الجنود الفرنسية ، ثم كروا بعد قليل ولم قوة أكبر فكان عددهم كما قدره الجنرال رينيه ٥٠٠ فارس و ١٢٠٠ إلى ١٥٠٠ راجل ، قال عليهم رينيه بجنوده ومدفعية قرقهم بالبنادق والدافع وردد إلى قرية « غيته »<sup>(١)</sup> ، وفيما هو على أثرهم هجم الجمع الخاضد من أهالي البلاد المجاورة (قصر رينيه بالعين من المشاة و ١٥٠ من الفرسان) على القضاء الذي يفصل المعسكر عن بليس ، ولكن رينيه ردم على أعقابهم

عند عودته إلى المدينة ، ثم عادوا إلى الهجوم ثانية وكذلك ردتهم الجنود الفرنسية ، ثم استمرت الحرب سجالات بين الفريقين .

لم تنقطع الحركات العدائية حول بليس ، ولم يكن لدى الجنرال رينيه من الجنود القوة الكافية لتجريد حملة على الثوار تنزوم في بلادهم وقراهم ، فأصبحت مواصلات الجيش الفرنسي مهددة ، وأرسل رينيه يطلب النجدة من نابليون ، فأمره وأمره أن لا يغفل عن تأمين موقعي بليس والصالحية ، وأن يهلك بقوته القبائل التي تهرعت أو شاركت في الحركات الأخيرة ويأخذ منها الزهائن ، وأمره كذلك بمعاينة البلاد التي اشتركت في الثورة وأن يأخذ منها ما يحتاجها ويقتلهم لأنهم هم المسؤولون فهم المأخوذون بما يحدث في بلادهم<sup>(١)</sup>

وقد علم الأهالي والمرب أن رينيه زاحف عليهم للإيقاع بهم والقصاص منهم ، فأوغلوا في البلاد البعيدة وأخلوا القرى المجاورة لبليس ، فلم يستطع رينيه أن يجرّد حملة لتعقبهم ، وأمر أن يمدل معهم إلى الحامسة فلجأ إلى المناوضة مع زعمائهم لإعادة السكينة وإقراؤها ، لكنه لم يوفق توفيقاً يستد به

واستمرت الاضطرابات في الشرقية بعد ذلك لم تنقطع ، قال الجيزي في حوادث أواخر وجب سنة ١٢١٣ ( ديسمبر سنة ١٧٩٨ ) :

« حضر سناري عسكر ( نابليون ) من ناحية بليس إلى مضر ليلا وأحضر معه عدة عربان وعبد الرحمن أباطة أخو سليمان أباطة شيخ المناينة وخلاته رهائن وضربوا أبو زعبل والمير ، وأخذوا مواشيهم وحضروا بهم إلى القاهرة وخلفهم أصحابهم »

---

(١) رسالة نابليون إلى رينيه في ٢٧ أكتوبر سنة ١٧٩٨ .

## الفصل الثامن عشر

### عودٌ إلى القاهرة

#### سياسة الحفلات

كان نابليون يسعى بكل الوسائل إلى كسب قلوب المصريين، واستغلال الضئيلة منها وتحفيف حدة النفرة والكراهية التي كانت تبدو عليهم منذ احتلال الفرنسيين للبلاد، ومن الوسائل التي ابتكرها لإقامته الحفلات والأفراح لإدخال السرور إلى قلوبهم، ولعله كان يدرك ميل المصريين القبطى إلى الابتهاج والانشراح بما كان يشاهده من تجمع الأهالى في شوارع القاهرة لسباع المنين والنقيرين على السقوف، فأراد أن يوصل إلى قلوبهم من طريق التفرح، وكان له غرض آخر من إقامة الفرجات والحفلات، ذلك حين أراد أن يحجب عن الشعب أثر النكبة التي حلت بأسطوله في واقعة أبو قير البحرية ويظهر بأنه لا يكثر غناؤه ويتودد إلى زعماء الشعب ليكسب قلوبهم في تلك الأوقات المصيبة بعد أن أصبح محصوراً في القارة الإفريقية، فأخذ يتحين ما يمرض من المناسبات لإقامة الأفراح والحفلات، ولذلك سمينا هذه السياسة سياسة الحفلات

#### مهرجان وقاء النيل

انتهز أولاً فرصة وقاء النيل ليشارك المصريين في احتفالهم بهذا اليوم المميد، فأمر بأن يجري الاحتفال المتداد وأن يشارك الجيش في المهرجان، فاصطفت الجنود بمجاء النيل، وحضر نابليون الاحتفال مصحوباً بقواده وأركان حربه ومجانبه كخضدا البابشا (نائب الوالى) والقاضى التركى (قاضى مصر) وأعضاء الديوان والأغا (المحافظ) وأعيان المدينة، وازدانت السفن بالأعلام والرايات، وأطلقت المدافع والسوارخ النارية من البر والبحر، لكن الأهالى لم يشتركوا في هذا الاحتفال، ولم يخرجوا للتزده ليلاً في الراكب كما أنهم كل عام، وفى ذلك يقول الجبرتي: «في يوم الجمعة خمس ربيع الأول سنة ١٢١٣ الموافق ثلاث عشر فسرئى القبطى (١٧ أغسطس سنة ١٧٩٨) كان وقاء النيل المبارك، فأمر جارى عسكر بالاستعداد وترتين القبة كالعادة، وكذلك زينوا عدة صراكب وغلايين (سفن حربية)

ونادوا على الناس بالخروج إلى التزهة في النيل والقياس والروضة على عادتهم ، وأرسل صاري  
عسكر أوراقا ( تذكر دعوة ) لكتفها الباشا والقاضي وأرباب ( أعضاء ) الديوان وأصحاب  
الشورة والتولين للمناسب وغيرهم بالحضور في صبيحتها ( السبت ٦ ربيع — ١٨ أغسطس )  
وركب صبيحتهم بموكبه وزيفته وعساكره وطبوله وزموره إلى قصر قنطرة السد ، وكسروا  
الجسر بحضرتهم ، وعملوا شنتك مدافع ونقوفا حتى جرى الماء في الخليج ، وركب وهم  
صحبته حتى رجع إلى داره ، وأما أهل البلد فلم يخرج منهم أحد تلك الليلة للتنزه في المراكب  
على العادة سوى النصارى والشوام والقبط والأروام والإفرنج البلديين ونسائهم ، وقليل من  
الناس البطالين حضروا في صبيحتها »

هنا ما قاله الجبرق ، ومنه تعرف الحالة النفسية للشعب ومبلغ انصراف المصريين عن  
الاشتراك في الاحتفال يوم يتجهجون له كل عام ، ويدخل في هذا الباب ما ذكره الجبرق من  
أن الاشاعات عن هزيمة الفرنسيين ( في معركة أبوقير البحرية ) قد ذاعت في ذلك اليوم نفسه  
وتهدد الفرنسيون من أذاعوها بأنواع العقاب<sup>(١)</sup> فكان نابليون أراد بالاحتفال بوفاء النيل  
إخفاء مظاهر الحزن التي كانت تختلج في قلوب الفرنسيين لنضاع أسطولهم

### حفلة المولد النبوي

وجاءت مناسبة أخرى لمشاركة نابليون المصريين في حفلاتهم ومحاولة إدخال السرور إلى  
قلوبهم ، وهي حفلة المولد النبوي الشريف ، فأمر أن يحتفل به كالعتاد ، وبأنع نابليون في  
الاحتفال به وعين لهذه المناسبة السيد خليل البكري قديماً للأشراف بدلا من السيد عمر  
مكرم<sup>(٢)</sup> ، وخلع عليه خلمة ثمينة ، وأقيمت الليلة الكبيرة للمولد في منزل السيد خليل  
البكري ، وحضر نابليون هذه الحفلة ، ويقول ريبو<sup>(٣)</sup> إن بوناپارت أظهر أناة وصبرا في  
شهود حفلة الذكر من بدشها إلى تمامها ، ومد السيد البكري الموائد تكريماً للمولد النبوي ،  
فبسطت خمسون مائدة على الطراز الشرقي ، حول كل مائدة خمسة أوسنة من الضيوف

(١) أنظر الفصل الثامن ص ١٩٤

(٢) كانت غاية الأشراف قبل أن يولاه السيد عمر مكرم في يد السيد عبد البكري ، وهو ابن عم  
النبي خليل البكري ، ولما توفي السيد عبد البكري سنة ١٢٠٨ هـ تولى العناية بالسيد عمر مكرم إلى أن  
جاء الفرنسيون فتناذر الديار المصرية وهاجر إلى سوريا عقب واقعة الأهرام ، ظلت غاية الأشراف من انتخب  
فولاه السيد خليل البكري كما ترى في سياق الكلام

(٣) التاريخ المسمى والمرئي لفصل الفرنسية الجزء ٣

جالسين أرضاً على الوسائد ، وكانت المائدة التي جلس حولها بونابارت والسيد البكرى في الوسط ، وهي من الفضة وقد صفت عليها أطباق الطعام ، ويتبين من رواية الجبرتي أن فرّوس المصريين كانت في شغل وقتئذ عن الحفلات والمسرات ، وأن نابليون هو الذي أوجب الاحتفال ، قال الجبرتي :

« سأل صاري عسكر عن المولد النبوي ولماذا لم يعملوه كما فعلهم ، فاعتذر الشيخ البكرى بتعطيل الأمور وتوقف الأحوال ، فلم يقبل ، وقال لابد من ذلك ، وأعطى له ثلثمائة ريال فرنساوي معاونة وأمر بتعليق تماثيل وأحبال وقناديل ، واجتمع الفرنسيون يوم المولد ولعبوا ميادينهم وضربوا طبولهم ودباجهم ، وأرسل الطبلخانة الكبيرة ( موسيقى الجيش ) إلى بيت الشيخ البكرى ، واستمروا بضربها طول النهار والليل ( ليلة ١٢ ربيع الأول سنة ١٢١٣ - ٢٤ أغسطس سنة ١٧٩٨ ) بالبركة ( ميدان الأزبكية ) تحت داره ، وهي عبارة عن طيلات كبار مثل طيلات النوبة التركية وعدة آلات ومزمارير مختلفة الأسوات مطربة ، وعملوا في الليل حرافة نفوط مختلفة وسواريج تصعد في الهواء ، وفي ذلك اليوم ألبس الشيخ محمد خليل البكرى فروة وقلد قباة الأشراف ونودي في المدينة بأن كل من كان له دعوى على شريف فليرفها إلى القليب »

### تعيين أمير الحج

كانت إمارة الحج من المناصب العالية التي يعهد بها إلى كبار الأمراء المماليك ، وكان أمير الحج عند قدوم الحملة الفرنسية صالح بك وهو من أتباع حراد بك ، فلما قدم بالحجاج من الحجاز استمداه نابليون إلى القاهرة ، لكنه رفض وانضم إلى إبراهيم بك وسافر معه إلى سوريا وتوفي بها في تلك السنة ( ١٢١٣ هجرية ) ، وكانت التقاليد المتبعة في ذلك العصر أن يعين أمير الحج في حفلة حافلة ، فأراد نابليون أن يقبض هذه السنة فعين مصطفى بك كخندا الباشا ( وكيل الوالي ) أميراً للحج يوم ٢٠ ربيع الأول سنة ١٢١٣ ( أول سبتمبر سنة ١٧٩٨ ) وخلع عليه خلة خضراء بمحضور أعضاء الديوان<sup>(١)</sup> وأهداه جواداً كريماً ، وأراد أن يكتسب قلوب الأهالي وقلوب المسلمين في الشرق فأبلغ أمره هذا التعيين رسمياً إلى الدول الإسلامية وكتب إلى

---

(١) يقول الجبرتي في هذا الصدد : « وفي عشرين ربيع الأول قلدوا مصطفى بك كخندا الباشا إمارة الحج فغضروا إلى المحكمة عند القاضي وليس هناك الحملة بحضرة مشايخ ( أعضاء ) الديوان والترم بونابارته بتجهيل مهات الحج وحمل علاجياً »

شريف مكة يمدّه بإرسال أوقاف الحرمين كما كانت ، واستكتب مشايخ القاهرة رسالة بعث بها إلى السلطان وأخرى إلى شريف مكة فيها إطرار سياسته وتنويه بما بذله في تأمين طريق الحج واشترائه في الاحتفال بفتح الخليج والولاء النبوي وتعيين أمير الحج الجديد واحترامه للشعائر الإسلامية

فنايليون قد استعمل « سياسة الحفلات » ليجتذب إليه قلوب المصريين من جهة ، وليعلم من نفسه في العالم الإنشائي بأنه سديق الإسلام والمسلمين ، ويظهر أن الفرنسيين كانوا يملقون أهمية كبيرة على تعيين أمير الحج ، فقد كتب السيوف جوفروا سان هيلير <sup>(١)</sup> عضو المجمع العلمي المصري رسالة إلى أخيه بتاريخ ٣ سبتمبر سنة ١٧٩٨ يقول فيها :

« لقد نجح القائد العام في حمل كتفنا الباشا ( وكيل الوالي ) على قبول منصب إمارة الحج ، وأمير الحج الجديد رجل ذو نفوذ كبير ، وقد أطلقت للدافع إيدنا بهذا التعيين وبإدراكه إلى إبلاغه للأمم العربية مع دعوتهم إلى إجراء مراسم الحج كالعتاد <sup>(٢)</sup> »

### عيد الجمهورية الفرنسية

انتهز نابليون فرصة عيد الجمهورية الفرنسية الأولى ( أول فندعيمير <sup>(٣)</sup> — ٢٢ سبتمبر ) وأقام عيदान الأزيكية احتفالا عسكريا مهيبا دعا إليه المظاء والقاضي التركي وكتفنا الباشا وأعضاء ديوان القاهرة ودواوين الأقاليم والأعيان ، وأبدع الفنانون الفرنسيون في فسيق هذا الاحتفال وظلوا عدة أيام يقيمون أقواس النصر وينصبون الساريات وعندما ١٠٩ بمدد المقاطعات الفرنسية ، رفعت عليها الرايات موشاة بأسماء مقاطعات فرنسا ، ونصبوا في وسط الميدان سارية عظيمة سموها شجرة الحرية ، وأقاموا تماثيل من الخشب كالمهاكل الكبيرة نقش عليها أسماء قتلى الفرنسيين في مصر ، وأقاموا بواجين كبيرين ( أقواس نصر ) الأولى قبالة باب الهواء والثانية بناحية قنطرة الدكة التي كان يدخل منها ماء الخليج إلى الأزيكية ، نقش على أحدهما صورة معركة الأهرام ، وكتب على الأخرى ( لا إله إلا الله محمد رسول الله ) ، وجرى الاحتفال يوم ٢٢ سبتمبر سنة ١٧٩٨ فرض نابليون كتائب الجيش يحف به أركان حرب ، وبعد انتهاء

(١) انظر ترجمته بالفصل الرابع ص ١٠٨

(٢) « رسائل من مصر » بقلم السيوف جوفروا سان هيلير

(٣) يبدأ التقويم الجمهوري بأول فندعيمير من السنة الأولى الموافق ٢٢ سبتمبر سنة ١٧٩٢ غداة اليوم التي قررت فيه الجمعية الوطنية إنشاء لللكية في فرنسا

المرض تلا الأدجودان جنرال بويه Boyer خطبة لتأبليون من خطبة الساجرة التي كانت تملأ قلوب جنوده حماسة وإقباليا<sup>(١)</sup>.

وبعد تمام خطبته دعا ضيوفه المصريين والفرنسيين إلى التناء على مائدة ، وأضىء ميدان الأزيكية ليلاً بالأوار ، واستمرت الموسيقى تعزف إلى ما بعد منتصف الليل وإليك خلاصة ما ذكره الجبرقي في وصف هذا الاحتفال :

« في يوم السبت حادى عشر ربيع الثانى سنة ١٢١٣<sup>(٢)</sup> كان يوم عيدهم الموعود به ، فضربوا في منيحتهم مدافع كثيرة ووضعوا على كل قائم من الخشب بندرة من بندراتهم الملوقة ، وضربوا طبولهم واجتمعت عساكرهم بالبركة (بركة الأزيكية) ، الخيالة والرجالة ، واصطفوا صفوفاً على طرائقهم المروقة بينهم ، ودعوا المشايخ وأعيان المسلمين والقبط والشوام فاجتمعوا بيت صارى عسكروا بآبارته وجلسوا حصة من الهاز ثم نزل عظامهم ولحمهم المشايخ والقاضى وكتخذوا الباشا فركبوا وذهبوا عند الصارى الكبير الموضوع بوسط البركة (الميدان) وقد كانوا فرشوا في أسفله بسطاً كثيرة ، ثم أن المساكر لمبوا ميدانهم وعملوا هيئة حربهم وضربوا البنادق والمدافع ، فلما انقضى ذلك اصطفت المساكر صفوفاً حول ذلك الصارى وقرأ عليهم كبير قسوسهم<sup>(٣)</sup> ورقة بلبتهم لا يدرى معناها إلا هم ، وكأنها كالوصية أو النصيحة أو الوعد ، ثم قاموا وانقض الجمع ، ورجع صارى عسكر إلى داره فدعاهم عظماء الحاضرين ، فلما كان عند الغروب أوقدوا جميع القناديل التي على الحبال والتماثيل والأحمال التي على البيوت ، وعند العشاء عملوا حراقة بارود وسوارخ ونفوط وشبه سواق ودواليب من قار ومدافع كثيرة نحو ساعتين من الليل ، واستمرت القناديل موقدة حتى طلع النهار ، ثم فكوا الحبال والتماثيل والتماثيل المتنوعة وبقيت البوابة للقابلة لباب الهواء والصارى الكبير ونحتت جماعة ملازمون الإقامة عنده ليلاً ونهاراً من عساكرهم لأنه شعارهم وإشارة إلى قيام دولتهم في زعمهم »

وعلى الرغم مما بذله الفرنسيون ليجعلوا احتفالهم حفلاً بمظاهر السرور والبهجة فإن نفوس الأهالي كانت متقبضة عن تلك المظاهر ، ومن ألف ما قاله في هذا الصدد يقولون إنهم تركوا التبريد لهذا الاحتفال ووصفه في كتابه<sup>(٤)</sup> أن الفرنسيين كانوا يقولون إن هذه شجرة الحرية وأما

(١) تمجد نص هذه الخطبة في قسم الوثائق التاريخية

(٢) يوافق ٢٢ سبتمبر سنة ١٧٩٨

(٣) هنا خطأ والصواب أن الذى تلا خطبة تأبليون هو الأدجودان جنرال بويه Boyer وهو ليس

بكبير القس ولم يكن مع الجيش الفرنسى قس

(٤) ذكر تلك جمهور الفرنسية والأهوال المصرية والخيال الشامية ، فلم يقلوا التبريد

أهالى مصر فكانوا يقولون إن هذه إشارة الخمازوق الذى أدخلوه فينا واستيلائهم على مملكتنا ، واستمر هذا العمود نحو عشرة أشهر وحينما رفعوه استبشرت أهل مصر وابتهجت بالفرح » وقال الدكتور ديميت كير أطباء الجيش الفرنسى فى مذكراته : « لقد تكلموا كثيراً حتى فى أورديا عن حفلات أول فتديجير وتأثيرها فى نفوس المصريين ، على أن كاتب هذه المذكرات يؤكد أنها لم يكن لها أثر ما فى سكان القاهرة بالرغم من مظاهر الفخامة التى أحيطت بها » ، ويقول دى لاجونكيير<sup>(١)</sup> إن الجنرال برتييه Berthier رئيس أركان حرب الحملة الفرنسية أصدر أمره فى ٢١ سبتمبر إلى الجنرال ديبوى قومندان القاهرة بأن يضع حرساً بناحية قنطرة الدكة التى كان يدخل منها ماء الخليج إلى ميدان الأزيكية خيفة أن يعتمد بعض أهل السوء فتح السد فتطنى المياه على مكان الاحتفال فتعكر صفوه فهذه البيانات تدل على نفسية أهل القاهرة وانصرافهم عن مشاركة الفرنسيين فى حفلاتهم



## الفصل الثالث عشر

### ثورة القاهرة

احتل الفرنسيون القاهرة ، ووطدوا سلطتهم بها ووضعا أيديهم على كل شيء فيها ، لكنها لم تكن في يوم من الأيام راضية عن الاحتلال الفرنسي أو مستسعدة له ، وما غفئت تتحين الفرص للتخلص منه ، وبعثاً حاول نابليون بعد انتصاره الحربي أن ينتصر على ثورة النفوس وأن يجتنب إليه قلوب المصريين ، ولم يكن إنشاؤه الديوان ، ولا تودده إلى الزعماء ، ولا اشتراكه في حفلات الشعب ، ليحل الصفاء والوثام محل الجفاء والخصام ، والواقع أن يد الفرنسيين الباطشة قد ضربت على الديوان فجملته محدود السلطة مشلول الإرادة ، وكان أعضاء الديوان أنفسهم يظهرون الطاعة للفرنسيين مداراة ومحاملة ، وقلوبهم منكرة نافرة ، اعتبره ذلك فيما رواه الجبرتي عن المشادة التي حصلت بين نابليون وأعضاء الديوان ، فقد طلبهم إلى داره ذات يوم<sup>(١)</sup> ولما استقر بهم المقام أراد أن يلبسهم طيلسان الجمهورية الفرنسية ذا الثلاثة الألوان<sup>(٢)</sup> ووضع بيده الطيلسان على كتف الشيخ الشرفاوى رئيس الديوان تكريماً له وتفظيماً ، فرى به الأرض عتقاً فاضباً ، واستغنى من الديوان ، وبعثاً حاول الترجمان أن يقنع للشايخ أن يلبسهم هذا الطيلسان هو تكريم لهم فلم يلق منهم قبولاً ، وغضب نابليون على الشيخ الشرفاوى وقال إنه لا يصلح للرئاسة .

لم يعمل إذن أعضاء الديوان على تمكين علاقات نابليون بالشعب ، وما كان في استطاعتهم

(١) ٢٠ ربيع الأول سنة ١٢١٣ (أول سبتمبر سنة ١٧٩٨)

(٢) أصدر نابليون أمراً في سبتمبر سنة ١٧٩٨ بأن يحمل جميع سكان مصر شارة الجمهورية (الكوكارد) وأن ترفع المراكب في النيل الراية الفرنسية وأمر بأنه ابتداء من أول قنديمير (٢٢ سبتمبر سنة ١٧٩٨) لا يصرح للسلطة الفرنسية بأن تسمع أى شكوى من أى شخص من الأهالي إننا لم يكن حمل تلك الشارة ولا يسمح للفن بالملاحة في النيل ابتداء من ١٥ قنديمير إننا لم نرفع الراية الفرنسية ، وأمر أن تصب الراية الفرنسية بأعلى منارة في القاهرة وأعلى منارة في كل خاضرة من حواضر لندريات ويقول الجبرتي ما خلاصته ان الفرنسيين أمروا بأن يضع الناس الشارة الفرنسية (الكوكارد) فأف غالب الناس من وضعها ، ثم نادوا بإبطالها بالنسبة لامة الناس وألزموا بعض الأعيان ومن يريد الخول عندهم حاجة من الحاجات بوضعها فكانوا يضمنونها إذا أخسروا عندهم ورفضوها إذا اقصوا عنهم ، وذلك أياماً قليلة ثم تركت »

ذلك لو أرادوا ، فأخذ سحق الأهالي يستفحل ، وزاد فيه أعمال كثيرة أحرقت صدورهم  
وانتهت بنشوب الثورة في الماسحة

نارت القاهرة في وجه الفرنسيين يوم الأحد ٢١ أكتوبر سنة ١٧٩٨ - ١١ جادى  
الأولى سنة ١٢١٣

لم يكن مألوفاً ولا منتظراً أن ثور القاهرة ، تلك المدينة الهادئة الوديمة التي احتملت ظلم  
حكامها الستين الطوال ، ولم يكن الفرنسيون يتوقعون أن ثور في وجههم وهم الذين فتحوا  
العواصم ودوخوا الممالك في القارة الأوروبية

لكن نوزة القاهرة جاءت عنواناً لنفسية جديدة في الشعب المصري ، ولا غرو فإن الحملة  
الفرنسية كما قلنا قد استفزت في نفوس الشعب روح المقاومة الأهلية ، وكانت القاهرة مسرحاً  
لتلك المقاومة كما كانت مصدراً لسريان الهياج والثورة إلى أنحاء البلاد

### لماذا نارت القاهرة

من الواجب قبل أن نسرد وقائع تلك الثورة أن نتساءل لماذا نارت القاهرة ، ما هي  
الأسباب التي أشعلت نار الثورة في تلك المدينة العظيمة التي اشتهرت من قبل بالإخلاق  
إلى السكينة ؟

ذكر الجبرتي أن تحرير الضرائب الفادحة التي فرضها الفرنسيون في أوائل جادى الأولى  
هو الذى أدى إلى نشوب الثورة ، وهنا صحيح إذا اعتبرنا تلك الضرائب كالشرارة التي أشعلت  
النار ، لكن فكرة الثورة كانت مختمرة في الرؤوس من قبل ، فلنبين إذ ذاك عن  
أسبابها ومقدماتها

### الأسباب المالية

أن سلوك نابليون مع المصريين خالف في كثير من المواطن ما وعدم به في منشوراته  
وبياناته ، لقد كان يفتي على المالك ظلمهم واعتسافهم ، فانظر ماذا فعل هو في إرهاق  
الأهالي بالضرائب والمقارم

لما دخل الفرنسيون القاهرة فرضوا على سكانها ضريبة فادحة في شكل سلفة إجبارية ،  
ولم يستطع « الديوان » أن يمنحها على الرغم من تدخله في الأمر وتوسطه في تخفيفها  
قد روى الجبرتي أنه في يوم السبت ١٤ صفر سنة ١٢١٣ ( ٢٨ يولية سنة ١٧٩٨ ) لي

عقب أن استقر نابليون في العاصمة بأيام معلودة وعقب تأسيس (الديوان) بثلاثة أيام « اجتمعوا بالديوان وطلبوا سلفة خمسمية ألف ريال (مائة ألف جنيه) من التجار المسلمين والنصارى القبط والشوام وتجار الافرنج أيضاً فمالوا (أى أعضاء الديوان) التخفيف فلم يجابوا فأخذوا في تحصيلها »

فترى من ذلك أن الديوان لم تكن له سلطة ما في منع الترامات والقروض الإجبارية التي يفرضها الفرنسيون ، ولعل ذلك كان من أهم الأسباب التي دعت إلى سقوط مملكته في نظر الشعب

وذكر دى لاجونكيير<sup>(١)</sup> بعض ما فرضه نابليون في أنحاء البلاد على مختلف الطبقات من القروض الإجبارية في الأيام الأولى للحملة ، فمن ذلك أنه فرض على تجار الاسكندرية ثلثماية ألف فرنك وعلى تجار رشيد مائة ألف فرنك ، وتجار دمياط ١٥٠ ألف فرنك ، وعلى تجار المنسوجات بالقاهرة ٦٠ ألف ريال تقداً و ٤٠ ألف ريال عروضاً (ملابس وأحذية للجنود) وعلى تجار الين والبحار بالقاهرة ٢٠٠ ألف ريال ، وعلى الأقباط الذين يقولون تحصيل الضرائب في الأقاليم ١٠٠ ألف ريال ، ثم فرض على تجار خان الخليل خاصة عشرة آلاف ريال ، ووكائل الصابون عشرة آلاف ريال ، ووكائل القا كهتسة ستة آلاف ريال ، والسقائين ١٥ ألف ريال ، وتجار السكر عشرة آلاف ريال ، وتجار الأقمشة الهندية بالقاهرة ١٥ ألف ريال ، فهذه غرامات فادحة تنوء بها البلاد ولا سيما إذا لاحظنا ما كانت تعانيه وقتئذ من الضحك والفاقة

وقد تفنن الفرنسيون في ابتزاز الأموال ومصادرة الممتلكات بمختلف الوسائل ، فمن ذلك أنهم أذنوا لنساء البكوات المالك أن يقتدين أنفسهن بالمال ليسكن في بيوتهن ، وإن كان عندهن شيء من متاع أزواجهن يبدله فإن لم يكن عندهن شيء منه يصلح على أنفسهن ويأمن في دورهن

فهذه طريقة بلغت حد الإعنت والإرهاق في جمع الأموال من النساء لبقاء أن يأمن على أنفسهن ! وهي أشد وطأة من الترامات الحربية ، قال الجبرق : « إن الست ثقيسة زوجة فرهاد بك ظهرت وصالحت عن نفسها وأتباعها من نساء الأمراء والكشاف يعلم قدره مائة وعشرون ألف ريال فرنساوى وأخذت في تحصيل ذلك من نفسها وغيرها ووجهوا عليها

(١) تاريخ حملة مصر الجزء الثاني . وانظر كذلك مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة ١٠٤

الطلب (أى طالبوها) وكذلك بقية النساء بالوسائل المتداخلة في ذلك فصاروا يعملون عليهم لإرهاصات وتخوفات<sup>(١)</sup>»

ويقول ريبو<sup>(٢)</sup> إن مجموع ما فرضه الفرنسيون على نساء المالك بلغ ٦٠٠ ألف فرنك ، وإذا رجعنا إلى نص الأمر الذى أصدره نابليون بتاريخ ١٤ تمديدور ( أول أغسطس سنة ١٧٩٨ ) في شأن ما فرض على السيدة نفيسة زوجة مراد بك نجد أنه يقضى بأن تدفع هى وحدها ٦٠٠ ألف فرنك عن نفسها وعن نساء المالك من أتباع مراد بك ، فيفهم من ذلك أن المبلغ الحاصل من نساء المالك يزيد على ستمائة ألف فرنك . ويقول دى لاجونكيير إن ما أخذ من زوجة مراد بك خاصة ٤٩٣٨٥٧ فرنكا ، وما أخذ من باقى نساء المالك ٣٣٤٧١٧ فرنكا ، وذلك إلى ٢١ سبتمبر سنة ١٧٩٨ ، ولا شك أن هذه مبالغ جسيمة إذا قيست بثروة البلاد في ذلك العهد ، ويقول ريبو أيضاً إن السيدة نفيسة زوجة مراد بك اضطرت لدفع حصتها في الترامة الحربية أن تنزل عن جليها وجواهرها ومنها ساعة مرصعة بالجواهر كان أهداها لها القنصل عجalon باسم الجمهورية الفرنسية . تقديراً لخدماتها ورعايتها للتجار الفرنسيين « فكان اضطرابها للنزول عن هذه الهدية للفرنسيين احتجاجاً شريعياً منها<sup>(٣)</sup> »

## استطرد

### إلى ترجمة نفيسة المرادية

« نفيسة المرادية » هى أكبر شخصية ظهرت بين سيدات مصر في ذلك العصر ، لذلك رأينا أن نستطرد إلى الكلام عنها وترجم لها

كانت نفيسة المرادية شركسية الأصل ، تزوج بها على بك الكبير ، فصارت بمثابة ملكة مصر ، وبنى لها قصرًا عظيمًا بالأزبكية يدرب عبدالحق ، ولما مات على بك تزوج بها مراد بك ، فاحتفظت بمكانتها ونفوذها ، وكانت على جانب كبير من التقشف والتهذيب ، إلى روعة في الجمال وممو في المواقف ، تملت العربية قراءة وكتابة وأقبلت على الكتب العلمية تطالعها

(١) الميرقى الجزء الثالث

(٢) التاريخ الملى والحربى للجنة الفرنسية الجزء الثالث

(٣) التاريخ الملى والحربى للجنة الفرنسية الجزء الثالث

وتعرضها ، فارتقت مداركها واكتسبت احترام العلماء والبكوات الماليك الذين كان يسندهم  
 الحل والمقد ، وكذلك اجتذبت قلوب الشعب بما اشتهرت به من البر والإحسان ورفع المظالم  
 وحماية الضعفاء ، فظلمت مكانتها بين طبقات الشعب ، وسرت شهرتها إلى الأوساط  
 الأوروبية إذ عرف عنها الميل إلى تشييط التجارة والصناعة ومعارضة البكوات الماليك في  
 سلب أموال التجار ، وقد أهدتها حكومة فرنسا قبل الحملة الفرنسية ساعة حرمصة بالباس  
 قدمها لها القنصل بجالون Magallon اعترافاً لما عبرتها ومخدراتها للتجارة ، وكانت تتبرع  
 بإعانات شهرية لكثير من العائلات التي أخنى عليها الدهر ، واستمرت تؤدي هذه الإعانات  
 حتى في أيام محنتها ، ولما جاءت الحملة الفرنسية وأنهمز مراد بك في واقعة الأهرام بقيت هي  
 في القاهرة فاستهدفت للإتاوات والתרاملات الحربية كما تراه في سياق الكلام ، على أن قواد  
 الجيش الفرنسي كانوا يعاملونها بالاحترام ، ولما جلا الفرنسيون عن البلاد استهدفت كذلك  
 لظالم الأتراك ، ذكر الجبرتي ما وقع من خورشيد باشا من إساءة معاملتها فقال ما خلاصته :  
 « ان الباشا أمر بإحضارها إلى القلعة وأتهمها بأن جارية لها تسمى في الاتفاق مع المالك المعصاة  
 لتخريض الجند على التمرد ، فأنكرت هذه التهمة وطلبت الدليل على ما نسب إلى جارتها  
 وقالت : « إذا ثبت أن جارتني قالت ذلك فأنا للأخوة به دونها » ، فأخرج خورشيد باشا من  
 جيبه ورقة وتظاهر بأنها ثبت ذلك ، فطلبت السيدة قيسة الورقة فأعادها خورشيد إلى جيبه ،  
 فوجدهت نفيسة على عمله وقالت له : طول ما عشت بنصر وقدرى معلوم عند الأكابر وخلافهم ،  
 والسلطان ورجال الدولة وحرهم يعرفونى أكثر من معرفتى بك ، ولقد مررت بنا دولة  
 الفرنسيين فما رأيت منهم إلا التكريم ، وكذلك محمد باشا ( خسرو ) كان يعرفنى ويعرف  
 قدرى ولم تر منه إلا اللوم ، وأما أنت فلم يوافق فضلك فعل أهل دولتك ولا غيرهم ، قال  
 ونحن أيضاً لا نقبل غير المناسب ، فقالت له وأى مناسبة في أخذك لى من بيتى بالوالى ( رئيس  
 الشرطة ) مثل أرباب الجرائم ؟ فقال أنا أرسلته لكونه أكبر أنبأى فارساه من باب  
 التعظيم ، قال الجبرتي : « ثم اعتذر إليها وأمرها بالتوجه إلى بيت الشيخ السجيمى بالقلعة  
 وأجلسوها عنده بجماعة من السكر » ( أى جماعوها تحت الحفظ ) فتدخل العلماء في أمرها  
 حتى توصلوا إلى إطلاق سراحها .

يتبين من هذه الحادثة مقدار ما كان لنفيسة المرادية من المكانة بين الناس ، وقد  
 أذكرت عنصر محمد على بسند أن أدبرت عنها الدنيا وقعدت أملاكها ولم يبق لها سوى النذر  
 اليسير منها ، فماشت في قلة وفاقة إلى أن توفيت سنة ١٢٣١ هجرية ( ١٨١٦ م ) ، وقد ذكرها

الجبرتي غير مرة ووصفها « بالشهيرة الذكر بالخير » ونماها في وفيات ذلك العام وقال في ترجيتها إنها عمرت طويلا مع الرز والسيادة والكلمة النافذة ، وأكثر نساء الأمراء من جواربها ، ولم يأت بعد الست شويكار من اشتهر ذكره وخبره سواها ؟ وقال إنها « كانت من الخبيرات ولها على الفقراء بر وإحسان » ولها من الآثار الخان الجديد والصهرج داخل باب ذوبة توفيت يوم الخميس لثلاثين من شهر جمادى الأولى بمنزلها المذكور بدرب عبد الحق ودفت في القرافة المسترى بجوار الإمام الشافعي ، وأضيفت الدار إلى الدولة وسكنها بعض أكابرها وسيحان الحق التي لا يموت »

### رنج ما: اتقطع

ذكر الجبرتي ما وقع على الناس من النارم الأخرى ، فن ذلك أن الفرنسيين طلبوا الخيول والجمال والأبقار والثيران والسلاح ، فحصلت عليها مصالحات ، أى أخذوا مقابلها قدا ، وكانوا يقتشون المنازل ويكسرون الدكاكين بسوق السلاح وغيره ويأخذون ما يجدون فيها من الأسلحة ، وفي كل يوم ينقلون على الجمال والخير من الأمتة والفرش والصدانق والسروج وغير ذلك ما لا يحصى ، ويستخرجون الخبايا والودائع ، ويطلبون البنائين والمهندسين والخدام الذين يعرفون بيوت أسيادهم ليدلوم على أماكن الخبايا ومواقع الدفائن ، وطلبوا أهل الحرف من التجار والأسواق وفرضوا عليهم نقودا على سبيل القرض والسلفة مبلتا يعجزون عنه وحددوا لنفسها أجلا مقداره ستون يوما ، فضجوا واستنأوا وذهبوا إلى الجامع الأزهر والشهد الحسيني وتشفعوا بالشايخ ( أعضاء الديوان ) فشكلوا لهم فأنزلوها إلى نصف المطلوب ووسعوا لهم في أيام الهلة

هذا ما ذكره الجبرتي من مظالم الفرنسيين ومنازمهم في الأيام الأولى من احتلالهم ، وذكر أيضا أنهم قطعوا دواب الأوقاف الخيرية عن مستحقها الفقراء ، فبمثل هذه النارم القاذية لا يمكن أن يجتنب القلوب وتسترضى النفوس

ولم تقتصر هذه النارم على الأيام الأولى من الاحتلال بل استمر الفرنسيون في فرض الضرائب وجمع الأموال ولا سيما بعد أن تحطم أسطولهم في معركة أبوقير ، وأصبحت الحملة الفرنسية منقطعة عاجزة عن تلقى الأمداد والساعات من فرنسا متروكة لمواردها وموارد البلاد ، فأخذ الفرنسيون من ذلك الحين يتفنون في استخراج الأموال من البلاد وأهلها ،

وتذرعوا إلى ذلك بوضع النظام الذى ابتدعوه لإثبات الملكية وتسجيل السندات والعقود وما تبعه من فرض الإتاوات الجديدة كما بينا ذلك فى الفصل الثالث . كانت تلك اللغز المفاخرة تناقض عهود نابليون فى منشوراته وبياناته ، وهى وحدها كافية لصرف قلوب المصريين عن الثقة به وبوعده ، لأن الشعب رأى أن الضرائب التى كانت تثقل كاهله فى عهد المالك قد بقيت كما كانت وزادت عليها ضرائب جديدة ابتكرها الفرنسيون ، فصارت الحالة من الوجهة المالية أسوأ مما كانت فى عهد المالك ، والمسائل المالية كانت فى غمظ المصور والبلدان من أهم أسباب تدمير الشعوب وشكواها

### مصادرة الأملاك وهدم البانى

ومن مظالم الفرنسيين التى أخرجت الصدور أنهم أخرجوا كثيرا من أصحاب البيوت من بيوتهم بحجة حاجتهم هم إليها ، وهدموا كثيرا من البانى والآثار والمساجد بحجة تحصين القاهرة

قال الجبرتي فى هذا الصدد : « وفيه (شهر ربيع الثانى سنة ١٢١٣) أمروا سكان القلعة بالخروج من منازلهم والنزول إلى المدينة ليسكنوا بها فزلوا ، وأسعدوا إلى القلعة مدافع ركزوها بعدة مواضع وهدموا بها أبنية كثيرة ، وشرعوا فى بناء حيطان وكراتك وأسوار ، وهدموا أبنية عالية وأعلوا مواضع منخفضة ، وبنوا على بدران باب الغرب (من أبواب القلعة) بالرميلة ، وغيروا معالمها وأبدلوا عمارتها ، وعوا ما كان بها من معالم السلاطين وآثار الحكماء والعظماء وما كان فى الأبواب العظام من الأسلحة والبرق والبطل والحوادث والحرب الهندية وأكر التداوية ، وهدموا قصر يوسف صلاح الدين وعمارات الملوك والسلاطين ذوات الأركان الشاهقة والأعمدة الباسقة »

هذه رواية الجبرتي ، ويترف نابليون فى مذكراته أن ترميم القلعة استوجب هدم كثير من البيوت القريبة منها وامتد الهدم إلى المسجد المجاور للسور ، وأن سكان القاهرة قد ساء بهم قلق شديد من رؤيتهم ضباط فرقة الهندسة يتولون الهدم وينصبون للدافع فى الأماكن المهدومة<sup>(٢)</sup>

### هدم أبواب الحارات

وأمروا كذلك بهدم أبواب الحارات والدروب ، وكانت هذه الأبواب تتلقى فى الليل

---

(٢) مذكرات نابليون التى أتمها على الجنرال برتران فى سانت هيلين

تصغير كل حارة في مأمّن من اعتداء اللصوص ، فاشتد قلق الناس من هدمها وتظنّوا بالفرنسيين أنهم عازمون على قتل الناس وهم في صلاة الجمعة ، ولم يكن الناس واهمين في ظنونهم ونجاوهم ، فإن الفرنسيين كانوا يقصدون من هدم الأبواب إخضاع المدينة ومنع كل محاولة للمقاومة ، قال الكولونل ديترو<sup>(١)</sup> Detroye في يومياته بتاريخ ٤ أغسطس سنة ١٧٩٨ : « إن شوارع القاهرة مفصولة بمند كبير جدا من الأبواب الكبيرة التي تصل الحارات والأحياء بعضها عن بعض ، ولقد رأى القائد العام أن هذه الأبواب قد تعطل انتقال الجنود في حالة الفتنة أو الهياج ، لذلك أمر بهدمها ، على أن هذه الوسيلة إذا كانت فاعلة من هذه الوجهة فلها عواقب وخيمة من جهة أخرى فإن الأبواب كانت تنزل الأحياء التي تظهر فيها الأوبئة ، فإذا أغلقت منعت سريان العدوى إلى الأحياء الأخرى وقامت جدًّا في الاختلاط بين الناس ، فبأى طريقة يمنع انتشار الأوبئة بعد هدم هذه الأبواب ؟ »

وجاء في يوميات الجنرال لوجيه Laugier عما أحدثه هذا العمل من التدمير والسخط في نفوس الأهالي ما يلي :

« كان لكل شارع أو حارة باب كبير يقفل عليها ويمكن استخدامه كتارس في حالة الثورة ، لتلك أمر القائد العام بترع هذه الأبواب وقد تضرر الأهالي وجعلوا يصيحون ويسخطون ، ولكنهم بعد ذلك أذعنوا وأخلدوا للسكينة ، وبعد أن أقفل التجار دكاكينهم احتجاجا على هذا العمل عادوا وفتحوها »

والمعروف أن نابليون أصدر أمره بهدم أبواب الشوارع والحارات في شهر أغسطس سنة ١٧٩٨ وقد انتهاز فرصة اجتماع الديوان العام لإنفاذ فكرته ، ففي الوقت الذي كان الديوان منعقدًا كان ضباط فرقة الهندسة يطوفون أحياء القاهرة ويبشرون هدم الأبواب ، واجتمع هدم الأبواب وتحصين الفرنسيين للقلمة وفرضهم الضرائب الجديدة ، فكانت هذه العوامل المجتمعة من أسباب الهياج الذي أعقبته الثورة

### القتل والإرهاب

ومن الظالم التي أثارته قهمة الناس اعتقال الفرنسيين للسيد محمد كرم حاكم الإسكندرية الوطني والحكم عليه بالإعدام وتنفيذ الحكم فيه مما رأيته مفصلا في الفصل الخامس ،

---

(١) الكولونل ديترو هو من قواد الحملة الفرنسية ، كان رئيس أركان حرب الجنرال كانفر على ، ويومياته على جانب عظيم من الأهمية دون فيها الحوادث التي شاهدها إلى حصار عكا إذ قتل أثناء الحصار



وكذلك وصول أخبار القضاة التي ارتكبتها الجنود في اللدريات وحضور الرهائن الذين قبض عليهم من البلاد وجسهم بالقلمة<sup>(١)</sup> ، والواقع ان الفرنسيين كانوا يسرفون في قتل الناس ليدخلوا الرهبة في قلوب الأهالي ويعلمون على الخضوع والإنذار ، وهذا مستفاد من بعض رسائل نابليون إلى قواد الجنود الفرنسية في الأقاليم ، ففي رسالته إلى الجنرال زاوونتشك Zayonchek قومندان المنوفية يقول<sup>(٢)</sup> : « لا بد أن تكون جادتك تملأني لتنظيم مديرتكم ( المنوفية ) ، يجب أن تاملوا الترك بمنتهى القسوة ، وإني هنا أقفل كل يوم ثلاثة وأمر بأن يطاف برؤوسهم في شوارع القاهرة ، وهذه هي الطريقة الوحيدة لإخضاع هؤلاء النام . . . وعليكم أن توجهوا عنايتكم لتجريد البلاد قاطبة من السلاح »

وظاهر أن نابليون يقصد من عبارة « الترك » الأهالي ، ولا يمكن أن يقصد الأتراك العثمانيين لأنه في تاريخ هذه الرسالة كان يتوعد اليهم كثيراً ويظهر بحجته لسلطان تركيا ، وكلمة « ترك » كثيراً ما يستعملها الكتاب الفرنسيون للتعبير عن الأهالي المصريين ، وهذا مفهوم من رسالة أخرى لنابليون إلى الجنرال منو Menou قومندان رشيد<sup>(٣)</sup> يقول فيها : « إن الترك لا يمكن إخضاعهم إلا بالقسوة وفي كل يوم أمر بقتل خمسة أوسنة في القاهرة ، لقد كنا نتفادى التعرض لهم حتى نزيل عن سمعتنا وصحة الإبراهيم ، تلك التهمة التي كانت تمنعنا إلى أذهان الناس ، أما الآن فيجب علينا أن نستعمل الوسائل التي تؤدي إلى إخضاع هؤلاء القوم ، وإخضاعهم بمعناه تخويفهم »

\*\*\*

كل هذه الأسباب مجتمعة جعلت فكرة الهياج تختمر في الأذهان ، وجاءت الفرائب الجديدة فأشعلت بركان الثورة ، وهما اختلف المؤرخون والفرنسيون في بيان أسباب ثورة القاهرة وعزاها بعضهم إلى العناية الدينية التي كان يشها رجال الدين فإنهم يترقبون بأن فداحة الفرائب كانت من أهم العوامل التي عجلت بها ، قال دي لاجونكيير<sup>(٤)</sup> : « كانت الدعوة إلى الثورة تحتلظ علناً بأذان المؤذنين فيدعون إلى الله وإلى الثورة على المآذن صباح

(١) كتب نابليون إلى الجنرال كافارياني بتاريخ ٧ سبتمبر سنة ١٧٩٨ يثني بأنه سيحضر إلى القاهرة نحو خمسين من الأهالي من مختلف بلاد القطر المصري وكلفه أن يهيئ لإقامتهم سجن القلعة

(٢) بتاريخ ٣٠ يولي سنة ١٧٩٨ ، مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٩٠١

(٣) بتاريخ ٣١ يولي سنة ١٧٩٨ ، مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٩٠٢

(٤) حلة مصر الجزء الثالث

مساء ، فبلغ تهيج النفوس أشده حتى لتكفي حادثة واحدة أن تضم بركان المياج القوى ،  
ولقد كان فرض الضرائب على المنازل سبباً كافياً استغله دعاة الثورة لإثارة المياج في نفوس  
من لم تستفهم العناية الدنيوية »

### لجنة الثورة

كان للثورة لجنة تديرها وتشر دعوتها وتنظم صفوفها ، ومقرها في الأزهر ، وفي ذلك  
يقول ديبو :

« لقد اجتمع إلى جانب نذر الأهالي واستيائهم نشر الدعاية إلى الثورة ، فكان في الجامع  
الكبير المعروف بالأزهر لجنة لتدبير الثورة تعمل على إثارة الكراهية في نفوس الناقين <sup>(١)</sup> » ،  
وقال الجبرتي بعد أن ذكر احتشاد الجماهير في الطرقات : « وواقعهم على ذلك بعض التعممين  
التي لم ينظر في طاقية الأمور ، ولم يتفكر أنه في القبضة مأسور » ، وظاهر أن الجبرتي يقصد  
بأولئك التعممين الداعين إلى الثورة

ويقول نابليون في مذكراته إن الشعب قد انتخب ( ديواناً ) للثورة ونظم المتطوعين  
للقتال واستخرج الأسلحة المخبوءة ، وإن الشيخ السادات انتخب رئيساً لهذا الديوان <sup>(٢)</sup> ،  
وذكر في تقريره إلى حكومة الديركتوار عن ثورة القاهرة إن ( لجنة الثورة ) كانت  
تعتقد بالأزهر

فالأزهر إذن كان مركز الثورة في أواخر القرن الثامن عشر ، وقد شغل هذا المركز بعد  
أكثر من مائة عام ، فإن الأزهر خلال سنة ١٩١٩ كان في فترة من الزمن المعسكر العام للثورة  
القومية التي قامت في مصر عقب انتهاء الحرب العالمية ( الأولى ) ، والتاريخ يعيد نفسه

### وقائع الثورة

أخذ دعاة الثورة يحرضون الناس على التمرد والانتفاض على الفرنسيين ، وشرعوا في  
الوقت نفسه يثيرون الشكوك والريب حول أعضاء الديوان ويهمونهم بمالأة الفرنسيين حتى  
لا يستمع الجمهور لنصائحهم في الإخلاء إلى السكنية ، وقد أطلقوا في إحراج مركز أعضاء  
الديوان فأخذت منزلتهم تضعف في نفوس الشعب

(١) التاريخ العلمي والحربي للحملة الفرنسية في مصر الجزء الرابع

(٢) مذكرات نابليون التي أملاها على الجنرال برتران في سانت هيلين

وكانت الدعوة إلى الثورة تتردد على ألسنة الأهالي لكنها لم تقابل في مبدأ الأمر إلا بمطغ الناس وميلهم دون أن تترن بإعلان الثورة فصلا ، حتى جاءت الضرائب الجديدة فزادت عدد الناقين على الحكم الفرنسي ، وسرت روح الثورة إلى طبقة الملاك والتجار وأحباب الصناعات ، وجاء تنفيذ نظام الضرائب الجديدة على طريقة مثيرة للخواطر ، لأن تهديد الأملاك في دقار الضرائب اقتضى معاية المنازل والسخول فيها لتقدير قيمتها ، وهذا أمر يستفز الملاك ، قال الجبرتي في هذا الصدد : « وعينوا ( الفرنسيون ) للمهندسين ومعههم أشخاص لتمييز الأعلى من الأدنى ( من المقارات ) وشرعوا في الضبط والإحصاء وطافوا بالجهات لتحرير قوائم الأملاك وضبط أسماء أربابها »

وقد بدأ ذوو اليسار يتفكرون لأن الضرائب الجديدة أثقلت كاهلهم ، وهؤلاء وإن لم يشتركوا فصلا في الثورة إلا أن إقراهم لما أمدحها بالمساعدات اللادية واللعنوة ، وبذلك اشتركت طبقات الشعب كلها في ثورة القاهرة ، واغتم دعة الحركة فرصة تدمر الشعب من الضرائب الجديدة فبدأوا يعملون لاهتياج الطواطر وإشعال النار ، وتجاهدوا على الاجتماع ليلة الأحد ٢١ أكتوبر سنة ١٧٩٨ رسم الخطة الواجب اتباعها ، وكان عددهم في ذلك الاجتماع ثلاثين ، فاتفقوا ولما على البدء بالعمل في اليوم التالي ، وأزمعوا إقفال الدكاكين ودعوة أكبر عدد من التجار والصناع للذهاب بجميع كبير من الشاكين إلى مركز القيادة العامة لرفع الصوت احتجاجا على الضرائب الجديدة ، وبذلك تحدث في المدينة حركة يكون منها الشعب واليهاج فتكون مقبسة للثورة

## اليوم الأول للثورة

٢١ أكتوبر سنة ١٧٩٨

وقد وقع ما زعموا ، في اليوم للوعود — ٢١ أكتوبر — كانت القاهرة في حالة لم ياتقها الناس من قبل ، فكان الناس يتألبون في الشوارع زراقات ، يشكون ويتهجدون ، ويخطب بعض الملمين هذه الجوع فيشملون نار الحاسة في قلوبهم فتقابلهم الجماهير بالتأييد والتحييد ، وكان الناس يتلاقون على غير عارف ، فيبادلون الشكوى ويتجاهدون على المقاومة ، وأخذت سحاب النضب تبدو على الشعب المادى الوديع ، وظهرت الأسلحة في أيدي التجمهرين في الشوارع ولللهادين بسند ما كانت محجوبة عن الأنظار ، وأقبل التلاحون وأهل الضواحي إلى القاهرة ،

فاشتركوا في هذا التجمهر ، وأخذت صيحات المخطط واللعنات تنصب على الضرائب الجديدة وعلى الفرنسيين

قال ريو يصف هذه الحالة : « سادت الجلية ، واختلطت السموات ، وعلت الصيحات ، فكان هذا المنظر يبعث الرهبة في قفوس أشجع الناس ، ولم يمد هناك شك في أن الثورة قد بدأت »

وهرعت جموع الناس إلى بيت القاضي التركي إبراهيم آدم افندي ( ويسميه الجبرتي بجمشقي زاده ) وكان رجلاً وقوراً يحترمه الناس وله في قفوسهم مكانة ومنزلة ، وتقدم عشرون من التجمعين قبالوا القاضي وقالوا له إنهم يريدون الذهاب إلى بوناپارت لينقذ نظام الضرائب الجديدة ، وطلبوا منه أن يركب معهم ، فاستجاب لهم ، ولكنه لم يكذب خطي عتبة داره حتى رأى الثائرين وجموعهم تحف زحفاً ، فأرك خطورة الأمر ، وقال للجمع إن هذه الطريقة ليست مما يتبع لتقديم شكوى ، واعتذر من مصاحبهم وانكأ إلى بيته ، فثارت قفوس الجماهير ونادوا : إلى بوناپارت ! إلى بوناپارت ! القاضي معنا إلى بوناپارت ! ولما لم يقبل القاضي مصاحبهم انهالوا عليه وعلى رجاله ضرباً بالمصي ورجماً بالأحجار

تلك رواية المراجع الفرنسية عن بدء الثورة ، وهي أقرب من رواية نابليون في تقريره الذي أرسله إلى حكومة الديركتوار بتاريخ ٢٧ أكتوبر سنة ١٧٩٨ عن وقائع الثورة ، وقد كان تقريره موجزاً اجتهد فيه أن يقلل من خطورتها ، ولكنه وصف ابتداءها وصفاً دقيقاً بقوله : « . . . في الساعة السابعة صباحاً احتشد جمع كبير من الناس على باب القاضي إبراهيم آدم افندي ، وهو رجل محترم بأخلاقه وصفاته ، واختار الجمع عشرين من زعمائهم لمقابلة القاضي في داره وأزموه أن يركب معهم ويحضروا إلى ، وقد طأوعهم القاضي وركب معهم إلى أن قابله رجل بصير بالأمور فأفهمه أن الجمع الذي يسير معه كبير جداً ، وسواده الدماء ، بحيث لا يمكن أن يكون مقصده ما يزعم من الشكوى وحديثها ، فأدرك القاضي فجأة هذه الفكرة ونزل عن جواده ورجع إلى منزله فاستاء الجمهور وانهالوا على القاضي وساحيته رجماً بالأحجار وضرباً بالمصي ونهبوا منزله »

كانت هذه الحادثة كإعلان للثورة ، فاحتشدت الجموع في الجامع الأزهر يضجون ويصيحون ويهتفون بالقتال ، وامتلات الطرق والشوارع بالناس حاملين الأسلحة قاصدين إلى أحياء الفرنسيين لمهاجمتها

حدث كل ذلك والسلطات الفرنسية لم تحسب حساباً لهذه الجموع أو تتوقع حدوث

ثورة ما ولم تتخذ التدابير لمنع احتشاد الجماهير للسلاح ، فعمت الثورة مدينة القاهرة كلها في أسرع من لح البصر ، وأخذ الثوار طريقهم إلى مركز الخافر الفرنسية قتلوا الجنود والحراس

### مقتل الجنرال ديوي Dupuy

لم يقدّر الجنرال ديوي قومندان القاهرة<sup>(١)</sup> في مبدأ الأمر خطورة الحالة ، وجاءه أعياء غامضة عن الهياج ، فلم يحسب له حساباً ، ولم يره أمراً ذابال ، واكتفى بإفخاذ بعض دوريات من الجنود ، ولكنه لم يلبث أن خيّر الخبير بما يدل على اشتداد الأمر وقاوم الثورة ، فغرم على مواجهتها ، وكان الرجل معروفاً بالجرأة والإقدام ، فاستطاع بإورده الكابتن موري Maurý والسيو بودوف Baudouf التاجر الفرنسي ليكون ترجماناً له في مخاطبة الجماهير ، وسار يقصد بيت القاضي ليعترف أسباب الهياج ، وأصدر في الوقت نفسه أمره إلى الجنود للرابطة في بركة النيل<sup>(٢)</sup> بأن تحمل السلاح وتهاجم القتال ، ومضى في كتيبة من الفرسان قاصداً مركز الهياج ، فسار من بركة النيل إلى اللوسكي وأبحه إلى شارع النورية وأراد أن يذهب إلى بيت القاضي ( بين التصرين ) ، ولكن الشوارع ازدحمت بالجموع حتى صارت كأنها بحر يزخر بالناس ، فأخذ الجنرال ديوي يشق لنفسه طريقاً بين هذه الجموع الصاخبة ، وتساقلت الأحجار على الكتيبة من الناس ومن المنازل ، فخرج من بين التصرين وباب الزهومة ، وهناك لقي جماعاً من الثوار أخذوا الطريق عليه ، فحاول بودوف أن يخاطب الناس فأجابه بالسخط والعنفات ، ولم يحسب ديوي حساباً لعواقب مواجهته هذه الجموع الثائرة ، فهجم عليها على رأس فرسانه ، فارتدت أول وهلة ، لكن الهجوم كان في زقاق ضيق بحيث لم يستطع الفرسان أن يتطلقوا في حركتهم ، فأطبق الناس على الجنرال ديوي من كل جانب ، وفي هذا الوقت جاء برتلتي الروي<sup>(٣)</sup> في شرفة من رجاله لتجدة الجنرال ديوي ، وكان برتلتي

(١) كان بمثابة حاكم القاهرة وقتذاك يعقب ( شيخ البلد ) وهو اللقب الذي كان يعطى لرئيس المالك في القاهرة كما يتناقل في الفصل الأول ، والجنرال ديوي من قواد الجيش الفرنسي الذي حارب في إيطاليا تحت قيادة نابليون قبل عيجه إلى مصر وكان قومنداناً لملان حينما اختاره نابليون ضمن قواد الحملة الفرنسية

(٢) كان الجنرال ديوي يسكن بيت إبراهيم بك بركة النيل

(٣) يسميه الجبرتي برتلين الروي وكان العامة يسمونه « فرط الرمان » ، وهو كما يقول الجبرتي من أسافل الأروام العسكرية القاطنين بمصر ، وكان من الطوبجية عند عهد بك الأتقي وله حاتون بخط لبوسكي يبيع فيه القوارير الزجاج أيام البطالة ، وكان مشهوراً بالقسوة والظلمة وكرامته الأهالي ، عينه الفرنسيون ( كمتخذا مستغفلان ) أي وكيل المحافظة فكانت له سطوة كبيرة في عهدهم وسفك دماء كثيرة وضح الناس من فضائمه وشروبه

هذا مشهوراً بالقسوة والفظاعة ، فأطلق رساصة على الجموع المحتشدة ، فكانت هذه الرساصة شوثماً على الجنرال دييوى أثارت غضب الجماهير ، فهجموا على الفرنسيين وبينهم دييوى وأهالوا عليهم ضرباً بالمصى ، ورجماً بالأحجار ، وأخذوا بالسيوف ، وطمعاً بالرمح ، ورشقاً بالسهم ، فأدرك دييوى حرج الموقف ، لكنه لم يجد لنفسه ولا لجنوده مفرأ ، وفيما هو كذلك أصابته طمعة رمح في ثديه الأيسر قطعت شريانه ، وأراد ياوره الكابتن مورى أن يدافع عن قائده ، فسقط عن جواده ، وبالرغم مما أصاب دييوى فإنه مد يده إلى ياوره يحاول رفعه عن الأرض فتفجر الدم من طمته وخر صريماً ، وهنالك خف الهياج والتجمهر في الشارع ووصل الدكتور لارى Larrey كبير جراحي الجيش ليضمد جراح الجنرال وقلوه إلى دار صديقه الجنرال جونو Junot بالأزبكية ، يئس أنه لم يبقه إسعاف ولم ينفعه علاج ، وأسلم الروح متأثراً من جراحه

ذاع خبر مقتل دييوى في أنحاء المدينة كالبرق ، فحى الثوار وامتلاوا حماسة ، وظنوه سهلاً عليهم وقد قتلوا قومندان المدينة أن يقتلوا القواد والجنود في الشوارع ، وانحازت الجموع الهادئة إلى صفوف الثورة متشجيعين بهذا « النصر الأول » ، فزاد عدد الثائرين وتضاعف ، واشتدت حمية القتال في نفوسهم ، واستولوا على المواقع المحيطة بمعظم خطط القاهرة كباب الفتوح وباب النصر والبرقية إلى باب زويلة وباب الشمرة إلى جهة البندقيين ، واتخذوا من مساطب الخوانيت متاريس أقاموها في الشوارع والحارات يستدقون بها الجنود ويعرقون سيرهم ، وأخذوا يطلقون النار من خلالها ، وزادت جموع الثائرين عزم انضم إليهم من أهل الضواحي الذين أقبلوا من طريق الأهرام وبليس

ولما بلغت الثورة هذا المبلغ أطلق مدفع الخطر وضرب النفير العام صائحاً بالجنود الفرنسية إلى القتال ، فأخذوا يتجمعون ويطلقون النار على الثوار في الشوارع وخلف التاريس وطفقت جموع الثوار تحتشد في حي الأزهر ، وامتنع بالجامع الأكبر خمسة عشر الفا من أشد الثوار حماسة وأقاموا التاريس في الطرق والأزقة الموصلة إليه

وهنا حضر نابليون إلى القاهرة ، فإذا هي كالثمة يضطرم ناراها ، حضر وصحبته الجنرال كافازيلي Caffarelli ودمارتان Dommartin والكولونل ديتروا Detroye ، وأخذ يند ما استطاع لمواجهة الثورة

## وصف الثورة

بقلم شاهد عيان

لكولونل ديتروا يوميات كان يدون فيها وقائع الحلة الفرنسية فوصف الثورة كما شاهدها ، قال :

« ٢١ أكتوبر سنة ١٧٩٨ - الساعة السادسة صباحاً ، احتشدت الجموع في عدة أحياء من القاهرة ، وعلت أسوات السخط والاستياء ، وأخذ الناقون يمددون أسباب سخطهم ، وصاح المؤذنون على مآذنهم ينادون نداءات مثيرة للخواطر ، وأتال الناس مسلحين بالبنادق والمصمى يقصدون الاجتماع في صعيد واحد ، ثم أقفلت الدكاكين ، وفي نحو الساعة الثامنة صباحاً علم الجنود الفرنسية بهذا الشر فتأهبت للقتال ، وكان القائد العام مطمئناً لموقفه فركب جواده وسحب من القواد كافرلي ودومارتان ، وكفت معهم ، وذهبنا ننقذ استحكامات مصر القديمة وجيزة الروضة ، وفي نحو الساعة العاشرة جاءه الخبر أن القتال قد بدأ في المدينة<sup>(١)</sup> وأن أناساً قتلوا من الفريقين وأن الجنرال ديوي قومندان القاهرة ضمن القتل صرعه الثائرون برمية سهم فنذت إلى نديه وكان في كتيبة من الفرسان ذهب القتل بكثير منهم »  
« رجعنا إلى المدينة ولما دخلنا من جهة مصر القديمة أمطرا الثائرون مطراً من الحجارة فعدنا أدرأجنا وقصدنا باب بولاق ، ودخلنا منه فرأينا المدينة في أقطع حالة ، سمعنا طلقات البنادق في كل مكان ، رأينا الجثث ملقاة على الأرض هنا وهناك ، وسرايا (دوريات) الجنود يهاجمها الثائرون في كل جهة فيضطر الجنود غالباً إلى التقهقر راجعين إلى مواقعهم الاحتياطية ، وفي حي الفرنسيين قسمة قريباً من للمسكر العام بينا كنت على رأس جماعة من حرس القائد العام هاجمني ١٥٠ من الثائرين ، ولم أستطع إقازح حياتي إلا بعد أن قتلت من قرست أمه رئيسهم وفتحت ثغرة في صفوفهم ، وكان الفرنسيون وقتئذ يحتلون المواقع الآتية :

« القلعة ( قلعة الجبل ) حيث كانت لنا مدفعية قوية ، وميدان بركة النيل حيث كان

---

(١) جاء في مذكرات نابليون أنه غادر القاهرة في شروق ذلك اليوم لزيارة ترسة ( دار مطبعة ) الجيزة قبل نشوب الثورة وأنه عاد إلى القاهرة في الساعة التاسعة صباحاً ، على أن شهادة الجنرال ديتروا تدل يقيناً على أن نابليون كان وقت نشوب الثورة في القاهرة ولكنه غادرها إذ لم يساوره فيه الأمر قلق من وقتها الأول ، ورواية ديتروا أدق وأدعى إلى الصحة لأنه كان يدون مذكراته يومياً وقد مات في حصار عكا ، أما نابليون فأعلى مذكراته على الجنرال برتران في متاه بسانت هيلين بعد أكثر من ستة عشر عاماً مضت من وقوع هذه الحوادث

يمسك معظم الجنود ، ثم ميدان الأربكية مقر القيادة العامة وكان يحميه ١٥ مدفعاً ، وقد أمكننا بعد جهد وصعوبة أن نعد الاتصال بين هذه المواقع المختلفة

« أما المسكر العام للتأثرين فكان الجامع الكبير السمي بالأزهر ، ذلك المسجد الجليل الذى طارت شهرته فى أنحاء الشرق ، وقد أقام التأثرون للتأريس على منافذ الشوارع القضية إليه ، فأصبح من المستحيل أن تقتحمه للدقية أو الجنود الشاة

« أدرك القائد العام خطر الحالة واستفحال الثورة وإقبالها بوجهها المرعب الخيف ، وأغضبه انتصار التأثرين على عدد كبير من الجنود ومجومهم على دار فرقة الهندسة<sup>(١)</sup> ونهبهم أدواتها ، ثم بحاسة تعلقهم الجبرال ديبوى ، فأمر الجبرال دوارتان قومندان الدقية أن ينصب للدافع على رُبْن المقطم إلى شرق القلعة لتعاون مدافع القلعة فى إطلاق القنابل على الجامع الأزهر »

هنا ما رواه الكولونل ديتروا فى يومياته عما شاهده من حوادث اليوم الأول للثورة وعن الاستعداد لليوم الثانى ، وزيد عليه أن نابليون أمر بأن يتولى الجبرال جونو Junot قيادة الجنود المسكرة فى الأربكية وإقامة مخافر من الجنود لمراقبة الجهات المجاورة لها ، وتسيير طلائع مسلحة لاكتشاف جهات القاهرة ووضع مدافع على منافذ الشوارع المهمة ، وأمر بتعيين الجبرال بون Bon قومنداناً للقاهرة خلفاً للجبرال ديبوى ، وكلفه « اتخاذ اللازم لإعادة النظام فى المدينة » (أمر ٣٠٠ قاندمير — ٢١ أكتوبر سنة ١٧٩٨ ) ، وعهد إلى الجبرال لان Lannes الذى كان مسكراً فى مصر القديمة أن ينقل بجنوده فى فجر اليوم التالى ليحتل المرتقات القائمة خارج المدينة ومعه من المؤونة ما يكفى الجنود مدة يومين

وقد أرسل الجبرال بون بعد تعيينه التقرير الآتى إلى نابليون يصف فيه حالة المدينة الثائرة :

« ٢١ أكتوبر الساعة العاشر مساء ، إن مركز الثورة لا يزال فى حى العرب حيث يوجد الجامع الأكبر — الأزهر — وقد أحاط التأثرون هذا للمسكر بالتأريس التى سدت جميع الشوارع المضيق إليه ، ولم نستطع كشف هذه الشوارع لأن الظلام ينجم عليها ، وقد أطلق الرصاص على طلائعنا ، والظنون أن الند كالיום ، فلا سبيل غداً إلى تشتيت الجوع المسلحة التى تتدفق من هذا المسكر الثورى ، لذلك أرى فى هذه الحال أن نمرروا اتخاذ وسائل الشدة والصرامة »

(١) بيت مصطفى كاشف بالحرب الأحمر وكان يسكنه الجبرال كافاريللى رئيس فرقة الهندسة



## اليوم الثاني للثورة

يوم الاثنين ٢٢ أكتوبر سنة ١٧٩٨

انقضى الليل في سكون ، والفرقان يتأهبان للند ، وانتقل الجنرال دوبارتان ليلاً ونصب المدافع على سفح القطم بالقرب من القلعة ، أما دعة الثورة فقد ذهبوا في جنح الليل إلى القرى المجاورة يستصرخون الناس للقتال ، وفي الفجر كان أهالي هذه الضواحي يتوافدون على المدينة وكان معظم أبواب القاهرة لم تزل في أيدي الثوار فتحتوها لهم ودخلوا المدينة وجابوا شوارعها حاملين أسلحتهم من عصي ورماح وبنادق

وبدأ النهار بتجمهر الناس في الشوارع ، وكانت سيحات المتجمهرين تشق إلى السماء ، وأخذ نابليون ينفذ الخطة التي وضعها في ليلته ، فوجه إلى كل جماعة من الثوار القوة الكافية للتعلم عليهم ، وعلم أن حشدًا من الثوار قد تم في مذكراته بين سبعة آلاف وثمانية آلاف خرجوا من باب الفتوح يرمون إلى الهجوم على المرتفعات المركبة فيها المدافع ، فصلتهم الجنود الفرنسية وفترت شملهم ، وسعد جموع من الثوار على أسطحة جامع السلطان حسن ومناراته لضرب القلعة ومن فيها من الجنود ، فلم يفوزوا بطائل ، وكانت كتيبة من الجنود الفرسان ومعها مدفعان تحتل المدخل الحارة الموصلة إلى ميدان الأزبكية ، فزعم الثوار على مهاجمة هذه الكتيبة ولكنهم لم يستطيعوا أن يهاجموها من الشارع ، فحسبوا المنازل وعلموا الأسطحة القريبة واحتلوا جامعاً صغيراً يشرف على موقع الكتيبة وأصلوها ناراً حامية قتلت الكثير من الجنود ، فهاجموا المسجد وحطموا أبوابه وقتلوا معظم الثوار بنار البنادق والمدافع ، وتنفيذاً لتعليمات نابليون وزع الجيالات لان Lannes وفو Vaux والكسندر دوماس Dumas جنودهم بعد الفجر في ضواحي القاهرة لمنع سكانها أن يتحازوا إلى ثوار العاصمة ، وقد صدت القوات الفرنسية جموعاً كثيرة من الأهالي وحالت بينهم وبين العاصمة ، وبذلك تمكن نابليون من حصر الثورة في المدينة وعزلها عن البلاد المجاورة

### مقتل الكولونل سلكوسكى

وكان الكولونل سلكوسكى Soultkowski ياور نابليون بمن عهد إليهم إقناذ هذه المهمة ، فركب في الصباح ومعهم كتيبة من حرس القائد العام ومضى على طريق بليس ليصعد الأهالي منه ، وفيما هو عائد إلى القاهرة من (باب النصر) تلقاه الثوار وأرادوا منه هو

وكعبيته من دخول المدينة ، فهاجمهم سلكوسكى بشرذمة من الجنود ، وفي أثناء القتال كبا جواده وأقاء على الأرض ، وكان لم يزل يشكو من جراحه التي أصابته في معركة الصالحية فهجم عليه الثوار وقتلوه ، وكان هذا الضابط بولوى الأصل سليل بيت من البيوت العريقة هاجر من بلاده فراراً من الظلم وتطوع في الجيش الفرنسى ، وكان من قبل مجاهداً في سبيل حرية بلاده تحت لواء كوشيسكو بطل بولونيا الشهير ، فلما هزم كوشيسكو تطوع في الجيش الفرنسى وعينه نابليون ياوراً له تقديرًا لخدماته وإعجاباً بمواقفه النبيلة ، وكان على جانب من العلم والدكاء ، فجعله عضواً بالمجمع العلمى بمصر ، وكان لكل ذلك موضع عطفه واحترامه ، فلما جاءه نبأ مقتله حزن عليه حزناً شديداً ونماه إلى حكومة الديركتوار في التقرير الذى بعث به إليها عن ثورة القاهرة

#### وساطة أعضاء الديوان

وفي نحو هذا اليوم جاء أعضاء الديوان لمقابلة نابليون يسألونه الكف عن الضرب ، فتلقاهم بفتور ورمائم بالهاون في منع الثورة ، وبعد مناقشة بينهم أهلهم حتى يعودوا إلى الثوار ويدعوم إلى إلقاء السلاح والإخلاء إلى السكينة ، وفي الوقت نفسه أمر الجنرال دومارتان قومندان الطوبجية بأن يمسك عن ضرب المدينة بالدفاع إلى أن تصله أوامره وكانت كتائب الجنود قد تغلبت على الثوار في معظم أحياء المدينة وانحصرت الثورة في حى الجامع الأزهر وما حوله ، فذهب أعضاء الديوان إلى الأزهر لينصحوا الثوار بالكف عن القتال فلم يأبهوا لهم ، ومنعهم الثوار أن يتخطوا المتاريس وأبوا عليهم الدخول إلى الأزهر ، ولم يبلغ الشايخ إلى نابليون ما انتهى إليه سعيهم ، وكان نابليون يرقب حركات الأزهر من الصباح ويصدر تعليماته إلى القواد على ما يقتضيه تحول الحال

ففي الصباح أرسل له الجنرال بون قومندان القاهرة يطلب منه أوامره ، ويقول في رسالته : « إن الدوريات التي اكتشفت في فجر يومنا هذا حى الأزهر أبلغتني أن السكينة سائدة عليه ، لكن دوريات أخرى أنبأتني بعد ذلك أن الحال غير هذا ، ومن الواجب التذرع بالشدة لتفريق الجموع المسلحة التي تحتشد في هذا الحى ، وإني منتظر أمركم ، ومن رأي أن نميل بقواتنا على هذا السجد ، ولكن من العوالب أن نزعف عليه من كل الجهات التي تقفى إليه »

فأنفذ الجنرال برتييه Berthier رئيس أركان الحرب في الساعة الثانية بعد الظهر إلى الجنرال بون تعليمات القائد العام وهي :

« عليكم أن تهاجوا لنوركم ممسك التارئين ، وأن تضربوا الأزهر بالدافع ، وانسكن للدافع في أصلح موقع ليكون الضرب أشد أثراً ، بلنوا الجترال « دوماتان » أن يفعل مثل ذلك وأن يستولى على مدخل الأزهر والنازل الموصلة إليه ، وعليكم أن محتصوه بجنودكم تحت حماية الدافع ، والقائد العام يأمر أن تقتلوا كل من تلقونه في الشوارع المسلحة ، وعليكم أن تملنوا الأهالي بأن كل المنازل التي تلقى منها الحجارة تحرق حالاً بالنار ويمنع عن المنازل الأخرى ، وعليكم أن تقتلوا كل من في المسجد وأن تضموا فيه حرساً قوياً من الجنود »

### ضرب المدينة بالدافع

وبينا كان التارون مجتمعين في الأزهر قُذفت أول قنبلة من الدافع القاعة على رُبن المقطم ، فانفجرت في المسجد ، وكانت هذه القنبلة نذيراً بابتداء ضرب المدينة بالدافع يقول ديبو<sup>(١)</sup> إن إطلاق القنابل بدأ في الساعة الرابعة تماماً ، لكن الكولونل ديتروا يقول في يومياته إن الضرب ابتداءً في الظهر واستمر إلى الليل ، وروايته أدعى إلى الثقة لأنه شاهد تلك الحوادث شهادة عيان

أخفت آلاف القنابل نهال على الأزهر وتراى في الأحياء المجاورة له ، كالصناديق والنورية والطحامين ، وتنفجر بهول لم يعهده سكان القاهرة من قبل ، فألقت الرعب في نفوس الناس ، وفي الوقت نفسه أقبلت كتائب الجنود فاحتلت الشوارع الموصلة إلى الأزهر بحيث أصبح الثوار محصورين بين نارين ، نار الدافع من فوقهم ونار الجنود من حولهم ، وأحدثت الدافع تخريباً في الجامع الأزهر والبيوت القاعة في الأحياء المجاورة له ، فأصبح منظر هذه الأحياء قذعياً لما شوهها من آثار الخراب ، قال ( ديبو ) يصف تأثير الضرب :

« أوشك الجامع الأزهر أن يتداعى من شدة الضرب فيدفن تحت أنقاضه الجماهير الحاشدة فيه ، وأصبح الحى المجاور للأزهر صورة من الخراب والتدمير ، فلم يكن يرى فيه إلا بيوت مدمرة ودور محترقة ، ومات تحت الأقاض آلاف من السكان الأمنين كان يسمع لهم أنين موجه وسيحات مرعبة ، وكانت الجهات القريبة من الأزهر ولا سيما شوارع النورية والصناديق مسرحاً لهذه المشاهد النظيمة »

ويقول الجبرتي في هذا الممدد : « نتابع الرى من القلعة والكيان ، حتى ترعزت الأركان ، وهدمت في مرورها حيطان الدور ، وسقطت في بعض القصور ، ونزلت في البيوت والوكائل ، وأصمت الآذان بصوتها الهائل ، فلما عظم الخطب ، وزاد الحال والكرب ، ركب المشايخ إلى كبير الفرنسيس ليرفع عنهم هذا النازل ، ويمنع عسكره من الرى المتراسل ، فلما ذهبوا إليه عاتبهم في التأخير واتهمهم بالتقصير ، فاعتذروا إليه فقبل عندهم وأمر برفع الرى عنهم فقاموا من عنده وهم ينادون بالأمان في المسالك »

قال ريبو ان الضرب انتهى في نحو الساعة السادسة مساء ، ويقول السيو مارتان Martin أحد مهندسى الحملة الفرنسية وهو شاهد عيان لتلك الحوادث ان الضرب انتهى الساعة الثامنة مساء<sup>(١)</sup> ، فوقع الاختلال في صفوف الثوار وطلبوا الهدنة والتسليم ، وانتهت المناوضة بإلقاء السلاح ورفع المتاورس فدخل منها الجنود حتى وصلوا إلى الجامع الأزهر ، فمسكروا فيه طول الليل ، وبذلك انتهت ثورة القاهرة ، وباتت المدينة تلك الليلة غارقة في لجة من الظلام ولجة من الفرع

### قمع الثورة

تقابلت قوة الحديد والنار مرة أخرى على مقاومة شعب أعزل لا سلاح معه ، واستهدف سكان القاهرة بعد إخماد الثورة لأشد ضروب الانتقام ، ونزلت بهم النوازل بمخطوبها وأهوالها قدر الكولونل ديتروا في يومياته قتل الأهالى بسبعائة إلى ثمانمائة رجلا ، لكن هذا التقدير دون الحقيقة بمراحل ، فضلا عن أنه لم يحص الذين ماتوا تحت أقاض الدور المهمة والمنازل التي خربت أو احترقت

أما نابليون فأحصاهم في تقريره إلى حكومة البيركتوار بمدد يتراوح بين ٢٠٠٠ و ٢٥٠٠ قتيل ، وقدر ريبو عدد ضحايا الثورة بأربعة آلاف ، ولعله اعتمد في هذا المدد على هدير الجنرال « بليار » Belliard في مذكراته ، فإنه قدم بهذا المدد وهو أقرب إلى القلة

وبلغت خسارة الفرنسيين ٢٠٠ قتيل منهم جنرال وهو (ديبوى) وكولونل (سلكوسكى) وبعض الضباط والمهندسين ، والباقي من الجنود ، وقد يكون قتل بعض المهندسين مدعاة للتعجب ، إذ ما شأنهم بشوة قامت بين الأهالى والجنود ، على أن نابليون في مذكراته يبين لنا السبب فهو يقول ان ضباط فرقة الهندسة كانوا هدفا للشعب لأنهم هم الذين كانوا يتولون

اقتلاع أبواب الدروب والحدارات ونقش القبور وهدم البيوت وتحطيم القلعة ، وتل هذا من أهم أسباب مهاجمة الثوار لبيت الجنرال كافاريلي رئيس فرقة الهندسة التي كان يسكن بيت مصطفى كاشف بالدرب الأحمر ، وقد هجم العامة على داره وكان غائباً عنها صحبة نابليون في الوؤضة ، وكان بها اثنان من هندي القناطر والجنود وهما تيفنو Thevenot وذو قال Duval فقتلها الثوار وأتلفوا ما كان بالدار من الآلات الفلكية والهندسية ، فحسر العلم بإتلاف هذه المجموعة خسارة كبيرة

قال الجبرتي في هذا الصدد : « وكان بتلك الفارشيء كثير من آلات الصنائع والنظارات ، الفرية والآلات الفلكية والهندسية والعلوم الرياضية وغير ذلك مما هو معدوم النظر كل آلة لا قيمة لها عند من لا يعرف صنعها ومنفعتها ، فبيد العامة كل ذلك وكسروه قطبا ، وصبي ذلك على الفرنسيس جدا ، وقاموا مدة طويلة يفضون عن تلك الآلات ويحملون لمن يأثمهم بها عظيم الجمالات »

وخسر العلم كذلك بقتل المسيو تستفيود Testevuide كبير الهندسين الجغرافيين وكان يشغل بوضع خريطة مصر فاجلته النية قبل أن يتمها ، خرج صبيحة يوم الثورة ( ٢١ أكتوبر سنة ١٧٩٨ ) من دار المجمع العلمي بالنصرية وذهب إلى دار الجنرال كافاريلي بالمبهد الأحمر فقتله الثوار في الطريق ، وقتل كذلك الرسام دوبري Duperrés والجراحان روسل Roussel ومانجان Mangin

### مروءة سكان القاهرة

ويعترف الكتاب والمؤرخون الفرنسيون أنه لا يصح نسبة شيء مما يمد من الظلم في ثورة القاهرة إلى المصريين وأنه إذا كان ثمة فظائع ارتكبت فهي من عمل المتأربة الذين كانوا بالقاهرة ، وفضلنا عن ذلك فأنهم يترفون بأن الطبقة المتوسطة من سكان العاصمة قد رقت في خلال الثورة على مروءة كبيرة وعواطف نبيلة يليق بالفرنسيين المزل من السلاح ، قال ( نزيو ) في هذا الصدد : « إن جميع الفرنسيين الذين أتجأوا إلى بيوت الطبقة المتوسطة قد أخلصوا فيها على حياتهم وألقوا بها النجدة والمروءة » (١)

وكتب المسيو فيفان ديتون Vivant Denon وهو شاهد عيان لحوادث ثورة القاهرة : « يصف مروءة الطبقة المتوسطة من السكان : « لأن كان العامة وبعض الكبراء والأعياء قد

(١) التاريخ العلمي والحربي للحلة الفرنسية الجزء الثالث.

ظهروا تساهق في ثورة القاهرة فإن الطبقة المتوسطة من سكان المدينة زهفت على أسعى عواطف الإنسانية والروم تفرغ فوارق العادات والأخلاق والدين والمنة التي كانت تعمل بيننا ، فيينا كانت صيحات التعريض على القتل تسمع من المآذن وبينما كان شبح الموت والدم ينقل في الشوارع فإن أصحاب المنازل التي كان يسكنها الفرنسيون قد آوهم وأظلمهم بمخبتهم وأمدوم بما يحتاجون ، فمن ذلك أن مجوزاً كانت تسكن بالمى الذى كنا نقيم به<sup>(١)</sup> فأخبرتنا أنه لا يفصل بيننا وبينها إلا حائط مشترك وأنها مستعدة لأن تؤوينا في بيتها وصرحت لنا في حالة الهجوم علينا أن نهدم الحائط المشترك لنكون في دارها ، وحدث أن جاراً لنا أمدنا بالمؤونة التي تكفينا دون أن نطلب منه ذلك مع أنه لم يكن يبيع ولا شراء في تلك الأوقات العصيبة إذ كانت المجاعة تهدد العاصمة ، وعما هذا الجار كل المعلومات التي ترشد إلى مكاننا ، وجلس أمام دارنا يدخن الشيك كأنه جاره ليصرف عنا أنظار الثوار ، وحدث أن اثنين من الفرنسيين كانا سيران في الشوارع فاخططنهما أناس مجهولون ودفعوا بهما إلى دار لا يعرفانها ، فغلب إليهما أنهما وقعا في كين ولم يشكأ أنهما صارا فريسة القتل والتعذيب ، فثارت ثأرتهما ، ورأى المسكون بهما أنهم لم يستطيعوا إقناعهما بحسن نيتهم وأنهم لا يريدون إلا إقازهما ، فأودعواهما أظلمهم ليطننا على حياتهما ، ويمكن إيراد وقائع أخرى كثيرة من أشباه هذه الحوادث تدل على رقة الشموخ ، ويبرهن على أن عواطف الإنسانية تتجلى في أشد الساطت يأساً<sup>(٢)</sup> .

## فظائع الفرنسيين

### في إخماد الثورة

أسلفنا أن عدد من قتلهم الفرنسيون من سكان العاصمة في إخماد الثورة بلغ على أرجح الزوايا أربعة آلاف ، ولا جدال في أن قمع الثورة في مدينة اشتهر أهلها بالوداعة والسكينة ما كان يدعو إلى إغناء هذا العدد الكبير من السكان ، على أن قواد الفرنسيين لم يكن مهمهم إلا قمع الثورة بكل وسائلهم في الصرامة والإرهاب ، ولم يحسبوا حساباً لتضيق جراح النفوس ، واجتذاب قلوب الشعب بعد هذه الضربة ، والواقع أن ثورة القاهرة وما تخللها وأعقبها من الفظائع قد باعدت بين المصريين والفرنسيين ، فاللواء التي سالت في شوارع العاصمة في أيام

(١) حي الناصرية حيث كان الجميع يلجئ

(٢) رحلة في الوجه البحرى ومصر العليا للسيوفيان ديتون

٢١ و ٢٢ و ٢٣ أكتوبر وما بعدها قضت نهائياً على آمال نابليون في اكتساب قلوبه للشعب المصري ، على أنك إذا تأملت في القضايع التي ارتكبتها الفرنسيون بعد تسليم المدينة وإخلائها إلى السكينة وجدها أبداً ما تكون عن مقتضيات الحرب والقتال ، ولهي أجدر أن تعتبر من ضروب التشكيل والانتقام

وحسبك أن ترجع إلى ما رواه الجبرق عن تلك القضايع وبخاصة أنها كرم الأزهري فتحكم أنها فوق ما وصف به من القضايع

قال الجبرق : « وبعد هجمة من الليل ( ليلة الثلاثاء ٢٣ أكتوبر ) ، دخل الافرنج المدينة كالسيل ، وصرخوا في الأزقة والشوارع ، لا يجدون لهم ممانع ، كأنهم الشياطين أوجند ابليس ، وهدموا ما وجدوه من التاريس ، ودخلت طائفة من باب البرقية ، ومشوا إلى النورية ، وكروا ورجعوا ، وترددوا وما جئوا ، وعلوا باليقين ، أن لا دافع لهم ولا كين ، وتراسلوا أرسالا ، ركبانا ورجالا ، ثم دخلوا إلى الجامع الأزهر وهم راكبون الخيول ، وبينهم النساء كالوعول ، وتفرقوا بصحنه ومقصورة ، وربطوا خيولهم بقبلته ، وعابوا بالأزقة والحارات ، وكسروا القناديل والسهارات ، وهشموا خزان الطلبة ، والمجاورين والسكنية ، ونهبوا ما وجدوه من التاع ، والأواني والقصاع ، والودائع والمخبات ، بالدوابيل والتزانات ، ودشتوا الكتب والصاحف ، وعلى الأرض طرحوها ، وبأرجلهم تصالم داسوها ... وكسروا وأوانيه ، وألقوها بصحنه وتواحيه ، وكل من صادفوه به عروء ... زمن ثيابه أخرجه »

هذا بعض ما كتبه الجبرق وصفاً لتلك المأساة التي أعقبت تسليم القاهرة ، على أن القضايع لم تقتصر على اليوم الذي أخذت فيه الثورة بل استمرت بعد ذلك ولا ضرورة إليها من حرب ولا من سياسة

ففي يوم الثلاثاء ٢٣ أكتوبر غداة إخماد الثورة بعد أن سادت السكينة واستولى الفزع على النفوس كانت الجنود لم تزل مراجلة بالأزهر وما حوله ، فكانوا يمتنون الناس من دخول الجامع ، وشرعت الجنود في الأحياء المجاورة للأزهر ونهبوا بعض البيوت بحجة التنشيط على السلاح حتى اضطر سكان تلك الجهة إلى التحول عن دورهم والنجاة بأنفسهم ، وأخذ الجنود يتسكمون في الأسواق ويقفون صفوفاً ، فإن مر بهم أحد قتشوه وأخذوا مامعه ، وربما قتلوه ، وصاوا يقبضون على الناس جزافاً بحجة أنهم كانوا يخبثون السلاح أو أنهم اشتركوا في الثورة فوقع الفزع وكثرت الوشايات ، وراجت اللسائس ، ونالت القترتات ، وتمددت المظالم ، واستبيحت الحرمات ، وامتلاّت السجون بالأبرياء ، وذاق الناس فيها أنواع الأذى والمهوان ،

وقتل منهم الكثير بلا محاكمة ولا حساب ، قال الجبرتي في هذا المعنى :

«واتتدب برطليين<sup>(١)</sup> للمس ، على من حمل السلاح أو اختلس ، وبث أعوانه في الجهات يتجسسون في الطرقات ، فيقبضون على الناس بحسب أغراضهم . . . فيحكم فيهم بمزاده ، ويميل برأيه واجتهاده ، ويأخذ منهم الكثير ، ويركب في موكبه ويسير ، وهم موقوفون بين يديه بالحبال ، يسحبهم الأعوان بالقهر واللكال ، فيودعونهم السجون ، ويطلبونهم بالتهويات ، ويقررونهم ( يكرهونهم على الإقرار ) بالمقاب والضرب ، ويسألونهم عن آلات السلاح والحرب ، ويدل بعضهم على بعض ، فيضمون على الدلول عليهم أيضاً القبض ، وكذلك فعل مثل ما فعله العيين الأغا<sup>(٢)</sup> ، وتجبر في أقاله وطني ، وكثير من الناس بذبحهم ، وفي بحر النيل قذفهم ، ومات في هذين اليومين وما بعدها أم كثيرة لا يحصى عددها إلا الله . » وكانت التعليلات التي أسندوها الجنرال برتييه Berthier رئيس أركان الحرب (وهي صادرة بأمر القائد العام) بعد إخماد الثورة بأمر بالصرامة والغلظة والقسوة ، انظر إلى الأمر الذي أصدره إلى الجنرال بون Bon بتاريخ ٢٣ أكتوبر :

«يُهدم الجامع الأكبر ليلاً إذا أمكن ، وترفع الحواجز والأبواب التي كانت تسد للشوارع»

. . . تجد أن أعمال الفرنسيين تجاوزت الرض من إخماد الثورة إلى الانتقام والإرهاب ، ويعترف المؤلفون الفرنسيون بأن إعدام كثير من التهمين في الثورة تم سراً في القلعة<sup>(٣)</sup> من غير محاكمة ، قتلوا بحد السك ، ويعترف القواد الفرنسيون في رسائلهم التي تبادلوها بالفظائع التي ارتكبت في قمع الثورة ، كتب الجنرال برتييه ٢٣ أكتوبر سنة ١٧٩٨ إلى الجنرال دوجا Dugua قومندان مديرية المنصورة وتشدد يخبره بمحادثات الثورة قال :

« لقد نكلنا بالتأثرين في مذبحه رهية فسادت السكينة مساء أمس ، وقد قتلنا منهم ألفين أو ثلاثة آلاف »

وأمر نابليون الجنرال برتييه بتاريخ ٢٣ أكتوبر أن يصدر تعليماته إلى قومندان المدينة « يقطع رؤوس جميع السجونيين الذين أخذوا معهم أسلحة ، وعليكم إرسال الجثث في هذه

(١) هو برطلي الروي الذي سبق الكلام عنه بهامش ص ٢٣٥

(٢) هو مصطفي أغا وقد عينه الفرنسيون محافظاً للمدينة بعد أن عزلوا عمده السلطاني الذي كان معينا بأشارة أعضاء الديوان كما سبق بيان ذلك بالقتل الثالث ، وغول الجبرتي عن مصطفي أغا لأنه كان تابع (خادم) عند الرغن أغا مستظفان (محافظ المدينة) سابقاً

(٣) ص لاجونكيين الجزء الثالث



الليلة إلى شاطئ النيل فيما بين بولاق ومصر القديمة وإغراقها في النهر  
وأرسل نابليون بتسارح ٢٦ أكتوبر إلى الجنرال ريفيه Reynier قومندان  
الشرقية يقول:

« عادت السكنية إلى القاهرة ، وقد التائرون نحو ألتي قتل ، وفي كل ليلة قطع رؤوس  
بمحو ثلاثين من الرجال وكثير من زعماء الأهالي ، وأظن أن هذا سيكون درساً قاسياً لهم :  
وفي مذكرات نابليون رواية مخففة لهذه النطائح ، قال : « إن رجال الشرطة قبضوا على  
ثمانين من أعضاء لجنة الثورة وسجنوهم بالقلمة ، وإن نحو أربعة آلاف من سكان العاصمة  
هاجروا منها قبل شروق الشمس فاصدين إلى السويس ليلتحشوا إليها (وكان الفرنسيون لم يحتلوها  
بعد) وإن أعضاء لجنة الثورة (أي الثمانين) أخذوا يذنبهم وقد أثبتت إدانتهم فأصدر المجلس  
المسكري يوم ٢٤ أكتوبر سنة ١٧٩٨ قراراً بأعدامهم جميعاً ونفذ فيهم الحكم<sup>(١)</sup> ، وليل  
هؤلاء هم الذين أعلنوا سراً بدون عاكمة كما يقول دي لاجونكيير

« وقد أسرف الفرنسيون في القتل ، ولم تأخذهم رحمة حتى بالنساء ، قتلوا كثيراً منهن ،  
وهذا من أفظع ما سمع في التتكيل ونيفك النساء ، قل السيوي بدين سكرتير نابليون الخاص في  
مذكراته : « سبق المسجونون إلى القلمة ، وكنت أبلى في مساء كل يوم كتابة الأوامر القاضية  
بأعدام اثني عشر سجيناً كل ليلة ، وكانت نبش القتل توضع في زكائب وتترك في النيل ،  
واستمر ذلك ليالي عديدة ، وكان كثير من النساء ممن نفذ فيهم أحكام الإعدام الاليلية<sup>(٢)</sup> .

وفي مذكرات نابليون أيضاً أن الشيخ السادات الذي انتخب رئيساً للجنة الثورة نفى عن  
نفسه تهمة التحريض على الثورة بأنه كان مريضاً ، وقد تردد نابليون في شأه وقال في مذكراته  
أنه مع قيام البيئات على أنه زعيم الثورة قد عفا عنه ورأى أن الضرر من قتله أكثر من نفعه  
لما كان له من الميزة القيمة في الشرق ولأن قتله يجعله شهيداً في نظر الشعب<sup>(٣)</sup>

أما الذين حوكموا رسمياً من القبض عليهم باعتبارهم زعماء الثورة فهم الشيخ إسماعيل البراوي ،  
والشيخ يوسف الصيلحي ، والشيخ عبد الوهاب الشبراوي ، والشيخ سليمان الجوسقي (شيخ  
مطامعة المكفوفين) ، والشيخ أحمد الشرطاوي ، وكلهم من أواسط علماء الأزهر ، حبس  
هؤلاء التهمون فيمن قبض عليهم بعد إخماد الثورة ولم يكن أحد يعلم الهمة التي أخذوا بها

(١) مذكرات نابليون التي أرسلها على الجنرال برتران في سانت هيلين

(٢) مذكرات بوربون الجزء الأول

(٣) مذكرات نابليون

وفي يوم الأربعاء ٢٤ أكتوبر ذهب إلى نابليون وقد كبير من الشيوخ يسألونه العفو عن أهل المدينة لتطعن قلوب الناس ويسكن روعهم ، فوعدهم كما يقول الجبرق « وعداً مشروباً بالتسوية » وطالبهم بإرشاده عن تسبب من الممسين في إثارة العوام ، فلم يهتموا أحداً ، فقال لهم القائد العام على لسان الترجمان : « نحن نعرفهم واحداً واحداً » ثم طالبوا منه إخراج الجنود من الجامع الأزهر فأجابهم إلى ذلك وأمر بإخراج الجنود على أن يبق سبعة جندياً أسكنوهم في خط الأزهر للحفاظ على النظام ، فكان الأزهر يبق محتلاً من ليلة الثلاثاء إلى يوم الأربعاء ، ويقولون يقولوا الترك في كتابه <sup>(١)</sup> أن نابليون رفض طلب كبار العلماء لإخراج الجنود من الأزهر ، وقبل شفاعته الشيخ محمد الجوهري الذي جاءه متوسلاً ، وكان في حياته لم يقابل حاكماً قط ، فلما دخل على نابليون قال له ما قابلت حاكماً عادلاً كان أو ظالماً ، والآن قد أتيت متوسلاً إليك أن تأمر بإخراج المسكر من الجامع الأزهر ، فقبل نابليون رجاءه وأمر بإخراج الجنود من الأزهر

ولما علم الشيوخ باعتقال التهمين بالتخريض على الثورة شفعوا لهم واختلقوا إلى ولاية الأمور من الفرنسيين لإطلاق سراحهم ، فلم يلقوا جواباً صريحاً ، وقبض كذلك على إبراهيم الفندي كاتب جبرك الهار واهم بأنه ألب الجوع وكان يوزع عليهم السلاح والمساوق وأنه كان يؤدي عدة من المال والرجال المدودين ، وقد تردد الشيوخ غير مرة للإفراج عنه وعن باقي التهمين ، أما إبراهيم الفندي فقبل نابليون فيه شفاعته الشيخ محمد للمهدي ورجاء المسيو يوسف مدير الشؤون المالية ، فأطلق سراحه ونقل إلى بيته ، وأما باقي الشايع التهمين فقد بقوا في السجن ، وهناك حكم عليهم بالإعدام يوم ٣ نوفمبر سنة ١٧٩٨ ، وكانت محاكمتهم في السر فلم يعلم بها أحد ، ونفذ فيهم الحكم يوم ٤ نوفمبر ، في الساعة الثامنة صباحاً جيء بهم إلى القلعة مخدورين بشرقة من الجنود ، وهناك قتل عليهم حكم الإعدام وأعدموهم رمياً بالرصاص <sup>(٢)</sup> وتولى تنفيذ الحكم فيهم برتلين الروي ، وغيب حاكمهم عن أكثر الناس أياماً ، ويقول الجبرق إنهم سجنوهم بالقلعة إلى الصباح ثم أخرجوهم وقتلهم بالبنادق وأتروهم من السور خلف القلعة ، وقد ذكرهم في وفيات سنة ١٢١٣ هجرية ، فقال عن الشيخ أحمد الشراوي

(١) ذكر تلك جمهور فرنساوية الأقطار المصرية والبلاد النامية تأليف للم يقولوا الترك ( الذي شهد وقائع الحملة الفرنسية )

(٢) نصرت جريدة ( كوربه دليجن ) بالبلد الشافق في ٢٠ برتمبر ( ١٠ نوفمبر سنة ١٧٩٨ ) نأ إعدام هؤلاء للشايع وذكرت أنهم ستة لائحة كما يقول الجبرق ونصرت أسماءهم كما ذكرها الجبرق وأضافت إليهم السيد عبد الكرم وقالت إنهم أعدموا في ميدان القلعة وقطعت رؤوسهم

إنه تولى التدريس بالأزهر بدلا من والده واجتمع عليه طلبة آية وغيرهم واشتهر ذكره وكان قصيح اللسان عظيم الجسم ولم يزل يدرس بالأزهر حتى اتهم في ثورة القاهرة وقتل عن الشيخ عبد الوهاب الشبراوى إنه تولى التدريس بالشهد الحسينى « وكان يقرأ كتب الحديث كالبخارى ومسلم ومحضر درسه الجلم النفير من العامة وكان حسن الإلقاء سلس المتفكير جيد المحافظة جميل السيرة »

وقال عن الشيخ يوسف المصلى إنه كان يتولى التدريس بجميع الكردى وإنه كان « مهذب النفس لطيف القلب ، حلو الناطقة ، مقبول الطلبة ، خفيف الروح » وقال عن الشيخ سليمان الجوسقى أنه كان شيخ طائفة الميمان تولى هذه الشيخة بعد وفاة الشيخ الشبراوى شيخها السابق ، وسار فيهم بشهادة وصرامة وجبروت ، وصار « من أعيان الصدور للشار إليهم فى المجالس ، تحنى سطوته ، وتسمع كلمته ، ويقال قال الشيخ كذا وأمر الشيخ بكذا »

وقال عن الشيخ اسماعيل البراوى إنه ابن أخى الشيخ عيسى البراوى الشهير بالهكر ، تصدر بعد وفاة والده مكانه « وكان غليل البضاعة ، ثقل عليه النباهة والساعة والسلطة والتدخل ، وذلك هو الذى أوقعه فى حبائل الفرنسيين »

وقال الجبرى عن أولئك المشايخ إنهم لم يعلم لهم قبر بعد مقتلهم وذكر الشيخ عبد الله الشرقاوى رئيس الديوان فى كتابه (تحفة الناظرين) : « أن الفرنسيس قتلوا من علماء مصر ثلاثة عشر عالما ، ودخلوا بنحيلهم الجامع الأزهر ومكنوا فيه يوما وبمضى الليلة الثانية وقتلوا فيه بعض علماء ، ونهبوا منه أموالا كثيرة ، وسبب وجودها فيه أن أهل البلد ظنوا أن العسكر لا يدخله غولوا فيه أمتة يوتهم فنبهوها ونهبوا أكثر البيوت التى حول الجامع ودشتوا الكتب التى فى الخزائن يشتدون أن بها أموالا ، وأخذ من كان معهم من اليهود الذين يترجون لهم كتباً ومصاحف نفيسة »

وأمر الفرنسيون الأهالى الساكنين حول ميدان الأزبكية — حيث كان معسكر القائد العام وقواد الجيش — أن يتحولوا من بيوتهم ليسكن بها رجالهم العسكريون والمسكريون الذين كانوا متوزعين من قبل فى القاهرة حتى يحتضروا فى حى واحد إذ لم يمدوا يأمنون على أنفسهم بين الأهالى ، وقد استيقنوا أن الشعب صار لهم سخط عليهم يربص بهم الدوائر وأسند نابليون أمرا عسكريا فى ٢٧ أكتوبر سنة ١٧٩٨ أنذاعه بين الجنود يدل على خلف توجهه الرغبة من الشعب ، بأمرهم فيه أن لا يتصدوا عن معسكراتهم. ويستحرقوا حوائث

الاحتلال والتهب التي وقعت من الجنود، قال في هذا الأمر :

« لقد قتل بعض الفرنسيين في يوم الثورة ، وهؤلاء من الذين لم يقيموا الأوامر الصادرة إليهم ودعم الطيش إلى الاعتماد على معسكراتهم والنامرة بأنفسهم غير حاملين سلاحاً ، فلي رؤساء الفرق ورؤساء الأقسام الإدارية مراقبة الجنود لكيلا يتعدوا ولا يضيعوا عنهم السلاح ، وعليهم أن يراقبوا اتباع النظام والأوامر العسكرية بين الجنود ، وعلى كل فرقة أن يكون بشاكي السلاح تام النخيرة ، وإذا قامت قاعة في المدينة فعلى كل فرد أن يلحق بفرقة أو الإدارة التي يستتبع لها منتظراً ما يؤمر به ، ولا يضمن الأمن من الحذر ، ولتكونوا في وقت السكينة معدين لوقت الهياج ، فإن عدم الإغراق في الاطمئنان أدى للاطمئنان ، ولقد علم القائد العام أن بعض الجنود يستبيحون التسلل إلى المنازل ونهبها ، فعلى قومندان بموقع القاهرة وقواد الفرق أن يتخذوا التدابير الفعالة ليلزم الجنود حدود واجباتهم حتى لا يعلم بعض الجنود سمعة إخوانهم ولا يكندوا صفو النظام والسكينة »

وأصدر أمراً آخر يحظر فيه على الجنود والضباط إصلاحي أسلحتهم عند صنع الأسلحة ( البندقية ) الوطنيين وأن يسترجعوا منهم كل الأسلحة التي لديهم وانتزعت الثقة مما بين الجنود والأهالي ، فكانت ثورة القاهرة كالموجة العمية التي باءلت إلى الأبد بين الأمة المصرية والجيش الفرنسي ، وراح كل جندي لا يعشى إلا بسلاحه بعد أن كانوا لا يعيشون به أسلحة من حين دخولهم القاهرة ، وصار من لم يكن معه سلاح من الفرنسيين يحمل في يده عصا أو سوطاً أو نحو ذلك ، ونفرت قلوبهم من المصريين ، وكف هؤلاء من وجهتهم عن الخروج والروبر بالأسواق من البشة إلى طلوع النهار ، وعامل الفرنسيون الشعب بالشبهة والقسوة ، وشرعوا في إحصاء الأملاك والطالبات بالضرائب الجديدة التي كانت سبباً في نشوب الثورة ، فلم يعرضهم في ذلك أحد ، وساد حكم الإرهاب في مدينة القاهرة ، فلا عدل ولا أمن ولا طمأنينة .

## إبطال الديوان

### وإنشاء القلاع لإخضاع القاهرة

أبطل نابليون اجتماع الديوان عقب إخماد الثورة عقاباً لسكان القاهرة على تورطهم ، وإنصرف إلى تحصين المدينة وجعلها بآمن من وقوع ثورة أخرى ، فأقام الفرنسيون القلاع على التلول المحيطة بالمدينة ونصبوا فيها الدافع ، وهدموا كثيراً من الأماكن بالجيزة ومصر

القديمة وشبرا وحصنها تحفيقاً متيناً ، وأقاموا للماقل في أم شوازع القاهرة ، وأصلحوا قنطرة الجبلين وزادوها مناعة ، وهدموا عدة مساجد منها المساجد المجاورة لقنطرة أميابة ومسجد للثلاث المروف الآن بجامع أولاد عنان ، وقطعوا كثيراً من النخيل والأشجار لعمل الحصون والتدريس ، وهدموا جامع الكازروني بالروضة والجامع المجاور لقنطرة الدكة غرب الأبنية ، وغربوا دوراً كثيرة ، وكسروا شبائيكها وأبوابها وأخذوا أخشابها ليجمعوها في بناء الحصون الجديدة ، ولم يمض ستة أسابيع على إخماد ثور القاهرة حتي أصبحت محاطة بسلسلة من القلاع والاستحكامات<sup>(١)</sup>

وأم هذه القلاع طابية (ديوى) سميت باسم الجنرال ديوي Dupuy الذي قتل في ثورة القاهرة وأقيمت على رابية من ريف الجبل بالمكان الذي ركب به الجنرال دومارتان متدافسه قرب القلعة ، والنرض من إقامتها في هذا الموقع استهدف حتى الأزهر للضرب ، وكانت تعرف في القاهرة باسم قلعة الغرب لقرتها من مقام الشيخ الغرب

وطابية (سلوكوسكي) Sulkowski أنشأوها في جامع الظاهر<sup>(٢)</sup> فحولوا المسجد إلى قلعة ، واتخذوا مأذنته مرصداً للاستكشاف وبنوا بداخله عدة مساكن وأمكنة تسع ٦٠٠ فارس بخيولهم ، قال الجبرتي في هذا الصدد : « وجعلوا جامع الظاهر بيرس خارج الحنية قلعة ، ومتاربه برجاً ، ووضموها على أسواره صدق وأكسنا به جماعة من السكر وبنوا في داخله عدة مساكن تسكنها السكر القيمة به » والجبرتي يسمي هذه الطابية قلعة جامع الظاهر ويسميا في بعض المواطن القلعة الظاهرية ، أما الفرنسيون فسموها طابية سلوكوسكي باسم الضابط البولوني الذي قتل في ثورة القاهرة على مقربة من المسجد وقدرونا خبر مقتله ص ٢٤١ وطابية « كامان »<sup>(٣)</sup> Camin بأقرب من قنطرة اليمون بالطريق للوصل لبولاق يسميا الجبرتي قلعة قنطرة اليمون

وطابية (مورور)<sup>(٤)</sup> أقاموها في حي طولون لإخضاع الحي وطابية (الناصرية) أقاموها فوق جبل المقارب قريباً من دار الجمع الملى ويسميا

- 
- (١) حتى هذه القلاع أمر نابليون بإقامتها قبل ثورة القاهرة لسكنها أقيمت فلا بد الثورة .  
 (٢) السكان بالميدان المروف الآن بمسجد الظاهر وكان وقتئذ خارج مبانى القاهرة أثناء للالهي الظاهر بيرس البندقيارى  
 (٣) جو ضابط فرنسي كبير (أدجودان جنرال) قتل العرب على سواحل الاسكندرية جهة مروط بأقرب من برج العرب  
 (٤) مورور Mairour هو اسم جنرال فرنسي قتل في دمنهور في أوائل الحملة الفرنسية

الفرنسيون طاية المجمع العلمى ، وكانت تعرف فى مصر بطاية قاسم بك وحسن نابليون جزيرة الروضة ، ووضع بطاريات من المدافع فى كل طرف من طرفيها ، وجعل من القياس شبه قلعة ، وحسن شاطئ النيل فى مقابل الجزيرة لحماية الملاحة فى النيل ، وجعل فم الجيزة طاية حصينة سميت طاية الجيزة ( أو طاية السبع السواقي ) ، وجعل قصر ابراهيم بك ( قصر البينى ) الواقع تجاه جزيرة الروضة مستشفى عسكرياً حصيناً يسع ألف مريض وجرح والحق به البيت الذى يجواره وكان معروفاً وتشد بيت محمد كاشف الأرنؤوطى وجعله مخزناً ومصنعاً لفرقة الهندسة وحسن السور المحيط بهما وركب عليه المدافع فصار حصناً منيعاً

قال الكولونل ديتروا فى يومياته : « إن الفرض من إقامة هذه الحصون هو استهداف مدينة القاهرة إذا قامت ثورة فيها ، وقد وصل بينها بطرق خارجة عن المدينة ، ولما كانت نية القائد العام متجهة إلى جعل المستشفيات ومخازن الجيش بمركز من المدينة وإسكان الفرنسيين فى حين من أحيائها فمن الحق أننا نستطيع أن نتغلب على كل هياج فى القاهرة »

وحسن نابليون الجزيرة وكانت من عهد المماليك عاصمة بسور منيع أقيمت عليه الأبراج فيها دار صناعة ( ترسانة ) كبيرة من عهد مراد بك ، فجعلها نابليون مركزاً للمدفعية ومخازنها ومستودعاً للذخائر ، واختار الجزيرة لهذا الغرض لموقعها على النيل وسهولة النقل منها وإليها بواسطة المراكب

### كلمة عن ترسانة الجزيرة

ذكر الجبترى هذه الترسنة فى ترجمة مراد بك فقال عنها ما خلاصته ان مراد بك لما رجع من الصعيد<sup>(١)</sup> جعل إقامته بقصر الجزيرة وأنشأ ترسانة عظيمة « وطلب صناعات آلات الحرب من المدافع والقناير والبواب ( كذا ) والجلل والمكاحل واتخذ بها أيضاً معامل البارود خلاف للمعامل التى فى البلد ، وأحضر أناساً من القليوبية ( البحارة ) والاروام وصانع المراكب فأنشأوا له عدة مراكب حربية وغلايين وجعلوا بها مدافع وآلات حرب على هيئة مراكب الروم وصرف عليها أموالاً عظيمة ورتب بها عساكر وبحرية وأود عليها الرواتب والأرزاق الكثيرة وجعل عليهم رئيساً يقال له « قولاً »<sup>(٢)</sup> بنى له داراً عظيمة بالجزيرة وأخرى بمصر وله عزبة

(١) بعد عودة حسن باشا الجزائر إلى الاستانة. وموت اسماعيل بك سنة ١٢٩١ كما سبق بين

ذلك فى الفصل الأول من ٢٢

(٢) اسمه نيقولا بابا زوغل

وأتابع من نصارى الاروام المرتين عسكرياً<sup>(١)</sup>.

ويقول بعض المؤرخين إن حسن باشا الجزائرى الذى أرسلته تركيا لمحاربة إبراهيم بك ومراد بك هو الذى بنى هذه الترسانة بعد عودته من محاربة الهاليك بالصعيد وقبل سفره الى الاستانة ، ولكن روايه الجبرى أسدق لأنه شاهد عيان لحوادث مصر فى ذلك العهد ، ومتعلق بالحوادث يؤيده لأن حسن باشا الجزائرى هبط القاهرة فى شهر شوال سنة ١٢٠٠ ، وعاد الى الاستانة فى شهر ذى الحجة سنة ١٢٠١ لتشوب الحرب بين تركيا والروسيا ، فلم يكن لديه الوقت ولا التفكير فى إنشاء دار صناعة بالجيزة أو غيرها ، والظاهر أن مراد بك بعد عودته من الصعيد وتخلصه من حسن باشا الجزائرى بنى هذه الترسانة لتكون عدة له إذا عادت تركيا لمحاربه ، وإلى ذلك يشير الجبرى بقوله :

« واختلفت آراء الناس فى ذلك فمن قائل ان ذلك خوقاً من خشدائشيه (رفاقه) وقائل مخافة من الممائية كما تقدم فى قصبة حسن باشا ، والبعض يظن خلاف ذلك ، وليس غير الزم والتخيل الفاسد ، وبقيت آلات الحرب جميعها والبارود بمواصله حتى أخذ جميعه الفرنسيين ، ويقال انه كان بمواصل الترسانة أحد عشر ألف جلة »  
وقال الجبرى عن « نيقولا » رئيس الترسانة ان الفرنسيين بعد ان اغتلقوه ضمن بحارة صهاك مراد بك أفرجوا عنه فى شهر ذى القعدة سنة ١٢١٣ (أبريل سنة ١٧٩٩) .

#### عدد القلاع التى أنشأها الفرنسيون بالقاهرة

لم يكتب الفرنسيون بالقلاع التى تكلمنا عنها بل أخذوا يزيدها كلما اشتد قلقهم من مقاومة الأهالى أو أوجسوا خيفة من نشوب نار الثورة ، حتى بلغ عدد القلاع التى أنشأوها فى خلال الحملة الفرنسية ١٩ (تسع عشرة) قلعة كما ذكر ذلك للمسيو جومار أحد مهندسي الحملة وذلك بخلاف استحکامات جزيرة الروسة<sup>(٢)</sup>.

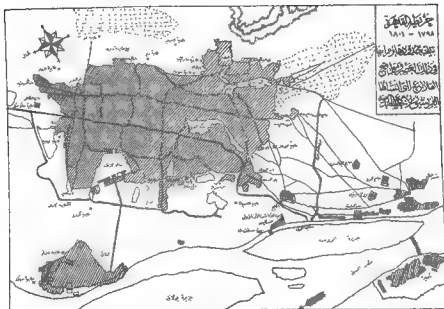
وقد اجتهدنا أن نحصى تلك القلاع بأسمائها ومواقعها ، فرجينا إلى خريطة القاهرة المفصلة التى خطها مهندسو الحملة الفرنسية ، فرأينا القلاع الآتية مرسومة على الخريطة واليك بيانها مسماة بأسمائها الفرنسية التى اختاروها لها عند إنشائها ( انظر مواقعها بالخريطة للوجودة أمام ص ٢٥٦ ) ، وهى أسماء بعض القواد والسباط ومعظمهم ممن تقوا حتفهم فى خلال الحملة .

(١) الجبرى الجزء الثالث

(٢) كتب تخطيط مصر الجزء التاسع عشر

طابية (دبوى) Dupuy أو طابية الترمب  
 طابية (سلكوسكى) Sulkowsky أو قلعة جامع الظاهر بيبرس  
 طابية (مورور) Muireur بحى طولون  
 طابية (كاسان) Camin أو قلعة قنطرة الليموز  
 طابية المجمع العلمى Fort de l'Institut أو طابية قاسم بك بالناصرية  
 طابية (ربو) Reboul بين قلعة الجبل وطابية دبوى  
 طابية (فتو) Venoux شمالى طابية دبوى بشرق  
 طابية (مارتنيه) Martinet وطابية (سورنيه) Sornet وطابية (لامبير) Lambert  
 وهذه الطوابى الثلاث تقع شمالى قلعة الجبل  
 طابية (جرزيو) Grezieux على الكوم القائم بالقرب من باب الحسينية  
 طابية (لوجيه) Laugier أو طابية أبى الريش الكائنة بكوم أبى الريش بالقنطرة  
 طابية (كونرو) Conroux غربى الأبنكية على طريق بولاق  
 طابية (دونزول) Donzérol بيولاق  
 طابية (سبترز) Spizer بيولاق  
 هذه هى القلاع الرسومة فى خريطة مهندسى الحملة الفرنسية ، وهى خمس عشرة قلعة  
 لا تسع عشرة ، ومن الواجب أن نضيف إليها طابية المجرأة (البيع السواقى) ، وقصر المينى ،  
 وقد أسلفنا أن الفرنسيين حصنوها فوجب عذما ضمن القلاع ، يؤيد ذلك ما جاء فى قوم  
 الجمهورية الفرنسية عن السنة الثامنة من الحساب الجمهورى (سنة ١٧٩٩ — ١٨٠٠) وهو  
 التقويم الذى وضعه علماء الحملة الفرنسية ، وفيه أنها معدودان ضمن قلاع القاهرة ، وجاء فى  
 كتاب بقولا الترك الذى عاصر الحملة الفرنسية أنهم أنشأوا قلعتين فوق باب النصر وباب  
 الفتوح ، فمع إضافة هذه القلاع الأربع إلى الخمس عشرة قلعة الرسومة فى خريطة مهندسى  
 الحملة الفرنسية يكون ذلك تمام التسع عشرة قلعة بمحيط إحصاء السيو جومان  
 وهنا المدد من القلاع بذلك على مبلغ المساومة التى لقبها الفرنسيون من المصريين فى  
 عهد الاحتلال الفرنسى







## صلى الثورة

### في الأقاليم

ما تختل القاهرة في خلال المصور مصدر كل حركة ومنع كل تطور في الديار المصرية، ولا غرو فهي بمثابة الرأس الفكر الذي يرسم الخطط ويدير البرامج ويتكبر الأفكار، أو هي بمثابة القلب يوزع دم الحياة في شرايين البلاد، وهي أبداً حافظة لئلا ين سائر البلدان التي تطلها سماء مصر، تلك اللزلة التي جعلت لها الزعامة الفكرية والسياسية في البلاد بلا منازع ولا منازح، وجعلتها دائماً مصدر كل تطور سياسي، فلا تحدث فيها حركة إلا ويتردد صداها في الأقاليم

فالثورة التي شبت في القاهرة خلال شهر أكتوبر سنة ١٧٩٨ كان لها صدى في سائر البلاد، والمقدمات التي سبقت تلك الثورة والحالة الفكرية التي كانت عليها القاهرة من أواخر سبتمبر وأوائل أكتوبر عمت الأقاليم، حتى اعتقد الفرنسيون أن هناك تديراً سابقاً لقيام ثورة عامة في كل أنحاء القطر، والواقع أنك إذا تتبعته الحركات التي قامت هنا وهناك من أقصى البلاد إلى أقصاها أخذت تلك البهشة من تقارب تلك الحركات وتشابهها، على أنه ليس شيء تديراً ولا اتفاق، بل هي القاهرة عاصمة القطر السياسية والفكرية، تنفذ البلاد بأفكارها وعواطفها، وتفيض عليها من أمانها وأمانها، وتشركها في أفراحها وأحزانها، فكانت البلاد خيرة تمعكس عليها صورة القاهرة، أو كأنها الأفق يتردد فيه صدى نداء العاصمة

بهذا التفسير نفهم الحوادث التي وقعت في الوجه البحري في شهر سبتمبر وشهر أكتوبر من تلك السنة، ولا يريد أن تذكر تفاصيل تلك الحوادث في مختلف الديريات، قد أفردنا لها الفصول الخاصة بها

لكننا نكتفي في هذه النوبة بذكر الحوادث التي ارتبطت بثورة القاهرة وكانت جزءاً منها، فإن البلاد الواقعة على مقربة من القاهرة أو على طرقها قد اشتركت فعلاً في الثورة وأمدتها بالرجال والعتاد، وإنك لتقدر مبلغ اشتراكها في الثورة بما وقع عليها من اقتصاص يند إخراجها، فقد اضرت القيادة العامة بعض كتائب من الجيش بالطواف في القرى التي اشتركت في الثورة للبحث عن الأعيان ومشايخ البلاد الذين كان لهم ضلع فيها<sup>(١)</sup> وعهدت إلى ضباط

(١) أصدر الجنرال برييه أمراً إلى الجنرال داماس Damas في ٢٦ أكتوبر سنة ١٧٩٨ بجريرد كتيبة من الفرسان وإخاضها إلى القبة والمطربة والدرج وأصدر أمراً آخر في هذا اليوم ليرتطم يارسال كتيبة أخرى إلى الحاقاه (الخانكة).

هذه الكتاب بمواجهة مشايخ البلاد (العد) وتكليفهم تسليم الرسائل التي وردت عليهم لية الثورة تدعوم إلى الانضمام لصفوف الثائرين بالقاهرة وشد أزرم<sup>(١)</sup>

وقد آتت القوة الفرنسية في طوافها القبض على جماعة من الأعيان ومشايخ البلاد بتهمة الاشتراك في الثورة ؟ وعادت بهم إلى القاهرة فأعدم بعضهم واعتقل البعض الآخر ، وبدخل في هذا الصدد ما رواه الجبرتي عن حوادث شهر رجب سنة ١٢١٣ (نوفبر — ديسمبر سنة ١٧٩٨) قال : « إن كبير الفرنسيين الذي بناحية قليوب حضر وصحبته سليمان الشواربي شيخ الناحية وكبيرها ، فلما حضر حبسوه بالقلعة وقيل إنهم عثروا على مکتوب أرسله وقت الفتنة السابقة ( ثورة القاهرة ) إلى سرياقوس لينهض أهل تلك النواحي في القيام »

وقال نابليون في رسالته إلى الجنرال لكرك في ١٣ ديسمبر سنة ١٧٩٨<sup>(٢)</sup> إنه اعتقل الشواربي لما تبينه من أنه كان يوم ثورة القاهرة يمرض أهالي البلاد المجاورة إلى الانضمام للثوار ، وذكر الجبرتي في حوادث شهر رجب « أنهم قتلوا الشيخ سليمان الشواربي ومعه ثلاثة من عرب الشرقية ، قطعوا رؤوسهم بالميلة ونقلت رفات الشواربي إلى قليوب ودفن هناك مع أسلانه »

وفي أول نوفمبر أصدر نابليون أمره بقيام الجنرال لان Lannes على رأس كتيبة من الجنود إلى القطا<sup>(٣)</sup> واعتقال بعض الزعماء ليكونوا رهائن ، ثم أمره بالتوجه إلى النجيلة وكفر غرين<sup>(٤)</sup> لمأقية أهلها ، وكانت تهمة هذه القرى الثلاث أنها أطلقت الرصاص على السفن الفرنسية الجارية في النيل وهددت للملاحة بين القاهرة والرحمانية ، ويقول القومندان دى لاجونكيير أن الجنرال (لان) اعتقل الرهائن من هذه القرى وأندر الأهالي بأنه إذا وقع أى اعتداء على أى من السفن الفرنسية تحرق القرية بالنار وتقطع رؤوس الرهائن ، وتقول جريدة ( كوربيه دليجيت ) بعدد ٢٠ برومير ( ١٠ نوفمبر سنة ١٧٩٨ ) إن الجنرال لان هاجم القطا في ١٣ برومير ومعه قوة من أربعائة جندي وأحرق القرية فعلا وإن أهلها هاجروا منها قبل إحراقها

وقد أصدر نابليون أمره بتأليف كتيبة من الأروام المقيمين في ذلك العهد بالقاهرة

(١) دى لاجونكيير الجزء الثالث

(٢) مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٣٧٠٧

(٣) من بلاد مركز إمبابة الآن بالبر الغربي فرع رشيد جن أم ديتار ووردان

(٤) بلدتان واقعتان على البر الغربي قليل من بلاد مركز كوم حمادة الآن

ورشيد ودمياط وعهد إليها حراسة السفن الفرنسية أثناء مرورها بالنيل ، وأراد نابليون من هذا الأمر أن يوفر بعض الجنود الفرنسية وأن يستخدم في هذه المهمة الأروام الذين أظهروا ولائهم للجيش الفرنسي ، لكن الأروام لم يتطوعوا لهذه المهمة بالمسد التي كان ينتظره الفرنسيون ، وكانت المهمة في ذاتها خطيرة لكثرة حوادث مهاجمة السفن إذ كانت هذه الحوادث لا تفتأ تتكرر منذ انحدار أسطول السفن الفرنسية بقيادة الكونت اميرال يرى Perrée من بوغاز رشيد إلى القاهرة ، أى في أوائل عهد الاحتلال الفرنسي ، فكانت جموع الأهالي تتسلل سيره وتطلق عليه الرصاص باستمرار من الشاطئين ، وقد شهد مدير مهمات الجيش السيوسى Sucy إحدى هذه الحوادث فإن السفينة التي كانت تقله مع ضباط أركان الحرب جنحت بالقرب من كوم شريك فهجم عليهم الأهليون وقتلوا بعض ركاب السفينة وأصيب سوسى بجرح بالغ في فراءه اليمنى<sup>(١)</sup> وجرح قبطان السفينة والضابط لاكوى Lacue وحدث للكابتن جوليان Julien<sup>(٢)</sup> ياور نابليون ما هو أشد وأدمى ، فقد أوفده نابليون من القاهرة إلى الإسكندرية برسالة منه إلى الجنرال كليبر وأخرى إلى الأميرال برويس Brueys في أبو قير ، فاستقل سفينة ومعه بعض الجنود وجنحت به على الشاطئ الغربي لقرع رشيد ، فما كاد ينزل هو وجنوده إلى الشاطئ حتى هجم عليهم أهالي « عقام »<sup>(٣)</sup> وقتلواهم عن آخرهم ، فلما علم نابليون بنبأ هذه الحادثة أمر بإحراق القرية عقاباً لما على اعتدائها فاحرقها الجنود وخربوها ولم يبقوا منها شيئاً قائماً<sup>(٤)</sup> ثم فكر نابليون في اتخاذ طريقة فعليه لحماية المواصلات النيلية ، فشرع في إنشاء أسطول نيل مسلح آله من السفن الصغيرة الخفيفة التي نجت من كارثة أبو قير ومن المراكب المصرية التي استولى عليها الفرنسيون وسلاحوها بالمدافع وجعل قواعد هذا الأسطول وسفنه في موانئ بولاق ومصر القديمة ورشيد ودمياط والوجه القبلي

(١) لم يزل ياء سوسى يصر يد هذه الإمابة وصرح له نابليون بتأديتها للاستشفاء بأوروبا ، فأناف على ظهر سفينة افتتحت من سفينة الأسطول البريطاني ولكنها اضطرت للانسحاب على شاطئ الجزيرة صغيلة تقتل أهل الجزيرة ركاب السفينة ومنهم سوسى ، وقد عين نابليون به القومير دور Daure مديراً لهلمت الجيش

(٢) هو الذى أشرنا إليه في الفصل الخامس من ١٦٠

(٣) من بلاد مراكز كوم حمادة الآن

(٤) جاء في جريدة (كوريه دليجت) بالمد الصادر في ٢٠ فركتيدور (٦ سبتمبر سنة ١٧٩٨) نبأ هذه الواقعة وقالت الجريدة إن الجنرال لانوس Lannusse هو الذى تولى إحراق عقام وإن عدد الجنود الذين قتلوا مع الكابتن جوليان نحو عشرة جندياً

وفي شهر نوفمبر سنة ١٧٩٨ أصدر أمره بتسيير خوريات من السفن الحربية في فرعي النيل تتولى كل منها حراسة الملاحة في قطاعات محددة ، ففي فرع رشيد ثلاث سفن جعلت الأولى بين رشيد والرحمانية والثانية بين الرحمانية والطراثة<sup>(١)</sup> والثالثة بين الطراثة وبولاق . وفي فرع دمياط ثلاث أخرى ، الأولى من دمياط الى المنصورة ، والثانية من المنصورة الى ميت غمر ، والثالثة من ميت غمر الى بولاق ، وكل دورة مؤلفة من ثلاث أو أربع سفن مسلحة بقيادة ضابط بحري تيطت به حراسة المواصلات في القطاع الذي هو فيه ، وعليه أن يطوف بسفنه وأن يرسل للقيادة البحرية في كل فرصة تهرأ عما يحدث في قطاعه ، وهو مسؤول عن الحوادث التي تقع في ناحيته ، وخصص عدة سفن مسلحة لتجوب النيل في الوجه القبلي وتحمي مواصلات الجنرال ديزيه Desaix وتحرس نقل البنل الى القاهرة وقد لقي الفرنسيون أشد الجهد في استخدام النوتية المصريين في مهاكهم لامتناع الكثير منهم واستمصاصهم أن يخدموا المحتلين في نافة أو ضارة

### تدخل العلماء

#### وبياناتهم للشعب

في خلال المدة التي ساد فيها حكم الإرهاب وأبطل الديوان تدخل كبار العلماء ( أعضاء الديوان ) وتوسطوا لدى نابليون ليبيد الطمأنينة إلى النفوس ، فطلب إليهم نابليون كتابة بيان للأهالي ينكرون فيه الثورة ويذكرون عواقبها من قتل المصريين ونهب بيوتهم وتدميرها وينصحون الأهالي بالإخلاء إلى السكينة فتادياً من الملاك

#### البيان الأول

واليك نص هذا البيان كما ورد في الجيزي :

« نصيحة من كافة علماء الإسلام بمصر المحروسة ، نعوذ بالله من الفتن ، ما ظهر منها وما بطن ، ونبرا إلى الله من الساعين في الأرض بالفساد ، نعرف أهل مصر المحروسة أن طرف المجيدة وأشرار الناس حركوا الشرور بين الرعية وبين الساکر الفرنسيون ، بعد ما كانوا أصحاباً وأحباباً بالسوية ، وترتب على ذلك قتل جملة من السلمين ونهب بعض البيوت ، ولكن حصلت أظاف الله الخفية ، وصكت الفتنة بسبب شفاعتنا عند أمير الجيوش بوناوارة

(١) من بلاد مركز كوم حمادة الآن

وارتفعت هذه البلية ، لأنه رجل كامل العقل عنه رحمة وشفقة على المسلمين ، وعبة إلى الفقراء والمساكين ، ولولاه لكانت المساكر أحرقت جميع المدينة ونهبت جميع الأموال وقتلوا كامل أهل مصر ، فليكن أن لا تحركوا الفتن ولا تطيعوا أمر المفسدين ، ولا تسفحوا كلام الناقضين ، ولا تتبعوا الأشرار ولا تكونوا من الخاسرين سفهاء العقول الذين لا يقرضون المواعظ لأجل أن تحفظوا أوطانكم وتطمئنوا على عيالكم وأديانكم ، فإن الله سبحانه وتعالى يؤثى ملكه من يشاء ويحكم ما يريد ، ونخبركم أن كل من تسبب في تحريك هذه الفتنة قتلوا عن آخرهم وأراح الله منهم العباد والبلاد ، ونصيحتنا لكم أن لا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ، واشتغلوا بأسباب معاشكم وأمور دينكم ، وادفوا الخراج الذى عليكم ، والذين النصيحة والسلام »

كتب هذا البيان بتاريخ ١٤ جمادى الأولى سنة ١٢١٣ ، وهذا يوافق ٢٤ أكتوبر سنة ١٧٩٨ ، لكن الجبرى يقول إن تاريخه أول جمادى الثانية ، وهذا خطأ ، لأن أول جمادى الثانية يوافق ١٠ نوفمبر ، ولا يمكن أن يكون تاريخ المنشور ١٠ نوفمبر لأنه مطبوع في جريدة (كورييه دليجيت) بالعدد الصادر في ١٠ رومير من السنة السابعة (٣١ أكتوبر سنة ١٧٩٨) أى قبل ١٠ نوفمبر بمشرة أيام

ومذكور في السينة الفرنسية للبيان للنشور في جريدة (كورييه دليجيت) أن تاريخه المحجى ١٤ جمادى الأولى سنة ١٢١٣ ، وهذا يوافق ٢٤ أكتوبر سنة ١٧٩٨ ، فتاريخ المنشور هو إذن ١٤ جمادى الأولى لا أول جمادى الثانية كما يقول الجبرى والظاهر أن هذا البيان لم يكن له الأثر المطلوب في تهدئة الخواطر وإقرار النفوس ، لأن فكرة الثورة والمقاومة كانت قد عمّت الأقاليم ، وذاعت الإشاعات وتواترت الأنباء بأن سلطان تركيا قد جاهر الفرنسيين بالعداء وأعد جيشاً لإخراجهم من مصر ، ووردت مكاتبات من أحمد باشا الجزائر والى عكا وأبى بكر باشا الوالى وإبراهيم بك تؤيد هذه الإشاعات وتحرض المصريين على الثورة

فطلب نابليون من علماء القاهرة أن ينشروا بياناً ثانياً يوزع في الأقاليم تهدئة الخواطر وتكذيب تلك الإشاعات (التي كانت في الواقع صحيحة) فأذاع العلماء هذا البيان في اليوم الثامن من شهر جمادى الثانية (الوافق ١٧ نوفمبر سنة ١٧٩٨) وأرسلت منه نسخ كثيرة للبلاد وألصقوا منها بالخطط والأسواق

وظاهر من البيان الثانى أن العلماء يسميون هذه الإشاعات إلى المماليك الذين يذيمونها

لإثارة القلاقل بعد ما طردوا من الديار المصرية ، وقد أطرى العلماء في بيانهم نابليون وصفاته ،  
وصوروه صديقاً لسلطان تركيا عدواً لخصومه ، ثم نصحوا المصريين في بيانهم أن لا يقاوموا  
الجنود الفرنسية فيستهدفوا لأنواع الأذى والانتقام ، ورجعوا إليهم في دفع الخراج وأعلنوا  
للناس أنهم أعتقوا نابليون على أن لا يتنازع أحداً في دينه ولا يمارضهم في شريعة الإسلام  
وأن يرفع الظالم والمناجم عن الناس ويقتصر على أخذ الخراج

## البيان الثاني

وهذا نص البيان الثاني كما ورد في الجريدة :

« نصيحة من علماء الإسلام بعصر المحروسة ، مخبركم يا أهل المذائق والأمصار من  
المؤمنين ، وباسكان الأرياف من الريان والفلاحين ، أن ابراهيم بك ومراد بك وبقية دولة  
الماليك أرسلوا عدة مكاتبات ومخاطبات ، إلى سائر الأقاليم المصرية لأجل تحريك الفتنة بين  
المخلوقات ، وادّعوا أنها من حضرة مولانا السلطان ، ومن بعض وزرائه بالكذب والبهتان ،  
وبسبب ذلك حصل لهم شدة الغم والكرب الزائد واعتاضوا غيظاً شديداً من علماء مصر  
ورعاياها حيث لم يوافقهم على الخروج معهم ويتركوا عيالهم وأوطانهم ، فأرادوا أن يوقعوا  
الفتنة والشقاق بين الرعية والسكر الفرنسية ، لأجل خراب البلاد وهلاك كامل الرعية ،  
وذلك لشدة ما حصل لهم من الكرب الزائد بنهاب دولتهم وخرابهم من مملكة مصر  
الحمية ، ولو كانوا في هذه الأوقات صادقين ، بأنهم من حضرة سلطان السلاطين ، لأرسلها  
جهازاً مع أغوات ( رؤساء جند ) معينين ، ومخبركم أن الطائفة الفرنسية بالخصوص عن  
بقية القواضب الاقربجية دائماً يحبون المسلمين وملتهم ، ويفضون المشركون وطبيعتهم ،  
أحباب مولانا السلطان قاعين بنصرته ، وأصدقاء له ، ملازمون لمودته وعشرته ومعونته ،  
يحبون من وآله ، ويفضون من عباد ، ولذلك بين الفرنسية والسكوف غاية العداوة  
الشديدة من أجل عداوة السكوف القبيحة الرديئة ، والطائفة الفرنسية يماونون حضرة  
السلطان على أخذ بلادهم إن شاء الله تعالى ولا يبقون منهم بقية ، فننصحكم أيها الأقاليم  
المصرية ، انكم لا تحركوا القن ولا الشرور بين البرية ، ولا تمارضوا الممارك الفرنسية  
بشيء من أنواع الأذية ، فيحصل لكم الضرر والمهلك ، ولا تسمعوا كلام المفسدين ، ولا  
تطيعوا أمر السرفين ، الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون ، فتصبحوا على ما فعلتم  
نادمين ، وإنما عليكم دفع الخراج المطلوب منكم لكامل اللترمين ، لتكونوا بأوطانكم



سالمين ، وعلى أموالكم وعيالكم آمنين مطمئنين ، لأن حضرة صارى عسكر الكبير أمير الجيوش يونابارته اتفق معنا على أنه لا ينازع أحداً في دين الإسلام ، ولا يمارضنا فيما شرعه الله من الأحكام ، ويرفع عن الرعية سائر المظالم ، ويقتصر على أخذ الخراج ويزيل ما أحدثه الظلمة من المنارم ، فلا تملقوا آسالككم بإبراهيم ومراه ، وارجعوا إلى مالك الملك وتخالق العباد ، فقد قال نبيه . ورسوله الأكرم الفتنة نامة لمن الله من أيتها بين الأمر ، عليه أفضل الصلاة والسلام »

هذه بيانات كبار العلماء للشعب عقب إخماد ثورة القاهرة ، ولا حاجة بنا إلى بيان ما بها من الأغلاط والمباريات الزكيكة ، والأفكار السخيفة ، فإن مجرد تلاوتها ينفي عن البيان ، وإذا كان المراد منها إسداء النصح للشعب بالترام السكينة لما نزل به من الأحوال في خلال الثورة وبعد إخمادها فإن النصح والإرشاد أساليب أرق من تلك البيانات الملوثة نفاقاً وسخفاً ، ولقد نشرناها بنصوصها لأنها من الوثائق التاريخية لتلك مصر ، ولتعرف منها الفرق بين موقف كبار العلماء في بياناتهم للشعب وموقف أواسط العلماء في قيادتهم للثورة

ومن الواجب تحريراً للحقيقة واقعة أن نقول إن هذه البيانات وغيرها مما نشر خلال الحملة الفرنسية على لسان العلماء قد أملت تحت تأثير الضغط والإرهاب ، وهذا ظاهر مما ذكره الجبرتي عن طريقة تحريرها ، فقد قال عن البيان الأول : « واستهل شهر جمادى الثانية بيوم السبت (سنة ١٢١٣) وفيه كتبوا عدة أوراق على لسان المشايخ وأرسلوها إلى البلاد وألصقوا منها نسخاً بالأسواق والشوارع » ، وظاهر أنه يقصد الفرنسيين بكلمة « كتبوا » كما هو سياق العبارة في الكتاب ، وقال عن البيان الثاني : « وفيه كتبوا عدة أوراق وأرسلوها منها نسخاً للبلاد وألصقوا منها بالأخطاط والأسواق وذلك على لسان المشايخ أيضاً »

وقال عن البيانات التي نشرت باسم الديوان أثناء الحملة على سوريا<sup>(١)</sup> لما وردت الأخبار باحتلال الفرنسيين يافا وجاءت رسالة نابليون بتفاصيل هذا الاحتلال : « اجتمع أعضاء الديوان فقرأ عليهم تلك الرسالة بعد تعريبها وترصيفها على هذه الكيفية وهي عن لسان رؤساء الديوان إلى الكافة وذلك بإتزامهم وأمرهم بذلك » ، وعبارة الجبرتي هنا صريحة في الإتيان والأمر ولا يفوتنا في هذا المقام أن نشير إلى ما ورد في المراجع الفرنسية من أن الشيخ محمد المهدي سكرتير الديوان كان يتولى مسوغ للنشورات التي يريد نابليون إذاعتها على لسان الديوان في قالب عربي مسجع ، ولعل هذا هو السبب في امتناع نابليون للشيخ الهندي

وتفضيله على باقي الأعضاء فقال عنه في مذكراته : « إنه أذكى علماء الأزهر وأفصحهم لساناً وأكثرهم علماً وأسرعهم سناً<sup>(١)</sup> » ، وقد ذكر الجبرتي عن المنشور التي أذاعه نابليون على لسان الديوان عقب عودته من الحملة على سوريا « أنه من ترصيف وتنميق بمض الفصحاء » والإشارة هنا إلى الشيخ المهدي لا عمالة ، لأنه باتفاق المراجع الفرنسية هو الواضع للمنشور نابليون في قلبه العربي ولأن الثابت في رسالة نابليون التي بعث بها من يافا بتاريخ ١٠ مارس سنة ١٧٩٩ إلى المسيو بوسليج مدير الشؤون المالية بالقاهرة أثناء الحملة على سوريا قوله فيها : « عليكم أن تأمروا بطبع كل المنشورات التي يبعث بها فانتور Venture إلى الديوان وأن تضيفوا إليها المحسنات والتنميقات التي يرى الشيخ المهدي إدخالها عليها وأن تنشروها في أنحاء مصر<sup>(٢)</sup> » ، فلم يبق شك في أن الشيخ المهدي هو الذي كان يتولى كتابة المنشورات التي كان يوعز بها الفرنسيون<sup>(٣)</sup>

---

(١) مذكرات نابليون التي أملاها على الجبرال برتران في سانت هيلين

(٢) مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٤٠٢٨

(٣) بسطنا الكلام في ترجمة الشيخ المهدي والأفراد النابليين من أعضاء الديوان ودراسة شخصياتهم

في الفصل الرابع عشر من الجزء الثاني

## الفصل الرابع عشر

### في المنوفية والغربية

عرفت مما كتبناه في الفصل الحادى عشر أن نابليون عين الجنرال زا يونشك Zayonchek قومنداناً للمنوفية والجنرال فوجير Fugières قومنداناً للغربية ليتوليا إخضاع المديرين ، فلننظر كيف أديا مهمتهما

سبق الجنرال زا يونشك زميله إلى مقر وظيفته ، وكانت تعليمات نابليون تھسى بأن يسافر الجنرال فوجير إلى محل عمله من طريق قليوب فتتوف فالحلة الكبرى ، وأن يكون على اتصال مستمر بالجنرال زا يونشك عنون والجنرال فيال بالنصورة والجنرال يربب بالرحمانية ليتعاونوا على توطيد سلطة الجمهورية الفرنسية في هذه المديرات ، وأصدر تعليماته بأن يجرؤوا الأهالى من السلاح ويصادروا خيلهم ويسقلوا أعينهم رهائن ، كل ذلك لإخضاع البلاد وإلقاء الرهبة فيها ، وإذا تأملت رسائل نابليون إلى قواده رأيت فيها معنى الشدة والصرامة يأمر بهما في إخضاع البلاد ، فلا يسر علينا أن نفهم لماذا تأججت نار الكرامة في نفوس الأهالى ، كتب نابليون إلى الجنرال زا يونشك بتاريخ ٤ أغسطس سنة ١٧٩٨ يفتيه بسفر الجنرال فوجير وقره على إعدام خمسة من الأهالى في كل قرية من القرى النائرة ويقول في رسالته : « أسندوا أوامرکم بأن تقدم لکم كل قرية جوادين من خير الجياد ، وأما قرية لم تقبل ومضت خمسة أيام من إعلانها بالأمر ضربت عليها غرامة ألف ريال ، وإن هذه لهى الطريقة الفعالة للحصول على خمسمائة من الجياد تسد من حاجتکم ، وعليکم عند طلب الخيل أن تطلبوا كذلك عنيتها من الركاب واللجاء لتتوافر لکم في الحال فرقة من الخيالة ، فلها الوسيلة الوحيدة لإخضاع هذه البلاد <sup>(١)</sup> »

### المقاومة في غرين وتا

سار الجنرال فوجير من القاهرة مساء ٥ أغسطس سنة ١٧٩٨ وقصد إلى منوف ثم غادرها قاصداً الغربية يوم ١٣ أغسطس ؛ وبعد مسير ساعة اصطدم بقريتي غرين وتا <sup>(٢)</sup>

(١) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٩٧١ (٢) بلدتان متجاورتان شمالى منوف

نار أهل القريتين ، وحلوا السلاح ، وأغلقوا الأبواب في وجه الجنود ، فحاول الجنرال فوجير عبثاً أن يكره البلدين على فتح أبوابهما فلم يستطع ، ولما أعيته الحيل طلب المدد من الجنرال زاينوشك الذي كان مهاجلاً بمنوف فأمدّه بقوة من جنوده ، وتعاونت القوات على إخضاع القريتين بمد ما دافع أهلها دفاعاً شديداً ، واشتد القتال بحماسة في غمرين ، واشتبك الأهالي والجنود في طرقاتها ، فانهمرت فيها السماء وغطيت الأرض بيمث القتلى . قال الكاتب فيروس Ferus<sup>(١)</sup> يصف الدفاع : « جاءنا المدد ، وتعاونت الكتبتان على مهاجمة قرية غمرين ، فأخذناها عنوة بعد قتال ساعتين ، وقتلنا من الأعداء ( الأهالي ) من أربعة إلى خمسة بينهم عدد من النساء كن يهاجن جنودنا بكل بسالة وإقدام ؛ أما خسائر الفرنسيين فكانت قليلاً واحداً واثني عشر جريحاً ، ولم تكن عندنا فؤوس ، فكان ذلك من الأسباب التي أخرتنا عن اقتحام أبواب القرية »

فانظر إلى هذا الوصف ، وتأمل كيف كان النساء يشاركن الرجال في مقاتلة الفرنسيين ودفاعهم ، وهذا لعمري من أبلغ ما ذكر عن استبسال شعب في الدفاع عن كيانه ، وأبلغ منه أن الشهادة به جاءت من عدو ، وسترى في خلال الوقائع التي نأتى عليها في الفصول التالية أن النساء كن في بعض البلاد يشاركن الرجال في مقاومة الفرنسيين

استولى الفرنسيون أولاً على غمرين ثم قصدوا إلى تنافستولوا عليها وأضرموا النار في القريتين عقاباً لها على الثورة

ونفذت ذخيرة الجنرال فوجير في محاربته لبلدتي غمرين وتننا ، فعاد إلى منوف ينتظر المدد وبقي هناك ثمانية أيام ، ولما كان الفيضان قد بدأ ينفق الطرق فقد نزل بجنوده في السفن ووصل إلى المحلة الكبرى من طريق ترعة مليج واستقر بها

#### المحلة الكبرى

كانت المحلة الكبرى عاصمة النوبة ، وهي يومئذ أكبر بلاد الدلتا في اتساعها ومركزها الصناعي ، واشتهرت في ذلك العصر ( كشمربها الآن ) بنسيج الأقمشة الحريرية والقطنية ؛ فكان الحرير الخام يرد إليها من سوريا عن طريق دمياط ثم يفزل خيوطا وتنتج منه الأقمشة

(١) من رسالة له إلى الجنرال كافارنالي في ١٣ أغسطس سنة ١٧٩٨ ، وقد ذكر نابليون في رسالته إلى ديركتوار جنارخ ١٧ أكتوبر سنة ١٧٩٨ واقعة ( غمرين ) بإيجاز ونشرت رسالته في مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٢٤٨٨

الحريرية. المختلفة ألوانها ، كتب المنيو جالوا Jallouis أحد مهندمي الحملة الفرنسية رسالة عن رحلته في الدلتا وصف فيها الحملة الكبرى وذكر صناعة الحرير بها فقال : « إن معظم الحرير الذي يلبسه النساء في مصر ينسج في مصانع الحملة الكبرى ، ويصنع فيها أيضا المتاعيل التي يغطي بها النساء رؤوسهن والقمصان والبشاكير<sup>(١)</sup> » ، وقال المنيو جيرار Girard وكيل إدارة الري في عهد الحملة الفرنسية إن منسوجات الحملة الكبرى يتخذ منها ستائر الشبايك وأغطية المقاعد والأرائك والوسائد وأغطية الموائد الموشاة بأسلاك الذهب والفضة ، والأحزمة الحريرية ، والملابس المسماة (باللس) وكانت هذه المنسوجات تصدر عن الحملة إلى سائر أنحاء القطر المصري وبلاد السلطنة العثمانية ، قال : وكانت تنسج فيها الأقمشة القطنية ، وكان عمال نسيج القطن قبل الحملة الفرنسية يبلغ عددهم فيها ألفي عامل فنزل عددهم مدة الحملة إلى خمسمائة<sup>(٢)</sup> ، وهذا يدل على تدهور البلاد من الوجهة الاقتصادية في عهد الحملة الفرنسية

وقد رابط الجنرال فوجير في الحملة الكبرى ثم انتقل منها في خلال الحملة إلى سمندو التي اتخذها الفرنسيون عاصمة لمديرية الثرية وفضلوها على الحملة الكبرى لوقوعها على النيل وسهولة اتخاذها مركزاً للمواصلات النيلية والحركات العسكرية

### الثورة في طنطا

كانت طنطا كما هي الآن أكبر بلاد الدلتا من الوجهة التجارية ، بلغ عدد سكانها في ذلك العصر عشرة آلاف نسمة كما قدرهم المنيو جالوا<sup>(٣)</sup> ، وترجع سكانها إلى مركزها التجاري وإلى ضريح السيد أحمد البدوي ومواسمه المروفة ، فكان يزورها سنوياً في أيام المولد الأحمدى نحو مائة ألف زائر من مختلف المدن والأقطار ظهرت أعراض الهياج والثورة في طنطا أوائل أكتوبر سنة ١٧٩٨ ، وأجمع أهلها على الامتناع عن دفع أي ضريبة أو غرامة تقرض عليهم فأبلغ الجنرال فوجير إلى نابليون حالة المدينة في رسالة له بتاريخ ٦ أكتوبر وقال إن امتناعهم راجع إلى نياتهم العدائية وكراهيتهم للحكومة وإنهم يؤوون بعض المماليك فيستترون بينهم ويحرضونهم على التمرد والثورة وكان الفرنسيون ينظرون إلى طنطا كدنية مقدسة عند المسلمين تلي مكة والمدينة في

(١) كتاب تخطيط مصر الجزء الخامس عشر

(٢) تخطيط مصر الجزء السابع عشر

(٣) تخطيط مصر الجزء الخامس عشر

الأهمية ويستثمرون احترامها محافظة على إحساس الأهالي ، فتحاشوا أول أمرهم أن يرسلوا إليها قوة من الجنود كيلا يسطلموا بالأهالي أو يعتدوا على الشعائر الدينية فتثور نائرتهم ، ولكن الجنرال فوجيير رأى روح الهياج والتمرقوى وتشتت ، فأرسل إليها كتيبة من الجنود بقيادة الكولونيل لوفيفر وعهد إليها اعتقال زعماء المدينة وأخذهم رهائن ، وكلفها كذلك أن تخضع الأهالي فيما جاورها وفي البلاد الواقعة على طريق الجنود وأخذ الرهائن منها ، وكان دعاة الثورة في القرى يحرضون الأهالي على عصيان الفرنسيين

وصل الكولونيل لوفيفر تجاه طنطا يوم ٧ أكتوبر سنة ١٧٩٨ ورابط بمجنوده وكلفها سلم الشورىجي أن ينفذ إليه أربعة من كبراء المدينة يكونون رهائن ، فجاء بأربعة من أئمة مسجد السيد أحمد البدوي ورفض أكابر المشايخ أن يحضروا معه ليعطوا القائد الفرنسي موثقا بالمحافظة على السكينة في طنطا ، وكان الولد قائما في ذلك اليوم ، وقد تجمع فيه خلق كثير من أرجاء البلاد ، فلم يكد « لوفيفر » ينزل الرهائن الأربعة إلى المراكب ليبيت بهم إلى القاهرة ، حتى هزعت الجماهير مسلحين بالبنادق والحرايب يصيحون صيحات التعصب والسخط ، راضين الرايات والبيارق ، فلما رآها أهالي البلاد المجاورة أقبلوا من كل حذب وانضموا إلى الثائرين وفيهم ١٥٠ من فرسان العرب فاندفعت هذه الجوع على كتيبة الجنرال لوفيفر ، وكادت تأخذ المراكب التي معها قبايلها الكتيبة بنار شديدة من البنادق الحديثة فانهمزت الجوع إلى المدينة ، وعادت غير مرة تهاجما ثم ترد إلى داخل البلاد ، ورأى الكولونيل لوفيفر أن لا سبيل إلى تعقب الثائرين في مدينة كبيرة كطنطا لقلة عدد جنوده وانقضاه إلى اللدسية ، فلزم خطة الدفاع واقتصر على منع الثائرين أن يحيطوا بمجنوده ، وعلى الدفاع عن مرابكه ، وتمكن من إزلال منظم قوته بالسفن ومعهم الرهائن ، ثم أقلعت سفنه وترك قوة من رجاله على شاطئ الترعة لمنع الثوار أن يلحقوا به ، فظلوا يدافعونهم حتى جن الليل فانسحبت الثوار بعد معركة دامت أربع ساعات ، وقد قدر الجنرال فوجيير عدد الثوار بمئة آلاف وقدر خسائرهم بثلاثة مئة قتيل وجريح ، وطلب من نابليون معاقبة أهالي طنطا لأن معظم الثوار كانوا منهم وألح في طلب اللد من الرجال والمدافع لإخضاعهم

ولكن نابليون جثع إلى الحكمة وآثر أن يأخذ الثائرين بالحسنى لأنه كان يخشى عاقبة انفجار الهياج في مدينة لما حرمتها عند الأهاليين فلم يوافق الجنرال فوجيير على طلبه وأرسل إليه بتاريخ ١٦ أكتوبر سنة ١٧٩٨ يقول :

« قد علمت بزيادة الأسف ما حدث في طنطا ، على أنني زاعب في احترام هذه المدينة ،

وأعتبر تخريب هذا المكان المقدس في نظر الشرق كارثة كبرى ، على أنى سأ كتب إلى أهالى طنطا ، وسأطلب من الديوان العام أن يكتب إليهم ، وإلى راقب في أن تنتهي الحادثة بالمفاوضة على صلح ووطم .

وكان الجنرال فوجيير قد نيه نابليون إلى أن الثوار قد استعانوا بالعرب ، فكلفه نابليون أن يأخذ الرهائن منهم لإخضاعهم ، وإن لم يذعنوا فليقتل بهم

وقد عزم نابليون على تجريد الحملة عليهم بقيادة الجنرال لانوس Lanausse الذى عين قومنداناً لديرية المنوفية ، خلفاً للجنرال زاوونشك<sup>(١)</sup> فتابه قيادة الحملة وفيها جنوده وجنود الجنرال فوجيير ، وأمره أن يسير إلى العرب في سنباط ، حيث يراطلون بها ويحاربهم ، ويتزعم منهم الرهائن والأسلحة

### احتلال عشا

كان الجنرال لانوس يهاجم حينئذ قرية عشا<sup>(٢)</sup> لإخضاع زعيمها المشهور في ذلك العهد بسطوته وشدة بأسه ، واسمه « أبو شعير » وقد آهمه الفرنسيون بعدائه لهم ، وعماله على الجنود ، فجرد الجنرال لانوس حملة عليه ، وسار ليلة ٢٠ أكتوبر سنة ١٧٩٨ قاصداً قرية عشا في كتيبة من الجنود ، فوصلها الساعة الثانية بعد منتصف الليل ، وقابلاً مخفرين من المخافر التى وضعا أبو شعير حول القرية لحراستها ، فضطامها حتى وصل إلى مدخل البلد ، وهناك التقي بمخفر ثالث أطلق رجاله الرصاص على الفرنسيين ، لكن الجنرال لانوس تمكن من تطويق القرية بالجنود ، ومحاصرة منزل أبى شعير الذى وصفه لانوس بأنه قصر محصن تحصيناً تاماً بالنسبة لحالة البلاد ، وقد علم أبو شعير بوصول الفرنسيين ، فركب في رهط من رجاله استعداداً للقتال ، وسعى لانوس في أخذه بالحنى ، ولكنه أجاب بإطلاق الرصاص على الفرنسيين ، فأمر الجنرال لانوس رجاله باقتحام أسوار القصر ، وأدرك ( أبو شعير ) أنه واقع لاهالة في أسر الفرنسيين ، فأمر جنوده أن يطلقوا النار على الجنود ليشتغلهم عن نفسه ويلوذ بالفرار ، وقد تمكن من تسلق الأسوار ، ثم ألقى بنفسه في التربة وقطعها سباحة ، ولكنه لم يكده يصل إلى عدوئها الأخرى حتى أصابته رصاصة جندلته ، والظاهر أن الفرنسيين عدوا قتل أبى شعير انتصاراً كبيراً ، فقد أبتهج له الجنرال لانوس ، وأرسل إلى نابليون

(١) هل زاوونشك قومنداناً لبي سوف

(٢) من بلاد مركز شين الكوم

بتاريخ ٢٣ أكتوبر ينبئه بمصرعه ، ويذكر عنه أنه لحق الجيش الفرنسى منه أذى كبير ، وأنهم وجدوا غزله بمض شاربات للضباط الفرنسيين ، ولعل هذا هو سبب اتهام الفرنسيين بإذنه بالسطو ، وهي تهمة يفسونها لمظلم من حاربهم أو قاتلهم ، وقد ذكر لانوس عن أبى شمير أنه كان واسع الثروة ، وأن له مزارع واسعة ، وأنه يملك عشرين قرية ، وأنه كان فى سطوة ، وإذا مشى سار معه ألف ومائتا رجل فى سلاحهم ، واعترف لانوس فى رسالته لنابليون أنه لولا مفاجأته لأبى شمير فى قرية لما استطاع أن يظهر عليه ، ولو هو علم بتقدم الفرنسيين وأعدّ للاقتحام لأصابهم منه جهد وشدة وأذى ، وقد استولى لانوس على ما وجدته فى القصر من الأسلحة ، ومنها ثلاثة مدافع وعدد كبير من البنادق<sup>(١)</sup> ، وأحصى ممتلكاته فى عشا والقرى الأخرى ، ولكنه لقي مقاومة شديدة من الأهالى فى سلامون وسرسنا ، وكادوا يقتلون مترجم الجنرال والمباشر الذى كان يرافقه ، وألقى لانوس القبض على اثنين من إخوة أبى شمير وبعض حاشيته ، وأرسلهم إلى نابليون ليقررم عن المكان الذى خبأ فيه أبو شمير أمواله إذ لم يثر عليها ، وأشار على نابليون فى رسالته بأن يقتلهم بعد ذلك لما ارتكبوهم من الاعتداء ، وطلب منه أن يمدد بقوة من الفرسان ، وقد أشار الجيرنى إلى واقعة احتلال عشا بقوله :

« وفى ١٨ جمادى الأولى سنة ١٢١٣<sup>(٢)</sup> ضربوا كفر عشا وقتلوا كبيرها المسمى بآبى شمير ، ونهبوا داره ومناحه وبهاؤه ، وكان شيتاً كثيراً جداً ، وأحضروا إخوته وأولاده وقتلهم ولم يتركوا منهم سوى ولد صغير جملوه شيخاً عوضاً عن أبيهم<sup>(٣)</sup> » ويلاحظ على رواية الجيرنى أنه جعل تاريخ الواقعة ١٨ جمادى الأولى أى ٢٨ أكتوبر ، والواقع أن مهاجمة كفر عشا كانت ليلة ٢٠ أكتوبر كما يؤخذ من رسالة الجنرال لانوس إلى نابليون

وكانت الملاحه فى الترع بدأت تتمطل لنقص مياه النيل ، على حين أن مياه المواصلات فى البر متعذرة ، فتأخرت الحملة التى كلف بها الجنرال لانوس إلى أوائل نوفمبر حتى جاءه للد مد من القاهرة بقيادة الجنرال فو Veaux

سار الجنرال « فو » ومعه كتيبة من الجنود من القاهرة يوم ٧ نوفمبر فوصل إلى منف من طريق قلوب وترعة الفرعونية ، وكان فى أعمال حملة لانوس إخضاع مدينة طنطا ، وقد كرر نابليون لهذه المناسبة وصايا احترام مساجد هذه المدينة ، فأرسل الجنرال برتييه رئيس

(١) رسالة لانوس إلى نابليون فى ٢٥ أكتوبر سنة ١٧٩٨

(٢) يوافق ٢٨ أكتوبر سنة ١٧٩٨

(٣) الجيرنى الجزء الثالث



أركان حربه إلى الجنرال لانوس بتاريخ ٦ نوفمبر لمناسبة سفر الجنرال « فو » يقول : « يجب السير بقوات كبيرة إلى طنطا ولما كان لهذه المدينة حرمة كبيرة عند المسلمين فن الواجب أن لا تمس المساجد والمقامات التي بها »

ولما وصل المدد إلى الجنرال لانوس سار بجنوده وأوقع بكثير من القرى المخاذية بمحجة مهاجمتها للسفن الفرنسية على فرع رشيد ، وبلغ طنطا دون أن يلقى مقاومة وأمكنه أن يحصل بعض الضرائب وشتت قوات العرب التي كانت تشد أزر الثوار ، لكنه لم يستطع أن يقهرها أو يتغلب عليها ، ثم عاد إلى منوف

## الفصل الخامس عشر

### في الدقهلية<sup>(١)</sup> ودمياط

على أثر تعيين الجنرال فيال Vail قومنداناً لمديرية المنصورة ودمياط في أوائل أغسطس سنة ١٧٩٨<sup>(٢)</sup> مضى بفرقة إلى المديريتين لإخضاعهما ، قصد أولاً إلى المنصورة ومكث بها قليلاً وترك بها حامية تحتلها ، ثم تابع سيره إلى دمياط ليجعلها مقراً لفرقة ، فاحتلها واحتل عزبة البرج

#### واقعة المنصورة

اشتر أهالي المنصورة والبلاد المجاورة بمنود الحامية واقفوا على الفتك بهم ، فبينما كان الجنود في معسكرهم يوم ١٠ أغسطس سنة ١٧٩٨ دخلت المدينة جوع كثيرة من أهالي البلاد المجاورة ، وكان اليوم يوم السوق العامة ، فاختلطوا بأهل المدينة ، وواقفهم على الفتك بمنود الحامية ، فهاجروا الحند ، ونادت المدينة كلها بالثورة رجالاً ونساء ، وكان النساء يحرقن أزواجهن على أن يثوروا بالفرنسيين<sup>(٣)</sup> ، ولما شعر الجنود بالخطر امتنعوا في معسكرهم فحاصره الثائرون وشرعوا في دكه وأشعلوا فيه النار فاضطر الجنود إلى إخلائه هارين وانحدروا إلى السفن قاصدين الفرار ، ولكن الجموع تكاثرت عليهم وأبى رجال السفن أن يحملوهم ، فالتجأوا إلى البر وقصدوا إلى دمياط ولكن الثوار أخذوا عليهم الطريق ثم قتلهم عن آخرهم<sup>(٤)</sup>

(١) كانت مديرية الدقهلية تعرف بمديرية المنصورة ، ولم يكن اسم الدقهلية شائعاً في ذلك العصر ، ومع ذلك فهو الاسم الذي عرفت به قديماً ، فقد سميت باسم الدقهلية في خطط القرنزي (الجزء الأول) ، وذكرها بهذا الاسم القاضي يحيى بن الجيعان في كتابه (الشفعة السنية بأسماء الديار المصرية) الذي يتضمن تخطيط مصر في القرن الخامس عشر الميلادي ، وذكرها كذلك الرحالة فانسليب Vansleb الذي جاء مصر سنة ١٦٧٢ باسم كاشفية (مديرية) الدقهلية ، فيؤخذ من ذلك أن تسميتها باسم (مديرية المنصورة) لم يكن مألوفاً إلا في القرن الثامن عشر ، ولم يذكرها الجبرتي باسم الدقهلية إلا مرة واحدة ، وقد جرينا في سياق الكلام على ما كان معروفاً في ذلك العصر وهو (مديرية المنصورة)

(٢) انظر ص ٢١٢

(٣) التاريخ الملي والمربى للحملة الفرنسية . ريو . الجزء الثالث .

(٤) جاء في يوميات الجنرال « لوجيه » Laugier أنه عثر على جندي جريح من جنود حامية المنصورة كان مختفياً في إحدى القرى قصص عليه الحادثة وكتب لوجيه بها تهريراً وهو لا يخرج في مجموعه عما ذكرناه ويقول للمسيو « شابرول » Chabrol أحد مهنسي الحملة الفرنسية في بحثه المنشور بكتاب تخطيط مصر الجزء =

وكان من الناجين امرأة أحد الضباط وابنتها فأبقى عليها الثوار ولم يمسوها بمسوء ، ويقول ريبو<sup>(١)</sup> إن الفتاة قد اشتراها شيخ العرب (أبو قوره) وتزوج بها فلبثت عنده حتى مات عنها سنة ١٨٠٨ في عهد محمد علي باشا وبقيت حافظة عهد عهده قائمة على تربية أولادها منه بعد وفاته ، وقد أيد كلوت بك هذه الرواية في كتابه<sup>(٢)</sup> مع اختلاف في بعض وقائعها ، وهو يقول إن هذه الواقعة حصلت عندما شرع الفرنسيون في الجلاء عن مصر ، على أنه لم تحصل وقائع في المنصورة عند جلاء الفرنسيين ، وكلوت بك يرجع إليه فيما حقه وشاهده بنفسه ؛ ويقول إنه سمع نبأ هذه الواقعة حينما كان كبير أطباء الجيش المصري في عهد محمد علي باشا فزار دار أبي قورة بميت العامل<sup>(٣)</sup> سنة ١٨٣٤ ؛ أي بعد أكثر من خمس وثلاثين سنة من الواقعة ونزل بها « وكان قصراً فسيحاً قائماً بالقرب من مساكن العرب » ، وقابل زوجة أبي قورة الفرنسية وابنها ؛ قال يصف هذه المقابلة : « وقد أحسن ابنها تقائى وأكرم مثواى ، ولما عرف أننى فرنسى الجنس ذكر لى والدته وقال إنها فرنسية ، فكاشفته رغبتى فى لقاءها ، وكانت ذريعتى إلى ذلك مهنة الطب التى أقوم بها ، فلما بلغت خدرها تلقيتى بحمية باللغة الفرنسية ، وتبينت أنها إيطالية الجنس ، وعلت منها فعلا أنها ولدت بمدينة البندقية ، وأن والدها كان تاجر قبعات اسمه بارتولى ، وأن والدها كانت تسمى مارجريت ، وأن اسمها هى جوليا ، وأن العريان سببها وهى خارجة من المنصورة إذ أركبها جواداً وانطلقوا يطوفون بها الغدافد والسباب حتى بلغوا بها فى السماء داراً كبيرة التفت فيها رجل يظليه من الرأس إلى القدمين حرام أبيض ، وأن هذا الرجل بذل لها من مظاهر العطف واللبلل ما لا يوصف ، وأنه جردها من ثيابها الأوروبية ليلبسها بدلاً منها ثوباً شرقياً فضفاضاً ، ثم سلها من الخيط والجواهر ما قيمته ستمائة كيس ؛ أى ما يعادل مائة ألف فرنك تقريباً ، وجعل فى خدمتها عدداً كبيراً من المبيد والجوارى ، وذلك الرجل هو الزعيم (أبو قوره) الذى كان مشهوراً بالشوكة والجاء الطويل ، ولكن هذا الالتفات وهذا العطف كان يضجرانها ، فكانت لا تكف

---

== الثانى عشر إن عدد جنود حامية للمنصورة كان ١٢٠ مقاتلاً وإن العرب أسروا اثنين منهم وقرئناك وهؤلاء الثلاثة هم الذين نجوا من القتل ، ويقول الكابتن ساباتييه Sabatier أحد ضباط فرقة الجنرال فيال التى زحفت على المنصورة ثم تابست سيرها إلى صباط إن عدد جنود الحامية الذين تركهم الجنرال فيال بالمنصورة ١٦٠ مقاتلاً

(١) التاريخ العلمى والحربى للحلة الفرنسية الجزء الثالث

(٢) كلوت بك . لحة عامة إلى مصر الجزء الثانى

(٣) من بلاد مركز أجا الآن

عن البكاء وتغرب بالقول والإشارة والصلح عن رغبتها في العودة إلى ذويها ؛ ومع هذا فلم ينقض أحد عشر شهراً حتى رزقت غلاماً ، فهذا شعور الأمومة نحو وليدها . نأثرة التذمر والاستياء ولطف من أسرها في هذا المكان . فلم يسمها إلا احتمالاً والرضا به ؛ ولما مات زوجها ، وكانت توليه الحب الصادق وتميش معه في بحبوحة الهناء والنعم ، أكرهت على الزواج بأخيه فلم تجد منه ما كانت تلاقه في أخيه المرحوم من حسن الرعاية وجميل المطف<sup>(١)</sup>

وذكر كلوت بك ما كان عليه ( أبو قورة ) من الجفاء والتراء فقال إنه كان يقاوم سلطة المالك مدة حكمهم وكانت له السيادة في إقليم المنصورة وقتئذ وكان يملك أربماً وأربعين قرة وبضعة آلاف من الجبال وقطعاً لا أعداد لها من الأغنام وأكثر من خمسمائة عبد وجارية من الأرقاء

والآن نمود إلى الكلام عن واقعة المنصورة ونتائجها

أشعلت هذه الواقعة نيران الثورة والهياج في البلاد المجاورة ، وكادت الثورة تستفحل وتنتشر مديها ، لولا وصول الجنرال دوجا Dugua الذي عينه نابليون قوامندانا لديرية المنصورة<sup>(٢)</sup>

رحل دوجا وبتنوده جنوبي المنصورة يوم ١٧ و ١٨ أغسطس سنة ١٧٩٨ ، فعمل عند وصوله بما حل يجنود الحامية ، وكان أهل المدينة يتوقفون انتقاماً شديداً ، فكتب الأعيان رسالة إلى ديوان القاهرة يرثون من الاعتداء على الجنود ، وينسبون ذلك إلى الفلاحين والعرب الذين اقتحموا المدينة يوم الواقعة ، وذهب قاضي المنصورة خصيصاً إلى القاهرة ليدافع عن مسلك سكان المدينة ، وقد علم نابليون نبأ الحادثة وجاءته رسالة أعيان المنصورة التي كتبوها إلى الديوان ، فبعث إلى الجنرال دوجا يطلب منه عقاب أهالي المنصورة عقاباً شديداً ، ويأمره أن يقتل تسعة أو عشرة من أعيانها<sup>(٣)</sup>

وكان الجنرال دوجا معروفاً بين قواد نابليون بالحكمة والأناة وحسن السياسة ، فاستعمل الحكمة في توقيع العقاب وإقامة النظام في المدينة ، وأراد أن يتحقق بين المتدين حتى لا يأخذ برئاً بمذنب ، وقد تبين له من الفحص عن أمرهم أن معظم المتدين من البلاد المجاورة ، وأن

(١) كلوت بك . لحة عامة إلى مصر . الجزء الثاني

(٢) رانج ص ٢١٦ وهاصفا

(٣) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٣٠٧٢

زعماء المحرضين على قتل الحامية قد غادروا المنصورة ومنهم رجلان كانت لهما شهرة في تلك الجهات بالسلطة والجاه وشدة البأس ، وهما الأمير مصطفى ، وعلى المدينى ، فاكفى الجترال دوجا بالحكم على اثنين من أهالى المنصورة بالإعدام ، ثبوت اشتراكهما في القتل ، وأخذ الحكم فيما وطافوا برأسهما في شوارع المدينة عبرة وإلهابا ، وأخذ الجترال دوجا يتأهب لتعقب المتدين في بلاد البحر الصغير والقبض على الأمير مصطفى ، وعلى المدينى ، وتجهيز حملة عسكرية لمعاينة القرى التى اشتركت في الاعتداء على الجنود

وكان الذعر قد استولى على المنصورة وهاجر كثير من أهلها فراراً بأنفسهم من اتهامهم في واقعة قتل الحامية ، وتمطلت التجارة ، وركبت أسواق المدينة ، فطلب الجترال دوجا من نابليون أن يأذن له إذا لم يظفر بالمتدين في إعلان العفو ، ليمود الأهالى إلى أعمالهم ، بشرط أن لا يتناول العفو أهل القرى المجاورة الذين اشتركوا في الواقعة ؛ وكان غرض الجترال دوجا أن يؤخر معاينة سكان هذه القرى إلى أن تسفل القوة الكافية ، ويتحسر الفيضان الذى كان يتلف الطرق ، ويمطل المواصلات .

أقر نابليون الجترال دوجا على خطته وأرسل له في ٣١ أغسطس سنة ١٧٩٨ يأذنه أن يمنع المدينة العفو ، وطلب اليه أن يستخدم ما يراه لإقرار الطائفة وإعادة الأعمال سيرتها الأولى ، وكلفه في الوقت نفسه أن يكتب إلى أعيان البلاد المجاورة التى اشترك أهلها في قتل الحامية الفرنسية يطلب أن يسلموا المتدين منهم ولا يستهدقوا إحراق قراهم بالنار .

وطلب اليه إخضاع بلاد مديرية المنصورة وأخذ رهاثن من كل قرية اشترك أهلها في الاعتداء على الجنود ثم إحراق القرى التى يرى أنها كانت أبلغ في الاعتداء ؛ وأمر نابليون بفرض غرامة ثلاثة آلاف ريال على أعيان المنصورة عقاباً لهم على سوء صنيعهم ، وفرض ألفي ريال خاصة على السيد على الشناوى أخذ أعيان المدينة ، ثم ألفي ريال على القرى التى اعتسنت على الجنود<sup>(١)</sup>

وقد لقي الفرنسيون عناء كبيراً في إخضاع مديرية المنصورة ، فقد اشتدت فيها المقاومة وامتنع كثير من البلاد عن دفع الضرائب ، ويقول ريو<sup>(٢)</sup> إن محصل الأموال الأميرية كانوا إذا ذهبوا إلى القرى لجباية الضرائب أو مصادرة أملاك الهالكين يقابلون بالرصاصة رمياً ، أو بالصصى ضرباً ، وفي بعض الأحيان كانوا يصحبون بعض الخفراء لحراسهم

(١) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٣٢٠١

(٢) التاريخ الطبى والحربى للحملة الفرنسية الجزء الرابع

فلا يصممهم ذلك أن يلقوا مثل هذه المقابلة ، وعطل التيفضان حركات قتل الجنود في البر ، فساعد هذا العامل على فيضان روح الثورة في القرى ، واضطر الجنرال دوجا إلى تأخير ما عهد إليه من إخضاع ذلك الإقليم ومعاينة القرى التي ثارت في وجه الجيش أو التي اشتركت في قتل الحامية الفرنسية بالنصورة

### الحملة على سنياط وميت غمر

كانت مهمة الجنرال دوجا أن يكشف الجهات التي عزم على تجريد الحملة عليها قبل أن ينصر فيها ، وكانت بلدة (سنياط)<sup>(١)</sup> من القرى التي شاركت بلاد الدقهلية في الثورة فأتخذها الجنرال دوجا أول هدف له ، وهي وإن كانت في مديرية الغربية إلا أنه رأى أن يبدأ بمهاجمتها لسهولة الوصول إليها بطريق النيل ، وكانت أوامر نابليون تقضى بإحراق هذه البلدة ، وكان الجنرال مورا Murat قومندان القليوبية مكلفاً معاونة الجنرال دوجا في إخضاع إقليم النصورة ، فانتقل من بها إلى ميت غمر في أواخر أغسطس سنة ١٧٩٨ لمعاينة العرب النازلين في تلك الجهة وبخاصة في دنديط<sup>(٢)</sup> ممن توجهت عليهم تهمة الاشتراك في واقعة النصورة ، وكان منوطاً به كذلك تجريد الأهالي من السلاح ، على أنه لم يستطع إنفاذ هذه المهمة وكتب إلى نابليون في ٤ سبتمبر يسأله المدول عن هذه المهمة الشاقة ويقول في خطابه : « إني أعتقد أن سياسة تجريد الأهالي من السلاح طريقة ضارة وغير حكيمة إذ أرى أن العرب الزراعين مسلحون وتسلحهم مفيد لأنهم يحمون البلاد من سطوات البدو الرحل ويحفظون الأمن في هذه الجهات ، وصعب من الآن إلى وقت لا يزال بعيداً أن نسلهم السلاح دون أن نوقع الحرج في صدورهم وندفعهم إلى الثورة كما حدث في مديريات أخرى ، لذلك أعتقد أنكم ترون ما أراه في الانتظار بهم حتى يستقر نظام الحكم الجديد ، وما هو الآن خطأ يكون يومئذ سواباً »<sup>(٣)</sup> هاجم الجنرال مورا في شهر سبتمبر قوة من العرب في دنديط بالقرب من ميت غمر فهزمهم وشقت جمهم بعد أن قتل بعضهم وجرح رئيسهم واستولى منهم على ٢٠٠٠ رأس من القم

أما في سنياط فقد أنفذ الجنرال دوجا الجنرال فردييه Verdier لمعاينة العرب النازلين بها ، فنادر فردييه النصورة يوم ١٢ سبتمبر بطريق النيل في ٥٥٠ جندياً ، فالتقى على مقربة من

(١) بمركز زفتي الآن

(٢) من بلاد مركز ميت غمر

سنباط بقوة من العرب فهزمهم واستولى على خيامهم وماشيهم ومتاعهم<sup>(١)</sup> ، غير أن العرب تمكنوا من الإفلات فلم يبقوا في أيدي الفرنسيين ولاذوا بالنتال القائمة حول سنباط وأرادوا أن يقاوموا القوة الفرنسية لكنهم نكسوا أمامها وألقوا بأنفسهم في النيل وذهبوا يسبحون ونجا منهم من نجا ؛ وعادت القوة الفرنسية إلى المنصورة

ثم تجددت الاضطرابات في منطقة ميت غمر ودنديط وميت القراموي في شهر أكتوبر سنة ١٧٩٨ ، وباتت المواصلات النيلية في فرع دمياط مهددة ، فهدد نابليون إلى الجنرال مورا والجنرال لانوس بالتعاون على إخماد حركة الثورة في تلك المنطقة

التي القائمان بالنيل عند نهايتها<sup>(٢)</sup> وسارت قواتهما من الجنود بالراكب قاصدين إلى ميت غمر ، فأرسلوا على شاطئ النيل بالقرب منها ، وساروا قاصدين مهاجمة الثوار الذين احتشدوا في (دنديط) ، وكان الجنرال مورا يتولى قيادة الليمنة والجنرال لانوس يقود الميسرة ، فسار الجنود الفرنسية بنظامهم الحربي لمهاجمة الثوار في معقلهم ، وكان السير متعذراً لأن الثوار قطعوا جسور الترع فغمرت المياه الأراضي ، ووجل الجنود في الطرق والمستنقعات ، ولما بلغت مجموعهم دنديط انسحب منها الثوار إلى (ميت القراموي) وهناك امتنعوا بها وكان معهم مدفعات فقاوموا هجوم الفرنسيين مقاومة شديدة ثم اضطروا إلى الارتداد عن القرية فاستولى عليها الفرنسيون وعلى المذبحين الذين كانوا بها ، واعتصم الثوار بالنتال القريبة منها ، فتعقبهم الفرنسيون وأجلوهم عنها ، ثم استمر الثوار في انسحابهم حتى بلغوا (المواير) وعجز الفرنسيون عن متابعتهم لما لحقهم من الإعياء ولما غمر الأرض من مياه الفيضان ، فرجعوا أدراجهم إلى ميت غمر \*

### فيضان الثورة

كان طائف الثورة يطوف في مختلف البلاد بحيث كانت كلما أتمعت في جهة انبعثت في جهة أخرى ، قال ريبو في هذا الصدد : « كان الجنود يعملون على إخماد الثورة بإطلاق الرصاص على الفلاحين وفرض الضرائب على البلاد ، لكن الثورة كانت كحبة ذات مائة رأس كلما أضعفها السيف والثار في ناحية ظهرت من ناحية أخرى أقوى وأشد مما كانت ، فكانها كانت تعظم وتوسع مدادها كلما ارتحلت من بلد إلى آخر »

(١) كتبت جريدة (كورييه ديلييت) بالعدد الثامن أن معركة سنباط انتهت بإحراق القرية وخسر العرب فيها خمسة أجيال عن من غرق منهم واستولى الفرنسيون على ستة آلاف رأس من الغنم

(٢) يوم ٢٨ سبتمبر سنة ١٧٩٨

وقال في موضع آخر يصف حالة الشعب الفرنسية ومركز الفرنسيين : « إن مصر قد فوجئت بالحلمة الفرنسية فأخذت تنفض وتجاذب للتخلص من قبضة الفاتح الحديدي ، لقد كنا نرابط في مصر ونحتلها احتلالاً عسكرياً ، وعلى الرغم مما بذلناه من الجهود ليقبلنا الشعب كما يتقبل محروبه قد بقيت سلطتنا قائمة على القوة لا على الإقناع ، وكان اختلاف الدين واللغة والطباع والمادات مما يجعل الامتزاج بين الغالب والمغلوب عسراً بعيد الاحتمال ، فكانت سياستنا قائمة على إكراه الشعب على الإذعان بالحزم مرة والقوة مرة وقمع كل ثورة ومكافأة من يخدم السلطة الفرنسية ، ولإدراك هذه الفاتية وزع بونايرت الجيش على مختلف أنحاء القطر لإخضاعها وجعلها موضع مراقبة دقيقة ، وكان قواد الفرق فضلاً عن اختصاصاتهم الحربية ، يتولون الإشراف على الأعمال الإدارية والمالية في مديرياتهم ويراقبون جباية الأموال والתרامات ويشرفون على مجالس الدواوين في الأقاليم حتى لا تتمدى اختصاصها <sup>(١)</sup> »

### الحلمة على البحر الصغير

اهتم نابليون بإخضاع بلاد البحر الصغير ، الكائنة بين المنصورة وبحيرة المنزلة ، وارتداد الجهات الموصلة إلى البحيرة ، وكان يرى من جهة إلى إخضاع تلك البلاد ، ومن جهة أخرى إلى تأمين المواصلات بين دمياط والمنصورة والصالحية وبلبيس حتى يطمئن على حدود مصر الشرقية ، وقد بحث إلى الجنرال دوجا في هذا الصدد بمئة رسائل تظهر مبلغ اهتمامه بهذا القطاع <sup>(٢)</sup>

• جرد الجنرال دوجا حملة عسكرية لإخضاع البحر الصغير ومعاينة القرى الثائرة في هذا الإقليم ، وأنفذ لهذا الغرض الجنرال داماس Damas والجنرال دستنج Destaing في قوة من الجنود الفرنسية ، ورسم لها الخطة التي يقيمانها ، فكان أمره للجنرال داماس أن يعرض رأساً إلى بحيرة المنزلة لارتدادها وإخضاعها ، وعهد إلى الجنرال دستنج معاينة بلدتي « منية محلة دمنة » و « القباب الكبرى » الواقعتين على بحر أشمون <sup>(٣)</sup> إذ جاهر أهلها بالعصيان والامتناع عن دفع الضرائب والתרامات التي فرضت عليهم

(١) التاريخ العلمي والحربي للحملة القرية الجزء الثالث .

(٢) كتب نابليون في ١٤ سبتمبر سنة ١٧٩٨ إلى الجنرال دوجا يقول : « أرجوك يا مواطني الجنرال أن تخبرني بالطريق الذي أزمعت السير فيه للوصول من المنصورة إلى بلبيس ومن المنصورة إلى الصالحية وبأية طريقة يمكن خل المدفعية والفرسان في هذه الجهة ، وما هي أسماء القرى الواقعة على النيل في إقليم المنصورة وما هي نتيجة اكتشافكم لقرع الثلاث التي تأخذ من النيل وتسبب في بحيرة المنزلة »

(٣) هو الاسم الذي كان يطلق على التربة الكثيرة المروقة الآن بالبحر الصغير



### حسن طوبار

وكان لهذه المهمة شأن وخطر في تلك الجهات ، لما امتد في أنحاء من أسباب الثورة والهاج ، وظهور جماعة من زعماء الأهالي يمحضون الناس على مقاومة الفرنسيين ، وقد تكرور في كثير من رسائل وتقارير القواد الفرنسيين في مديرتي المنصورة ودمياط اسم « حسن طوبار » شيخ بلد المنزلة في ذلك الحين كزعيم للحرزين ، وخصم عنيد لا يستهان به ، ومدبر لحركات المقاومة في هذه الجهات ، كما تردد اسم الأمير مصطفى وعلى المديسي كحرضين في واقعة الاعتداء على حامية المنصورة

كان حسن طوبار زعيماً لإقليم المنزلة ، وكان هذا الإقليم جياً شاملاً متعاب كثيرة للفرنسيين ، كتب ريبو في كتابه يصف سكان هذه الجهات بقوله : « إن مديرية المنصورة التي كانت مسرحاً للاضطرابات ، تتصل ببحيرة المنزلة ، وهي بحيرة كبيرة تقع بين دمياط ويبلوز القديمة (الطينة) والجهات المجاورة لهذه البحيرة ، وكذلك الجزر التي بها ، يسكنها قوم أشداء ذوو نخوة ولهم جلد وصبر ، وهم أشد بأساً وقوة من سائر المصريين ، ثم هم أغنياء بما ينالون من الصيد ، ولهم في البحيرة خمسمائة أو ستمائة مركب<sup>(١)</sup> يجعل لهم السيادة في البحيرة ، ول هؤلاء الجزائريين أربعون رئيساً منهم ، وكل هؤلاء الرؤساء يتبعون حسن طوبار شيخ بلد للمنزلة ، وهو الزعيم الأكبر لهذه المنطقة<sup>(٢)</sup> »

ويقول الجنرال أندريوسي Andreossi<sup>(٣)</sup> الذي ارتاد بحيرة المنزلة وقدم عنها تقريراً إلى المجمع العلمي بمصر<sup>(٤)</sup> : « إن لسكان هذه الشواطئ أربعين رئيساً يتبعون الشيخ حسن طوبار الذي احتكر الصيد في البحر لقاء جعل للحكومة ، وحسن طوبار من أكبر أغنياء القطر المصري ، وربما كان أغنام ، وهو من المنزلة ، وفي أسرته مشيخة البلد يتوارثونها من أربعة أو خمسة أجيال ، وله سلطة واسعة تقوم على مكانته في النفوس ، وثروته وعصبيته ، من ذوى قرياء ، وأتباعه ، وعلى مؤازرة العرب الذين يقطعهم الأراضي ليزرعوها وينتلق على رؤسائهم بالمهدايا والتحف »

(١) يقول الجنرال لوجيه Langier في يومياته إن عدد المراكب التي يبحر المنزلة في ذلك العصر يبلغ الألف

(٢) التاريخ الطلي والمربي للحمة الفرنسية الجزء الرابع

(٣) أحد قوات الحملة الفرنسية انظر ما كتباه عنه بالمثل الرابع ص ١١٣ .

(٤) كتاب تخطيط مصر الجزء الحادي عشر

### سير الحملة على البحر الصغير

بدأت تتحرك الحملة على البحر الصغير من المنصورة يوم ١٦ من سبتمبر سنة ١٧٩٨ ،  
ويهمنا قبل أن نصف خط سيرها أن ننقل هنا بعض التعليمات التي أسداها الجنرال دوجا  
لكل من الجنرالين داماس وستنج ليتبعهما ، فإن في هذه التعليمات صورة حية لحالة البلاد  
في ذلك العصر وحالة الشعب النفسية ، قال دوجا فيما عهد به :

« منية محلة دمنة والقياب الكبرى — هاتان القرىتان واقعتان تحت تأثير رجلين يجب  
أسرها ، وهما على المديسى من النية والأمير مصطفى من القياب ، وقد وصلتني رسالة من  
الجنرال فيال Vial (قومندان مديرية دمياط) ينسب إليهما تهمة الاتصال بالشيخ حسن  
طوبار شيخ بلد المزة وانتظارها النجدة منه ، فيجب أن لا يترك له الوقت لإمدادها ، ومن  
ثم يجب مهاجمة النية والقياب أسرع ما يمكن السرعة ، ثم احتلال موقع عسكري بين  
القياب ودموم السبخ<sup>(١)</sup> يحول بين الرجلين وبين كل مدد يأتيهما ، وإذا قاوم الأهالي وجب  
سحقهم وسحق قراهم ، وإذا سلموا بدون إطلاق النار فيجب عليهم أن يسلموا في الحال  
عشرين رهينة منهم ، وأن يسلموا على المديسى والأمير مصطفى ، ويسلموا كذلك جميع  
أسلحتهم وعشرين جواداً وثلاثين من المشية ، ويغرموا ثلاثة أمثال الفريضة المقروضة  
عليهم ، وإذا رأيت بعض القرى تتخذ السلاح لموازرة النية والقياب ، فاضربوا في أهلها ،  
وخنقوهم أخذ الأعداء أعداءهم ، وإذا انتهت الحملة على النية والقياب بإعادة السكينة والخضوع  
فلي الجنرال دمنج أن يعود إلى المنصورة فيمن معه من الجنود ، أما إذا ظهرت الثورة في  
بلاد أخرى فعليك أن تتابعوا سيركم لإخضاعها »

« تعليمات خاصة للجنرال داماس — إن مهمة الجنرال داماس هي أولاً مساعدة الجنرال  
دمنج في مقاومة منية محلة دمنة والقياب الكبرى ، وعلى ذلك يتبع التعليمات السابقة فهي  
لها جميعاً ، وثانياً عليه أن يمر في بحر أشمون ( البحر الصغير ) إلى بحيرة المزة ويقيس عمقه  
على طول البحر ، ويخضع البلاد الواقعة على شاطئيه ، وينتزع رهائن من كل البلاد التي لم  
تدفع الضرائب المقروضة عليها ، أو تسلم التحليل المطلوبة منها

« إن الجنرال فيال مترجع من مقاصد الشيخ حسن طوبار شيخ بلد المزة ، ومن حشده  
عدداً كبيراً من المراكب في الطرية ، فإذا كان هذا صحيحاً فن الواجب أسر الشيخ حسن

---

(١) منية محلة دمنة ، والقياب الكبرى ، ودموم السبخ من بلاد مركز دكرنس وهي واقعة على  
البحر الصغير ( بحر أشمون )

طوبار وتحطيم أسطوله ، وعلى الجنرال داماس أن يجمع كل ما يمكن العلم به من غور بحيرة  
المنزلة والترع التي نصب فيها ، والبلاد الثانية من مصبها ، والفتحات التي تصل البحيرة  
بالبحر الأبيض ، وعمقها وعرضها ، وطبيعة الجزر الكائنة بالبحيرة وسكانها ، ثم يعود إلى  
المنصورة في طريق أثمون ( البحر الصغير ) ، وعليه أن يتبين طريق الصالحية ( جنوب  
بحيرة المنزلة ) ، والطريقة التي يمكن بها جمع السفن في بحيرة المنزلة لتقل فرقة عسكرية  
إلى صان »

تنفيذا لهذه التلميحات تحرك الجنرالان داماس ودستنج على رأس الجنود الفرنسية من  
المنصورة يوم ١٦ سبتمبر سنة ١٧٩٨ الساعة السادسة مساءً ، وساروا بالبحر الصغير على  
ظهر السفن ، فأرسوا ليلاً على مقربة من منية محلة دمنه ، وشمر أهالي المنية بإقترب الحملة  
فأخلوا ببلداتهم ، وفي فجر اليوم التالي أزل القائدان الجنود إلى البر وزحفوا على المنية فكانت  
خالية من السكان ، فتابعوا السير إلى القباب الكبرى ، فإذا هي كذلك خالية من أهلها ،  
وقد كلف الجنرال داماس مشايخ بعض القرى المجاورة أن يبلغوا أهالي القريتين أن يعودوا  
فإن القوة لا تتألم بشر إذا دفعوا الضرائب المفروضة عليهم ، وهناك افترق القائدان  
الفرنسيان ، فرجع الجنرال دستنج إلى المنصورة من طريق بحر أثمون ، ومضى الجنرال داماس  
إلى المنزلة تنفيذاً للمهمة التي كلف القيام بها ومعه من الجنود نحو ثلاثمائة جندي بأسلحتهم  
وذخيرتهم ، ولما بدأ الجنرال داماس سيره جاءت رسالة من الجنرال دوجا أنه موافق بهدد من  
الجند ، فانتظر داماس في المرساة<sup>(١)</sup> حتى جاءه المدد ليلاً ، وفي اليوم التالي سار يمينوده  
وواصل السير وانتظر غير قليل في ميت السودان<sup>(٢)</sup> فاللرا كمة<sup>(٣)</sup> لتون جنوده ، ثم  
وصل مساءً إلى برنبال الجديدة<sup>(٤)</sup> وكان الجنرال دستنج قد وصل في صباح هذا اليوم  
إلى المنصورة

#### معركة الجالية<sup>(٥)</sup>

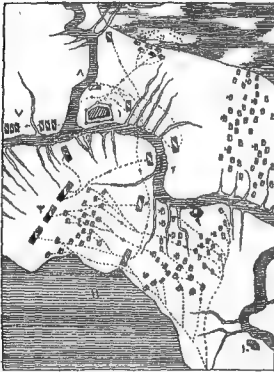
عسكر الجنود ليلاً في برنبال الجديدة ، وغادروها قبل شروق الشمس فوصلوا بحراً تجاه  
( الجالية ) في نحو الساعة العاشرة صباحاً ، فوحت سفنهم في بحر أثمون من قلة الياء ،  
وانتهزها الأهالي فهاجموا السفن الفرنسية وكانوا يتبعونها من بعيد ، واشترك في هذا الهجوم

(١) و (٢) و (٣) و (٤) من بلاد مركز دكرنس على البحر الصغير

(٥) من بلاد مركز دكرنس على البحر الصغير

أهالى الجلمالية ، فأطلقوا النار على السفن وأمطروها وابلا من الحجارة من أعلى سور بلدتهم ، فأمر الجنرال داماس بإتزال الجنود إلى البر لرد هجوم الأهالى ، وأمكنه أن يفرق الجموع التى أهدقت بالقوة الفرنسية ، ولكنه بعد قتال أربع ساعات انسحب من الموقع الذى نزل به ورأى أنه لا يستطيع الثبات به ولا متابعة السير فى بحر أنشون ، فأضرم النار فى الجلمالية وعاد أدرجه إلى المنصورة ومعه جرحاه وقتلاه

### خريطة معركة الجلمالية



- ١ — الجلمالية والسور الذى كان يحيط بها
- ٢ — بحر أنشون (البحر الصغير) وفيه السفن المقلدة للجنود
- ٣ — المواقع الأولى التى نزل بها الجنود الفرنسية لمقاومة هجمات الأهالى
- ٤ — هجوم الأهالى الذين هاجموا الجنود الفرنسية
- ٥ — انسحاب الأهالى بعد كسر هجمتهم الأولى
- ٦ — انسحاب الثوار من الجلمالية والتجأؤهم إلى المستنقعات
- ٧ — انسحاب الفرنسيين إلى المنصورة بعد انتهاء المعركة
- ٨ — ترعة الجلمالية
- ٩ — ميت شريف
- ١٠ — المواجد
- ١١ — بركة المياه

عن خريطة مودعة فى محفوظات وزارة الحربية الفرنسية سنة ١٨٠٠ تمهرا القومندان دى لاجونكير سنة ١٨٩٩

سلك الجنرال داماس فى عودته إلى المنصورة طريق البحر الصغير وصر فى طريقه بميت سلسيل<sup>(١)</sup> فأمر بإحراقها وكان أهلها قد تمردوا وأخلو ببلدتهم وأوغلوا بعيداً عنها بحيث كانت تفصلهم مياه الفيضان والمستنقعات عن خط سير الحملة فلم يستطع داماس اللحاق بهم كانت معركة الجلمالية ذات شأن وخطر ، وصفها الضابط جازلاس Gazlas من ضباط كتيبة الجنرال داماس فى تقريره عنها قال :

« لما وصلنا بمرآ اتجاه الجلمالية ، وهى قرية كبيرة قوية على الشاطئ الغربى من بحر أنشون ،

(١) من بلاد مركز دكرنس على البحر الصغير

فوجت السفن التي كانت تحمل الجنود بمقاومة من الأحجار والرصاص انهارت من أسوار البلدة وبيوتها ، وفي الوقت نفسه رأينا جموعا كثيرة من العرب والماليك والفلاحين مسلحين بالبنادق والسيوف والمصي ( الشاربخ ) تهرع من الجهات المجاورة بسرعة إلى مهاجتنا ، وكان بعضهم راكبين الخيل وأكثرهم مشاة ، فدهشنا لهذه الهجمة المفيئة ، ولكننا لم نؤخذ على غرة ، ونزلت الجنود حاملة سلاحها إلى البر الشرقي المقابل للقرية ونأهبوا للقتال منتظرين قدوم الأعداء ( الأهالي ) ، فرأينا أكثرهم شجاعة ينامرون بأنفسهم ويهجمون إلى أن يصيبوا في وسط جنودنا ، لكن الجنود حاربهم ببسالة ، وقد رأيت بنفسى جماعة من الفلاحين ليس بيدهم سلاح سوى المصي - مهاجونا بحماسة فيستشهدون بين أسنة رماحنا ، وصدر لي الأمر بإطلاق النار على الأعداء المهاجمين ، فأطلقنا النار عليهم وقرقنا هذه الجموع بعد أن تركت الميدان مغلى يبحث القتلى ، ولقد تمكن بعضهم أن يعبروا التربة ثانية ويتمتعوا في الجبالية ، وهي قرية محاطة بالأسوار تحميها أربعة أشمون ( البحر الصغير ) من جهة والمستنقعات التي تغطيها المياه من جهة أخرى ، فأمرني الجنرال داماس أن آخذ القوة الكافية وأستولى عنوة على القرية ، فصرنا التربة بحسب اقتناء على مجل ، وورعت جنودى ، فهدمت إلى جزء منهم رد المهجرات الآتية من خارج القرية ، وهجمت بقوى على القرية ، واقتحمنا الباب الكبير رغم مقاومة أهلها الذين دافعوا عنها دفاعا قويا ، فاستولينا على جزء من القرية ، ولكن الأهالي ظلوا يدافعون عن الجزء الآخر متمنعين في البيوت والشوارع ، وهجم التوار على القوة التي دخلت القرية ولكن صدتهم البنادق والحراش ، وحصر جزء منهم في القرية وتمكن جماعة آخرون أن يتسللوا منها فتلقتهم القوة الرابطة حولها ونجا منهم من أقوا بأنفسهم في المستنقعات وذهبوا سباحة يحملون أسلحتهم »

وقدر جازلا من خسائر الفرنسيين في هذه المركة بخمسة قتلى وخمسة عشر جريحاً ، وقدر خسائر الأهالي بخمسمائة<sup>(١)</sup>

انتهت معركة الجبالية بإحراق البلدة وانسحاب الفرنسيين ، وعادت قوة الجنرال داماس إلى المنصورة يوم ٢١ سبتمبر بعد أن مرت وهي راجعة بالكردى ومنية علة دمنة ، وكان

---

(١) أشار نابليون إلى واقعة الجبالية في رسالته إلى الديركتوار بتاريخ ١٧ أكتوبر سنة ١٧٩٨ بقوله : « بلغ الجنرال داماس الجبالية فهجمت قوة من العرب منضين إلى الفلاحين على جنودنا ، فالتفتت التناير الحربية التي انتهت برد هذا الهجوم ، وامتاز الضابط جازلا من هذه الواقعة »

الأهالي في معظم القرى التي حاربها الجيش يتحلون ببلادهم خوفاً من انتقام الفرنسيين بحيث كان الجيش يصلها فلا يجدها إلا خالية

### عود إلى حسن طوبار

لم توفق الحملة الأولى على البحر الصغير في إتمام مهمتها ، وبقي حسن طوبار قوياً يثير البلاد ويستفز الناس للمقاومة ، وكان الفرنسيون يحسبون له حساباً كبيراً ويسعون بمختلف الوسائل أن يخضعوه أو يمتدبوه إلى صفوفهم ، وقد اتصل به الجنرال فيال Vidal في دمياط وأظهر له حسن طوبار استيائه مما بلته من إحراق الفرنسيين للجبالية وقال إن هذا العمل سيئة عليه في هذه الجهات ، لأن أهالي الجبالية يعتبرون أنفسهم في حمايته ، وقد أبلغ حسن طوبار الجنرال فيال أن ما أحدثه في نفسه إحراق الجبالية من القلق والحلم يمنعه من مقابلته ، وأرسل نابليون من القاهرة بعض الهدايا إلى الجنرال فيال ليقدمها باسمه إلى حسن طوبار يستميله بها ، فكتب فيال إلى الشيخ حسن يدعو إلى الحضور لتسلم هذه الهدايا فأبى حذراً من أن تكون الهدايا وسيلة للقبض عليه

وكان حسن طوبار يخادع الفرنسيين عن خططه ومقاصده ، فقد أرسل له الجنرال داماس أثناء حملته بالبحر الصغير يدعوهم إليه ، فأجاب الرسول أنه لا يأتي دفع الضرائب العادية على أن يتركه الفرنسيون حراً ولا يمرضوا له بسوء ، وفي الوقت نفسه كان حسن طوبار يستعد للقتال ويرسل عياله وأمواله إلى غزة<sup>(١)</sup> ، ومما زاد الفرنسيين رعباً في مقاصده أنهم علموا نبأ حركة يقوم بها الأتراك في عكا بسواحل سوريا إذ يجمعون هناك السفن بقصد الإغارة على بحيرة اللزلة من طريق قم القدية<sup>(٢)</sup> ، وأن هذا هو السبب في حشد الشيخ حسن طوبار كل مائاته يده من السفن في بحيرة اللزلة ليشارك في تلك الحملة البحرية ، وتوارت الأخبار في ذلك الحين بأنه متفق مع إبراهيم بك زعيم المماليك الذي كان مرابطاً بقلوب جيشه في جنوب سوريا ، وأنهما على اتصال مستمر لمقاومة الفرنسيين ، فحسن طوبار كان يشعل نار الثورة في مختلف البلاد الواقعة بين دمياط وللزلة والمنصورة ، وبينما كان يثير الأهالي في بلاد البحر الصغير ، كان في الوقت نفسه يجمع مراكبه في بحيرة اللزلة لمهاجمة دمياط ، وكان الرجل في نظر الفرنسيين عنواناً للمقاومة والمصيان

(١) رويات الجبال داماس بتاريخ ٢٤ سبتمبر سنة ١٧٩٨

(٢) من صفحات بحيرة اللزلة على البحر الأبيض المتوسط

جاء في يوميات الجنرال لوجيه : « لقد تأكدنا أن حسن طوبار كان محبوب بنفسه البلاد الواقعة على بحر أشمون يحرص الأهالي على الثورة ، وكان يرسل إلى بعض البلاد الأخرى رساله وأتباعه لتنظيم المقاومة ضد الفرنسيين ، وأنه هو الذى دبر واقعة الجالية ، غير أنه من الصعب أن نلقى يدنا على هذا الرجل مع فوزه العظيم بين الأهالي ، وإن فى استطاعته أن يوحّد علينا قوات كبيرة جداً ، وقد جاءتنا الأخبار أن أهالي بعض القرى الواقعة على النيل أطلقت النار على السفن المقلّة للجنود الفرنسية ، وأن الدلائل تدل على أن الثورة عامة ، ومن الحق أننا كنا نستهدف لأخطار بالغة لو تشجع الثوار بانتصار يصرم فى قلوبهم نار الحماسة »

### فى دمياط

كانت دمياط ( كما هى الآن ) من أهم بلاد القطر المصرى من الوجهتين الاقتصادية والحربية ، وكانت مركزاً تجارياً وصناعياً كبيراً ، تصدر منها متاجر البلاد وترد إليها وارداتها القادمة من سوريا وقبرص والأناضول وتركيا واليونان وفرنسا ، وبها كثير من الوكائل والمخازن القائمة آثارها إلى اليوم ، واشتهرت بتجارة الأرز والأقشة والمنسوجات والخشب ، وكانت ترأّس الإسكندرية فى مركزها التجارى ، واشتهرت هى والقرى المحيطة بها بصناعة الأقشة إذ تنسج بها أحسن منسوجات القماش والحرير والتيل بالقطر المصرى قدر « ريبو » عدد سكان دمياط فى ذلك العصر بستين ألف نسمة <sup>(١)</sup> ، ويلاحظ لنا أن هذا التقدير فيه شيء من المبالغة ، لأن السيوجمار أحد مهندسى الحملة الفرنسية يقدم بعشرين ألفاً <sup>(٢)</sup> ، وإحصاؤه أقرب إلى الثقة لأنه جاب أنحاء مصر ودرس أحوالها عن كثب بخلاف السيوجمار « ريبو » ، ويقول كلوت بك فى كتابه <sup>(٣)</sup> إن عدد سكان دمياط فى عصر محمد على كان يتراوح بين ٢٥ و ٣٠ ألفاً فى الوقت الذى وضع فيه كلوت بك كتابه ، أى حوالى سنة ١٨٤٠ ؟ ومن الحق أن دمياط كانت إلى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر ثامناً بلداً فى القطر المصرى بعد القاهرة فى عدد السكان ، ويقول الدكتور ديجنت كبير أطباء الحملة الفرنسية فى كتابه <sup>(٤)</sup> إن عدد سكان دمياط كان وقتئذ يزيد عن ضعف سكان المنصورة

(١) التاريخ الطبى والحربى للحملة الفرنسية الجزء الرابع

(٢) تخطيط مصر الجزء التاسع

(٣) لحة عامة لى مصر الجزء الأول

(٤) التاريخ الطبى لجيش الشرق

امتدت شعلة الثورة إلى دمياط وظهرت علام الاضطراب والهاياج حولها من أوائل سبتمبر سنة ١٧٩٨ ، فأرسل الجنرال فيال إلى الجنرال دوجا ينفذه بقرب هجوم الثوار على المدينة ويطلب الدد ، وبنيء بأب حسن طوبار يحشد أسطولا كبيرا في بحيرة المنزلة لمهاجمة المدينة

وقع الهجوم للتفطرية ١٦ سبتمبر سنة ١٧٩٨ واشترك فيه أهالى البلاد المجاورة لدمياط ، واشترك فيه أيضاً أسطول حسن طوبار الذى تحرك في بحيرة المنزلة قاصداً شطوط دمياط ، فوصل إلى ( غيط النصارى ) شرق المدينة ، والتقى الأهالى القادمون من القرى بالنازلين من السفن ، وكانوا مسلحين بالبنادق والرماح ، وساروا قاصدين دمياط لمهاجمة قوة الجنرال فيال قتلوا الحراس الفرنسين المرابطين في الخافر الأمامية للمدينة ، وظل القتال متواصلا ليلة ١٦ سبتمبر إلى أن رتب الجنرال قواته فتحول موقفه من الدفاع إلى الهجوم ، وتمكن من التغلب على الثوار ، وردم على أعقابهم بعد ما كبدهم خسائر جسيمة ، وانسحب معظمهم إلى شاطئ البحيرة ، فركبوا السفن التى كانت تنتظرهم ، واتجهت فرقة منهم إلى قرية ( الشمرء )<sup>(١)</sup> فحصنوا بها ، وهذه القرية من دمياط على مرمى الدفع ، فاتخذها الثوار معسكراً لهم وجاءهم الدد من بحيرة المنزلة ، وفى خلال ثورة دمياط قام أهالى عزبة البرج وثاروا بالحامية الفرنسية قتلوا من أدركوم من رجاله ، ولما علموا فى اليوم التالى أن ثورة دمياط أخذت وأن الفرنسين لابد أن لا يتوانوا للاقتصاص منهم أخذوا البلدة بسيالهم ونسائهم وانحسروا فى الراكب قاصدين إلى سواحل سوريا ، وقد أنفذ الجنرال فيال حملة على تلك البلدة فوجسها خالية من السكان فهبتها وأحرقها وعادت إلى دمياط

#### واقعة الشمرء

تشجع الجنرال فيال بالدد الذى جاءه من المنصورة ، وبحضور الجنرال اندريوسى الذى أوفده نابليون ليوطد سلطة الجمهورية فى تلك الأسقاع ، فتقدم الفرنسيون يوم ٢٠ سبتمبر للاستيلاء على الشمرء ، وكان يدافع عنها نحو ١٥٠٠ من الثوار تحميمهم البحيرة من جانب ، والتيل من جانب آخر ، فاقصم الجنود القرية واستولوا عليها عنوة ، ونهبوها وأضرمو فيها النار ، واستولوا على مدفين للأهالى وعلى السفن التى كانت على مقربة من الشمرء ، ويقول

---

(١) جنوب دمياط على مقربة من البحيرة والآن على ترعة الشرافية



الجنرال لوجيه في يومياته إن الثوار خسروا في هذه المعركة نحو خمسين قتيلًا ، ويقول ريبو إن الفرنسيين خسروا اثني عشر قتيلًا وثلاثين جريحًا<sup>(١)</sup>

### تفاهت الثورة وفضائح الجنرال فيال

تفاهت الثورة في البلاد الواقعة بين النصورة ودمياط ، وتملحت حوادث مهاجمة الثوار للسفن الفرنسية القلة للجنود في النيل ، وقتل في خلال هذه الحوادث بعض الجنود والبحارة ، وكانت قرية ميت الخولى الواقعة على النيل أكثر القرى اعتداء على السفن ، فقام الجنرال فيال من دمياط في خلال شهر أكتوبر سنة ١٧٩٨ ونزل بطريق النيل ومعه القوة الكافية من الجنود لمراقبة البلاد التي هاجمت السفن ، لكنه أسرف في التتكيل ولم يفرق بين القرى النائرة والقرى الآمنة المهادنة ، وأوقع بها كلها نهبًا وإحراقًا ، مر أولًا بالظاهرية<sup>(٢)</sup> فوجد بها خالية من السكان لأن أهلها أخلوها قبل أن تصل إليهم الجنود الفرنسية كي لا يستهدفوا للانتقام ، ثم بلغ كفر المياسرة فوجدوها كذلك خالية من سكانها ، ومر بالزرقا فوجد مشايخ البلد قد لاذوا بالفرار ، ووصل إلى ميت الخولى التي كان أهلها أكثر اشتراكًا في الاعتداء على الجنود فإذا هم قد أخلوها بلدهم وكانت قرية كبيرة محصنة محاطة بسور يحيط به خندق ، فاستولى الجنرال فيال على المدينة وعلى ما وجد فيها من الأسلحة ، ومنها ثلاثة مدافع قديمة وأمر جنوده بنهب البلدة وإحراقها

واستمر في طريقه بالنيل وأراد أن يقاوم بقوة قرية الأحمدية الواقعة بالبر الغربي ولكن أهلها أخلوها قبل مجيئه ، ثم اتجه إلى شرماسح بالبر الشرقي وعاد منها إلى كفر الزعارة

(١) ذكر نابليون في منشور من منشوراته العسكرية ( بتاريخ ٢٤ سبتمبر سنة ١٧٩٨ ) واقعة الشعراء ولكنه بالغ في وصفه إذ ذكر أن عدد الثوار فيها كان عسرة آلاف وأن خسائرهم بلغت ١٥٠٠ قتيل وغريق ، وهذا المنشور وارد في مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٣٣٨٠ ، وليس من المقول أن يعتقد في (الشعراء) عسرة آلاف تأثر بها كان عدد الممدد الذي جاء من البلاد المجاورة أو من بحيرة المنزلة ، وبالتالي لا يخل أن تبلغ خسائر الأهالي ١٥٠٠ قتيل ، والظاهر أن هذه المبالغة راجعة إلى الإحصاء المكذوب الذي أورده الجنرال فيال في رسالته إلى نابليون عن المعركة ليتصل لنفسه غفرًا لا يستحقه ولتظلم منزله عند نابليون ، على أن فيال هنا ذكر في رسالة له إلى الجنرال دوجان عن هذه الواقعة أن عدد قتلى الثوار فيها لم يزد عن ثلاثة ، وفي هذا أيضًا مبالغة ، والواقع أن الجنرال فيال كان معروفًا عنه المبالغة والإسراف في رسالته وتقاريره ، وقد أشار الجنرال (لوجيه) في يومياته إلى مبالغته وذكر بالفيال أرقامه عن واقعة الشعراء فقال في هذا الصدد : « إن الجنرال فيال بالغ في تهمره مبالغة مدعشة فجعل خسائر الأعداء ( الأهالي ) ١٥٠٠ قتيل في حين أن خسائرهم لم تبلغ خمسين قتيلًا » ، وهذا الإحصاء هو الذي اعتمدنا عليه

(٢) مديرية التربة على الشاطئ الغربي لقرع دمياط شمال شرقي وتسمى الشهيرة

وهي آخر بلدة حطَّ بها أنقلا في هذه الرحلة ، فوجد فيها بعض الأهالي الأمنيين بعد أن هجرها معظمهم ، ثم عاد إلى دمياط فوصلها ليلة ١٤ أكتوبر ومعه بعض الرهائن من أعيان البلاد ، فأرسلهم مخفورين إلى القاهرة

اعترف الجنرال فيال في رسالته إلى الجنرال دوجا بأنه الأمر بنهب ميت الخولى انتقاماً من الأهالي لاعتدائهم على الجنود الفرنسيين ، وقد لامه نابليون على هذا الأمر وأرسل له يقول : « لقد استأنت من نهب قرية ميت الخولى وكان يكفى تجريدنا من السلاح »<sup>(١)</sup> وكتب الجنرال لوجيه في يومياته بصف المساوى التي ارتكبها الجنرال فيال في اقتصاصه من ميت الخولى والقرى المجاورة :

« في اليوم الذى عاد فيه الجنود إلى دمياط بعد هذا النهب كانت مدينة دمياط أشبه بسوق أو مولد باع فيه الجنود الفرنسية إلى الأروام ما نالته أيديهم من النهب والسلب ، فكانوا يعرضون المواشى والطيور والثيران والبقر والخيول والحمر والنم والدجاج والأوز ... وكثيراً من قطع النهب والفضة التي كانت حلياً للنساء »

وقد أمر نابليون الجنرال دوجا بالانتقال إلى دمياط لمواجهة الحالة الثورية فيها ، وكانت فظائع الجنرال فيال وجنوده قد أجبجت في النفوس نار الكراهية واستغزت الأهالي للأخذ بالثأر ، والاستماتة في مقاومة الفرنسيين

وأرسل نابليون إلى دمياط بعض السفن المسلحة لتكون عند أمر الجنرال دوجا في بحيرة للنزلة ، ولتضمن بسط سيادة الفرنسيين فيها ، على أن مركز الفرنسيين في جهات دمياط والنزلة ظل مزعزاعاً وسلطتهم محدودة في معظم البلاد ، كتب الجنرال لوجيه في يومياته يقول : « لم تتحسن الحالة كثيراً عما كانت عليه حينما جاء الجنرال دوجا لأول مرة إلى دمياط ، والسلطة الفرنسية ما زالت منكورة في معظم جهات الدلتا التابعة لهذه المديرية ، وفي دمياط نفسها التي تعتبر من أعظم بلاد القطر المصرى لا يأمن الجندى الفرنسى على حياته إذا هو ذهب إلى حى الوطنيين ، والحامية الفرنسية مقصاة في حى الأروام »

#### الحملة الثانية على البحر الصغير

رأى نابليون أن نفوذ حسن طوبار يخلق للفرنسيين كثيراً من المصاعب ويزعزع سلطتهم في جهات البحر الصغير والنزلة ويشير في قوس الأهالي روح الثورة ، فزم أن يجرّد

(١) مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٣٤٧٦

عليه حملة ثانية لإخضاعه والاستيلاء على المنزلة ، وكان لا يفتأ يهتم بتوطيد سلطنة فرنسا في البلاد الواقعة بين النيل (فرع دمياط) وبرزخ السويس لأنها الجهة الشرقية للقطر المصري؛ لذلك كان يفكر في تحصين بعض المواقع في تلك الجهات لحماية حدود مصر وتأمين مواصلات الجيش ، ولكن حوادث الثورة التي شبت في تلك البلاد عطلت وقتاً ما تنفيذ مشروعه على أن نابليون أدرك عواقب هذا التأخير ، فأوفد الجنرال أندريوسى Andreossi ليقوم بتحصين مصب النيل واتخاذ دمياط موقفاً حربياً منيعاً ودراسة بحيرة المنزلة ليتعرف إلى أى حد يمكن استخدامها في حالة الهجوم على مصر من جهة سوريا أو الهجوم على سوريا من مصر ، وطلب منه أن يعرض في اكتشافه لبحيرة المنزلة حتى آثار مدينة ييلوز القديمة الواقعة في نهاية البحيرة شرقاً ودراسة فتحاتها على البحر الأبيض المتوسط والتحقق مما إذا كانت السفن الإنجليزية أو العثمانية تستطيع الدخول إلى بحيرة المنزلة وإزال الجنود على شواطئها ، وتقدير المسافة بين ييلوز والصالحية ، وأصحبه ببعض المهندسين في مهمته بدمياط وبحيرة المنزلة ، ثم أرسل إلى الجنرال رينيه قومندان الشرقية بأن يعاون الجنرال أندريوسى في مهمته

وصل الجنرال أندريوسى إلى دمياط فأتى مركز الفرنسيين مزعماً وتعذر عليه أن يرتاد بحيرة المنزلة لأن الثورة التي شبت في القرى المجاورة لها كان من نتائجها أن أوغل أصحاب المراكب في عرض البحيرة بحيث لم يجد مراكباً منها ، وكتب إلى نابليون يخبره أن لا سبيل إلى تسلط الفرنسيين على بحيرة المنزلة إلا بعد سحق حسن طوبار والقضاء على قوته الكبيرة ، فبالاستيلاء على مدينة المنزلة التي يسكنها تصبح مركزاً حربياً للحركات العسكرية في البحيرة وتكون ملتقى المواصلات الحربية بين المنصورة ودمياط وميت غمر والصالحية وييلوز

أرسل نابليون المدد إلى الجنرال دوجا وكلفه بتجريد حملة عسكرية على مدينة المنزلة للاستيلاء عليها وإرسال كتيبة أخرى إلى الجنرال أندريوسى للاستيلاء على جميع الجزائر الواقعة في بحيرة المنزلة ، وشدد عليه في هذه الرسالة أن يأخذ حسن طوبار ولو بالتدبسة<sup>(١)</sup> وأن يرسله إلى القاهرة ، وأوصاه كذلك بالهسوة على الثائرين وإخضاع البلاد الكائنة بين المنصورة ودمياط إخضاعاً تاماً وأوصاه « بتجريد القرى من السلاح وقطع الرؤوس وأخذ الرهائن<sup>(٢)</sup> »

(١) رسالة نابليون إلى الجنرال دوجا في ٢٤ سبتمبر سنة ١٧٩٨ . مراسلات نابليون الجزء الخامس

وثيقة رقم ٣٣٧٤

(٢) مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٣٣٧٤

التي الجنرال اندريوسى فى دمياط بالجنرال دوجا الذى جاءها من النصورة بعد مانصبه نابليون قومنداناً للديرتين ، فتبين له أن مركز الفرنسيين مضطرب وأن سوء إدارة الجنرال فيال وقسوته كان لها أثر فى اضطراب الحالة واختلالها ، فقد ثبت أنه كان يهاجم القرى الآمنة وهى مطمئنة لم ترفع السلاح فى وجه الفرنسيين ولا يفرق بينها وبين القرى الثائرة ، وكان يصادر الأهالى ويرهبهم بالإتاوات والغرامات ، ونسب اليه بعض زملائه أنه احتكر تجارة الخمر فى دمياط

### سير الحملة والاستيلاء على المنزلة

وضع الجنرال دوجا أثناء تمهيد لدمياط خطة الحملة التى أمر نابليون بتجربتها على جهات المنزلة لإخضاع حسن طوبار ، فاتفق مع الجنرال اندريوسى على أن يقصد هذا الأخير إلى مدينة المنزلة بطريق البحيرة على ظهر المراكب التى جمعها لهذا الغرض ، وأن تسير إليها قوة أخرى بقيادة الجنرال داماس Damas بطريق البر من النصورة فتطبق القوتان على المدينة من البر والبحر وبذلك يقضى على مقاومة حسن طوبار ، وكانت الخطة المرسومة تقضى بأن يبدأ الجنرال اندريوسى بالإتقلاع بسفنه وجنوده قبل أن تتحرك القوة الأخرى من النصورة بأربع وعشرين ساعة

تحركت قوة الجنرال داماس من النصورة يوم ٤ أكتوبر سنة ١٧٩٨ الساعة السادسة صباحاً ، فأقلت السفن قما من الجنود وسار القسم الآخر براً محاذياً المراكب ، ثم عرجت على بحر أشمون ( البحر الصغير ) الذى كان يتفرع من النيل على مقربة من النصورة<sup>(١)</sup>

وصف الجنرال لوجييه Laugier أحد قواد هذه التجربة فى يومياته تفاصيل هذه الحملة ، قال يصف البلاد التى مر بها :

« دخلت السفن ترعة أشمون ، وهذه التربة واسعة وعميقة جداً ، على أنها تضيق كلما اقتربت من مصبها ببحيرة المنزلة ، وهى تمتد بلافاغاية فى النصوصية ، وعلى شاطئها غرست أشجار الجوز الباسقة ، وأشجار أخرى تدانىها فى الملو ، ولم نجد فى القطر المصرى جهة كثيرة الشبه بفرنسا مثل هذه الجهة ، فبعثت فىنا هذه المشابهة الشجر والحين إلى الوطن ، والمسافة بين النصورة والمنزلة تبلغ عشرين فرسخاً عددنا بها خمساً وأربعين قرية كلها أهلة بالسكان »

(١) الآن يتفرع من ترعة النصورية

سارت الكتيبة حتى وصلت إلى منية حلة دمنة ولم تلق في طريقها مقاومة تذكر لأن القسوة التي استعملها الجنرال داماس في حملته الأولى وما أصاب أهالي الجبالية من الخسائر قد أضنف روح المقاومة ومال بهم إلى الإخلاق ودفع الضرائب المطلوبة منهم ، فكانت كل قرية دفعت ماعليها من الضريبة ترسل من أهلها رجلاً يحمل الوصل بالدفع فينتظر مرور الحملة فإذا أقبلت رأت هذا الرجل واقفاً لا يتحرك وقد جعل الوصل في رأس « نبوت » دفعه لهم ليروه ، والقرية التي لم تدفع ماعليها تبادر إلى الدفع

ثم وصلت الحملة إلى أشمون<sup>(١)</sup> في منتصف الساعة السابعة مساءً فمسكرت ليلاً ، وفي اليوم التالي ( ٥ أكتوبر سنة ١٧٩٨ ) قبل شروق الشمس تابعت سيرها بعد أن أرجع الجنرال داماس إلى المنصورة تسعة من مهاكبه الكبيرة التي لم تستطع مواصلة السير لأن التربة بدأت من هذه النقطة تضيق ويقل عمقها ويتمذر سير الركب فيها ، ثم وصلت إلى « الكردي » ؛ وهناك جاء وفد من المزة يقصد مقابلة قائد الحملة للمفاوضة مع الفرنسيين ويطلب ضماناً بأن لا يعاملهم الجيش الفرنسي معاملة الأعداء ؛ ويظهر أن هذا الوفد جاء بإجاز من الشيخ حسن طوبار لما استيقن بأنه هو المقصود بهذه الحملة العسكرية ، وبالرغم من أن الوفد يعلم مبلغ كراهية الفرنسيين لحسن طوبار فإنه لما سئل عن مقاصده أثبتوا عليه أحسن الثناء ، وقد كتب لهم الجنرال داماس تصريحاً بضمان أرواح الأهالي إذا سلكوا مع الجيش مسلك الولاء

قال الجنرال لوجييه في يومياته : « في كل جهة مهدنا بها من المنصورة إلى المزة كنا نسمع نداء الأهالي على حسن طوبار وهو محبوب منهم جداً شديداً وهو غني تقدر ثروته باللايين من ( الفرنكات ) ، عاك الأراضى الواسعة ومصانع نسج القطن ومصانع الصباغة والمتاجر الكثيرة »

#### احتلال المزة

وفي يوم ٦ أكتوبر سمع جنود الحملة قبيل الفجر أصوات طلقات البنادق آتية من مدى بعيد ، وتبين لهم من اتجاه الصوت أن معركة نشبت على مقربة من دمياط ، فسارعت الحملة إلى المزة<sup>(٢)</sup> فوصلت تجاهها الساعة العاشرة صباحاً ، وكان الأهالي ومعهم حسن طوبار

(١) من بلاد مركز دكرنس وسروفة الآن بأشمون الرمان

(٢) يبلغ عدد سكان المزة في ذلك الصرح نحو ألفي نسمة كما قدم الجنرال اندروسي في تقريره الذي قدمه إلى المجمع العلمي وذكر عنها أن بها مصانع لنسج الحرير والكريشة واللايات وبها بض مصانع الأقمشة

قد أدخلوها ولم يبق بها إلا الشيخوخ الذين لا يقدرّون على السير ، والعجائز من النساء ، فدخل الجنود المدينة دون مقاومة وجابوا طرقاتها وأزقتها ، واستوقف نظرم منازل حسن طوبار التي كانت تسترعى النظر لسعتها وجمال منظرها وبنائها على الطراز الشرقى ، وكانت مقفلة الأبواب خالية من السكان ، وقد أراد بعض الضباط ومنهم الجنرال لوجيه أن يدخلوها فقبل لهم من الأهالى إن مفاتيح الأبواب غير موجودة ففتحوا مدخل أحدها ولكنهم لاحظوا أن انتهاك حرمة مساكن حسن طوبار يشير غضب الأهالى فانسحبوا منها<sup>(١)</sup> واحتلوا داراً جملوها المسكر العام للحملة ، وبالرغم من الضمانة التى كتبها الجنرال داماس لوفد النزلة فإن الجنود قد نهبوا البيوت واشتد الصخب وعلت الشكوى ، فاضطر الجنرال داماس إلى إصدار أوامره المشددة لمنع النهب ورد الجنود إلى النظام ، وبذلك تم للجنرال داماس احتلال النزلة أما أسطول الجنرال أندريوسى فقد أخفق فى مهمته إحقاقاً شديداً ، ذلك أن مراكبه أفلتت من دمياط يوم ٣ أكتوبر قبيل الفجر همل جنوده المجهزين بالأسلحة والمدافع وكان عدد هذه المراكب ١٦ سفينة منها ثلاث سفن حربية

خرجت السفن من بوغاز دمياط ثم عرجت على قم الدبية فرت منه إلى بحيرة النزلة وقطعت هذه المرحلة فى ثمانى ساعات ، ثم اتجه الجنرال أندريوسى بقوته صوب المطرية ، ولكنهم شاهدوا فى نحو الساعة الثالثة مساءً أسطولا من المراكب الشراعية متجهاً نحو الشرق ، تنحجه عن القوة الفرنسية الجزائر التى فى البحيرة ، فواصلت سفن الجنرال أندريوسى المسير حتى اقتربت من المطرية ، وقبل أن تصل إليها خرجت مراكب الأهالى فجأة من خلف الجزر التى تحجبها وأقبلت على السفن الفرنسية قاصدة الاصطدام بها وإغراقها ، فأدرك الجنرال أندريوسى خطورة الموقف وخشى عواقب الاصطدام لأن المراكب المصرية كانت تبلغ مائة مراكب ، فنكس راجعاً إلى دمياط وأطلقت المراكب المصرية النار على السفن الفرنسية ، فأجابت هذه بإطلاق الرصاص من البنادق والمدافع التى بها ، وأخذت فى الوقت نفسه تراجع تقادياً من الاصطدام بمراكب الأهالى ، وكانت هذه تتبع السفن الفرنسية قاصدة احتلال دمياط ، ورست بالقرب من « النية »<sup>(٢)</sup> ، لكن القوة الفرنسية أطلقت النار عليها فنهت الدوريات الفرنسية التى كانت تتولى حراسة ضواحي دمياط ، فأقبلت لنجدة الجنرال أندريوسى وظل بحارة المراكب الأهلية يناوشون السفن الفرنسية إلى أن انسحبوا فى نصف الليل

(١) يوميات الجنرال لوجيه

(٢) جنوبى دمياط بقرى

وتركوا سفينة ترابح حركات الفرنسيين ، وظلت هذه السفينة على مرمى من سكان دمياط طول يوم ٤ أكتوبر ، وفي يوم ٨ أكتوبر أعادت الراكب الأهلية كرة الهجوم على دمياط ولكن نار المدفعية الفرنسية والسفن الحربية ردتها عن المدينة

كانت حركة الراكب المصرية خطيرة واسعة لدى ، وكانت تكون وخيمة المواقب على الفرنسيين لو لم يحيطها احتلال الجبال دامس لمدينة المنزلة ، فقد كانت الخطوة الموضوعة بالاتفاق بين أهالي المطرية والمنزلة أن يحتلوا دمياط بحراً بطريق بحيرة المنزلة ، والظاهر أن المائة سفينة التي شاهدها الجنرال أندريوس في البحيرة كانت تحمل المتطوعين من الأهالي لهذا الغرض ، لكن القوة الفرنسية ردتهم عن دمياط ثم جاء احتلال الفرنسيين للمنزلة فأحيط خطة الحملة البحرية التي نظمها أهالي المنزلة والمطرية ، وقد كان الفرنسيون جادين في احتلال هاتين المدينتين لأنهما يضمندان لمن يستولى عليهما السيادة في البحيرة ، فالطرية بأسطولها المؤلف من الراكب الشراعية والمنزلة بقوة حسن طوبار ونفوذها كانتا مفتاح هذه السيادة ، فسقوط المنزلة في يد الفرنسيين شل خطة المقاومة التي وضعا حسن طوبار وأشياعه ، على أن هذه الخطوة كانت بحكمة التدبير للرجة أن الجنرال أندريوس كتب عنها كثيراً في رسائله لتابلين ومما قاله في هذا الصدد : « إن استبسال العدو في الهجوم على دمياط ثبت أهمية هذا الموقع ، ويظهر أن الأنباء التي كانت واصلتنا عن قرب هجوم أهل المطرية والمنزلة على دمياط وانتظار حسن طوبار الدد من سوريا لم تكن بعيدة عن الحقيقة لأنني لا أعتقد أن الهجوم الذي فوجئنا به في البحيرة يستطيع أن يقوم به جماعة من الصيادين فلا يمكن مثل هؤلاء أن ينظموا مثل هذا الهجوم ويحكموه بمثل الحالة التي شاهدناها<sup>(١)</sup> »

### احتلال المطرية

وبعد أن تم للفرنسيين احتلال المنزلة سقطت المطرية في أيديهم واحتلتها قوة الكولونل جازلاس Gazlas ، ثم وصلت إليها السفن الفرنسية من طريق بحيرة المنزلة بعد أن أخلاها أهلها وغادروها على ظهر مراكبهم

قضى احتلال المنزلة والمطرية على قوة المقاومة التي كان يديرها حسن طوبار ، فلم يجد أمامه سوى الهجرة إلى غزة ، وبذلك انتهت تلك الحركة الواسعة المدى ، التي أفلقت بالفرنسيين زمناً ، وطويبت صحيفة مقاومة ذلك الرجل الذي أزعج قواد الجيش الفرنسي وتردد

(١). رسالة الجنرال أندريوس إلى تابلين في ١٦ أكتوبر سنة ١٧٩٨

اسمه في تقاريرهم ورسائلهم ، وورد اسمه غير مرة في رسائل نابليون الخالعة كمنوان للمقاومة الأهلية القوية ، وقد ظل بعد هجرته إلى غزة مصدر قلق للفرنسيين ، وخشوا أن يفكر في الرجوع إلى شواطئ دمياط وبحيرة المنزلة ويستأنف مقاومته ، وجاءتهم أنباء بأنه بعد فعلا قوة من المشاة في غزة عزم على نقلها في تخمين سفينة يحتمل بها دمياط ، ولكن لم يتحقق شيء من هذا العزم ، كتب الجنرال دوجا إلى نابليون في شهر نوفمبر سنة ١٧٩٨ ينقل إليه هذه الأخبار ، ولكن نابليون لم يبرها اهتماماً وكتب إلى الجنرال دوجا يقول له :

«أما عن مشروع حسن طوبار في الإقلاع بسفنه لاحتلال دمياط فن المستبعد أن يفكر في إنفاذ هذا المشروع بسفنه ورجاله المشاة دون فرسان ولا مدفعية ، وإذا أقدم على ذلك فهذا هو الطيش بعينه»

وقد عاد حسن طوبار إلى مصر بعد انتهاء الحملة الفرنسية على سوريا وتعهد بالتزام السكنية والهدوء في منطقته<sup>(١)</sup> ، ولكن يؤخذ من رسائل الجنرال كليبر أن السلطات الفرنسية لم تكن تثق به ولا تطمئن إليه وكان كليبر في عهد قيادته العامة يوصي الجنرال فردييه Verdier بمداراته ومراقبة حركاته<sup>(٢)</sup> إلى أن مات سنة ١٨٠٠ ، ونشرت جريدة (كورية دليجيت) نبأ وفاته في العدد ٧٥ الصادر في ٩ ترميدور من السنة الثامنة (٢٨ يولييه سنة ١٨٠٠) وقالت عنه ما خلاصته : « في ١٠ مسيدور (٢٩ يونيه) مات فجأة حسن طوبار كبير مشايخ إقليم المنزلة مصاباً بالسكتة القلبية ، وكان هذا الرجل عظيم المكانة لأصله العريق وغناه الواسع ، وقد هاجر من بلاده في الأشهر الأولى من الحملة وعاد إليها بعد الزحف على سوريا ، وأذن له الجنرال بوناپارت في الرجوع إلى مصر ، فأذعن من يومئذ وأخذ للكون ، وقد خلفه في شاخية إقليم المنزلة أخوه شلي طوبار »

هذا ولا يزال حسن طوبار يذكره كبار السن إلى الآن في جهات البحر الصغير والمنزلة ويسمونه « حسن طوبار الكبير القى حارب الفرنسيين »

---

(١) جاء في جريدة (كورية دليجيت) وهي الجريدة شبه الرسمية لعلة الفرنسية بالبدد الصادر في ٢٦ مسيدور من السنة السابعة للجمهورية (يولييه سنة ١٧٩٩) أن حسن طوبار قدم خضوعه في أوائل شهر مسيدور (يونيه) وأبى ابنه رهينة لدى الفرنسيين ليضمن إنفاذه ، وجاء في رسالة نابليون إلى الجنرال كليبر (حاكم منطقة دمياط وقتئذ) بتاريخ ٢٣ يونيه سنة ١٧٩٩ أن حسن طوبار ترك ابنه بالقاهرة في مساء ذلك اليوم رهينة على أن يسافر هو إلى دمياط

(٢) رسائل كليبر إلى الجنرال فردييه بتاريخ ٢٤ أكتوبر سنة ١٧٩٩ و ٢٢ مايو سنة ١٨٠٠



### تحصين منطقة دمياط

عن الفرنسيون بتحسين منطقة دمياط ، فأنشأوا قلعة بعزة البرج <sup>(١)</sup> ، وقامت على مدخل البوغاز شرقاً وغرباً ، وأقاموا كذلك طابية بالديبة على مدخل بحيرة المنزلة غرباً أشتوم الجليل ، وأخرى على فتحة أم مرج من فتحات البحيرة ، وطابية ببوغاز البرلس ويظهر لنا أن قلاع عزبة البرج والبوغاز أقامها الفرنسيون على أنقاض القلاع القديمة التي كانت بها ، فقد ذكر الرحالة فانسليب Vansleb أنه لما جاء إلى مصر ونزل بدمياط سنة ١٦٧٢ شاهد عند مدخل البوغاز قلعة قديمة مقامة بالبر الشرق لتليل كانت في حالة تهديم وأبراجها متخربة وفيها بعض مدافع لحماية البوغاز وأن هذه القلعة على بضع خطوات من بلدة سمها فانسليب قرية البوغاز ، وحقيقة اسمها قرية (عزبة البرج) لأنه يقول إن هذه البلدة يسكنها قباطين السفن والبحارة الذين يصحبون المراكب في دخولها النيل أو خروجها منه ، والعروف أن هذه البلدة هي عزبة البرج ، ويقول فانسليب أيضاً إنه شاهد في هذه القرية أساس قلعة لم تم ، وشاهد بالبر الغربي قلعة أخرى لحماية البوغاز <sup>(٢)</sup> ، وفي خريطة للسيو بول لوكاس Paul Lucas التي خطتها سنة ١٧١٧ رسم حصنين قائمين على جانبي بوغاز دمياط شرقاً وغرباً <sup>(٣)</sup> ، وقال السائح الفرنسي جرانجيه Granger الذي جاء مصر سنة ١٧٣٠ إنه شاهد هذين الحصنين في تلك السنة <sup>(٤)</sup> ، وتكلم عنهما السيو تيبودو Thibaudau في كتابه فقال إنهما كانا موجودين قبل الحملة الفرنسية ورمهما الفرنسيون ونصبوا فيهما المدافع <sup>(٥)</sup> ، وكذلك يقول الجنرال رينييه Reynier أحد قواد الحملة الفرنسية <sup>(٦)</sup> إنهما كانا قائمين قبل الحملة ويقول عنهما : « إن هذين الحصنين أعدا لحماية مدخل البوغاز وإن الفرض من قلعة عزبة البرج منع السفن من دخول النيل ومنع العدو من التقدم إلى دمياط براً إذا رمى على البر الشرق »

وإليك ما ذكره العلامة على باشا مبارك عن هذه الحصون والاستحكامات وما زاد عليها في عهد محمد علي باشا وعباس باشا الأول وإسماعيل باشا :

- (١) الواقعة بالبر الشرق لتليل تجاه رأس البر الآن
- (٢) رحلة في مصر للرحالة فانسليب
- (٣) رحلات السيو بول لوكاس في مصر
- (٤) رحلة في مصر للسيو جرانجيه
- (٥) تاريخ نابليون بونابرت ، حملة مصر الجزء الثاني طبع سنة ١٨٢٨
- (٦) في كتابه ( مصر بعد معركة عين شمس )

«قد أنشأ المرحوم عباس باشا سكة عسكرية من المدينة (دمياط) إلى البوغاز عرضها اثنا عشر مترا في طول ستة عشر ألف متر تمر في وسط المزارع على جملة قرى منها عزبة الخياطية وعزبة اللحم والحلة وعزبة الشيخ ضرغام حتى تصل إلى قلعة البوغاز الكبرى التي أنشئت زمن دخول الفرنسيات أرض مصر في القرية القديمة للسماة بقرية البرج التي هدمها بنو بارت سر عسكر الفرنسيات لقيام أهلها ليلا على عساكره وذبحوا منهم جملة ، وبني بأقاضيها تلك القلعة ، ولم يبق من آثارها إلا الجامع الذي وسطها ومنزل صغير به الآن حكمدارها ، ومن إنشاء المرحوم عباس باشا أيضا القشلاق الكبير الذي هناك على شاطئ النيل وجملة مخازن لليازود والمهمات العسكرية وصهرج كاف لشرب المساكر المراكطين بتلك القلعة مع أهل عزبة البرج الجديدة التي في شمال القلعة ، ومن إنشائه أيضا عمارة الكرتينة وعمل الجرك في جنوب القلعة على شاطئ النيل ، وفي جملة البوغاز شرقا وغربا قلعتان أنشئت في زمن الفرنسيات بصورة الاستحكامات الداعة للواقفة لأسلحة ذلك الوقت القريبة للمرى الضيقة التأثير ، وكانت قلعة الغرب مبنية بشكل سور مستدير محيط بالبرج القديم المستدير الذي به مقام الشيخ يوسف في محل يعرف برأس البر ، ثم إن ساحل البر من بوغاز دمياط إلى بورت سعيد لم يكن به قلاع سوى قلعة (الدية) القديمة التي بنيت في زمن الفرنسيات بشكل بلاطة مربعة وفي وسطها برج مربع شاهق يرى من مسافة بعيدة وبينها وبين بوغاز دمياط اثنتان وثلاثون ألف متر ، وكانت على شريط الساحل القليل العرض الفاصل بين الساحل وبحيرة المنزلة للحماية من دخول المراكب من أشتوم الدية القديم ، وكذا الساحل القريب من بوغاز دمياط لبوغاز بحيرة البرلس لم يكن به قلاع سوى قلعة بوغاز البرلس القريبة المحاذية لسراية طهوز اغلي حاكم البرلس سابقا ، وهي أيضا أنشئت في زمن الفرنسيات بشكل بلاطة مربعة ذات أبراج مستديرة ، وكان إنشاؤها بمعرفة الأمير (الجرال) مينو الذي تقلد إمارة مصر بعد موت الأمير (الجرال) الكبير كما دلت عليه النقوش التي وجدت على بابها ، وقد حفظ مع أقاضيها التي وضعت في بناء القلعة الجديدة ، وكانت أما كن تلك القلاع قبل دخول الفرنسيات مراكز للمراكطين للدافعة ، فلما رأوا أن مواقعها هي أعظم النقط اللاحقة للاستحكامات بنوا فيها تلك القلاع فحيت ممالها القديمة ما عدا برج ولي الله الشيخ يوسف الرابط فإنه لم يزل إلى الآن ؛ وفي زمن المرحوم محمد علي باشا قد رمت تلك القلاع وأجرى فيها بعض عمارات ؛ وكذلك في زمن المرحوم عباس باشا فإنه أنشأ أربعة أبراج في غرب بوغاز دمياط بينه وبين أشتوم الجمعة وهو مصب فرع بحر شين ، وأنشأ أيضا

رجاً فوق أشتوم الجليل في شرق قلعة الدبية ، وجميع ذلك كان بمعرفة جليس بك مدير عموم الاستحكامات المصرية ؛ وفي زمن الخديوى اسماعيل باشا قد أوصلت السكة الحديد والتفرافات إلى السنانية وأنشأ بها جملة مبان عسكرية ، ومنها قشلاق الفوريقة الجديدة المنشأة مع جملة فورقات في زمن العزيز محمد على باشا جعل لإقامة الألى بيادة بعد ما أضاف اليه جملة مبان كافية للوازمه ، ثم أنشأ قشلاقاً آخر بجملة السنانية قريباً من محطة السكة الحديد ، وأنشأ في غربيه استتالية للمسكر تسع خيماته سرير ، وأوصل خط التفراف إلى قلعة الزبة الكبرى وإلى قلاع البوغاز ، وأجرى بقلعة الزبة الكبرى جملة عمارات وترميات بداخلها وخارجها مع تجديد استرات خنادقها وبناء خطوط نيرانها القديمة وتسميك دوراتها حسب أصلها حتى صارت تقاوم مقذوفات العدو ، وعمر الجامع القديم الذى فى وسطها والنزل الذى هناك ، وأنشأ حول كل من القلاع القديمة والأبراج قلاعاً حصينة أقوى من تلك القلاع القديمة بأوضاع منارية لها كما أنشأ جملة قلاع من هذا القبيل على عموم السواحل وجعلها من أعظم القلاع الحصينة لأجل مقاومة الأسلحة الجديدة البعيدة الرى الشديدة التأثير ، وجعل لها قشلاقات لإقامة المساکر المرابطين بها ، ومخازن عظيمة للبارود والجلل والمهمات ، وقيادة تحصينها جعلها فى أسفل المراوى السميكة بحيث تأمن من تأثير مقذوفات العدو ، كما أنه وضع فى جميع هذه القلاع الدافع العظيمة الكافية ذات الميار الكبير والرى البعيد المروفة باسم مخترعها « ارمستريج » الانكليزى ؛ وجميع هذه الاستحكامات والمأثر جار على حسب التسميات الممولة بمعرفة أمير اللواء محمد باشا الرعشلى ياشمهندس عموم الاستحكامات وتنتد<sup>(١)</sup>

## الفصل السادس عشر

### المقاومة في الوجه القبلى

فرّ مراد بك من معركة الأهرام منهزماً أمام الجيش الفرنسى ، وكان نابليون يحسب لقوته حساباً كبيراً ، فبعد انتهاء المعركة وقبل أن يدخل القاهرة إلى الجنرال ديزيه Desaix احتلال المنطقة الواقعة جنوبى الجزيرة وإقامة الاستحكامات والمواقع انقاء لهجوم مراد بك ، ولكن مراد بك لم يفكر فى الهجوم بل اتجه بقلوب جيشه إلى الصعيد ليكون بعيداً عن هجمات نابليون ، وقصد إلى الفيوم واستقر عند ناحية البهنسا ، ولحق به المماليك الذين لم يرضوا أن يتبعوا ابراهيم بك فى فراره إلى سوريا

لم يفكر مراد بك فى مقاومة الجيش الفرنسى مقاومة جديّة ، بل معظم ما لقي الفرنسيون فى الصعيد إنما نالهم من الأهالى الذين شيدوا أزر المماليك فى مقاومة الجيش الفرنسى ، ولولا هذا التأييد وتلك المؤازرة لما سمع للمماليك صوت ولا انبعث لهم حركة بعد هزيمة امبابه

اعتم نابليون إخضاع الوجه القبلى إذ رأى أن بقاء قوة معادية فى الصعيد يهدد سلطة الحكومة المركزية ويكون مثابة المقاومة الأهلية ويسهل الملاخه فى النيل وبحبس النلال عن الوجه البحرى فيستهدف سكان القاهرة والدلتا وجنود الحملة للجائعة ، وقد تمطت الملاخه فى النيل فعلا فى الشهور الأولى من احتلال القاهرة ، وبحبس مراد بك فى الوجه القبلى السفن الحملة غلالا إلى القاهرة ، فاعتم نابليون احتلال الصعيد ، على أنه أراد قبل تجريد جيشه أن يسعى إلى الاتفاق مع مراد بك على أن يترك له مديرية جرجا وما يليها إلى الشمال ، ويكون تابجاً للحكومة الفرنسية فيؤدى الخراج الذى كان يخرج من هذه الجهات ، وكان المسيو روسى Rosetti قنصل النمسا فى مصر رسول المفاوضات بينهما ، فبث إليه نابليون بتعليماته فى الرسالة الآتية :

« المسكر العام بالقاهرة فى ١٤ ريميدور من السنة السادسة ( أول أغسطس سنة ١٧٩٨ )  
« إلى المواطن روسى ، عليك أن تذهب سراً إلى مراد بك ، وتخبره بأنك قدّمت لى الرسول الذى أوفده لى ، وأنت هذا الرسول قد ترك فى نفى أترأ سيئاً بثرثرته وأقواله الطائشة ، على أننى أدركت أنه قد يجمىء الوقت الذى أرى فيه من مصلحتى أن أنتفع بخدمات

مراد بك ، وأن آخذنا عضداً أميناً لى ، فلتخبره أى أقبل إذا تم الاتفاق بيننا أن تبقى مديرية جرجا فى حيازته على أن ينسحب إليها فى مدى خمسة أيام وأن لا أرسل إليها من ناحيتى أثينا من الجنود ، عليك أن تبلغه كذلك أنه إذا تم الاتفاق مبدئياً على هذه الشروط فن المحتل إذا ازدادت معرفة به وثقة بمقاصده أن أعاهده على مزايا أكبر ، عليك أن توقع وإياه على معاهدة اتفاق تكتب باللغتين الفرنسية والعربية وتكون مؤلفة على وجه التقريب من الشروط الآتية :

المادة الأولى — يستبقى مراد بك معه خمسمائة أوسمائه من الفرسان تكون عدته فى حكم مديرية جرجا من شلال أسوان إلى ما على جرجا شمالاً بنصف فرسخ وعليه أن يجعلها فى حأمن من هجمات العرب

المادة الثانية — يعترف مراد بك بأن يكون فى حكم المديرية المذكورة تابعاً لفرنسا وأن يدفع لخزانة الجيش الخراج الذى كان يجب منها

المادة الثالثة — يتعهد القائد العام من ناحيته بأن لا تحتل جنوده أى جهة من مديرية جرجا وأن يترك إدارتها لمراد بك

المادة الرابعة — على مراد بك أن يضى برجاله إلى ما وراء حدود مديرية جرجا فى مدى خمسة أيام ، ولا يسوغ لأحد من أتباعه أن يتخطى هذه الحدود إلى مديرية أخرى إلا بإذن من القائد العام<sup>(١)</sup> »

تلك هى التعليقات التى عهد بها نابليون إلى القنصل روسى ، ومنها يتبين أن نابليون كان راعياً فى الاتفاق مع مراد بك ، وهذا يتأى ما أعلنه فى منشوراته وبياناته للمصريين من أنه إنما جاء مصر لحاربة المالك وثلّ عرشهم وأنه لا يستريح ولا يهدأ له بال إلا إذا قضى على دولهم وعامهم من الوجود ، ولنا أن نستنتج من ذلك أنه كان يخاطب المصريين بلغة ، والمالك بلغة أخرى ، ولمعمرى ان اللتين مشتقتان من نعمة واحدة ، هى نعمة الفتح ولنة الاستعمار ، تلك اللنة التى مهما اختلفت أساليبها فأبها تؤدى معنى واحداً لا يتغير وهو إخضاع مصر وجعلها مطية للمطامع الاستعمارية

وقد زوّد نابليون القنصل روسى بتفويض كتابى يحوله حق توقيع المعاهدة مع مراد بك ، وإليك نص التفويض :

« إن القائد العام مدفوعاً بمواطف الإنسانية التي كانت على التوام رائده في أعماله يتحول للوطن روستى سلطة التفاوض مع مراد بك والاتفاق معه على شروط معاهدة تنهى حالة الحرب بينهما والتوقيع على هذه المعاهدة (١) »

والظاهر أن مراد بك كان معتزاً بقوة ، معتقداً أنه باعتصامه في الوجه القبلى لا يستطيع الفرنسيون أن يغالوا منه متللاً وبخاصة إذا وثق من معاضدة الأهالى وتأيدهم ، فرفض شروط الصلح أو بعبارة أخرى رفض التسليم ، فزم نابليون على تجريد الجيش للقضاء على قوته من جهة وإخضاع سكان الوجه القبلى من جهة أخرى ، وإذا تبتت خطوات الجيش الفرنسى في الحملة على الصعيد وجبت أنه أفلح في القضاء على قوة مراد بك ، ولكنه أخفق في الفرض الثانى وهو إخضاع الأهالى

جمل نابليون الجنرال ديزيه قائداً للحملة على الوجه القبلى ، وكانت الحملة مؤلفة من نحو خمسة آلاف (٢) من المشاة والفرسان والدفعية والمهندسين مزودين بالأسلحة والذخائر والمدافع الحديثة والسفن الحربية ، وقد ظل الجنرال ديزيه مرابطاً في الجزيرة يترقب الفرصة للبدء في القتال ، فلما بلغ القبضان حداً مناسباً صدرت له الأوامر بالزحف ، وكانت جهته عسرة شاقة ، فقد دلت وقائع الوجه القبلى على أن المقاومة التي لقيها الجيش الفرنسى في أنحائه كانت أشد ما أصاب الفرنسيين في مصر ، لأن طبيعة البلاد في الصعيد ، وبعد المسافات ، وصعوبة للمواصلات ، وأخلاق السكان ، جعلت الجيش الفرنسى يقابل حركات ثورية ذات صبغة حرية منظمة ، قال القومندان دى لاجونكبير في هذا الصدد : « إن المقاومة التي لقيها الجنود الفرنسية في الوجه البحرى كانت في التالاب ذات صبغة محلية ، ولكن فرقة الجنرال ديزيه هي التي اضطرت أن تواجه حركات حرية حقيقية (٣) »

### تحرك الحملة — احتلال بنى سويف

أقلت السفن بالحملة من مصر القديمة والجزيرة في أواخر أغسطس سنة ١٧٩٨ تحرصها بعض السفن المسلحة ، وسار جزء من الحملة على شاطئ النيل ، فوصلت إلى ( أطفيح ) واستراحت قليلاً وهناك انضمت إليها كتيبة الجنرال رامبون Rampon التي كان يرباط

(١) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٩٢٢

(٢) هذا الإحصاء مأخوذ من مذكرات نابليون التي أملأها على الجنرال برترمان في سانت هيلين

(٣) تاريخ حملة مصر الجزء الثالث

بألفنيخ من قبل ، ثم أقلت السفن من ألفنيخ ووصلت يوم ٣١ أغسطس إلى بنى سوف واحتلتها بدون مقاومة ، وبقى بها الجزال ديزيه عدة أيام يستطلع أخبار الماليك وينتظر وصول النخائر والمؤونة من القاهرة ، وهناك علم أن مراد بك مرابط في ناحية البهنسا بين بحر يوسف والجبل وأنه جمع أسطوله في هذا البحر يحمل زاده ومؤوته وذخيرته وكان لابد للوصول إلى موقع مراد بك على بحر يوسف والاستيلاء على أسطوله أن تمضى الحملة في النيل إلى دروط ، وهي مأخذ بحر يوسف <sup>(١)</sup> ومن ثم تنحدر فيه إلى أن تلتقى بقوة الماليك ، فتحركت من بنى سوف يوم ٤ سبتمبر صباحاً ووصلت في مساء يوم ٥ تجاه ( أبو جرج ) ، وكانت أم مدينة في المديرية بعد بنى سوف <sup>(٢)</sup>

### احتلال البهنسا

عزم ديزيه على أن يكشف مواقع مراد بك وأن يفاجئه برأ في البهنسا ، فنزل إلى البر تجاه ( أبو جرج ) ومعه جزء من الجيش ، وسارت القوة برأ حتى وصلت إلى البهنسا الواقعة على بحر يوسف ، وقبل أن تصل إليها شعر مراد بك باقترابها ، فأمر بانسحاب أسطوله إلى أسيوط حتى لا يقع في أيدي الفرنسيين ، وأخلى البهنسا ، فاحتلها ديزيه واستولى فيها على عدة مراكز للماليك لم تستطع اللحاق بالأسطول ، وأخذ ما بها من الذخيرة والذلل ، وعلم أن مراد بك انسحب إلى اللاهون <sup>(٣)</sup> ورابط بها ، وأن محمد بك الأتقي رابط في منتصف الطريق بين البهنسا واللاهون ، وأن أسطول مراد بك سار إلى أسيوط طادت فرقة الاستطلاع إلى ( أبو جرج ) يوم ٧ سبتمبر ، ثم تحركت الحملة كلها صاعدة في النيل ، ووصلت إلى النياقي مساء ٩ سبتمبر ، وفي يوم ١٠ منه وصلت تجاه ملوى ونابت طريقها حتى وصلت يوم ١٢ سبتمبر تجاه دروط ، حيث يتفرع بحر يوسف

### تعب أسطول للماليك إلى أسيوط

عزم ديزيه أن يستمر جنوباً حتى أسيوط ليستولى على أسطول مراد بك ، وقد علم أن معظم بحارته من الأروام الذين يمكنه استألتهم إليه ، فدرس إليهم رساله لهذا الغرض <sup>(٤)</sup>

- (١) يتفرع الآن بحر يوسف من التربة الإبراهيمية عند دروط
- (٢) كانت ( أبو جرج ) تتبع مديرية بنى سوف ، وهي الآن من بلاد مركز بنى مزار بمديرية للنيا
- (٣) عند مدخل مديرية القيوم حيث القنابر للنشأة باسمها عند فتحة الجبل التي يمر منها بحر يوسف
- (٤) رسالة ديزيه إلى نابليون في ١٢ سبتمبر سنة ١٧٩٨

ترك الجنرال ديزيه قسما من قوته في ديروط على مدخل بحر يوسف لاحتلال هذا الموقع ومراقبة الملاحه في النيل وانتظار الكتيبة التي استولت على مهاكب المالك في بحر يوسف ومضى إلى الجنوب ومعه جزء من جيشه في السفن قاصداً إلى أسبوط

فوصل إليها يوم ١٤ سبتمبر سنة ١٧٩٨ فلم يجد أسطول المالك ولم يوفق إلى الاستيلاء عليه ، إذ تمكن قبل وصول ديزيه من الإفلات قاصداً جرجا ، ولم يرد ديزيه من العوالب أن يخفى في زحفه ، خافه أن يعتمد عن بقية جنوده الذين كانوا يرابطون على مدخل بحر يوسف

### رجوع ديزيه إلى القيوم

عزم ديزيه على أن يرجع إلى ديروط ، فكانت رحلته الأسبوطية عقيمة لأنه لم يظفر بأسطول المالك ولا واجه قوتهم ، وأضاعت عليه هذه الرحلة ثمانية أيام اغتنتمها مراد بك ليقوى صفوفه في القيوم ، وانحاز إليه عدد كبير من الأهالي وحالفوه على الفرنسيين ، واتخذ هو وحلفاؤه معسكرهم في اللاهون

ثم وصل ديزيه إلى ديروط يوم ٢١ سبتمبر وبقى بها ثلاثة أيام ينظم الحملة على القيوم ، وأتت السفن الفرنسية مراسيها في النيل ولم تستطع السير في بحر يوسف ، وأخذت سيفستان منها تبسان في النيل من بعد سير الحملة الفرنسية في بحر يوسف إلى بني موف ، وبقيت السفن الأخرى تجوب النيل ما بين مغاوط وملاوي والنيا لتراقب تصدر الغلال من هذه البلاد إلى القاهرة

لم تكن الحملة على القيوم مهلة للتنفيذ ، فإن الملاحه في بحر يوسف كانت شاقة لفريق النهر ، فضلا عن استهداف الراكب الفرنسية من الجانبين لهجمات الأهالي والمالك

وقد بدأت المراكب الفرنسية تسير في بحر يوسف يوم ٢٤ سبتمبر قبيل شروق الشمس وكان سيرها محفوفاً بالمصاعب لكثرة تعاريج بحر يوسف ، ولهبوب الرياح من الصحراء ، وقلة غور المياه فيه ، فكان الجنود يضطرون إلى جر المراكب بالحبال

وصلت فرقة الجنرال ديزيه إلى البهنسا يوم أول أكتوبر ، وهناك علموا أن مراد بك مرابط بجبهة اللاهون ، فتابعت السفن سيرها حتى اشتبكت بطلائع المالك والأهالي في ٣ أكتوبر بناحية (القايات) ، وكانت هذه الطلائع مكونة من ١٥٠ من العرب و١٥٠ من المالك ، فاضطر الجنرال ديزيه إلى إزاله كتيبة من جنوده إلى الشاطئ ، ونزل هو بنفسه لخاربة المهاجمين وتشتيتهم ، ثم أخذت الكتيبة تسير على الشاطئ جذاء السفن لحراستها



وفي اليوم التالي كانت قوة من الأهالي والماليك تقرب السفن على شاطئ البحر لتطلق عليها النار ، ولم يستطع الجندال ديزيه إنزال جنوده إلى الشاطئ لأن مياه الفيضان كانت تضر الأرض هناك ، فاضطر إلى التراجع على مسافة نصف فرسخ ، ليتمكن من اختيار مكان ينزل به جنود الفرقة جميعها ، وسارت الفرقة بطريق البر بعيداً عن الشاطئ ، واتجهت سوب والماليك والأهالي ، فانسحب هؤلاء وكانوا تحت قيادة محمد بك الألفي

### واقعة سدمنت

٧ أكتوبر سنة ١٧٩٨

واصلت الفرقة سيرها رآ في اليوم التالي - ٥ أكتوبر - فشاهد الجندال ديزيه عن بعد جيش مراد بك مرابطاً في المرتفعات المشرقة على بحر يوسف ، فأراد أن يهاجمه ، لكن مراد بك تهقر شمالاً ، وتعبه ديزيه طول النهار فلم يستطع اللحاق به إذ كان جنوده قد أنهكهم التعب من سيرهم في رمال الصحراء

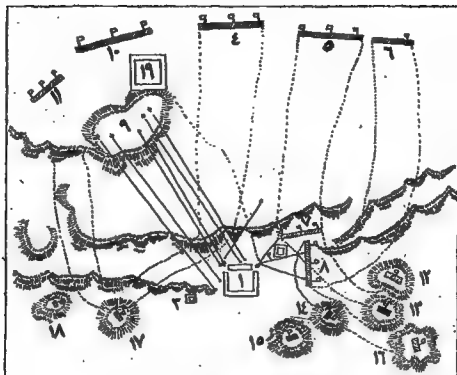
وفي يوم ٦ أكتوبر بدأ الأهالي والماليك يناوشون طلائع الجيش الفرنسي ، فأقبل الجيش يهجم عليهم ولكنهم انسحبوا ليرابطوا في مواقع حصينة ، وفي صباح اليوم التالي (٧ أكتوبر) أخذت الفرقة تتابع سيرها حتى اقتربت من « سدمنت » وهي بلدة صغيرة واقعة غربي بحر يوسف <sup>(١)</sup> وهناك التقى الجمعان على مقربة من هذا البلد ، ودارت معركة من أشد المارك هولاً ، كانت تستحق فيها قوات ديزيه لولا قوة المدفعية الفرنسية

كان مراد بك قد جمع قوة كبيرة من أهالي القيوم فرساناً ومشاة وتحصن في آكام سدمنت ، وكان هو وحلفاؤه المصريون قد أعدوا معدات الهجوم وقوى أملهم في سحق الجيش الفرنسي لقلة عدد جنوده بالنسبة إليهم ولتناميته في الصحراء وفي بلاد معادية بعيداً عن قواعده الحربية

كان عدد الماليك والمصريين في هذه الموقعة يزيد على ضعف الجيش الفرنسي ، وكانوا يحتلون مرتفعات حصينة ، ولكن فرقة ديزيه امتازت بالنظام الحربي وكفاية القيادة وقوة المدفعية وكثرة الذخيرة ، فلما اقتربت الفرقة هجم عليها الأهالي والماليك متحدين من المرتفعات التي كانوا يتصمون بها ، وكان عدد الفرسان من أربعة آلاف إلى خمسة آلاف فارس هجوموا

(١) في الجنوب الغربي للامون وهي متصلة بالجبل الغربي وتاجية الآن لمركز بني سويف وتسمى ( سدمنت الجبل )

خريطة معركة سلطنت



تتألف من خريطة قديمة مودعة في محفوظات وزارة الحرية الفرنسية منذ سنة ١٨٠٠ لضمها  
 الفونتان دي لا جونكير سنة ١٨٩٩

- (۱) موقف جيش الجنتال ديزه عند التأهب للقتال  
(۲ و ۳) ملائح جيش ديزه  
(۴ و ۵ و ۶) موقف جيش مراد بك عند تأهب لهجوم  
(۷ و ۸) هجوم جيش مراد بك على ملائح الليمنة  
(۹) منافع مراد بك  
(۱۰ و ۱۱ و ۱۲ و ۱۳ و ۱۴ و ۱۵ و ۱۶ و ۱۷ و ۱۸) هجوم جيش مراد بك على الجيش الفرنسي  
(۱۹) موقف جيش ديزه بعد استيلائه على منافع الماليك وانسحاب قوات مراد بك

على قرع الطبول بحماسة عظيمة ، وأحاطوا بجيش الجزائر ديزيه من كل سوب وكانوا أكثر عدداً وأشد حماسة من الأعداء ، لكن نأر المدافع الفرنسية فتكت بهم فتكاً ذريعاً وكسرت مجملتهم ، فأعادوا الكرة ثانية وثالثة عثل الحمية التي هجموا بها أول مرة ، ودامت الموقعة عدة ساعات لا تتخذ حماسة المهاجمين ولا ينصف أملهم في النصر ، وكان مراد بك قد نصب على أكمة تشرف على ميدان القتال ثمانية مدافع أخذت تطلق النار على الجنود الفرنسية فأوقعت بهم خسائر جسيمة ، وكانت تدور الدائرة على الجيش الفرنسي لولا أن أمر ديزيه بالهجوم العام على مصدر الخطر فهجم جنوده على موقع المدافع واقتضوا على رجالها وقتلوا بعضهم وأجلوا البعض الآخر ، وهجمت جوع الأهالي والماليك مرة أخرى على الجيش الفرنسي



معركة سلمت — ١٧ أكتوبر سنة ١٧٨٨ — كارسها السور فيمان ديدون في حينها ، وهذه الصورة  
تخل هجوم الفرنسيين على الأكفة التي بها مدائن مراد بك واختراقهم الوادي الذي يفصل بين الجبلين  
وتركهم جرحا على الأكفة التي كانوا يرايون بها ، وهجوم المصريين على تلك الأكفة ، وترى في الصورة  
جرحى الفرنسيين وقد تولاهم الرعب لاقتراب الفرسان المصريين من الأكفة ، وأحد الجرحى يحاول عبثا أن  
يحمل زبلا جرحيا ، وآخر ينطلي وجهه بنزلة حتى لا يشهد هجوم الفرسان المصريين ولا يرى الموت بينه

وأنزلوا بالفرنسيين خسائر فادحة ، لكنهم اضطروا إلى التقهقر بعد ما أفتت نيران المدافع والبنادق عدداً كبيراً منهم وتركوا في الميدان أربعة مدافع غنمها الفرنسيون ، وانتهت الواقعة بانتصار الجنرال ديزيه ، وبلغت خسائر الفرنسيين كما قدرها الجنرال برتييه Berthier ٣٤٠ قتيلاً و١٥٠٠ جريحاً ، وقدر الجنرال ديزيه خسائر المصريين بأربعمائة قتيل

سميت هذه المعركة واقعة «سدمنت» ، وهي تعد في تاريخ الحملة الفرنسية من المارك المهمة التي كان لها أثر كبير في سير القتال وتطور الأحوال ، وهي تلي واقعة الأهرام في الأهمية ، لأنها قضت على آمال مراد بك في أن ينتصر في معركة منظمة ، وفتحت أمام ديزيه إقليم القيوم النقي بمزروعاته

تتير وجه القتال بعد هذه المعركة فصارت الحرب مقاومات محلية تتجدد تبعاً للأحوال والمناجحات ، وكان هذا النوع من المقاومة أشد خطراً على الجيش الفرنسي من المارك المنظمة قال ( ديويو ) يصف هذا التطور : « إن مراد بك قد أخذ عن العرب حرب المناوشات والمارك المتفرقة ، فلم يبدأ للفرنسيين بال ولم يستقر لهم قرار خلال الحملة على الصعيد بل كانوا هدفاً للفجائن والمارك غير المنتظرة

« وكان هذا النوع من الحرب أشد خطراً على الفرنسيين من المارك المنظمة لأنهم يقبوا الراحة والطمأنينة ، واضطرتهم هذه المقاومة إلى مداومة الحملات والرحلات التيهكة للقوى ، دون أن يتمكنوا من التغلب على خصم لا يُنال »

انسحب مراد بك وحلفاؤه غرباً ، وأوغلوا في الصحراء حتى استقروا وراء بركة (الفرق) وهي بركة كبيرة واقعة جنوبي القيوم بقرية<sup>(١)</sup> ، واحتل ديزيه في اليوم نفسه قرية سدمنت ، وتكبد الفرنسيون متاعب شاقة في هذه المعركة ، وأضنام السير في الرمال ، وعلى التلال والآكام القابعة بتلك الجهات ، فلم يفكر ديزيه في اللحاق بمراد بك ، وعزم على إراحة جنوده من الأحوال التي كابدها ، وسار بهم إلى اللاهون ، وقرية هناك ينتظر الفرصة ليعاود كرة الهجوم على الأهالي والماليك

وعسكر هو وجنوده في اللاهون من ٩ إلى ١٢ أكتوبر سنة ١٧٩٨ ، واستراحوا في خلالها ، وأرسل الجرحى منهم إلى القاهرة ، ثم سار قاصداً مدينة القيوم عاصمة المديرية ، فوصلها يوم رحيله ولم يبق بها إلا بضعة أيام ، ثم أخلاها خوفاً على مواصلات جيشه أن تنقطع إذا ابتعد كثيراً عن النيل ، ولأنه علم أن الماليك والعرب لما تحققوا وجوده في مدينة

• (١) في الجنوب الغربي لقرية ( الفرق السلطاني ) بمركز الها الآن



منظر آخر لمركه سمنت ٧ أكتوبر سنة ١٧٩٨ — (قلا عن مجموعة رسوم السيو فيليان ديون)  
 منظر الأكمة التي اضطر الفرنسيون أن يخلوها ويتركوا بها جرحهم ليهجموا على مواقع مراد بك ، وترى في  
 الصورة أحد الجنود الفرنسيين ترك زنباه جرحاً وقد خلق بضره ظلمها ليجو بنفسه من الموت ، وترى  
 من بعد موقع الأكمة التي بها مراد بك

القيوم ، عزموا على الرجوع إلى معقلهم الأول في سدمنت على بحر يوسف ، وبذلك يتهددون مواصلات الجيش الفرنسي ، فبادر به إلى اللاهون يوم ١٦ أكتوبر ، واعتزم أن يباود تعقب المالك والأهالي ، لكنه وجد صعوبة كبرى في تعقبهم لأن ماء الفيضان كان في ذلك الحين يفر البلاد فيحول دون تقدم الجيش واتصاله بالقرى ، وكانت المؤن والزاد قد قصت ، والأمراض فتكت بالجنود ولا سيما الرمد

### فتك الرمد بالجنود

فتك الرمد بعدد كبير من الجنود ، وكانت مياه بحر يوسف ورداءة الطعم والمتاعب التي تقيها الجنود من السير في الرمال أم الأسباب في انتشار هذا المرض بينهم ، وقد فتك بهم فتكا ذريعاً ، وأصيب به لأول مرة ثمانمائة جندي ضربة واحدة ، وأخذ يستفحل حتى أصبح خطراً على الجيش الفرنسي أعظم من خطر المارك والحروب ؛ كتب الجنرال ديزيه إلى نابليون في رسالة له من اللاهون بتاريخ ٢٠ أكتوبر سنة ١٧٩٨ يقول :

« إن أمراض الميرون هنا كارثة عظيمة حلت بالجيش ، فقد حرمتني الانتفاع بألف وأربعمائة من رجالي ، واضطرت أن أسحب منهم وراء الجيش مائة فقدوا بصرم تماماً ، ولا يمكنني أن أنقب مراد بك إلا إذا سد النقص في صفوف جيشي وباغ عدد الفرقة ثلاثة آلاف مقاتل ، وقد أنشأت هنا مستشفى لثلاثة مريض ، وأرسلت إلى النيل أربعمائة مريض آخرين ، ومن الواجب الإسراع في سد النقص كما أستطيع تعقب مراد بك ، فإن بحر يوسف بعد قليل من الأيام لا يعود صالحاً للملاحة إذ تجف المياه فيه ، وإن مركزنا هنا محفوف بالمتاعب ، ولو كانت الحملة التي أقودها على ضفاف النيل لكان الأمر ، ولكني أحارب في الصحراء حيث لا توجد طرق للمواصلات ، ولا وسائل للنقل حتى ولا للجنود المرضى » ؛ وبقى ديزيه في اللاهون ينتظر تعليمات نابليون

### الموقف الحربي في بني سويف والقيوم والنيا

لم يكن انتصار الفرنسيين في واقعة سدمنت ليوطد مركزهم في الوجه القبلي ، وبالرغم من أن الجيش الفرنسي قد فتح في طريقه ثلاث مديريات ، وهي بني سويف والنيا والقيوم ، وهزم مراد بك هزيمة كبرى ، فإن الحالة ظلت مضطربة في تلك المديريات وسلطة الفرنسيين تكاد تكون مجهولة عند الأهالي ، ولم يستطع الفرنسيون لاضطراب الأحوال أن يحصلوا من تلك المديريات على ما يلزمهم من التلال والخياد ، فقد حدث أن الجنرال ديزيه ترك بعض

وجاله في بنى سويف للقيام على شحن التلال ، وفي أثناء حملته النيلية إلى أسيوط هجم الثوار على بنى سويف وأسروا هؤلاء الرجال واستولوا على التلال التي وجدوها ، وعين نابليون الجنرال (زايمونشك) قومنداناً لمديرية بنى سويف في أوائل أكتوبر ، وأرسل معه كتيبة من الجنود وكلفه تنظيم هذه المديرية ، وكلف الجنرال ديزيه تنظيم مديرتي النيا والقيوم

أما في النيا فكانت الحالة أكثر اضطراباً وأقل استقراراً ، وكانت سفينة فرنسية حربية تجوب هذه الجهات وتحمل القوة التي بالشاطئ من هجمات الأهالي ، ونزلت بالنيا فصيلة من الجنود ليتزودوا منها وأبوا أن يدفعوا ثمن ما اشتروه ، فثار الفلاحون الذين كانوا بالسوق وقتلوا من الجنود خمسة وجرحوا منهم ثمانية ، وكاد يشتري الهياج لولا الحكمة من سكان البندر ، وأصدر الجنرال ديزيه لمناسبة هذه الحادثة أمراً مشدداً بقمع كل نهب يقع من الجنود ، وإحالة كل من ثبت عليه أنه اغتصب شيئاً من الأهالي على مجلس عسكري لها كفته طبقاً للقوانين العسكرية

ولم تكن حملة الجنرال ديزيه في بحر يوسف على اتصال بالسفن الفرنسية التي بقيت في النيل ، فقد انقطعت المواصلات بينهما منذ نزل الفرنسيون بسفهم من ديروط ، ولم تصل إلا بعد أن استقرت الحملة في اللاهون حيث شرع الجنرال ديزيه في إيجاد الصلة بالنيل ليتمكن من إرسال الجرحى والمرضى إلى القاهرة ، ومن ثاقى الدم والمؤن والتخاير ، وليستطيع الاتصال بالقوات الفرنسية في بنى سويف والنيا

وكان نابليون شديد الرغبة في أن يتقرب ديزيه قوات الأهالي والماليك للقضاء عليها ، وقد حمل ياوره ديروك Duroc أمره إلى ديزيه بأن يهاجم مرهاد بك ويقضى على جيشه قبل نهاية الفيضان ، لكن ثورة القاهرة التي نشبت في ٢١ أكتوبر حالت دون سفر ديروك ، وفي خلال ذلك وصلت رسالة ديزيه للورخة ٢٠ أكتوبر ، فأدرك نابليون مبلغ ما عااه الجنود الفرنسيون من المتاعب والمشاق وحاجتهم إلى الراحة ، فأرسل إليه يطلب منه اختيار موقع صالح لميسكر فيه الجنود ، وكلفه إخضاع مديريات بنى سويف والنيا والقيوم

وكانت مهمة الجنرال ديزيه شاقة ، لأن الماليك والأهالي قد رابطوا في الصحراء فلا تستطيع القوات الفرنسية أن تحيط بهم ، وكان الأهالي لا يتفكرون يناوشون هذه القوات في اللاهون

فتكت المارك والأحراض بالجنود الفرنسية فتكا ذريماً ، فنزل عددهم إلى ألفين ،

ولم يكن فى استطاعة ديزيه أن يخضع بنى سوف والنيا والقيوم بهذا العدد لبعد السافات بين البلاد ، وما غمر الأرض من الفيضان ، فلا يسهل أن ينتقل الجنود من بلد إلى بلد ، ولأن الجنود قد أمهكهم التعب ، فاختار مدينة القيوم ليستقر فيها مع فرقته

### احتلال مدينة القيوم

#### وإخاد الثورة فى القرى المجاورة

انتقلت فرقة الجنرال ديزيه إلى مدينة النيوم فى أواخر أكتوبر سنة ١٧٩٨ طلباً للراحة من عناء المعارك والتناوشات<sup>(١)</sup> وعسكر الجنود فى حديقة كبيرة شمالي المدينة ، وأقاموا على بحر يوسف جسراً من الرأكب الثلاثة لانتقال الجنود بين الشاطئين

وأخذ الجنرال ديزيه ينتظر للدد من نابليون ويستمد لاستئناف الهجوم على مراد بك ، وشرع يُنظّم الإدارة فى مديرية القيوم ويجمع الخيول من القرى ، لأن الحملة كانت تنقصها قوة الفرسان ، لكن مياه الفيضان كانت تعطل حركات الجنود فى هذه المديرية فلقى ديزيه عتلاً شديداً فى تحصيل الضرائب ومصادرة النلال وجمع الخيول من القرى ، وزاد فى متاعبه أن معظم القرى قد أمسك أهلها فلم يبدلوا شيئاً مما كان يطلب منهم ، وأحس ديزيه روح التمرد والصيان ، فغزم على تجريد حملة عسكرية لإخضاع القرى وإكراهها على تسليم ما يفرض عليها ، وقد عزا الفرنسيون هذه الحالة الثورية إلى تمريض مراد بك ، وقال الجنرال دوتزلو Donzelot فى رسالته إلى الجنرال برتنيه<sup>(٢)</sup> إنه تحقق أن مراد بك أوفد على كاشف .ومعه ١٥٠ من المماليك لتحريض البلاد على الثورة وتنظيم المقاومة ، وسواء أتمحت رواية دوتزلو وكان التحريض أو كانت البلاد مستعدة للمقاومة من تلقاء نفسها فما لا جدال فيه أن روح الثورة قد سررت فى القرى ، والأقرب إلى الواقع أن هذه الروح طليعية ولولاها لما وجد المماليك ذلك العدد الجم من الأهالى ينادون على مناوشة الحملة الفرنسية والكيد لها

(١) كانت مدينة القيوم كما هى الآن من أمهات مدن القطر ، بلغ عدد سكانها فى ذلك العصر خمسة آلاف نسمة ، ويقول كلوث بك إن عدد سكانها فى عصر محمد على بلغ ١٢٠٠٠ واشتهرت بنسج الصوف والظن والسكتان ، وامتازت بمجودة صوفها الأبيض وهوقت به فى صناعة شيلان الصوف البيضاء التى كانت ترسل منها كميات كبيرة إلى القاهرة والوجه البحرى ، ويقول اليسو جومار Jomard أحد مهندسى الحملة الفرنسية إن الفواضل التى كانت تسير من القيوم إلى القاهرة كانت يحمل معها كل أسبوع أننى شال عما يصنع فى مدينة القيوم

(٢) رسالة دوتزلو إلى برتنيه فى ١١ نوفمبر سنة ١٧٩٨



ولما بدأت مياه الفيضان تنحسر عن البلاد وأرُخِست عن حركات الجنود اعترم ديزيه أن مجرد حملة على القرى الثائرة فترك في مدينة القيوم كتيبة من الجنود تقوم على حراسة معسكر الفرقة وسار بياقي المسكر يوم ٦ نوفمبر لإخماد حركات الميهاج والثورة ، فأخضع في طريقه (مطرطارس) <sup>(١)</sup> و (سيله) <sup>(٢)</sup> و (مرسنا) <sup>(٣)</sup> ، ولقي الفرنسيون مقاومة شديدة من أهالي مرسنا فقد نأهبوا للقتال وعلى رأسهم على كلشيف ولكنهم لم يجدوا القوة على مقاومة نيران الفرنسيين فانسحبوا من القرية واستولى الفرنسيون عليها وتجمع الأهالي بعيداً عنها على مرى الدفع وانضم إليهم جماعة من العرب ، فأمر الجنرال ديزيه بإطلاق النار عليهم فشتت جمعهم وتبادل الفريقان الضرب وأطلق الأهالي بنادقهم فجاءهم الفرنسيون بضرب المدافع فانسحبوا وأوغلوا في الصحراء ونهب الفرنسيون القرية وأضرموا فيها النار <sup>(٤)</sup> ثم تابعت الحملة سيرها فوصلت نجاء قرية الروضة <sup>(٥)</sup> وكان الليل قد أقبل فسكرت الحملة بالتقرب من الروبيات <sup>(٦)</sup>

أذعن هذه القرى وسلت الإتاوات المطلوبة منها ، ولكن الأهالي والماليك رأوا انشغال الفرنسيين باخضاع هذه القرى فهاجموا مدينة القيوم يوم ٨ نوفمبر سنة ١٧٩٨ مهاجمة شديدة فاضطرت الحملة أن ترجع إلى عاصمة المديرية

### هجوم الثوار على مدينة القيوم

وتفصيل هذا الهجوم أن الأهالي من الفلاحين والعرب ثاروا في القرى وهزموا أن يستولوا على مدينة القيوم ، ففي ٨ نوفمبر الساعة الثامنة صباحاً ظهرت أمام المدينة طلائع الثوار وفي نحو الساعة الحادية عشرة أقبلت جموعهم وهجموا على معسكر الجنود فتأهبت القوة الفرنسية للقتال ، وكان قائدها الجنرال روبان Robin مصاباً بالرمد فأناوب عنه الكولونيل هبلر Hoppler ، وفي منتصف الساعة الثانية عشرة هجم الثوار على أسوار المدينة فتقدمهم طبول الحرب وعلى رأسهم قواد من الماليك ، وكانت الدوريات الفرنسية تحرس بعض مداخل المدينة فدافقت عنها دفاعاً شديداً ، لكنها اثنت على أعقابها إلى الداخل واقتحم الثوار الشوارع

(١) و (٣) من بلاد مركز سنورس

(٢) بمركز القيوم

(٤) رسالة دثزلو إلى الجنرال برتييه في ١١ نوفمبر سنة ١٧٩٨

(٥) و (٦) بمركز سنورس

يزيدون منزل على كاشف وفيه الجنود الفرنسيون ، وكان عدد المهاجمين كثيراً قد رُم الجنرال ديزيه في تقريره بثلاثة آلاف مقاتل ، ويقول ريبو<sup>(١)</sup> : « إنهم خمسة من المالك ومعهم فصيلة من فرسان العرب وألقان من الفلاحين » ، فلما وصلوا إلى المنزل قاذف الرصاص بين الفريقين وكان موقع الفرنسيين منيعاً لأن هذا المنزل كان يحكم التحصين ، فكان الجنود يطلقون النار من النوافذ ومن الأسطحة وبذلك أصابوا المهاجمين نارا شديدة ردتهم على أعقابهم فانسحبوا تاركين عدداً كبيراً من القتلى ثم جاءهم المدد فاستأنفوا الهجوم في الساعة الرابعة بعد الظهر ولكنهم ارتدوا ثانية أمام نار الجنود الفرنسية وأخفق الهجوم وغطيت الشوارع بمحش القتل والجرحى ، وبلغ عدد القتلى من الأهالي نحو مائتين وكان عدد الجرحى كبيراً ، أما المالك فإنهم لم يخسروا غير أربعة قتلى وعشرة جرحى ، وكانت خسائر الفرنسيين قليلة فإنهم لم يرموا خطة الدفاع وكانوا متحصنين لا مكشوفين فخسروا أربعة قتلى و١٦ جرحاً يتبين من هذه المقاتلة أن الأهالي هم الذين تحملوا معظم الخسائر وكان منهم أكثر الضحايا ، في حين أن المالك لم يخسروا إلا عدداً مت قليلاً جداً ، وقد ثبت من هذه الواقعة وغيرها أن هؤلاء المالك كانوا يفتنون بأنفسهم ويحرصون على أرواحهم في ميدان الحرب والقتال<sup>(٢)</sup> ولم تكن هذه القاصد لتخفى على الأهالي فإنهم أدركوا أن القوم لا يريدون إلا أن يتخذوهم مطية لقضاء لبا نالهم ، فاستقلوا الثقة فيهم ، وكانت هذه الحالة النفسية من أهم الأسباب التي قضت على نفوذ المالك وسلطتهم في البلاد ، فلم تهم لهم بعد الحملة الفرنسية قائمة موقف ديزيه في الوجه القبلي

رجع ديزيه إلى مدينة الفيوم بعد أن أخفق هجوم الثوار عليها ، على أن هذا الهجوم كان دليلاً على استهانة الثوار بالقوة الفرنسية وتجربتهم عليها ، فأدرك ديزيه أن قلة جنوده كانت من أهم أسباب الحالة الثورية التي داعت في البلاد ، ورأى أن لا سبيل إلى الناصرة في فتح الوجه القبلي إلا إذا جاءه المدد الكافي للقيام بهذه الحملة الطويلة المدى ، فأثر الانتظار ووضع الحاميات الكافية في البلاد التي يحتلها لإخضاع وقع الثورات التي عسى أن تشب فيها ، وكانت المارك والأمراض قد أفرغت من صفوفه ، فكان لا بد له من سد هذا النقص الكبير كان ديزيه يلح قبل هجوم الثوار على الفيوم في طلب المدد من نابليون ، فكلف نابليون

(١) التاريخ الملى والحرب لرحلة الفرنسية الجزء الثالث

(٢) جاء في تقرير الجنرال ديزيه عن هذه الواقعة « أن المالك على جانب عظيم من الحزم والحزم فم لا يستهدفون القتل بل يرضون غيرهم القتل »

الجنرال بليار الذى كان فى ذلك الحين قومنداناً للجيزة أن يسير بقوة إلى الفيوم ، وكان الجنرال أندريوسى قد عاد من مهمته بالنزلة فجعله قومنداناً للجيزة

وسار بليار من الجيزة بالقوة التى كانت معه فوصل يوم ١٢ نوفمبر سنة ١٧٩٨ إلى (الزاوية)<sup>(١)</sup> وهناك وصلته أنباء انتصار فرقة الجنرال ديزيه على القرى الثائرة فاستراح فى الزاوية ينتظر تعليمات الجنرال ديزيه ، فأمره أن يبق فى بنى سويف ليعاون الجنرال زابونشك فى مهمته ، ذلك أن ديزيه قد تلقى من بنى سويف أنباء تدل على أن فيها استعداداً لثورة كالثورة التى شبت فى الفيوم ، فرأى من الحكمة أن يبق الجنرال بليار فى بنى سويف لتوطيد سلطة الفرنسيين بها ، على أن مركزهم فى بنى سويف كان أقوى منه فى الفيوم لوجود السفن الفرنسية الحربية فى النيل

وكان ديزيه لا يفتأ يطلب المدد والمساعدة والسخائر والمهمات من نابليون ، وقد ألح فى طلب قوة كبيرة من الفرسان ، لأنها الوسيلة الوحيدة للتنلب على قوات المقاومة فى الوجه القبلى ، وبدونها لا يزال يستطيع الأهالى والماليك يفلتون من الجيش الفرنسى ، فلا يستطيع اللحاق بهم ولا تعقبهم فى الصحراء ، وتبقى قوتهم تتحين الفرص لمباوشة الفرنسيين وإرهاقهم وتكبيدكم ما يستطيعون من الخسائر ، وكان إخضاع الصعيد من أهم المقاصد التى وجه إليها نابليون اهتمامه ، وبخاصة بعد أن شحنت النلال فى القاهرة والوجه البحرى ، فإن انقطاع المواصلات مع الصعيد منع ورود النلال وكان سبباً فى ازدياد أسعارها ارتفاعاً أدى إلى تذمر الناس وهياج الخواطر فى مصر

كتب السيوى (بوسليج) مدير الشؤون المالية فى ١١ نوفمبر سنة ١٧٩٨ إلى نابليون رسالة عن أزمة القمح فى القاهرة قال فيها : « من الضرورى إرسال المراكب إلى الصعيد لجلب القمح ، وأقل ما فى هذه الطريقة من القوائد أنها تهدى خواطر الجمهور ، لأن من الواجب أن لا تستهدف مدينة كبيرة مثل القاهرة لأزمة الأقوات وأن لا ترتفع فيها أسعار القمح ليستطيع الفقراء أن يعيشوا ويحدوا قوتهم » ، وكتب إليه السيوى (سوسى) مدير مهمات الجيش فى ١٤ نوفمبر يقترح جلب النلال من مديرية بنى سويف إلى أن يصل القمح من المديرية الأخرى فى الصعيد لأن حالة الهياج فيها قد تؤخر كثيراً ورود النلال منها ، من أجل ذلك عني نابليون بإرسال المدد إلى الجنرال ديزيه ، وعين الجنرال بليار قومنداناً لمديرية

بنى سوف بدلا من الجنرال زاينوشك الذى مرض وعاد إلى القاهرة ، وأمر بإخلاء  
بنى سوف نقطة ارتكاز للجيش الفرنسى ، وأنشاء مستشفى للجنود بها وتحصينها لتكون  
ممنوعة من هجمات الأهالى والعرب<sup>(١)</sup>

اعتمد الجنرال ديزيه بعد إخماد ثورة الفيوم أن يعود إلى بنى سوف والنميا لقمع حركات  
الاحتجاج فيها ، وجباية الضرائب من البلاد ، فانتقل بفرقة إلى بنى سوف ووصل إليها فى  
٢٢ نوفمبر ، حيث ضم إليه قوة الجنرال بليار ، وغادر مديرية الفيوم دون أن يصنع شيئا فيها  
من جهة إدارتها أو تنظيمها ، واعترف فى رسالته لنابليون قبل أن يتأخر الفيوم أنه لم ينشئ  
فيها « ديوانا » طبقا للتعليمات التى أصدرها نابليون لقواد المديريات لأنه لم يترك فيها القوة  
الفرنسية الكافية لمراقبة هذا الديوان ، وأنه ترك الحالة فيها كما كانت<sup>(٢)</sup> ، وأنفذ إليها نابليون  
الأدجودان جنرال بويه Boyer ومعه كتيبة من الجنود لمراقبة الأحوال فى مديرية الفيوم  
وتنظيمها ، وجباية الخراج فيها

### تلقى المدد واستئناف الحملة على الوجه القبلى

بقيت الفرقة فى بنى سوف نحو أربعة أسابيع فى انتظار المدد وإتمام الاستعداد لاستئناف  
الحملة على الصعيد ، وقد اضطر الجنرال ديزيه أن يقوم فى خلال هذه المدة<sup>(٣)</sup> إلى القاهرة  
ليتمتعل النجدة ، وكان نابليون فى ذلك الحين منهمكا فى إعداد المعدات للحملة على سوريا<sup>(٤)</sup> ،  
على أنه قد أمدد بقوة من ١٢٠٠ من الفرسان بقيادة الجنرال دافو Davout<sup>(٥)</sup> وبضع مئات  
من المشاة وزوده بالدافع والذخائر وست سفن حربية منها السفينة (إيطاليا) سفينة نابليون  
الخاصة التى كان يركبها فى النيل

عاد الجنرال ديزيه من القاهرة مريضا بهذا المدد وعازما على أن يكسح الصعيد بقوته ،  
فوصل إلى بنى سوف يوم ٩ ديسمبر على ظهر السفينة « إيطاليا » وفى اليوم التالى وصلت  
قوة الفرسان بطريق البر ثم وصلت السفن التى تحمل مهمات الحملة وذخائرها ، وفى يوم

(١) أمر نابليون فى ١٦ نوفمبر سنة ١٧٩٨

(٢) رسالة ديزيه إلى نابليون فى ١٩ نوفمبر سنة ١٧٩٨

(٣) كان سفره يوم أول ديسمبر سنة ١٧٩٨ وقد أتاب عنه فى قيادة الفرقة الجنرال بليار

(٤) انظر الفصل الثانى من الجزء الثانى

(٥) الذى صار فيها بعد مارشالا واشتهر فى حروب الامبراطورية النابليونية

١٥ ديسمبر كانت الحملة على تمام الاستعداد للزحف ، فكان عندها أربعة آلاف مقاتل  
مضرودين بالدافع والتخاثر ومعهم أسطول من السفن الحربية المسلحة بالدافع الحديثة الطراز ،  
وكان القائد العام لهذه الحملة الجنرال ديزيه ، ومن خيرة قوادها الجنرال فريان Friant والجنرال  
بيليار Belliard والجنرال دافو Davout قائد الفرسان والكونولن لا توري Latournerie  
قومندان المدفعية والأدجودان جنرال دزولو Donzelot والكونولن راباس Rabasse

### سير الحملة من بنى سويف إلى جرجا

تحركت الحملة من بنى سويف براً على الشاطئ الأيسر للنيل واتخذت المراكب سبيلها  
في النهر حفزاء الحملة تحمل الأقوات والتخاثر والمهمات  
وقد كان توغل الجنود في الوجه القبلي مخفوناً بالناعب والأخطار لأن الجيش كلاً سار  
جنوباً ابتعد عن القاهرة التي كانت مركز القوة الفرنسية وتغلغل في بلاد بمحولة منه وبين  
أقوام يكرهونه ويترصون به ريب النون  
قال الجنرال دافو في مذكراته عن الحملة على الصعيد : « إننا نهدف لأخطار كثيرة كما  
أوغلنا في بلاد يحمل جميع أهلها السلاح »

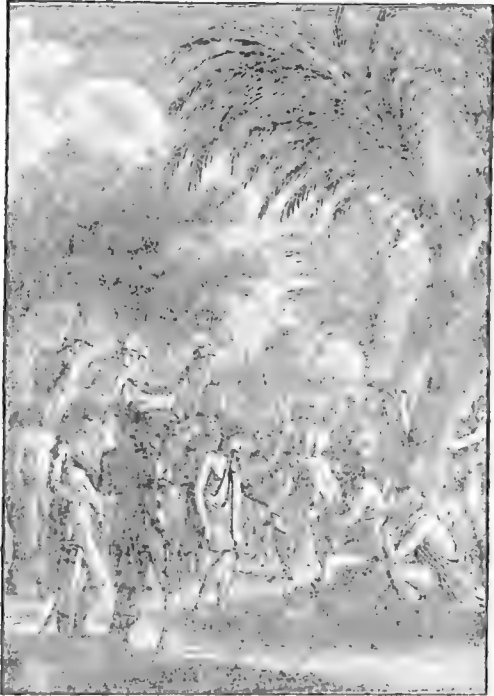
سارت الحملة من بنى سويف يوم ١٦ ديسمبر سنة ١٧٩٨ بعد أن تركت فيها قوة من  
مائتي جندي وبعض السفن المسلحة لحراسة اللواصلات مع القاهرة ووصلت ليلاً إلى (البراقه)  
على البر الغربي للنيل

وفي الصباح استأنفت السير فبلغت ( بيا ) وسارت منها قاصدة ( الفشن ) وقبل أن  
تصل إليها استراحت لتنتظر قدوم المدفعية ، وكانت طلائع الفرقة ترابط على مقربة من قرية  
( الفقاعي )<sup>(١)</sup>

### حادثة ( الفقاعي )

وقد حدث بقرب ( الفقاعي ) حادث دهش له الجنرال ديزيه وكبار الضباط الفرنسيين ،  
ذلك أنه بينما كان الجنود ينتظرون وصول بقية الجيش تقدم أحد غلمان القرية وتغلغل بعض  
جنود الدراجون فاستولى على بنادقهم ، فرآه جندي آخر وتعبه وهو يمشي حاملاً بندقية إلى  
أن أدركه وضربه بالسيف على ذراعه ، وساقه جريحاً إلى الجنرال ديزيه للاعتصاص منه ، فسأله

(١) من بلاد مركز يا بالبر الغربي للنيل



حادثة القناني ( كما رسمها في حينها المصور فيغان دينون )  
وترى المنزلة دبره حالاً تحت الشجرة يستحوي غلام القرية لها كته والعلام منه شعاعه ورمانة حاش

الجنرال عما دعاه إلى ارتكاب هذا العمل ، فأجاب النلام رابط الجأش ناظراً إلى السماء : إن الله القادر على كل شيء قد أمره بذلك ، فسأله الجنرال عن حرصه على فعلته؟ فقال لم يحرصني أحد وإنما ألهمني الله أن أفعل ما فعلت ، ثم رفع رأسه ونظر إليه وقال له في هدوء وثبات : دونك رأسي قاطعوه ، فدهش الجنرال من شجاعته واكتفى بأن يميلد بالسوط ثلاثين جلدة ، فجلد النلام لا يتأوه ولا يتملح حتى استوفى الثلاثين سوطاً ، ولم تكن سنته تتجاوز الثانية عشرة ، وقد قص الجنرال بليار حكايته في يومياته قائلاً إن هذا النلام إذا عني بربيته كان ذا شخصية نادرة المثال ، وروى السيو فينان ديتون حكاية هذا النلام في رحلته ، وهي تتفق في جوهرها مع رواية الجنرال بليار وإن اختلفت في بعض التفاصيل ، غير أنه قال إن الجنرال ديزه عفى عن النلام ولم يأمر بعباقبه ، ورواية الجنرال بليار في يومياته أدعى إلى الثقة لأنها قاصرة على سرد الواقعة وخالية من عبارات التصور والتخيل التي وردت في رواية السيو ديتون ، وقد رسم هذه الحادثة في كتابه<sup>(١)</sup> ونقلنا عنه هذا الرسم (ص ٣١٦)

وصل الجيش إلى (الفشن) يوم ١٧ ديسمبر ثم ابتعد عن النيل وقصد شاطئ بحر يوسف يتعقب المايك وحلفاء ثم الأهالي ، لكن مراد بك استطاع أن يتراجع قبل أن يدركه الجيش الفرنسي ، وظل الجيش يتعقبه ثلاثة أيام ينتقل من قرية إلى قرية دون أن يفوز منه بباطل ، فعاد إلى شاطئ النيل ووصل إلى النيا يوم ٢٠ ديسمبر وكان المايك قد غادرها قبل قدومهم ببضع ساعات تاركين بها سفنهم وكانت واحدة منها مسلحة بثلاثة من المدافع ، والمراكب الأخرى بها بعض المدافع القديمة وبعض الأقوات والتخاثر فقتلها الفرنسيون

ثم سار الجيش من النيا مبتعداً قليلاً عن النيل فربى أحمد ، فريفة ، فكوم الزهير ، ثم عرج على النيل ووصل إلى (ساقية موسى) ثم إلى (ملوى) وكانت كما هي الآن من أم مدن الوجه القبلي وصفها الجنرال بليار في يومياته بأنها مدينة كبيرة وأنها أجمل ما رآه من المدن في رحلته ، ذات شوارع واسعة مستقيمة وبيوت منتظمة وقد وجد الفرنسيون فيها ثمانية منافع كان الأهالي يقدفون منها الجلل على المراكب الفرنسية حيث شرعوا في تحصين المدينة وإقامة سور لحمايتها ، فاستولى الفرنسيون على تلك المدافع واستمر الجيش في زحفه فربطوط ، فتانوف ، فديروط ، فالقوصية

(١) رحلة في الوجه البحرى ومصر العليا أثناء حرب الجنرال بوناپارت للسيو فينان ديتون

## احتلال أسبوط

وفي صباح يوم ٤ ديسمبر قام الجيش من القومية يريد أسبوط فاحتلها يوم ٢٥ ديسمبر سنة ١٧٩٨

كانت أسبوط ، ولم تزل ، أم مدن الوجه القبلي ؛ بها القصور المشيدة ، والأبنية الجميلة والقيساريات والمتاجر الواسعة ، وهي عاصمة مديرية أسبوط التي كان عدد سكانها في ذلك الحين نحو مائتي ألف نسمة<sup>(١)</sup> ، وكانت تبعد عن شاطئ النيل بنحو ١٢٠٠ متر ، ومينائها (الحراء) متصلة بها بمجرى يملو مياه الفيضان ، وكان في غربها طول عالية تقع بينها وبين الجبل وهي آثار مبان قديمة وعليها بيوت المالك ، فكانت تلك البيوت مرتفعة عن المدينة تشرف عليها ، لذلك اختارها الفرنسيون لإقامة جنودهم واتخذوها الجبال ديزيه مصكراً للجيش ، وكان في الجهة البحرية للمدينة حدائق ذات بهجة ، وقد اشتهرت أسبوط بنسيج أقمشة الكتان ومصنوعات الخشب والماج والأبنوس والخزف والفخار وصناعة الجلود وعصير السرج وتصدير النطرون ، وكانت مركزاً لتجارة السودان والواحات وبلاد المغرب ، يرد إليها التبغ وريش النعام وسن القيل والتمر الهندي والجلود وملح الصودا ، وتصل إليها في كل سنة قافلة من دارفور على مسيرة أربعين يوماً تشتمل على نحو ألف وخمسمائة من الإبل بأحمالها من بضائع تلك الجهات فيبيعونها ويستبدلونها من البضائع المصرية فيحصل بذلك رواج عظيم لأسبوط ؛ هذه نظرة عامة إلى المدينة وقت أن احتلها الجيش الفرنسي

انسحب المالك من أسبوط بعد أن أغرقوا سفينة مسلحة من أسطولهم وتركوا ست سفن أعجلهم عنها ما كانوا فيه فلم يأخذوها ولم يفرقوها ، فاستولى الفرنسيون عليها وعلى ما فيها من الأقوات والنفائز ، ثم سار الجيش من أسبوط يوم ٢٦ ديسمبر وانقسم إلى فرقتين ، فرقة بقيادة الجنرال فويان أخذت طريق سفح الجبل ، والفرقة الأخرى المؤلفة من الفرسان ومن كتيبة الجنرال بليار أوغلت في السهل ثم التقتا (في النمام) فاحتلها ونهبها الجنود<sup>(٢)</sup>

(١) الآن ٩٨١٠٠٠ نسمة

(٢) قال الجنرال بليار في يومياته عن القتلى :

«لما قرية كبيرة جداً تحيط بها غابة من التخيل وهي على مسيرة خمس دقائق من التربة السواحلية ، وقد نهبها الجنود نهباً شاملاً وداهمهم الأمل عن أنفسهم وقتلوا بسن الجنود ، وقد أرسلت قوة لإعادة النظام في القرية فأطبق عليها القلايح واشتدك القرعان قتل واحد من الأمل وجرح اثنان من الجنود ،

وقال بليار عن قرى الوجه القبلي بمقارنتها بالوجه البحري : =



غادر الجيش ( الفنايم ) ووصل في زحفه إلى ( فزاره ) وعسكر في غابة على مقربة منها ، وفي يوم ٢٨ ديسمبر وصل إلى ( بلصفورة ) وفي يوم ٢٩ غادرها وحاذى النيل عند ( المنشأة ) ثم مر بالحارقة ، فالتوريات ، فطوخ العيرات ، فأولاد حمزة إلى أن وصل إلى جرجا في اليوم نفسه ، فمسكر حول المدينة وكان أسطول مراد بك قد غادرها قبل أن يصل الفرنسيون وهكذا قطع جيش الجنرال ديزيه المسافة من بتي سويف إلى جرجا في ثلاثة عشر يوماً ( من ١٦ إلى ٢٩ ديسمبر سنة ١٧٩٨ ) كان في خلالها يطارد جيش مراد بك من بلد إلى بلد دون أن ينال منه مثلاً

حطّ الجيش الفرنسي أمتعاه بجرجا ليستريح الجنود من عناء تلك الرحلة التي أنهكت قوامه ولينتظر وصول المراكب التي بها ذخائره ومهمات ومؤناته ، وقد تمطل سيرها وتأخرت عن متابعة الجيش لهبوط المياه ، واختلاف الريح ، ومرض من الجنود نحو ٢٠٠ جندي وأمر الجنرال ديزيه بترحيل من لا يرجى شفاؤهم إلى القاهرة لكيلا يكونوا عالة على الجيش ورأى ديزيه أن لا ينام بيجيشه فيها وراء جرجا لأنه أصبح بعيداً عن القاهرة ووجد في جرجا مدينة كبيرة في وسط مديرية خصبة تصلح لتموين الجيش فرأى من الحكمة أن يستقر بها حتى يصل أسطوله ويتأهب لاستئناف الإيصال في الصعيد<sup>(١)</sup>

### الثورة فيما بين أسيوط وجرجا

كان ديزيه يتوقع قدوم أسطوله إلى جرجا بعد أيام معدودات ، ولكنه تأخر في الوصول ، فاضطر أن يبقى بها مدة ثلاثة أسابيع دون أن ينحف أو يعمل عملاً ، وكان تأخره مدعاة لتنظيم قوة المقاومة في البلاد التي لم يفتحها ، وسريان روح الثورة في المدن التي فتحها ، فصارت البلاد فيما بين أسيوط وجرجا شعلة من الحياج والثورة شبت الثورة في نحو أربعين بلداً ، وانضوى إلى علمها نحو سبعة آلاف من الأهالي ، فأنهز مراد بك هذه الفرصة ليم شتمه ويضم إليه الأعوان والأنصار من أهل البلاد ، وأرسل

« يظهر أن بلاد الوجه القبلي أكثر تنظيماً من بلاد الوجه البحري فالطرق مفتحة بها وكذلك الترع ، وفي مفاوز الطرق أسبلة على مسافات معينة يقوم عليها بنى الأهالي يقولون الناس من مثها ، والقرى من التيا إلى ما بعد ملوى لا تكتنفها المزابل والقاذورات بغير ما رأينا حول غيرها »

(١) كانت جرجا مع أنها أوفر من أسيوط تتبر في ذلك العصر عاصمة الصعيد لأنها قاعدة مديرية جرجا أكبر مديريات الوجه القبلي وكانت القنال فيها وافر والأسفار منخفضة وموقعها في منتصف المسافة بين القاهرة وأسوان يجعلها مركزاً تجارياً على جانب كبير من الأهمية

يستنجد بأشراف مكة وعرب ينبع ونجدة وأتقد رسله إلى الثورة يستنفرون الناس لمقاومة الفرنسيين ، وأرسل إلى حسن بك الجداوى الذى كان مقبياً فى إسنا وكان بينهما من قبل عداء قديم يعرض عليه الصلح ليتحدا على محاربة الفرنسيين ، فلبى الجداوى دعوة الصلح وانضم إلى خصمه القديم لمحاربة العدو الجديد

واجه الفرنسيون فى الصعيد فيما بين جرجا وأسيوط ثورة واسعة النطاق بميدى المدى ، ولكنهم عاجلوا قبل أن تجتمع قواها وتتحد عناصرها ، وغلبوا قواتها البثرة معتمدين على نظامهم الحربى ومدافعهم القوية وبنادقهم الحديثة ، فكانت المارك التى نشبت بينهم وبين الأهالى أشبه بمناج فكتت فيها ثيران المدافع والبنادق بمجموع من الأهالى محرومين من النظام غير مزودين إلا بأسلحة قديمة

### معركة سوهاج

٢ يناير سنة ١٧٩٩

كلف ديزيه الجنرال دافو فتح هذه الثورة ، فقام من جرجا على رأس فرسانه ووصل إلى سوهاج يوم ٣ يناير سنة ١٧٩٩ حيث كانت تحتشد قوة من الثائرين قد رما الجنرال دافو بأربعة آلاف من الفلاحين مسلحين بالبنادق والحراب يشد أزرم سيمائة من الفرسان ، ونشب القتال بين الفريقين ولكن الأهالى على كثرة عددهم لم يكونوا معتادين خوض المارك الحديثة فأسلتهم فرقة الفرسان نارا حامية تراجعوا أمامها تاركين ثمانمائة من القتلى كما يقدم الجنرال ديزيه ، وعاد الجنرال دافو إلى جرجا

كانت هذه الواقعة كارثة أصابت الأهالى ، وكان طبيعياً أن قضى إلى لإرهاب البلاد الأخرى وإخماد الثورة فيها ، لكنها على العكس لم تكسر شوكة الثائرين ، ولم تنههم عن عزمهم ، واحتشدت جموعهم المسلحة على مقربة من أسيوط قادمين رجالاً وركباً من مديريات المنيا وبني سويف والقويس ، فكلف ديزيه الجنرال دافو التوجه ليهاجم هذه الجموع وليطعن على الأسطول الفرنسى الذى انقطعت أخباره وتأخر وصوله إلى جرجا ، وكان مركز هذا الأسطول محفوفاً بالمخاطر لأنه كان يتسحب فى النيل بين بلاد نائرة وجوع هائلة

## معركة طهطا

٨ يناير سنة ١٧٩٩

سار (دافو) على رأس فرقة الفرسان فوصل تجاه طهطا يوم ٨ يناير ، فوجد عدداً من الأهالي يلبفون نحو ثمانمائة فارس يقصدون مهاجمة الفرنسيين فاقترب منهم جيش الجنرال دافو يتجهدهم للقتال ، فتفقهروا وأخلوا له الطريق ، فترجل الجنود الفرنسيون تجاه طهطا واستراحوا ساعتين ثم استأنفوا سيرهم فتبعهم فرسان الأهالي عن بعد ، وأخذت جموع الثوار تخرج من القرى مشاة وركبائاً وتنضم إليهم فازداد عددهم حتى بلغ عدد الفرسان منهم ألفي فارس كما يقدرهم الجنرال دافو ، وهجم الثوار على مؤخرة الجيش الفرنسي ، فأمر الجنرال دافو بإطلاق النار عليهم ففتكت بهم فتكا ذريعاً وخسر الأهالي عدداً كبيراً من القتل قدرهم الضابط راباس Rabasse<sup>(١)</sup> ١٥٠ قتيلاً من الفرسان وثمانمائة من المشاة<sup>(٢)</sup> وانسحبوا من ميدان القتال وانتقم الفرنسيون انتقاماً عظيماً من القرى التي أطلقت عليهم النار فقتلوا من أهلها خمسمائة رجل وأحرقوها<sup>(٣)</sup>

تابع الجنرال دافو سيره فوصل بفرسانه إلى أسويط يوم ١١ يناير ووجد السفن الفرنسية راسية تجاه المدينة ولم تكن وسات إلا صباح ذلك اليوم ، ثم قفل راجعاً إلى جرجا ووصل الأسطول إلى جرجا يوم ١٨ يناير حاملاً القنطر والأقوات لفرقة الجنرال ديزيه وممدداً من ١٥٠ جندياً فاعتزم ديزيه أن يسير بجنوده جنوباً ليشتبك مع مراد بك في معركة فاصلة

## معركة سمهود

٢٢ يناير سنة ١٧٩٩

زادت قوة مراد بك فانضم الأهالي الثائرين إليه وقدم عرب جدة وبيع الذين أتوا من سواحل البحر الأحمر لنجدة ، وانضم إليه كذلك عثمان بك حسن وحسن بك الجداوى

(١) رئيس أركان حرب الجنرال دافو

(٢) قدر نابليون في رسالته إلى الديركتوار خسائر المصريين في معركة سموهاج وطهطا بألفين

من القتل

(٣) رسالة دافو إلى نابليون في ١٢ يناير سنة ١٧٩٩

من البكوات المالك ذوى النفوذ والمصيبة

كان مع مراد بك من القاتلة ١٥٠٠ مملوك والباقيون من الأهالي الذين انضموا إليه من جميع البلاد ، ويقتدر نابليون عددهم في مذكراته بسبعة آلاف من الفرسان المصريين وثلاثة آلاف من المشاة ، وألفين من عرب ينبع وجدة بقيادة الشريف حسن ؛ جيش مراد بك كان اذن مؤلفاً من نحو ١٢ر٠٠٠ مقاتل ، وهى قوة لا يستهان بها لو كان لها قيادة صالحة مدبرة علم ديزيه أن هذه القوة مرابطة في سمهود <sup>(١)</sup> الواقعة على ترعة بهجورة فانتقل إليها بجيشه وكان عدده نحو خمسة آلاف مزودين بالدفاع والبنادق الحديثة ، وهناك التقى بجيش مراد بك في صبيحة يوم ٢٢ يناير ونشبت معركة حامية الوطيس بين الفريقين استمد لها الجنرال ديزيه استمداً عظيماً ليضمن لجيشه الفوز فيها ، فرتب المشاة وجعل منهم مربعين تحميها المدافع وتتألف منهما ميمنة الجيش ومبصرة ، فكانت للميمنة بقيادة الجنرال فريان والمبصرة بقيادة الجنرال بليار <sup>(٢)</sup> وفرقة الفرسان في القلب على شكل مربع بقيادة الجنرال دافو ، فهجمت الربمات الثلاثة تحميها المدافع من زواياها

بهذا الترتيب قابل الجيش الفرنسى قوات مراد بك التى كانت أكثر عدداً ولكن ينقصها النظام والدفعية ومقدرة القيادة ، فلاغرو أن انتهت الواقعة بهزيمة مراد بك وانسحابه بفلول جيشه جنوباً قاصداً فرشوط ، ورمى في الرسم ص ٣٢٣ صورة معركة سمهود كما رسمها للسيو فينان ديتون الذى شاهدها ، وتجد في الصورة الربمات الثلاثة التى تتألف منها القوات الفرنسية تهاجم قرية سمهود حيث كان يربط جيش مراد بك ، وهذه الصورة تمثل نظام جيش نابليون وطريقة هجومه في معارك مصر

## الوصول إلى أسوان

أول فبراير سنة ١٧٩٩

لا تقل واقعة سمهود شأنًا عن معركة سدمنت ومعركة الأهرام في كونها أكسبت الجيش الفرنسى النصر في ميدان القتال وفتحت أمامه الطريق لاحتلال البلاد ، فاستطاع الجيش

(١) بلدة بمركز فرشوط بمديرية قنا واقعة بقرب الجبل الغربى

(٢) اختلفت رواية الراجح الفرنسية في تسمى الميمنة والمبصرة ، على أننا اعتدنا على التعبير الذى كتبه الجنرال ديزيه عن الحركة وبث به إلى نابليون وفيه يقول إنه جعل على الميمنة الجنرال فريان وعلى المبصرة الجنرال بليار ، وكذلك يقول نابليون في رسالته إلى الديركتوار عن واقعة سمهود



معركة سمهود ( ٢٢ يناير سنة ١٧٩٩ ) كما رسمها السيوفان دينون وكان من مشهودها  
وترى في الصورة الكتاب الثالث التي يتألف منها الجيش الفرنسي تهاجم القرية على شكل مربعات تحميها  
المدافع من زواياها ، فالبلح الأيمن بقيادة الجنرال فريان والجنح الأيسر بقيادة الجنرال بيار وينها كتيبة  
الفرسان بقيادة الجنرال فانفو ، وجنود مراد بك يحاولون الإحاطة بالريهات فتصدم برزان المدافع القريبة

الفرنسي بعد هذه المركة أن يستأنف زحفه جنوباً ، وأخذ يطارد جيش مراد بك حتى وصل إلى فرشوط ، وهناك اضطر إلى الوقوف قليلاً حتى يستريح الجنود الذين أجهدهم السير ، ثم غادر (فرشوط) متابعاً سيره حتى وصل إلى (هو) ثم إلى (الوقف) وبلغ (دندره) في ٢٤ يناير ، ومر قريباً من أطلالها ، وكان المسيو فيفان دينون (التي نقلنا عنه بعض رسومه) يرافق الحملة فشاهد مع لفيف من ضباط الجيش آثار دندره القديمة ، فبهرتهم عظمتها ، ووقفوا مبهورين أمام جبالها وجلالها ، وفي ذلك يقول الكولونل لاورزى Latournerie قومندان المدفعية في تلك الحملة بعد أن شاهد معبد دندره : « من يوم أن قدمت إلى مصر وأنا أعيش مريراً حزناً ، ولكن دندره قد شفتني من سقامي ، والآن لا آسف على شيء ، وأنا في مصر ، ومهما لقيت فيها منذ اليوم فإن هذه المشاهد ترد إلى الحياة والسرور »

واصلت الفرقة سيرها مارة بالقرى الواقعة على البر الغربي للنيل ، فلم تلق بها مقاومة ، وعسكرت من ٢٥ إلى ٢٦ يناير في (دنفيق) ، ثم وصلت إلى (طبية) ذات الآثار الخالدة ، التي أشاد بذكرها هوميرو وهيرودوت ، وحدث عن جلالها سترابون Strabon وديودور الصقلي ، وتفنن بعظمها الشعراء والمؤرخون على تماقب الأجيال والمصور ، فشاهد ديزيه وأركان حرب والمسيو فيفان دينون آثار القراعنة ومقابر الملوك الماثلة فيها لدلائل عزمهم وعظمتهم ، والنيل ينساب وسط تلك الآثار الناطقة بما كان لبلادنا في الزمن السالف من مدينة عظيمة ، ومجد أئيل

غادر الجيش طبية ، وأسرع يتعقب المالك ، فوصل إلى (أرمنت) يوم ٢٦ يناير وغادرها ، في اليوم التالي محاذياً النيل ووصل يوم ٢٧ يناير إلى إسنا<sup>(١)</sup> ، وكان مراد بك قد غادرها قبل وصول الجيش الفرنسي فترك فيها ديزيه الجنرال فريان وكتيبة من الجنود لإخضاع البلاد وسار جنوباً حتى وصل إلى (ادفو) يوم ٢٩ يناير ثم وصل يوم أول فبراير<sup>(٢)</sup> تجاه أسوان ، فاجتاز الفرنسيون النيل ووصلوا إلى البر الشرقي حيث توجد أسوان فاحتلوها ، واستولوا فيها على

(١) كانت إسنا من أهم مدن الصيد تصد إليها القوافل القادمة من السودان ودارفور وسنار وتتخذها سوقاً لها ومحطة تنزل بها فاكستيت بذلك مكانة كبيرة ، وكان بها أكبر سوق للخيال ، وكانت (ولم تزال) مركزاً صناعياً لنسج الصوف والقطن ومنع الملامات وعصير الزيت وعمل الفخار ، وكانت بسبب بسما عن الساحة كاللجأ لآل بك المفضوب عليهم من ولاية الأمور بالقاهرة وسكن بها وتخذ حسن بك الجندارى وعثمان بك حسن وصلاح بك خصوم مراد بك القنما ، وكان بأقصى المدينة حديقة جميلة لحسن بك الجندارى اتخذها الفرنسيون مقراً لاجتماعهم كما اتخذوا منزل حسن بك الجندارى مقراً لإقامتهم

(٢) اعتمدنا في بيان هذا التاريخ على تقرير الجنرال ديزيه عن حركات الجيش الفرنسي في الصيد

مراكب المالك ، وبذلك تم للجيش الفرنسى احتلال الصعيد بأكمله  
لكن فولر جيش مراد بك أفلتت من تطويق الجيش وانسحبت إلى ما وراء الشلال ،  
وعسكرت طلائفه على مسيرة أربعة فراسخ من أسوان ، فكان وجودهم من بواعث قلق  
الفرنسيين على سلطانهم في الوجه القبلى ، فاعترم الجنرال بليار مطاردتهم في بلاد النوبة وإقامة  
الحصون في أسوان

لم يطل ديزيه مكثه في أسوان أكثر من يومين ، ثم غادرها تاركاً بها الجنرال بليار  
ووصل إلى اسنا يوم ٩ فبراير وعزم على اتخاذها مؤقتاً معسكراً لجيشه ليرقب حالة الوجه القبلى  
لم يكد الجنرال ديزيه يستقر في اسنا حتى عاد جماعة من المالك بقيادة عثمان بك حسن  
واستقروا على شاطئ النيل الشرقى في منتصف المسافة بين أسوان واسنا ، وكاد وجودهم  
يهدد مواصلات الجيش الفرنسى ، فأرسل الجنرال بليار كتيبة من جنوده لمطاردتهم ، فاستقرت  
هذه الكتيبة في « دراو »<sup>(١)</sup> بالبر الشرقى للنيل شمالى أسوان ثم عادت إلى أسوان بعد أن  
ابتمد رجال عثمان بك عن شاطئ النيل .

كانت مهمة الجنرال بليار في أسوان أن يمنع عودة المالك من وراء الشلال ويضطرهم  
إلى البقاء في بلاد النوبة حيث يتسرب اليأس إلى نفوسهم في تلك البلاد النائية ، فظل بليار  
يرقب حركاتهم ، وبقيت فولر المالك في حالة ضنك شديد مشتكين بالقرب من النيل قريباً  
من الدّر وإبرم<sup>(٢)</sup> وعلى بعد نحو مائتى كيلو متر من جنوب أسوان

على أن طلائع المالك أخذت تناوش الحفائر الفرنسية على مقربة من أسوان ، فذهب بليار  
لمطاردتهم مع كتيبة من جنوده وتفهم حتى انسحبوا جنوب دهميت<sup>(٣)</sup> وأوغلوا ثانية في  
بلاد النوبة ، ورأى الجنرال بليار أن يحول دون رجوعهم بتخريب تلك المنطقة لكيلا يستطيع  
المالك أن يقيموا بها ويتخذوها مركزاً لناوشة الفرنسيين ، فاقطع مزروعاتها ونهب ما فيها  
من الماشية ، واعترم أيضاً احتلال جزيرة ( أنس الوجود ) والجزر الواقعة في شلال أسوان  
ليأمن على سلامة الجيش الفرنسى

### المقاومة في جزيرة فيله

في ٦ فبراير سنة ١٧٩٩ قصد بليار إلى جزيرة فيله ( أنس الوجود ) في كتيبة من مائتى

(١) من بلاد مركز أسوان

(٢) من بلاد مركز الدّر الآن بمديرية أسوان

(٣) بمركز أسوان

جندى ، فرست عند الشلال وسارت على الشاطئ الأيمن للنيل ، ولما صارت تجاه جزيرة « قبيلة » أراد الفرنسيون أن يعبروا النيل إليها على مهاكب الأهالي فلم يقبل أحد منهم أن يسلم في مركبه ، وعاد بليار أدراجه إلى أسوان ، وبعد بضعة أيام استأنف تحقيق عزمه فلقى مقاومة شديدة من النوبيين في جزيرة فيله ( أنس الوجود ) وجزيرة الحساء ، قال الجنرال بليار في يومياته يصف هذه المقاومة :

« حمل الأهالي أسلحتهم وصاحوا صيحات القتال ، ورأينا النساء ينفشون أناشيد الحرب والهيحاء ويحشون التراب في وجوهنا ، أما الرجال فأطلقوا الرصاص على رجالنا الذين ركبوا البحر ، وكنت قد أحضرت معي مدفعاً لإخضاعهم ، فدعوتهم إلى الصلح والسلام ، فكان جوابهم أنهم لا يقبلون منا كلاماً وأنهم لا يفرون من أمامنا كما يفِر المالك ، واستأنفوا إطلاق الرصاص ، فجرح ثلاثة من رجالنا ، ولم يكن لدينا مهاكب نصل بها إلى الجزيرة ، وحاولنا أن نتخذ من جذوع النخل طوقاً ينقل الجنود ولكن المياه غمرته ، فاضطرونا أن نرجى احتلال الجزيرة وقيت الجنود ترابط يوم ١٩ فبراير على شاطئ النيل تجاه الجزيرة ، واستجلبت من أسوان بعض ألواح الخشب للمعبور عليها

« وفي اليوم التالي وصلنا إلى الجزيرة ، فأطلق علينا الفلاحون الرصاص ولكن لم يصب أحد من الجنود ثم فروا تاركين مواشهم ومؤذنتهم واحتلنا الجزيرة  
« وفي ٢١ فبراير احتلنا الجزر الأخرى المجاورة لجزيرة فيله والتي اشترك أهلها في الثورة ، ثم عاد الجنود وقيت فصيلة منهم لتستولى على مؤونة الأهالي من التمر ، وكانت نتيجة هذين اليومين أن قتل من الأهالي ثلاثون رجلاً واستولينا على ٢٠٠ بندقية و٢٠٠ طبنجة وسيف ، وشئ كثير من التمر واللحم والمؤونة »

تم للفرنسيين احتلال الجزر الواقعة في شلال أسوان واطمأنوا على حدود مصر ، وأخذ الجنرال بليار يحصن أسوان وعزم على إقامة قلعة فيها

### تجدد القتال بين جرجا وأسوان

كانت خطة الفرنسيين الحربية اتخاذ أسوان موقفاً حصيناً لقطع الطريق على المالك إذا هموا بالخروج من مكنتهم في بلاد النوبة ومباودة الهجوم على الجيش الفرنسي ، لكن المالك أحبطوا هذه الخطة باجتيازهم الصحراء غرباً ومواصلة السير شمالاً إلى أن صاروا حذاء جرجا وأسيوط ، واعتزموا الهجوم على الجيش الفرنسي هناك وتهديد الواصالات بين كاتائب



الجيش فيما بين أسيوط وأسوان ، كما أن بعض فلول المالك بقيادة حسن بك الجداوى ومحمد بك الألفى بعد أن فروا أمام جيش ديزيه لم يواصلوا السير إلى ماوراء الشلال وانفصلوا في الطريق ضارين في الصحراء يترقبون الفرص ليمودوا إلى شاطئ النيل

علم الجنرال بليار بهذه الحركة فاعتزم أن يتعقب المالك في البر الترنى ، فأخلى أسوان ليلة ٢٥ فبراير سنة ١٧٩٩ وسار بجنوده بالبر الترنى للنيل يتعقب مراد بك ، ولكنه لم يدركه لأن المالك كانوا أسرع منه في السير

وصل بليار إلى إستا يوم ٢٨ فبراير ، وهناك تلقى تعليمات ديزيه لمواجهة هذه الحركة الهجومية التي قام بها المالك ، وفيما كان ديزيه في إستا علم أن جماعات من عرب الحجاز جاءوا لتجنبة المصريين وأنهم ينوون احتلال قنا لقطع مواصلات الجيش الفرنسى ، وأن عثمان بك حسن وحسن بك الجداوى ورجالهما تحركوا بالبر الشرقى قبالة ( ادفو ) ، فمهد إلى الجنرال فريان احتلال قنا للامتناع بها ومنع اتصال العرب بالنيل ، وجعله قومنداناً لمديرية جرجا ، وأنفذ كذلك الجنرال دافو لطاردة قوات حسن بك الجداوى وعثمان بك حسن قبالة ادفو

### معركة الردسية

١١ فبراير سنة ١٧٩٩

عبر الجنرال دافو النيل وسار بالبر الشرقى قاصداً مهاجمة جوع الأهالى والمالك الذين يقودهم حسن بك الجداوى وعثمان بك حسن فالتقى بهم يوم ١١ فبراير بالردسية<sup>(١)</sup> ، واصطدم الفريقان وكلاهما من الفرسان في معركة شديدة دامت ثلاث ساعات اشتبك فيها المقاتلون وجها لوجه ، فكانت هذه المعركة قريبة الشبه بمعركة الصالحية ، استعمل فيها السلاح الأبيض فحسر الفرنسيون خسارة جسيمة وبلغ عدد قتلاهم ٣٧ قتيلاً من بينهم الضابط فوتت Fontette ، وبلغ عدد جرحاهم ٤٤ كما قدم الأجدودان جنرال دزولو ، وكانت خسائر المالك والأهالى لا تقل عن خسارة الفرنسيين ، وكان من جرحاهم عثمان بك حسن ، وانتهت للمعركة بانسحاب المالك إلى الصحراء في طريق القصير ، واستطاع حسن

---

(١) بلدة واقعة بالبر الشرقى لنيل جنوبي ادفو الواقعة على البر الترنى

بك الجداوى أن ينفذ رجاله ومؤوته من الوقوع في قبضة الفرنسيين ، فلم يكن الفوز لأحد الفريقين على الآخر ، وبقيت قوة المالك والأهالي سليمة تتربق الفرصة لمداوة الكرة<sup>(١)</sup>

### معركة قنا

١٢ فبراير سنة ١٧٩٩

أما في جهة قنا فقد سار إليها الجنرال فريان قاصداً الامتناع بها لأن موقعها على جانب عظيم من الأهمية ، وإليها يفضى الوادى المعروف بوادى القصير ، وهي عبر القوافل القاهرة من القطر المصرى إلى الحجاز أو التى ترد منه عن طريق القصير ، وقد سبقته إليها طلائع جنوده بقيادة الضابط كوزو Conroux وعددهم نحو خمسمائة مقاتل ، ولم يكذب علم عرب الحجاز والأهالي باحتلال الفرنسيين لما حتى هجموا عليها قبيل منتصف ليلة ١٣ فبراير ، ولكن الفرنسيين ردوا هجومهم على المدينة وأوقفوا بهم خسارة جسيمة ، وجرح الضابط كوزو في هذا القتال جرحاً بليغاً فتنحى عن قيادة الجنود للضابط دروسن Drosen ، فثاله ما نال صاحبه

وصل الجنرال فريان بعد انتهاء المعركة فأقام الخفاخر حول المدينة وعلى مداخل الطرق الموصلة إلى النيل لمنع الثوار من استئناف هجومهم ، واستطاع الشريف حسن الذى كان يقود عرب الحجاز أن يلم شعثه وانضم إليه الأهالي المسلحون من سكان البر الشرقى للنيل فراحلوا بالقرب من ( أبو مناع )<sup>(٢)</sup>

### معركة ( أبو مناع )

١٧ فبراير سنة ١٧٩٩

ولم تنهم هزعة ١٢ - ١٣ فبراير عن عزمهم على مواصلة القتال ، فسار إليهم الجنرال فريان بمجنوده ، فأدركهم في قرية ( أبو مناع ) ، وهناك دارت معركة أخرى تلتبت فيها المنفعة

(١) يقول ريبوان هذه المعركة وقعت بالقرب من الأقصر يوم ١٢ فبراير ويسمى معركة الأقصر ، ويسمى ديزيه معركة طيبة ، ويقول أيضاً إنها وقعت يوم ١٢ فبراير وكنتك الميو ( شوانى ) في خريطة مسمى الحملة الفرنسية ، على أنه يرجعنا إلى بيانات الجنرال دافو الذى قاد المعركة ويسمى السكولونل لاسال Lassale الذى اشترك فيها تبين لنا جلياً أن المعركة وقعت بالردية يوم ١١ فبراير (٢) شمال دشنا غرب بالقرب من الجبل الشرقى تمتد عن النيل مسيرة ساعة ونصف

على البنادق والأسلحة القديمة التي كان يستعملها الأهالي وعرب الحجاز ، قتل عدد كبير منهم واستولى الفرنسيون على ( أبو مناع ) وأضرموا النار فيها وفي القرى المجاورة لها ونهبوها

وقصد الجنرال فريان بعد هذه الحركة إلى جرجا تنفيذاً لتعليمات الجنرال ديزيه فوصلها يوم ٢١ فبراير سنة ١٧٩٩

### معركة إسنا

٢٥ فبراير سنة ١٧٩٩

وفي غضون ذلك أخذ مراد بك يتأهب للحملة على مواقع الفرنسيين على النيل ، ففي ٢٥ فبراير سنة ١٧٩٩ أقبل ومعه قوة من سبعمائة من الفرسان وعدد حاشد من النوبيين قاصدين مهاجمة الحامية الفرنسية في إسنا ، فاشتبك الفريقان في معركة دامت ساعة من الزمن وانتهت بتقهقر مراد بك ورجاله إلى ( أرمنت )

## الفصل السابع عشر

### استمرار المقاومة

#### في الوجه القبلي

لم يتم للفرنسيين إخضاع الوجه القبلي على الرغم من انتصاراتهم العسكرية واحتلالهم معظم بلدانه ، بل ظل مركزهم مضطرباً ونفوذهم مزعزعا ، وتخرج موقفهم من الوجهة الحربية لأهم بعد أن احتلوا مدن الصعيد أصبح جيشهم مبعثراً على طول النيل ولم يكن سلطانهم يمتد إلى المدن التي لهم بها حاميات ، ولم يكن من السهل على الجيش الفرنسي إخضاع بلاد متباعدة تفصلها المسافات المترامية كبلاد الوجه القبلي

كانت روح المقاومة تسود سكان القرى والمدن ، فلم يكن الأهالي يدعون فرصة تمرّ دون أن يشعروا في وجه السلطة الفرنسية ، وكانوا من هذه الوجهة متصلين بالبقية الباقية من جيش المماليك تعاونهم طوائف العرب القادمين من القصير ، فاجتمعت هذه القوى الثلاث واتحدت على مهاجمة الحاميات الفرنسية في المدن وقطع مواصلات الجيش الفرنسي في النيل بمهاجمة السفن التي تحمل الجنود والذخائر والأقوات ، ولذلك خرج مركز الجيش الفرنسي وتعددت المناوشات والمعارك والمفاجآت ، وبكل ذلك لم يستقر له قرار في تلك الجهات

كان الجنرال ديزيه مقبياً في اسنا التي اتخذها معسكره العام من اليوم التاسع من شهر فبراير سنة ١٧٩٩<sup>(١)</sup> وظل بها يرقب الحال ويتتبع حركات الاضطرابات في الصعيد ، ثم غادرها قاصداً إلى (قوص) ، وقد شعر بخرج الموقف وأفضى إلى نابليون قبل ارتحاله إلى سوريا بالصاعب التي تكتنفه وطلب منه المدد ليتمكن من إخضاع الوجه القبلي ، قال في رسالة له كتبها في قوص يصف فيها دقة موقعه :

« إننا نسير بلا انقطاع ، وقد ساءت حالة الجنود في ملابسهم وأحذيتهم ، ولم نستطع لأن أن نجتمع إلا النزر اليسير من أموال الميري على الرغم من الجهود التي بذلناها ، وإن دعاة الثورة مثابرون على نشر دعايتهم ، وإن علينا أن نحارب ثلاث قوات مجتمعة وهم العرب

القادمون من القصير ، والماليك ، والأهالي ، فليس من السهل إخضاع هذه البلاد ، ومن الضروري لنجاح الحملة على الوجه القليل أن ترسلوا لنا أولاً ذخيرة كبيرة من الرصاص وكثيراً من الأخذية ، وأرجو أن تنفذوا إلى أسيوط القوات التي في القيوم وبني سويف<sup>(١)</sup> مع إيجاد حامية مستديعة في النيا وبذلك يتم لنا احتلال أمّ الواقع على النيل فلا يستطيع أعداؤنا أن يصلوا إليها ، ويضطرون إلى الشرود في الصحراء حيث لا يستطيعون البيش ، إننا هنا كأنا في أقصى الدنيا ، وإن حالتنا محزنة ، وللإلحاح في النيل نكتشفها الأخطار ، وهامدا في قوص أنتظر منها كب قامت من إسنا منذ ستة أيام ولم تستطع الوصول إلى هنا ، ولو كان لدينا من السفن الحربية والذخائر أكثر مما عندنا لتحصفت حالتنا »

هنا ما كتبه ديزيه إلى نابليون ، ومن قيل كتب إليه غير مرة يطلب اللد ، ولكن نابليون كان مشغولاً بالحملة على سوريا فأخذ معه ما استطاع أخذه من القوات والذخائر ولم يرسل لديزيه إلا التزوير اليسير منها ، فاضطر ديزيه أن يكتفي بقواته لاستمرار الحملة على الوجه القليل ومواجهة الاضطرابات فيها ولم يجد ما يسد به النقص الذي وقع في صفوفه من المعارك والأمراض

#### موقف للماليك

بقى الجنرال ديزيه عدة أيام في قوص يرسم الخطط التي تقتضيها ضرورات الموقف العسكري ، وترك لكل من الجنرال بليار والجنرال فريان حرية العمل كل في جهته لمواجهة الهجمات التي استهدفت لها جبهة القتال الطويلة ، ثم اعتزم أن يواصل سيره شمالاً قاصداً إلى جهات جرجا وأسيوط ليقمع الثورات التي ظهرت فيها ، وكان يعتقد أنه سيواجه قوات كبيرة من ماليك مراد بك ومحمد بك الأتقي ، على أن الماليك كما ذهبهم لم يستهدفوا لمواجهة الجيش الفرنسي ، وتركوا عبء القتال على حاق الأهالي ، فقد بقي مراد بك في الواحة بعيداً عن ضربات ديزيه وجنوده وانسحب محمد بك الأتقي إلى اخميم ولحق به عثمان بك حسن ، وأخذ الماليك من أتباعهم يبحثون عن ملجأ لهم في القرى والمدن ، ويأخذ كثير منهم سلاحهم للأهالي ، وعرض بعضهم نفسه على الفرنسيين ليضموم إليهم ، وقد ذكر ريو<sup>(٢)</sup> حوادث ممينة لهذا

(١) أرسل دترلو إلى الجنرال برييه في ٢٤ فبراير سنة ١٧٩٩ من قوس يصح لإرسال حليفت جديدة إلى القيوم وبني سويف لتعمل على الجنود التي ترسل إلى أسيوط حتى لا تخلف هذه الواقع من جنود فيحطها للماليك وحلفاؤهم (الأهالي)

(٢) التاريخ العلمي والحربي لهذه القرية الجزء الخامس

التحول ، منها أن أحد مماليك عثمان بك حسن طلب من ضباط الجيش الفرنسي أن يأخذوه إليهم ، وحبسته أنه قبل أن يكون مملوكا كان مجرماً ( من سكان المجر ) ومن فرسان الجيش النمساوي فأسره الأتراك في بعض حروبهم مع النمسا وصار بعد ذلك مملوكا ، قبل الفرنسيون خدمته وانضم إلى صفوفهم ، ودخل آخرون في الجيش الفرنسي زاعمين أنهم كانوا جنوداً في الجيش النمساوي وأسروهم الأتراك وأرسلوا إلى الاستانة ثم نقلوا إلى مصر وصاروا في عداد المالك ، ويقول « ريبو » إن الفرنسيين قد قبلوهم في صفوفهم وصاروا من رجالهم الأمناء الشجعان !! ويدخل في هذا السياق أن نابليون جند في صفوف الجيش الفرنسي جميع المالك الذين تراوح أعمارهم بين الثامنة والسادسة عشرة ، وألحقهم بالجيش ليتدربوا على القتال في صفوفه فقاومة المالك قد تلاشت إذن أمام الجيش الفرنسي ، وتنفس الفرنسيون الصعداء للقضاء على خصم كان يخلق لهم المتاعب ، على أن مقاومة الأهالي كانت أشد وأنكى وأعظم أثراً في إضمار مركز الفرنسيين في الوجه القبلي

تحرك ديزيه من قوص يوم ٢ مارس سنة ١٧٩٩ وانتقل إلى الشاطئ الأيسر للنيل قاصداً أسبوط وضم إلى جيشه في الطريق الوحدات التي كانت موزعة على طول النهر وترك وراءه أسطول السفن الفرنسية بقيادة القومندان موراندى Morandi يتبعه عن بُعد ، وتسير مبطنة لاختلاف الريح

ناط الجنرال ديزيه قبل سيره من قوص بالجنرال بليار مهمة إخضاع مصر العليا من قنا إلى أسوان ، وطلب منه إبقاء خمسمائة جندي في إسنا واتخاذها مركزاً عسكرياً حصيناً لمراقبة البلاد شمالاً وجنوباً ، وتوزيع الوحدات المتحركة على البلاد الواقعة على النيل ، وكلفه التقدم إلى قنا وجعلها مركزاً حصيناً لمراقبة طريق القصير وطريق النيل

### ( معركة الصومامة )

٥ مارس سنة ١٧٩٩

علم ديزيه في طريقه إلى أسبوط أن الأهالي ناروا بقيادة مشايخ البلاد بالقرب من طهطا ، فعمد إلى الجنرال فريان مهاجمة الثائرين فالتقى بهم في الصومامة<sup>(١)</sup> يوم ٥ مارس ، وألقى نار الثورة مشتتة بها ووجد نحو ثلاثة آلاف من الفلاحين يحتلوها ، فهجم على المدينة بمجنوده واحتلها ، ودفع الثوار إلى النيل قُتل منهم عدد كبير قنرهم الجنرال ديزيه بألف قتيل وغريق

(١) الصومامة جنوبي طهطا وهي واردة بهذا الاسم في تهرير الجنرال ديزيه عن سائر الوجه القبلي

وصل ديزيه إلى أسبوط يوم ٨ مارس بعد أن وزع قواته على طول النيل في إستا وقتا وفرشوط وجرجا وطهطا وأسبوط ، فاتخذ من هذه المدن مهابا كز للحاميات الفرنسية ، وربب وحدات متحركة تجوب البلاد الواقعة بينها لإخضاعها وقمع حركات الثورة التي تبدو فيها

### كأرثة السفن الفرنسية في النيل

٣ مارس سنة ١٧٩٩

سبق الجنرال ديزيه عند سفره من قوص أسطوله الذي كان يسير ببطء في النيل ليلحق بالجيش في أسبوط ، وبعثت الشقة بينهما ، فانهز الأهالي هذه القرصة لهاجمة الأسطول وكان عدده نحو ١٢ سفينة حربية قل ذخائر الجيش ومؤوته ، تقدمها السفينة الحربية « إيطاليا » هاجم الأهالي هذه السفن يوم ٣ مارس سنة ١٧٩٩ على مقربة من قرية « بارود <sup>(١)</sup> » وأطلقوا عليها الرصاص فأجابت السفينة الحربية « إيطاليا » على هجمات الأهالي بإطلاق المدافع قتل منهم عدداً كثيراً ، لكن الأهالي ومهمم العرب القادمون من القصير نجحوا وازداد عددهم وزلوا النيل سباحة وهجموا على السفن فاستولوا عليها عنوة وأفرغوا شحناتها من الذخائر على شاطئ النيل ، ثم ركبوها وقصدوا إلى السفينة الحربية « إيطاليا » للاستيلاء عليها ، وكان يقودها القومندان موراندى Morandi ، فضاغت إطلاق الرصاص على المهاجمين ، ولكنه رأى رجال مدفعيته قد أمتختهم الجراح على ظهر السفينة ورأى من جهة أخرى جموع الأهالي من الشاطئ الأيسر يتحفزون للهجوم عليه ، ففكر في الانسحاب ولكن الريح ما كسته فجنحت سفينته ، وإذ ذاك هرع إليها الأهالي والعرب من كل صوب وحلب وصعدوا على ظهرها ، فتحقق موراندى الخطر المحدث به ، ولكنه أبى التسليم ، فأشعل النار في مستودع البارود وأتى هو ورجاله بأنفسهم في اليم قاصدين النجاة ، وانفجر مستودع البارود فنسف السفينة نسفاً وتجزعت شظاياا التنايل على الشاطئ قتل عدداً كبيراً من الأهالي ولكن الباقين منهم قاتلوا موراندى ورجاله في اليم فأت شتخناً بجراحه ، وقتل جميع الفرنسيين الذين كانوا على ظهر السفينة « إيطاليا » وعلى ظهر السفن الأخرى ، وكانت خسارة الفرنسيين جسيمة فبلغ عدد قتلاهم من البحارة والجنود خمسمائة قتيل ، وهي أكبر خسارة متى بها الجيش الفرنسي في الحملة على الوجه القبلي

---

(١) على الشاطئ الشرقى لنيل جنوبي قنا بالقرب من قوص وتسمى ( نبح البارود )

كانت السفينة « إيتاليا » قبل أن تستخدم في الحملة على الوجه القبيل سفينة نابليون الخاصة التي كان يركبها في النيل بإقاهرة ، وقد وصلت إليه أنباء هذه الكارثة وهو في حملته على سوريا أثناء حصاره لمكا ، فحزن حزناً شديداً على ما أصاب الفرنسيين فيها ، وما يؤثر عنه أنه تشام من فقد السفينة « إيتاليا » وتوقع أن تكون هذه الكارثة نذيراً بقتل ظل فرنسا عن البلاد الإيطالية لتشابه الاسم فقال لمن حوله متأثراً : « إن فرنسا قد قتلت إيطاليا ، إن شعوري لا يكذبني »

### من أسوان إلى قوص

كانت مهمة الجنرال بليار في القطاع الذي كلف بحايته شاقة مخوفة بالكاره ، فقد أخل أسوان يوم ٢٤ فبراير سنة ١٧٩٩ لإخضاع الحركات العدائية التي ظهرت على شاطئ النيل شمالاً ، فوصل إلى إسنا يوم ٢٨ فبراير ، وبعد أن تلقى تعليمات ديزيه سافر من إسنا يوم ٢ مارس بعد أن ترك بها قوة من أربعائة جندي بقيادة الضابط فاليت Valette وكلفه تحصين منزل حسن بك الجداوى ليكون معقلاً للحامية الفرنسية وكان يرافق بليار في مسيره بعض السفن تحمل الأقوات والتخاثر والجنود والجرحى والمرضى فوصل مساء ٢ مارس إلى ( الرزقات )<sup>(١)</sup>

وعسكر تلك الليلة هناك ، وفي اليوم التالي وصل إلى ( أرمنت ) وعسكر بها إلى اليوم السادس ، وفي هذا اليوم سار قاصداً إلى قنا ليدفع مناوشات الأهالي على طول النيل ، وقد وصلته الأنباء بأنهم يتجمعون على مقربة من بارود ، ولما وصل إلى قرية « قولاً »<sup>(٢)</sup> عبر النيل بجنوده وأخذ طريقه بالبر الشرقى ووصل إلى ( قوص ) يوم ٨ مارس ، وهناك تحقق من الكارثة التي حلت بأسطول السفن الفرنسية ببارود وعلم أن الأهالي وعرب الحجاز ( والماليك ) يستعدون لملاقاته بعد أن تزودوا من التخاثر والدافع التي استولوا عليها في معركة بارود النيلية

### معركة قفط

٨ مارس سنة ١٧٩٩

سار بليار قاصداً موقع الأهالي والعرب على مقربة من قفط وهناك التي يجمعهم الذين كانوا يرابطون في السهل وعدم نحو ثلاثة آلاف من الأهالي وعرب الحجاز و ٣٥٠ إلى

(١) جنوبي أرمنت بفرس (٢) شمال الأقصر



٤٠٠ من المالك ، والتي الجمعان في سهل فقط يوم ٨ مارس سنة ١٧٩٩ فكانت معركة حامية الوطيس اشتبك فيها القاتلون وجهاً لوجه وانتهت بهزيمة الأهالي والعرب وانسحابهم إلى أبنود

## معركة أبنود

٨ - ٩ - ١٠ مارس سنة ١٧٩٩

واصل الأهالي والعرب انسحابهم وهم يدافعون دفاعاً شديداً عن كل قرية وكل مكان ارتدوا إليه ، فلما وصلوا إلى أبنود تحصنوا فيها ونصبوا بها المدافع الفرنسية التي غنموها في واقعة بارود التيلية ، وأخذوا يطلقون النار منها ففتكت بالفرنسيين فتكاً شديداً ، وكانت هذه أول مرة واجه فيها الفرنسيون مدفعية حديثة في صفوف المصريين ، وقد أدرك الجنرال بليار لقوره أن موقفه أصبح محفوفاً بالخطر وأن منشأ الخطر وجود المدافع الفرنسية في يد المصريين ، فوجه قوة جيشه كلها للاستيلاء على هذه المدافع ونجح في خطته فاسترجع الفرنسيون مدافعهم وجردوا المصريين من أقوى سلاح كان في يدهم

واشتد القتال بين الفريقين وانسحب الأهالي والعرب إلى منازل القرية فتجدد القتال في طرقاتها وبيوتها ولم يتمكن الفرنسيون من التغلب عليهم إلا بعد أن أضرموا النار في منازل القرية كلها ، فأصبحت البلدة شملة من الجحيم ، وتساعد الالهب إلى عنان السماء واستحالت القرية إلى أكوام من الخرائب ، وبالرغم مما حل بها من الحريق والدمار فقد امتنع الأهالي والعرب في قصر حصين كان فيها مضي مقراً لكشاف المالك ، وفي مسجد يجاوره ، جموا فيه النخيزة التي غنموها من الفرنسيين ، فاشتد القتال حول هذا المنزل والمسجد المجاور له وتبادل الفريقان إطلاق النار إلى أن سجن الليل ، وتكبد الفرنسيون خسائر جسيمة فكفوا عن الضرب بعد أن أحرقوا المسجد وأخذوا يحاصرون المنزل طول الليل ويستعدون لاستئناف القتال في اليوم التالي ، ونصبوا المدافع بحيث تشرف عليه ، أما المالك فقد لبثوا يشاهدون هذه المجزرة بعيداً لم يأتوا شيئاً ولم يعملوا عملاً ما ، وعسكروا في الصحراء ، ذلك كان شأنهم في كل المعارك التي اشتد فيها القتال فكانوا يضنون بأرواحهم ويعرضون الأهالي فداءً وضحية استؤنف القتال في اليوم التالي (يوم ٩ مارس) ، فأعاد الفرنسيون ضرب القصر بالمدافع ، وهنا أقبل مدد من الأهالي والمالك لرفع الحصار عن هذا القصر ، فردهم الفرنسيون على

أعقابهم وشدّ دوا الحصار والضرب إلى أن تمكنوا من دخول إحدى ساحاته فأضرموا النار في بنائه ليكرهوا من فيه على التسليم ، فاشتعلت النار في غرف القصر وأوشك لحيها ودخنها أن يحنق المحصورين فنزلوا إلى ساحته واستمروا يقاتلون الفرنسيين بشجاعة اعترف بها بليار في رسالته إلى الجنرال ديزيه إلى أن جن الليل ، وكان قد قتل كثير منهم ، وتمكن بعضهم أن ينسلّوا تحت الظلام فأفلتوا من الحصار ونجوا بأنفسهم من النار المشتعلة

وفي صباح اليوم الثالث للمعركة (يوم ١٠ مارس) اقتحم الفرنسيون القصر فوجدوا الباقين به نحو ثلاثين قد أقدمهم الإعياء ونالهم الجراح ، ومع ما كانوا فيه من الهلاك فانهم استمروا على المقاومة إلى أن قتل الفرنسيون معظمهم

وبعد انتهاء المعركة فظاهر ممالك عثمان بك حسن بالرغبة في القتال كذبا ودعوى ، وكانوا أثناء القتال جامدين ، فسار إليهم الجنرال بليار قاصدا مهاجمتهم ، وما أسرع ما فروا في الصحراء فتركهم وعاد إلى أبنود

وجد الفرنسيون في القصر جانبا من التناثر التي قدوها في معركة بارود النيلية وكان الأهالي والعرب قد استقعدوا جزءا منها ، وكذلك استرد الفرنسيون المدافع التي كان الأهالي قد انزعوها من السفن الفرنسية واستولوا على ست رايات منها اثنتان للحجازيين وقدر بليار خسائر الأهالي وحلفائهم الحجازيين بخمسمائة أو ستمائة قتيل وثمانية إلى عشرة من المالكين وكثير من الجرحى ، وقدر خسائر الفرنسيين بنحو ٣٥ قتيل و ١٣٤ جرحى ، وكانت هذه المعركة من أشد معارك الحملة الفرنسية هولا وأطولها مدة ، فلقد كانت سلسلة معارك دموية دامت ٧٢ ساعة ، وكان حريق أبنود وما أصابها من الدمار أظف مأساة وقعت في معارك الحملة الفرنسية

وتجد صورة حريق أبنود ص ٣٣٧ كما رسمه السيو دينون الذي شاهد المعركة

#### حالة الشعب النفسية

بالرغم من انتصار الفرنسيين في معركة أبنود فقد أنهكهم القتال ونالهم الخسائر الجسيمة وفقدت ذخائرهم ، وأصبح من التضرع على الجنرال بليار متابعة القتال لنداحة الخسائر ، ومما زاد موقفه حرجا الروح المدائية التي سادت الأهالي في تلك الجهات بحيث كان الفرنسيون يشعرون أنهم محاطون بالأعداء من كل جانب وأن لا سبيل إلى استبقاء سلطتهم إلا بقوة السيف والنار ، وقد شعر قواد الجيش بتلك الحالة النفسية وأفضوا بها إلى القيادة العليا في رسائلهم وتقاريرهم ، ودونوها في مذكراتهم



معركة أبود ٨ — ٩ — ١٠ مارس سنة ١٧٩٩ — ( علا عن مجموعة رسوم السيو فيغان دينون )  
والصورة توضح إضرام الفرنسيين النار في أبود أثناء المعركة ، وترى النار مشتعة في القصر الحصين الذي  
كان الثوار محتلين فيه ، وفي المسجد المجاور له ، بعد أن أسرق الفرنسيون بيوت القرية

قال الجنرال بليار في يومياته : « إن كل القرى التي نجتازها نجدها خالية من السكان لأنهم يخلون قراهم قبل أن نصل إليها »

وقال في رسالة إلى الجنرال ديزيه عن معركة أبنود : « إننا نعيش هنا عيشة ضنكا فإن جميع القرى تنقر من السكان كلما اقتربنا منها ولا نجد فيها شيئاً من القوت ولا زى فلاحاً واحداً يدلنا أو يأتينا بالأخبار أو يحمل رسائلنا ، ولا أحدى السبب في هذه الحالة ، على أننا مع ذلك لا نعمل عملاً ضاراً في البلاد التي نجتازها »

وقال ديزيه في رسالة إلى نابليون<sup>(١)</sup> :

« ليس لدى معلومات ولا أخبار عن الجنرال بليار ولكنهم يؤكدون لي أنه حارب الأهالي والماليك وعرب مكة وهزمهم واسترد النخار والسفن التي اضطر جنودنا إلى التخلي عنها ، إن البلاد في ثورة ، وليس من السهل أن تتبادل الرسائل بسرعة ، وإلى أطلب الفخائر من القاهرة ، فقد نفدت ذخائرنا ، وسأزحف على شاطئ النيل الأيمن لاكتساحه وطرد الماليك وحلفائهم ، على أي لا أكتسك الحقيقة وهي أننا مع ذلك لا نكون سادة البلاد لأننا إذا أخذنا بلدة لحظة واحدة من الجنود حادت إلى حالتها القديمة »

وكتب الاديودان جنرال دزولو إلى الجنرال برتنيه من أسيوط في ١٧ مارس سنة ١٧٩٩ رسالة يستعجل بها الدد قال فيها :

« إذا لم تتفضلوا بإرسال الأدوية إلينا فإن مرضانا الذين يزداد عددهم كل يوم سيموتون من البؤس والعذاب ، ويحق لي أن أسألك هل نحن في منق سحيق بالصعيد فلا يذكرنا أحد ؟ إنني أكرر لكم أننا في بلاد أصعب مراساً من مديرية المنصورة وإذا سرنا إلى جهة من الجهات ظهرت الثورات في الأماكن التي يخليها الجنود ، فعلينا أن نكون دائماً على أهبة الزحف والتدمير ، فتي تنتهي هذه الحالة ؟ »

ورجع بليار بعد معركة أبنود قاصداً إلى قنا فوصلها يوم ١٢ مارس سنة ١٧٩٩ وأخذ في تحصينها ، واختار منزلاً كبيراً لأحد الماليك فاتخذ حصناً يشرف على المدينة وعلى النيل وجعله معسكراً للجنود وأخذ يبعث بالرسائل إلى الجنرال ديزيه لينبئه بموقفه ، ولكن رسله جميعاً قتلهم الأهالي في الطريق ولم ينج منهم إلا واحد بلغ أسيوط برسالة

رجوع ديزيه إلى قنا

أما الجنرال ديزيه فكان في أسيوط يرقب الحالة وينتظر رسائل بليار التي أبلغت عليه

(١) رسالة ديزيه إلى نابليون من أسيوط في ١٧ مارس سنة ١٧٩٩

كثيراً ، إلى أن وصلتته يوم ١٧ مارس سنة ١٧٩٩ رسالة منه يبيئه فيها بكارثة السفن الفرنسية في بارود ثم انتصار الفرنسيين في معركة أبنود ، ولم يخفف هذا الانتصار شيئاً من عظم الكارثة النيلية ، فإنها فضلاً عما لحق الفرنسيين فيها من خسارة الأنفس والأرواح قد أقعدتهم أعظم مستودع للذخيرة التي كانت تحملها السفن ، فأرسل ديزيه يستمجل المدد والذخيرة من القاهرة ، واعتزم أن يسير جنوباً إلى قنا ليشد أزر الجنرال بليار ويقمع حركات الثورة التي ظهرت في البلاد وبخاصة الواقعة على الجانب الأيمن للنيل

ترك ديزيه حامية في أسيوط وغادرها يوم ١٨ مارس بمجنوده ، وجعل طريقه على البر الشرقي ، وحمل مؤنثته وذخيرته في النيل وسارت الجنود على الشاطئ فوصل قبالة طيطا يوم ٢٠ مارس ، ثم إلى اخيم يوم ٢١ ، ثم قبالة جرجا يوم ٢٣ مارس ، وبقى عدة أيام في بلاد أحد المشايخ الذين اشتهروا بمقاومة الفرنسيين وهو الشيخ (عبد النعم) للتكنكيل به ، فأمر بقطع نخيله وإضرام النار في القرى التابعة له

ووصل يوم ٢٧ مارس إلى قنا فالتقى بالجنرال بليار ، وأخذوا يُعدان المدّة لاستئناف القتال وإخضاع البلاد

### معركة (بئر عنبر)

٢ أبريل سنة ١٧٩٩

وصل ديزيه إلى قنا فشدد وسوله عزائم الجنود وأخذ يتأهب لسحق المقاومة التي كانت هتلق الفرنسيين

إن انتصارات الفرنسيين لم تكسر شوكة البلاد ولم تضع حداً للمقاومة الأهلية ، فإن الأهالي وحلفاءهم من العرب والماليك كانوا يجمعون قلوبهم بعد المارك التي هزمهم فيها الجيش الفرنسي ، ثم يمددون لإثارة المقاومة واستئناف الهجوم ، وكل معركة ترك لهم تأراً على الفرنسيين ، وبذلك لا تنقضي معركة إلا ولّدت معركة جديدة

كتب الجنرال ديزيه يصف هذا التطور : « إن طبيعة الحرب في الوجه القبلي قد تغيرت ، لقد هزمنا الأعداء (الأهالي وحلفاءهم) في كل مكان ، ولكننا لم نسحقهم ، ومن الواجب أن نصل إلى هذا النرض ، وللوصول إليه سأنظم وحلت متحركة لإكراه الأعداء على أن يظاوا منقطعين في الصحراء القفرة أو على الأقل نضطربهم لقطع مسافات شاسعة ليصلوا إلى المناطق المزروعة »

شرع ديزيه يوجه قواته لستحق رجال حسن بك الجداوى الذين انمحبوا بعد معركة أبود إلى جهة ( الجطة ) في طريق القصير ، فجمع في هذه الحملة كتيبة من ١٥٠٠ من خيرة جنوده وأتجه جنوبا عماديا البر الشرق للنيل ضاربا في الصحراء ، فوصلت الفرقة إلى ( كفر اسما ) وهي قرية صغيرة في سفح الجبل ، ثم وصلت إلى ( بئر عنبر ) وهي بلدة واقعة على الطريق الناهب من قنا إلى القصير ، ثم وصلت إلى ( القريية )<sup>(١)</sup> وعسكرت بجباها ، وكان ديزيه يرى إلى قطع الطريق على رجال حسن بك الجداوى حتى لا يصلوا إلى النيل يأخذ الطريقين الموصلين إليه من ( الجطة ) ، وهما طريق بئر عنبر وطريق ( حجازه )<sup>(٢)</sup> الواقعة جنوبى قوص بقرب الجبل الشرق ، فاحتل بئر عنبر وعهد إلى بليار باحتلال حجازه فاحتلها ، وبذلك تم للفرنسيين احتلال رأسى الطريقين الموصلين إلى النيل ، وأخذ الجنرال بليار وهو في حجازه يستطلع حركات المالك وحلفائهم الذين كانوا في ( الجطة ) يتحفزون للتقدم يريدون النيل ، فلما علم ديزيه بمقصدهم سار بمجنوده في صباح يوم ٢ ابريل لمنازلهم .

فلما كان على مسيرة ساعة من ( بئر عنبر ) التقت طلائع جيشه من الفرسان بقوة المالك والأهالى يقودهم حسن بك الجداوى ويساونه عثمان بك حسن وكان عددهم نحو خمسمائة من المالك وألف من الأهالى كما يقدم الجنرال ديفرنوا<sup>(٣)</sup> Desvernois في مذكراته

فدارت معركة شديدة بين الفريقين بالقرب من ( بئر عنبر ) تلقت فيها كتيبة الفرسان صدمة الهجوم وتأخر المشاة عن المعركة لوعورة الطريق وسوءية السير في الرمال ، وكان يتولى قيادة الجيش الفرنسى الجنرال ديزيه بعاونه الجنرال دافو ، وقتل في المعركة عدد من الضباط الفرنسيين ، منهم الكولونل دوبليس Duplessis والضابط بواتييه Bouvatier وبلغت خسائر الفرنسيين ٤٤ قتلا و ٢٠ جريحا وهى خسارة كبيرة تدل على اشتداد القتال في تلك المعركة .

ويقول الجنرال ديفرنوا في مذكراته إن ديزيه قد استهدف للخطر وكاد يقضى عليه لولا أن اقتده الكولونل دوبليس بحياته ، وانتهت للمعركة بانسحاب المالك وحلفائهم إلى

(١) جنوبى ققط

(٢) وهناك طريق ثالث يصل من الجطة إلى الردية ولكنه طريق سيئ الشقة وعمر المسالك قليل الأبار

(٣) من ضباط جيش ديزيه



مقتل الكولونل دولبي في معركة بئر عتيد - ٢ أبريل سنة ١٧٩٩ - ( قالا عن مجموعة رسوم  
المسيو فينان دينون ) ، وترى في الصورة الكولونل دولبي يهجم على عثمان بك حسن وكلاهما راكبا  
جواده فضاحه أحد فرسان عثمان بك بطشة رمح أودت بحياته

( الجبلية ) في طريق القصير بقيادة حسن بك الجداوى لكن حسن بك لم يبق بالجبلية طويلا وارند جنوبا قاصداً إلى أسوان

وترى في الرسم رقم ص ٣٤١ صورة معركة ( بئر عنبر ) ومقتل الكولونيل دوبلسى كما رسمها السيوفيان دينون ، وكان من شهودها

أما الجنرال بليار فقد كان مرابطاً في ( حجازة ) ليقطع طريق الانسحاب على المماليك وحلفائهم ، ولكن هؤلاء مغنوا في طريق الرسمية يقصدون إلى النيل ، فقيمهم بليار بمجنوده ووصل إلى الرسمية يوم ٨ ابريل ، غير أنه لم يتركهم وكانوا غادروها قبل قدومه قاصدين إلى أسوان ، وهذه هي المرة الثانية التي انسحب فيها المماليك إلى أسوان ، وخشى بليار أن يتأخر بمن معه من الجنود في متابعتهم في الصحراء فعزل عن اللحاق بهم ، واستنداه الجنرال ديزيه ليرابط في قنا التي كانت موقفاً عسكرياً على جانب عظيم من الأهمية

### تجدد الثورة بين قنا وجرجا

عاد بليار إلى قنا بعد أن ترك حاميات من الجنود في قوص وإسنا ، وقبل أن يصل إلى قنا غادرها الجنرال دافو إلى جهات جرجا وأسيوط ليقمع الحركات الثورية التي تجددت فيها . ذلك أن الجنرال ديزيه قد وسلته الأنباء أن الأهالي والمماليك قد انتهزوا فرصة خلو البلاد من القوات الكافية فاستأفوا حركاتهم الثورية في مديرية جرجا ، وأن جموع الثائرين من الأهالي وحلفائهم العرب والمماليك احتشدوا بالبر الشرق لقطع مواصلات الجيش الفرنسى ، فأنفذ الجنرال دافو بفرسانه لإخضاع البلاد اثائرة قبا بين قنا وجرجا ، وعهد إلى الكولونل موراند Morand قومندان مديرية جرجا بإحلال الأكلت للشرقة على النيل قبالة جرجا ليأخذ الطريق على الثائرين إذا أرادوا عبور النيل

### واقعة برديس

٦ ابريل سنة ١٧٩٩

تحرك الجنرال دافو ووصل إلى دشنا ، فحضر الأهالي بمخطر الإحداق بهم ، فعبروا النيل شمالى برديس وصاروا بالبر الشرق ، فسار إليهم موراند والتقى بهم في ٦ ابريل على مقربة من برديس وكانوا مجموعاً كثيرة من الأهالي والعرب تجمعوا في برديس متأهبين للقتال ، وانضم إليهم سكان القرى المجاورة ، فتبادل الفريقان إطلاق الرصاص بشدة ، وهجم الأهالي والعرب على



جنود موراند مرتين ، فمجز موراند عن اقتحام هذه الجوع وتهقر إلى جرجا ليحمى مواقع  
الفرنسيين بها

### واقعة جرجا

٧ ابريل سنة ١٧٩٩

شجع تهقر موراند الأهالي والماليك فتابوا هجومهم ومضوا قاصدين احتلال جرجا ،  
وتضاعف عددهم في الطريق عن كان ينضم إليهم من سكان البلاد التي مروا بها ، فقد  
الجنرال دافو عددهم بثلاثة آلاف من الفلاحين مجتمعوا من القرى المجاورة يعاونهم جماعة من  
الماليك وعرب الحجاز ، وهجموا على جرجا يوم ٧ ابريل ، وتمكن فريق منهم من النخول فيها ،  
لكن الحامية الفرنسية بقيادة موراند صدتهم عنها بعد قتال عنيف وخسر المهاجمون عدداً  
من القتلى قدره الجنرال دافو بمائة وخمسين قتيلاً ، كما قدر خسائر الفرنسيين بستة من القتلى  
و ١١ جرحاً

### واقعة جهينة

١٠ ابريل سنة ١٧٩٩

امتدت الثورة إلى طهطا فاستولى الثوار عليها ، وسرت إلى القرى المجاورة ، فأقبل الضابط  
لاسال Lassale بمجنوده قادماً من أسبوط والتقى بالثوار يوم ١٠ ابريل في جهينة<sup>(١)</sup> وحاصرها  
الفرنسيون وضربوها بالمدافع ، ودار قتال شديد داخل البلد وامتنع الثائرون في دار حصينة  
بها اتخذوها مقبلاً وقاوموا بها عدة ساعات ، ثم اقتحم الفرنسيون تلك النار واستولوا عليها  
وقتلوا من صادفهم بها من الأهالي والعرب وقدر دافو عددهم بثلاثمائة من القتلى

### الثورة في بني عدى

وصل الجنرال دافو إلى جرجا ثم إلى طهطا ، وعلم بنياً هاتين المركبتين ، فتابع سيره إلى  
أسبوط ووصلها يوم ١٦ ابريل ، وهناك رأى أن الثورة امتدت إلى أسبوط وسرت إليها من

---

(١) جنوبي طهطا ، ذكر الرحوم على باشا مبارك في خطه التوفيقية موقعها في مديرية جرجا وقال  
عنها : « ان أهلها أكثر من عشرة آلاف هن من عرب جهينة القبيلة المجهورة ولهم كرم زائد وشهامة  
وضاعة لسان وذكاء وفضلة وثبات جنان » ، وهي واقعة على القرعة السوهاجية

فلول الأهالي والعرب الذين انهزموا في جرجا ونجھينة وانسحبوا شمالاً بمجمهم أهالي القرى التي في طريقهم حتى وصلوا قريبا من أسيوط ، ومعهم نحو مائتين من المالك ، فأخذوا يحرضون الناس على الثورة ويستحثونهم لقتال الفرنسيين ، وكانت خطتهم محكمة التعدير واسعة المدى كما اعترف بذلك ديزيه في تقريره إلى نابليون ، وأخذ الثوار (بنى عدى) معسكراً للثورة ، وهى بلدة كبيرة واقعة على طرف الصحراء غربى منفوط وعلى طريق الواحة التى كان مراد بك لاجئاً إليها ، وكان لهذه البلدة أهمية كبيرة بالنسبة لموقعها وعدد سكانها وثروتها<sup>(١)</sup> ، واشتهر أهلها من قديم الزمن بالقوة وشدة البأس ، فكانوا في عهد المالك يقاومون مظالمهم فأنقذوا الثوار مركزاً لهم واجتمع بها ثلاثة آلاف من الأهالي للمساعدة ، وانضم اليهم ٥٥٠ من العرب المصريين وثلثائة من المالك

كانت هذه القوة لا يستهان بها ، فسار دافو بجنوده قاصداً بنى عدى للاستيلاء عليها ووقع الثورة فيها ، فلما وصل اليها ( يوم ١٨ ابريل سنة ١٧٩٩ ) أتى أهلها جميعاً يحملون السلاح ويتحزون للوثة والقتال ، وكان المالك لم يزالوا في الصحراء بعيداً عن بنى عدى ، فهدد دافو إلى الكولونل بيتون Pinon باحتلال غابة تحصنت بها طلائع الأهالي ، فتمكن من إجلائهم عنها وارتدوا إلى المدينة ، فتعقبهم الكولونل بيتون ، ولما اقترب من المدينة أطلق الأهالي الرصاص على الجنود من المنازل فأصيب بيتون برصاصة أردته قتيلاً ، فعين

(١) يقول دافو في رسالته إلى الجنرال دوجا عن ( بنى عدى ) « إنها من أكبر بلاد الوجه القبلى سكاناً وأغناها وأبظلمها مكانة ، وإن الثورة عمت فيها من أقصاها إلى أقصاها وأن أهلها كانوا يرسلون جماعات منهم إلى شاطيء النيل لمهاجمة السفن الفرنسية » وذكر العلامة على بلشا مبارك بنى عدى في الجزء السابع من خطه فقال عنها : « إنها بلدة كبيرة من قسم ( مركز ) منفوط بمحافة بساط الجبل غربى منفوط وهى ثلاث قرى القبلى والوسطى والبحرية ، وأبيتها بالأجر والبن وبها جوامع كثيرة عامية ، وهى طريق الواحات وعلى مسيرة ثلاثة أيام وإليها ترد محصولاتها من القمح والأرز والنبالة ومنها يرسل إلى القاهرة وفيها تنسج أحرمة الصوف والأقفى الصوفية الجيدة » ، وهى مشهورة إلى اليوم بصناعة الأكلة المتينة والأحرمة الجيدة ، وقال على بلشا مبارك عن أهلها « إنهم قوم كرام ذوو هم عالية وذكاء وفطنة وفصاحة قبل لهم من قبيلة بنى عدى المشهورة القرشية ، وهى أيضاً مشهورة بالعلماء من قديم الزمن والأزهر لا يغفلوا أبداً عنهم ومنهم للدرس والفقهاء قديماً وحديثاً » وذكر من بينهم الشيخ على المدوى المالكي وأورد ترجمته خلا عن الجبرى في وفيات سنة ١١٨٩ هجرية قال عنه الجبرى « إنه كان شديد الشكينة يصعد بالحق وأمر بالمروف ويحب الاجتهاد في طلب العلم ، وكان ينهى عن شرب الخان ويمنع من شربه بحضرة ، وكان إذا دخل منزلاً من منازل الأشراف ورأى من يعرب الخان نهى عن شربه فيقتضى في الحال وشاع عنه ذلك حتى ترك الناس شربه بحضرة ، ودخل يوماً على علي بك الكبير (وهو على ما تعرف من السطوة وشدة البأس) فأخبروه قبل وصول الشيخ إلى جلسته فرفع الشيك من يديه وأمر بإخافته من وجهه ولما مات على بك الكبير واستحل بإمارة مصر محمد بك أبو القهب كان يظلمه ويحبه ولا يرد شفاعته »

دافو الضابط راباس Rabasse بدلا منه ، فاستمر الجنود بقيادة راباس يقاتلون الأهالي ، وهنا حضر المالك لتجنسهم ولكن لم يكدر راباس يتحول اليهم لمنع اتصالحهم بالأهالي حتى ارتدوا لأول صدمة وانسحبوا راجعين إلى الواحة التي قدموا منها وتركوا الأهالي وحدهم يتلقون هجمات الجيش الفرنسي ، فاشتبك الفريقان في معركة حامية دارت رحاها في طرقات بني عدى وفي بيوتها التي حصنها الأهالي وجعلوا منها شبه قلاع كان الرصاص ينهال منها على الجنود ، فلقى الجيش الفرنسي ببني عدى من المقاومة ما لم يلق مثله في كثير من البلاد

استمر القتال إلى الليل وانتهت المعركة بقلبة المدافع والثران الفرنسية على مقاومة الأهالي ؛ ذلك أن الفرنسيين لم يحجزوا عن الاستيلاء على بني عدى لجأوا إلى وسيلة الحريق التي اتبعوها في أبندو وغيرها ، فأضرموا النار فيها ، فامتدت إلى بيوتها كافة ، وأصبحت البسلة كأتون من نار ، وبهذه الوسيلة غلب الجيش الفرنسي على مقاومة بني عدى واحتلها الجنود وأمنوا في أهلها قتلا ونهباً

قال الجنرال برتييه رئيس أركان حرب الحملة الفرنسية في مذكراته : « أصبحت ببني عدى أكواما من الخراب ، وتكسعت القتلى في شوارعها ، ولم تبق بحجرة أشد هولاً مما حل ببني عدى »

وقدر الجنرال دافو عدد القتلى من الأهالي بألوف قتيل ، ويقدرهم ديزيه في تقريره إلى نابليون بنحو ثلاثة آلاف ، والواقع أن معظمهم مات من الحريق الذي أضرمه الفرنسيون في البسلة ، وقد احتل الجنود البيوت بحجة التفتيش عن الثاثرين فنهبوا ما تصل إليه أيدي اللصوص ، وكانت ببني عدى مشهورة بما كان يأتيها من أموال القوافل القادمة إليها وما كان يحفظه فيها أعيان البلاد المجاورة من الودائع ، فنهبها الفرنسيون واستولوا على سناديق كاملة مملوءة بالنهب والمال

قال دافو عن النهب الذي وقع في بني عدى : « إن الغنائم التي استولى عليها الجنود قد عوضتهم ماقتدوه ، وكثير منهم كان نصيبه ١٥ ألف فرنك وبعضهم ٢٠ ألف فرنك ذهباً »

وقال ديزيه : « إن غنيمة جنودنا كانت عظيمة وكثيرون استولوا الواحد منهم على عدة آلاف ريال »

### رواية الجبرتي عن ثورة بني عدى

وصلت أخبار فظائع الفرنسيين في بني عدى إلى القاهرة ، فكتب عنها الجبرتي ما على ( في حوادث شهر ردى القعدة سنة ١٢١٣ ) :

« حضر إلى مصر الأكثر من عسكر الفرنسيين الذين كانوا بالجهة القبيلة ، وضربوا في حال رجوعهم بني عدى بلدة من بلاد الصعيد مشهورة وكان أهلها ممتنعين عليهم في دفع المال والكلف ( الترامات ) و يرون في أنفسهم الكثرة والقوة والمنعة ، فخرجوا عليهم وقاتلهم ، فلك عليهم الفرنسيين تلاً عالياً وضربوا عليهم بالمنافع فأنلقوم وأحرقوا جرونيهم ثم كبسوا عليهم وأسرفوا في قتلهم ونهبهم ، وأخذوا شيئاً كثيراً وأموالاً عظيمة وودائع جسيمة للنز ( المالك ) وغيرهم من مساتير أهل البلاد القبيلة لظن منهم ، وكذلك فعلوا بالميمون »

ولهذه المناسبة هول إن الجبرتي لم ينع كثيراً بحوادث المقاومة في الصعيد ، ولم يذكر عنها إلا نبذاً ضئيلة متقطعة حكى فيها ما كان يسمعه من أفواه بعض السافرين ، وهي ليست ذات قيمة ، وليس فيها الدقة والاستقراء اللذان امتاز بهما الجبرتي في سرد حوادث القاهرة على أنه لا يفوتنا التنويه بأن الجبرتي في إشارته إلى موقف المالك في الوجه القبلي رمام بالجن وعدم الثبات في ميادين القتال ، فقد ذكر في حوادث شبمان سنة ١٢١٣ أن السفار ( السافرين ) أخبروا « بأن مراد بك ومن معه ترفعوا ( ابتعدوا ) إلى قبلي ووصلوا إلى عقبة الهواء ، وكما قرب منهم عسكر فرنساوية انتقلوا وقبّلوا ، ولقد داخلهم من فرنساوية خوف شديد ، ولم يقع بينهم ملاقة ولا قتال » ، وذكر في موطن آخر في حوادث شبمان أيضاً : « وركب النز وحاربوا الفرنسيين فلم يثبت النز كما كتبهم وأنهمزوا » ، وقال عن مراد بك : « أنه يئلب على طبعه الخوف والجن مع التهور والطيش والتورط في الإقدام مع عدم الشجاعة ولم يهد عنه أنه انتصر في حرب باشرها أبداً على ما فيه من الإدعاء والنزور والكبر والخيلاء والميلف والظلم والجور كما قال القائل : أسد على وق الحروب نمانة <sup>(١)</sup> »

في النيا وبني سويف

امتدت الثورة إلى مديرتي النيا وبني سويف فسار دافو إلى النيا لإخمادها

وسر الجيش في طريقه ببعض القرى فكان الأهالي يمتنعون البتة عن مساعدته أو إمداده بالأتوات التي يطلبها ، فأخذ ينكل بالقرى والبلاد بحجة أنها في حالة ثورة ، وكان أكثرها استهدافا لانتقام الفرنسيين في هذه الرحلة بلفة ( أبو جرج )

### واقعة ( أبو جرج )

وصل الجيش إلى ( أبو جرج ) فأرسل الجنرال دافو من قبله رسولا إلى أهلها ليقدموا المؤونة للجنود ، فرفض شيخ البلدة ( الممددة ) أن يقدم شيئا ، فأرسل دافو رسولا آخر فرده الأهالي خائبا ، فأمر بمحاصرة البلدة وإضرام النار فيها انتقاماً من أهلها وأقبل الأهالي من القرى المجاورة يحملون السلاح لنجدة ( أبو جرج ) ، فامتلت بهم الزراع وتبادل الفريقان إطلاق الرصاص ، واستمر القتال ساعتين وأضرم الجنود النار في البلدة فالتهمت مساكنها واحترق بها كثير من أهلها ، وقدر الجنرال ديزيه عدد القتلى من أهالي أبو جرج بألف قتيل

### الثورة في النيا

كان الجنرال ديتريس <sup>(١)</sup> قائدا للحامية الفرنسية في النيا ، وقيل أن يصل الجنرال دافو إليها شبت الثورة في البلاد المجاورة لها ، فواجهها الجنرال ديتريس بالقوات التي تحت قيادته ونشبت معارك ثلاث في ثلاثة أيام متوالية تحت أسوار مدينة النيا

اليوم الأول - ففي ٢٣ ابريل سنة ١٧٩٩ بمجر نحو ٤٠٠ من الأهالي ومثلهم من عرب الخجاز في قرية ( طهناش ) <sup>(٢)</sup> جنوبي النيا واستعدوا للهجوم على الحامية الفرنسية في النيا وأرسل زعيمهم إلى شيخ بلدة النيا يطلب مظاهرهم على عدوم ، فلما علم الجنرال ديتريس بنبأ هذا الهجوم عزم على أخذه قبل أن يهاجموه فترك في النيا فصيلة صغيرة من السكر وخرج يباقي الجنود وقصد إلى معسكر الثائرين بالقرى من ( تله ) <sup>(٣)</sup> التي تبعد عن النيا غربا بنحو ثلاثة كيلو مترات ، فلما اقترب منهم الجنرال ديتريس برزوا من معسكرهم لقاتلته فدارت معركة بين الفريقين بدأت بالاحدق بالجنود الفرنسية ولكن الجنرال ديتريس جعل من قوته حريصا على الطريقة الفرنسية وسلط مدافعه على جموع الثائرين واستمر القتال أربع ساعات ثم انسحب الفرنسيون فتمتعهم الثائرون قاصدين النيا ولكنهم لم يستطيعوا اقتحام أسوار المدينة وكان الليل

(١) من قواد الجنرال ديزيه

(٢) و (٣) من بلاد مركز النيا

قد أقبل فارتدوا إلى (تله) وانتهز الجنرال ديتريس فرصة الليل قربت مخافره واستعد اليوم الثاني  
اليوم الثاني — وفي اليوم الثاني وقف الجنرال ديتريس يحفزه خارج المدينة في موقع  
منيع تحميه القار والحداثق ، وأوقف الرماة خلف أكلت عالية ، وأقبل الثائرون يصيحون  
صيحات القتال ويتقدمون بشجاعة وإقدام ، وكان عددهم قيزاد عن انضم إليهم من سكان  
القرى الواقعة على شاطئ النيل ومن رهاط من المالك قنموا من الجنوب ، فامتلا السهل المجاور  
للمدينة على مسافة فرسخ بالمقاتلين ، ودارت المعركة من جديد ، وكان الفرنسيون متخذين  
خطة النفاق ، فاستمروا يذفمون الهجمات مدة ساعتين ، ولكن القصة التي كانت تدافع عن  
الباب الشمالي للمدينة اضطرت تحت ضغط الثائرين إلى الارتداد داخل البلد والاتجاء إلى  
مسكر الحامية ، فاضطر الجنرال ديتريس إلى اللحاق بهم ، وفي هذا الوقت تمكن الثائرون  
من اقتحام باب آخر من ابواب المدينة فدخلوها يتدقون من كل صوب وملأوا الشوارع ،  
لكن الجنرال ديتريس جمع رجاله وأمرهم بإطلاق النار وأرسل فسانته إلى أهم شوارع  
المدينة لاحتلالها فتسكن بذلك من رد الثائرين بعد أن حلت بهم الخسائر الجسيمة ، وفي نحو  
الساعة الأولى بعد الظهر عادت السلطة إلى قبضة الفرنسيين وانسحب الثائرون

اليوم الثالث — ظن الفرنسيون أنهم أصبحوا في مأمن من هجومهم ، ولكن في صباح  
اليوم التالي (يوم ٢٥ ابريل) أقبل أربعمائة فارس من العرب يظهرون جماعة من المالك وهاجموا  
الفرنسيين ، وكادت تدور المأثرة عليهم لولا وصول الجنرال دافو بقواته فهزم الثوار وعادت  
السكينة إلى المدينة

وعما ساعد الجنرال ديتريس على رد هجمات الثائرين أن معظم أهالي البندر ومشايخه لم  
يضموا إليهم ، ويقول ديتريس في رسالته إلى الجنرال دوجا إن حامية النيا سلت من القتل  
بفضل مشايخ البلد في النيا والقرى الأكبر من أهلها ، وأنهم لو حملوا السلاح في وجه  
الفرنسيين لما بقي منهم أحد<sup>(١)</sup> ، ويؤخذ من ذلك أن طائفة من أهالي النيا قد انضموا إلى  
الثائرين وبقي الفريق الأكبر منهم على الحياد ، وقد أعلن الجنرال ديتريس مكافأة أهل النيا  
بأخص المال الغروض عليهم في ذلك المام بمقدار الثلث ، وقرر حمل هذا الثلث على قرى ثلاث  
من البلاد التي اشتركت في الثورة

### الثورة في أخطيح

وصل الجنرال دافو فرسانه إلى النيا كما قلنا وتابع سيره إلى بني سويف ، ومن هناك

(١) رسالة ديتريس إلى الجنرال دوجا في ٢٧ ابريل سنة ١٧٩٩

عزم على عبور النيل لجمع الثورة التي ظهرت في مديرية المظفيح ، ولكن الجنرال دوجا أرسل يستدعيه على عجل إلى القاهرة إذ بدأت الحالة تضطرب فيها من أجل حركات الهياج التي ظهرت في بعض أنحاء الوجه البحري<sup>(١)</sup> ، وكانت القوات الفرنسية قد قصص عددها في القاهرة والوجه البحري عامة لما أخذه معه نابليون من الجنود في حملته على سوريا ، فاضطر دافو أن يعود من قوره إلى القاهرة فأحدثت عودته قصصاً في صفوف الجنود الفرنسية في الصعيد وأرسل الجنرال ديزيه إلى الجنرال دوجا يشكو من عواقب استثناء الجنرال دافو وفروسانه إذ كان أكثر اعتياده في قمع الحركات الثورية في الصعيد على فرقة الفرسان هذه ، وقد نهى في رسالته إلى الخطر الذي يهدد الفرنسيين في بني سويف وأن وجود الجنرال دافو ضروري لهذه المديرية

### حركات الجنرال ديزيه

كان ديزيه مقبياً في قنا حينما أقعد الجنرال دافو لجمع الثورة في مديريات جرجا وأسيوط والمنيا ، فلما وصلتته أنباء معركة بريدس وجرجا ورأى فيها خطورة الثورة عزم على مناصرة قنا والحقاق بدافو ليساعده في مهمته ، فناط بالجنرال بليار قيادة الحركات العسكرية في قنا وإدارة مديرية طيبة ( قنا ) وتلازم هو قنا يوم ١٣ أبريل سنة ١٧٩٩ فسار بمنجوده برأ وهزل المؤن والتخاثر على السفن ومشت الفرقة مثبته لترافق السفن ولا تبتمد عنها ، ويظهر أن الجنرال ديزيه قد اعتبر بما حل بالسفن الفرنسية من قبل إذا هي تخلفت عن جنود البر ، فأثر أن يحاذيها بمنجوده على الشاطئ ولم يصل إلى جرجا إلا يوم ١٧ أبريل مساء فأرسل منها تعليماته إلى الجنرال بليار كلفه فيها مواصلة العمل على سحق حسن بك الجداوى وعثمان بك حسن ورجلها ، ونصح إليه أن يجمع ثلثمائة هجين لتقل جنوده إلى الجهات التي تظهر فيها الحركات الثورية ، وبذلك تطوى له المسافات طياً ، وأمره أن يحتل القصر ويوطد السلطة الفرنسية على سواحل البحر الأحمر وأن ينظم مديرية طيبة تنظبا بالنوا ويلمح أموال الليري وينظم الشرطة بها ، وأوصاه بالصرامة والقسوة في إخضاع الأهالي ، قال في رسالته في هذا الصدد : « إن هذه هي الوسيلة التي نحصل بها على شيء من النفوذ والسلطة والطمأنينة ، وعليك أن تأمر بقطع رأس كل من لا يطيع أوامرنا من مشايخ البلاد ( الممد ) وقطع التخيل وإحراق القرى الثائرة وأرب تتحرى وتبثح لمعرفة القرى التي اشتركت في الهجوم على سفنتنا وفي

للذخيرة التي أودت برفاقنا التمساء ( في بارود ) وأن تماقبوم بأشد ما يمكن من القسوة ، وأن  
تفرضوا عليها غرامة لا تقل عن عشرة آلاف ريال »

### مشروع الحملة على القصير

وعنى ديزيه أشد العناية بالحملة على القصير ، فكتب عدة رسائل يستحث فيها الجنرال بليار  
لإفادها إذ يرى فيها طريقة فعالة في إرساخ قدم الفرنسيين في الوجه القبلي ، فالقصير هو  
الثغر الوحيد الواقع على البحر الأحمر الذي يصل منه المدد إلى بلاد الوجه القبلي فنه جاء عرب  
الحجاز الذين شددوا أزر الأهالي في مقاومة الفرنسيين ، وكان الإنجليز يترددون من أن  
لاخر على هذا الثغر فازعج الفرنسيون من هذه الحركات وعزم ديزيه على احتلال هذا الموقع  
لسد للسبل إلى الوجه القبلي

### تنظيم البريد

ورأى ديزيه وهو في جرجا أن ينظم البريد بين الحاميات الفرنسية ليحتمل بينها اتصالا  
مستمرا يقيها المفاجآت ، وناط عمل البريد بفرسان مسلحين يقطعون مراحل محدودة ويتفكرون  
عند كل مرحلة إلى أن تصل الرسائل إلى الجهة المقصودة وأمر أن يسافر البريد كل يوم من  
جرجا حتى يصل إلى قنا ، وقسم المسافة بين جرجا وقنا إلى المراحل الآتية :

من جرجا إلى برديس ، ومن برديس إلى فرشوط ، ومن فرشوط إلى هو ، من هو إلى  
دشنا ، من دشنا إلى السمطا ، من السمطا إلى قنا ، وطلب ديزيه من بليار أن ينظم البريد  
على هذه الطريقة من قنا إلى إستا ، وكلنه أن يأمر ( قائمقام ) كل بندر أن يكون معدا لتقل  
البريد يوميا في منطقتة

### اعتقال الرهائن

سار ديزيه من جرجا يوم ١٨ إبريل قاصداً إلى أسيوط فر بالانشاء فسوهاج فطهطا فالتنام  
وقضى أياماً يتفقد أحوال تلك البلاد ويدبر الوسائل لإخضاعها ثم وصل يوم ١٥ مايو إلى  
أسيوط فاتخذها مركزاً لقيادته وقضى عدة أسابيع في إعداد الوسائل والتدابير لإخضاع البلاد  
وتنظيم قوات الشرطة ، وقد رأى في رحلته الأخيرة بعديري جرجا وأسيوط أن الحاميات  
الفرنسية لا قبل لها بإخضاع الأهالي فلجأ إلى اعتقال بعض الأميان بصفة رهائن من كل



بلد ليكونوا مسئولين عن الحوادث والاضطرابات في بلادهم وبلغ عدد هؤلاء الرهائن الذين اعتقلهم من جرجا وما يليها إلى أسيوط مائتي رجل من الأعيان أقام أسرى في أسيوط وكتب إلى الجنرال بليار يوسيه باعتقال الرهائن من منطقتهم وأن يكون عددهم أكثر ما يبلغه الإمكان

وقد كان لدى ديزيه من التدابير الحربية الهامة احتلال القصير وتجريد حملة من المجاعة لمحاربة مراد بك وكان لا يزال مرابطاً في الصحراء ، ومطاردة محاليك حسن بك الجداوى وعثمان بك حسن في جهات أسوان ، ومع أن مراد بك لم يكن معه من فلول المماليك سوى عدد يتراوح بين ثلاثمائة وأربعمائة مملوك فإن ديزيه لم يكن لديه القوة الكافية لنزوه في معقله وكان استدعاء الجنرال دافو وفرسانه إلى القاهرة قد أضعف قوة الجيش الفرنسي في الصعيد وآل بها إلى النقص

### واقعة أسوان

١٦ مايو سنة ١٧٩٩

انسحبت فلول حسن بك الجداوى بعد معركة بئر عنبر<sup>(١)</sup> جنوباً إلى ما وراء الشلال ، ولما آمنت من الجنود الفرنسية ضعفاً اقتربت من إسوان متربة الفرصة لاحتلالها ومناوشة الجامييات الفرنسية على النيل ، وكان الضابط إبيلر Epplier مرابطاً في إسنا بكتيبة من خمسمائة جندي يراقب حركات حسن بك الجداوى ويمنع عودته من وراء الشلال ، على أن حسن بك تقدم برجاله واحتلوا أسوان وامتتموا بها وبعثت طلائعهم شمالاً فوصلوا إلى ( دراو ) فسار إليهم الكابتن رينو Renaud من أدفو بكتيبة من الجنود ولكنه لم يدرهم بدراو فتعقبهم إلى أن التقى بهم على بعد فرسخين إلى جنوب أسوان ففشبت بين الفريقين يوم ١٦ مايو معركة شديدة جرح فيها حسن بك الجداوى جرحاً بالئاً وأصيب عثمان بك حسن وانهت المعركة بهزيمة المماليك بعد أن قتلوا خمسين قتيلًا وستين جريحاً ، وقار الفرنسيون عليهم فوزاً عظيماً وصفه نابليون في مذكراته التي أملاها على الجنرال برتران في سانت هيلين بأنه « أجل انتصار في حملة مصر » ويقول نابليون إن الفرنسيين قد حاربوا في هذه المعركة مجاً مؤلفاً من ١٨٠ من المماليك و ٢٠٠ من العرب و ٣٠٠ من الأهالي ، ويقول الجنرال بليار في رسالة عن هذه

المركة إن الفرنسيين خسروا فيها ثلاثة قتلى و ١٥ جريحاً  
انسحبت فلول المالك بعد هذه المركة إلى ما وراء أسوان على مسيرة يومين مضمضة  
القوى ، وهذه هي المرة الثالثة التي انسحب فيها المالك إلى ما وراء الشلال منذ ابتداء الحملة  
على الوجه القبلي ، ولم يبق من رؤساء المالك بعد هذه الهزيمة سوى مرهاد بك وحده بلا  
حول ولا قوة متمصا بالواحة الخارجة التي تبعد عن أسبوط ثلاثة أيام

### احتلال القصير

٢٩ مايو سنة ١٧٩٩.

أطمأن الفرنسيون بعد هذه المركة على موقعهم الحربي فأنهز الجنرال بليار هذه الفرصة  
لتجريد حملة على القصير بعد أن أعد لها المعدات الكافية ، فسار من قنا يوم ٢٦ مايو ومعه  
الجنود والمدافع والجمال لنقل الجنود والمؤونة والذخائر فوصلت الحملة إلى القصير واحتلتها يوم  
٢٩ مايو سنة ١٧٩٩ ( ٢٤ ذى الحجة سنة ١٢١٣ ) واحتلت قلعتها بدون مقاومة<sup>(١)</sup>

غادر الجنرال بليار القصير يوم أول يونيو وترك بها الجنرال دنزلو Donzelot ومعه قوة  
من الجنود في عتادهم من المدفعية والذخائر وعاد هو إلى قنا

وقد طرب الفرنسيون لاحتلال ميناء القصير التي تعد مفتاح الوجه القبلي من طريق  
البختر الأحمر واعتبروا احتلالها ختام الحركات الحربية التي تم بها فتح الصعيد ، وكافأ نابليون  
كلا من الجنرال ديزيه والجنرال بليار والجنرال فريان على حسن بلائهم في الحملة على الصعيد ،  
فأهدى الجنرال ديزيه سيفاً مجيلاً مكتوباً على صفحته « فتح مصر العليا »

وأهدى الجنرال بليار سيفاً مكتوباً عليه « معركة أبنود — فتح القصير »

وأهدى الجنرال فريان سيفاً آخر ، وعزم ديزيه أن يجرّد حملة من أسبوط على الواحة التي  
كان مرهاد بك مرابطاً بها لكن مرهاد بك غادرها غترقاً الصحراء شمالاً عازماً على اللحاق

---

(١) كتب الجنرال بليار من القصير إلى الجنرال ديزيه رسالة جارية ٣٠ مايو سنة ١٧٩٩ عن احتلال  
القصير قال فيها : « إن القصير واقعة على البحر الأحمر وعلى طرف الصحراء وهي قرية صغيرة يبلغ عدد سكانها  
من أربعمائة إلى خمسمائة نسمة ، وقد تابلتها بها مشايخ البلد وكان من بين سكانها من اشترك في واقعة أبنود  
تقروا إلى الصحراء ، أما قلعة القصير فهي لا بأس بها وهي متسلطة على البلدة ومبعدة عن البحر بحيث لا تصل  
إليها منافع البوارج الإنجليزية التي تستطيع أن ترسو تجارها والقلعة محتاجة إلى ما يصلحها وقد تكفل  
بنقل الجنرال دنزلو وسيندل في القصير غاية جهده لجلبها موقفاً حصيناً في مأمن من الطوارئ »

بالمهدى في البحيرة لما علم بانتصاراته الأولى<sup>(١)</sup>، فمدل ديزيه عن تجريد حملة على الواحة واطمان على سلطته في الصعيد

### الحالة النفسية للشعب

على أن هذه السلطة كانت على الدوام مهددة ، وكان الأهالي متحفزين للانتفاض على الحاميات الفرنسية كلما سنتحت لهم الفرصة ، بحيث لم ترسخ دعائم السلطة الفرنسية في تلك الأسقاع بالرغم من انتصارات ديزيه وجنوده وبالرغم من وسائل القسوة والإرهاب التي اتبعوها في إخضاع البلاد

كتب نابليون إلى حكومة الديركتوار تقريراً عن الحملة على الوجه القبلي أرسله من القاهرة بتاريخ ٢٣ يونيه سنة ١٧٩٩ عقب عودته من سوريا ، قال فيه :

« ان احتلال القصير والسويس والريش قد أقفل طريق الوصول إلى مصر من جهة البحر الأحمر وسوريا إقفالا محكماً ، كما أن تحصين الإسكندرية ورشيد ودمياط يحبط كل هجوم من البحر الأبيض المتوسط ويضمن إلى ما شاء الله للجمهورية الفرنسية امتلاك مصر تلك البقعة الجليلة في العالم التي سيكون للحضارة أكبر أثر في إنهاضها وإحياء عظمتها القومية ، ولا غرو فهي أقدم بلاد عرفها التاريخ ، لقد انسحب مراد بك مع البقية الباقية من رجاله إلى الواحة ، وسنطرده من هناك ، وحسن بك الجداوى هو الآن على مسيرة ١٥ يوماً جنوبي الشلال ، وقد أخضعنا معظم القبائل وأخذنا منها الرهائن وبدأ الفلاحون يدركون الحقائق ولا يستمعون لتحريض أعدائنا ، على أن القلاع المدينة التي أنشأناها ما بين مرحلة وأخرى كفيلة بإخضاعهم إذا تنكرت منهم النية أو ساءت مقاصدهم »

فنا بليون يتصرف في تقريره بأن القوة المسلحة هي الأداة التي يعتمد عليها في توطيد السلطة الفرنسية في تلك الأسقاع ، وهذا ينطبق تماماً على رأى الجنرال ديزيه في رسائله إلى نابليون وإلى الجنرال دوجا ، فقد كتب إلى نابليون يقول : « اننا دائماً محاطون بالأعداء ، وان صعوبة المواصلات المهددة غالباً بالانقطاع ، وبُعد المسافات ، تمنعني من أن أكتب لك عن أخبارنا بتقدير ما أرغب ، اننا في حاجة إلى الجنود لأن فرقتي قد أنهكها التعب واجتاحتها الأمراض وبخاصة الرمد الذي انتشر بين الجنود انتشاراً عظيماً ، وإن من الخطر أن تترك جهة واحدة في مصر العليا دون أن تحتلها ييجنودنا ، واننا لم نستطع أن نشقت أعداءنا إلا بمتاعب وحملات

شاقة لاهوادة فيها ، والبلاد مع ذلك مستعدة للثورة إذا بدر منا ضعف أو تراجع ، وإلى مضطر إلى إرهاب الجنود وجعلهم دائماً على سفر ، لأنهم الوسيلة التي نستطيع بها تحصيل الضرائب »

وكتب إلى الجنرال دوجا<sup>(١)</sup> يقول : « إن الحالة لم تتغير ، والبلاد من إسنا إلى أسيوط هي في الوقت الحاضر هادئة ، ولكني لم أبلغ هذا الهدوء إلا من وسائل القسوة ومتابعة الحملات المستمرة المهككة للقوى ، وسأجوب البلاد من أسيوط إلى النيا وأجمع ما انعكس من الضرائب ، وانتزع الرهائن من جميع القرى كما فعلت في مديرتي أسيوط وجرجا ، ولا يدخلني الشك في أن هذه الطريقة والقوة المسلحة هما اللطامتان اللتان قامتتا بالهدوء الحالي »

قائمة المسلحة ، والقسوة ، والإرهاب ، والفظائع ، هي الوسائل التي تدرع بها الفرنسيون لمقاومة قوات المقاومة في الصعيد ، وهكذا ظل جيش الجنرال ديزيه يطارد قوات شقي لا عداد لها ، ولا يكاد يتغلب عليها حتى تتجمع وتعود ثانية للقتال ، وسار ديزيه يحارب حرباً لا نهاية لها ، في ميدان واسع مترامي الأطراف ، يمتد من الجزيرة شمالاً إلى أسوان جنوباً ، ومن القصير شرقاً إلى واحات الصحراء الكبرى غرباً ، دون أن يصل إلى إخضاع البلاد إخضاعاً تاماً أو إقرار السلطة الفرنسية فيها

والآن ، وقد انتهينا من الكلام على المقاومة في الوجه القبلي ، فلنتقل إلى القاهرة والوجه البحري لنتبين الحوادث التي وقعت بعد إخماد ثورة القاهرة الأولى<sup>(٢)</sup> ، وموعدها الجزء الثاني من الكتاب

(١) رسالة ديزيه إلى دوجا من أسيوط في ١٩ مايو سنة ١٧٩٩

(٢) عبرت عنها بالأولى تمييزاً لها عن ثورة القاهرة الثانية التي شبت في مارس سنة ١٨٠٠ والتي بسطنا الكلام عنها في الفصل التاسع من الجزء الثاني

# الفصل الثامن عشر

## وثائق تاريخية

### وثيقة رقم ١

أعضاء لجنة العلوم والفنون الذين استصحبهم نابليون في مصر

إحصائهم وبيان أعمالهم ( انظر ص ٦٦ )

علماء الرياضيات

السيو موج Monge ، فوريه Fourier ، كوستاز Costaz ، مالوس Malus ،  
ساي Say ، شاربو Charbaud ، موري Moret ، كورانسرز Corancez ، فوزو Fuzeau  
برنجيه Bringuet ، بوشار Bouchard

الفلك

نوي Nouet ، بوشان Beauchamp ، كينو Quesnot ، ميشين الصغير  
Mechain fils

الميكانيكا والطيران

كونتي Conté ، كوتل Coutelle ، هاسنفرتز Hassenfratz ، لومون L'Homont  
أدينس الكبير Adnès père ، أدينس الصغير Adnès fils ، سيرو Sirop ، كوفور  
Covureur ، أيي Aimé ، كولان Collin ، هيرو Hérault ، بلازانيه Plazane

الكيمياء

برتوليه Berthollet ، ديكوتيل Descotils ، شامي الكبير Champy père  
سامويل برنار Samúel Bernard ، بوتيه Potier ، شامي الصغير Champy fils  
رينو Regnault

## طبقات الأرض والمعادن

دولميو Dolomieu ، كورديه Cordier ، روزير Rozières ، فكتور ديوي  
Victor Dupuy

### النباتات

نكتو Nectoux ، دليل Delile ، كوكير Coquebert

### حياة الحيوان

جوفروا سان هيلير Geoffroy Saint Hilaire ، سافيني Savigny ، جيرار Gérard

### الطب والجراحة

ديبوا Dubois ، بوكفيل Pouqueville ، لابات Labate ، لاسيير Lacipière ،  
ديبوا الصغير Dubois fils ، بسمير Bessières ، دايرون Daburon ، دويفر Dewèvre<sup>(١)</sup>

### الصيدلة

روييه Royer ، بوديه Boudet ، روجان Roguin

### الاقتصاد السياسي

بورين Bourienne ، دامجلي D'angely ، جلوتيه Cloutier ، تاليان Tallien

### العاديات والآثار

بورليه Pourlier ، ريبول Ripault ، بانوزن Panuzen

### هندسة الممار

بروتان Protain ، نوري Norry ، بالزاك Balzac ، لويير Le Père ، ديمولان Demoulin

### التصوير

ريجو Rigo ، ردوتيه Redouté ، جولي Joly

---

(١) لم يرد في هذا البيان سوى الأطباء الذين ذكرهم الدكتور ديجت كبير أطباء الحسلة في كتابه  
(التاريخ الطبي لميش الشرق) وهم برويان Bruant ، سيريزول Ceresole ، باريس Barbès ، رناق  
Renati ، سافاريزي Savaresi ، فوتيه Vautier ، فرانك Frank ، سالز Salze ، بونيه Pugnet

## الرسم

فيمن دينون Vivant Denon ، دورتر Dutertre ، پورتال Portal ، كاكيت Caquet ،  
بيرى Peré

## هندسة الرى والقناطر والطرق

لويرالكبير LePère aîné ، جيرار Girard (والاثنان كبير الهندسين) ، فاي Faye ،  
جالوا Jallos ، جراتيان لوير Gratiem Le Père ، سان جنيس Saint-Genis ، لانكرى  
Lancret ، فيفر Fèvre ، شاربول Chabrol ، رافينو دليل Raffeneau Delile ، اربوليه  
Arnolet ، فافيه Favier ، ديوا ايمى Dubois-Aymé ، دافيه Devilliers ، مولين Moline ،  
مارتان Martin ، بدار Bodard ، ديفال Duval ، تيفينو Thevenot

## الهندسة الجغرافية

تستفيود Testevuide (كبير الهندسين الجغرافيين) ، جاكوتان Jacotin ، سيمونل  
Simonel ، شوانى Schouani ، لاويل Lathuille ، لفياد Lefeuilleade ، برتر Bertre ،  
لسين Lecesne ، بورجوا Bouregois ، لادوك Le Duc ، دليون Dulong ، فوري Faurie ،  
ليفيك L'Evêque ، لاروش Loroche ، جومار Jomard ، كورابوف Coraboeuf

## الهندسة البحرية

بوشيه Boucher ، شومون Chaumont ، جرسليه Oreslé ، فانسان Vincent ، ونجان  
Bonjean

## الهندسة الليكانيكية البحرية

سيسيل Cecile

## هندسة الآلات الرياضية

لنوار الصغير Lenoir fils

## صناعة الساعات

لومت Lemaitre

النقش

كاستي Casteix

الحفر

فوكيه Fouquet

الآداب

برسفال دجرانمزون Parseval De Grandmaison عضو الأكاديمية الفرنسية ، أرنو  
Arnaud عضو الأكاديمية الفرنسية<sup>(١)</sup> ، لروج Lerouge ، بنابن Bénaben

الموسيقى

فيلوتو Villoteau ، ريجيل Rigel

طلبة مدرسة الهندسة<sup>(٢)</sup>

كارستى Caristie ، دشانوي Duchanoy ، بوتيه Pottier ، جومار الصغير Jomard  
jeune ، فانسان Vincent ، فيار Viard ، المير Alibert

الترجمة

فانتور Venturè ، ماجالون Magallon ، لوماكا L'Homaca ، أميدى جويير Amedée  
Jaubert ، دلابورت De Laporte (والاثنان من تلاميذ مدرسة العلوم الشرقية بباريس) ،

ريج Raige ، براسيفيش Bracervich ، بلتيت Belleteste

الطباعة العربية والفرنسية

مارسل Marcel مدير المطبعة بونتيس Puntis ، جالان Galland ، بودوان Bouduin ،  
بسون Besson من موظفي المطبعة<sup>(٣)</sup>

وقد اعتمدنا في هذا البيان على إحصاء السيو (جيو) في كتابه « التاريخ الملى والحرفى

---

(١) تخلف في الطريق ولم يحضر إلى مصر

(٢) انتظم بعض طلبة مدرسة الهندسة في سلك لجنة العلوم والفنون وقال بعضهم بالإجازة انهائيه  
للمدرسة وهم في مصر بعد أن أدوا الامتحان أمام لجنة ألقوا تأمليلون في القاهرة لهذا الغرض من العلماء مونغ  
وررتويه ، وفورييه

(٣) عدنا نحو ١٨ عاملا من جامعي الحروف



للجلفة الفرنسية<sup>(١)</sup> بعد أن أضفنا إليه اسم (لومتر) في صناعة الساعات ، فصار عدد الأعضاء ١٤٦ عضواً ، ولم يدخل في هذا البيان بعض رجال العلوم ممن شغلوا مناصب في جيش الجلفة ، كالسيو بوسليج مدير الشؤون المالية ، والسيو استيف مدير الخزانة ثم مدير الشؤون المالية في أواخر عهد الجلفة الفرنسية ، والدكتور ديجنت كبير أطباء الجلفة ، والدكتور لارى كبير الجراحين ، وقد أوردنا ترجمة طائفة من هؤلاء الأعضاء بالفصل الرابع<sup>(٢)</sup>

وتم إحصاء آخر يزيد عن الإحصاء المتقدم ورد في « يوميات » السيو ديفليه أحد مهندسي الجلفة<sup>(٣)</sup> ، ذلك أنه أضاف إلى الأعضاء المتقدم ذكرهم نحو ثلاثين من القواد والضباط الذين اشتركوا في العمل مع أعضاء لجنة العلوم والفنون وكان بعضهم أعضاء في الجمع العلمي ، وبحسب إحصاء السيو ديفليه يبلغ عدد الأعضاء ١٧٥ عضواً ، وذلك عدا المال الفنيين

## وثيقة رقم ٢

شكر (الديوان) للسيو (لوير) كبير للمهندسين

على تعمير مقياس الروضة

(انظر ص ١٠٣)

« من مجلس الديوان المالي عصر المحروسة »

« خطاباً إلى حضرة الستوان<sup>(١)</sup> الخواجا لور رئيس المهندسين وقبه الله تعالى إلى الخيز أمين  
« أداميد البناء لكم بخير أنه بلغ الناس حسن صنيعكم وصواب تدبيركم وإيمان همتكم  
في تشييد وتعمير مقياس النيل البعيد الذي يمد نفعه ويشغل خيره في القرب والبعيد ، فإن  
إقليم مصر أجل الأقاليم وأبهج الأراضي أجمعين ، وخير وذروره ثم سائر الأقطار وينفع بها  
الإقبليون والعراشي والبطور والوحوش في القلعة ومعين خيره وأساس نهجته هذا النيل المبارك  
التي هو أفضل البحار والأنهار ، قد هتتمت واقتمت بحل راحه وبأساس قياسه وبنائه ،  
فكانت هذه ضربة منك وعمرة ونتيجة من نتائج أفكاركم النيرة فرحت بها الناس أجمعين ،  
وشكروا احسان حضرة سر المسكر الكبير<sup>(٢)</sup> ، وعلوا كمال عقلكم بسبب ما أتمتموه

(١) ص ١٠١ وما بعدها

(٢) انظر ما كتبتاه عنه ص ١٠٩

(٣) مأخوذة عن الكلمة الفرنسية Citoyen ومعناها « مواطن » كما بينا ذلك بهامش ص ١٠٤

(٤) الجفرال منو

وأحسبتموه في هذا المحل الشامل تقمه والمشهور في سائر الأقطار ، شكر الله معروفكم  
والسلام ختام»

مسجل بالديوان في ٧ شعبان سنة ١٢١٥<sup>(١)</sup>

الفقير عبد الله الشراكوى رئيس الديوان الفقير محمد المهدي كاتم سر الديوان<sup>(٢)</sup>

وثيقة رقم ٣

رسالة نابليون إلى أبي بكر باشا وإلى مصر

قبل رسو\* العارة الفرنسية بالاسكندرية

(انظر ص ١٤٨)

« على ظهر البارجة ( أوريان ) في ١٢ مسيدور من السنة السادسة ( ٣٠ يونيه سنة ١٧٩٨ )

« إن حكومة الجمهورية الفرنسية قد طلبت غير مرة من الباب العالي عقاب بكوات مصر  
الذين كانوا يرمقون التجار الفرنسيين بمختلف أنواع الإيذاء والاعتداء ، وصرح الباب العالي  
بأن أولئك البكوات قد تمادوا في أطاعهم وأهوانهم ، وتنكبوا سبيل العدالة والاستقامة ،  
وأنه لا يقرهم على اساءة معاملة أسدقائه الفرنسيين الأوفياء ، ولا يرأى جديريين بمطفه وحمايته ،  
وعلى ذلك قد اعترفت الجمهورية تجريد جيش جرار للقضاء على مظالم البكوات المإليك ، كما  
انضطرت أن تجرد حملات في خلال القرن الحالى على بكوات تونس والجزائر ، وبقينى أنك  
وأنت الذى يجب أن يكون حاكم البلاد ومع ذلك قد سلب منك البكوات كل حول وتقوذ  
وجبلوك في القاهرة ومن إرادتهم لا بد أن تقابل حضورى إلى هنا بالسرور والارتياح \* ولله  
قد وصل إلى علك أنى ماحضرت بنيات عدائية نحو القرآن أو نحو السلطان وأنك تعلم أن  
الأمة للفرنسية هى الخليفة الوحيدة للسلطان في أوزيا ، فبادر إلى مقابلتى واشترك نى في  
استنزال الامتات على طايفة المإليك للمقوطة » : « بونابرت<sup>(٣)</sup> » :

(١) يوافق ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٠٠ وهذا التاريخ يقع في عهد قيادة الجبرال منو

(٢) قلنا هنا الخطاب بضم الهمزة عن كتاب ( تخطيط مصر ) الجزء الخامس عشر

(٣) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٧١٩

### وثيقة رقم ٤

رسالة نابليون

إلى ادريس بك قومندان السفينة التركية في الاسكندرية

(انظر ص ١٤٨)

« على ظهر البارجة (أوريان) في ١٣ مسيدور من السنة السادسة (أول يولييه سنة ١٧٩٨)

« إن البكوات قد أرمقوا تجارنا بمختلف أنواع الايذاء والتعدي ، وقد جئت لأطلب

منهم حسابا عما فعلوا

« وسأكون غداً في الإسكندرية ، ولايساورك أى قلق من حضوري فانك تابع لصديقنا

الكبير السلطان ، فعليك أن تسلك الخطة التي تتفق مع هذه الصداقة ، أما إذا أتيت عملا

عدائيا ضد الجيش الفرنسى فسأعاملك معاملة الأعداء أعداءهم ، وهناك تقع التبعة عليك

وحدك لأن ذلك أبعد ما يكون عن رغبتي وعواظي »

« بوناپارت (١) »

### وثيقة رقم ٥

منشور نابليون إلى الجنود قبل رسو العارة الفرنسية

( انظر ص ١٥٠ )

« المسكر المام على ظهر البارجة (أوريان) في ٤ مسيدور من السنة السادسة (٢٢ يونيو

سنة ١٧٩٨) (٢)

« أيها الجنود

« إنكم مستخوضون غمار حملة لها آثار لا تحصى في حضارة العالم وتجارتها ، وستنالون

من أنجلترا بضربة هي أشد ما يصيبها في الصميم إلى أن تتمكنوا من ضربها الضربة القاتلة

« ستجتاز في هذه البلاد رحلات متعبة ، وستخوض فيها معارك عدة ، على أن النصر

سيكون حليفنا في كل خطواتنا لأن المنايا تلتحظنا

---

(١) مراسلات بوناپارت الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٧٢١

(٢) أذيع على الجنود يوم ٢٨ يونيو سنة ١٧٩٨



جسر المراكب (الكوبرى) الذى أنشأه الفرنسيون بين القصر العتيق والروضة ( انظر ص ١٧٣ )



ميدان الأركية في أواخر القرن الثامن عشر ، وكانت مياه النيل تتدفق في أيام الفيضان فيصير ليل يمتد  
فيها الناس بالزوارق في النهار والليل ( انظر ص ٥٢ )

« ولا تنقضى أيام ممدودات على نزلنا إلى البر حتى تحقق المالك الذين يناصرون التجارة الإنجليزية ويحسونها بالساعة ويهقون تجارتنا بمختلف الاتوات والاهانات ويسومون سكان وادي النيل الظلم والاضهاد

« إن الشعب الذى سنتصل به يدين بدين الاسلام وأول أركانه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فلا تعارضوم في دينهم وعالموم كعالمم اليهود وكعالمم الايطالين ، واحترموا مشايخهم ومفتيهم وأعظمهم كما احترمتم الربانيين والأخبار والقساوسة ، وليكن شعاركم في معاملة المساجد والشعائر الدينية التى يأمر بها القرآن ذلك التسامح الذى كان رائدكم حيال الكنائس والصوامع والبيع والتعاليم الموسوية والمسيحية ، فان الجيوش الرومانية كانت تحمى الأديان كلها على السواء

« وستجدون هنا عادات تختلف عن عادات أوروبا ، فعليكم أن تألفوها ، وإن الشعب الذى ستقيم بينه يعامل النساء على غير عادتنا ، ولكن الاعتداء على أعراض النساء في كل بلد جريئة لا يقدم عليها إلا الوحوش

« واعلموا أن الذهب لا يعود بالنفع إلا على طائفة قليلة من الناس ولكنه يندس شرفنا ويقضى على مواردنا ويوجب علينا كراهية الشعوب التى تقضى مصلحتنا بأن نكسب ودها

« وإن أول بلدة نزل بها قد بناها الإسكندر ، وستجد عند كل خطوة مخطوطها بها آثاراً عجينة جدية بأن تشير لإحباب الفرنسيين وغيرهم » « بوناپارت (١) »

### وثيقة رقم ٦

#### خطبة نابليون بالأزبكية

في الاحتفال بعيد الجمهورية الفرنسية يوم ٢٢ سبتمبر سنة ١٧٩٨ ..

( انظر ص ٢٢٢ )

« أيها الجنود

« تحتفل اليوم بمسئلة السنة السابعة للجمهورية

« منذ خمس سنوات خلت كان استقلال الشعب الفرنسى مهدداً ، ولكنكم جاهدتم

فاحتلتم ( طولون ) فكان هذا الاحتلال فآخرة انهيار صرح الأعداء

(١) مهاسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٧١٠

« ولم ينقض عام حتى هزمتم النمساويين في (ديجو)  
وفي السنة الثالثة رفعت علم النصر فوق قمم جبال الألب  
ومنذ عامين كنتم تهاجمون (ماتيو) وحزمت ذلك النصر الباهر في (سان جورج)  
وفي العام الماضي بلغت منابع نهري (الفراف) و (الايوزو) بعد أن انتصرت في  
ألمانيا ، فمن كان يظن يومئذ أنكم ستكونون اليوم على ضفاف النيل في بطن القارة القديمة  
« إن الشعوب شاخصة إليكم ترمقكم بأبصارها على اختلاف أجناسها ، يستوى في ذلك  
الإنجليزى الذى تفتته التجارة والفنون ، والبدوى الذى يعيش عيشة الفلظة والوحشية  
أيها الجنود

« إن مستقبلكم مجيد لأنكم جديرون بما قمتم به من جلائل الأعمال وبما حزتم من الثناء ،  
ولئن كتب عليكم الموت فستنالون موتاً شريفاً كدأب أولئك الأبطال الذين نقشت أسماءهم  
على هذا الهرم ، وإذا عدتم إلى الوطن فانكم ستمودون مكللين بتاج الفخار حائزين إعجاب  
الشعوب جميعاً

« مضى علينا ستة أشهر منذ رحنا القارة الأوروبية ومن يومئذ ونحن مغمورون على الدوام  
بسيل لا ينقطع من عواطف مواطنينا الذين ترمقنا أبصارهم في كل آن ، فالיום يشاركونكم في  
هذا الاحتفال أربعمائة مليوناً من المواطنين يحتفلون بإقامة الحكم الدستوري ويتجهون إليكم  
بأفكارهم وعواطفهم ، ويدكرون في احتفالهم أنهم مدينون لجهادكم ودمائكم بما يتمتعون به  
من السلام ، والطمأنينة ، والرخاء ، والحرية الوطنية «  
« يونابارت<sup>(١)</sup> »

وثيقة رقم ٧

واقعة للنصورة

( انظر ص ٢٧٥ )

ننشر هنا نص الأمر الذى أصدره نابليون بتاريخ ٣١ أغسطس سنة ١٧٩٨ بفرض  
الترامات على بعض البلاد وبخاصة النصورة وأهلها

أمر:

المعسكر العام بالقاهرة في ١٤ فركتيدور من السنة السادسة (٣١ أغسطس سنة ١٧٩٨)  
بونا بارت القائد العام بأمر بما هوأت

المادة الأولى — توقف الترامات التي ضربت على بلاد مديرية المنصورة  
المادة الثانية — تدفع مدينة المنصورة غرامة قدرها ثلاثة آلاف ريال تقرر على الأغنياء  
من أهلها عقاباً لهم على سوء صنيعهم نحو جنودنا  
المادة الثالثة — يدفع السيد على الشناوى أحد أهالى المنصورة غرامة قدرها ٣٠٠٠ ريال ،  
وفي مقابل ذلك يعطى أماناً على نفسه وعلى أملاكه وأمواله  
المادة الرابعة — تقرر غرامة قدرها ٢٠٠٠ ريال على أسوأ البلاد سلوكاً في مديرية  
المنصورة

المادة الخامسة — تقرر غرامة ٤٠٠٠ ريال بشكل سلفة على أغنياء التجار والأعيان  
في المحلة الكبرى

المادة السادسة — تدفع هذه المبالغ إلى أمين خزانة فرقة الجنرال دوجا وتكون تحت  
نصرف مدير مهمات الجيش وعليه أن يخصصها لبناء أفران الجيش وإدارتها واستئجار  
الراكب والنفقات المطلوبة للفرقة

المادة السابعة — على كبير المباشرين تنفيذ هذا الأمر بونا بارت<sup>(١)</sup>

هذا وقد بحثنا عن اسم ( السيد على الشناوى ) الوارد في أمر نابليون وعن أسرته ،  
فتحققنا بعد الاطلاع على مستندات ووثائق خطية وحجج قديمة أنه الجدل الثاني لملى أفندى  
حسن الشناوى أحد أعيان المنصورة الحاليين ، وقد أطلعنا حضرته على ( فرمان أمان ) صادر  
لجلده المذكور في أوائل عهد محمد على باشا وممهور بحتم محمد على ( والى مصر ) ومؤرخ ١٧  
صفر سنة ١٢٢١ هجرية ، وهذا التاريخ يوافق ٧ مايو سنة ١٨٠٦ ، أى أن السيد على الشناوى  
المذكور نال ( عهد الأمان ) من نابليون ثم من محمد على ، واللدة بين المهديين لا تتجاوز ثمانى  
سنوات ، وقد آثرنا أن ننقل هنا عهد الأمان الصادر له من محمد على ، لأنه من مقارنة تاريخ  
الوثيقتين يتبين أنه هو المقصود بأمر نابليون المؤرخ سنة ١٧٩٨ ، وإليك نصه بالتأظه  
وعباراته القديمة المألوفة في ذلك العصر :

« إعلاماً بها بالأمان الكافى إلى السيد على الشناوى بالمنصورة يحيطون علماً إننا قد عفونا



عنكم وأعطيناكم الأمان السكافي أمان الله تعالى وأمان رسوله الكريم ثم أماننا السعيد ولم  
نخش من شيء جملة كافية وتكون مشغول بأسبابك وأحوالك ولم لك من طرفنا ومن طرف  
خلافنا إلا كل الحماية والصيانة ولم أحد يتعرض لك ولا يعارضك وتكون مطمئن القلب  
والخاطر اعلم واعتمده فابت الاعتماد

١٧ ص سنة ٢٢١ محمد علي والي مصر ( ختم ) «

واطلعنا على حجج أوقاف قديمة ترجع إلى عهد يقرب من تاريخ أمر نابليون ورد فيها  
اسم السيد علي الشناوى المذكور موصوفا « بفخر الأشراف المعظمين السيد الحاج علي الشناوى  
من أعيان التجار بالنصورة »

## الفصل التاسع عشر

### مراجع البحث

وصلنا إلى فصل من أهم فصول الكتاب ، وهو بيان مراجع البحث ، وقصد منها المصادر الأصلية التي رجعنا إليها ، وزيد بالمصادر الأصلية الكتب والرسائل التي وضعها شهود العيان للعاصرون للحوادث التي أثبتناها ، وكذلك الوثائق التاريخية الخاصة بهذه الحوادث ، وسنذكر هذه المصادر مرتبة بحسب ترتيب الحوادث والفصول في الجزئين الأول والثاني من الكتاب ، لأن هذين الجزئين يؤلفان حلقة واحدة ولها مصادر واحدة

### عن نظام الحكم في عهد المماليك

- تاريخ ابن إياس المعروف « بديائع الزهور ووقائع الدهور » الجزء الثالث ، وابن إياس قد شهد الفتح العثماني والسنوات الأولى من حكم الأتراك
- « الروضة المآتوسة في أخبار مصر المحروسة » لحمد بن أبي سرور البكري الصديقي ويحتوى أخبار ولاية مصر في عهد الحكم العثماني إلى سنة ١٠٥٤ هجرية ومن ولها من قضاة المسكر ، وقد أدرك المؤلف القرن السابع عشر وشهد الحكم التركي وكتب عنه لثاية سنة ١٠٥٥ هجرية ( ١٦٢٥ ميلادية )
- « عيون الأخبار وزهرة الأبصار » له ، ويحتوى تاريخ مصر مع فذلكة من تاريخ الخليفة ، وتبذة من تاريخ الفرس والروم والخلفاء فالقول التي تعاقبت في مصر إلى انتهاء الدولة الجركسية
- « المنح الرحمانية في الدولة العثمانية » له ، في تاريخ سلاطين آل عثمان إلى غاية سنة ١٠٢٩ هجرية

### رحلات الإفرنج

كذلك رجعنا إلى رحلات الإفرنج في عهد الحكم العثماني وما كتبوه في وصف مصر ومعلمهم قد تكلم عما شهدوه من نظام الحكم فيها ، وإليك أهم الرحلات التي رجعنا إليها وبيان تواريخها

— رحلة بيرون Pierre Belon وهو طبيب فرنسي سلك في مصر والشرق من

سنة ١٥٤٦ إلى ١٥٤٩ وهي أول رحلة في الفتح المئاني طبعت سنة ١٥٥٣

Singularité et choses memorables trouvées en Grèce, Asie, Judée, Egypte, Arabie et autres pays etrangers

— رحلة سيزار لامبرت Cesar Lambert وهو تاجر فرنسي هبط إلى مصر سنة

١٦٢٧ و ٢٨ و ٢٩ و ١٦٣٢ ، وقد وصف في رحلته ما شهده في الاسكندرية والقاهرة وبعض

البلاد الأخرى ، وتكلم عن تجارة مصر ومالية الحكومة المصرية

— رحلة جاك البرت Jacques Albert سنة ١٦٣٤ ، نشرت في كتابه ( حالة مصر

والحكومات التابعة لها )

Etat de L'Egypte et des Gouvernements qui en dependent

— رحلة سانتوسيجوزي Santo Seguezzi سنة ١٦٣٥ وهو سائح إيطالي كتب

عن ( حالة مصر المالية وإيراداتها ) Etat des revenus De L'Egypte

— رحلة تيفنو Thevenot في الشرق

Relation d'un voyage fait au Levant p. Thevenot

تتضمن مشاهداته في الاستانة وبعض بلاد السلطنة المانية والديار المصرية وكانت زيارته

لمصر سنة ١٦٥٧ ، ورحلته من أم الرحلات وأدقها

— رحلة بروقي وشارل فرا تسوادورليان Protais et Charles-François d'Orléans

في الضميد سنة ١٦٦٨

— رحلة نيبور Niebhur وهو رحالة دانمركي جاء مصر سنة ١٦٧٢ — ١٦٧٣ بأمر

ملك الدانمرك وطبع رحلته بمنوان — رحلة في بلاد الغرب والبلاد المجاورة

— رحلة فانسليب Vansleb وهو سائح ألماني المولد فرنسي التبعة زار مصر مرتين

أحدهما سنة ١٦٧٢ — ١٦٧٣ Nouvelle relation d'un voyage fait en Egypte

— وصف مصر للشيو دي ماييه De Maillet قنصل فرنسا في مصر ، وهذا الكتاب

ليمن برحلة وإنما هو مجموع رسائل كتبها الشيو دي ماييه في وصف مصر حينما كان قنصلا

لفرنسا بها سنة ١٦٩٢ ، وفي متوليا هذا النصب ست عشرة سنة تعلم في خلالها العربية وأحسن

أحوال البلاد واتصل بملائها وأعيانها وكتب رسائل عنها نشرها القنصل لوماسكرييه

Le Mascrier طبعت سنة ١٧٣٥

— رحلات الشيو بول لوكاس Paul Lucas وهو رحالة فرنسي زار مصر ثلاث مرات

وله فيها ثلاث رحلات وله خريطة دقيقة بمصر رسمها سنة ١٢١٧ ، واثنان من هذه الرحلات بأمر الملك لويس الرابع عشر

— رحلة السائح الفرنسي جرانجييه Oranger في مصر سنة ١٧٣٠

Relation d'un Voyage fait en Egypte

— رسائل الأب سيكار Père Sicard الجزء الثاني وهو قسيس أقام بمصر عدة سنين عضواً في إحدى البعثات الدينية ومات بها سنة ١٧٢٦ وله خريطة عن مصر رسمها بالقاهرة سنة ١٧٢٢

— رحلة نوردن Norden في مصر والنوبة Voyage d'Egypte et de Nubie وهو قبطان في البحرية الدانمركية ساح في مصر من سنة ١٧٣٧ — ١٧٣٨ بأمر ملك الدانمرك وكتب عنها ثلاثة أجزاء ، وتعد رحلته من أهم الرحلات وأدقها وأوفها ولها مصور ملحق بها فيه رسوم مدينة الاسكندرية والميناء الشرقية وقلمة قايتباي وقلمة ( أبو قير ) ورشيد والبحيرة ومصر القديمة وغيرها من مواقع مصر المهمة

— رحلة ريشارد بوكوك Richard Pococke وهو رحالة انجليزي جاء مصر سنة ١٧٣٧ أثناء سياحة نوردن

— الجزء الرابع من ( مذكرات البارون دي توت عن الترك والتتار )

Memoires du baron de Tott sur les Turcs et les Tartares

وقد زار مصر موفداً من قبل الحكومة الفرنسية لدرس أحوالها ، ووصفها في الجزء الرابع من كتابه المذكور ، وفي هذا الجزء بيان رحلته إلى مصر في أوائل عهد مراد بك وإبراهيم بك

— رحلة السيونيوني Sonnini سنة ١٧٧٧ وهو مهندس بالبحرية الفرنسية جاء مصر بأمر بحكومة الملك لويس الثامن عشر لوطبت رحلته بعنوان « رحلة في مصر

العلية والوجه البحري » Voyage dans la Haute et Basse Egypte

— « رحلة السيونيوني المطبوعة بأمر « رسائل عن مصر » Lettres sur L'Egypte par Savary في ثلاثة أجزاء ، وهو سائح فرنسي زار مصر سنة ١٧٧٧ وقصص بها ثلاث سنوات

— رحلة فولني اليكاتب الفرنسي الشهير ، ساح في مصر وسوريا سنوات ١٧٨٣ و ١٧٨٤ و ١٧٨٥ في جزئين Voyage en Syrie et en Egypte par Volney

— كتاب تخطيط مصر — عهد علماء الحملة الفرنسية نُظِّم الحكم في عهد المالك

وأذكروا بعضها وهو قائم وببعضها في دور الاحتضار وأمكنهم أن يحققوا هذه النظم بما درسوه من وثائقها ، وما تلقوه من أفواه الذين عرفوها ومارسوها ، ودونوا إنتاج تحقيقهم ومباحثهم في كتاب تخطيط مصر ( وستعود إلى الكلام عنه فيما يلي ) وإليك مواضع هذه المباحث من أجزاء الكتاب المذكور :

١ — نظام الضرائب المقارنة في أواخر عهد حكومة المالك للمسيو لانكري Lancret .  
أحد مهمتى الحملة ( الجزء الحادى عشر )

٢ — خلاصة تاريخ المالك في مصر من عهد ظهورهم إلى الحملة الفرنسية للمسيو دلابورت Delaporte أحد أعضاء لجنة العلوم والفنون ( الجزء الخامس عشر )

٣ — مالية مصر من عهد السلطان سليم إلى الحملة الفرنسية للمسيو استيف Estève مدير الخزانة ثم مدير الشؤون المالية في عهد الحملة الفرنسية ( الجزء الثانى عشر )

٤ — عادات سكان مصر الحاليين للمسيو شابرول Chabrol وفيه بحث عن نظام الحكومة ( الجزء الثانى عشر )

— تاريخ مصر من الفتح العربى إلى الحملة الفرنسية للمسيو مارسيل ، أحد علماء الحملة الفرنسية

### عهد الحملة الفرنسية

أول مرجع اعتمدنا عليه هو كتاب الجبرى مؤرخ مصر في ذلك العهد ، وهو الكتاب القدر المسمى « عجائب الآثار في التراجم والأخبار » في أربعة أجزاء ، ولا يسعنا إلا أن نفرد للجبرى وكتابه كلمة نقى بأهمية هذا الكتاب :

### الجبرى وتاريخه

هو الشيخ عبد الرحمن الجبرى بن الشيخ حسن الجبرى ، وهما من بواغ علماء الأزهر ، والشيخ حسن الجبرى والد المترجم كان عالما بالعلوم الرياضية وما إليها ، فوق نبهه في علوم الأزهر ، وكانت إليه الرحلة من الأقطار البعيدة في علم الفلك والعلوم الرياضية ، وقد كان لهذه العلوم أثر كبير في تثقيف عقل الجبرى ، ولولاها لما وفق إلى تأليف كتابه العظيم ، لأن دراسة التاريخ وتدوين الحوادث من الأمور التي لم تكن مألوقة في ذلك العصر ولا يتجه إليها إلا عقل راسد قد ألف أن يرصد ويدون

والجبرتي من أسرة ينحس أصلها إلى « جبرت » من بلاد زليح بأراضي الحبشة ، ارتحل جده الشيخ « الشيخ عبد الرحمن » إلى مصر أوائل القرن العاشر للهجرة وجاور بالأزهر وتولى مشيخة رواق الجبرية ، واستوطنت أسرة الجبرتي مصر من ذلك العهد واشتهرت بخدمة العلم فكان أبوه وأجداده من العلماء وتابعوا على مشيخة رواق الجبرية نحو ثلاثة قرون .

ولد الجبرتي سنة ١١٦٨ هجرية ( ١٧٥٦ ميلادية ) ، وهذا التاريخ مستفاد مما ذكره هو في ترجمة أبيه ، فقد روى أنه كان لأبيه زوجة سالحة توفيت سنة ١١٨٢ هجرية وأنه كان في وقت وفاتها ابن أربع عشرة سنة ، وعلى ذلك يكون مولده سنة ١١٦٨ هـ .

وقد أخذ العلم عن أبيه وعن غيره من علماء عصره ، وحضر دروس السيد مرتضى الزبيدي العالم اللغوي المشهور صاحب تاج المروس في شرح القاموس ، وكان الجبرتي على فطنة وذكاء وواعية كما يدل على ذلك تاريخه ، ويقول هو إنه وعى الحوادث في سن التمييز ، وأخذ يدون كتابه وهو في سن الأربعين ، وقد أدرك أواخر القرن الثاني عشر الهجري وأوائل الثالث عشر ( النصف الثاني من القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر الميلادي ) وهو العصر الذي روى وقامه رواية مابنة ونظرة وإلى ذلك يشير بقوله في فاتحة كتابه : « إني كنت سؤدت أوراقا في حوادث آخر القرن الثاني عشر وما يليه ، وأوائل الثالث عشر الذي نحن فيه ، جمعت فيه بعض الوقائع اجمالية ، وأخرى عميقة تفصيلية ، وغالبها عن أدركناها ، وأمور شاهدها » وقد مهد لذلك بنظرة عامة إجمالية في تاريخ مصر بعد ضعف الخلافة العباسية والفراد الحكام والولاة بتواحي المملكة ( بعد قتل المتوكل ) وألمح إلى عهد الطولونيين فالأشيليين فالفاطميين فالأيوبيين فالإليين البحرية فالإليين الشراكسة ونصبتهم ملك الشراكسة .

وبدا يذكر حوادث مصر من ابتداء القرن الثاني عشر الهجري ( حوالي ١٦٨٩ ميلادية ) ، ولما كانت الحوادث التي وقعت في النصف الأول من القرن الثاني عشر لم يدركها بنفسه فقد رجع فيها إلى رواية من أدركهم عن حاضر وأولئك الحوادث روى ذلك يقول : « واستطردت في ضمن ذلك شوايق مهمتها ، ومن أقوال الشيخة تقيتها ، وبعض تراجم الأعيان المشهورين » من العلماء والأمراء المتبحرين ، وذكر لعم من أخبارهم وأحوالهم ، وبعض تواريخ مؤيلاهم ووفياتهم .

وقد جمع ما دونه من الحوادث سرية على السنين والشهور والأيام ، وإلى ذلك يشير بقوله : « فأجبت جمع ثملها وتعيد شواردها في أوراقا فتتسعة النظام » ثم رتبة على السنين .

والأعوام ، ليسهل على الطالب التنبه للراجعة ، ويستفيد ما يرومه من النفع ، ويعتبر المطلع على الخطوط الماضية فيتمشى إذا لحقه مصاب ، ويتذكر بحوادث الدهر إنما يتذكر أولو الألباب ، فإنها حوادث غريبة في بابها ، متنوعة في عجائبها ، وصيغته « عجائب الآثار في التراجم والأخبار »

والحق ان الجبرتي عانى كثيراً في جمع الحوادث ، وبخاصة التي وقعت من أوائل القرن الثاني عشر إلى الزمن التي وحى فيه الحوادث ، لقلة المراجع ، ولم يجد كما يقول لتاريخ هذه المدة الطويلة سوى كتاب واحد لأحمد بن جلي بن عبد الله ، بيتي من تاريخ الفتح المماني إلى سنة ١١٥٠ هجرية ( ١٧٣٧ ميلادية ) ، ومع ذلك لم يستطع الرجوع إليه لضيق هذا الكتاب ، فاضطر أن يرجع إلى النقل من أفواه الشيوخ المتقدمين في السن ، وصكوك دفاتر الكتبة والمباشرين ، وما نقش على أحجار مقابر التوفين ، من أول القرن الثاني عشر إلى سنة ١١٧٠ ( أي من سنة ١٦٨٩ إلى سنة ١٧٥٦ ميلادية ) ، وأما الحوادث التي وقعت من سنة ١١٧١ ( ١٧٥٧ ميلادية ) إلى سنة ١١٩٠ ( ١٧٧٦ ميلادية ) فقد شهدا الجبرتي ، ودون وقائهما بعد حدوثها بمدة سنين ، وفي كل ذلك يقول : « فرجنا إلى النقل من أفواه الشيوخ المستين ، وصكوك دفاتر الكتبة والمباشرين ، وما انتقش على أحجار ترب القبورين ، وذلك من أول القرن ( الثاني عشر ) إلى السبعين ، وما بعدها ( أي بعد سنة ١١٧٠ ) إلى التسعين أمور شاهدها ، ثم نسيناها وتدكرناها ، ومنها إلى وقتنا أمور تعلقناها ، وقيدناها وسطرناها » وكذلك شهد الحوادث التي وقعت من سنة ١١٩١ إلى ١٢٣٦ هجرية ( ١٧٧٧ — ١٨٢١ ميلادية ) ودونها في كتابه .

فالجبرتي إذن شاهد عيان للحوادث التي وقعت بمصر من سنة ١٧٥٧ ميلادية إلى سنة ١٨٢١ ، وهي السنة التي ختم بها كتابه ، أما الحوادث التي سبقت هذه المدة فقد اعتمد فيها على النقل من كبار السن والرجوع إلى الوثائق المخطوطة

وتاريخ الجبرتي هو التاريخ الوحيد الذي يمول عليه لمعرفة أخبار مصر في القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر ، ولا يوجد مؤرخ غير الجبرتي كتب عن هذه الحوادث بمثل إسهابه وتحقيقه ، أما رجال الحملة الفرنسية وعلماؤها فقد دونوا ما شهدوه من الحوادث ، لكن مشاهداتهم واقعة على فترة وجيزة من الزمن لا تتجاوز في الأرجح سنة واحدة ( وهي السنة التي قضاه نابليون في مصر ) أو ثلاث سنوات على الأكثر ، ومع ذلك فكتابتهم في الغالب مقتضبة يرى القاري عليها مسحة العجلة ، بخلاف الجبرتي فإن كتابته تدل على الاستقراء

والتمحيص ، وقلما يوجد كتاب فرنسي في تاريخ الحملة الفرنسية لم يرجع إلى الجبرتي ولم ينتقل عنه ، فهو مرجع متفق على أهميته إجماعاً ، وكتابه يسمى في معظم الكتب الفرنسية « يوميات عبد الرحمن »

وفضيلة الرجل في تدوينه للحوادث أنه كان يتحرى الدقة والصدق ، ويتوخى الحق ، ولم يكن يتحيز لطائفة أو لولوة أو لأى إنسان مهما عظم نفوذه ، وإنك لتستطيع أن تتحقق زراهة الجبرتي من مطالعة كتابه وإمعان النظر فيه ، وبخاصة في تراجمه ، فإنك تراه يورد الحقائق غيرة متأثر بيهاء من يكتب عنهم ، ذا كراً لكل منهم ماله وما عليه ، وقد صدق في قوله عن كتابه : « ولم أقصد بجمعه خدمة ذى جاه كبير ، أو طاعة وزير أو أمير ، ولم أداهن فيه دولة بنفاق أو مدح أو ذم مياين للأخلاق ، لئيل تقسأى أو غرض جبانى »

ويعد الجبرتي من كبار علماء الأزهر النابهين ، لتلك اختاره الجنرال ( منو ) لمضوية الديوان ضمن الأعضاء التسعة الذين عينهم في أواخر عهد الحملة الفرنسية كما بسطنا ذلك مفصلاً في الجزء الثانى ، وقد ورد اسمه صراحة ضمن هؤلاء الأعضاء التسعة في الوثائق الرسمية للحملة ، وذكر الجبرتي اسمه في كتابه عموماً بالإيهام ، ضمن هؤلاء التسعة ، لأنه عبر عن نفسه بقوله ( وكاتبه ) ، ومن هنا جاء الإيهام ، ذلك أن عبارة ( وكاتبه ) ، وردت عشورة ضمن أسماء أعضاء الديوان وجاءت بعد اسم الصاوى ، مما يدعو إلى الظن بأن المقصود كاتب الصاوى ، ولولا أننا رأينا اسم الجبرتي في الوثائق الفرنسية للحملة لغاننا أنه هو المقصود بكلمة ( كاتبه ) ، ولا ندري هل اكتفى الجبرتي بالإشارة إلى نفسه بقوله ( وكاتبه ) تواضعاً أم إيهاماً ، ولو أراد الإيضاح قال ( وكاتب هذه السطور ) ، وقد رأينا توقيعه ضمن أسماء أعضاء الديوان في عهد ( منو ) بذييل رسالة ودية يشؤا بها إلى نابليون حينما كان قنصلاً أول ونشرتها جريدة ( الكورييه دليجنيت ) في العدد ٩١ الصادر في ١٥ فرمير من السنة التاسعة ( ديسمبر سنة ١٨٠٠ ) ، ولم تر لهذه الرسالة أثرًا في كتاب الجبرتي ، وللمعروف أن الفرنسيين كانوا يختارون لمضوية الديوان أشهر العلماء وأنبيهم في مصر ليحملوا له شيئاً من المكانة ، ولم تمنع الجبرتي عضويته للديوان أن يكتب باستقلال وزراهة عن الفرنسيين وحكمهم ، ولو علموا أنه يقيند الحوادث والفظائع التى ارتكبها عمالهم ويدونها في مسودات كتابه وأن هذا الكتاب سيكون أعظم مرجع في وقائع الحملة الفرنسية ، لما قامهم مصادرة هذه المسودات وإعدامها ، وظاهر من أسلوبه في الكتاب أنه كان يكتب حسبما يلى عليه اعتقاده ، ولم يقته أن يذكر للفرنسيين ما فعلوه من خير ، فقد مدح اعتدالهم وعدالتهم في محادثة قتلة كليبر ، وذكر الإصلاحات



التي أحدثوها في مصر ، وعدد مساوى\* الحكم التركي كما ذكر مساوى\* الحكم الفرنسى ولم يفته نثنى من سيئات حكم الأتراك ، ويكفيك في بيانها ما ذكره عن مظالمهم بقوله إنها جعلت المصريين وخصوصاً الفلاحين يتمنون أحكام الفرنسيين

على أن من يتأمل في كتاب الجبرى لا يفوته ملاحظة أنه مع عدم تميزه في ذكر الحوادث يعيل بعض الليل إلى الأمراء الماليك ، وهذه الميول تبدو من خلال بعض أقواله بالرغم من أنه يحاول كتمانها ، ولعل هذه الميول البريئة ناشئة عن أنه كان على صلات من الود مع بعض البكوات الماليك ، وكان هو موضع احترامهم وإجلالهم ، وكان يسميهم « الأمراء المصريين » ، وقد أدرك مذبحه الماليك في القلعة سنة ١٨١١ وكان له بين القتل الأصدقاء اتصال بهم بروابط الود ، فكان لهذه المذبح أثر أليم في نفسه ، وكان من جهة أخرى صديقاً لمحمد بك الأتني أحد زعماء الماليك ومعجباً به ، وترى دلائل إعجابه في ترجمته له ، ومحمد بك الأتني هو خصم محمد على الأتلة ، فكل هذه الاعتبارات كان لها أثرها في حكم الجبرى على أوائل عصر محمد على باشا ، على أن حكمه هذا لا يمكن أن يؤخذ حجة في مجموعه ، لأن من شروط صحة الحكم على عصر من المصور أن يتناوله المؤرخ بأ كله ، والجبرى لم يدرك إلا أوائل حكم محمد على

ورغم تلك الملاحظة فإنه لا يسع من يدرس كتاب الجبرى إلا الاعتقاد بنزاهته وبمده عن الهوى ، وتحريه الصدق فيادونه ، وهذه الفضيلة هي أعظم مميزات الجبرى ، وميزته الثانية هي كفايته في تدوين الحوادث ، وما بذله من الجهد والصبر في البحث والاستقراء وللجبرى الفضل الأكبر في تدوين تاريخ مصر وحوادثها وتراجم رجالها في القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر ، ولولاه لمايت عنا حوادث مصر في تلك الحقبة الطويلة من الزمن ، ولصرنا منها في ظلمة وحيرة

وليس كتابه مرجعاً للحوادث التاريخية وحسب ، بل تجد في خلال عباراته ومشاهداته صورة حية لحالة مصر الاجتماعية في ذلك العصر ، ولولاه لكان مرجعنا في ذلك أقوال الإفرنج الذين ساحوا في مصر في فترات مختلفة ، وهؤلاء لا يمكن التمويل على أقوالهم لأنهم لم يدرسوا الوسط الذى كتبوا عنه ، وأغلب كتاباتهم مبنية على المشاهدات النجدة والآراء السطحية والروايات التي يلتقطونها من أفواه التراجم ، ولذلك ترى كتبهم مملوءة بالأغلاط والسخافات ، ولا يصح أن يقام لها وزن بجانب كتاب الجبرى الذى نشأ وقضى حياته في مصر ودرس أحوالها وعرف دقائق الأمور في حوادثها السياسية وأحوالها الاجتماعية ،

وحسبك أنه شاهد عيان لحوادث خمسين عاماً أو نحوها ، وأنه استقرأ حوادثها في نحو خمسين عاماً أخرى ، ولم يتوفر مثل هذا الاستقراء وهذه المشاهدة لعالم آخر ، ويكتفيك أيضاً أنك تستطيع أن تجد تراجم رجال مصر في العصر الذى كتب عنه الجبرتي ، وقلما تستطيع أن تقف على تراجم الوفيات بعد انتهاء كتابه ، ولو أن مؤرخاً قام بعد الجبرتي ودون حوادث مصر وترجم لرجالها من سنة ١٨٢٢ لما انقطعت سلسلة التاريخ بعد وفاته ، ولكن لدينا صورة حية لحوادث مصر وأحوالها الاجتماعية وتاريخ رجالها من ذلك العهد إلى نهضة الصحافة المصرية التى صارت بمثابة سجل لحوادث البلاد ، فهذا النقص الذى نشعر به هو من أعظم الأدلة على فضل الجبرتي على التاريخ المصرى

### أسلوب الجبرتي ولقته

يضربون المثل على انحطاط الكتابة فى ذلك العصر بأسلوب الجبرتي ولقته ، على أن الجبرتي لا يزعم أنه كاتب أديب ، وقد كانت الكتابة صناعة أدبية يقوم بها من توفروا على أسبابها من حفظ الرسائل والشعر وفنون الأدب المروفة ، ومع أن الجبرتي من تلاميذ السيد مرتضى شارح القاموس فلم يفهمه السيد أكثر مما كان يفهمه لو أعطاه كتاباً من أهيات كتب اللغة ، فوَقعت فى تاريخه الأغلاط الكثيرة فى المفردات وفى العبارة وفى الأسلوب ، ويرجع كل ذلك إلى أنه لم يفرغ للأدب ولا مهراً فيه ، بل درس العلوم الشرعية والفلك والرياضة ثم عمده إلى التاريخ ، فسيب له اللغة والتحصيل ، والرصد والتوقيت ، والصبر والمناة ، والقيام أحسن القيام على تدوين الوقائع ، وذلك كله قد وفى الرجل به ، أما اللغة وتراكيبها وبدائعها فصناعة أخرى يحتاج إلى مثل الوقت الذى ألف كتابه فيه ، وأكبر الظن أنه مات عن مسودات كتاب لا عن كتاب ، فلو كان المعر قد امتد ، لنقح وهذب ، وبحت وقش ، وأضاف إلى صناعة التاريخ صناعة الكتابة ، على أن الرجل لم يكن قليل البضاعة فى الأدب ، فإن عباراته فى بعض المواطن تدل على أنه ضرب بسهم فى اللغة وأوضاعها ، لكنه لم يمن بالإنشاء والبلاغة ، فأسلوب الجبرتي أسلوب تقريرى لا شأن له بصناعة الترسل ولا بفنون الأدب ، وما يتفق فيه من محاسن اللغة والتعمير فرجعه إلى المصطلحات والألفاظ الشرعية الجارية فى الفقه والحديث والتفسير والمعاملات ، والمباريات المحفوظة المتلقاة عن كتب الأدب ، وهذه المراجع هى مادة العلم واللغة فى ذلك العصر ، وظاهر لمن يحقق النظر فى كتاب الجبرتي من الوجهة اللغوية أنه لولا العلوم الشرعية وما يجرى فيها من اللغة وأوضاعها لبادت الكتابة العربية فى ذلك العصر ، ولكن تاريخ الجبرتي قد جاءنا فى لغة ليس فيها من العربية إلا حروفها

### ترجمة كتابه

وقد تُرجم كتاب الجبرتي للفرنسية مرتين ، الأولى بقلم السيوكاردان Cardin مترجم التقنية الفرنسية بمصر المتوفى سنة ١٨٣٨ ، وهذه الترجمة قاصرة على الجزء الخاص بالحلقة الفرنسية وهي تحوى أغلطا كثيرة ، وقد طبعت سنة ١٨٣٨ ، أما الترجمة الصحيحة الوافية فهي لتخبة من أدباء مصر برئاسة المرحوم شفيق بك منصور يكن وقد ظهرت في تسعة أجزاء من سنة ١٨٨٨ إلى سنة ١٨٩٦

و تُرجم الجزء الخاص بالحلقة الفرنسية أيضا إلى التركية

### وفاة الجبرتي

اختلف الرواة في تاريخ وفاة الجبرتي ، في بعض الروايات أنه توفي سنة ١٢٤١ هجرية ، على أن رواية المرحوم شفيق بك منصور يكن أقرب إلى الثقة لأنه حقق مسألة وفاته وتحرى عن ذريته لمناسبة ترجمة الكتاب إلى اللغة الفرنسية ، فكتب في مقدمة الترجمة أنه توفي يوم ٢٧ رمضان سنة ١٢٣٧ هجرية (١٨ يونيو سنة ١٨٢٢) وقال عن ذريته : « أنه توفي تاركا غلاما وبتنا وأن النلام مات عقب وفاة والده بسنوات قليلة وأن البنت كانت لم تزل على قيد الحياة بالقاهرة حتى ظهور الترجمة الفرنسية للكتاب لكنها كانت تعيش نسيا منسيا » ، ولم يرو لنا أحد من معاصريها ماذا صارت إليه ، وهكذا درست عائلة الجبرتي بعد ما أحياء عسرها تاريخ مصر

ويستفاد من رواية شفيق بك منصور يكن أن كتاب الجبرتي ينتهي عند حوادث سنة ١٨٢١ وأنه لا يوجد جزء خامس كما يروي البعض دون فيه حوادث السنوات التي أعقبت سنة ١٨٢١ ، إذ أن تاريخ وفاته سنة ١٨٢٢ يقرب إلى الظن أن ما دونه ينتهي بهائة الجزء الرابع من الكتاب



— كتاب « ذكر تملك جمهور فرنساوية الأقطار المصرية والبلاد الشامية » تأليف المعلم نقولا الترك من أدباء لبنان

ترجم للسيو ديجرانج Desgranges هذا الكتاب إلى الفرنسية ونشر الأصل العربي مع الترجمة في كتاب واحد طبع في باريس سنة ١٨٣٩ ، وذكر السيو ديجرانج أنه قابل المعلم نقولا الترك للذكور وتعرف به وذكر عنه أنه ولد في دير القمر سنة ١٧٦٣ وتوفي بها سنة

١٨٢٨ وأبوه يوسف الترك وأصل عائلته من الاستانة وأنه كان في خدمة الأمير بشير الشهابي التي أوفده إلى مصر على عهد الحملة الفرنسية وقضى بها ثلاث سنوات شهد في خلالها وقائع الحملة إلى جلاء الفرنسيين وجمع مشاهداته التي ألف منها كتابه ، فرواياته من هذه الناحية رواية شاهد عيان ، وقد نقلنا عنه بعض مشاهداته وملاحظاته

— ( تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الولاة والسلاطين )

هي رسالة صغيرة ليس لها قيمة من الوجهة التاريخية ، وضعها الشيخ عبد الله الشرقاوي رئيس الديوان في عهد الحملة الفرنسية ، ويقول في مقدمتها عن سبب وضعها أنه لما حضر يوسف باشا الصدر الأعظم إلى بليس في شهر رمضان العظيم سنة ١٢١٤ بمد حصول الصلح بينه وبين طائفة الفرنسيين في قلعة المريش « وذهبت مع بعض علماء مصر لملاقاة طلب مني بعض الإخوان من أتباع ذلك الصدر الأعظم أن أجمع كتابا متضمنا لواقعة الحال المذكورة فأجبتهم إلى ذلك » وليس في الرسالة عن واقعة الحال المذكورة سوى محائف قليلة لا تنفي شيئا ، وقد نقلنا عنها بعض فقرات مما شاهده الشيخ الشرقاوي بنفسه

#### الوثائق الفرنسية للحملة

— مراسلات نابليون Correspondances de Napoleon وهي مجموعة تحتوي بجميع المراسلات والأوامر والقرارات والمنشورات والوثائق التي صدرت من نابليون في جميع أدوار حياته ، وهي مرجع على جانب عظيم من الأهمية طبعت بأمر الأمبراطور نابليون الثالث في اثنتين وثلاثين مجلدا

— مذكرات نابليون التي أملاها على الجنرال برتران Bertrand في سانت هيلين ، القسم الخامس بمصر عنوانه ( حروب مصر وسوريا ) في جزئين

#### Campagnes d'Egypte et de Syrie

طبعت هذه المذكرات سنة ١٨٤٧ ، وهي مصدر كبير القيمة يحتوي على معلومات دقيقة عن حروب نابليون وسياسته ولكن فيها ملاحظة لا تقوت القاريء وهي أنها كذكرات المظاء ورجال السياسة لا تخلو من نقطة ضف منشؤها أنهم في بعض المواطن يكتبون ليدافعوا عن أنفسهم أمام التاريخ وأمام الأجيال المقبلة فيعرفون بعض الوقائع في سبيل هذه الغاية ، فذكراتهم من هذه الناحية يجب أن تقابل بالتحفظ وأن تكون رواية الوقائع فيها محلا للبحث والتحقيق

— مذكرات نابليون التي أملاها على الجنرال جورجو Gourgaud ، وهي مذكرات أخرى أملاها على الجنرال المذكور أحد رفاقه في المنفى نشرت سنة ١٨٢٣ وفيها معلومات لم ترد في مذكرات برتران لكن هذه أوفى بيانا

— ذكر حروب الجنرال بوناپارت في مصر وسوريا

Relation des campagnes du Général Bonaparte en Egypte et en Syrie

وهو كتاب للجنرال برتييه Berthier رئيس أركان حرب الحملة الفرنسية ، ضمنه تاريخ المارك والحوادث التي وقعت في مصر وسوريا من يوم وصول الحملة الفرنسية إلى انتهاء معركة (أبو قير) البرية ، طبع قبل انتهاء الحملة الفرنسية ، والجنرال برتييه هو من رفاق نابليون في حياته الحربية والسياسية وكان رئيس أركان حرب الحملة الفرنسية في إيطاليا ثم في مصر ، وقد عاد إلى فرنسا صحبة نابليون بعد واقعة أبو قير البرية قبل انتهاء حوادث الحملة وهذه وزارة الحربية عندما صار نابليون قنصلا أول ولازمه في حروبه وكان موضع ثقته ورفاه مارشالا ثم دوقا ثم أميراً لكنه تخلى عنه سنة ١٨١٤ بعد أن أقل نجمه ومات سنة ١٨١٥ ويقال إنه مات منتحرا

— مذكرات المارشال برتييه وهي مذكرات أكثر تفصيلا من كتابه

— تاريخ الحملة الفرنسية في مصر للسيو مارتان في جزئين طبع سنة ١٨١٥

Histoire de l'Expedition Française en Egypte p. Martin

والسيو مارتان هو أحد مهندسي الحملة الفرنسية وأحد أعضاء لجنة العلوم والفنون ومن اشتركوا في وضع كتاب (تخطيط مصر)

— مذكرات بوريين

Memoires de Bourienne sur Napoleon; le Consulat, l'Empire et la Restauration.

وبوريين هو سكرتير نابليون الخاص ، نشر مذكراته سنة ١٨٣١ في عشرة أجزاء<sup>(١)</sup> ، وبما يجدر ملاحظته أن هذه المذكرات مع أهميتها ودقة بياناتها يجب أن تقابل (في بعض المواطن) بالتحفظ ، لأن المروف عن بوريين أنه تنكّر لنابليون لما أقل نجمه في حروبه الأخيرة التي انتهت بأسره في واقعة واترلو وانضم في هذا المهد إلى خصومه من الملكيين وكافأوه على تنكّره لسيده

— مذكرات الجنرال كليبر Carnet du general Kleber

(١) أعيد طبعها في خمسة أجزاء كل جزء يتناول جزءين من الطبعة الأولى

— يوميات الجنرال كليبر Journal du general Kleber

مذكرات الجنرال موران عن أعمال كليبر

Notes du general Morand sur les operation de general Kleber

مذكرات (ميو) عن تاريخ حملة مصر وسوريا

Memoires pour servir à l'histoire des expéditions en Egypte et en  
Syrie p. J. Miot

وميو هذا كان قوميسيراً في إدارة مهمات الحملة

— مصر بعد واقعة عين شمس

1. L'Egypte après la bataille d'Heliopolis

تأليف الجنرال رينييه Reynier أحد قواد الحملة الفرنسية ، طبع سنة ١٨٠٢ ، وهذا الكتاب يحتوي تاريخ حوادث مصر من نقض معاهدة العريش إلى جلاء الفرنسيين عن مصر وفيه فذلكرة عن الحوادث التي وقعت في عهد قيادة الجنرال كليبر ، فهو من هذه الجهة يعتبر مكملاً لكتاب الجنرال برتنيه ، لأن كتاب برتنيه ينتهي بآخر عهد نابليون في مصر ، وبدراسة الكتابين تمثل لديك مجموعة حوادث الحملة الفرنسية كما رويها قائدان من أهم قواد الحملة ، والمعروف عن الجنرال رينييه أنه كان خصماً لجنرال منو Menou وكان بينهما خلاف شديد أشار إليه الجبرتي في كتابه ، وقد أمر منو بطرده من الإسكندرية في آخر عهد الحملة الفرنسية ( وقد ذكرنا تفصيل ذلك في الجزء الثاني ) ، فوضع رينييه كتابه ليدافع عن وجهة نظره وخطه الحربية التي عارض فيها منو ، على أن رينييه كان معتدلاً في شرح آرائه متحرراً الصلح في سرد الوقائع معتمداً في كتابه على الوثائق والبيانات الرسمية ، ويعتبر كتابه هذا من أهم وثائق الحملة الفرنسية ، وقد مات الجنرال رينييه سنة ١٨٠٤ وأعيد طبع الكتاب سنة ١٨٢٧ بإسم مذكرات رينييه

Memoires de Reynier

— جريئة (كورييه دليجيت) Courier de l'Egypte وهي الجريدة شبه الرسمية

للحملة الفرنسية وقد تكلمنا عنها ص ١٢٠

— جريئة (لاديكاداجيسمين) La Decade Egyptienne وقد تكلمنا عنها ص ١٢٠

— رحلة في الوجه البحري ومصر العليا أثناء حروب الجنرال بوناپارت ، للمسيو

فيغان ديتون

Voyage dans La Basse et La Haute Egypte pendant les campagnes  
du general Bonaparte p. Vivant Denon

وقد تكلمنا عن هذا الكتاب ومؤلفه ص ١١٥

— التاريخ الطبي لجيش الشرق للدكتور ديجنيت كبير أطباء الحملة الفرنسية

Histoire médicale de L'Armée d'Orient p. Desgenettes

Souvenirs de Desgenettes ديجنيت

— رسائل من مصر بقلم السيور جوفروا سان هيلير أحد علماء الحملة وقد تكلمنا

عنه ص ١٠٨

Lettres ecrites d'Egypte p. Geffroy Saint Hilaire

— مذكرات ديفيليه أحد مهندسي الحملة (يوميات وذكريات عن حملة مصر)

Journal et Souvenirs sur l'Expedition d'Egypte وقد تكلمنا عنها ص ١٠٦

— مذكرات جالوا أحد مهندسي الحملة (انظر ص ١٠٦)

Journal d'un ingenieur attaché à l'Expedition D'Egypte p. Jallos

— تاريخ حملة مصر Histoire de l'Expedition d'Egypte للسيور نوري

أحد مهندسي الحملة وقد تكلمنا عنه وعن كتابه ص ١٠٧

— يوميات مالوس Agenda de Malus (انظر ص ١١٤) وهو ضابط كبير في

جيش الحملة وعضو بالجمع العلمي ، ومذكراته تتناول الحوادث من فبراير سنة ١٧٩٨ إلى

يوليه سنة ١٨٠١ لكنها طبعت سنة ١٨٩٢

— وللجنرال مارمون Marmont أحد قواد الحملة رحلة في بعض بلاد أوروبا والشرق ،

وكانت رحلته إلى مصر في عهد محمد علي باشا وقد دون فيها مشاهداته وذكرياته عن الحملة

الفرنسية طبعت باسم (رحلة المارشال البوق دي راجوز) Voyage du Marechal duc

de Raguse وهو بذاته الجنرال مارمون الذي رافقه نابليون إلى قلب دوق فصار يعرف بالبوق

دي راجوز ومنحه رتبة مارشال ثم غدر بسيفه لما أقل نجمه وانحاز إلى أعدائه فعد عمله

مضرب الأمثال في التدر وتقص العهد ، وقد طبعت رحلته سنة ١٨٣٧

— مذكرات دي نيول سارجي أحد ضباط الحملة ، مات سنة ١٨٠٢ ونشرت مذكراته

سنة ١٨٢٥

Memoires secrets et inedits pour servir à l'histoire contemporaine sur l'Expedition d'Egypte p. De Niello—Sargy

— صورة مصر أثناء إقامة الجيش الفرنسي للسيور جالان

Tableau de l'Egypte pendant le séjour de l'armée française p. Galland.

طبع سنة ١٨٠٤ في جزين ، والمسيو جالان هو أحد أعضاء لجنة العلوم والفنون  
وكان أديباً وموظفاً في جريدة ( الكوريه دليجيت )  
— جيش بوناپارت في مصر للقومندان جيتري

L'Armée de Bonaparte en Egypte p. Guitry

— بوناپارت في مصر للكابتن تورمان أحد ضباط الحملة

Bonaparte en Egypte p. Thurman

— يوميات الجنرال لوجيه Journal du Général Laugier

— يوميات الكونت أميرال بلانكي دي شايلأ أحد قواد المهارة الفرنسية

Journal du contre—Amiral Blanquet du Chayla

— يوميات الجنرال بليار

Journal du general Belliard

— مذكرات الجنرال ديفرنوا Memoires du general baron Desvernois

— مذكرات سلكوسكي Notes de Sulkowsky

— مذكرات حرية للكلونل فيجو روسيلون

Memoires militaires du colonel Vigo Roussillon

— مذكرات تاريخية عن حركات ومواقع فرقة الجنرال ديزيه للكابتن جارييه من ضباط  
فرقة الهندسة

Memoires historiques des marches et positions de la division de  
general Desaix p. le capitaine de genie Oarbé

— ذكريات عن حملة مصر للفارس بيرميه

Souvenirs de la campagne d'Egypte p. le chasseur Pierre Millet

— يوميات فارس عن مصر ، وهو أحد ضباط الحملة الفرنسية لم يذكر اسمه في كتابه

Journal d'un dragon d'Egypte

— تاريخ حملة مصر وسوريا للمسيو أدير ، وهو ليس بشاهد عيان لكن كتابه راجع

الجنرال بوفيه Beauvais رئيس أركان حرب الجنرال رينيه

Histoire de l'Expedition d'Egypte et de Syrie p. Ader

— مذكرات جديدة عن الجيش الفرنسي في مصر وسوريا لريكاردو ، نشرت سنة ١٨٤٨

بعد عهد طويل من الحوادث التي دوت فيها

Nouveaux memoires sur l'armée française en Egypte et en Syrie  
p. Richardo



- مجموعة ميادين الوقائع والمجملات والمارك التي فاز فيها بوناپارت في إيطاليا ومصر -

Recueil de plans de batailles, attaques et combats gagnés p. Bonaparte  
en Italie et en Egypte

وهو كتاب لاثنتين من ضباط أركان حرب نابليون ممن شهدوا وقائمه ولم يذكر اسميهما  
في الكتاب

يوميات سافارى Carnet du chef d'escadron Savary أحد ضباط الحملة  
الفرنسية ( وهو غير المسيو سافارى صاحب كتاب رسائل عن مصر ) ، والضابط سافارى  
هو الذى صار فى عهد الامبراطورية النابليونية اللوق روفيجو Duc de Rovigo وله  
مذكرات طبعت باسم مذكرات اللوق روفيجو

Memoires du duc de Rovigo

- يوميات عن الحملة الانجليزية فى مصر للكبتن ولش Walsh أحد ضباط تلك الحملة

Journal of the late Campaign in Egypt

يتضمن حوادث الحملة الانجليزية التى اشتركت مع الحملة النمانية لإخراج الفرنسيين من  
مصر ، ويبدأ بسرد وقائع الحملة من يوم احتشاد الجيش الانجليزى فى جبل طارق ( نوفمبر  
سنة ١٨٠٠ ) إلى جلاء الفرنسيين عن مصر. وقد ترجم الكتاب إلى الفرنسية

\*\*\*

ولعلك تشعر مى بأسف عظيم عند ما تآدن بين ما تركه رجال السيف والقلم فى أوروبا  
من المذكرات والوثائق فى مختلف المصور ، وبين قصص تاريخنا من هذه الناحية ، ويزيدنا  
أسفاً أن هذا النقص يلقى ظلاماً حالكا على كثير من وقائع تاريخنا وبحول دون تعرف  
الحقائق فى كثير من أمهات الحوادث ، ولو عنى رجالنا بتدوين مذكراتهم وخواطرم  
وبشاهداتهم وجمع الوثائق والمخطوطات التى توفرها عليها وعنت سلاتهم بالمحافظة عليها  
ونشرها ككتابة القوم فى أوروبا لكان فى ذلك أكبر خدمة لتاريخ مصر ولا كتعبت الآداب  
التاريخية فى بلادنا مادة تعد من أصول الفقه التاريخى

كتاب تخطيط مصر

Description De l'Egypte

هو الكتاب الخالد الذى وضعه علماء الحملة الفرنسية ، يحتوى مجموعة أبحاثهم ومذكراتهم

وخرائطهم ورسومهم واكتشافاتهم في خلال السنوات الثلاث التي قضوها في مصر ، وهو أعظم كتاب ظهر في العصر الحديث عن تخطيط مصر ، أو هو دائرة معارف لمصر القديمة والحديثة إلى انتهاء عهد الحملة الفرنسية ، يتناول تخطيط آثارها وبلدانها القديمة والحديثة وشوارعها وسواحلها ونيحها وترعها ونباتها وحيوانها وطيورها وأسمائها وحشائها ومعادنها وأحجارها وزراعتها وصناعاتها وتجارتها وعلومها وفنونها وأخلاقها وعاداتها ، وهو وإن لم يكن تاريخاً لوقائع الحملة الفرنسية لكن بعض حوادثها وردت فيه خلال أبحاثه العلمية ، على أن الكتاب لعظم قيمته لا يمكن أن يستغنى عن دراسته كل من يريد الكتابة في تاريخ مصر من أي ناحية من نواحيه

بدأ علماء الحملة الفرنسية في وضع هذا الكتاب وتبويبه من عهد رجوعهم إلى فرنسا فأخذوا يجمعون المباحث التي أنعموا أثناء إقامتهم بمصر وينقحونها ويتنون عليها ، قضوا في تأليف الكتاب سبعة عشر عاماً ، ومات بعض مؤلفيه أثناء تأليفه

وكان وضع الكتاب وطبعه بطلب من الحكومة الفرنسية ، فقد أمر نابليون بعد عودته الحملة الفرنسية من مصر أن تجمع الأبحاث والخرائط والرسوم وجميع المذكرات الخاصة بالعلوم والفنون مما انتهى إليه علماء الحملة في كتاب واحد يطبع بنفقة الحكومة ، وألفت لجنة من ثمانية من أكبر علماء الحملة اختارهم جماعة المؤلفين لتبويب الكتاب وجمع مواده وإخراجه ، وأعضاء هذه اللجنة هم برتوليه Berthollet ومونج Monge وكونتى Conté وكوستاز Costaz وديجنيت Desgenettes وفورييه Fourier وجيرار Girard ولانكرى Lancret وضم إليهم في خلال العمل دليل Delile وديفيليه Deviliers وجومار Jomard وجالوا Jalloy وتولى برتوليه رئاسة اللجنة ، وتداول سكرتيراتها على التعاقب السيولا لا نكرى ثم جومار ثم جالوا

وكان للجنة قويمسير في مندوب عن الحكومة يتولى تنظيم العمل وإنفاذه وهو السيولا كونتى Conté ، وبعد وفاته خلفه السيولا نكرى ، وبعد وفاة الأخير خلفه السيولا جومار إلى أن تم ظهور الكتاب

وقد ظهرت الأجزاء الأولى من الكتاب سنة ١٨٠٩ واستمرت تظهر تباعاً إلى سنة ١٨٢٦ ، وأعيد طبع الكتاب من سنة ١٨٢١ إلى سنة ١٨٢٩ ، وهي الطبعة الثانية ، وقد درسنا الكتاب في طبعته الثانية للسيولا بانكوك وبلغ عدد ما بها من الخرائط والرسوم الكبيرة والصغيرة ثلاثة آلاف

والكتاب ينقسم إلى وضعين ، قسم النصوص وقسم الخرائط والرسم ، فالأول يحتوي مذكرات علماء الحملة وتقاريرهم ومشاهداتهم ويقع في ستة وعشرين مجلداً ، والقسم الثاني في أحد عشر مجلداً كبيراً يحتوي رسوم الآثار القديمة ورسوم مصر الحديثة ومدنها ومبانيها وصناعاتها وزراعتها وطبقات سكانها ، وكذلك رسوم حيوانها وطيورها وأسماء وكهف وحشراتنا ونباتها ومعادنها وأحجارها ، والخرائط الجغرافية عن مصر ومديرياتها وسواحلها وترعها وبحيراتها وصحاريها وجبالها ومدنها وتقورها وأسماء البلاد الكبيرة والصغيرة بالفرنسية والعربية وينقسم من جهة الموضوعات إلى ثلاثة أقسام

- (١) وصف مصر القديمة إلى عهد الفتح الإسلامي وفيه تخطيط دقيق مفصل لآثار مصر القديمة والبلاد القائمة بها تلك الآثار أو القرية منها وحالتها القديمة والحديثة
- (٢) وصف مصر الحديثة من الفتح الإسلامي إلى مشاهداتهم خلال الحملة الفرنسية
- (٣) التاريخ الطبيعي لمصر

ولا يسع الطبع على هذا الكتاب العظيم إلا أن يقر بمقدرة علماء الحملة الفرنسية في استيعاب الحقائق العلمية واستقصاء المشاهدات والمعلومات والبيانات الدقيقة التي جمعوها في الفترة القصيرة التي قضوها في مصر ، ويجب بما تدرعوا به من الصبر والجلد لإتمام عملهم الجليل

#### مؤلفات جامعة

##### مستندة إلى الوثائق الرسمية وروايات شهود العيان

وثم كتب لم يكن أصحابها ممن شهدوا الوقائع التي دونوها ، إلا أنها أهم من كثير من المراجع المتقدمة ( عدا كتاب مخطيط مصر ) إذ كانت مستندة إلى وثائق رسمية ذات قيمة كبيرة وإلى روايات شهود العيان .  
واليك بيان هذه الكتب

— التاريخ العلمي والحربي للحملة الفرنسية في مصر ( في عشرة أجزاء )

Histoire scientifique et militaire de l'Expedition française en Egypte

طبع من سنة ١٨٣٠ إلى سنة ١٨٣٦

وهو كتاب جامع اشترك في وضعه جماعة من علماء فرنسا بإدارة السيو مارسيل Marcel أحد علماء الحملة الفرنسية والسيو ريبو Reybaud أحد كتّاب فرنسا السياسيين والسيو سانتين Santine ، واستعانوا على وضعه بالوثائق والمستندات والمخطوطات والمذكرات التي

جملها لقيف من قواد الحملة الفرنسية وعلمائها ( وبعضهم ممن بقى على قيد الحياة حين وضع الكتاب ) كذكرات الجنرال بليار ومراسلات الجنرال كليبر ، ووثائق السيو دور D'Aure مدير مهمات الحملة ، ووثائق الطبيبين الشهيرين لارى Larrey وديجيت ، ومذكرات العالم جوفروا سان هيلير عن تاريخ مصر الطبيعى ، ومذكرات بعض قواد الحملة ، والمخطوطات التى جملها السيو مارسل ، ووثائق السيو يروس Reyrusse سكرتير الجنرال كليبر الخاص ، ووثائق السيو بوسيلج Poussielgue مدير الشؤون المالية فى عهد الحملة وغير ذلك ، وكل هذه المصادر على جانب عظيم من الدقة والأهمية ، والكتاب فى عشرة أجزاء الجزء الأول خاص بمصر القديمة وقد تولى تحريره ريبو ومارسل والمركز فورتيا دوريان ، والجزء الثانى خاص بتاريخ مصر من عهد الفتح الإسلامى إلى الحملة الفرنسية وتولى تحريره ريبو ومارسل والأجزاء الستة التالية خاصة بالحملة الفرنسية وقد تولى تحريرها ريبو وحده ، ولتلك جلنا الإشارة فى كتابنا إلى هذه الأجزاء بكلمة « ريبو » والجزءان التاسع والعاشر عن تاريخ مصر من جلاء الفرنسيين وتولى تحريرها فولابل.

وقد وضع ريبو مقدمة الكتاب وهو صاحب القسط الأكبر فيه فيصح أن ينسب إليه والكتاب فضلا عن مكانته باعتباره أول وأكبر كتاب جامع لوقائع الحملة الفرنسية فإنه مستند إلى وثائق شهود العيان ، والسيو مارسل أحد الذين اشتركوا فى تحريره كان فعلا شاهد عيان لحوادث الحملة ، وقد قدم السيو جوفروا سان هيلير الكتاب إلى الجمع العلمى الفرنسى

— حملة مصر تأليف الكاتبين ( ثم القومندان ) دى لاجونكيير

L'Expedition d'Egypte p. Le C. De La Jonquière

وهو فى خمسة مجلدات كبيرة نشر فيها المؤلف الوثائق الرسمية للحملة الفرنسية المودعة فى محفوظات وزارة الحربية الفرنسية ووزارات البحرية والتجارة ، وهو من أهم مراجع هذا المصر ، لكنه قاصر على مدة إقامة نابليون فى مصر ، وينتهى الجزء الخامس منه برحيله إلى فرنسا ، وقد ظهر الكتاب من سنة ١٨٩٩ إلى سنة ١٩٠٧

ويوجد كتاب عن عهد الجنرال كليبر والجنرال متو إلى نهاية الحملة الفرنسية يصح أن يكون تكملة لكتاب القومندان دى لاجونكيير وهو

— كتاب « الجنرال عبد الله متو والفترة الأخيرة لحملة مصر » ( ١٧٩٩ — ١٨٠١ )

لؤلؤه السيو جورج ريجو

Le general Abdallah Menou et la derniere phase de l'Expedition d'Egypte p. George Rigault

ظهر هذا الكتاب سنة ١٩١١ في جزء واحد واستند فيه مؤلفه إلى بعض الوثائق الرسمية وحاول أن يكون مكملًا لكتاب القومندان دي لاجونكيير ، لكنه ليس بالتعمق ولا بالإسهاب اللذين تراهما في كتاب دي لاجونكيير فضلا عن أنه ظاهر من أسلوب مؤلفه أنه كان يكتب مدفوعا بروح الانتصار لمنو والتعامل على كبير فكتابه يوزنه الاعتدال الذي يكفل النصفه عند محرمى الحقائق

— كتاب الكونت باجول عن كبير واسمه ( كبير — حياته ومراسلاته )

Kleber, sa vie, sa correspondance p. le general comte Pajol

كبير ومنو في مصر للسيو روسو

Kleber et Menou en Egypte p. Fr. Rousseau

وهو مجموعة من الوثائق الخاصة بمهد قيادة الجنرال كبير والجنرال منو في مصر

عن اللغة التي انضمت بعد جلاء الفرنسيين

إلى إسناد ولاية مصر إلى محمد علي باشا

( المراجع العربية ) .

— الجيرى وهو أهم مرجع ونفوق في دقته لجميع المراجع الفرنسية ، وقد سبق الكلام عنه

( المراجع الأوربية ) :

— تاريخ مصر في تحكيم محمد علي للسيو فيليكس مانجان

Histoire de l'Egypte sous le Gouvernement de Mohamed Aly p, Felix Mengin

والسيو فيليكس مانجان هو شاهد عيان للحوادث التي دونها في كتابه من جلاء الفرنسيين إلى سنة ١٨٣٨ وكان مقبلا بمصر موظفاً سياسيا في الوكالة الفرنسية بالقاهرة ، وكان صديقا لمحمد علي باشا واشترك في بعض الحوادث التي دونها في كتابه ، وكتابه من هذه الوجهة له قيمة كبيرة وهو من أهم مراجع تلك الحقبة من الزمن ويقع في ثلاثة أجزاء سرد في الأول والثاني حوادث مصر من جلاء الفرنسيين إلى سنة ١٨٢٣ وما اللذان يمتبران من مراجع الفترة التي بسطناها في الجزء الثاني من كتابنا هذا ، أما الثالث من كتابه فجاء خاصا بالحوادث التي وقعت من سنة ١٨٢٣ إلى سنة ١٨٣٨

— لمحة عامة إلى مصر للدكتور كلوت بك —

Aperçu general sur l'Egypte p. Clot bey

في جزئين وقد ترجم الكتاب إلى اللغة العربية الأستاذ محمد مسعود بك  
— ورجعنا كذلك في بعض المواطن ( إلى الخطط التوفيقية ) للعلامة على باشا مبارك في  
عشرين جزءاً ، وإلى كتاب ( التوفيقات الإلهامية في مقارنة التواريخ المعتبرة بالسنين الأفرنجية  
والقبطية ) لمؤلفه اللواء المصرى محمد مختار باشا طبع سنة ١٣١١ هجرية

## كلمة شكر

ولنأسية مراجع البحث أرى واجباً على أن أقدم جزيل شكرى لحضرات رجال  
دار الكتب الملكية بمصر على جميل الحفاوة وعظيم المساعدة والمعاونة التى لقيتها منهم فى  
البحث والمراجعة ، وأخص بالذكر منهم الأستاذ أسعد بك برادة مدير دار الكتب ، والأستاذ  
توفيق بك اسكاروس رئيس القسم الأفرنجى ، والأمين الأول الأستاذ على بك فكرى ،  
والأستاذ الفاضل الشيخ محمد عبد الرسول رئيس القسم العربى ، ومساعدته الأدهب المهنّب  
محمد افندى جبر ، والأمينين الفاضلين خليفته افندى قنديل وسيد افندى عمر ، وأقدم مثل  
هذا الشكر إلى الأستاذ الأسمى ، الشيخ أحمد أبى على ، أمين مكتبة الإسكندرية ، فلهم جميعاً  
منى عظيم الشكر والتناء

## فهرست

صفحة		صفحة
٧	مقدمة الطبعة الأولى	٣
١١	اهداء الكتاب	٥

مقدمة الطبعة الثالثة  
مقدمة الطبعة الثانية

## الفصل الأول

١٢	نظام الحكم في عهد المماليك
٢٧	نظام الملكية والضرائب
٢٧	أنواع الملاك
٢٧	نظام الالتزام
٢٩	الضرائب وأنواعها
٣٠	الكشوفية والميرى
٣١	الضرائب الأخرى ومقدار دخل الحكومة
٣٢	النظام القضائي
٣٨	نتائج نظام الحكم في حالة مصر السياسية والعمرانية
٣٨	في الحالة الاقتصادية
٣٩	في الحالة الصحية
٣٩	في العلوم والآداب
٤٢	الحالة الاجتماعية والاقتصادية في مصر : عند مجيء الحملة الفرنسية
٤٣	طبقات الشعب
٤٣	العلماء
١٢	من هو الواضع لهذا النظام
١٤	نظام الحكم السياسي - السلطات الثلاث
١٤	الوالي
١٤	رؤساء الجند
١٥	الديوان الكبير والديوان الصغير
١٧	المماليك
١٩	تطور هذا النظام وانفراد المماليك بالحكم
٢٠	موظفو الحكومة في عهد المماليك
٢١	سياسة علي بك الكبير
٢٣	مظاهر الحكم في ذلك العصر كما وصفها شهودها
٢٣	كيف يعين الولاة
٢٤	وصف استقبال الوالى
٢٥	سلطة الوالى
٢٦	عزل الوالى
٢٦	انقضاء الديوان

صفحة	صفحة
٤٧	٤٣ الملاك والتجار
٤٩	٤٤ مركز مصر التجارى
٥٠	٤٥ الجمارك
٥١	٤٦ طبقة المزارعين أو الفلاحين
	كلمة عن القاهرة وأمهات مدن مصر

## الفصل الثانى

٥٤	تطور نظام الحكم فى عهد الحملة الفرنسية
٦٣	٥٤ أسباب الحملة الفرنسية
٦٥	٥٥ نابليون بونابارت
	٥٨ فكرة الحملة الفرنسية فى خلال البصور
٦٩	٥٨ فى عهد لويس التاسع
٧١	٥٨ فى عهد لويس الرابع عشر
	فى عهد لويس الخامس عشر والسادس
٧٤	٥٩ عشر
	غداة معركة الأهرام

## الفصل الثالث

٧٨	نُظُم الحكم التى أسسها نابليون فى مصر
٨٨	٧٨ ديوان القاهرة
٨٩	٧٨ تأليف الديوان
٩٠	٨١ اختصاص الديوان
	٨٣ نظام الديوان
٩٠	٨٤ دواوين الأقاليم
	٨٥ الديوان العام
٩١	٨٥ رسالة نابليون فى الترض من الديوان
	٨٧ اجتماع الديوان العام وقراراته
٩٢	٨٧ خطبة الافتتاح
	رأسه الديوان العام
	قرارات الديوان
	المسألة الأولى - نظام مجالس الديوان
	المسألة الثانية - النظام التقضاى المدنى
	والجنائى
	المسألة الثالثة - التشريع الخاص
	بالموارث
	المسألة الرابعة - تسجيل عقود الملكية
	والضرائب العقارية



## الفصل الرابع

صفحة

### المجمع العلمي

۹۷

۱۱۱	الاقتصاديون	صفحة	تأسيس المجمع
۱۱۱	بوسليج	۹۷	النرض من المجمع - أقسام المجمع -
۱۱۲	استيف - قاليان	۹۸	انعقاد المجمع - مكتب المجمع
۱۱۲	التواد والضباط	۹۸	أعضاء المجمع العلمي
۱۱۲	الجنرال كافريلى	۱۰۰	دار المجمع العلمي
	الجنرال اندريوسى - هوراس ساي		طائفة من أعضاء المجمع العلمي ولجنة
۱۱۳	- مالوس	۱۰۱	العلوم والفنون
۱۱۴	الأطباء والجراحون	۱۰۲	علماء الرياضيات والمهندسون
۱۱۴	ديجت - لارى	۱۰۲	موسج
۱۱۵	ديوا	۱۰۳	كوستاز - لوير
۱۱۵	الأدباء والمترجمون والفنانون	۱۰۴	جراتيان لوير
۱۱۵	فيقان ديتون - فانتور	۱۰۴	جيرار - جومار
	مارسل - جوير - بوسفال	۱۰۵	فورييه - لانكرى
۱۱۶	دجرتيزون	۱۰۶	كورانسز - جالوا - ديليبه
	رثايل - فيلوتو - ريجو - ردوتيه	۱۰۶	السكرولونل جا كومان وخريطة مصر
۱۱۷	- دورتر	۱۰۷	ديبوا لامي - نوى - نورى
۱۱۸	أعمال المجمع العلمي	۱۰۸	لوير
۱۱۹	الطباعة	۱۰۸	علماء الطبيعيات
۱۲۰	الصحافة	۱۰۸	برتوليه - جوفروا سان هيلير -
۱۲۰	الأعمال الصحية	۱۰۹	سافيني - دولوميو - دليل
۱۲۲	أعمال أخرى	۱۱۰	كونتي
	زيارة الجبرق للمجمع العلمي وما قاله	۱۱۱	شامي - ديكوتيل - روزير
۱۲۵	فى وصفه		

صفحة	صفحة
١٣٠	١٢٦ مكتبة المجمع الملى
	١٢٧ قسم الفلك - قسم الرعم والتصور
	١٢٨ قسم الهندسة والطب والكيمياء

## الفصل الخامس

### المقاومة الأهلية في عهد الحملة الفرنسية

١٣٤	١٣٤ كلمة عامة
	١٣٥ في الاسكندرية
١٤٩	١٣٥ حالة الاسكندرية عند مجيء الحملة
١٤٩	١٣٧ حدود عمران المدينة
	رسالة محمود باشا الفلكي عن
١٥٢	١٣٨ الاسكندرية القديمة
١٥٣	١٣٩ حالة المدينة من الوجهة الحربية
	١٤١ ترعة الاسكندرية
١٥٥	١٤٢ عدد سكان الاسكندرية
	حضور الأميرال نلسن إلى الاسكندرية
١٥٧	١٤٣ ثم إقلاعه
	١٤٤ رواية الجبرتي عن حضور نلسن
١٦٠	الحالة النفسية للشعب عند مجيء البهارة
١٦١	١٤٥ الفرنسية

## الفصل السادس

### في البحيرة

١٦٨	١٦٤ معركة شبراخيت
	١٦٧ رواية الجبرتي عن معركة شبراخيت

## الفصل السابع

صفحة

١٧١

في القاهرة

١٧٦

المصريين فيها

صفحة

١٧٧

الاستعداد للمركة

حالة الأفكار في القاهرة عند مجيء

١٧٧

سير القتال

١٧١

الجملة الفرنسية

١٧٩

رواية الجبرتي

١٧٢

التطوع العام في القاهرة

١٨٢

انسحاب ابراهيم بك

سوء استعداد المالك وضعف وسائل

١٨٤

نصيب المصريين في المركة

١٧٣

الدفاع

١٨٦

بعد الواقعة

واقعة إمبابية أو معركة الأهرام ونصيب

## الفصل الثامن

١٨٨

عُودٌ إلى الاسكندرية

١٩٣

خسائر الفرنسيين

واقعة (أبو قير) وتأثيرها في مراكز

١٩٤

رواية الجبرتي عن الواقعة

١٨٨

الفرنسيين

١٩٥

نتائج المركة

١٨٨

مقدمات الواقعة

١٩٧

ديوان الاسكندرية

١٨٩

الموازنة بين الاسطولين

١٩٨

الشيخ محمد البحري

١٩٠

بدء المركة

١٩٨

بين كليبر ونابليون

١٩١

بدء الضرب

٢٠٠

الجنرال مارمون في الاسكندرية

١٩١

مقتل الأميرال برويس

## الفصل التاسع

٢٠١

في رشيد

٢٠٥

حادثة شباس عمير

٢٠١

احتلال رشيد

٢٠٣

حادثة الحامية

## الفصل العاشر

صفحة

٢٠٧

عُودٌ إلى البحيرة ورشيد

تجدد الاضطرابات حول رشيد وفي

٢٠٩

دمهر

٢٠٧

٢٠٨

الاضطرابات في البحيرة

مهمة الجنرال مارمون

## الفصل الحادى عشر

٢١١

في القليوبية والشرقية

٢١٣

احتلال بليس

توزيع القوات الفرنسية في الوجه

٢١٤

معركة الصالحية

٢١٢

البحرى

٢١٥

عودة نابليون إلى القاهرة

٢١٢

المبارك بين الخانكة وأبي زعبل

٢١٦

الاضطرابات في الشرقية

٢١٣

انسحاب الفرنسيين من الخانكة ثم

اجتلالها

## الفصل الثانى عشر

٢١٩

عُودٌ إلى القاهرة

٢٢١

تعيين أمير الحج

٢١٩

سياسة الحفلات

٢٢٢

عيد الجمهورية الفرنسية

٢١٩

مهرجان وفاء النيل

٢٢٠

حفلة المولد النبوى

## الفصل الثالث عشر

٢٢٥

ثورة القاهرة

٢٣٠

رجع ما انقطع

٢٢٦

لما ذُكرت القاهرة

٢٣١

مصادرة الأملاك وهدم للباني

٢٢٦

الأسباب المالية

٢٣١

هدم أبواب الحارات

٢٢٨

استطرد إلى ترجمة (نفيسة المرادية)

صفحة	صفحة	صفحة
٢٤٥	مروءة سكان القاهرة	٢٣٢ القتل والإرهاب
٢٤٦	فظائع الفرنسيين في إخماد الثورة	٢٣٤ لجنة الثورة
٢٥٢	إبطال الديوان وإنشاء القلاع	٢٣٥ وقائع الثورة
٢٥٤	لإحضار القاهرة	٢٣٧ اليوم الأول للثورة
٢٥٥	كلمة عن رسالة الجيزة	٢٣٩ مقتل الجنرال ديوبى
٢٥٧	عدد القلاع التي أنشأها الفرنسيون بالقاهرة	٢٤١ وصف الثورة بقلم شاهد عيان
٢٦٠	مدى الثورة في الأقاليم	٢٤١ اليوم الثانى للثورة
٢٦٠	تدخل العلماء وبياناتهم للشعب	٢٤٢ مقتل الكولونل سلكوسكى
٢٦٠	البيان الأول	٢٤٣ وساطة أعضاء الديوان
٢٦٢	البيان الثانى	٢٤٤ ضرب المدينة بالدافع
		٢٤٤ فتح الثورة - خبايا الفرقين

## الفصل الرابع عشر

٢٦٥	في المنوفية والغربية	٢٦٥	المقاومة في غمرين وتنا
٢٦٧	الثورة في طنطا	٢٦٦	الحلة الكبرى
٢٦٩	احتلال عثما		

## الفصل الخامس عشر

٢٧٢	في الدقهلية ودمياط	٢٧٢	واقعة المنصورة
٢٨١	ممركة الجالية	٢٧٦	الحلة على سنباط وميت غمر
٢٨٤	عود الى حسن طوبار	٢٧٧	فيضان الثورة
٢٨٥	في دمياط	٢٧٨	الحلة على البحر الصغير
٢٨٦	واقعة الشعراء	٢٧٩	حسن طوبار
٢٨٧	تفاقم الثورة وفتائع الجنرال فيال	٢٨٠	سير الحملة على البحر الصغير
٢٨٨	الحملة الثانية على البحر الصغير		

٢٩٣	صفحة	٢٩٠	صفحة
٢٩٥	احتلال الطرية	٢٩١	سبر الحملة والاستيلاء على النزالة
	تحمين منطقة دمياط		احتلال النزالة

## الفصل السادس عشر

### المقاومة في الوجه القبلي

٢٩٨	٢٩٨	مقدمات الحملة
٣١٥	٣٠٠	تحرّك الحملة — احتلال بني سويف
٣١٥	٣٠١	حادثة التفاعى
٣١٨	٣٠١	احتلال أسيوط
٣١٩	٣٠١	ثورة قبا بين أسيوط وجرجا
٣٢٠	٣٠٢	وجوع ديزيه الى الفيوم
٣٢١	٣٠٣	واقعة سدمنت
٣٢١	٣٠٨	فتك الرمد بالجناد
٣٢٢	٣٠٨	الوقوف الحربى في بني سويف والفيوم
٣٢٥	٣١٠	والمنيا
٣٢٦	٣١١	احتلال مدينة الفيوم وإخماد الثورة
٣٢٧	٣١٢	في القرى المجاورة
٣٢٨	٣١٣	هجوم الثوار على مدينة الفيوم
٣٢٨	٣١٤	موقف الجنرال ديزيه في الوجه القبلي
٣٢٩		تلقى المدد واستئناف الحملة على الوجه القبلي
		معركة استا

## الفصل السابع عشر

### استمرار المقاومة في الوجه القبلي

٣٣٠	٣٣١	موقف المايك
٣٣٤	٣٣٢	معركة الصوامع
٣٣٥	٣٣٣	كارثة السفن الفرنسية في النيل
		من أسوان إلى قوص
		معركة فقط
		معركة أبنود

ملحة	صفحة	صفحة	حالة الشعب النفسية
٣٤٧	واقعة (أوجرج)	٣٣٦	رجوع ديزيه إلى قنا
٣٤٧	الثورة في النيا	٣٣٨	معركة بئر عتير
٣٤٨	الثورة في أطنج	٣٣٩	تجدد الثورة بين قنا وجرجا
٣٤٩	حركات الجبال ديزيه	٣٤٢	واقعة برديس
٣٥٠	مشروع الحملة على القصير	٣٤٢	واقعة جرجا
٣٥٠	تنظيم البريد	٣٤٣	واقعة جهينة
٣٥٠	اعتقال الرهائن	٣٤٣	الثورة في بني عدى
٣٥١	واقعة أسوان	٣٤٣	رواية الجبرتي عن ثورة بني عدى
٣٥٢	احتلال القصير	٣٤٦	في النيا وبني سوف
٣٥٣	الحالة النفسية للشعب	٣٤٦	

## الفصل الثامن عشر

### وثائق تاريخية

٣٥٥

وثيقة رقم ١ - أعضاء لجنة العلوم والفنون الذين استصحبهم نابليون في مصر - ٣٥٥  
إحصائهم وبيان أسمائهم

وثيقة رقم ٢ - شكر (الديوان) للسيولوير كبير المهندسين على تعمير مقياس الروضة ٣٥٩

وثيقة رقم ٣ - رسالة نابليون إلى أبي بكر باشا وإلى مصر قبل رسو المارة الفرنسية  
بالإسكندرية ٣٦٠

وثيقة رقم ٤ - رسالة نابليون إلى إدرس بك قومندان السفينة التركية في الإسكندرية ٣٦١

وثيقة رقم ٥ - منشور نابليون إلى الجنود قبل رسو المارة الفرنسية ٣٦١

وثيقة رقم ٦ - خطبة نابليون في الاحتفال بعيد الجمهورية الفرنسية ٣٦٤

وثيقة رقم ٧ - واقعة المنصورة ٣٦٥

## الفصل التاسع عشر

### مراجع البحث

٣٦٨

٣٦٨ | رحلات الإفرنج عن نظام الحكم في عهد المماليك

صفحة	صفحة	
٣٧٧	٣٧١	عهد الحملة الفرنسية
٣٧٧	٣٧١	ترجمة كتابه وثائق الجبرتي
٣٧٨	٣٧١	الجبرتي وتاريخه
٣٨٢	٣٧١	أسلوب الجبرتي ولقته
		مؤلفات جامعة مستندة إلى الوثائق الرسمية وروايات شهود البيان عن اللة
٣٨٧		التي انقضت بعد جلاء الفرنسيين إلى إسناد ولاية مصر إلى محمد علي باشا
٣٩٨	٣٨٨	كلية شكر
	٣٨٩	فهرست الخرائط والرسوم

## فهرس الخرائط والرسوم

٢٥٦	١٠١	دار المجمع العلمى بالقاهرة سنة ١٧٩٨
٢٨٢		سراى قاسم بك بالناصرية حيث كان
٣٠٤	١٠٢	يسكن أعضاء لجنة المعارف والفنون
٣٠٥		الإسكندرية — الميناء الشرقية سنة ١٧٩٨
٣٠٧	١٤٠	خريطة الإسكندرية سنة ١٧٩٨ مقابل ١٤٦
٣١٦		السيد محمد كرم حاكم الإسكندرية
٣٢٣	١٦١	الوطنى حين مجيء الحملة الفرنسية
٣٢٧	١٦٦	خريطة معركة شبراخيت
٣٤١	١٨١	قصر مراد بك فى الجزيرة
	١٨٣	خريطة واقعة إمبابية أو معركة الأهرام
	١٩٢	خريطة واقعة (أبو قير) البحرية
٣٦٢		إضرام الفرنسيين النار فى (السالية)
	٢٠٤	سنة ١٧٩٨
		خريطة القاهرة سنة ١٧٩٨ — ١٨٠١
٣٦٣		ميدان الأوبكية فى أواخر القرن الثامن عشر



# للمؤلف

## حقوق الشعب

كتاب وضعناه سنة ١٩١٢ ، يتضمن شرح المبادئ والنظريات والقواعد الدستورية وحقوق الإنسان ، في قالب محاضرات لتعليم الشعب حقوقه

## نقابات التعاون الزراعية

كتاب بسطنا فيه تاريخ التعاون الزراعي ومنشأته ونظمه في أوروبا ، والتمرات التي عادت منه على البلاد الأوروبية ، وتناولنا فيه نشأة التعاون في مصر وتاريخه ونظمه ونهايته ومنشأته ومضاهيه ، وعلاقته بالهضة الاقتصادية والاجتماعية . طبع ١٩١٤

## كتاب الجمعيات الوطنية

يتضمن تاريخ الانقلابات السياسية والهنات القومية في طائفة من البلدان ، مع شرح أصول الدساتير والنظم البرلمانية فيها ، والمقارنة بينها . طبع سنة ١٩٢٢

## تاريخ الحركة القومية

### وتطور نظام الحكم في مصر

الجزء الأول : يتضمن ظهور الحركة القومية في تاريخ مصر الحديث ، وبيان الدور الأول من أدوارها وهو عصر المقاومة الأهلية التي اعترضت الحملة الفرنسية في مصر ، وتاريخ مصر القومي في هذا العهد

الجزء الثاني : من إعادة الديوان في عهد نابليون إلى انتهاء الحملة الفرنسية ، ومن جلاء الفرنسيين إلى ارتقاء محمد علي أريكه مصر بإرادة الشعب

### عصر محمد علي

يتناول تاريخ مصر القومي في عهد محمد علي

## عصر اسماعيل

الجزء الأول : يشتمل على عهد عباس وسعيد وأوائل عهد اسماعيل  
الجزء الثاني : وفيه ختام الكلام عن عهد اسماعيل

---

## الثورة العراقية

### والاحتلال الإنجليزي

---

## مصر والسودان

### في أوائل عهد الاحتلال

تاريخ مصر القومى من سنة ١٨٨٢ إلى سنة ١٨٩٢

---

## مصطفى كامل

### باعت الحركة الوطنية

تاريخ مصر القومى من سنة ١٨٩٢ إلى سنة ١٩٠٨

---

## محمد فريد

### رمز الإخلاص والتضحية

تاريخ مصر القومى من سنة ١٩٠٨ إلى سنة ١٩١٩

---

## ثورة سنة ١٩١٩

تاريخ مصر القومى من سنة ١٩١٤ إلى سنة ١٩٢١

الجزء الأول : يشتمل على شرح حالة مصر وحوادثها التاريخية أثناء الحرب العالمية الأولى  
(١٩١٤ - ١٩١٨) ، وبيان الأسباب السياسية والاقتصادية والاجتماعية للثورة ، وتطور

الحوادث من بعد انتهاء الحرب إلى شهبوب الثورة في مارس سنة ١٩١٩ ، ثم وقائع الثورة في القاهرة والأقاليم

الجزء الثانى : وفيه الكلام عن مهادنة الثورة ، واستمرارها . ومحاكمات الثورة . ولجنة ملر والحوادث التي لا يستها . ومفاوضات ملر . واستشارة الأمة في مشروع ملر . والتبليغ البريطانى بأن الحماية علاقة غير مرضية ، وتنتأج الثورة

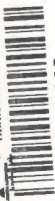
### في أعقاب الثورة المصرية

الجزء الأول : تاريخ مصر القوي من ابريل سنة ١٩٢١ إلى وفاة المنفور له « سعد زغلول » في ٢٣ أغسطس سنة ١٩٢٧





Bibliotheca Alexandrina



0632862